٢/٤٨

صفحات من تاريخ مصر

الكافى

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه
ميخائيل شاروبيم بك
رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية
والمفتش بنظارة المالية الجليلة
عفى الله عنه

الجزء الثانى

عن الفترة من
٦٤٠ م إلى سنة ١٥١٢م
٢٠ هـ إلى سنة ٩٢٢ هـ

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب. القاهرة



هذه السلسلة تضم :

١ – فتح العرب لمصر
٢ – تاريخ مصر الى الفتح العثماني
٣ – الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
٤ – تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
٥ – تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم اسماعيل
٦ – تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
٧ – ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
٨ – تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد أول)
٩ – تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد ثاني)
١٠ – فتوح مصر وأخبارها
١١ – تاريخ مصر الحديث مع فذلكة في تاريخ مصر القديم
١٢ – قوانين الدواوين
١٣ – تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
١٤ – الحكم المصري في الشام
١٥ – تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
١٦ – آثار الزعيم سعد زغلول
١٧ – مذكراتي
١٨ – الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
١٩ – وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر البطاركة
٢٠ – الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية
٢١ – الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
٢٢ – السلطان قلاوون (تاريخه – أحوال مصر في عهده – منشآته المعمارية)
٢٣ – صفوة العصر
٢٤ – المماليك في مصر
٢٥ – تاريخ دولة المماليك في مصر
٢٦ – سلاطين بني عثمان
٢٧ – محمود فهمي النقراشي
٢٨ – دور القصر في الحياة السياسية
٢٩ – مذكرات اللورد كيلرن
٣٠ – عادات المصريين
٣١ – خنقاوات الصوفية ج ١
٣٢ – خنقاوات الصوفية ج ٢
٣٣ – تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين
٣٤ – تاريخ عمرو بن العاص
٣٥ – دور القبائل العربية في صعيد مصر
٣٦ – علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب
٣٧ – عبد الرحمن الجبرتي ٥ أجزاء
٣٨ – مصر في العصر العثماني في القرن ٦
٣٩ – خطط المقريزى ٣ أجزاء (محققة منقحة في ٢٧٥٠ صفحة)
٤٠ – صفحات من تاريخ مصر (صليب باشا سامى)
٤١ – صفحات من تاريخ مصر (سيد مرعى)
٤٢ – سلار الأمير التتري المسلم
٤٣ – مالية مصر
٤٤ – الموسيقى الشرقية
٤٥ – الدليل في موارد أعالي النيل
٤٦ – الموسيقى الشرقي
٤٧ - النخبة المصرية الحاكمة ١٩٥٢-٠
٤٨ - الكافي في تاريخ مصر- ٤ أجزاء

مكتبة مدبولى
MADBOULI BOOKSHOP
٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة – ت : ٥٧٥٦٤٢١
6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421

الكافى

فى تاريخ مصر القديم والحديث

من سنة 640 م. إلى سنة 1512م

20 هـ إلى سنة 922 هـ

الكتاب: الكافي

الكاتب: ميخائيل شاروبيم بك

الناشر: مكتبة مدبولي

ت: ٥٧٥٦٤٢١

الطبعة:

الأولى: ١٨٩٨م ـ ١٣١٥هـ

الثانية: ٢٠٠٤م ـ ١٤٢٥هـ

رقم الإيداع:

مراجعة لغوية: عبد النبي محمد

صفحات من تاريخ مصر ٢/٤٨

الكافى

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه
ميخائيل شاروبيم بك
رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية
والمفتش بنظارة المالية الجليلة
عفى الله عنه

الجزء الثانى

عن الفترة من
٦٤٠ م إلى سنة ١٥١٢م
٢٠ هـ إلى سنة ٩٢٢ هـ

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة

المحتويات

(المقالة السادسة)

فى كيفية ظهور الخلافة العباسية بالقاهرة بعد موت الخليفة المستعصم بالله وفيها فصول:



بسم الله الرحمن الرحيم

لما كان من الواجب معرفة بعض شيء من أخبار العرب في الجاهلية وطباعهم وعوائدهم ونسبهم وسكناهم وغير ذلك مما يتعلق بتاريخ أيامهم قبل الإسلام تتميما للفائدة المقصودة من التاريخ ولكى لا يكون إتياننا على تاريخ دولهم بعد الإسلام قليل الفائدة فسنذكر هنا فذلكة من تاريخهم القديم نقلا عما جاءت به كبار أصحاب التاريخ من الشرقيين والغربيين لتكون مقدمة يتوصل بها القارئ إلى معرفة حوادث أيامهم فى مصر بعد الفتح.

وقد قسمنا هذا الجزء إلى ست مقالات وفى كل منها عدة فصول وبالله سبحانه الاستعانة وهو نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف



(المقالة الأولى)

(فى أخبار العرب فى الجاهلية)

وفيها فصول

الفصل الأول

(فى نسب العرب وطوائفهم)

قال المقريزى: اختلف الكتاب فى نسب العرب وأصل تسميتهم فقال جماعة: إن اسمهم اشتق من الإعراب بمعنى الإبانة لقولهم أعرب الرجل عما فى ضميره إذا أبان عنه والأصح أنهم نسبوا إلى عربة وهى من تهامة ودعى جيلهم جيل الجاهلية لما كان عليه العرب من الجهل بالله وشرائع الدين والكبر والتجبر ا.هـ.

وقد قسم المؤرخون العرب إلى ثلاثة أقسام: عاربة ومتعربة ومستعربة ، أما العاربة فهم العرب الأول الذين ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم لتقادم عهدهم وفى رواية أنهم قوم أتوا فى غابر الأزمان من الحبشة وعبروا إلى اليمن من بحر القلزم بالقرب من الموضع الذى فيه الآن عدن فاستوطنوا تلك الناحية ثم صار لهم بها مملكة ولم تزل دار ملكهم إلى أن خربت بسيل العرم، وأما العرب المتعربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان، وأما العرب المستعربة فهم ولد إسماعيل،وفى رواية أنهم من إفريقية أيضاً ولكنهم عبروا إلى الحجار من خليج العقبة وانتشروا فى البلاد حتى تاخموا العراق من جهة والشام من أخرى وخالطوا السريان والفرس واليهود ولذا كانت لغتهم إلى السريانية أقرب واختلط بها شىء من ألفاظ الفرس والعبريين أيضاً، وكان العرب العاربة شعوبا كثيرة وهم عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الأولى وقد سمى أصحاب التاريخ هذا الجيل أيضاً بالعزب البائدة يعنى الهالكة لأنه لم يبق

على وجه الأرض أحد من نسلهم قالوا وربما سموا بالعرب العاربة إما بمعنى الراسخة في العروبية كما يقال ليل أليل وصوم صائم أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت في أول أجيالها وقد استدل بعض المحققين على أصلهم الحبشي بشكل جماجمهم وما في لغتهم من ألفاظ الحبشة كتبع من أسماء ملوكهم ومعناه القوى وحمير ومعناه الأحمر.

وأما بنو عاد فقد كانت مواطنهم الأولى بأحقاف الرمل بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر وكان أبوهم عاد أول ملك من العرب وذكر المسعودي أن الذي ملك منهم بعد عاد شداد وهو الذي سار في الممالك واستولى على كثير من بلاد الشام والهند والعراق ولما اتصل ملك عاد وعظم طغيانهم وعتوهم وانتحلوا عبادة الأصنام والأوثان أبادهم الله وهلكوا عن آخرهم .

وأما ثمود فكانت ديارهم بالحجر ووادي القرى فيما بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال فكانوا أهل كفر وبغى فأنذرهم بعض الأنبياء فلم يصيخوا إلى دعائه فهلكوا جميعا حيث كانوا من الأرض ودرجوا في الغابرين .

وأما جديس وطسم فكانت ديارهم اليمامة وهي إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها ثمارا وحدائق وقصورا وكان ملك طسم غشوما مصابرا لجديس مستذلا لهم حتى قام الأسود وقتله غيلة.

وأما جرهم الأولى فكانت ديارهم باليمن وكانوا يتكلمون بالعربية فكانوا على عهد عاد ولتقادم انقراضهم ذهبت حقائق أخبارهم وانقطعت أسباب العلم بآثارهم قال بعض المحققين: وأما جرهم الثانية فليسوا من البائدة بل هم من ولد قحطان وبهم اتصل إسماعيل بن إبراهيم .

وإنما سمى بنو قحطان الذين هم القسم الثاني بالمتعربة لنزولهم بالبادية مع العرب العاربة وتخلقهم بأخلاقهم وهم بنو قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام قال بعض أهل التاريخ: وقحطان هذا معرب يقطان وهو أول من ملك أرض اليمن ولبس التاج قبل الميلاد المسيحي بألفين وثلاثين سنة وكان بنو قحطان معاصرين لإخوانهم من العرب العاربة ومظاهرين لهم على أمورهم ولم يزالوا مجتمعين في مجالات البادية مبعدين عن رتبة الملك وترفهه الذي كان لأولئك فأصبحوا بمنجاة من الهرم الذي يلزمه الترف والنضارة فتشعبت في أرض الفضاء فصائلهم وتعددت في جوّ القفر أفخاذهم وعشائرهم ونمى عددهم وكثر إخوانهم من العمالقة في آخر جيلهم وزاحموهم بمناكبهم واستجدّوا خلق الدولة بما استأنفوه من عزهم وكانت

الدولة لبنى قحطان متصلة فيهم، قالوا: وكان يعرب بن قحطان من أعاظم ملوك العرب ويسمى أيضًا يمنا وبه سميت اليمن وهو أوّل من حياه ولده بقولهم (أبيت اللعن) و (أنعم صباحا) وقيل: إنه أول من نطق بالعربية وملك بعد يعرب ابنه يشجب وكان واهى العزيمة فاستبدّ أعمامه بما فى أيديهم من الممالك وملك من بعده ابنه عبد شمس وأكثر الغزو فى أقطار البلاد فسمى سبأ لكثرة ما سبى وكانت قاعدة ملكه مدينة صنعاء ومن مدنه مأرب على ثلاث مراحل منها.

وعظم أمر سبأ المذكور وعلت كلمته فبنى فى مأرب سدًا ما بين جبلين بالصخر والقار حقن به ماء العيون والأمطار وساق إليه سبعين واديا وترك فيه خروقا على قدر ما يحتاجون إليه فى سقيهم وهو الذى يسمى العرم ومات قبل أن يتمه فأتمه ملوك حمير من بعده وأقاموا فى جناته عن اليمين وعن الشمال ودولتهم يومئذ أوفر مما كانت وأترف وأبذخ وأعلى يدا وأظهر فلما طغوا وأعرضوا أجحفهم السيل وأغرق جناتهم وخربت أرضهم وتمزق ملكهم وصاروا أحاديث وكان هؤلاء التبابعة ملوكا عدة فى عصور متعاقبة وأحقاب متطاولة لم يضبطهم الحصر ولا تقيدت منهم الشوارد وربما كانوا يتجاوزون ملك اليمن إلى ما بعد عنهم من العراق والهند والمغرب فاختلفت لذلك أحوالهم ووقع اللبس فى نقل أخبار أيامهم ومع ذلك فسنأتى بإيراد ما صح منها على قدر الاستطاعة لعدم الوقوف على أخبارهم مدوّنة فى مؤلف واحد.

وكان لسبأ المذكور كثير من الأولاد وأشهرهم حمير وعمرو وكهلان فكانت التبابعة تعزى إلى حمير والمناذرة إلى عمرو وتنتهى الغسانية إلى كهلان، قال المسعودى: قيل لملوك اليمن تبابعة لأنه يتبع بعضهم بعضا كلما هلك واحد قام آخر ولم يسموا الملك منهم بتبع حتى يملك اليمن والشحر وحضرموت ومن لم يكن له شئ من هذا يسمى ملكاً ولا يقال له تبع ا.هـ.

قلت: وهذا خلاف ما يقوله غيره فى معنى تبع التى هى من الكلمات الحبشية وأما حمير فقد يعرف أيضا بالعرنجج وكان ظهوره قبل الميلاد المسيحى بألف وأربعمائة وثلاثين سنة وقيل هو أول من تتوّج بالذهب وأخرج ثمود من اليمن إلى الحجاز ثم ملك بعده ابنه وائل ولم يزل ملكهم على اليمن حتى مضت قرون وآل الأمر إلى شداد فغزا البلاد إلى أن بلغ أقصى المغرب وبنى المدائن والمصانع وأبقى الآثار العظيمة ثم اضطربت أحوال حمير وصار ملكهم فى طوائف إلى أن استقر فى الحارث وهو تبع الأوّل ثم فى بقية التبابعة وقد لقب الحارث بالرائش لأنه راش

الناس بالعطاء مما كان أصابه في غزواته من السلب والغنائم .

ثم ملك أبرهة ذو المنار ثم افريقش وذلك قبل الميلاد بألف وثمان وتسعين سنة وذهب بقبائل العرب إلى إفريقية وبه سميت وساق البرابرة إليها ولما افتتح المغرب وسمع رطانتهم قال ما أكثر بربرتهم فسموا البرابرة ثم ملك بعد إفريقش أخوه عمرو ذو الأذعار ولم يحسن السيرة في الرعية ولم يعبأ بوصاية أبيه أبرهة وكان أنشده عند وفاته .

يا عمرو إنك ما جهلت وصيتي	إياك فاحفظها فإنك ترشد
يا عمرو لا والله ما ساد الورى	فيما مضى إلا المعين المرفد
يا عمرو من يشرى العلا بنوا له	كرما يقال له الجواد السيد
كل امرئ يا عمرو حاصد زرعه	والزرع شيء لا محالة يحصد

ولما ذعرت حمير من جوره خلعت طاعته وقلدت الملك شرحبيل فجرى بين شرحبيل وذى الأذعار قتال شديد قتل فيه خلق كثير واستقل شرحبيل بالملك حتى مات ثم ملك بعده ابنه الهدهاد وذلك سنة خمس وستين وألف قبل الميلاد المسيحى ثم ملكت بلقيس ابنة الهدهاد وكانت على عهد سليمان عليه السلام ووفدت عليه بنفيس الهدايا وبقيت فى ملك اليمن عشرين سنة وماتت ثم قام بعدها بالملك مالك ناشر النعم لأنه قلد أعناق رعيته أطواق النعم والمنن وسار غازيا إلى المغرب فبلغ وادى الرمل فلم يجد فيه مجازا لكثرة الرمل وعبر بعض أصحابه فلم يرجعوا فأمر بصنم من نحاس نصب على شفير الوادى وكتب فى صدره بالخط المسند هذا الصنم لناشر النعم الحميرى ليس وراءه مذهب فلا يتكلف أحد ذلك فيعطب. قلت: ومن رام معرفة ما هو الوادى المذكور فليراجع ما قاله ابن خلدون فى مبدأ مقدمة تاريخه، ثم ملك بعد ناشر هذا ابنه أبو كرب شمر مرعش سمى بذلك لارتعاش كان به وهذا هو تبع الآخر وهو المشهور من ملوك التبابعة ذوى المغازي والآثار البعيدة وكان من أشد ملوك العرب نكاية بالأعداء وأبعدهم مغارا وقد حكم قبل الميلاد بمائتين وخمسين سنة. قال بعض أصحاب التاريخ: ووطئ أرض العراق وفارس وخراسان وافتتح مدائنهم وخرب مدينة الصغد وراء جيحون فقالت العجم شمركند (أى شمر خرب) يعني خرب البلاد وبنى مدينة هنالك فسميت باسمه هذا وعرّبته العرب فصار سمرقند وشخص من اليمن غازيا ومر بالحيرة فتحير عسكره ثم رجع إلى اليمن وهابه الملوك وهادنوه وأخذ بدين اليهودية بإغراء بعض أحبار اليهود من بنى قريظة

ثم عاد إلى غزو بلاد فارس فوطأ المسالك وذللها وعمد إلى الصين. قال النويرى: وكان لملك الصين فى ذلك الزمان وزير شديد البأس سامى الهمة فلما بلغه مسير ملك اليمن جدع أنفه ولحق بأبى كرب وسعى إليه بأمره وشكى من ملك الصين وتظاهر أنه يدل أبا كرب على خلل يمكنه من الفرصة فى إلقاء بلادهم بالقياد وفتحها فسر به تبع وبالغ فى إكرامه وأصاخ لقوله فنهض الوزير بجيشه وهو يقدمهم حتى انتهى بهم إلى أرض مسبخة فتوغلوا فى فلوات سحيقة لا ماء فيها فأجهدهم العطش فماتوا. ا.هـ.

ثم قام بعده ابنه أبو مالك وهلك فى بعض غزواته وتعاقبت الملوك على اليمن دهرا طويلاً حتى ملك عمرو بن عامر الأزدى وقيل له مزيقيا لأنه كان يلبس كل يوم حلة فإذا أراد الدخول إلى مجلسه رمى بها فمزقت لئلا يجد أحد فيها ما يلبسه وقيل: إنه على عهده كان سيل العرم أى بعد الميلاد بثلثمائة سنة وستين اثنتين فانفجرت مياه سدّ مأرب فاحتمل السيل أنعامهم وخرّب ديارهم فتفرقت القبائل المجاورة له أيدى سبأ.

ولم تزل تتوالى الملوك على حمير حتى آل الملك فى سنة ثمانين وأربعمائة ميلادية إلى ذى نواس واتفق أهل الأخبار كلهم على أن ذا نواس هو ابن تبان أسعد واسمه زرعة وأنه لما تغلب على ملك آبائه التبابعة سمي يوسف وتعصب لدين اليهودية وحمل عليه قبائل اليمن فاستجمعت معه حمير على ذلك وأراد أن يكون أهل نجران عليها أيضاً وكانوا من بين العرب يدينون بالنصرانية ولهم فضل فى الدين واستقامة ولهم رأس يقال له عبد الله بن تامر، وكان هذا الدين وقع إليهم قديماً من بقية أصحاب الحواريين من رجل سقط لهم من ملك التبابعة يقال له (فيمون) وكان رجلاً صالحاً ورعاً مجتهداً فى العبادة مجاب الدعوة وظهرت على يديه الكرامات فى شفاء المرضى، وكان يطلب الخفاء عن الناس جهده، وكان لا يأكل إلا من كسب يده ويعظم يوم الأحد فلا يعمل فيه شيئاً ففطن لشأنه رجل من أهل الشام اسمه صالح فلزمه وخرجا فارين بأنفسهما حتى وصلا بلاد العرب فاختطفتهما سيارة فباعوهما بنجران وأهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة لهم طويلة ويعلقون عليها فى الأعياد من حليهم وملابسهم ويعكفون عليها أياماً وكان قد ابتاع (فيمون) رجل من أشرافهم وابتاع صالحاً آخر فكان فيمون إذا قام فى الليل فى بيت له أسكنه إياه سيده استسرج له البيت فوراً وهو فى غير مصباح حتى يصبح الصباح فأعجب سيده ما رأى منه فسأله عن دينه فأخبره به. وقال له: إنما أنتم على باطل وهذه الشجرة لا

تضر ولا تنفع ولو دعوت عليها إلهى الذى أعبده لأهلكها وهو وحده لا ند له.
فقال له سيده: افعل فإنك إذا فعلت هذا دخلنا فى دينك وتركنا ما نحن عليه. قال الراوى: فدعا فيمون فأرسل الله ريحاً فقلعت النخلة من أصلها وأطبق أهل نجران على أتباع دين المسيح، فانتشرت من ذلك العهد النصرانية بنجران. وأما عبد الله بن تامر فكان يجلس إلى فيمون كل يوم ويسمع منه شيئاً عن المسيح حتى فقه وظهرت على يده الخوارق والمعجزات ودان الكل بدينه فسار إليهم ذو نواس بجنوده واستدعى رأسهم عبد الله بن تامر. وقال له: أفسدت علىّ أهل بلدى وخالفت دينى ودين آبائى ثم أمر به فقتل وعرض على أهل نجران القتل فلم يزدهم إلا ثباتا فى النصرانية فخدّد لهم الأخاديد وأوقد لهم نارا ثم امتحنهم فجعل يقول للرجل والمرأة، إما أن تترك دينك وإما أن نقذفك فى النار فيقول ما أنا تارك دينى لشىء فيقذف فيها فيحرق فبقيت امرأة ومعها صبى رضيع عمره سبعة أشهر فجزعت وتهيبت فقال لها الغلام يا أماه لا تنافقى فإنك على الحق ولم يتكلم من ذى قبل فاحترقت. قالوا: وقتل وأحرق ذو نواس حتى أهلك منهم فيما قال ابن إسحق عشرين ألفا أو يزيدون وأفلت منهم رجل اسمه درس، وكان من سبأ ويقال له أيضاً درس ذو ثعلبان فسلك الرمل على فرسه فأعجزهم فقدم على قيصر صاحب الروم يستنصره على ذى نواس، فلما علم القيصر حقيقة الخبر أخذ من ساعته فى التأهب لقتال ذى نواس وبعث إلى ملك الحبشة يأمره بنصره فجاءته السفن وأجاز فيها العساكر من الحبشة وأمر عليهم رجلا منهم اسمه أرياط وعهد إليه بقتلهم وسبيهم وخراب بلادهم فركبوا البحر ونزلوا ساحة اليمن فلقيهم ذو نواس فيمن معه فانهزم فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجه بفرسه إلى البحر وخاض ضحضاحه ثم أفضى به إلى غمرة فأغرقه فيها فكان آخر العهد به وانقرض بموته أمر التبابعة وذلك سنة تسع وعشرين وخمسمائة للميلاد، ووطىء من ثم أرياط اليمن بالحبشة وأذل رجالات حمير وهدم حصون الملك ثم انتقض على أرياط أبرهة أحد رؤساء جيشه وجذب معه رعاع الحبشة وغطاريفهم فاقتتلوا فحمل أرياط على أبرهة وعلا وجهه بالحربة فشرم أنفه وبذلك لقب بالأشرم وحمل أبرهة على أرياط بالسيف وعلا به رأسه فأسرع السيف فى دماغه وسقط عن جواده فمالوا حينئذ جميعاً وصاروا مع أبرهة وأقاموه ملكا.
قال أهل التاريخ: وكان أبرهة رجلا قصيرا حادرا لحيما ومداحا ذا دين فى النصرانية فبنى بصنعاء إلى جانب غمدان كنيسة محكمة العمل وسماها القليس. قال ابن إسحق: وكان القليس مربعا مستوى التربيع وجعل طوله فى السماء ستين ذراعاً وجعل بين ذلك كله حجارة تسميها أهل اليمن الجردب منقوشة مطبقة لا يدخل بين

أطباقها الإبرة، وكان له باب من نحاس يفضى إلى بيت فى جوفه طوله ثمانون ذراعا فى أربعين ذراعا معلق العمل بالساج المنقوش ومسامير الذهب والفضة وعقوده مضروبة بالفسيفساء (شجرة بين أصنافها كواكب الذهب ظاهرة) ثم يدخل من البيت إلى قبة جدرها بالفسيفساء وفيها جلب منقوشة بالذهب والفضة وفيها رخامة مما يلى مطلع الشمس من البلق مربعة تعشى عين من نظر إليها من بطن القبة تؤدّى ضوء الشمس والقمر إلى داخل القبة وكان تحت الرخامة منبر من خشب اللبخ وهو الأبنوس مفصل بالعاج ودرج المنبر من خشب الساج ملبسة ذهبا وفضة . اهـ.

وانتشر خبر بناء هذا البيت فى العرب فلما كانت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة للميلاد مات أبرهة فملك بعده ابنه يكسوم وبه كان يكنى واستفحل ملكه وعلت كلمته وأذل حمير وقبائل اليمن فقتل رجالهم واستخدم أبناءهم، ثم مات يكسوم فملك مكانه أخوه مسروق وكان طاغية جبارا ساءت سيرته وكثر عسفه، قال ابن خلدون: ولما طال البلاء من الحبشة على أهل اليمن خرج سيف ذى يزن الحميرى من الأذواء بقية ذلك السلف وعقب أولئك الملوك وذيال الدولة المفوض بالخمرد وقدم على قيصر يوستينس يستنجده على الحبشة فأبى. وقال: الحبشة على دين النصارى فرجع إلى كسرى وقدم الحيرة على النعمان بن المنذر عامل فارس على الحيرة وما يليها من أرض العرب فشكا إليه واستمهله الضمان إلى حين وفادته على كسرى ووفد معه وسأله النصر على الحبشة وشاور أهل دولته فقالوا: فى سجونك رجال حبستهم للقتل ابعثهم معهم فإن هلكوا كان الذى أردت بهم وإن ملكوا كان ملكاً ازددته على ملكك فأحصوا بثمانمائة وقدم عليهم أفضلهم وأعظمهم بيتا وأكبرهم نسباً واسمه وهزر الديلى فتواقفوا للحرب وأمر وهزر ابنه أن يناوشهم القتال فقتلوه وأحفظه ذلك. فقال أرونى ملكهم فأروه إياه على فيل عليه تاجه وبين عينيه ياقوتة حمراء فرماه بسهم فصك الياقوتة بين عينيه وتغلغل فى دماغه وتنكس عن دابته وداروا به فحمل القوم عليهم وانهزمت الحبشة فى كل وجه وفنى ملكهم فى اليمن بعد أن توارثه أربعة فى ثنتين وسبعين سنة وانصرف وهزر إلى كسرى بعد أن خلف سبأ على اليمن فى جماعة من الفرس ضمهم إليه على فريضة يؤدّيها كل عام وجعله لنظر ابن ذى يزن وأنزله بصنعاء وانفرد ابن ذى يزن بسلطانه ونزل قصر الملك وهو رأس غمدان. يقال: أن الضحاك بناه على اسم الزهرة وهو أحد البيوت السبعة الموضوعة على أسماء الكواكب وروحانيتها (وقد خرب فى خلافة عثمان) ولما استوثق لذى يزن الملك جعل يعتسف الحبشة ويقتلهم حتى إذا لم يبق إلا القليل

جعلهم خولا واتخذ منهم طوابير يسعون بين يديه بالجراب فخرج يوماً وهم يسعون بين يديه فلما انفردوا به عن الناس رموه بالحراب فقتلوه. فأرسل كسرى عاملاً على اليمن واستمرت عماله إلى أن كان آخرهم باذان فأسلم وصارت اليمن للإسلام بعد ذلك.

قال الأصفهاني: أما أخبار العرب بالعراق في الجيل الأول فلم تصل إلينا تفاصيلها وشرح حالها إلا أنه لما حدث سيل العرم تمزقت عرب اليمن من مدينة مأرب إلى العراق والشام فكانت تنوخ وقضاعة وهما حيان من أحياء الأزد من بنى كهلان ممن تمزق إلى العراق. فقال مالك بن فهم الأزدى لمالك بن القضاعى: نقيم بالبحرين ونتحالف على من ناوأنا فتحالفوا فسموا تنوخ وذلك فى أيام ملوك الطوائف فنظروا إلى العراق وعليها طائفة من ملوكها وهى شاغرة فخرجوا من البحرين وسارت الأزد إلى العراق مع مالك بن فهم الأزدى وسارت قضاعة إلى الشام مع مالك القضاعى.

وأول من تملك على تنوخ فى العراق مالك بن فهم وذلك سنة خمس وتسعين ومائة للميلاد، وكان منزله بالأنبار فبقى بها إلى أن رماه سليمة بن مالك رمية بالليل وهو لا يعرفه فلما علم أن سليمة راميه قال:

جزاني لا جزاه الله خيراً	سليمة إنه شراً جزاني
أعلمه الرماية كل يوم	فلما اشتدّ ساعده رماني

فلما قال هذين البيتين فاظ (أى مات) وهرب سليمة ثم ملك من بعد مالك جذيمة الأبرش سنة إحدى وخمسين ومائتين للميلاد، وكان ثاقب الرأى بعيد المغار شديد النكاية ظاهر الحزم وهو أوّل من غزا بالجيوش وشنّ الغارات على قبائل العرب، وكان به برص فأكبرته العرب على أن تنعته به إعظاماً له فسمته جذيمة الأبرش وجذيمة الوضاح واستولى على السواد ما بين الحيرة والأنبار وسائر القرى المجاورة لبادية العرب وكان يجبى أموالها وغزا طسما وجديسا فى منازلهما من اليمامة وفيه قال الشاعر:

أضحى جذيمة فى أشراف منزله	قد حاز ما جمعت فى عصرها عاد

وطال ملكه إلى أن أدرك ملك سابور بن أشك وكان جذيمة قد ملك معدا وبعض اليمن وغزا فى آخر عمره الشام وقتل عمر بن حسان بن أذينة والد الزباء

ملكة الطوائف فانطوت له الزباء على طلب الثأر حتى قتلته، وكان ملك جذيمة نحو ستين سنة بالتقريب . اهـ.

ولما مات جذيمة المذكور ورث الملك بعده ابن أخته عمرو بن عدى وذلك سنة ثمان وستين ومائتين للميلاد وأمه رقاش، وهو الذى اتخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب، وأول ملك يعده الحيريون فى كتبهم من ملوك عرب العراق وملوك العراق ينتسبون إليه: فلما استقرّت به السلطنة همّ بطلب الثأر من الزباء بخاله جذيمة فلما أحست الزباء بنيته تحصنت فى معقل فصارت أمنع من عقاب فعمد عمرو إلى قصير وزيره فجدع أنفه بمواطأة منه على ذلك وألحقه بالزباء يشكو ما أصابه من عمرو وأنه اتهمه بمداخلة الزباء فى أمر خاله جذيمة وقال لها: وما رأيت بعد ما فعل بى أنكى له من أن أكون معك فأكرمته وقرّبته فلما تحقق منها الوثوق به غرّها وأسلم حصنها إلى عمرو فلاحمها بالسيف وأصاب ما أصاب من المدينة وانكفأ راجعا فبقى عمرو ملكا مدة عمره منفردا بملكه مستبدّا بأمره يغزو المغازى ويفوز بالغنائم وتجبى إليه الأموال وتفد عليه الوفود ولا يدين للملوك الطوائف بالعراق حتى قدم أزدشير بن بابك فى أهل فارس أرض العراق فضبطها وقهر من كان له بها مناويا حتى حملهم على ما أراد مما يوافقهم ومما لا يوافقهم فكره كثير من تنوخ مجاورة العراق على الصغار فخرج من كان منهم من قبائل قضاعة الذين كانوا أقبلوا على مالك فى أيام ملكه فلحقوا بالشام وانضموا إلى من هناك من قضاعة فكان إذا أحدث ناس من العرب أحداثاً فى قومهم أو ضاقت معيشتهم يخرجون إلى ريف العراق وينزلون الحيرة. قال أهل التاريخ: فكان ذلك على أكثرهم هجنة وصار أهل الحيرة ثلاثة أثلاث. الثلث الأوّل تنوخ وهم من كان يسكن المظال وبيوت الشعر والوبر فى غربى الفرات ما بين الحيرة إلى الأنبار فما فوقها والثلث الثانى العباد وهم الذين سكنوا رقعة الحيرة فابتنوا بها والثلث الثالث الأخلاف، وعمرت الحيرة أيام ملك عمرو بن عدى باتخاذه إياها منزلاً وعظم شأنها إلى أن وضع فى الكوفة ونزلها عرب الإسلام.

ولما مات عمرو ملك بعده امرؤ القيس البدء وهو الأول فى كلامهم وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر وعمال الفرس. ثم ولى مكانه ابنه عمرو سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة للميلاد ثم أعقبه أوس بن قلام العمليقى خمس سنين ثم ثار به محجب أحد بنى فزان فقتله سنة ثمان وستين وثلثمائة وولى مكانه مدة ثم ولى من بعده امرؤ القيس الثانى سنة ثمان وستين وثلثمائة للميلاد ويعرف امرؤ القيس هذا

بالمنذر والمحرّق لأنه أول من عاقب بالنار وهو الذى ذكره الأسود بن يعفر فى قوله: ماذا أؤمل بعد آل محرق. ثم ملك بعده ابنه النعمان الأعور السائح صاحب الخورنق والسدير، وكـان النعمان هذا فى أيام يزدجرد فـدفع إليه ابنه بهرام ليربيـه وأمر ببناء الخورنق مـسكنا لابنه فأسكنه إياه وأحسن تربيتـه وتأديبه وجـاء بمن يلقنه الخلال من العلوم والآداب والفروسـية حتى نبغ وفاز بما رضـيه، وكان النعمـان من أشد ملوك العرب نكاية فى الأعداء وأبعدهم مغارا قد أتى الشـام مرارا كثيرة وأكثر المصائب فى أهلها وسبى وغنم، وكان ملك فـارس ينفذ معه كتيبتين من المقـاتلين الشهباء وأهل الفرس ودوس وأهلها تنوخ فكان يغزو بهمـا من لا يدين له من العرب وكان صارماً حازماً ضابطـاً لملكه قد اجتمع له من الأموال والخول والرقـيق ما لم يملكه أحد من ملوك الحيرة والحيرة يـومئذ ساحل الفرات، ولما أتى على النعمـان ثلاثون سنة تنصر على يد بعض وزرائه ثم زهـد وترك الملك ولبس المسـوح وخرج على وجـهـه فلم يوقف له على أثر، حكى عن سبب زهده أنه لما بنى الخورنق والسدير أشرف عليهما يوما فـأعجـبه مـا أوتى من الملك والسعـة ونفوذ الأمر وإقـبال الوجـوه عليه فـقال لأصحـابه: هل أوتى أحد مثل ما أوتيت أنا؟ فـقال له حكيم من حكماء أصـحابه: أهذا الذى أوتيت شىء لم يزل ولا يـزول أو شىء كان لمن قـبلك وزال عنه وصـار إليك. قال: بل شىء كان لمن قبلى زال عنه وصـار إلىّ وسيزول عنى فقال الحكيم: فسررت بشىء تذهب عنك لذته وتبـقى تبعته؟ قال فأين المهـرب؟ قال: إما أن تقيم وتعمل بطاعة الله أو تلبس أمساحاً وتلحق بجبل تعبد ربك فيه وتفرّ من الناس حتى يأتيك أجلك. قال: فـإذا فعلت ذلك فـمالى؟ قال حـياة لا تموت وشبـاب لا يهرم وصحة لا تسقم وملك جديد لا يبلى. قال: فأى خير فيما يفنى؟ والله لأطلبن عيشا لا يزول أبداً فانخلع من ملكه ولبس الأمساح وساح فى الأرض وتبعه الحكيم وصارا يسيحان ويعبدان الله تعالى حتى ماتا وفيه يقول عدىّ بن زيد:

وتفكر رب الخـورنق إذا أشـرف يوما والهـدى تفكيـر
سـره ماله وكـثرة مـا يملك والبـحر مـعـرضا والسـدير
فارعـوى قلبه وقـال فمـا غبطة حيّ إلـى الممات يصـير
ثم بعـد الفـلاح والملك والنعـمة وارتهم هنـاك القبـور
ثم صـاروا كأنهم ورق جف فـألوت به الصبـا والدبور

ولما تزهد النعـمان تولى الأمـر بعده ابـنه المنذر الأول سنة عشـرين وأربعمـائة

للميلاد وكان أهل فارس ولوا عليهم شخصا من ولد أزدشير وعدلوا عن بهرام لنشئه بين العرب وخلوّه من آداب العجم فاستنجد بهرام بالعرب فجهز المنذر لبهرام المذكور وقام يطلب له ملكه وحاصر تخت الملك فأذعن له فارس وأطاعوه واستوهب المنذر ذنوبهم من بهرام فعفا عنهم واجتمع أمره ورجع المنذر إلى بلاده واشتغل باللهو إلى أن مات سنة اثنتين وستين وأربعمائة ميلادية، فقام بالأمر بعده النعمان الثاني وكان وزيره عدّى بن زيد النصرانى وكان عدّى المذكور ورعاً فتزهد ولبس المسوح سنة تسع وستين وأربعمائة للميلاد ويروى عن سبب تزهده أنه خرج متصيدا ومعه عدّى بن زيد وزيره المذكور فمرا بشجرة فقال عدّى: أيها الملك أتدرى ما تقول هذه الشجرة؟ قال لا. قال: إنها تقول:

من رآنا فليحدّث نفسه	أنه موف على قرب زوال
فصروف الدهر لا تبقى لها	ولما تأتي به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا حولنا	يشربون الخمر بالماء الزلال
والأباريق عليها فدم	وجياد الخيل تجري بالجلال
عمروا الدهر بعيش حسن	ثم أفنى دهرهم غير عجال
عصف الدهر بهم فانقرضوا	ولذاك الدهر حال بعد حال

ثم جاوزا الشجرة فمرا بمقبرة فقال له عدى: أتدرى ما تقول هذه المقبرة؟ قال لا. قال: فإنها تقول:

أيها الركب المنجونا	على الأرض المجدّونا
كما أنتم كذا كنا	كما نحن تكونونا

فقال النعمان: قد علمت أن الشجرة والمقبرة لا يتكلمان وقد علمت أنك إنما أردت عظتى فجزاك الله عنى خيرا فما السبيل الذى تدرك به النجاة. قال: تدع عبادة الأوثان وتتنصر وتعبد الله تعالى وحده. قال وفى هذا النجاة؟ قال: نعم. قال: فترك عبادة الأوثان وتنصر حينئذ وأخذ فى العبادة والاجتهاد ثم تزهد كما تقدم فملك مكانه أخوه الأسود وهو الذى انتصر على عرب الشام وأسر عدة من ملوكهم ثم مات سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، فملك بعده أخوه المنذر الثانى سبع سنين ثم ابن أخيه فى سنة ثمان وتسعين وهو النعمان الثالث ثم استخلف أبو يعفر بن علقمة الزميلى سنة ثلاث وخمسمائة. قال أهل التاريخ: وزميل بطن من لخم ثم ملك امرؤ

القيس الثالث سنة ست وخمسمائة وامرؤ القيس هذا هو الذى غزا بكرا يوم دارة فى دارها فكانت بكر قبله تقيم أود ملوك الحيرة وتعضدهم وهو أيضاً بانى الغريب والضبر وفيهما يقول جبير بن بلوغ:

ليت شعري متى تخب بنا النا قة نحو الغريب والضبر

ولما مات امرؤ القيس الثالث قام بعده المنذر الثالث ابنه وهو ذو القرنين لضفيرتين كانتا له من شعره وأمه ماء السماء. قال الجنابى: وكان هذا لقبا لأبى عامر الأزدى لأنه كان يقيم ماله مقام القطر أى عطاء وجودا فغلب على بنيه لأنهم خلف منه وذكر أن مرة بن كلثوم قتله لخمسين سنة من ملكه وذلك سنة اثنتين وستين وخمسمائة ثم ملك من بعده الحارث بن عمرو الكندى الملقب بآكل المرار وكان شديد السلطان غزا تميما فى دارها فقتل مائة من بنى دارم يوم دارة الثانى بأخيه أسعد بن المنذر وكان ملكه ست عشرة سنة أى إلى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة للميلاد ثم ولى شقيقه قابوس أربع سنين فى زمن أنوشروان وكان فيه لين وكان ضعيفاً مهينا قتله ابن يشكر وسلبه سنة ثنتين وثمانين ثم ملك المنذر الرابع أخوه ثلاث سنين ثم النعمان الرابع أبو قابوس سنة ثنتين وثمانين وهو صاحب النابغة الذبيانى الذى بنى الغريين وتنصر أى اعتنق الديانة النصرانية.

وكان المنذر بن ماء السماء الملقب بأبى قابوس هذا قد نادمه رجلان من بنى أسد أحدهما خالد بن المضلل والآخر عمرو بن مسعود فأغضباه فى بعض المنطق فأمر بأن يحفر لكل واحد حفرة بظهر الحيرة ثم يجعلا فى تابوتين ويدفنا فى الحفرتين ففعل ذلك بهما حتى إذا أصبح سأل عنهما فأخبروه بهلاكهما فندم على ذلك وغمه جداً. وفى عمرو بن مسعود وخالد بن المضلل المذكورين يقول شاعر بنى أسد:

ياقبر بين بيوت آل محرّق جادت عليك رواعد وبروق

أما البكاء فقل عنك كثيره ولئن بكيت فللبكاء خليق

وركب المنذر حتى نظر إلى قبرهما فأمر ببناء الغريين عليهما فبنيا وجعل لنفسه يومين فى السنة يجلس فيهما عند الغريين يسمى أحدهما يوم نعيم والآخر يوم بؤس فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الإبل شوما أى سودا وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان أسود ثم يأمر به فيذبح ويغرى بدمه الغريين فلبث على هذا الحال برهة من دهره حتى مر به رجل من طىء يقال له حنظلة بن أبى عفراء كان آوى النعمان فى خبائه يوم خرج إلى الصيد وانفرد عن أصحابه بسبب

المطر فرحب به حنظلة وهو لا يعرفه وذبح له شاة فأطعمه من لحمها وسقاه لبنا فلما نظر إليه النعمان وافدا إليه ساءه ذلك جداً. وقال لـه: يا حنظلة هلا أتيت فى غير هذا اليوم؟ فقال: أبيت اللعن لم يكن لى علم بما أنت فيـه. فقال له: أبشر بقتلك. فقال له: والله لقد أتيتك زائراً ولأهلى من خيرك مـائرا فلا تكن ميرتهم قتلى. فقال لابد من ذلك فاسـأل حاجة أقـضها لك. فـقال تؤجلنى سنة أرجع فيـها إلى أهلى وأحكم من أمرهم ما أريد ثم أصير إليك فأنفذ فىَّ حكمك. فقال: ومن يتكفل بك حتى تعود؟ فنظر فى وجوه جلسائه فعرف منهم شريك بن عمرو فأنشد:

ياشـــريك يا بـن عــمـــرو	يـا أخـــا من لا أخـــا لـه
ياأخــا شــيـبــان فك الــ	ــيــوم رهنـا قـــد أنالـه
يـا أخــا كل مــصــاب	وحـيـــا من لا حــيـــا له
إن شــيــبـــان قـبـــيل	أكـــــرم الله رجـــــالـه
وأبوك الخـــيــر عــمـــرو	وشـــراحـــيل الحـمــــاله
رقـــيـــاك الـيـــوم فى المجـــ	ـــد وفى حـســن المقـــالـه

فوثب شريك. وقال: أبيت اللعن يدى بيده ودمى بدمه وأمر للطائى بخمسمائة ناقة. وقـد جعل الأجل عامـا كاملا من ذلك اليـوم إلى مثله من القابل فلمـا حال الحول وقد بقى من الأجل يوم واحد. قال النعـمان لشريك: ما أراك إلا هالكا غدا فداء لحنظلة فقال شريك:

فــإن يك صــدر هذا اليــوم ولى	فـــإن غـــدا لـناظره قـــريب

فذهب قوله مثلاً ولما أصبح النعمان وقف بـين قبرى نديميه وأمر بقتل شريك. فقال له وزراؤه: ليس لك أن تقتله حتى يستوفى يومه فـتركه النعمان. وكان يشتهى أن يقتله لينجو الطـائى فلما آذنت الشمس بالمغيب قام شـريك مجردا فى إزاره على النطع والسياف بجانبه. وكان النعمان قد أمر بقتله فلم يشعر إلا وراكب قد ظهر فإذا هو حنظلة الطائى تكفن وتحنط وجاء بنادبته فلما رآه النعـمان. قال ما الذى جاء بك وقد أفـلـت من القتل؟ قـال الوفاء: قـال: وما دعـاك إلى الوفاء؟ قـال: إن لى دينا يمنعنى من الغدر. قال: ومـا دينك؟ قال النصرانية. قال: فـأعرضها علىّ فعـرضها عليـه فتنصـر النعمـان وترك تلك السنة من ذلك اليوم وعـفا عن شـريك والطائى. وقال: ما أدرى أيكمـا أكرم وأوفى أهذا الذى نجا من السيف فـعاد إليه أم هذا الذى

ضـمنه وأنا لا أكون ألأم الثـلاثة؟ قـال الميدانـى: وتنصر مع النعـمـان أهل الحيـرة أجمعون، وبنى النعمان فى حاضرة ملكه الكنائس العظيمة ثم قتله كِسرى بن هرمز أبرويز سنة أربع وستمائة للمـيلاد وانقطع الملك عن لخم ولم يلبث أن ظهر الإسلام بعد زمان، وكان آل جفنة عمال القياصرة على عرب الشام، كما كان المناذرة آل نصر فى آخر أمرهم عمالا للأكـاسرة على عرب العراق وأصلهم من اليمن من الأزد بنى كهلان. قال أهل التاريخ: لأن الأزد لما أحست بمأرب انتقاض العرم وخشيت السيل تفرقت فتشاءم قـوم فنزلوا على ماء يقال له غسان فصيروه شربهم فـسموا غسان ثم أنزلهم ثعلبة بن عـمرو الغسانى ببادية الشـام والملوك بها من قبل القيـاصرة، وكانوا يدينون بالنصرانيـة فلما نزلت غسان بأرض الشـام. كان لها قوم من سليـح فضربوا على الغساسنة الإتاوة وكان الذى يلى جبايتها رجلا منهم اسـمه سبيط فسار لجبايتها فاستبطؤه فقصد ثعلب كبيرهم. وقال له: لتعجلن لى الإتاوة أو لآخذن أهلك وكان ثعلب خليما. فـقال: هل لك فيمن يربح عليك بالإتاوة؟ قـال: نعم. قال: عليك بأخى جذع بن عمرو وكان جذع فاتكا فأتاه سبيط وخاطبه بما خاطب به ثعلبة فخرج عليه ومعـه سيف مذهب. وقال: فيه عـوض من حقك إلى أن أجمع لك الإتاوة. قال: نعم. قال. فخذه فتناول سبيط جفن السيف واستل جذع نصله وضربه به فقيل خذ من جذع مـا أعطاك فذهبت مثلاً فـوقعت الحرب بين سليح وغسـان فأخرجت غسان سليـحا من الشام وصاروا ملوكـا واستقرّ ملك الغـساسنة أربعمائة سنـة ونيفا وكان أول ملوكهم جـفنة بن عمرو المذكور وآخـرهم جبلة بن الأيهم وهو الذى بنى مدينة جبلة بين طرابلس واللاذقـية وسماها باسمه وكان قـد أسلم فى زمن عمر بن الخطاب عند افتتاح الشام فسار إلى مكة يريد الحج بمائتين وخمسين نفرا من أصحابه فلما قرب من المدينة قلد أعناق خيله بقـلائد الفضة والذهب ووضع تاجا على رأسه فلما بـلغ عمر بن الخطاب قـدومه تلقـاه بموكب عظيم ورفع مقـامه حـتى كان يوم الطواف فبيـنما جبلة يطوف بالبيت إذ وطىء رجل من بنى فـزارة طرف إزاره فانحل عنه الإزار فغضب جبلة من ذلك ولطم الفزارى لطمة هشم بها أنفه فتعلق به الرجل وانطلق إلى عمر ودمه يسيل على وجهه وشكا إليه حاله. فقال عمر لجبلة: أنت فى خيرة إما أن يلطمك هذا الرجل كـما لطمته أو تفتدى اللطمـة منه بالمال. فقال جبلة لعمر: أفـلا يفضل عندكم ملك على سوقـة؟ قال: كلا بل كلاهمـا فى الحق سيان فغضب جبلة من ذلك وصبر إلى الليل فاجتمع بغلمانه وخرج بهم حتى لحق بالشام وارتد إلى دينه ثم سار من هناك إلى قيصر وأقام عنده فتشعبت أولاده فى تلك البلاد

وتسموا بالأرنؤد. قلت: وقد عدّ أهل النقد ما وقع من عمر في هذه الحادثة من الأسباب التي ترتب عليها شيء في الإسلام.

ومن ملوك العرب ملوك بني كندة الذين منهم امرؤ القيس الشاعر وهم من بني زيد بن كهلان. قال أصحاب التاريخ: كانت كندة قبل أن يملك حجر عليهم بغير ملك فأكل القوي منهم الضعيف حتى ملك حجر. وكان تبع حين أقبل سائرا إلى العراق استعمله عليهم فسدّد أمورهم وساسهم أحسن سياسة وانتزع من اللخميين أرضهم وبقي وحده في مملكته مطاعا لحسن سيرته إلى سنة ثلاث وخمسمائة للميلاد. ثم ملك بعده ابنه المقصور لأنه اقتصر على ملك أبيه ثم استخلفه الحارث وهذا عظم أمره وكبر شأنه حتى طرده أنوشروان وتبعته تغلب وعدة قبائل فظفروا بأمواله وبأربعين نفسا من بني حجر فقتلهم المنذر عن آخرهم وكان منهم ابنان من ولد الحارث وفي ذلك يقول امرؤ القيس:

بنو أسد قتلوا ربهم ألا كل شيء سواه جلل

ثم استنجد امرؤ القيس ببكر وتغلب على بني أسد فأنجدوه وهرب بنو أسد منهم فتبعهم فلم يظفر بهم ثم تخاذلت عنه بكر وتغلب وتطلبه المنذر بن ماء السماء فتفرقت جموع امرئ القيس خوفاً من المنذر وخاف امرؤ القيس من المنذر وصار يدخل على قبائل العرب وينتقل من أناس إلى أناس حتى قصد السموآل بن عادياء اليهودي فأكرمه وأنزله وأقام امرؤ القيس عند السموآل ما شاء الله ثم سار امرؤ القيس إلى قيصر ملك الروم مستنجدا به وأودع دروعه عند السموآل بن عادياء المذكور ومر على حماة وشيزر وقال في مسيره قصيدته المشهورة:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه والحق أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومات امرؤ القيس بعد عوده من عند قيصر عند جبل يقال له عسيب ولما علم بموته هناك قال:

أجارتنا إن الخطوب تنوب وإني مقيم ما أقام عسيب

ولما مات امرؤ القيس سار الحارث بن أبي شمر الغساني إلى السموأل وطالبه بدروع امرئ القيس وماله عنده وكانت تلك الدروع مائة. وكان الحارث قد أسر ابن السموآل فلما امتنع السموأل عن تسليم ذلك إلى الحارث. قال الحارث: إما أن تسلم

الدروع وإما قتلت ابنك. فقال السموآل: لست أخفر ذمتى فافعل ما شئت فذبح ابنه والسموأل ينظر إليه وانصرف الملك على يأس فضرب العرب به المثل فى الوفاء.

أما العرب المستعربة الذين هم القسم الثالث وهم بنو عدنان بن إسماعيل فكانوا قد نزلوا بالحجاز وتولوا سدانة الكعبة وكانت الحجاز والكنان ديار العمالقة وكان لهم ملك هناك وكانت جرهم من تلك الطبقة، وكانت ديارهم اليمن مع إخوانهم من حضرموت وأصاب اليمن قحط ففروا نحو تهامة يطلبون الماء والمرعى. قال أصحاب التاريخ: وعثروا فى طريقهم بإسماعيل مع أمه هاجر فاحتلوا أسفل مكة واقتتلوا مع العمالقة فأبادوهم ونشأ إسماعيل بين جرهم وتكلم بلغتهم وتزوّج منهم.

قلت: وهذا القول غير معوّل عليه عند جماعة من المتأخرين وتوفى لمائة وثلاثين سنة من عمره ولم يزل أمرجرهم يعظم بمكة ويستفحل حتى ولوا البيت الحرام وكانوا ولاته وحجابه وولاة الأحكام بمكة. ولما طالت ولاية جرهم استحلوا من الحرم أموراً عظاماً واستخفوا بحرمة البيت العتيق فأبادهم الله. قالوا: لأنه لما خرب سدّ مأرب سار عمرو بن عامر وقومه من بلد إلى بلد لا يطأون بلدا إلا غلبوا عليها فلما قاربوا مكة أبت جرهم أن تفسح لهم واستكبروا فى أنفسهم. وقالوا: ما نحب أن تنزلوا فتضيقوا علينا مراتعنا ومواردنا فارحلوا عنا حيث أحببتم فلا حاجة لنا بجواركم فاقتتلوا ثلاثة أيام وانهزم جرهم فلم يفلت منهم إلا الشريد فيهدر دمه وذلك سنة سبع ومائتين للميلاد، ثم تفرقت قبائل اليمن وانخزعت خزاعة بمكة فولوا أمر مكة وحجابة الكعبة وسألهم بنو إسماعيل السكنى معهم فأذنوا لهم وأقاموا عليهم لحيا وهو ربيعة بن حارثة ملكا. وكان فيهم شريفاً سيدا مطاعا وبلغ بمكة من الشرف ما لم يبلغ عربى قبله وذهب اسمه فى العرب كل مذهب وقوله فيهم دينا متبعا. قال أصحاب التاريخ: وكان أول من أطعم الحاج بمكة سنائف الإبل ولحمانها على الثريد وكسا فى تلك السنة جميع حاج العرب كل واحد بثلاثة أثواب من برود اليمن. وهو الذى بحر البحيرة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامى، وسيب السائبة، ونصب الأصنام حول الكعبة فكانت قريش والعرب تستقسم عنده بالأزلام وهو أول من غير الحنيفية دين إبراهيم.

وأقامت خزاعة ثلثمائة سنة فى سدانة البيت حتى قام قصىّ القرشىّ من بنى إسماعيل وعظم شرفه فرأى أنه أحق بالكعبة وبأمر مكة. وكانت ولاية الكعبة لأبى غبشان الخزاعى فباعها من قصى بزق خمر فقيل فيه أخسر من صفقة أبى غبشان ثم دعا قصىّ إليه رجالات قريش وأجمع لحرب خزاعة فتناجزوا وكثر القتل ثم صالحوه

على أن يحكموه الكعبة. وكان ذلك سنة سبع وخمسمائة للميلاد فصار لقصيّ لواء الحرب وحجابة البيت وتيمنت قريش برأيه وصرفوا مشورتهم إليه فى قليل الأمور وكثيرها واتخذوا دار الندوة إزاء الكعبة فكانت مجتمع الملأ من قريش فى مشاوراتهم ومعاقدهم ثم تصدّى لإطعام الحاج وفرض على قريش خراجاً يؤدونه وما زال على هذا الحال حتى مات وقام بالأمر بعده بنوه بالقيادة فى كل موسم حتى جاء الإسلام.

وكان فى الجاهلية من كبارهم وأشرافهم بيوت معلومة يشار إليها. ويقال: إن أكبرهم وأشرفهم عبد مناف من ولد قصى بن كلاب القرشى وبنوه عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ثم كانوا كذلك فى الإسلام. وكان عبد مناف يدعى عندهم أيضاً القمر والسيد والفهد واسمه المغيرة وإخوته عبد الدار وعبد العزى وكان اسمه أوّلاً عبد مناة بن كنانة بن خزيمة فأحيل إلى عبد مناف ومن أشرافهم أيضاً عبد المدان بن الريان بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة الحارثى رهط من بنى الحرث بن زياد وأهل بيته بنو قنان وأولاده أخوال بنى العباس. قالوا: وهم من أشراف العالم وأكابر الدنيا وبه يضرب المثل للرجل العظيم. فيقال أشرف من ابن عبد المدان. قال لقيط بن زرارة:

شربت الخمر حتى خلت أني ... أبو قابوس أو عبد المدان
أسير في بني عبس بن زيد ... رخيّ البال منطلق اللسان

وكان العرب يعدون البيوتات المشهورة الكبيرة المعروفة بالشرف من القبائل بعد بيت هاشم الذى تقدم ذكره فى قريش ثلاثة بيوت. وقيل سبعة أولها بيت حذيفة بن بدر الفزارى وبيت قيس وبيت آل زرارة بن عدّى الداريين وبيت تميم وبيت آل ذى الجدّين بن عبد الله بن همام وبيت شيبان وبيت بنى الذيان من بنى الحرث بن كعب بيت اليمن، وأما كندة فلا يعدّون من أهل البيوتات. وإنما كانوا ملوكاً كما تقدم أما علو شأن القرشيين فقد كان مترتباً على أن خزانة الكعبة كانت بيدهم فأثروا ثم نمت ثروتهم بالتجارة وكانوا من الدهاقين فيها فأصبح لهم بذلك ضرب من السؤدد وعلو الكلمة على باقى القبائل وزادهم مكانة أن سوق عكاظ كانت تقام ببلدهم مكة وكانت العرب تأتيها من كل صوب وحدب لا للتجارة فقط بل للمفاخرة وإثارة الحرب وإبرام الصلح وفعل ما يشجر بينها كما سيذكر ذلك مفصلا فى محله.

(الفصل الثانى)

(فى أديان العرب فى الجاهلية)

كانت العرب فى أول أمرها على غير دين مقرر حتى قدم عمرو بن لحى بصنم يقال له هبل فعكفوا على عبادته وبالغوا فى ذلك. وكان من أعظم أصنام قريش عندها فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده. وكان هبل هذا من خرز العقيق على صورة إنسان وكانت يده اليمنى مكسورة فأدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب وكانت له خزانة للقربان وسبعة قداح يضربون بها إذا مستهم الحاجة ويقولون:

إنا اختلفنا فهب السراحا   إن لم تقله فمر القداحا

وزعم قوم أن هبل هذا إنما هو صورة إبراهيم الخليل التى كسرها صاحب الشريعة الإسلامية عندما دخل الكعبة مع ما كسره من بقية الأصنام. قالوا: وكان حولها عدد كثير من صور الملائكة والأنبياء وفيهم إسماعيل نفسه وفى يده الأزلام.

ولما دخل صاحب الشريعة الإسلامية الكعبة يوم فتح مكة كان بها ثلثمائة وستون صنما. قالوا: فجعل يطوف على راحلته ويطعنها ويقول: جاء الحق وزهق الباطل فجمعت ثم أحرقت بالنار. وكان بالكعبة على يمينها حجر أسود وما زال هذا الحجر معظما فى الجاهلية والإسلام يتبرك به الناس ويقبلونه إجلالا، وقد كانت الكعبة قبل ظهور صاحب الشريعة الإسلامية بقرون بيت عبادة للعرب يعظمونه غاية التعظيم ويجلونه وفيه مصاف أصنامهم فلما ظهر الإسلام زاد هذا البيت تعظيما واعتقد جمهور المسلمين أنه قديم العهد جداً ويقال: إنه لما أهبط آدم من الجنة دعا ربه أن يأذن له فى بناء بيت يكون قبلة لصلاته ومطافا لعبادته كما كان قد عهد فى السماء من البيت المعمور الذى يقال له الضراح أيضاً. وهو مطاف الملائكة فأنزل الله عليه مثال ذلك البيت على شكل سرادق من نور وضعه فى مكة تحت البيت المعمور حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل كما جاء فى الإصطخرىّ وأمر آدم أن يطوف به ويتوجه إليه فلما مات آدم تولى ابنه ووصيه شيث بناءه من حجر وطين على ذلك الرسم ثم انطمس فى الطوفان كما هو مذكور فى كتاب الملل والنحل. فأمر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل فجددا بناءه فى موضعه وعلى رسمه ثم ما زال يشعث

فيرمم إلى أن جددت قريش بناءه على الأسس القديمة بعد ميلاد صاحب الشريعة ببضع سنين، وكان قد نصب بأسفل مكة صنم يعرف بالخلصة فكانوا يلبسونه القلائد ويعدّون له الشعير والحنطة ويصبون عليه اللبن ويذبحون له ويعلقون عليه بيض النعام وكانت لهم أصنام أخر نصبوها على السيارات من الكواكب وهى المشترى قيل إن أصل اسمه ذوشرا أى ساطع النور والزهرة وزحل والمريخ وغيرها من الثوابت.

ومن معبوداتهم أيضاً مناة واللات والعزى وكانت مناة على ساحل البحر مما يلى قديد وكانت صخرة تراق عليها دماء الذبائح ويلتمسون منها المطر فى الجدب وكانت اللات أيضاً صنما للشمس إذا مر عليها الحاج لوّثها بالسويق وقيل أصلها من (لاه) أى علا وعظم ومنه اسم الجلالة، وكان الذى اختص من العرب بعبادة اللات ثقيف. وكان بيت عبادتها فى نخلة فوجه صاحب الشريعة فى السنة التاسعة من هجرته المغيرة وأبا سفيان إلى نخلة فكسروا الصنم فحزن الثقفيون أهل الطائف لاسيما نساؤهم أشد الحزن عليه وسألوا صاحب الشريعة عند عقد الصلح أن يدع لهم اللات ولا يهدمها إلى ثلاث سنين فأبى عليهم ذلك فنزلوا إلى شهر فلم يجبهم، ويقال إن تاء اللات ليست أصلية بل هى هاء تأنيث وإنما كره البدل فيها لئلا تشبه اسم الله تعالى كما ذكر ابن درستويه، وأما مناة فكانت تعبدها هذيل وخزاعة ومنازلهما بين مكة والمدينة وقيل عبدتها الأوس والخزرج وثقيف. قاله الشهرستانى وأبو الفداء وغيرهما، وكانت صخرة عظيمة فكسرها رجل اسمه سعد فى السنة الثامنة من الهجرة وهى سنة شؤم على أصنام العرب. ويقال: إن اسم مناة مشتق من أمنى أى أراق لكثرة ما كان يراق عندها من دماء الأضاحى ومن هذا الأصل اشتق أيضاً اسم وادى منى على مقربة من مكة حيث ينحر الحجاج هديهم فى يومنا هذا، وأما العزى فكانت شجرة تعظمها قريش وبنو كنانة ويطوفون بها بعد طوافهم بالكعبة ويعكفون عندها يوماً، قال الكلبى: وكان فى كل واحدة من اللات والعزى شيطان يتكلم ويترآى للسدنة وهم الحجبة وذلك من صنيع إبليس وكيده وكان بنو حنيفة فى الجاهلية قد اتخذوا إلهاً عبدوه دهراً طويلاً ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقيل فى ذلك:

أكلت حنيفة ربها	زمن التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم	سوء العقوبة والتباعة

ومن أديانهم المجوسية والصابئية وقد نصب الصابئية بحسب تلك الآراء أصنام الذهب للشمس وأصنام الفضة للقمر ونسبوا المعادن والأقاليم للكواكب وزعموا أن

قوى الكواكب تفيض على تلك الأصنام فتتكلم وتفهم وتوحى للناس وتعلم الناس منافعهم. وكذلك قالوا فى الأشجار التى هى من قسمة تلك الكواكب إذا أفردت تلك الشجرة لذلك الكوكب وغرست له وفعل لها كذا فاضت روحانية ذلك الكوكب على تلك الشجرة فتوحى للناس وتكلمهم فى النوم، ومن مزاعمهم فى هذا المذهب أى الصابئية أن نفس الفاسق تعذب تسعة آلاف دور ثم تصير إلى رحمة الإله الأعلى وقد فرض عليهم فى اعتقادهم ثلاث صلوات أولها قبل طلوع الشمس بنصف ساعة أو أقل من ذلك بحيث ينقضى مع الطلوع ثمان ركعات فى كل ركعة ثلاث سجدات والثانية صلاة الظهر وهى خمس مثل تلك الركعات وسجداتها وتنقضى مع الزوال. والثالثة كالثانية وتنقضى مع الغروب وكان لهم أيضاً ثلاث صيامات فى السنة أولها ثلاثون يوماً . والثانى تسعة أيام. والثالث سبعة. وكانوا يكثرون من تقديم القرابين لآلهتهم ولكنهم لا يأكلون منها شيئاً. بل كانوا يحرقونها وكذلك كانوا لا يأكلون الباقلاء والثوم وبعض البقول والقطانى. قاله أبو الفرج الملطى المعروف بابن العربى وجاء أيضاً فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى. وقد اختلف أهل التاريخ فى تعيين قبلتهم التى كانوا يؤمّونها يومئذ فقال ابن العربى: إنها القطب الشمالى. وقال غيره: إنها القطب الجنوبى. وقال آخر: بل هى مكة. وقال رابع: بل كانوا يستقبلون النجم الذى إليه يصلون، قلت: ولعل الصحيح فى ذلك أنهم لم يكونوا فى أمر القبلة على سنن واحد، وكانوا يحجون على مقربة من حوران بالجزيرة وهى ما بين النهرين ويعظمون الكعبة وأهرام منف زاعمين أن الأهرام مقابر شيث وابنيه إدريس وصابئ ويزعمون أن هؤلاء وضعوا دين الصابئية فكانوا يتقربون عند تلك الأهرام بعجل أسود وديك ويحرقون شيئاً من البخور وكانوا يقولون: إنهم إنما سموا بالصابئة نسبة إلى صابئ ولد شيث المذكور والمرجح عند بعض أهل التاريخ أنهم سموا بهذا الاسم من لفظ صبأت أو صباءوت يعنى الجنود السماوية لعبادتهم إياها ويسميهم أيضاً أهل السياحة بنصارى مارى يوحنا المعمدان وهم يدّعون ذلك أيضاً ولهم ضرب من المعمودية تشبه معمودية النصارى ولذلك كان العرب الآخرون يسمونها المغتسلة. ويقال: إن هذا الدين هو أحد الأديان التى تغاضى عنها صاحب الشريعة الإسلامية بشرط أداء الجزية،ومن أديانهم اليهودية أيضاً فى حمير وكنانة وبنى الحارث بن كعب وكندة. وأما النصرانية فكانت قد انتشرت فيهم وتمكنت تمكنا. قال الفيروزابادى واجتمعت على النصرانية قبائل شتى من بطون العرب بالحيرة وهم العباد وتنصر كثير من ملوك اليمن والحيرة وكذا كان

ملوك غسان كلهم نصارى، وكانت النصرانية فى ربيعة وقضاعة وبهر وتنوخ وتغلب وبعض طيىء وكانت قريش نصبت فى جملة أصنامها فى الكعبة تمثال مريم العذراء أم عيسى المسيح مزوّقا وابنها عيسى فى حجرها قاعداً وذلك فى العمود الذى يلى باب الكعبة ولم تطمس صورتهما لما دخل صاحب الشريعة الكعبة بل بقينا إلى عهد ابن الزبير فاحترقتا فى الحريق. ذكره النويرى والأزرقى، ومن أصنامهم أيضاً إساف فى صورة رجل ونائلة فى صورة امرأة جىء بهما من الشام ووضع أحدهما فى الصفا والآخر فى المروة وزعم العرب أنهما جرهميان وأن إسافا هو ابن عمرو ونائلة بنت سهل ففجرا فى الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين. ذكره ابن الجنابى.

(الفصل الثالث)

(فى علوم العرب وآدابهم)

وكان العرب يفاخرون بعلم لسانهم وأحكام لغتهم ونظم الأشعار وتأليف الخطب وكانوا موصوفين بين الأمم بالبيان فى الكلام والفصاحة فى المنطق والذلاقة فى اللسان وكانت لهم مع ذلك معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق. وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله سبحانه شيئاً منه ولا هيأ طباعهم للعناية به. وكان الشعر ديوان خاصة العرب ومنتهى حكمتها والمنظوم من كلاهما والمقيد لأيامها والشاهد على حكامها به يأخذون وإليه يصيرون وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أوفرس تنتج. قال الصفدى: بل ما كان للعرب ما تفتخر به إلا السيف والضيف والبلاغة، وكانوا كل حول يتقاطرون إلى سوق عكاظ ويتبايعون ويتناشدون ويتفاخرون ويتعاكظون ولقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة فقيل لها مذهبات. ويقال لها أيضاً معلقات لأنها علقت فى أستار الكعبة، وكان أسلوبهم فى الخطابة مخالفا لخطباء الروم واليونان والفرس. فكانت فقراتهم مثل الجواهر المنثورة لا ارتباط لبعضها ببعض ولذا كانت أكثر ما تروّع مستمعيها بتبريزهم على غيرهم فى هذا الأسلوب فكانوا يزعمون أنه ليس فى الأمم كلها من يعرف فن الخطابة حق معرفته سوى العرب ويتلوهم الفرس.

وكانت عكاظ التى يتفاخرون بأشعارهم فى سوقها قرية بصحراء بين نخلة والطائف على ثلاث مراحل من مكة وكان لها سوق أسبوعية يوم الأحد وسوق سنوية كانت تقوم هلال ذى القعدة ويستمر موسمها عشرين يوماً تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون أى يتفاخرون ويتناشدون. قالوا: وكان من فوائدها أن العرب يتعارفون فى هذه الأسواق ويتحاربون وكانت فرسانهم إذا كانت سوق عكاظ فى الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا أن يتقنعوا حتى لا يعرفوا وإن كانت هذه السوق يؤذن فيها بالتعامل والأخذ والعطاء إلا أنه كان الغرض الأهم منها اجتماع فحول الشعراء والفصحاء والبلغاء من أهل العربية لإبداء نتائج أفكارهم وإظهار محاسن فصاحتهم وبلاغتهم ومثل عكاظ فى ذلك مثل سوق ذى المجاز خلف عرفات ولهم أسواق أخر غير هذه ولكنها كانت غاية فى المهابة والاحترام يزورهم فيها الشعراء من كل صوب وحدب فيقوم الشاعر منهم ويبرز فى الميدان وأرباب المجلس ثابتون فى أماكنهم فينشد الأشعار من قريضه وهم يصغون إلى سماعها منه ويحرصون على التقاطها من فمه بمجرد النطق بها فيحفظونها عن ظهر قلب.

وكان أول ما يبرز الشاعر يظهر بمظهر الشجاعة والحماس ويتماشى قبل أن ينشد الشعر مشية التيه والإعجاب ليتحقق من حماس بنات فكره ثم يصعد إلى مرتفع فينشد بصوت جهورى قصيدته بتمامها بدون أن يقطعها عليه أحد فتارة تكون مرتجلة بالبديهة وتارة يكون قد نظمها بالروية قبل ذلك وهيأها لينشدها فى المجمع ولكن كان الغالب على فحول شعرائهم أنهم كانوا يرتجلون الشعر بدون روية فيأتون فيه بما لا يقتدر غيرهم على الإتيان به ومنهم من كان بخلاف ذلك كما روى عن زهير بن أبى سلمى أنه كان ينظم القصيدة فى أربعة أشهر ويهذبها بنفسه فى أربعة أشهر أخرى ويعرضها على الشعراء من أصحابه فى أربعة أشهر ثالثة فلا يشهرها حتى يأتى عليها حول كامل ولذلك كانت تسمى قصائده بالحوليات ومع هذا فقد قيل إنه كان أشعر الجميع، وكان إذا فرغ الشاعر من الإنشاد أمعن الحاضرون النظر فى شعره فإما أن يستحسنوه وإما أن يعيبوه.

وكان الشاعر يجلس جلسة خطيب للاستراحة ثم يعود إلى إتمام إنشاده بهمة ونشاط ويجلى عن بنات أفكاره فرائد فيكتب فى ذلك المحفل ما يستحسن من القصائد بحروف الذهب على منسوج الحرير ولهذا بقيت شهرة المعلقات السبع محفوظة إلى هذا الحين وقد مضى عليها أجيال طويلة. وكان يجتمع بسوق عكاظ أيضاً سادات العرب وملوكهم ورؤساء قبائلهم وعرفاؤهم. وكان لمدح الشعراء

وقدحهم تأثير فى النفوس يترتب عليه كثير من الأمور الخطيرة كالخفض والرفع والإعزاز والإذلال وغير ذلك. قيل: إن الأعشى كان يأتى عكاظ فى كل سنة فمر على بنى كلاب. وكان المحلق الكلابى فقيرا خامل الذكر وله بنات لم يخطبهن أحد من الأزواج رغبة عن أبيهن لفقره. فقالت له امرأته ما يمنعك يا ابن كلاب من التعرض لهذا الشاعر والتعرف به وإكرامه فما رأيت أحدا آواه إليه وجذبه إلا وأكسبه خيرا. فقال: ويحك ما عندى إلا ناقتى. فقالت: الله يخلفها عليك فتلقاه قبل أن يسبق إليه أحد من الناس. وكان الأعشى بصيراً وله ابن يقوده فأخذ المحلق بخطام ناقة الأعشى. فقال الأعشى: من هذا الذى غلبنا على خطامنا؟ فقيل المحلق: فقال شريف كريم ثم سلمه ابنه إليه فأنزله ونحر له المحلق ناقته وأحاطت به بناته يخدمنه. فقال ما هذه الجوارى حولى؟ قال: بنات أخيك وهنّ ثمان نصيبهنّ قليل. فقال الأعشى: هل لك حاجة؟ قال المحلق: تشيد بذكرى فلعلى أشهر فتخطب بناتى فنهض الأعشى من عنده ولم يقل فيه شيئاً. فلما وافى سوق عكاظ إذ هو بمكان قد اجتمع الناس عليه فأنشد قصيدته القافية التى منها:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرّق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

فاشتهرت هذه الأبيات فى العرب وما أتت على المحلق سنة حتى زوج البنات. وكانت تضرب للنابغة الذبيانى قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ وتأتيه الشعراء فتنشده أشعارها وأوّل من أنشده الأعشى ثم أنشدته الخنساء فكان للنابغة التقدم على جميع شعراء عصره وهو من فحول الطبقة الأولى المقدمين على سائر الشعراء. قال ربعى ابن خراش: قال لنا عمر ﷺ يامعشر غطفان من الذى يقول:

أتيتك عاريا خلقا ثيابي على خوف تظن بي الظنونا

قلنا النابغة. قال: ذلك أشعر شعرائكم. وقال عمر بن المنتشر المرادى وفدنا على عبد الملك بن مروان فدخلنا عليه فقام رجل فاعتذر إليه من أمر وحلف عليه. فقال له عبد الملك: أما كنت حرياً أن تفعل ولا تعتذر؟ ثم أقبل على أهل الشام. فقال: أيكم يروى من اعتذار النابغة إلى النعمان

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

فلم يجد فيهم من يرويه فأقبل عليّ فقال أترويه؟ قلت: نعم فأنشدته القصيدة كلها. فقال: هذا أشعر العرب. وكان الشاعر المجيد يحسب فخراً لقبيلته وكانت

القبيلة إذا نبغ فيها شاعر صنعت الأطعمة وأتت القبائل فهنأتها بذلك واجتمعت النساء يضربن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس وتتباشر الرجال والولدان لأنه يكون حماية لأعراضهم وذودا عن أحسابهم وتخليدا لمآثرهم وصيانة لنسائهم وإشادة بذكرهم. ذكره ابن رشيق فى العمدة. وكان العرب إذا أتوا الموسم يضعون سلاحهم عند أهل السدانة من قريش قبل دخولهم فى السوق ومن لم يضع سلاحه عندهم عرض نفسه للقتل وكانت هذه السوق أيضاً مجمع مكارم الأخلاق كما كانت مجمع الفصاحة والفروسية فقد حكى أن عامر بن الطفيل العامرى النجدى أحد أشراف الشعراء كان ينادى مناديه فى هذه السوق هل من راحل فنحمله أو جائع فنطعمه أو خائف فنؤمنه؟ ومن شعره:

فإني وإن كنت ابن فارس عامر	وسيدها المشهور في كل موكب
فما سودتني عامر عن وراثة	أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي	أذاها وأرمى من رماها بمنكب

وكانت أيضاً هذه السوق فى أيام هذا الموسم كديوان ملوك العرب. فقد كان بعض ملوكهم يأخذ مالهم من الإتاوة والمرتبات على القبائل كل سنة بالموسم مثل جذيمة العبسى فإنه كان يأخذ الإتاوة من هوازن فى هذه السوق فإذا تأخروا هدّدهم بالحرب وكانت العرب تقيم بهذه السوق شهر شوال جميعه أو عشرين يوماً منه ثم تنتقل من تلك السوق بعد انفضاضها إلى سوق مجنة فتقيم فيها عشرين يوماً من ذى القعدة ثم تنتقل منها إلى سوق ذى المجاز فتقيم فيها إلى أيام الحج وكانت هذه السوق أيضاً من مسببات القتال بين العرب كما وقع ذلك فى الفجار الأول والفجار الثانى. روى أن سبب الفجار الأول أن بدر بن معشر الغفارى كان له مجلس يجلس فيه فى سوق عكاظ ويفتخر على الناس فبسط يوماً رجله. وقال: أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز منى فليضربها بالسيف فوثب عليه رجل من أشراف العرب فضربه بالسيف على ركبته فأدماها فاقتتلوا. وسبب الفجار الثانى أن امرأة من بنى عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فأطاف بها شاب من قريش من بنى كنانة فسألها أن تكشف عن وجهها فأبت فجلس خلفها وهى لا تشعر وعقد ذيلها بشوكة فلما قامت وانحسر ذيلها من خلفها ضحك الناس وقيل لها: قد بخلت بكشف وجهك فبان غيره فنادت يا آل عامر فثاروا بالسلاح ونادى الشاب يابنى كنانة فثاروا كذلك فقامت الحرب بين الفريقين على ساقها. ثم فجار ثالث ثم رابع قيل إن صاحب الشريعة

الإسلامية شهد هذا الفجار وهو فى الرابعة عشرة من عمره. وقد خرج مع عمومته ورمى فيه بالنبل. رواه ابن سعد.

وأما الكتابة فقد حكوا أن ثلاثة نفر من طيئ وكانوا على دين المسيح وضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فنظمه قوم من الأنبار وجاء الإسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير بضعة عشر إنساناً ولقلة القراطيس عندهم عمدوا إلى كتف الحيوان فكتبوا عليها. وكان الناس فرقتين أهل كتابة وأميون والأمى من لا يعرف الكتابة فكان اليهود والمسيحيون بالمدينة والأمّيون وهم الوثنيون بمكة.

وأما الطب عندهم فقد كانت معارفهم فيه قليلة جداً وكانت تغلب عليهم التجربة والاستقراء أو التقليد أحياناً. وكان المشهور من أطبائهم رجل يقال له لقمان ابن عاد يزعمون أن أباه عاد بن لجين بن عاد بن عوص بن اران بن سام بن نوح. وأن لقمان المذكور عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة وذلك عمر سبعة أنسر. ثم آخر من تيم الرباب اسمه ابن حزيم ويضربون به المثل بالحذاقة فى الطب فيقولون لمن أرادوا وصفه بذلك أطب من ابن حزيم وهو أطب العرب عندهم ويفضلونه على الحرث. قال أوس بن حجر:

فهل لكم فيها إلىّ فانني ... بصير بما أعيا النطاسىّ حزيما

أما الحرث المذكور فهو الحرث بن كلدة من بنى ثقيف من أهل الطائف رحل إلى أرض فارس وأخذ الطب عن أهله بجند يسابور وغيرها فى الجاهلية وطبب فى أهل فارس وحصل مالا ثم تاقت نفسه إلى الرجوع إلى بلده فرجع وقيل إنه مات سنة ثلاث عشرة للهجرة وقيل سنة عشرين مسموما، ومن أطبائهم أيضاً ابن أبى رومية التميمى. وكان معاصراً للحرث المذكور ونصر بن الحرث بن علقمة بن كلدة ابن عبد مناف بن عبد الدار بن قصىّ. كان من الجاهلية أخذ أسيرا يوم بدر فقتل وهؤلاء كانوا أشهر أطباء العرب فى الجاهلية. وقد بقى من كلامهم فى الطب ما قاله لقمان بن عاد المتقدّم: كل داء حسم بالكى ولذلك قالوا فى أمثالهم: آخر الطب الكى، وما قاله الحرث بن كندة أيضاً: من سره البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء وليخفف الرداء وليقل من غشيان النساء. قال بعضهم: يريد بخفة الرداء أن لا يكون عليه دين ومن أنواع معالجتهم أيضاً معالجة الأحول بإدامة النظر إلى حجر الرحى فى حال دورانها يزعمون أن العين تستقيم به ويعالجون الخدر وهو التشنج الذى يعترى الأعضاء فلا تطيق الحركة بأن يدعو صاحبه أحب الناس إليه. قال بعضهم: وعليه قول بعضهم يخاطب محبوبته:

رآني الله ياسلمى حياتي | وفي يوم الحساب كما أراك
إلى كم تهجرين فتىً معنًّى | إذا خدرت له رجل دعاك

فلما جاء الإسلام اتسع نطاق الطب وعلت منزلته وتعلمه الكثير من العرب عن علماء النصرانية واليهودية والفارسية ونبغوا فيه وتفشى بينهم.

وأما السيف والفروسية فقد كانوا غاية فى التمرن عليهما والندب إليهما وذلك لكثرة ما كان يشجر بينهم وكانوا يقولون: إن الله ميزهم بأربعة أبدلهم العمائم من التيجان والخيام من الدور والجدران والسيوف من الخنادق والشعر من كتب الشرائع ولم يكن لهم فى الجاهلية لعلم العروض قانون يضبط قواعده ويقرر أحواله وإنما تم لهم ذلك بعد ظهور صاحب الشريعة الإسلامية ببضع سنين أى حينما ظهر الخليل بن أحمد الفراهيدى فى خلافة الرشيد العباسى ودوّن أصول العروض. روى الصفدى أن عروضياً بمصر يدعى أبا جعفر جلس يوماً عند مقياس النيل فى سنة لم يرتفع الماء فيها كعادته وكان لذلك يخشى القحط فيها فأخذ ذلك العروضى يقطع بيت شعر على تفاعيله فمر به رجل لم يفهم قصده من هذا التقطيع فظن أنه يتلو سحرا على الماء حتى لا يرتفع فقذفه فى النيل فغرق.

(الفصل الرابع)

(فيما كانت عليه قريش قبل الإسلام)

اجتمعت كلمة جماعة من أصحاب التاريخ على أن قريشاً فى الجاهلية اختصوا بكثير من المزايا منها أن اللسان العربى العذب الفصيح الذى نطقت به فحول الخطباء والشعراء هو لسان قريش ومنها أنهم كانوا سكان بيت الله الحرام. ولذلك كانوا دائماً آمنين فى امتيارهم وتنقلاتهم فى رحلتى الشتاء والصيف والناس يتخطفون من حولهم فإذا عرض لهم عارض. قالوا: نحن أهل حرم الله فلا يتعرض لهم أحد. وكان هاشم يؤلف إلى الشام وعبد شمس إلى الحبشة والمطلب إلى اليمن. ونوفل إلى فارس فكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بحبال هؤلاء الأربعة الإخوة ولا يتعرّض لهم أحد. وكان كل أخ منهم قد أخذ حبلاً من ملك ناحية سفره أماناً له كالإجارة. وكانت قبائل قريش قبل ظهور قصى بن كلاب متفرقة فى البوادى فجمعها وأسكنها الحرم وكانت تدعى قبل هذا التجميع النضر بن كنانة فلما جمعهم وأسكنهم فى البيت سموا قريشا من التقريش وهو التجميع، وقال بعضهم: إنما

سميت قريش قريشا لدابة فى البحر هى أعظم دواب البحر خطرا لا تظفر بشىء من دواب البحر إلا أكلته فسميت قريش قريشاً لأنها أعظم العرب فعالا وأعزهم جانبا.

قال بعض أصحاب التاريخ: وأوّل دار بنيت بمكة دار الندوة وتسمى دار المنتدى بناها قصى لتكون مجلس القوم نهارا يجلسون فيها للمشاورة فى الأمور المهمة فلم يكن لهم أمر منهم إلا اجتمعوا فيها وقصى هو الذى بنى المسجد الحرام بأشراف المزدلفة وكان يسرج عليه أيام الحج فسمى مشعرا وأمروا بالوقوف عنده وتم لقريش فى ذلك العهد أن صارت لهم الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة. قالوا: فالحجابة هى سدانة البيت الحرام أى تولية مفتاح بيت الله، والسقاية سقى الحاج كلهم الماء العذب. وكان نادراً بمكة يجلب إليها من الخارج لسقاية الحاج بل وينتبذ لهم التمر والزبيب للشراب أيضاً، وأما الرفادة فهى إطعام الطعام لسائر الحجاج فكانت تمدّ لهم الأسمطة فى أيام الحج، وأما الندوة فهى المشورة فكان يجتمع فيها من قريش وغيرهم من العرب من أهل الرياسة من بلغ فى العمر أربعين سنة ولا يعقد عقد نكاح لقرشى إلا فيها، وأما اللواء فراية معقودة على رمح ينصبونه علامة على اجتماع الجيش لحرب الأعداء فيجتمعون تحت هذه الراية ويقاتلون عندها، والقيادة إمارة الجيش ورياسة الحرب، قيل كانت هذه المناصب كلها لقريش وانتهت إلى عشرة أبطن منها وبقيت لهم فى الإسلام أيضاً. والعشرة الأبطن هم هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم قالوا: فكان من بنى هاشم العباسيون وعبد المطلب يسقى الحجيج ويبقى له ذلك فى الإسلام ومن بنى أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش وكانت إذا حفظت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب فإن اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب. وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدّموه، ومن بنى نوفل الحرث بن عامر وكانت إليه الرفادة وهى ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج، ومن بنى عبد الدار عثمان بن طلحة له اللواء والسدانة أى خدمة الكعبة مع الحجابة. ويقال: والندوة أيضاً فى بنى عبد الدار، ومن بنى أسد يزيد بن زمعة بن الأسود وكانت إليه المشورة وذلك أن رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمرحتى يعرضوه عليه. فإن وافقه ولاهم عليه وإلا تخيروا وكانوا له أعواناً واستشهد يزيد المذكور وهو مع صاحب الشريعة بالطائف، وكان من بنى تيم أبو بكر الصديق، وكانت إليه فى الجاهلية الأشناق. وهى الديات والمغرم وكان إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشا صدّقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه، ومن بنى مخزوم

خالد بن الوليد وكانت له القبة والأعنة. فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش فى الحرب، ومن بنى عدى عمر بن الخطاب وكانت إليه السفارة فى الجاهلية وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم حرب بعثوه سفيراً وإن نافرهم فى المفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به، ومن بنى جمح صفوان بن أمية وكانت إليه الأيسار والأزلام فكان لا يسبق بأمر عام حتى يكون هو الذى تيسيره على يديه، ومن بنى سهم الحرث بن قيس . وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التى سموها لأصنامهم. قالوا: فهذه الوظائف كلها كانت فى قريش على النحو المذكور.

وكان لبنى هاشم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر فأما حلوان النفر فلكون العرب لم يكونوا ليرضوا فى الجاهلية أن يتملك عليهم ملك فإذا حدثت لهم حرب مع أحد أقرعوا بين أهل الرياسة فمن خرجت عليه القرعة أحضروه صغيراً كان أو كبيراً وأمروه بالنفر للحرب، وكان للعرب جميعاً فى الجاهلية كثير من العوائد والأوابد. وكانوا ينزلونها منزلة عظمى ويتنافسون فى تعظيمها فمنها البحيرة والسائبة والوصيلة والحام والخمر والميسر والأنصاب والأزلام ووأد البنات والرفادة فى الحج (أما البحيرة) فهى ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن، وكان الأخير ذكرا بحروا أذنها أى شقوها وامتنعوا عن ذكاتها ولا تمنع من ماء ولا مرعى (وأما السائبة) فهى أن الرجل إذا أعتق عبدا. قال: هو سائبة فلا يبقى بينهما عقد ولا ميراث (وأما الوصيلة) فتكون فى الغنم فإذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم وإن ولدت ذكراً جعلوه لأصنامهم فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلا يذبحون الذكر لآلهتهم (وأما الحام) فهو الذكر من الإبل كان إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن. قالوا: حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى (وأما الخمر) فهو ما خامر العقل ومنه سميت الخمر خمراً. وكان باعة الخمر فى الجاهلية ينصبون رايات ليعرف مكانهم بها ويسمونها الغاية. وكان العرب يفتخرون بشربها وبالمقامرة أيضاً لأنها من دلائل الجود عندهم وقد بلغ تنافسهم فى شرب الخمر درجة يستدل عليها بما فعله أبو غبشان من بيع مفاتيح الكعبة بزق خمر كما تقدّم بيان ذلك فى محله وما زالت هذه العوائد مرعية بينهم مألوفة فى مذهبهم حتى ظهر صاحب الشريعة الإسلامية محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب القرشى. وكان من أمر تحريمها والنهى عنها ما لا موضع لذكره هنا الآن.

(المقالة الثانية)

(فيما كان بظهور الإسلام وفيه فصول)

(الفصل الأول)

(فى ظهور صاحب الشريعة الإسلامية)

قال أهل التاريخ وابن اسحق عن قيس بن مخرمة وقفاث بن أثيم وابن عباس: إن صاحب الشريعة الإسلامية ولد عام الفيل . وقال ابن الكلبى ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ لاربع وعشرين سنة مضت من سلطان كسرى أنو شروان وولد رسول الله ﷺ سنة اثنين وأربعين من سلطانه وأرسله الله لمضى اثنين وعشرين من ملك كسرى ابرويز بن كسرى هرمز بن كسرى أنو شروان وهاجر لاثنتين وثلاثين مضت من ملك ابرويز، وقال ابن إسحق: ولد رسول الله ﷺ فى يوم الاثنين لاثنى عشر ليلة مضت من ربيع الأول وكان مولده بالدار التى تعرف بدار ابن يوسف، قيل: إن رسول الله ﷺ وهبها عقيل بن أبى طالب فلم تزل فى يده حتى توفى فباعها ولده من محمد بن يوسف أخى الحجاج فبنى داره التى يقال لها دار ابن يوسف وأدخل ذلك البيت فى الدار حتى أخرجته الخيزران فجعلته مسجداً يصلي فيه. وقيل: ولد لعشر خلون منه وقيل لليلتين خلتا منا.

وأول من أرضع صاحب الشريعة ثويبة مولاة أبى لهب بلبن ابن يقال له مسروح وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى فكانت ثويبة تأتى صاحب الشريعة بمكة قبل أن يهاجر فيكرمها

وتكرمها خديجة فأرسلت إلى أبى لهب أن يبيعها إياها لتعتقها فأبى فلما هاجر صاحب الشريعة إلى المدينة أعتقها أبو لهب. قال: ثم أرضعت صاحب الشريعة بعد ثويبة المذكورة حليمة بنت أبى ذؤيب واسمه عبد الله بن الحرث بن شجنة من بنى سعد بن بكر بن هوزان واسم زوجها الحرث بن عبد العزى واسم إخوته ﷺ من الرضاعة عبد الله وأنيسة وخذامة وهى الشيماء عرفت بذلك وكانت الشيماء تحضنه مع أمه حليمة وردته حليمة إلى أمه وجده عبد المطلب وعمره خمس سنين فى قول اهـ.

قال ابن إسحق هلك عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ وأم رسول الله ﷺ آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة حامل به. وقال ابن هشام توفى عبد الله أبو رسول الله بعد ما أتى على رسول الله ثمانية وعشرون يوماً. وقال الواقدى: ثبت عندنا أن عبد الله بن عبد المطلب أقبل من الشام فى عير لقريش ونزل بالمدينة وهو مريض فأقام بها حتى توفى ودفن فى دار النابغة الصغرى. وقال ابن إسحق وتوفيت آمنة وله ﷺ ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة وكانت قدمت به المدينة على أخواله من بنى النجار تزورهم فماتت وهى راجعة، وقيل: إن عبد المطلب زار أخواله من بنى النجار وحمل معه آمنة وصاحب الشريعة فلما رجع توفيت بمكة ودفنت فى شعب أبى ذر فى قيل والأول أصح. ولما سارت قريش إلى أحد يعنى إلى حرب أحد وقلوبهم تلتهب غيظاً من صاحب الشريعة وهم فى أشد ما يكون من النكاية به هموا باستخراج آمنة من قبرها يعنى بنبشه فقال بعضهم ان النساء عورة وربما أصاب محمد من نسائكم فكفوا بهذا القول وقال ابن إسحق وتوفى عبد المطلب ورسول الله ﷺ ابن ثمان سنين وقيل: ابن عشر سنين اهـ. ولما مات عبد المطلب صار صاحب الشريعة فى حجر عمه أبى طالب بوصية من عبد المطلب إليه بذلك لما كان يرى من بره به وشفقته وحنوه عليه.

وأما نسبه وأخبار آبائه وأجداده فهو محمد بن عبد الله ويكنى عبد الله أبو قثم وقيل محمد وقيل أحمد بن عبد المطلب وكان عبد الله أصغر ولد أبيه فكان عبد الله وأبو طالب واسمه عبد مناف والزبير وعبد الكعبة وعاتكة وأميمة وبرة ولد عبد المطلب أمهم جميعاً فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم بن يقظة وكان عبد المطلب نذر حين لقى من قريش العنت فى حفر زمزم أنه إن ولد له عشرة نفر

وبلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة لله تعالى فلما بلغوا عشرة وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع قال يأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ففعلوا وأتوه بالقداح فدخلوا على هبل فى جوف الكعبة وكان أعظم أصنامهم وهو على بئر يجمع فيه ما يهدى إلى الكعبة وكان عند هبل سبعة قداح فى كل قدح كتاب فقدح فيه العقل إذا اختلفوا فى العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة وقدح فيه نعم للأمر إذا أرادوه يضرب به فإن خرج نعم عملوا به وقدح فيه لا فإذا أرادوا أمرا ضربوا به فإذا خرج لا لم يفعلوا ذلك الأمر وقدح بيه منكم وقدح ملصق وقدح فيه من غيركم وقدح فيه المياه إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به. وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا جارية أو يدفنوا جثة أو شكوا فى نسب أحد منهم ذهبوا به إلى هبل وبمائة درهم وجزور فأعطوها صاحب القداح الذى يضربها ثم قربوا صاحبهم الذى يريدون به ما يريدون ثم قالوا ياالهنا هذا فلان بن فلان قد أربنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه ثم يقولون لصاحب القداح: اضرب فيضرب فإن خرج عليه منكم كان وسيطا وإن خرج عليه من غيركم كان حليفاً وإن خرج عليه ملصق كان على منزلته منهم لا نسب له ولا حلف وإن خرج عليه شىء سوى هذا مما يعملون به فإن خرج نعم عملوا به وان خرج لا أخروه عامهم ذلك حتى يأتوه به مرة أخرى ينتهون فى أمورهم إلى ذلك مما خرجت به القداح.

وقال عبد المطلب لصاحب القداح اضرب على بنىّ هؤلاء بقداحهم هذه وأخبره بنذره الذى نذر وكان عبد الله أصغر بنى أبيه وأحبهم إليه فلما أخذ صاحب القداح يضرب قام عبد المطلب يدعو الله تعالى ثم ضرب صاحب القداح فخرج قدح على عبد الله فأخذ عبد المطلب بيده ثم أقبل إلى إساف ونائلة وهما الصنمان اللذان ينحر الناس عندهما فقامت قريش من أنديتها فقالوا: ما تريد؟ قال أذبحه فقالت قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه لئن فعلت هذا لا يزال الرجل منا يأتى بابنه حتى يذبحه فقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم والله لا تذبحه حتى تعذر فيه فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه وقالت له قريش وبنوه: لا تفعل وانطلق إلى كاهنة بالحجر فسلها فإن أمرتك بذبحه ذبحته وإن أمرتك بمالك وله فيه فرج قبلته فانطلقوا إليها وهى بخيبر فقص عليها عبد المطلب خبره فقالت ارجعوا اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله فرجعوا عنها ثم غدوا عليها فقالت نعم قد جاءنى الخبر فكم

الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل وكانت كذلك قالت ارجعوا إلى بلادكم وقرّبوا عشرا من الإبل واضربوا عليها وعليه بالقداح فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا عشراً حتى يرضى ربكم وإن خرجت على الإبل فانحروها فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم فخرجوا حتى أتوا مكة فلما اجتمعوا لذلك قام عبد المطلب يدعو الله ثم قرّبوا عبد الله وعشراً من الإبل فخرجت القداح على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة ثم ضربوا فخرجت القداح على الإبل فنحرت ثم تركت لا يصدّ عنها إنسان ولاسبع.

وأما تزويج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة ابنة وهب أم صاحب الشريعة فإنه لما فرغ عبدالمطلب من الإبل انصرف بابنه عبد الله وهو آخذ بيده وخرج به حتى أتى وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو سيد بنى زهرة فزوّجه ابنته آمنة بنت وهب وهى لبرة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى وبرة لأم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى وأم حبيب لبرة بنت عوف بن عبيد بن عريج بن عدى بن كعب فدخل عبد الله عليها حين أملكها مكانها فحملت بمحمد صاحب الشريعة الإسلامية، وقال الزهرى: أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمرا فمات بالمدينة وقيل بل كان بالشام فأقبل فى عير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها ودفن فى دار النابغة الجعدى وله خمس وعشرون سنة وقيل ثمان وعشرون سنة وتوفى قبل أن يولد له محمد ﷺ وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان اهـ.

وكانت وفاة عبد المطلب بعد الفيل بثمان سنين أعنى بعد حرب الفيل بثمان سنين وأوصى أبا طالب بمحمد فكان أبو طالب هو الذى قام بأمره بعد جدّه ثم إن أبا طالب خرج إلى الشام فلما أراد المسير لزمه صاحب الشريعة فرق له وأخذه معه وله يومئذ تسع سنين ثم عادا معا إلى مكة فلما بلغ الخامسة والعشرين تزوج خديجة بنت خويلد وهى يومئذ ابنة أربعين سنة وكانت أوسط نساء قريش نسبا وأكثرهن مالا وشرفا فولدت له أولاده كلهم إلا إبراهيم وهم زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم وبه كان يكنى وعبد الله والطاهر والطيب فلما بلغ الأربعين من عمره دعا الناس إلى الإسلام وأخذ ينذرهم بعذاب الله وينهاهم عما هم فيه من عبادة الأوثان.
قال ابن إسحق: وكان يذكر ذلك سرا إلى من يطمئن إليه من أهله فكان أوّل من

آمن به وصدقه من خلق الله تعالى خديجة بنت خويلد زوجته اهـ فتبعه نفر وكانوا إذا أرادوا الصلاة ذهبوا إلى الشعاب فاستخفوا فبينما سعد بن أبى وقاص وعمار وابن مسعود وخباب وسعد بن زيد يصلون فى شعب إذ اطلع عليهم نفر من المشركين منهم أبو سفيان بن حرب والأخنس بن شريق وغيرهما فسبوهم وعابوهم حتى قاتلوهم فضرب سعد رجلاً من المشركين بلحى جمل فشجه قيل فكان أول دم أريق فى الإسلام.

وقال جعفر بن عبد الله بن أبى الحكم: لما أنزل الله على رسوله ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعاً فجلس فى بيته كالمريض فأتته عماته يعدنه فقال: ما اشتكيت شيئاً ولكن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين فقلن له: فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم فإنه غير مجيبك فدعاهم ﷺ فحضروا ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين رجلاً فبادره أبو لهب وقال: هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباءة يعنى الخروج عن عبادة الأصنام، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وإن أحق من أخذك فحبسك بنو أبيك وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدّهم العرب فما رأيت أحداً جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به. قال: فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم فى ذلك المجلس اهـ.

ولبث يدعو الناس سراً ثلاث سنين ثم ظهر ونادى قومه بالإسلام. قيل فلم يبعدوا منه ولم يردوا عليه إلا بعض الرد حتى ذكر آلهتهم وعابها فلما فعل ذلك أجمعوا على خلافه وحدب عليه عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ومضى صاحب الشريعة على ما هو عليه فلما رأت قريش أنه لا يعنيهم من شئ يكرهونه وأن أبا طالب قد قام دونه ولم يسلمه لهم مشى رجال من أشرافهم إلى أبى طالب عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان صخر بن حرب وأبو البخترى بن هشام والأسود بن المطلب والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل ونبيه ومنبه ابنا الحجاج أو من مشى منهم فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فقال لهم أبو طالب قولاً جميلاً وردّهم رداً رفيقًا فانصرفوا عنه ومضى محمد لما هو عليه ثم سرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال فتضاغنوا وأكثرت قريش من ذكر محمد وما يأتيه فى كل يوم وقد تآمروا فيه ومشوا إلى أبى طالب مرة أخرى وطلبوا أن يخلى لهم عنه وإلا قاتلوا حتى يهلك

أحد الفـريقين فعظم على أبـى طالب فراق قومـه وعداوتهم له فبـعث إلى صاحب الشريعـة فأعلمه مـا قالت قـريش وقال له: أبق على نفسك وعلـىّ ولا تحملنى من الأمـر ما لا أطيق ثم إن قـريشًا اشـتدت على من فـى القبـائل من الصحـابة الذين أسلموا فوثبت كل قـبيلة على من فيها من المسلمين يعـذبونهم ويفتنونهم عن دينهم وقام أبو طالب فى بنى هاشم فدعـاهم إلى منع محمد فأجابوا إلى ذلك واجـتمعوا إليـه إلا ما كـان من أبى لهب عم صـاحب الشريعـة واشـتدّ القـوم على من أسلم فجـعلوا يحبـسونهم ويضـربونهم ويعذبونهم بالجـوع والعطش ورمضـاء مكة والنار ليفتنوهم واشتد أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب على صاحب الشريعة شدة بالغة وكذلك اشتد على المسلمين وكان عظيم التكذيب لصاحب الشريعة دائم الأذى فكان يطرح العذرة والنتن على باب محمد وكان جـاره فكان محمد يقول أىّ جوار هذا يا بنى عبد المطلب .

ولما رأى صاحب الشـريعة ما يصيب أصحـابه من البلاء وما هو فيـه من الشدة وإنه لا قبل له بمنع خصومه وقد كثروا جمع إليه المسلمين وقال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فـيها ملكاً لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فـرجاً فخرجوا جمـيعاً مهـاجرين فكانت أول هجرة فى الإسـلام فخرج عثـمان وزوجته رقـية ابنة صاحب الشريعـة معه وأبو حذيفة بن عتبـة بن ربيعة وامرأته معه سـهلة بنت سهيل والزبير بن العـوام وغيرهم ثمانيـة عشر رجلاً وقـيل أحد عشر رجـلاً وأربع نسوة. قيل: وكان سيرهم فى رجب سنة خمس من نـبوّة صاحب الشريعة قالوا وهى السنة الثانية من إظهار الدعوة فـأقاموا شعبان وشهر رمضـان وقدموا فى شوال سنة خمس المذكورة ولكن لم يدخل أحد منهم إلى مكة إلا بجوار أو مستخفياً فدخل عثمان فى جوار أبى أحيحة سعيد بن العاص بن أمية فأمن بذلك ودخل أبو حذيفة بن عتبة فى جوار أبيه ودخل عثمان بن مظعون بجـوار الوليد بن المغيرة وأقام المسلمون بعد ذلك بمكة يؤذون فلما اشتد بهم الحال رجعوا مهاجـرين إلى الحبشة ثانية فخرج جعفر بن أبى طالب وتتابع المسلمون إلى الحبشـة فكمل بها تمام اثنين وثمانين رجلاً وصاحب الشريعة مـقيم بمكة على ما هو عليه من دعوة الناس إلى الإسـلام ولم يقو الإسلام قليلاً إلا بدخول حمزة بن عبد المطلب وعـمر بن الخطاب فيه وقد اختلف الرواة فى سبب إسلامـهما ولا سيما عـمر فقال بعضهم: قـال عمر لما أسلمت أتيت باب أبى جهل بن هشام فضـربت عليه بابه فخرج إلىّ وقال: مرحـبا بابن أخى ما جاء بك؟ قلت: جئت لأخبرك أنى قد أسلمت وآمنت بمحمد ﷺ وصدقت بما جاء به قال:

فضرب الباب فى وجهى وقال قبحك الله وقبح ما جئت به.

ولما رأت قريش الإسلام يفشو ويزيد ائتمروا فى أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا بنى هاشم وبنى المطلب ولا ينكحوا إليهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم فلما فعلت قريش ذلك انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا وخرج من بني هاشم أبو لهب بن عبد المطلب إلى قريش فلقى هندًا بنت عتبة فقال: كيف رأيت نصرى اللات والعزى؟ قالت: لقد أحسنت فأقاموا على ذلك سنتين وقيل ثلاثاً حتى جهد المسلمون فكان لا يصل إلى أحد منهم شئ إلا سرا وكانوا نازلين بالشعب مع صاحب الشريعة ثم قام بعد ذلك نفر من قريش فى نقض الصحيفة وشقوها فخرج المسلمون من الشعب وبعد خروجهم بقليل مات أبو طالب فعظمت مصيبته على صاحب الشريعة واشتدت قريش بعد موته على صاحب الشريعة شدة بالغة ونالت منه حتى كان ينثر بعضهم التراب على رأسه وبعضهم كان يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي وغير ذلك من الإيذاء فلما اشتد عليه الأمر خرج ومعه زيد بن حارثة إلى ثقيف يلتمس منهم النصر فلما انتهى إليهم عمد إلى ثلاثة نفر منهم هم يومئذ سادة ثقيف وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير فدعاهم إلى الإسلام وكلمهم فى نصرته والقيام معه على من خالفه فلم ينصروه وقد سخروا به وأغروا به سفهاءهم فاجتمعوا عليه وألجئوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة وهما فيه ثم رجع السفهاء عنه وعاد هو إلى مكة فجعل يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب فلم يقم منهم أحد لنصرته .

(الفصل الثانى)

(فى هجرة صاحب الشريعة وفى غزواته وما وقع له بعد ذلك)

واشتد القوم بمكة على صاحب الشريعة وكان معه علىّ بن أبى طالب وأبو بكر الصديق وخافت قريش خروجه من مكة وما يكون من وراء ذلك فاجتمعوا فى دار

الندوة وهى دار قصىّ بن كلاب وتشاوروا فيها فتقررت القاعدة بينهم على قتله وقد علم صاحب الشريعة بذلك فخرج من مكة ولم يشعر به أحد وخرج معه أبو بكر من خوخة فى بيت أبى بكر ثم عمدا إلى غارثور فدخلاه وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع لهما بمكة نهاره ثم يأتيهما ليلاً فكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بطعامهما مساء فأقاما فى الغار ثلاثاً وجعلت قريش مائة ناقة لمن يرده عليهم فلما مضت الثلاث وسكن الناس أتاهما دليلهما وهو وثنى اسمه عبد الله بن أرقط كانوا قد استأجروه ليدلهم على الطريق ببعيريهما فركبا وأردف أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة ليخدمهما فى الطريق وساروا قاصدين المدينة فنزلوا بها وكان على قد تخلف عنهم بمكة ليؤدى الودائع لأربابها فلما أداها وافاهم إلى المدينة بعد ثلاث ولحق بهم من أسلم فلما كان بعد سبعة أشهر عقد صاحب الشريعة لعمه حمزة لواء أبيض فى ثلاثين رجلاً من المهاجرين ليتعرضوا لعير قريش فلقى أبا جهل فى ثلثمائة رجل فحجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى وكان يحمل اللواء أبو مرثد وهو أول لواء عقده ثم عاد فعقد لواء لعبيدة بن الحرث بن المطلب وكان أبيض يحمله مسطح بن أثاثة فالتقى هو والمشركون فكان بينهم الرمى دون المسابقة فجرح من الفريقين ثم عقد لواءً ثالثاً لسعد بن أبى وقاص وسيره إلى الأبواء. وكان يحمل اللواء المقداد بن الأسود وكان مسيره فى ذى القعدة وجميع من معه من المهاجرين فلم يلق حربا (جعل الواقدى هذه السرايا جميعها فى السنة الأولى من الهجرة) وجعلها ابن إسحق فى السنة الثانية فقالا على رأس اثنى عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة خرج غازيا واستخلف على المدينة سعد بن عبادة فبلغ ودّان يريد قريشاً وبنى ضمرة من كنانة وهى غزاة الأبواء بينهما ستة أميال فوادعتهم فيها بنو ضمرة ورئيسهم مخشى بن عمرو ثم رجع إلى المدينة. ولم يلق حرباً . اهـ.

وذكرابن إسحق بعد هذه الغزوة غزوة عبيدة بن الحرث ثم غزوة حمزة بن عبد المطلب وابتنى فى هذه المدينة مسجداً وداراً لسكناه فى قطعة أرض كانت قبل ذلك مربدا وقيل مقبرة وكانت فى ملك يتيمين يقال لهما: سهل وسهيل ابنا عمرو فاشتراها ﷺ منهما ثم إن المدينة كانت تسمى يثرب قبل استيطان صاحب الشريعة بها ثم سميت بالمدينة بعد استيطانه إياها.

وخرج صاحب الشريعة بعد ذلك يريد غزاة بواط فى مائتين من أصحابه فى

شهر ربيع الآخر يعنى سنة اثنتين يريد. قريشاً حتى بلغ بواط من ناحية رضوى. وكان فى عير قريش أمية بن خلف الجمحى فى مائة ومعهم ألفان وخمسمائة بعير فرجع ولم ينل منهم. وكان حامل اللواء فى هذه الغزوة سعد بن أبى وقاص. وقد كان استخلف على المدينة قبل خروجه منها سعد بن معاذ ثم غزا غزوة العشيرة من ينبع فى جمادى الأولى يريد قريشاً حين ساروا إلى الشام فلما وصل العشيرة وادع بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ورجع ثم غزا غزوة أخرى ليست من الأهمية بشيء، وزوج علىّ بن أبى طالب فاطمة فى صفر من السنة الثانية، وفى هذه السنة فى شهر رمضان منها فى سابع عشره وقيل تاسع عشره كانت غزوة بدر الكبرى وسببها قتل عمرو بن الحضرمى وإقبال أبى سفيان بن حرب فى عير لقريش عظيمة من الشام وفيها أموال كثيرة ومعها ثلاثون رجلاً أو أربعون. وقيل: قريب من سبعين رجلاً من قريش منهم مخرمة بن نوفل الزهرى وعمرو بن العاص فمات فيها كثير من قريش وانهزمت قريش شر هزيمة.

ولما كان لهذه الغزوة ذكر مشهور فى التاريخ رأيت أن ألخص خبرها هنا، خرج أبو سفيان متاجراً إلى الشام فى ألف من عير قريش فسمع به صاحب الشريعة ومن معه من الأنصار والمهاجرين ومن لاذ بهم من العرب فهموا بالخروج إليه فتحرّز وتأهب للقتال فلم ينالوا منه فانتظروا إلى أن عاد قافلا يريد مكة فكمنوا له فأعلم بذلك قريشاً واستنفرهم إلى أموالهم فأسرعوا إليه بخيلهم ورجلهم وكانوا فى نحو مائة فارس وثمانمائة راجل. وكان صاحب الشريعة فى ثلثمائة وثلاثة عشر راجلا سبعة وسبعون من المهاجرين والباقون من الأنصار فلما بلغ صاحب الشريعة وادى بدر جاءه الخبر أن العير مقبلة من جهة وقريشا مقبلة من جهة أخرى فشاور أصحابه فى أى الطائفتين يتعدى لها أوّلاً فأجمع رأيهم على ترك العير ومقابلة قريش أوّلاً فنزلوا على أدنى ماء من القوم وصف رجاله وشدّد عزائمهم ووعدهم بالنصر إن صدقوا فى القتال ثم بنى له عريش فصار عليه مع أبى بكر وجعل يناشد ربه فى النصر. فقال اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد واشتدّ المشركون على أصحاب صاحب الشريعة حتى كادوا ينالون منهم قيل فنزل صاحب الشريعة عن العريش وأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً ثم رماهم بها. وقال: شاهت الوجوه، قيل: فسمعوا صوته فانخلعت قلوبهم وخيل لهم أن الملائكة تقاتلهم فانهزموا وقتل من صناديدهم سبعون فأهينت جثثهم وأسر سبعون فافتدوا أنفسهم

بأربعة آلاف درهم إلا أبا معيط والنضر بن الحارث وكانا شديدى الأذى لصاحب الشريعة فأمر بهما فقتلا صبراً ثم أدرك أصحابه عير قريش فانتهبوها وكان خمس صاحب الشريعة منها عشرين ألف درهم فقفل إلى المدينة غانماً.

ثم كانت بعد ذلك غزوة قينقاع ثم غزوة الكدر ثم غزوة السويق ثم غزوة أُحد وكانت من أشد الغزوات. مات فيها من الفريقين خلق كثير. وكانت نساء قريش يحرّضن الرجال على اصطلاء نار الوغى ويضربن خلفهم بالدفوف وبينهنّ امرأة تقول هذه الأبيات:

نحن بنات طارق ... نمشي على النمارق

مشى القطا البوارق ... والمسك في المفارق

والدرّ في المخانق ... إن تقبلوا نعانق

ونفرش النمارق ... أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق

وكانت تقول أيضاً:

ويها بنى عبد الدار * ويها حماة الديار * ضربا بكل بتار

فكانت تندفع أبطال قريش فى ميدان القتال اندفاع الأسود الضوارى غير هيابين ولا حاسبين للموت حسابا، ثم كانت غزوة الرجيع. وقد قتل فيها كثير من المسلمين وبينهم خبيب أخذ أسيرا فبقى أياماً ثم قتلوه صبراً. ثم كانت غزوة ذات الرقاع وسميت بذلك لجبل كانت الواقعة فيه ثم غزوة بدر الثانية وتعرف أيضاً بغزوة السويق ثم غزوة الخندق وهى غزوة الأحزاب كانت فى شوّال. وكانت من الغزوات الكبيرة وذلك أن يهود بنى قريظة كان بينهم وبين صاحب الشريعة عهد أن لا يعينوا عليه أحداً ولا يشيروا عليه حرباً ويتركهم وشأنهم فخالفوا ونقضوا وحزبوا العرب لاستئصال المسلمين فاجتمع منهم خلق كثير جداً وساروا إلى المدينة فخندق المسلمون حولهم وتترسوا بالمدينة وقاتلوا. فبينما هم كذلك إذ قامت ريح عاصفة فاقتلعت خيام الأعداء فاتخذلوا ثم اختلفوا وتفرّقوا وساروا عن المدينة وتركوا متاعهم. وكان من وراء ذلك غزوة يهود بنى قريظة وموت الكثير منهم ثم غزوة بنى المصطلق من خزاعة. قال بعض أهل التاريخ: كانت هذه الغزوة بعد غزوة ذى قرد وكانت فى

شعبان من سنة ست فلما كانت سنة سبع وقد تقوّت عزيمة صاحب الشريعة وعلت كلمته بعث رسلاً من عنده إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام. فأرسل حاطب ابن أبي بلتعة إلى المقوقس بمصر وأرسل شجاع بن وهب الأسدى إلى الحرث بن أبى شمر الغسانى. وأرسل دحية إلى قيصر وأرسل سليط بن عمرو العامرىّ إلى هوذة ابن على الحنفى وبعث عبد الله بن حذافة إلى كسرى وأرسل عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى. وأرسل العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوا أخى عبد القيس. وكان لكل من هؤلاء الملوك مع الرسل المذكورين شأن لا محل له هنا. فأما المقوقس عظيم القبط بمصر فقيل أنه قبل الكتاب وأهدى إليه مع الرسول أربع جوار منهنّ مارية أمّ إبراهيم ولد صاحب الشريعة. ثم كانت غزوة خيبر سار إليها صاحب الشريعة فى ألف وأربعمائة رجل معهم مائتا فارس. وكان مسيره إليها فى المحرّم سنة سبع واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى فمضى حتى نزل بالرجيع ليحول بين أهل خيبر وغطفان لأنهم كانوا مظاهرين لهم. وكانت هذه الغزوة من الغزوات الكبرى وفتحت البلدة فى صفر من هذه السنة فلما استقرّ بها أهدت إليه زينب بنت الحرث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية مسمومة فوضعتها بين يديه فأخذ منها مضغة قيل فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور فأكل منها، قال الراوى: فقال رسول الله ﷺ إن هذه الشاة تخبرنى أنها مسمومة ثم دعا المرأة فاعترفت. فقال ما حملك على ذلك. قالت بلغت من قومى ما لم يخف عليك. فقلت إن كان نبياً فسيخبر وإن كان ملكاً استرحنا منه. قال: فتجاوز عنها. اهـ.

ومات بشر من تلك الأكلة وكان صاحب الشريعة يقول فى مرضه الذى مات به لقد وجدت الآن انقطاع أبهرى من أكلة خيبر فكان المسلمون يرون أنه مات شهيداً مع كرامة النبوة، ولم يمض على صاحب الشريعة إلا بضع سنين حتى ظهرت كلمته وعلت شهرته ونال الظفر فى أكثر مغازيه، ومنها غزوة أُحد فلما كانت السنة الثانية من هجرته خرج معتمراً إلى مكة فى ألف وأربعمائة رجل وكان مسالماً لا يريد حرباً فلما بلغ الحديبية وهى موضع بعضه فى الحل وبعضه فى الحرم أرسل إليه قريش يعلمونه أنهم لا يأذنون له فى دخول مكة أو يدخلها عنوة فجمع رجاله وأخذ عليهم يمين الطاعة وبايعوه بيعة الرضوان وعزم على مناجزة القوم بمكة فجاءه من قبلهم عروة بن مسعود كبير الثقفيين يسأله الصلح، وفى رواية أن الذى جاءه فى ذلك

سهيل بن عمرو. وأن عـروة إنما ذهب إليه أولاً يقول أنهم لا يدعونه يدخل مكة إلا عنوة أى بعد قتال، فاتفقا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين وكتبا بذلك عهدا وكان مما جاء فى العهد أن من أحب أن يدخل فى عقـد محمد دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش دخل فيه، ولما عاد عروة بن مسعود إلى قريش. قال لهم إنى جئت كسـرى وقيصر فى ملكهم فوالله مـا رأيت ملكا فى قومه مثل مـحمد فى أصحابه كان لا يتـوضأ إلا ابتدروا وضوءه ولا يصق إلا ابتدروا بـصاقه ولا يسقط من شعره شيء إلا أخـذوه تبركا. ذكره ابن الأثير وأبو الفـداء وابن هشام والقاضى عياض.

وفى ذى الحجة من السـنة أى سنة سبع اعتمر صـاحب الشريعة عمـرة القضاء وساق معه سبـعين بدنة وخرج معه المسلمون ممن كان معـه فى عمرته الأولى. فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه وتحدثت قريش أنه وأصحابه فى عسر وجهد فاصطفوا له عند دار الندوة فلما دخلهـا اضطبع بردائه فأخرج عضده الـيمنى. ثم قال: رحم الله امرأ أراهم اليوم قـوة ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصـحابه وكان بين يديه لما دخل مكة عبد الله بن رواحة آخذاً بخطام ناقته ويقول:

خلوا بـني الكفـار عن سـبـيله	خلوا فـكل الخـيـر في رسـوله
يارب إنـي مـؤمن بقـيلـه	أعـرف حق الله في مـقـوله
نحـن قـتـلناكـم على تأويـله	كـمـا قـتـلناكم عـلى تنزيـله
ضـرباً يزيل الهـام عن مـقـيله	ويـذهـب الخـليل عـن خـليـلـه

ولما كانت سنة ثمان غزا غزوة ذات السلاسل ثم غـزوة الخبط وغيرهما ثم غزوة مؤتة وكانت فى جمادى الأولى من هذه السنة وهى من الغزوات الكبرى ومؤتة قرية انحاز إليها المسلمون يوم القتـال ثم إن بنى بكر بن عبد مناة غدت على خزاعة وهم على ماء لهم بأسـفل مكة يقال له الوتير وكانت خـزاعة فى عهد صاحـب الشريعة وبكر فى عهد قريش فى صلح الحديبية وكان سبب ذلك أن رجلاً من بنى الحضرمى اسمه مالك بن عباد كان حليفاً للأسود بن رزن الديلى ثم البكرى فى الجاهلية خرج تاجراً فلمـا كان بأرض خزاعة قـتلوه فعدت خزاعـة على بنى الأسود بن رزن وهم

سلمى وكلثوم وذؤيب فقتلوهم بعرفة وكانوا من أشراف بنى بكر فبينما خزاعة وبكر على ذلك إذ جاء الإسلام واشتغل الناس به فلما كان صلح الحديبية ودخلت خزاعة فى عهد صاحب الشريعة ودخلت بكر فى عهد قريش اغتنم بنو بكر تلك الهدنة وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم بقتل بنى الأسود فخرج نوفل بن معاوية الديلى بمن تبعه من بكر حتى بيت خزاعة على ماء الوتير. وقيل: كان سبب ذلك أن رجلاً من خزاعة سمع رجلاً من بكر ينشد هجاء صاحب له فشجه فهاج الشر بينهم وثارت بكر بخزاعة حتى بيتوهم بالوتير وأعانت قريش بنى بكر على خزاعة بشىء من السلاح والدواب وقاتل معهم جماعة من قريش أيضاً مختفين قيل منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهل بن عمرو فانحازت خزاعة إلى الحرم. فقال بنو بكر: يانوفل إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك. فقال لا إله له اليوم يابنى بكر أصيبوا ثأركم فلعمرى إنكم لتسرفون فى الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه فلما نقضت بكر وقريش العهد الذى بينهم وبين صاحب الشريعة خرج عمرو بن سالم الخزاعى ثم الكعبى حتى قدم على صاحب الشريعة المدينة فوقف عليه ثم أنشد:

يارب إني ناشد محمدا … حلف أبينا وأبيه الأتلدا
فوالداً كنا وكنت الولدا … ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصراً أعتدا … وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا … أبيض مثل البدر تنمي صعدا
إن سيم خسفا وجهه تربدا … في فيلق كالبحر يجري مزبدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا … ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي في كداء رصدا … وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا … هم بيتونا بالوتير هجدا

وقتلونا ركعاً وسجداً

فقال صاحب الشريعة لقد نصرت ياعمرو بن سالم.

(الفصل الثالث)

(في فتح مكة)

تأهب صاحب الشريعة وأمر الناس بالتأهب لفتح مكة فلما شاع الخبر كتب حاطب بن أبى بلتعة كتاباً إلى قريش يعلمهم الخبر وسيره مع امرأة من مزينة اسمها كنود. وقيل مع سارة مولاة لبنى المطلب تعلمهم الخبر وسيره معها فعلم صاحب الشريعة بذلك فأرسل عليا والزبير فأدركاها وأخذا منها الكتاب وجاء به إليه فأحضر حاطبا. وقال ما حملك على هذا فقال: والله إنى مؤمن ما بدّلت ولا غيرّت ولكن لى بين أظهرهم أهل وولد وليس لى عشيرة فصانعتهم عليهم. فقال عمر دعنى أضرب عنقه فإنه قد نافق. وجاء الخبر بتأهب صاحب الشريعة لقتالهم على مكة فخافوا وخشوا العاقبة وسيروا أبا سفيان إلى صاحب الشريعة لتلافى الأمر وتجديد العهد. فلم يأذن له صاحب الشريعة فى الدخول عليه فقصد أبا بكر وعلياً فلم يلبياه فرجع إلى مكة خائبا وتجهز صاحب الشريعة يريد أخذ قريش قبل أن يتأهبوا وخرج لعشر مضين من رمضان واستخلف على المدينة أبارهم كلثوم بن حصين الغفارى فلم يصل مكة حتى بلغ جيشه عشرة آلاف. ولما رأى أهل مكة أن لاقبل لهم بمثل هذا الجيش العظيم نزلوا على حكم صاحب الشريعة ودانوا بدينه وأسلم كذلك أبو سفيان وقتل من المشركين ثمانية وعشرون رجلاً قتلهم خالد وأسلم أهل مكة كافة إلا ستة رجال وأربع نسوة كانوا أشد جرماً عند صاحب الشريعة من غيرهم وكان بعضهم قد ارتد عن الإسلام ثم قتلوا منهم ثلاثة رجال وامرأة واحدة وأسلم الباقون وفازت واحدة من النسوة بالهرب فلم يوقف لها على أثر إلا بعد حين فكان فتح مكة لعشر بقين من رمضان.

ولما فتحت مكة بعث صاحب الشريعة الزبير وأمره أن يدخل ببعض الناس من كدى قال سعد حين وجهه، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل فيه الكعبة، قال: فسمعها رجل من المهاجرين فأعلم صاحب الشريعة. فقال لعلىّ بن أبى طالب: أدركه فخذ الراية وكن أنت الذى تدخل بها وأمرخالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من الليط فى بعض الناس. وكان معه أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب. فلما وصل صاحب الشريعة إلى ذى طوى وقف على راحلته وهو معتجر بشقة برد حبرة أحمر ثم تقدّم ودخل من أذاخر بأعلاها وضربت قبته هناك.

ووقف صاحب الشريعة على باب الكعبة، وقال: يامعشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم. قالوا: خير أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء فعفا عنهم فلذلك سمى أهل مكة (الطلقاء) وطاف صاحب الشريعة بالكعبة سبعاً ودخلها وصلى فيها ثم جلس للبيعة فى الصفا وعمر بن الخطاب تحته واجتمع الناس لبيعته فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا فكانت هذه بيعة الرجال. ثم أخذ يبايع النساء فأتاه منهنّ نساء من قريش منهنّ أم هانىء بنت أبى طالب وأم حبيبة بنت العاص بن أمية وكانت عند عمرو بن عبد ودّ العامرى. وأروى بنت أبى العيص عمة عتاب بنت أسيد وأختها عاتكة بنت أبى العيص وكانت عند المطلب بن أبى وداعة السهمي وأمية بنت عفان بن أبى العاص أخت عثمان، وكانت عند سعد حليف بنى مخزوم وهند بنت عتبة، وكانت عند أبى سفيان ويسيرة بنت صفوان بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وأم حكيم بنت الحرث بن هشام، وكانت عند عكرمة بن أبى جهل وفاختة بنت الوليد بن المغيرة أخت خالد، وكانت عند صفوان بن أمية بن خلف، وريطة بنت الحجاج وكانت عند عمرو بن العاص وغيرهن وكانت هند متنكرة لصنيعها بحمزة فهى تخاف أن تؤخذ به. وقال لهنّ تبايعننى على أن لا تشركن بالله شيئاً. قالت: هند إنك والله لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال فسنؤتيكه. قال: ولا تسرقن. قالت: والله ما كنت أصيب من مال أبى سفيان إلاّ الهنة بعد الهنة. فقال أبو سفيان، وكان حاضراً أما ما مضى فأنت منه فى حل. فقال صاحب الشريعة أهند. قالت أنا هند فاعف عما سلف عفا الله عنك. قال ولا تزنين. قالت: وهل تزنى الحرّة. قال: ولا تقتلن أولادكنّ. قالت: ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم فضحك عمر. قال: ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن. قالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح. وما تأمرنا إلاّ بالرشد ومكارم الأخلاق. قال: ولا تعصيننى فى معروف. قالت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك. فقال صاحب الشريعة لعمر بايعهنّ ففعل، قال أهل التاريخ: ولما جاء وقت الظهر أمر صاحب الشريعة بلالاً أن يؤذن على ظهر الكعبة وقريش فوق الجبال. فلما أذن. وقال: أشهد أن محمداً رسول الله. قالت جويرية بنت أبى جهل: لقد أكرم الله أبى حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة. وقال خالد بن أسعد: لقد أكرم الله أبى فلم ير هذا اليوم. وقال الحارث بن هشام: ليتنى مت قبل هذا اليوم. وقال جماعة نحو هذا القول تحاملاً واستخفافاً.

(الفصل الرابع)

(فى ذكر مرض صاحب الشريعة ووفاته)

ابتدأ المرض بصاحب الشريعة فى أواخر صفر فى بيت زينب بنت جحش وكان يدور على نسائه حتى اشتد مرضه فى بيت ميمونة فجمع نساءه فأستأذنهن أن يمرّض فى بيت عائشة وبينما هو فى مرضه إذ وصلت الأخبار بظهور الأسود العنسى باليمن ومسيلمة باليمامة وطليحة فى بنى أسد وعسكر بسميراء فتأخر مسير أسامة. وكان قد عقد له لواء وأمره بالغزو قبل أن يثقل به مرضه وكذلك تأخر لخبر الأسود العنسى ومسيلمة فخرج صاحب الشريعة عاصباً رأسه من الصداع وأمر بإنفاذ جيش أسامة ولعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وخرج أسامة فضرب بالجرف المعسكر وتمهل الناس وثقل صاحب الشريعة ولم يشغله شدة مرضه عن إنفاذ الغزوة فأرسل إلى نفر من الأنصار فى أمر الأسود فأصيب الأسود فى حياة صاحب الشريعة قبل وفاته بيوم فأرسل إلى جماعة من الناس يحثهم على جهاد من عندهم من المرتدين. وقد اشتد به المرض شدة بالغة وازداد ألمه، قال ابن مسعود: نعى إلينا نبينا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر فلما دنا الفراق جمعنا فى بيت عائشة فنظر إلينا فشدد ودمعت عيناه. وقال: مرحبا بكم حياكم الله رحمكم الله آواكم الله حفظكم الله رفعكم الله وفقكم الله سلمكم الله قبلكم الله أوصيكم بتقوى الله وأوصى الله بكم واستخلفه عليكم حذركم الله إنى لكم منه نذير وبشير أن لا تعلوا على الله فى عباده وبلاده فإنه قال لى ولكم: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين**﴾ قلنا: فمتى أجلك. قال: دنا الفراق والمنقلب إلى الله وسدرة المنتهى والرفيق الأعلى وجنة المأوى فقلنا من يغسلك. قال: أهلى قلنا فيم نكفنك. قال: فى ثيابى أو فى بياض قلنا فمن يصلى عليك. قال مهلاً غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيراً فبكينا وبكى. ثم قال: دعونى على سريرى على شفير قبرى ثم اخرجوا عنى ساعة ليصلى علىّ جبريل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت مع الملائكة ثم ادخلوا علىّ فوجًا فوجًا فصلوا علىّ ولا تؤذونى بتزكية ولا رنة أقرؤا أنفسكم منى السلام ومن غاب من أصحابى فأقرؤه منى السلام ومن تابعكم على دينى فاقرؤه منى السلام. اهـ.

قال ابن عباس: يوم الخميس وما يوم الخميس؟ ثم جرت دموعه على خديه،

اشتد برسول الله ﷺ مرضه ووجعه. فقال ائتونى بدواة وبيضاء أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعدى أبداً فتنازعوا ولا ينبغى عند نبى تنازع. فقالوا: إن رسول الله ﷺ يهجر فجعلوا يعيدون عليه. فقال: دعونى فما أنا فيه خير مما تدعونى إليه فأوصى أن يخرج المشركون من جزيرة العرب وأن يجاز الوفد بنحو مما كان يجيزهم وسكت عن الثالثة عمداً أو قال: نسيتها . اهـ.

وخرج على بن أبى طالب من عند صاحب الشريعة فى مرضه. فقال الناس كيف أصبح رسول الله فقال: أصبح بحمد الله بارئاً فأخذ بيده العباس. فقال أنت بعد ثلاث عبد العصا وأن رسول الله ﷺ سيتوفى فى مرضه هذا وإنى لأعرف الموت فى وجوه بنى عبد المطلب فاذهب إلى رسول الله ﷺ فاسأله فيمن يكون هذا الأمر فإن كان فينا علمناه. وإن كان فى غيرنا أمره فأوصى بنا. فقال على: لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها فلا يعطيناها الناس أبداً. والله لا أسألها رسول الله ﷺ . قال: فما اشتد الضحى حتى توفى رسول الله ﷺ ، وكان موته يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول، ولما توفى كان أبو بكر بمنزله بالسنح لأنه كان قد تخلف عن الخروج فى جيش أسامة لما تحقق من شدة مرض صاحب الشريعة وقرب وفاته وعمر حاضر فلما شاع خبر موته كثر توارد العرب من كل صوب وحدب وعلت الضوضاء وارتفعت الجلبة واشتد الهرج والمرج وظهرت دلائل الردة وقام كل ذى مرض فى الصدر وافتتنوا أو كادوا. فقام عمر بينهم، فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران والله ليرجعن رسول الله ﷺ فيقطع أيدى وأرجل رجال زعموا أنه مات وأقبل أبو بكر وعمر يكلم الناس وهم فى ضجة فدخل على صاحب الشريعة وهو مسجى فى ناحية البيت فكشف عن وجهه ثم قبّله، وقال: بأبى أنت وأمى طبت حياً وميتاً أما الموتة التى كتب الله عليك فقد متها ثم ردّ الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس فأمره بالسكون فأبى وعلا صوته وشدد القول فأقبل أبو بكر على الناس فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ثم تلا هذه الآية: ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين**﴾ قال الراوى: فوالله لكأن الناس ما سمعوها إلا

منه. وقال عمر: فوالله ما هو إلا إذ سمعتها فعقرت حتى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاى وقد علمت أن رسول الله ﷺ قد مات . اهـ.

ولما مات صاحب الشريعة ووصل خبره إلى مكة وعامله عليها عتاب بن أسيد ابن أبى العاص بن أمية استخفى عتاب وارتجت مكة وكاد أهلها يرتدون واجتمعوا حول الكعبة وكثر ضجيجهم فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا إليه. فقال ياأهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليتمنّ الله هذا الأمر كما ذكر رسول الله ﷺ فقد رأيته قائماً مقامى هذا وحده وهو يقول قولوا معى لا إله إلا الله كلمة تدين لكم بها العرب وتؤدّى لكم العجم الجزية والله لتنفقنّ كنوزكسرى وقيصر فى سبيل الله فمن بين مستهزىء ومصدق فكانّ ما رأيتم والله ليكونن الباقى فامتنع الناس من الردة وقل الهرج وتطامنت القلوب واجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة فبلغ ذلك أبا بكر فأتاهم ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح. فقال: ما هذا فقالوا: منا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: منا الأمراء ومنكم الوزراء. ثم قال أبو بكر: قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين عمر وأبا عبيدة أمين هذه الأمة، فقال عمر أيكم يطيب نفسا أن يخلف قدمين قدمهما النبىّ ﷺ فبايعه عمر وبايعه الناس. فقالت الأنصار: لا نبايع إلاعلياً وتخلف علىّ وبنو هاشم والزبير وطلحة عن البيعة. وقال الزبير: لا أغمد سيفا حتى يبايع على فقال عمر خذوا سيفه واضربوا به الحجر ثم أتاهم عمر فأخذهم للبيعة وقيل لما سمع على ببيعة أبى بكر خرج فى قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلا حتى بايعه ثم استدعى إزاره ورداءه فتجلله، قال بعض أهل التاريخ والصحيح أن علياً ما بايع إلا بعد ستة أشهر وقيل لما اجتمع الناس على بيعة أبى بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم أين المستضعفان أين الأذلان على والعباس ما بال هذا الأمر فى أقل حى من قريش. ثم قال لعلى: ابسط يدك أبايعك فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجلا فأبى على عليه فتمثل بشعر المتلمس

ولن يقيم على خسف يراد به ... إلا الأذلان عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشج فلا يرثي له أحد

قيل فزجره على وقال: والله إنك ما أردت بهذا إلا الفتنة وإنك والله طالما

بغيت للإسلام شراً لا حاجة لنا فى نصيحتك، وقال ابن عباس: كنت أقرىء عبد الرحمن بن عوف القرآن فحج عمر وحججنا معه. فقال لى عبد الرحمن: شهدت أمير المؤمنين اليوم بمنى. وقال له رجل سمعت فلاناً. يقول لو مات عمر لبايعت فلاناً. فقال عمر إنى لقائم العشية فى الناس أحذرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغتصبوا الناس أمرهم. قال: فقلت ياأمير المؤمنين إن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم وهم الذين يغلبون على مجلسك وأخاف أن تقول مقالة لا يعوها ولا يحفظوها ويطيروا بها، ولكن أمهل حتى تقدم المدينة وتخلص بأصحاب رسول الله ﷺ فتقول ما قلت فيعوا مقالتك. فقال: والله لأقومن بها أول مقام أقومه بالمدينة. قال: فلما قدمت المدينة هجرت يوم الجمعة لحديث عبد الرحمن. فلما جلس عمر على المنبر حمد الله وأثنى عليه. ثم قال: بعد أن ذكر الرجم وما نسخ من القرآن فيه، أنه بلغنى أن قائلا منكم يقول لو مات أمير المؤمنين بايعت فلاناً فلا يغزن امرأ أن يقول أن بيعة أبى بكر كانت فلتة فقد كانت كذلك ولكن الله وقى شرها وليس منكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبى بكر وأنه كان خيرنا حين توفى رسول الله ﷺ وأن علياً والزبير ومن معهما تخلفوا عنا فى بيت فاطمة وتخلف عنا الأنصار واجتمع المهاجرون إلى أبى بكر فقلت له انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار فانطلقنا نحوهم فلقينا رجلان صالحان من الأنصار أحدهما عويم بن ساعدة والثانى معن بن عدى. فقالا لنا: ارجعوا اقضوا أمركم بينكم. قال: فأتينا الأنصار وهم مجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة وبين أظهرهم رجل مزمل قلت من هذا قالوا سعد بن عبادة وجمع فقام رجل منهم فحمد الله وأثنى عليه. وقال: أما بعد فنحن الأنصار وكتيبة الإسلام وأنتم يامعشر قريش رهط بيننا وقد دفت إلينا دافة من قومكم فإذا هم يريدون أن يغصبونا الأمر فلما سكت وكنت قد زورت فى نفسى مقالة أقولها بين يدى أبى بكر فلما أردت أن أتكلم. قال أبو بكر: على رسلك فقام فحمد الله وما ترك شيئاً كنت زورت فى نفسى الإجابة أو بأحسن منه. وقال: يامعشر الأنصار إنكم لا تذكرون فضلاً إلا وأنتم له أهل وأن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لقريش وهم أوسط العرب داراً ونسباً وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأخذ بيدى وبيد أبى عبيدة بن الجراح وإنى والله ما كرهت من كلامه كلمة غيرها إن كنت أقدم فتضرب عنقى فيما لا يقربنى إلى إثم أحب إلىَّ من أن أؤمر على قوم فيهم أبو بكر، فلما قضى أبو بكر كلامه. قام منهم رجل . فقال: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا أمير ومنكم أمير وارتفعت الأصوات واللغط فلما خفت

الاختلاف قلت لأبى بكر: ابسط يدك أبايعك. فبسط يده فبايعته وبايعه الناس ثم نزونا على سعد بن عبادة. فقال قائلهم: قتلتم سعدا فقلت قتل الله سعدا وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من بيعة أبي بكر خشيت إن فارقت القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة فإما أن نتابعهم على ما لا نرضى وإما أن نخالفهم فيكون فساداً . اهـ.

وقال أبو عمرة الأنصارى: لما قبض النبىّ ﷺ اجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة وأخرجوا سعد بن عبادة ليولوه الأمر. وكان مريضاً. فقال: بعد أن حمد الله، يامعشر الأنصار لكم سابقة وفضيلة ليست لأحد من العرب أن محمد ﷺ لبث فى قومه بضع عشرة سنة يدعوهم فما آمن به إلا القليل ما كانوا يقدرون على منعه ولا على إعزاز دينه ولا على دفع ضيم حتى إذا أراد الله بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة ورزقكم الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه فكنتم أشد الناس على عدوّه حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً وأعطى البعيد المقادة صاغراً فدانت لرسوله بأسيافكم العرب وتوفاه الله وهو عنكم راض قرير العين استبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دونهم، فأجابوه بأجمعهم قد وفقت وأصبت الرأى ونحن نوليك هذا الأمر فإنك مقنع ورضاء للمؤمنين ثم إنهم ترادوا الكلام وأبى المهاجرون من قريش. وقالوا: نحن المهاجرون وأصحابه الأولون وعشيرته وأولياؤه. فقالت طائفة منهم: فإنا نقول: منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا أبداً. فقال سعد: هذا أوّل الوهن وسمع عمر الخبر فأتى منزل صاحب الشريعة وأبو بكر فيه فأرسل إليه أن اخرج إلىّ فأرسل إليه إنى مشتغل فقال عمر: قد حدث أمر لابد لك من حضوره فخرج إليه فأعلمه الخبر فمضيا مسرعين نحوهم ومعهما أبو عبيدة. قال عمر: فأتيناهم وقد كنت زوّرت كلاماً أقوله لهم فلما دنوت أقول أسكتنى أبو بكر وتكلم بكل ما أردته فحمد الله وقال: إن الله قد بعث فينا رسولاً شهيداً على أمته ليعبدوه ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى من حجر وخشب فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومه وتكذيبهم إياه وكل الناس لهم مخالف زائر عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم فهم أول من عبد الله فى هذه الأرض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعد لا ينازعهم إلا ظالم، وأنتم يامعشر الأنصار من لا ينكر فضلهم فى الدين ولا سابقتهم فى الإسلام رضيكم الله أنصاراً

لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفاوتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور، فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال: يامعشر الأنصار أملكوا عليكم أمركم فإن الناس فى ظلكم ولن يجترىء مجترىء على خلافكم ولا يصدروا إلا عن رأيكم أنتم أهل العز وأولوا العدد والمنعة وذوو البأس وإنما ينظر الناس ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم أبى هؤلاء إلا ما سمعتم فمنا أمير ومنكم أمير. فقال عمر: هيهات لا يجتمع اثنان والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبينا من غيركم ولا تمتنع العرب أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ولنا بذلك الحجة الظاهرة من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته فقال الحباب بن المنذر يامعشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فإن أبوا عليكم فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذا الأمر فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان الناس لهذا الدين أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب أنا أبو شبل فى عرينة الأسد والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة . فقال عمر: إذن ليقتلك الله فقال: بل إياك يقتل، فقال أبو عبيدة: يامعشر الأنصار إنكم أول من نصر فلا تكونوا أول من بدل وغير، فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال: يامعشر الأنصار إنا والله وإن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى الدين ما أردنا به إلا رضاء ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغى أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغى به الدنيا إلا أن محمداً ﷺ من قريش وقومه أولى به وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر فاتقوا الله ولا تخالفوهم، فقال أبو بكر: هذا عمر وأبو عبيدة فإن شئتم فبايعوا فقالا: والله لا نتولى هذا الأمر عليك وأنت أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله ﷺ فى الصلاة وهى أفضل دين المسلمين أبسط يدك نبايعك فلما ذهبا يبايعانه سبقهما بشير بن سعد فبايعه فناداه الحباب بن المنذر عققت عقاقاً أنفست على ابن عمك الإمارة. فقال: لا والله ولكنى كرهت أن أنازع القوم حقهم، ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تطلب الخزرج من تأمير سعد. قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان نقيباً: والله لئن وليتها الخزرج مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولاجعلوا لكم فيها نصيباً أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر فبايعوه فانكسر على سعد والخزرج ما أجمعوا عليه وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب ثم تحوّل سعد بن عبادة إلى داره فبقى أياماً وأرسل إليه ليبايع فإن الناس قد بايعوا فقال لا والله حتى أرميكم بما فى كنانتى وأخضب سنان رمحى وأضرب بسيفى وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى ولو اجتمع معكم الجن والإنس ما بايعتكم

حتى أعرض على ربى. فقال عمر: لا تدعه حتى يبايع. فقال بشير بن سعد: أنه قد لج وأبى ولا يبايعكم حتى يقتل وليس بمقتول حتى يقتل معه أهله وطائفة من عشيرته ولا يضركم تركه وإنما هور رجل واحد فتركوه، وجاءت أسلم فبايعت فقوى أبو بكر بهم وبايع الناس بعد، قيل أن عمرو بن حريث قال لسعيد بن زيد: متى بويع أبو بكر؟ قال: يوم مات رسول الله ﷺ كرهوا أن يبكوا بعض يوم وليسوا فى جماعة، قال الزهرى: بقى علىّ وبنو هاشم والزبير ستة أشهر لم يبايعوا أبا بكر حتى ماتت فاطمة رضى الله عنها فبايعوه فلما كان الغد من بيعة أبى بكر جلس على المنبر وبايعه الناس بيعة عامة ثم تكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقوّمونى الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه. والقوى ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق - إن شاء الله تعالى - لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله .اهـ.

ولما بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز صاحب الشريعة ودفن يوم الثلاثاء وقيل يوم الأربعاء . وقيل بقى ثلاثة أيام لم يدفن، وكانت مدة مرضه أربعة عشر يوماً. وقيل سبعة أيام بذات الجنب فلما كان اليوم السابع من مرضه مات، قال ضمران: مات وتحته فى مرضه شملة حمراء وعليها مات وفيها أدرج بعد موته وورى التراب بغير غُسل ولا أكفان، وروى عمران بن حضير الخزاعى أنه غسل وأدرج فى ثلاثة أثواب سحولية أى بيض يمانية وأن الذى تولى ذلك معه علىّ بن أبى طالب والفضل بن العباس بن عبد المطلب عمه واختلفوا أين يدفنونه. فقال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ: يقول ما قبض نبى إلا دفن حيث قبض فرفع فراشه ودفن موضعه حفر له أبو طلحة الأنصارى لحدا ودخل الناس يصلون عليه أرسالاً الرجال ثم النساء ثم الصبيان ثم العبيد. ودفن ليلة الأربعاء وقيل ليلة الخميس واختلفوا فى عمره يوم مات. فقال ابن عباس وعائشة ومعاوية وابن المسيب: كان عمره ثلاثاً وستين سنة. وقال ابن عباس أيضاً ودغفل بن حنظلة: كان عمره خمساً وستين سنة. وقال عروة بن الزبير: كان عمره ستين سنة والله أعلم بالحقيقة.

□□□

(المقالة الثالثة)
(فى الخلفاء الراشدين وفيها فصول)

(الفصل الأول)
(فى خلافة أبى بكر الصديق)

لما تولى أبو بكر الأمر بعد وفاة صاحب الشريعة كان قد استفحل أمر الخلاف بين العرب وظهر النفاق وتأخر سير جيش أسامة بن زيد إلى الشام بأسباب وفاة صاحب الشريعة وظهور الفتنة فى العرب وارتداد الخاصة والعامة من كل قبيلة وبقى المسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة لفقد صاحبهم وقلتهم وكثرة عدوهم. وكان أبو بكر قد نادى فى جيش أسامة بالخروج إلى الشام كما أمر صاحب الشريعة وكرر أبو بكر النداء بالتعجيل . فقال الناس لأبى بكر: إن هؤلاء (يعنون جيش أسامة) جند المسلمين والعرب على ما ترى فقد انتقضت بك فلا ينبغى أن تفرق جماعة المسلمين عنك. فقال أبو بكر: والذى نفسى بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبىّ ﷺ فخاطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة إلى معسكره بالجرف فخرجوا كما أمرهم وحبس أبو بكر من بقى من تلك القبائل التى كانت لهم الهجرة فى ديارهم فصاروا مسائح حول قبائلهم وهم قليل فلما خرج الجيش إلى معسكرهم بالجرف وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب وكان معه فى جيشه إلى أبى بكر يستأذنه أن يرجع بالناس. وقال: إن معى وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفه رسول الله وحرم رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون. وقال: من مع أسامة من الأنصار لعمر بن الخطاب إن أبا بكر خليفة رسول الله ألا فامض فأبلغه عنا وأطلب إليه أن يولى أمرنا أقدم سنا من أسامة فخرج عمر بأمر أسامة إلى أبى بكر فأخبره بما قال أسامة فقال: لو خطفتنى الكلاب

والذئاب لأنفذته كما أمر به رسول الله ﷺ ولا أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته، قال عمر: فإن الأنصار تطلب رجلاً أقدم سناً من أسامة، فوثبت أبو بكر وكان جالساً وأخذ بلحية عمر. وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أعزله، ثم خرج أبو بكرحتى أتاهم وأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب. فقال له أسامة: ياخليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن . فقال: والله لانزلت ولا أركب وما علىّ أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله فلما أراد أن يرجع. قال لأسامة إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل فأذن له ثم وصاهم فقال لهم: لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تقعروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تمرون بأقوام قد فحصوا أواسط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقاً اندفعوا باسم الله، وأوصى أسامة أن يفعل ما أمره به صاحب الشريعة فساروا وأوقع بقبائل من ناس قضاعة التى ارتدت وغنم وعاد وكانت غيبته أربعين يوماً وقيل سبعين يوماً.

قال أصحاب التاريخ: وكان إنفاذ جيش أسامة أعظم الأمور نفعاً للمسلمين فإن العرب قالوا: لو لم يكن بهم قوّة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه . وقال بعضهم: لما مات صاحب الشريعة ارتدت العرب ومنعت الزكاة فجمع أبو بكر الصحابة وشاورهم فى الأمر وفى قتال العرب فاختلفوا عليه. وقال له عمر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم منى دمه وماله إلا بحقه وحسابه على الله عزّ وجلّ. فقال أبو بكر والله لأقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعونى عناقاً كانوا يؤدّونها رسول الله لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق، وفى رواية. قال عمر: فقلت تألف الناس وأرفق بهم فقال: أجبارا فى الجاهلية وخوّارا فى الإسلام ياعمر إنه قد انقطع الوحى وتم الدين أينقص وأنا حىّ ثم خرج لقتالهم.

وقال ابن قتيبة ارتدت العرب إلا القليل منهم فجاهدهم الصدّيق حتى استقاموا وفتح اليمامة وقتل مسيلمة الكذاب بها والأسود العنسى الكذاب بصنعاء وبعث الجيوش إلى الشام والعراق، وأخرج ابن عبد الحكم عن على بن رباح اللخمى.

قال: بعث أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ حاطباً إلى المقوقس بمصر فمر على ناحية قرى الشرقية فعاهدهم وأعطوه فلم يزالوا على ذلك حتى دخلها عمرو بن العاص فقاتلوه وانتقض ذلك العهد، وقال عبد الملك بن مسلمة وهي أول هدنة كانت بمصر (قلت) ولم أر في قول أحد من أهل التاريخ شيئاً من نحو ذلك البتة، وأقام أبو بكر يدبر الأمر ويبعث البعوث والسرايا إلى الآفاق ويشدّد على من ارتد من القبائل ويعمل في رقاب أصحاب الفتنة بالسيف حتى استقام له الأمر وعلت كلمة الإسلام ولاحت طوالعه في سماء السعادة وما زال حتى مرض وثقل به المرض ومات وله ثلاث وستون سنة قيل: ولما مرض ترك التطبب تسليماً للأمر فعاده الصحابة وقالوا: ألاندعو لك طبيباً ينظر إليك فقال نظر إليّ فقالوا: وما قال لك؟ قال: قال لي إني فعال لما أريد، وتوفي ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ودفن في حجرة عائشة مع صاحب الشريعة وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام.

(الفصل الثاني)

(في خلافة عمر بن الخطاب)

ثم قام بالأمر بعده عمر بن الخطاب بويع له بالخلافة في اليوم الذى مات فيه أبو بكر بوصية من أبي بكر إليه، فهو عمر الفاروق وهو أول من سمى بأمير المؤمنين وهو أول المهاجرين الأولين قيل صلى إلى القبلتين وشهد بدراً وبيعة الرضوان وجميع المشاهد مع صاحب الشريعة ولما أسلم تعزز به الإسلام، واختلف الكتاب في إسلام عمر فمن قائل: أسلم بعد تسعة وثلاثين رجلاً وثلاث وعشرين أمرأة ومن قائل بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة. ومن قائل بل أسلم بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى وعشرين أمرأة، وكان رجلاًجلداً منيعاً شديد البأس جباراً. وكان إسلامه بعد هجرة من هاجر من أصحاب صاحب الشريعة إلى الحبشة قيل وكان أصحاب صاحب الشريعة لا يقدرون أن يصلوا عند الكعبة حتى أسلم عمر. فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى صاحب الشريعة عندها وصلى معه أصحابه وكان قد أسلم قبل عمر حمزة بن عبد المطلب فقوّى بهما الإسلام وتحقق المسلمون أنهما سيمنعان صاحب الشريعة والمسلمين واختلفوا أيضاً في سبب إسلامه بعد الذى كانوا يرونه من شدّته وجبروته على المسلمين، قالت أم عبد الله بنت أبي حثمة: وكانت

زوج عامر بن ربيعة إنا لنرحل إلى أرض الحبشة . وقد ذهب عامر لبعض حاجته إذ أقبل عمر وهو على شركه حتى وقف عليّ وكنا نلقى منه البلاء أذى وشدّة. فقال: أتنطلقون ياأم عبد الله. قالت: قلت: نعم. والله لنخرجنّ في أرض الله فقد آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجا. قالت: فقال صحبكم الله ورأيت له رقة وحزناً فلما عاد عامر أخبرته وقلت له لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا. قال أطمعت في إسلامه قلت. نعم. فقال لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب لما كان يرى من غلظته وشدّته على المسلمين قالت: فهداه الله تعالى فأسلم فصار على الكفار أشد منه على المسلمين.

وقال جماعة: أن سبب إسلامه أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت تحت سعيد ابن زيد بن عمرو العدوى وكانا مسلمين يخفيان إسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام العدوى قد أسلم أيضاً وهو يخفى إسلامه خوفاً من قومه وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة يقرئها القرآن فخرج عمر يوماً ومعه سيفه يريد قتل صاحب الشريعة وأصحابه وهم مجتمعون في دار الأرقم عند الصفا وعنده من لم يهاجر من المسلمين في نحو أربعين رجلاً فلقيه نعيم بن عبد الله. فقال: أين تريد ياعمر فقال: أريد محمداً الذى فرّق أمر قريش وعاب دينها فأقتله. فقال نعيم: والله لقد غرتك نفسك أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم. فقال: وأى أهلي. فقال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة فقد والله أسلما فرجع عمر إليهما وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما القرآن فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب وأخذت فاطمة الصحيفة فألقتها تحت فخذها وقد سمع عمر قراءة خباب فلما دخل قال ما هذه الهينمة قالا ما سمعت شيئاً. قال: إنكما تابعتما محمداً وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته تكفه فضربها فشجها فلما فعل ذلك. قالت له أخته قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما شئت فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم . وقال لها أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤن فيها الآن حتى أنظر إلى ما جاء به محمد فقالت إنا نخشاك عليها فحلف أنه يعيدها. قالت: وقد طمعت في إسلامه إنك نجس على شركك ولا يمسها إلا المطهرون فقام فاغتسل فأعطته الصحيفة وقرأها وفيها طه وكان كاتباً فلما قرأ بعضها. قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه فلما سمع خباب خرج إليه. وقال ياعمر: إني والله لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس وهو يقول اللهم أيد الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي الحكم بن

هشام فالله الله ياعمر فقال عمر: عند ذلك فدلني ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم فدله خباب فأخذ بسيفه وجاء إلى صاحب الشريعة وأصحابه وضرب عليهم الباب فقام رجل منهم ينظرمن بالباب فرآه متوشحا بسيفه فأخبر صاحب الشريعة. فقال حمزة: ائذن له فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له وإن أراد شراً قتلناه بسيفه فأذن له فنهض إليه صاحب الشريعة حتى لقيه فأخذ بمجامع ردائه ثم جذبه جذبة شديدة. وقال: ما جاء بك ما أراك تنتهي حتى ينزل الله عليك قارعة. فقال عمر: يارسول الله قد جئت لأومن بالله وبرسوله فكبر صاحب الشريعة تكبيرة شديدة، قال عمر: ولما أسلمت أتيت باب أبي جهل بن هشام فضربت عليه بابه فخرج إليّ وقال: مرحبا بابن أخي ما جاء بك قلت جئت لأخبرك أني قد أسلمت وآمنت بمحمد ﷺ وصدّقت ما جاء به. قال: فضرب الباب في وجهي. وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به. اهـ. وقيل في إسلامه غير ذلك، وكانت العرب لا تحب تولية عمر الخلافة بعد أبي بكر لغلظته وشدّته فلما نزل بأبي بكر الموت دعا عبد الرحمن بن عوف. فقال: أخبرني عن عمر فقال أنه أفضل من رأيت إلا أن فيه غلظة. فقال أبو بكر: ذلك لأنه يراني رفيقاً ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه وقد رمقته فكنت إذا غضبت على رجل أراني الرضا عنه وإذا لنت إلى رجل أراني الشدّة عليه. ثم دعا عثمان بن عفان. وقال له أخبرني عن عمر فقال سريرته خير من علانيته وليس فينا مثله. فقال أبو بكر: لهما لا تذكرا مما قلت لكما شيئاً ولو تركته ما عدوت عثمان والخيرة له الآن أن يلي من أموركم شيئاً ولوددت أني كنت من أموركم خلوا وكنت فيمن مضى من سلفكم، ودخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر فقال: استخلفت على الناس عمر. وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه وكيف به إذا خلا بهم وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك، فقال أبو بكر أجلسوني فأجلسوه فقال أبالله تخوّفني إذا لقيت ربي فسألني قلت استخلفت على أهلك خير أهلك ثم إن أبا بكر أحضر عثمان بن عفان خالياً ليكتب عهد عمر. فقال له اكتب، بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين أما بعد ثم أغمى عليه فكتب عثمان أما بعد فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً ثم أفاق أبو بكر فقال أقرأ عليّ فقرأ عليه. قال الراوي: فكبر أبو بكر. وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن مت في غشيتي. قال: نعم. قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله. فلما كتب العهد أمره أن يقرأه على الناس فجمعهم وأرسل الكتاب مع رسول له ومعه عمر فكان عمر يقول للناس أنصتوا واسمعوا

لخليفة رسول الله ﷺ فإنه لم يألكم نصحاً فسكن الناس فلما قرىء عليهم الكتاب سمعوا وأطاعوا وكان أبو بكر أشرف على الناس. وقال أترضون بمن استخلفت عليكم فإنى ما استخلفت عليكم ذا قرابة وإنى قد استخلفت عليكم عمر فاسمعوا له وأطيعوا فإنى والله ما ألوت من عهد الرأى. فقالوا: سمعنا وأطعنا ثم أحضر أبو بكر عمر. وقال له إنى قد استخلفتك على أصحاب رسول الله ﷺ وأوصاه بتقوى الله. ثم قال له: ياعمر إن لله حقاً بالليل لا يقبله فى النهار وحقاً فى النهار لا يقبله فى الليل وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدّى الفريضة ألم تر ياعمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه غدا إلا حق أن يكون ثقيلاً، ألم تر ياعمر إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان أن لا يوضع فيه إلا باطل أن يكون خفيفاً، ألم تر ياعمر إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدّة وآية الشدّة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغباً راهباً لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه، ألم تر ياعمر أن الله ذكر أهل النار بأسوإ أعمالهم فإذا ذكرتهم قلت إنى لأرجو أن لا أكون منهم وأنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم عما كان من سىء فإذا ذكرتهم قلت أين عملى من أعمالهم فإن حفظت وصيتى فلا يكونن غائب أحب إليك من حاضر من الموت ولست بمعجزه . اهـ. وتوفى أبو بكر فلما دفن صعد عمر بن الخطاب فخطب الناس. ثم قال: إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده لينظر قائده حيث يقوده وأما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق. قال بعض الكتاب وهو أوّل من عس فى عمله أى كان يمشى ليلاً لحفظ الدين والناس فهابه الناس هيبة عظيمة حتى تركوا الجلوس بالأفنية فلما بلغه هيبة الناس له جمعهم ثم قام على المنبر حيث كان أبو بكر يضع قدميه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قد بلغنى أن الناس قد هابوا شدّتى وخافوا غلظتى. وقالوا: قد كان عمر يشتدّ علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ثم اشتدّ علينا وأبو بكر رضي الله عنه والينا دونه فكيف الآن وقد صارت الأمور إليه ولعمري إن من قال ذلك فقد صدق كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخادمه حتى قبضه الله عزّ وجلّ وهو عنى راض والحمد لله وأنا أسعد الناس بذلك ثم ولى أمر الناس أبو بكر رضي الله عنه فكنت خادمه وعونه أخلط شدّتى بلينه فأكون سيفا مسلولاً حتى يغمدنى أو يدعنى فما زلت معه كذلك حتى قبضه الله تعالى وهو عنى راض والحمد لله وأنا أسعد الناس بذلك ثم إنى وليت أموركم فأعلموا أن تلك الشدّة قد تضاعفت ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدّى على المسلمين وأما أهل السلامة والدين

والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض ولست أدع أحداً يظلم أحداً ويتعدّى عليه حتى أضع خدّه على الأرض وأضع قدمى على خده حتى يذعن للحق ولكم علىّ أيها الناس أن لا أخبأ عنكم شيئاً من خراجكم وإذا وقع عندى أن لا يخرج إلا بحقه ولكم علىّ أن لا ألقيكم فى المهالك وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولكم . اهـ. قال سعيد بن المسيب: وفىّ والله عمر وزاد فى الشدّة فى مواضعها واللين فى مواضعه، قيل ولما رجع من الشام إلى المدينة انفرد عن الناس ليتعرّف أخبار رعيته فمرّ بعجوز فى خبائها فقصدها. فقالت: ياهذا ما فعل عمر. قال: قد أقبل من الشام سالماً فقالت: لا جزاه الله عنى خيراً. قال: ولِمَ قالت: لأنه والله ما نالنى من عطائه منذ ولى أمر المؤمنين دينار ولا درهم فقال: وما يدرى عمر بحالك وأنت فى هذا الموضع. فقالت: سبحان الله والله ما ظننت أن أحدا يلى على الناس ولا يدرى ما بين مشرقها ومغربها فبكى عمر. وقال: واعمراه كل أحد أفقه منك حتى العجائز ياعمر. ثم قال لها: ياأمة الله بكم تبيعينى ظلامتك من عمر فإنى أرحمه من النار فقالت: لا تهزأ بنا يرحمك الله فقال: لست بهازىء فلم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين ديناراً فبينما هو كذلك إذ أقبل على بن أبى طالب وابن مسعود فقالا السلام عليك ياأمير المؤمنين فوضعت العجوز يدها على رأسها. وقالت: واسوأتاه شتمت أمير المؤمنين فى وجهه. فقال لها عمر: لا بأس عليك رحمك الله ثم طلب رقعة يكتب فيها فلم يجد فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها، بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها مذ ولى إلى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين ديناراً مما تدعى عند وقوفها فى المحشر بين يدى الله تعالى فعمر منه برىء وشهد على ذلك على بن أبى طالب وابن مسعود، ثم دفع الكتاب إلى ولده. وقال: إذا أنا مت فأجعله فى كفنى ألقى به ربى، قال بعض الكتاب: وهو أوّل من أرّخ التاريخ وذلك فى سنة ست عشرة وفيها كان فتح بيت المقدس صلحا وفيه نزل سعد بن أبى وقاص على الكوفة وحصرها وهو أول من دوّن الدواوين ومصر الأمصار وفتح الفتوحات الكثيرة ففتح دمشق ثم الروم ثم فارس ثم انتهى الفتح إلى حمص وحلوان والرقة والرها وحران ورأس الغين وخابور ونصيبين وعسقلان وطرابلس وما يليها من الساحل وبيسان واليرموك والأهواز وقيسارية.

قال ابن عبد الحكم: حدثنا عثمان بن صالح أنبأنا ابن لهيعة عن عبد الله بن أبى جعفر وعياش بن عباس العتابى وغيرهما يزيد بعضهم على بعض. قالوا: ولما

كانت سنة ثمان عشرة وفد عمر بن الخطاب الجابية قام إليه عمرو بن العاص فخلا به. فقال: ياأمير المؤمنين إئذن لى أن أسافر إلى مصر وحرّضه عليها. وقال: إنك إن فتحتها كانت قوّة للمسلمين وعوناً لهم وهى أكثر الأرض أموالاً وأعجزهم على القتال والحرب فتخوّف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر ويخبره بحالها يوهون عليه فتحها حتى ركن لذلك عمر فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عك. ويقال: على ثلاثة آلاف وخمسمائة فقال عمر: سر وأنا متخير الله فى مسيرك وسيأتى إليك كتابى مسرعاً إن شاء الله تعالى. فإن أدركك كتابى وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس واستخار عمر الله فكأنه تخوّف على المسلمين فى وجههم ذلك فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح فتخوّف عمرو بن العاص إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين فج والعريش فسأل عنها فقيل إنها من مصر فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين فقال عمرو ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر قالوا: بلى. فقال: إن أمير المؤمنين عهد إلىّ وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا مصر فسيروا وأمضوا على بركة الله فتقدم عمرو بن العاص. فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو توجه إلى الفسطاط، وكان أول موضع قوتل فيه الفرما قاتلته الروم قتالاً شديداً نحو شهر حتى فتح الله على يديه وكان بالإسكندرية أسقف للقبط اسمه بنيامين فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو ومعاونته على الروم فصار القبط الذين فى الفرما يومئذ لعمرو أعواناً ثم توجه عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى نزل القواصر فنزل ومن معه ثم تقدم وهو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس فقاتلوه بها نحواً من شهرحتى فتحها ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين فقاتلوه بها قتالاً شديداً وأبطأ عليه الفتح فكتب إلى عمر يستمده فأمده بأربعة آلاف رجل تمام ثمانية آلاف فسار عمرو بمن معه حتى نزل على الحصن فحاصرهم بالقصر الذى يقال له باب ليون حيناً وقاتلهم فلما أبطأ عليه الفتح كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده فأمده عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم

رجل وكتب إليه إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الألف الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد واعلم أن معك اثنى عشر ألفا ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة، وكان الروم قد خندقوا حول حصنهم وجعلوا للخندق أبوابا وجعلوا سسك الحديد موتدة بأبنية الأبواب فلما قدم المدد إلى عمرو بن العاص أتى إلى القصر ووضع عليه المنجنيق وكان على القصر رجل من الروم يقال له الأعيرج والياً عليه وهو مندقور فرمى عمرو بالمنجنيق على الروم وطال القتال بين الفريقين أياماً كثيرة والقبط يعاونون العرب على القتال سراً كرهاً فى الروم فلما أبطأ الفتح. قال الزبير إنى أهب نفسى لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلماً إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام وأمرهم إن سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتجامع الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفاً من أن ينكسر فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه وكبر وكبر من معه وأجابهم المسلمون من خارج لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعاً فهزموا فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن فحينئذ سأل المقوقس عمرو بن العاص الصلح ودعاه إليه على أن يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم فأجابه عمرو إلى ذلك قيل وكان مكثهم على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر وكان قد تنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلى فلحقوا بالجزيرة وأمروا بقطع الجسر وذلك فى جرى النيل وتخلف الأعيرج فى الحصن ثم ركب هو وأهل القوّة والشرف بعد قليل وكانت سفنهم ملصقة بالحصن ولحقوا بالمقوقس فى الجزيرة فأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص يقول: إنكم قوم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم فى قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا عليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وإنما أنتم أسارى فى أيدينا فأرسلوا لنا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، فرد عليهم عمرو مع رسله أن ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال أما إن دخلتم فى الإسلام فكنتم لنا إخواناً. وكان لكم ما لنا وإن أبيتم أعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون وأما إن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين فرد إليه المقوقس رسله وقال: ابعثوا إلينا رسلا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم على ما عسى أن يكون فيه صالح لنا ولكم فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وهو أقدم من أدرك

الإسلام من العرب وطوله عشرة أشبار وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة وتكلم معه. وقال انظر الذى تريد فبينه لنا فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منكم ولا نجيبكم إليها إلا خصلة من ثلاث فاختر أيها شئت بذلك أمرنى الأمير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا فلم يقبل أصحاب المقوقس ذلك وأمروا بقطع الجسر بين الفسطاط والجزيرة فعاد الفريقان بعد ذلك للقتال وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل وجه لا يقدرون على أن ينفذوا أو يتقدموا نحو الصعيد ولا إلى غير ذلك من المدائن والقرى وراسل عمرو بن العاص المقوقس ولج فأجابه المقوقس. وقال نجتمع أنا وأنت فى نفر من أصحابى ونفر من أصحابك فإن استقام الأمر بيننا تم لنا ذلك وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه فاستشار عمرو أصحابه فى ذلك. وقال قد علمتم ما عهد إلىّ أمير المؤمنين فى عهده فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التى عهد إلىّ بها أجبتهم إليها. وقبلت منهم مع ما قد حال بيننا وبين ما نريد من قتالهم فأذعنوا واجتمعوا على عهد بينهم وتقررت القاعدة على أن يفرضوا على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ومن بلغ الحلم منهم ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شىء وعلى أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شىء منها قط ووافق المقوقس على ذلك وفرض عمرو بن العاص على نفسه القيام بكرامة المقوقس وأن لا يشاغبه على ما فى يده ولا يسلبه حقه وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس فكانت فريضتهم اثنى عشر ألف ألف دينار كل سنة. وقيل بلغت غلتهم ثمانية آلاف ألف.

وشرط المقوقس للروم أن يتخيروا فمن أحب منهم أن يقيم على هذا الشرط أقام على هذا الأمر الذى هو مفترض عليه ممن أقام بالإسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج على أن للمقوقس الخيار فى الروم خاصة حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه ما فعل فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم وإلا كانوا جميعاً على ما كانوا عليه وكتبوا به كتاباً وكتب المقوقس إلى ملك الروم يعلمه على وجه الأمر كله، قال الراوى: فكتب إليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول فى كتابه: إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفاً وبمصر

من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى. فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروهم عنا ولا أراهم إلا فاعلون ذلك فإن عندك بمصر من الروم وبالإسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوّة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم فإنهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم على قدر قلتهم وضعفهم كاكلة فناهضهم القتال ولا يكون لك رأى غير ذلك، وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتاباً لجماعته واتفق المقوقس وعمرو بن العاص على أن يكون القبط له أعواناً ويقيموا له الإنزال والضيافة والأسواق والجسور ما بين الفسطاط إلى الإسكندرية ففعلوا واستعدت الروم وجاشت وقدم عليهم من أرض الروم جمع عظيم ثم التقوا ببلدة سلطيّس فاقتتلوا بها قتالاً شديداً ثم انهزموا ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بها بضعة عشر يوماً. وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو واشتد الروم في قتال المسلمين شدّة بالغة وأبلى المسلمون بلاء حسناً وما زال القتال حتى بلغ الروم الإسكندرية فتحصنوا بها وكانت عليهم حصون مبنية لا ترام حصن دون حصن فنزل المسلمون ما بين حلوة إلى قصر فارس إلى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط يمدّونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة وغير ذلك ورسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية في المراكب بمادّة الروم وتجهز هرقل ملك الروم لقتال المسلمين بمدينة الإسكندرية فأدركته المنية قبل قيامه ومات سنة خمس وأربعين وستمائة للميلاد أى سنة ثلاث وعشرين للهجرة، وما زالوا على قدم القتال حتى فتحت الإسكندرية وهرب الروم في البر والبحر فخلف عمرو بن العاص بالإسكندرية من أصحابه ومضى بمن معه في طلب من هرب من الروم في البر فرجع من كان هرب من الروم في البحر إلى الإسكندرية فقتلوا من كان بها من المسلمين إلا من هرب منهم وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر راجعاً ففتحها وأقام بها وكتب إلى عمر بن الخطاب أن الله قد فتح علينا بالإسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد فكتب إليه عمر بن الخطاب يقبح رأيه ويأمره أن لا يجاوزها، قال ابن عبد الحكم وحدّثنا عثمان بن صالح عن أبي لهيعة. قال: بعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج وافداً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشيراً له بالفتح فقال له معاوية ألا تكتب معي كتاباً. قال له عمرو: وما تصنع بالكتاب ألست رجلاً أعرابياً تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت فلما قدم على عمر وأخبره بفتح الإسكندرية خر عمر ساجداً. وقال الحمد لله. قال: وحدثنا إبراهيم بن سعد البلوى. قال: كتب عمرو بن العاص

إلى عمر بن الخطاب ﷺ أما بعد فإنى فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى وأربعمائة ملهى للملوك، وأخرج عن إبراهيم بن سعد البلوى المذكور أن سبب فتح الإسكندرية أن رجلاً كان يقال له ابن بسامة كان بوّاباً فسأل عمرو بن العاص أن يؤمنه على نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب فأجابه عمرو إلى ذلك ففتح له الباب فدخل.

(مطلب)

(فى الخلاف بين العلماء فى مصر هل فتحت صلحاً أو عنوة؟)

فمن قائل أنها فتحت صلحاً. قال ابن عبد الحكم حدثنى عثمان بن صالح أخبرنا الليث. قال: كان يزيد بن أبى حبيب يقول: مصر كلها صلح إلا الإسكندرية فإنها فتحت عنوة.

وأخرج عن يحيى بن أيوب وخالد بن حميد، قال: فتح الله أرض مصر بصلح غير الإسكندرية وثلاث قريات ظاهروا الروم على المسلمين سلطيس ومصيل وبلهيت، وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب. قال: كانت قرى من قرى مصر قاتلت ونقضوا العهد فسبوا منها قرية يقال لها بلهيت وقرية يقال لها الخيس وقرية يقال لها سلطيس وقرطا وفرّق سباياهم بالمدينة وغيرها فردّهم عمر بن الخطاب ﷺ إلى قراهم وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة. وأخرج يحيى بن أيوب أن أهل سلطيس ومصيل وبلهيت ظاهروا الروم على المسلمين فى جمع كان لهم فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم. وقالوا: هؤلاء لنا فىء مع الإسكندرية فكتب عمرو بن العاص بذلك إلى عمر بن الخطاب ﷺ عنه وكتب إليه عمر أن يجعل الإسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين ويضربون عليهم الخراج ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوّهم ولا يجعلون فيئا ولا عبيداً ففعل ذلك.

ومن قائل أنها فتحت عنوة ، قال ابن عبد الحكم: حدّثنا عبد الملك بن مسلمة وعثمان بن صالح، قال: أخبرنا ابن لهيعة عن ابن هبيرة أن مصر فتحت عنوة، وقال: أخبرنا عبد الملك بن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم. قال: سمعت أشياخنا يقولون: إن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد، وقال: أنبأنا عبد الملك بن مسلمة

عن ابن وهب عن داود بن عبد الله الحضرمى أن أبا حيان أيوب بن أبى العالية حدثه عن أبيه أنه سمع عمرو بن العاص يقول لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر علىّ عهد ولا عقد إلا أهل أنطابلس؛ فإن لهم عهدا يوفى لهم به، حدثنا عبد الملك حدثنا ابن لهيعة عن أبى قتبان به وزاد إن شئت قتلت وإن شئت خمست وإن شئت بعت، وأخرج عن ربيعة بن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص. قال: فتحت مصر بغير عهد ولا عقد وأن عمر بن الخطاب حبس درها وصرها أن يخرج منه شىء نظراً للإسلام وأهله، وأخرج عن زيد بن أسلم، قال: كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل ما كان بينه وبين أحد ممن عاهده فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد، وأخرج عن الصلت بن أبى عاصم أنه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح أن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد.

ومن قال: إن بعضها صلح وبعضها عنوة، قال ابن عبد الحكم: حدّثنا يحيى ابن خالد عن راشد بن سعد، عن عقيل بن خالد، عن ابن شهاب قال: كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب جميعاً ذمة وحملهم على ذلك فمضى فيهم ذلك إلى اليوم (قلت) وقد أثبت أصحاب التاريخ من غير العرب من المتقدمين والمتأخرين أن مصر فتحت كلها صلحاً باتفاق مع المقوقس عظيم القبط يومئذ تخلصاً من ربقة ظلم الروم وعسفهم وقد لخص القضاعى فى كتابه الخطط قصة فتح مصر تلخيصاً وجيزاً هو أقرب للصواب، قال: لما قدم عمرو ابن العاص ﷺ من عند عمر ﷺ كان أوّل موضع قاتل فيه الفرما قتالاً شديداً نحواً من شهر قال: قال أبو عمرو الكندى: وكان أوّل من شد على باب الحصن حتى اقتحمه أسميقع بن وعلة السبائى وأتبعه المسلمون فكان الفتح وتقدم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين وهى المقس فقاتلوه بها قتالاً شديداً وكتب إلى عمر يستمده فأمده باثنى عشر ألف نفر فوصلوا إليه أرسالاً يتبع بعضهم بعضاً، وكان فيهم أربعة آلاف عليهم أربعة وهم الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، وقيل أن الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة ثم أحاط المسلمون بالحصن وأمير الحصن يومئذ المندقور الذى يقال له الأعيرج من قبل المقوقس بن قرقيت اليونانى، وكان المقوقس ينزل الإسكندرية وهو فى سلطان هرقل غير أنه كان حاضراً الحصن حين حاصره المسلمون ونصب عمرو فسطاطه فى موضع الدار المعروفة بإسرائيل التى على باب زقاق الزهرى، ويقال فى دار أبى

الوزام التى فى أول زقاق الـزهرى ملاصقـة لدار إسرائيل وأقام المسـلمون على باب الحصن محـاصرين للروم سبعـة أشهر، ورأى الزبيـر خللاً مما يلى دار أبى صـالح الحورانى الملاصـقـة لحمـام ابـن نصـر السـراج عنـد سـوق الحـمـام فنـصـب سُلمًا وأسنده إلى الحـصن. وقال: إنى أهب نفـسى لله عـزّ وجلّ فمن شـاء أن يتبـعنى فليتبـعنى فتبعـه جماعة حتى أوفى على الحـصن فكبر وكبروا ونصب شـرحبيل بن حسنة المرادى سلمـاً آخر مما يلى زقاق الزمـامرة. ويقال أن السلم الذى صعـد عليه الزبير كان موجوداً فى داره التى بسـوق وردان إلى أن وقع جريق فاحترق. ولما رأى المقوقس أن العـرب قد ظفروا بالحـصن جلس فى سفنه هو وأهل الرفعـة من القوم وكانت ملصقـة بباب الحصن الغربى فلحـقوا بالجزيرة وقطعوا الجـسر وتحصنوا هناك والنيل حينئذ فى مـدّه وتكلموا فى أمر الصلح فبعث عمرو بـعبادة بن الصامت إلى المقوقس فصالحه المقـوقس على القبط والروم على أن للروم الخيار فى الصلح إلى أن يوافى كتـاب ملكهم فإن رضى تم ذلك وإن سـخط انتقض ما بيـنه وبين الروم وأما القبط فبـغير خيار. قال: وكـان الذى انعقد عليه الصلح أن فـرض على جميـع من بمصـر أعـلاها وأسفلـهـا من القبط دينارين عن كل نفس فى كل سنة من البـالغين شريفهم ووضيـعهم دون الشيوخ والأطفال والنساء على أن للمـسلمين عليهم النزل والضيافة حيث نزلوا وضيافة ثلاثة أيام لكل من ينزل منهم وأن لهم أرضهم وبلادهم لا يتعرضون فى شىء منها أبداً. اهـ.

(قلـت) فمن قال: إن مصر فتـحت صلحاً تعلق بهذا الصلح. وقال: الأمر لم يتم إلا بما جرى بين عـبادة بن الصامت وبين المقوقس وعلى ذلك أكـثر العلماء من أهل مصر منهم عقبة بن عامر ويزيد بن أبى حبيب والليث بن سعد وغيرهم وذهب الذين قالوا إن مصر فتحت عنوة إلى أن الحصن فتح عنوة فكان جميع الأرض كذلك وكان فتحها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين وذكر يزيد بن أبى حبيب أن عدد الجيش الذى كـان مع عمرو بن العاص خـمسة عـشر ألفا وخمـسمائة، وقال عـبد الرحمن بن سعـد بن مقدام: إن الذين جرت سهامـهم فى الحصن من المسملين اثنا عشر ألفـا وثلثمائة بعـد من أصيب منهم فى الحصار من القـتل والموت. ويقال: إن الذين قتلوا فى مدّة هذا الحـصار من المسلمين دفنوا فى أصل الحصن ثم سـار عمرو إلى الإسكندرية فى شـهر ربيع الأوّل سنة عشـرين وقيل فى جـمادى الآخرة فـأمر بفسطاطه أن ينزع فـإذا بيمامـة قد باضت فى أعلاه. فـقال: قد تحـرمت فى جوارنا أقروا الفـسطاط حتى تطـير فراخـها فـأقروا الفـسطاط فى موضـعه فلذلك سـميت

الفسطاط، وقال ابن قتيبة: وإنما العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط . اهـ.

ونقل عمرو بن العاص إلى الإسكندرية بعد افتتاحها والمقام بها فى ذى القعدة سنة عشرين. قال الليث: أقام عمرو بالإسكندرية فى حصارها وفتحها ستة أشهر ثم انتقل إلى الفسطاط فاتخذها دارًا . اهـ.

وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغاً منها همّ أن يسكنها، وقال: مساكن قد كفيناها فكتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ يستأذن فى ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بينى وبين المسلمين ماء. قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل فكتب عمر إلى عمرو بن العاص إنى لا أحب نزول المسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف فتحوّل عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط، ولما رجع عمرو بن العاص من الإسكندرية ونزل موضع الفسطاط انضمت القبائل بعضها إلى بعض وتقاسموا فى المواضع فولى عمرو على الخطط معاوية بن حديج النجيبى وشريك بن سمى الغيطفى بن مراد وعمرو بن قحزم الخولانى وحيويل بن ناشرة المعافرى فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل وذلك فى سنة إحدى وعشرين، ذكره الكندى، وقد كان المسلمون حين اختطوا تركوا بينهم وبين البحر والحصن فضاء لتفريق دوابهم وتأديبهم فلم يزل الأمر على ذلك حتى ولى معاوية بن أبى سفيان فأقطع فى الفضاء وبنيت به الدور، وأما الإسكندرية فلم يكن بها تخطيط وإنما كانت أخائذ من أخذ منزلاً نزل فيه هو وبنوه وبنو بنيه. وفى قول ليزيد بن أبى حبيب أن الزبير بن العوام اختط الإسكندرية، وفتح عمر بن الخطاب فى خلافته أيضاً عدا ما تقدم ذكره تستر ونهاوند والرى وما يليها وأصبهان وبلاد فارس وإصطخر وهمذان والنوبة والبرلس والبربر وغير ذلك قيل: وكانت درّته أهيب من سيف الحجاج ومع ذلك كله بقى على حاله كما كان قبل الولاية فى لباسه وزيه وأفعاله وتواضعه يسير منفرداً فى حضره وسفره من غير حرس ولا حجاب لم تغيره إلا مرة ولم يستطل على مسلم بلسانه ولا حابى أحدًا فى الحق.

وقتل عمر بن الخطاب سنة ثلاث وعشرين للهجرة قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة واسمه فيروز، وكان المغيرة يستغله كل يوم أربعة دراهم لأنه كان يصنع الأرحاء فلقى عمر يوماً فقال ياأمير المؤمنين: إن المغيرة قد أثقل علىّ غلتى فكلمه لى ليخفف عنى فقال له عمر: اتق الله وأحسن إلى مولاك فغضب أبو لؤلؤة، وقال

ياعجباه قد وسع الناس عدله غيري وأصر على قتله واصطنع له خنجراً له رأسان وسمه وتحين به عمر. فجاء عمر إلى صلاة الغداة، قال عمرو بن ميمون: إني لقائم في الصلاة وما بيني وبين عمر إلا ابن عباس رضي الله عنه فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول قتلني الكلب حين طعنه وطار العلج بسكين كانت ذات طرفين لا يمر على أحد يمينا وشمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات سبعة وقيل تسعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما علم أنه مأخوذ نحر نفسه، فقال عمر قاتله الله: لقد أمرت به معروفاً، ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الإسلام، وكان أبو لؤلؤة مجوسياً توفي في ذي الحجة لأربع عشرة ليلة مضت منه في السنة المذكورة بعد طعنه بيوم وليلة عن ثلاثة وستين سنة ودفن مع صاحبه في حجرة النبي صلى الله عليه وسلم اهـ.

قال صاحب حياة الحيوان في باب الدال المهملة: روى مسلم وغيره أن عمر رضي الله عنه خطب الناس يوماً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إني رأيت رؤيا لم أرها إلا لحضور أجلي وهي أن ديكاً نقرني ثلاث نقرات، وفي لفظ رأيت كأن ديكاً أحمر نقرني نقرة أو نقرتين فحدثتها أسماء بنت عميس فحدثتني بأنه يقتلني رجل من الأعاجم، وكان هذا القول منه يوم الجمعة فطعن يوم الأربعاء رضي الله عنه .اهـ.

قال: وروى الحاكم عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر: رأيت في المنام كأن ديكا نقرني ثلاث نقرات فقلت أعجمي يقتلني وإني جعلت أمري لهؤلاء الستة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض وهم: عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص فمن استخلفوه فهو الخليفة، وذكرا بن خلكان وغيره أن عمر لما طعن اختار من الصحابة ستة نفر وهم المتقدم ذكرهم، وكان سعد بن أبي وقاص غائباً وجعل عبد الله ابنه مشيراً وليس له من الأمر شيء وأقام المسور بن مخرمة وثلاثين نفساً من الأنصار وقال: إن اتفقوا على واحد إلى ثلاثة أيام وإلا فاضربوا رقاب الكل فلا خير للمسلمين فيهم، وإن افترقوا فرقتين فالفرقة التي فيها عبدالرحمن بن عوف، وأوصى أن يصلي صهيب بالناس ثلاثة أيام فأخرج عبد الرحمن بن عوف نفسه من الشورى واختار عثمان فبايعه الناس (قلت) وقد نسب أهل التاريخ هذه الفعلة لعمر من أشنع الفعال وأشدها ضرراً بالإسلام وأهله، ونقل ابن العباس بن عبدالمطلب أنه قال لعلي ياابن أخي لا تدخل نفسك في الشورى مع القوم فإني أخاف أن يخرجوك منها فتبقى وصمة فيك فلم يقبل منه، قال: ولما طعن عمر سئل ما أحب الأشربة

إليك ياأمير المؤمنين؟ قال: النبيذ فسقوه نبيذاً فخرج من جرحه فقال قوم نبيذ، وقال قوم دم فسقوه لبناً فخرج من جرحه فقيل له أوص ياأمير المؤمنين فأوصى بالشورى. قال: ويقال: أن عبيدالله بن عمر وثب على الهرمـزان فقتله وقتل معه رجلاً نصرانياً من أهل نجران كانا قد اتهما بإغـراء أبى لؤلؤة بعمر رضي الله عنه وقتل بنتا طفلة لأبى لؤلؤة ووارهم عثمان رضي الله عنه ولحق عبـيد الله بمعاوية فى خلافة على رضي الله عنه، قال: وكـان فى أيام عمر الفتوحات العظام وهو الذى سمى الغزوات الشواتى والصوائف، وهو أوّل من أرّخ التاريخ بعـام الهجـرة وأوّل من دعى أمير المؤمنين وأوّل مـن ختم الكتب. وكان فى يده خاتم رسول الله ﷺ وأوّل من ضرب بالدرة وحملها، وأوّل من قال أطال الله بقـاءك قالها لـعلى رضي الله عنه وهو الذى أخر المقـام إلى موضـعه اليـوم. وكان ملصقاً بـالباب وهو أوّل من جمع الناس على إمام واحـد فى التراويح وحج بالناس عشـر سنين متـوالية آخرها سـنة ثلاث وعشرين ومـعه نسـاء رسول الله ﷺ فى الهوادج ورجع إلى المدينة فرأى الرؤيا المتقدّمة . اهـ.

واستعمل عمر بن الخطاب فى خلافته على مصر بعد فتحها فى سنة تسع عشرة لهجرة عمرو بن العاص فضرب عمرو على أهلها الجزية كما تقدّم بك بيانه وبالغ فى إرهاب الناس وإذلالهم وجـمع ما عندهم من الأمـوال والكنوز واختـط مصر قـبل والإسكندرية والجيزة، وكان إلى هذا الحين قد تم له فتح سائر البلاد إلا دمياط وكان العامل عليها يومئذ من قبل الروم (الهـاموك) أحد أقارب المقوقس فراسله عمرو فى الإذعان والتسليم فـامتنع وقال: لا سبيل إلى ذلك فطاولـه فلم يذعن وأصر على ما هو عليه فأنفذ له عمرو المقداد بن الأسود فى جـماعة من المسلمين فلاقاه (الهاموك) فى عسكر واقتتل الفـريقان قتالاً شديداً فكانت بينهم سجـالاً ومات ابن الهاموك فى ساحة القتال فارتد الهاموك إلى دمياط وجمع إليه أصحاب الرأى وكلمهم فى الأمر، قيل: وكـان بينهم رجل حكيم مسـموع الكلمـة فقال أيهـا الأمير إنا لـم نسمع عن هؤلاء القـوم منذ جاءوا إلى هـذه الديار ووطئوا أرضـها إلا مـا يدل على تأيـيدهم ونصرهم وها هم قد فـتحوا البلاد وقهروا العـباد، وبسطوا يدهم على تلك الممالك الواسعـة فالرأى عندى أن تعقـد مع القوم صلحـاً تحقن به الدماء وتحـفظ الأعراض والأموال وانظر إلى ما جرى مع المـقوقس وأصحابه فقد صالحـوا القوم وكفاهم الله شرهم، قيل: فلم يقبل الهاموك كلامه وباتوا ليلتهم تلك وأصبح الهاموك فنادى فى عسكره بالخروج لقتـال المسلمين فلم يتكامل خروجهم حتى سمعـوا تكبير المسلمين على أسوار المديـنة فسقط الهـاموك فى يده وتسلم المسلمـون المدينة وجاء الخـبر إلى

عمرو بن العاص بالفتح ففرح فرحاً لا يوصف، وسار المقداد بن الأسود بمن بقى معه من المسلمين إلى فتح تانس فقاتله أهلها قتالاً شديداً وما زال يقاتلها أياماً حتى تم له فتحها فلم يبق بعد ذلك شيء بغير فتح وأشتد عمرو بن العاص فى إحصاء أهل البلاد وتقدير الجزية عليهم فكان يحبس منها ما يحتاج إليه ويبعث إلى عمر بن الخطاب بما بقى منها، قال ابن عبد الحكم: وكان عمرو بن العاص لما استوثق له الأمر أقر قبطها على جباية الروم فكانت جبايتهم بالتعديل إذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم وإن قل أهلها وخربت نقصوا فيجتمع عرفاء كل قرية ورؤساؤها فيتناظرون فى العمارة والخراب حتى إذا أقرّوا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع، ثم ترجع كل قرية إلى قسمتهم فيجمعونها وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة فيبدأون فيخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان فإذا فرغوا نظروا إلى ما فى كل قرية من الصناع والأجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم، فإن كانت فيهم جالية قسموا عليها بقدر احتمالها وقلما كانت إلا للرجل الشاب أو المتزوّج ثم نظروا فيما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم فإن عجز أحد منهم وشكى ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال، وإن كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف فإن تشاحنوا قسموا ذلك على عدتهم وكانت قسمتهم على قراريط الدينار أربعة وعشرين قيراطا يقسمون الأرض على ذلك وجعل عليهم عمرو بن العاص لكل فدان نصف أردب قمح وويبتين من شعير إلا القرط فلم يكن عليه ضريبة، قال عبد الملك بن الليث بن سعد: كانت ويبة عمر بن الخطاب فى ولاية عمرو بن العاص ستة أمداد.

واستقامت الأمور لعمرو فعمد إلى إصلاح ما أفسدته الحروب وعبثت به أيدى الجور والعسف من العمائر والترع والخلجان والجسور فمهد الطرق وسهل المسالك وحفر الخلجان لرى الأراضى وأصلح مقياس النيل وأعاده إلى ما كان عليه من قبل وأقام العرفاء والمشايخ للقرى والبلاد من أبناءها فاستقامت الأحوال وأطمأنت قلوب الرعية وخلدوا إلى السكون والطاعة ورتب المحاكم للفصل فى الخصومات بين أهل البلاد فلم يكن لعمرو ولا لغيره من أصحاب الفتح دخل فى ذلك البتة ولا كلمة مقولة وأوسع صدره للعظماء والكبراء من أهل البلاد فأحبوه ومالوا إليه وأخلصوا له

النية فعلت كلمته وعظمت شهرته ودانت له عظائم الأمور وعمرت القرى وازدهت البلاد واتسعت مادّة ثروتها وعادت إلى رونقها القديم وضاقت بأهلها أو كادت، حدثنا عثمان بن صالح وعبد الله بن صالح قالا: حدثنا الليث بن سعد، قال: لما ولى ابن رفاعة مصر خرج ليحصى عدة أهلها وينظر فى تعديل الخراج عليهم فقام فى ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان ومعه جماعة من الأعوان والكتاب يكفونه ذلك بجدّ وتشمير وثلاثة أشهر بأسفل الأرض فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية فلم يحص فيها فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية. قال: وحدثنا عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد أن عمرا جبى مصر اثنى عشر ألف ألف وجباهم المقوقس قبله ستة وعشرين ألف ألف فعند ذلك كتب إليه عمر بن الخطاب، بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص، سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد فإنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوّة فى بر وبحرت وأنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوّهم وكفرهم فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدّى نصف ما كانت تؤدّيه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب ولقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير تراث ورجوت أن تفيق فترفع إلىّ ذلك فإذا أنت تأتينى بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذى فى نفسي ولست قابلاً منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ولست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى وقبضك فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً أن البراءة لنافعة وإن كنت مضيعاً نطعا أن الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك وقد تركت أن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق فترفع إلىّ ذلك وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك عمال السوء وما توالس عليك وتلفف اتخذوك كهفاً وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فإن النهر يخرج الدر والحق أبلج، ودعنى وما عنه تتلجلج فإنه قد برح الخفاء والسلام فكتب إليه عمرو بن العاص، بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو ابن العاص سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج والذى ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلى وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها مذ كان الإسلام

ولعمرى الخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الإسلام وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حلباً قطع درها وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرّضت وثربت وعلمت أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر فجئت لعمرى بالمقطعات المقذعات. ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق ولقد عملنا لرسول الله ﷺ ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا حافظين لما عظم الله من حق ائمتنا نرى غير ذلك قبيحاً والعمل به شينا فتعرف ذلك لنا ونصدق فيه قلبنا معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم فامض عملك فإن الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم فيه أخاً والله يا بن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد غضباً لنفسى ولها إنزاها وإكراماً وما عملت من عمل أرى علىّ فيه تعللا ولكنى حفظت ما لم تحفظه ولو كنت من يهود يثرب ما زدت يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنت بها عالماً وكان اللسان بها منى ذلولاً ولكن الله عظم من حقك ما لا يجهل والسلام.

فكتب إليه عمر بن الخطاب من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد فإنى قد تعجبت من كثرة كتبى إليك فى إبطائك بالخراج وكتابك إلىّ بثنيات الطرق وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين ولم أقدمك إلى مصر أجلعها لك طعمة ولا لقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج فإنما هو فيء المسلمين وعندى من قد تعلم قوم محصورون والسلام.

فكتب إليه عمرو بن العاص، بسم الله الرحمن الرحيم، لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ويزعم إنى أحيد عن الحق وأنكب عن الطريق وإنى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ولكن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيراً من أن نخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم عنه والسلام.

فلما استبطأ عمر بن الخطاب الخراج كتب إليه أن أبعث إلىّ رجلاً من أهل مصر فأرسل إليه رجلاً قديماً من القبط فاستخبره عمر عن مصر وخراجها قبل الإسلام. فقال ياأمير المؤمنين: كان لا يؤخذ منها شيئاً إلا بعد عمارتها وعاملك لا ينظر إلى العمارة وإنما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريدها إلا لعام واحد فعرف عمر مقاله وقبل

من عمرو بن العاص ما كان يعتذر به، وقال ابن عبد الحكم: حدثنا هشام بن إسحق العامرى. قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص أن يسأل المقوقس عن مصر من أين تأتى عمارتها وخرابها فسأله عمرو فقال له المقوقس تأتى عمارتها وخرابها من خمسة وجوه أن يستخرج الخراج فى إبان واحد عند فراغ أهلها من زرعها ويدفع خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومها وتحفر فى كل سنة خلجها وتسد ترعها وجسورها ولا يقبل مطل أهلها يريد البغى فإذا فعل هذا فيها عمرت وإن عمل فيها بخلافه خربت، قال ابن عبد الحكم: حدثنا عثمان بن صالح، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، قال: كانت فريضة مصر لحفر خلجها وإقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألفا معهم الطوريات والمساحى والأداة يعتقبون ذلك لا يدعونه شتاءً ولا صيفاً. اهـ.

وكان فى خلال المدة من مجىء هرقل ملك الروم إلى مصر واشتداده على المتأصلين من أهل البلاد كما تقدم الكلام على ذلك فى محله إلى فتوح مصر على يدى عمرو بن العاص قد مات أطناسيوس بطرك الإسكندرية بعد أن قام اثنتى عشرة سنة، وقد اختلف الكتاب فيما إذا كان هو الذى هاداه أطناسيوس بطرك أنطاكية وقدم عليه زائراً أو هو داميانوس خامس ثلاثى بطاركة الإسكندرية، فلما مات أقاموا بعده أندرونيقون وهو سابع ثلاثيهم فلبث ست سنين ومات فى ثامن طوبة، وفى أيامه خربت جميع الديارات واشتد الأمر على النصارى شدة عظيمة للغاية وأبق الكثير من الرهبان والراهبات إلى بعض الجبال فراراً، ثم أقاموا بعده بنيامين وهو ثامن ثلاثيهم وكان متأصلاً وهو من مريوط وكان ورعاً تقياً فعمر فى أيامه دير أبو بشاى ودير سيدة أبو بشاى وهما فى وادى هبيب، فلما جاءت الفرس ديار مصر كما تقدم بيان ذلك فى محله واشتدوا على النصارى فرّ هارباً منهم وبقى مختفياً حتى زالت دولة الفرس على يدى هرقل، وذلك أن هرقل المذكور لما نزل على مصر وحارب الفرس وطردهم من أرضها أقام بطركا من الملكيين بالإسكندرية اسمه نيرش، وكان منانيا مع أن هرقل كان مارونيا وطلب بنيامين البطرك المذكور وسعى خلفه ليقتله فلم يتمكن منه فظفر بأخيه مينا فقبض عليه وأحرقه بالنار تشفياً وانتقاماً، وبنيامين هذا هو الذى راسل المقوقس وعظماء القبط فى أمر المسلمين ومعاونتهم على قتال الروم وإمدادهم بالذخيرة والميرة فلما استتب الأمر لعمرو بن العاص أرسل إليه فى سنة عشرين هجرية فقدم على عمرو بالقاهرة فأكرمه وأجله وبالغ فى تعظيمه لأنه كان عونه على الروم فجلس فى منصب البطريكية بعد غيابه عنه ثلاثة عشرة سنة منها عشر سنين فى ملك فارس على مصر، وباقيها بعد ذلك

وأخذ يتصـرف فى الأمور فأحسن التدبيـر وكاد يعيد للقبط مـا أزالته عنهم الحروب والخطوب المتراكمة من العز والسـؤدد وظل مهيباً معظماً موقراً مـسموع الكلمة حتى مات كما سيأتى ذكر ذلك فى محله.

وكانت خلافة عمر بن الخطاب عشـر سنين وستة أشهر وخمس ليال وفى رواية وثلاثة عشر يوماً، فقام بالأمر بعد موته عثمان بن عفان.

(الفصل الثالث)

(فى خلافة عثمان بن عفان)

ثم قام بالأمر بعده عثمان بن عفان تشاور أهل الحل والعقد بعد دفن عمر بثلاثة أيام واتفقوا على مـبايعته وهو ابن عم صاحب الشريعـة الأعلى بويع له بالخلافة فى أول يوم من سنة أربع وعشرين للهجرة أى سنة أربع وأربعين وسـتمائة للميلاد، قال أصحاب التاريخ: أنه لم يزل اسمه فى الجاهليـة والإسلام عثمان ويكنى بأبى عمرو وأبى عبد الله والأول أشهـر وينسب إلى أمية بن عبد شمس، فيقـال الأموى يجتمع مع صاحب الشريعة الإسلامـية فى عبد مناف ويدعى بذى النورين، قيل لأنه تزوّج بابنتى صاحب الـشريعة رقيـة وأم كلثوم وهو أول من هاجـر إلى الحبشـة فاراً بدينه ومعه زوجـته رقية وعدّ من البـدريين ومن أهل بيعة الرضوان ولم يحضـرهما وكان غنياً كثيـر المال، وكانت له شفقة ولما تولى زاد تواضـعه وشفقته برعيـته وكان يطعم الناس طعام الإمارة ويأكل الخل والزيت وجهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً بأحلاسهـا وأقتابها وأتم الألف بخمسـين فرسا، قال ابن قتـيبة: وافـتـتح فى أيامه الإسكندرية (قلت لخروجهـا فى خلافته) وسابور وأفريقيـة وقبرص وسواحل الروم وإصطخر الأخرى وفـارس الأولى وخورستان وفـارس الأخرى وطبرستـان وكرمان وسجستان والأساورة وأفريقية من حصون قبرص وساحل الأردن ومرو، ولما عمرت المدينة وصارت وافرة من الأنام وكـثرت فيها الخيرات والأمـوال وجىء إليها بالخراج من الممالك وبطـرت الرعية من كـثرة الأموال والخـير والنعم وفتـحوا أقـاليم الدنيا واطمأنوا وتفرغوا جعلـوا ينقمون على خليفتهم عثمان لأنـه كان له الأموال العظيمة وكان له ألف مملوك، ولأنه كان يعطى المال لأقـاربه ويوليهم الإيالات الجليلة فأحس عثمان بذلك وسير فى طلب عماله وكتب إلى أهل الأمصار إنى آخذ عمالى بموافاتى كل موسم، وقد رفع إلىّ أهل المدينة أن أقـواماً يشتمون ويضربون فـمن ادّعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم يأخذ حقه حيث كان منى أو من عمالى أو تصدقوا فإن الله

يجزى المتصـدقين، قيل فلما قرىء ذلـك بالأمصار بكى الناس ودعوا لعثـمان وقدم عليه فى الموسم بعض عمله وهم عـبد الله بن عامر، وعبد الله بن سـعد، ومعاوية وأدخل معهم أيضاً سعيد بن العـاص وعمرا فقال: ويحكم ما هذه الشكاية والإذاعة إنى والله خائـف أن تكونوا مصدوقـاً عليكم وما يـصعب هذا إلا بى، فقـالوا: ألم تبعث ألم يرجع إليـك الخبر عن العوّام ألـم يرجع رسلك ولم يشافهـهم أحد بشىء والله ما صدقوا ولا بروا ولم نعلم لهذا الأمـر أصلاً ولا يحل الأخذ بهذه الإشاعة، فقال عند ذلك أشيروا علىّ: فقال سعيد: هذا أمر مصنوع يلقى فى السر فيتحدث به الناس ودواء ذلك طلب هؤلاء وقتل الذين خرج هذا من عندهم، وقال عبد الله بن سعد: خـذ من الناس الذى عليهم إذا أعطيتهم الذى لهم فإنه خـير من أن تدعهم، وقال مـعاوية: قـد وليتنى فوليت قـوماً فـلا يأتيكم عنهم إلا الخيـر والرجلان أعلم بناحيتهما والرأى حسن الأدب، وقـال عمرو: أرى أنك قد لنت لهم ورخيت عليهم وزدتهم على ما كان يصـنع عمر فأرى أن تلزم طريقة صـاحبيك فتشـتدّ فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين، قال عثمان: قد سمعت كل ما أشرتم به على ولكل أمر باب يؤتى منه أن هذا الأمر الذى يخـاف منه على هذه الأمة كائن وأن بابه الذى يغلق عليـه ليفتـحن فنكفكفه باللين والمواناة إلا فى حـدود الله فإن فـتح فلا يكون لأحد علىّ حجة وقد علـم الله أنى لم آل الناس خيراً وأن رحى الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها سكنوا الناس وهبـوا لهم حقوقهم فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تداهنوا فـيها، ثم افترقوا على ذلك واتفق المنحـرفون على عثمان على يوم يخرجون فيه بالأمصار جميعها إذا سارعتها الأمراء وخلت منهم فلم يتهيأ لهم ذلك، وكان بمصر مـحمد بن أبى بكر ومحمد بن أبـى حذيفة يحرضان على عثـمان فلما خرج المصريون خرج فـيهم عبد الرحمن بن عديس البلوى فى خمـسمائة وقيل فى ألف وفيـهم كنانة بن مبـشر الليـثى وسودان بن حـمران السكونى وقتبـرة بن فلان السكونى وتقدمهم جميعاً الغـافقى بن حرب العكى، وخرج أيضاً أهل الكوفة وهم فى عـداد أهل مصـر أو ما يقـرب منه وخرج أهل البـصرة وهم بعـداد أهل مصـر وأميرهم حرقوص بن زهير السعدى وكان خـروجهم جميعاً فى شوّال وأظهروا أنهم إنما يريدون الحج فلمـا كانوا بالمدينة على ثلاث مـراحل تقدم ناس من أهل البـصرة فنزلوا ذا خشب وكانوا يميلون إلى طلحـة وتقدم ناس من أهل الكوفة وكان هواهم مع الزبير ونزلوا الأعوص وجاءهم ناس من أهل مصر وكانوا يميلون إلى علىّ ونزل جميعهم بذى المروة ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر وعبد الله ابن الأصم. وقالا لـهم: لا تعجلوا حـتى ندخل المدينة ونرتاد لكم فقـد بلغنا أنهم

عسكروا لنا فوالله إن كان هذا حقاً واستحلوا قتالنا بعد علم حالنا إن أمرنا لباطل وإن كان الذى بلغنا باطلاً رجعنا إليكم بالخبر فذهبا ودخلا المدينة فلقيا ازواج صاحب الشريعة وطلحة والزبير فكلمهما أبيّ ونهاهما فرجعا إلى أصحابهما وكتب عثمان إلى أهل الأمصار يستنجدهم ويأمرهم بالبحث للمنع عنه ويتعرف ما الناس فيه من الهرج والتألب على خلع بيعته وإقامة خليفة غيره، قال بعض أهل التاريخ: فخرج أهل الأمصار على الصعب والذلول وسير كل عامل جماعة من عنده إلى المدينة فلما كانت الجمعة التى على أثر دخولهم المدينة خرج عثمان فصلى بالناس ثم قام على المنبر فقال: ياهؤلاء الله الله فوالله أن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ فامحوا الخطأ بالصواب، فقام عند ذلك محمد بن مسلمة فقال أنا أشهد بذلك فأقعده حكيم بن جبلة فقام زيد بن ثابت فأقعده محمد بن أبى كثيرة وثار القوم بأجمعهم وقامت الضوضاء واشتد اللجاج فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد عنوة وحصبوا عثمان حتى صرع من المنبر مغشيًا عليه فأدخل داره، واستقتل جماعة من أهل المدينة مع عثمان منهم سعد بن أبى وقاص والحسين ابن على وزيد بن ثابت وأبو هريرة فأرسل إليهم عثمان فى الانصراف فانصرفوا وأقبل علىّ وطلحة والزبير فذهبوا إلى عثمان يعودونه من صرعته ويشكون إليه ما يجدون وكان عند عثمان نفر من بنى أمية فيهم مروان بن الحكم فقاموا كلهم فى وجه علىّ وقالوا: أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع والله لئن بلغت الذى تريد لنمررن عليك الدنيا فقام مغضبا وعاد وهو ومن كان معه إلى منازلهم، قال أهل التاريخ: وصلى عثمان بالناس بعد ذلك ثلاثين يوماً ثم منعوه الصلاة وصلى بالناس أميرهم الغافقى واشتد بعض الناس لعثمان وكثرت أعداؤه وطالبوه ونزلوا ذا خشب كما تقدم القول يريدون قتله إن لم يقلع عما يكرهون منه فاشتد قلق عثمان وجاء إلى علىّ بن أبى طالب فدخل عليه بيته فقال له ياابن عم إن قرابتى قريبة ولى عليك حق عظيم وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحىّ ولك عند الناس قدر وهم يسمعون منك وأحب أن تركب إليهم فتردهم عنى فإن فى دخولهم علىّ توهينا لأمرى وجراءة علىّ فقال علىّ: على أى شىء أردهم عنك، قال: على أن أصير إلى ما أشرت إليه ورأيته لى، فقال علىّ: إنى قد كلمتك مرة بعد أخرى فكل ذلك نخرج فنقول ثم ترجع عنه وهذا من فعل مروان وابن عامر ومعاوية وعبد الله بن سعد فإنك أطعتهم وعصيتنى، قال عثمان فأنا أعصيهم وأطيعك فى أمر الناس قيل فركب علىّ ومعه من المهاجرين والأنصار ثلاثون رجلاً فأتوا المصريين فكلموهم وكان الذى يخاطبهم علىّ ومحمد ابن مسلمة فسمعوا مقالتهما ورجعوا إلى مصر

ورجع عليّ إلى المدينة وأخبر عثمان برجوعهم وكلمه بما فى نفسه فلما كان اليوم الثانى دخل مروان على عثمان فقال له تكلم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا وأنهم تحققوا بطلان ما بلغهم عن إمامهم (يعنى عثمان) فأطاعه عثمان فى ذلك فلما خطب الناس قال له عمرو بن العاص اتق الله ياعثمان فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك فتب إلى الله تب فناداه عثمان وإنك هناك ياابن النابغة قلت والله جبتك منذ عزلتك عن العمل فصاح صائح من جهة أخرى تب ياعثمان إلى الله فرفع يديه، وقال: اللهم إنى أول تائب فخرج عمرو بن العاص إلى الشام وجعل يحرض الناس على خلع بيعة عثمان، قال عمرو: والله إنى كنت لألقى الراعى فأحرضه على عثمان، ولم يكن بأسرع من أن عاد المصريون إلى المدينة فانطلق إليهم محمد بن مسلمة يسألهم عن سبب عودهم فأخرجوا صحيفة فى أنبوبة رصاص، وقالوا: وجدنا غلام عثمان بالبويب على بعير من إبل الصدقة ففتشنا متاعه فوجدنا فيه هذه الصحيفة يأمر فيها بجلد عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق وعروة بن المبياع وحبسهم وحلق رؤسهم ولحاهم وصلب بعضهم، وفى رواية أخرى أن الذى كان يحمل الصحيفة الأعور السلمى، فلما رأوه سألوه عن مسيره وهل معه كتاب، فقال: لا تسألونى فى أى شىء هو ففتشوه وأخذوا الكتاب منه وعادوا وعاد الكوفيون والمصريون فلما عاد أهل مصر أخبروا بذلك محمد بن مسلمة فدخل عليّ ومحمد بن مسلمة على عثمان وأخبراه بما قاله أهل مصر فأقسم بالله ما كتبته ولا علم لى به، فقال محمد: صدق هذا من عمل مروان ودخل عليه المصريون فلم يسلموا عليه بالخلافة فعرفوا الشر فيهم وتكلموا فذكر ابن عديس ما فعل عبد الله ابن سعد بالمسلمين فى مصر وبأهل البلاد فيها أيضاً والاستئثار فى الغنائم فإذا قيل له فى ذلك قال هذا كتاب أمير المؤمنين وذكروا شيئاً مما وقع بالمدينة أيضاً، ثم قال له وخرجنا من مصر ونحن نريد قتلك فردنا عليّ ومحمد بن مسلمة وضمنا لنا النزوع عن كل ما تكلمنا فيه فرجعنا إلى بلادنا فرأينا غلامك وكتابك وعليه خاتمك تأمر عبد الله بجلدنا والمثلة بنا وطول الحبس فعند ذلك حلف عثمان أنه ما كتب ولا أمر ولا علم، قال أصحاب التاريخ: فقال على ومحمد: صدق عثمان فقال المصريون فمن كتبه، قال: لا أدرى قالوا فيجترأ عليك ويبعث غلامك وجمل من الصدقة (يعنى من جمال عثمان المعدة للصدقة) وينقش على خاتمك ويبعث إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة وأنت لا تعلم، قال: نعم. فقال: ما أنت إلا صادق أو كاذب فإن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا بغير حق، وإن كنت صادقاً

فقد استحققت أن تخلع نفسك لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك وخبث بطانتك ولا ينبغى لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه لضعفه وغفلته فاخلع نفسك منه كما خلعك الله، فقال عثمان: لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله ولكنى أتوب وأنزع قالوا: لو كان هذا أول ذنب تبت منه قبلنا ولكنا رأيناك تتوب ثم تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك أو تلحق أرواحنا بالله تعالى، وإن متعك أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك. فقال: أما أن أتبرأ من خلافة الله فالقتل أحب إلىّ من ذلك وأما قولكم تقاتلون من منعنى فإنى لا آمر أحدا بقتالكم فمن قاتلكم فبغير أمرى قاتل ولو أردت قتالكم لكتبت إلى الأجناد فقدموا علىّ أو لحقت ببعض أطرافى، وكثرت الأصوات واللغط وعلت الضوضاء فقام علىّ فخرج وأخرج المصريين ومضى علىّ إلى منزله فحاصر المصريون عثمان واشتدّ الحصار عليه قيل فأرسل إلى علىّ وطلحة والزبير فحضروا فأشرف عليهم عثمان، وقال: أيها الناس أجلسوا فجلسوا المحارب والمسالم فقال لهم ياأهل المدينة أستودعكم الله وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدى، ثم قال: أنشدكم بالله هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم أتقولون أن الله لم يستجب لكم وهنتم عليه وأنتم أهل حقه أم تقولون هان على الله دينه فلم يبال من ولى والدين لم يتفرّق أهله يومئذ أم تقولون لم يكن أخذ عن مشورة إنما كان مكابرة فوكل الله الأمة إذ عصته ولم يشاوروا فى الإمامة أم تقولون إن الله لم يعلم عاقبة أمرى، وأنشدكم بالله أتعلمون لى من سابقة خير وقدم خير قدّمه الله لى، يحق على كل من جاء بعدى أن يعرفوا لى فضلها فمهلاً لا تقتلونى فإنه لا يحل إلا قتل ثلاثة: رجل زنى بعد إحصانه أو كفر بعد إيمانه أو قتل نفساً بغير حق فإنكم إذا قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم ثم لم يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً فقالوا: أما ما ذكرت من استخارة الناس بعد عمر ثم ولوك فإن كل ما صنع الله خيرة ولكن الله جعلك بلية ابتلى بها عباده وأما ما ذكرت من قدمك وسلفك مع رسول الله ﷺ فقد كنت كذلك وكنت أهلاً للولاية ولكن أحدثت ما علمته ولا نترك إقامة الحق عليك مخافة الفتنة عاما قابلا. وأما قولك أنه لا يحل إلا قتل ثلاثة فإنا لنجد فى كتاب الله قتل غير الثلاثة الذين سميت، قتل من سعى فى الأرض فساداً وقتل من بغى ثم قاتل على بغيه وقتل من حال دون شىء من الحق ومنعه وقاتل دونه وقد بغيت ومنعت وحلت دونه وكابرت عليه ولم تقد من نفسك من ظلمت وقد تمسكت بالإمارة علينا، فإن زعمت أنك لم تكابرنا عليها فإن الذين قاموا دونك ومنعوك منا

إنما يقاتلون لتمسكك بالإمارة فلو خلعت نفسك لانصرفوا عن القتال معك، قيل فسكت عثمان ولزم الدار وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم فرجعوا إلا الحسن ابن عليّ وابن عباس ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وأشباههم واجتمع إليه ناس كثير فكانت مدة الحصار أربعين يوماً وقد اشتدوا في الحصار بعد ثمان عشرة ليلة مضت شدة بالغة ومنعوا كل شيء حتى الماء، قيل أن طلحة هو الذى أمر بذلك وثاروا إلى باب دار عثمان يريدون الدخول عليه وقتله فلم يمنعهم أحد منه والباب مغلق لا يقدرون على الدخول منه فجاءوا بنار فأحرقوه والسقيفة التى على الباب وثار أهل الدار وعثمان يصلى فلما فرغ جلس إلى المصحف يقرأ فيه وقرأ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً. وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل فقال لمن عنده بالدار إن رسول الله ﷺ قد عهد إليّ عهدا فأنا صابر عليه ولم يحرقوا الباب إلا وهم يطلبون ما هو أعظم منه فاقتحم الناس الدار من الدور التى حولها ودخلوا من دار عمرو بن حزم إلى دار عثمان حتى ملؤها ولم يشعر من بالباب وغلب الناس على عثمان وندبوا رجلاً يقتله فانتدب له رجل يدخل عليه فدخل عليه البيت فما سمع كلامه حتى عاد مدحوراً وولى عن أصحابه ثم دخل آخر وآخر وكان آخر من دخل عليه ممن رجع محمد بن أبى بكر فقال له عثمان: ويلك أعليّ لله تغضب هل عليّ لك جرم أو حق أخذته منك فأخذ محمد بلحيته أى لحية عثمان، وقال: قد أخزاك الله ياعتل، فقال: لست بعتل ولكنى عثمان وأمير المؤمنين . فقال محمد: ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان فقال عثمان: يابن أخى فما كان أبوك ليقبض عليها يعنى على لحيته فقال محمد: لو رآك أبى تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك والذى أريد بك أشد من قبضى عليها فقال عثمان أستنصر الله عليك وأستعين به فتركه وخرج وقيل بل طعن جبينه بمشقص كان فى يده فلما خرج محمد وعرفوا إنكساره ثار قتيرة وسودان بن حمران والغافقى فضربه الغافقى بحديدة معه وضرب المصحف برجله فاستدار المصحف واستقرّ بين يدى عثمان وسالت عليه الدماء وجاء سودان ليضربه فانكبت عليه امرأته واتقت السيف بيدها فقطع أصابعها فولت وضرب عثمان فقتله، وقيل: إن الذى قتله كنانة ابن بشر النجيبى ودخل غلمة لعثمان لينصروه على القوم فانقضوا على سودان فضربوا عنقه ووثب قتيرة على الغلام الذى قتل سودان فقتله وانتهبوا ما فى البيت وخرجوا ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى فلما خرجوا وثب غلام لعثمان على قتيرة فقتله

وثار القوم فأخذوا ما وجدوا حتى أخذوا ما على النساء وأخذ كلثوم النجيبى ملاءة على نائلة فضربه غلام لعثمان فقتله وأتوا بيت المال فانتهبوه وماج الناس وكثر الضجيج والصياح، قيل ووثب عمرو بن الحمق على صدر عثمان وبه رمق فطعنه تسع طعنات قال: فأما ثلاث منها فإنى طعنتهنّ إياه لله تعالى وأما الستة فلما كان فى صدرى عليه، وأرادوا قطع رأسه فوقعت نائلة زوجته عليه وأم البنين فصحن وضربن الوجوه. فقال ابن عديس: اتركوه وأقبل عمير بن ضابىء فوثب عليه فكسر ضلعا من أضلاعه. وقال سجنت أبى حتى مات فى السجن، أخرج ابن عساكر عن أبى خلدة قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول إن بنى أمية يزعمون أنى قتلت عثمان لا والله الذى لا إله إلا هو ما قتلت ولا مالأت وقد نهيت فعصونى، وعن سمرة قال: إن الإسلام كان فى حصن حصين وأنهم ثلموا فى الإسلام ثلمة بقتلهم عثمان لا تسدّ إلى يوم القيامة وأن أهل المدينة كانت تتم الخلافة فيهم فأخرجوها ولم تعد إليهم .اهـ. وقال المدائنى: قتل رضي الله عنه، يعنى عثمان، يوم الأربعاء بعد العصر ودفن يوم السبت قبل الظهر وقيل يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين، وقال المهدوى: قتل فى وسط أيام التشريق وأقام ثلاثة أيام لم يدفن ولم يصل عليه رضي الله عنه وقيل صلى عليه جبير بن مطعم ودفن ليلاً واختلف فى مدة الحصار فقيل أكثر من عشرين يوماً وقيل تسعة وأربعون يوماً، وكانت خلافته اثنتى عشرة سنة إلا اثنتى عشر يوماً وقُتل وهو ابن ثمانين سنة قاله ابن إسحق، وقال عميرة كانت خلافته إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وأربعة عشر يوماً وقتل وعمره ثمان وثمانون سنة، وقيل كانت خلافته اثنتى عشرة سنة وقُتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة وقيل ابن ثلاث وثمانين سنة وقيل تسعين وقيل غير ذلك.

وفى أيامه انتقض عهد الإسكندرية، قال ابن عبد الحكم: حدثنا ابن صالح عن الليث بن سعد، قال: عاش عمر بن الخطاب بعد فتح مصر ثلاث سنين قدم فيها عليه عمرو قدمتين استخلف فى إحداهما زكرياء بن جهم العبدى على الجند ومجاهد بن جبير مولى بنى نوفل على الخراج فسأله عمر عمن استخلف فذكرله مجاهد بن عبيد فقال عمر مولى بنى غزوان. قال: نعم إنه كاتب، فقال عمر: إن العلم ليرفع صاحبه واستخلف فى القدمة الثانية عبد الله بن عمر. قال: حدثنا ثوبان ابن أبى رقية عن حيوة بن شريح عن الحسن بن ثوبان عن أبى رقية، قال: كان سبب نقض الإسكندرية العهد أن صاحب أخنا قدم على عمرو بن العاص فقال

أخبرنا مـا على أحدنا من الجزية فقـال عمرو لو أعطيتنى من الركن إلـى السقف ما أخبـرتك إنما أنتم خزانة لنا إن كـثر علينا كثـرنا عليكم وإن خفف عنا خـففنا عنكم فغضب صاحب أختنا فـخرج إلى الروم فقدم بهم فهزمهـم الله وأسر القبطى فأتى به إلى عمرو فقال له الناس اقتله. قال: لا بل انطلق فجئنا بجيش آخر . اهـ.

وقال عـبد الله بـن صالح كـانت الإسكندرية انتقـضت وجاءت الروم وعليـهم منويل الخصى فى المراكب حـتى أرسى بالإسكندرية فأجـابهم من بها من الروم ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث وكان عثمان بن عـفان رضي الله عنه قد عزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن سعد فلما نزلت الروم بالإسكندرية سـأل أهل مصر عثمان أن يقر عمرا حـتى يفرغ من قتال الروم فإن له معـرفة بالحرب وهيبة فى قلب العـدوّ ففعل وكان على الإسكندرية سورها فحلف عمرو بن العاص لئن أظفره الله عليهم ليهدمن سورها حتى يكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان فـخرج عمرو فى البر والبحر وضمـوا إلى المقوقس من أطاعـه من القبط فـأما الروم فلم يطعـه منهم أحد فـقال خارجة بن خزاعـة لعمرو ناهضهم القتال قبل أن يكـثر عددهم ولا آمن أن تنتقض مصر كلها فقـال عمرو لا ولكن أدعهم حتى يسيروا إلىّ فإنهـم يصيبون من مروا به فيـخزى الله بعـضهم ببـعض فخرجـوا من الإسكندرية ومعـهم من نقض من أهل القرى فجعلوا ينزلون القرى فيشربون خمـورها ويأكلون أطعمتها وينهبون ما مروا به فلم يتعـرض لهم عمرو حتى بلغـوا نيقوس فلاقـوهم فى البر والبحر فـبدأت الروم فرموا بالنشاب فى الماء رمياً حتى أصاب النشـاب يومئذ فرس عمرو فى لبته وهو فى البر فـعقر فنزل عنه عـمرو، ثم خرجوا مـن البحر فاجـتمعـوا هم والذين فى البر فنضحـوا المسلمين بالنشاب فـاستأخر المسلمـون عنهم فحملوا على المسلمـين حملة شديدة فولى المسلمون منها وانهزم شريك بن سمى فى خيله وكانت الروم قد جعلت صفوفـاً خلف صفوف ثم شد المسلـمون عليهم فكانت هزيمتـهم فطردهم المسلمون حـتى ألحقـوهم بالإسكندرية فـفـتح الله عليـهم وقتل منويـل الخصى وهدم سـور الإسكندرية كله، فلما هزمت الروم أراد عثمان عمرا أن يكون على الحرب وعبد الله ابن سعد على الخراج فقـال عمرو أنا إذن كماسك البقرة بقرنيهـا وآخر يحلبها فأبى عمرو، ولما قتل عثمان بن عفان تولى الخلافة بعده على بن أبى طالب وكان من أمر ولاية مصر ما سيذكر فى محله.

(الفصل الرابع)

(فى خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب)

ثم قام بالأمر بعد قتل عثمان بن عفان أمير المؤمنين على بن أبى طالب وقد اختلف أهل التاريخ فى كيفية بيعته فذهب بعضهم إلى أنه لما قتل عثمان اجتمع أصحاب صاحب الشريعة من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير فأتوا علياً وضربوا عليه الباب ودخلوا وقالوا: إن هذا الرجل قد قتل ولابد للناس من إمام ولا نعلم أحداً أحق بها منك. قال: لا حاجة لى فى أمركم فمن اخترتم رضيت به فقالوا ما نختار غيرك فردهم عن ذلك فأبوا، فقال: إن أبيتم إلا بيعتى فإن بيعتى لا تكون سراً ولا تكون إلا فى المسجد وكان فى بيته وقيل فى حائط لبنى عمرو بن مبذول.

ولما أصبحوا يوم البيعة وهو يوم الجمعة حضر الناس المسجد وجاء علىّ وعليه أزار وطاق وعمامة خز ونعلاه فى يده متوكئا على قوس فصعد المنبر وقال: أيها الناس عن ملا وأذن أن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرّتم وقد افترقنا بالأمس على أمر وكنت كارها لأمركم فأبيتم إلا أن أكون عليكم ألا وأنه ليس لى دونكم إلا مفاتيح مالكم معى وليس لى أن آخذ درهما دونكم فإن شئتم قعدت لكم وإلا فلا آخذ على أحد، فقالوا: نحن على ما فارقناك عليه بالأمس، فقال: اللهم أشهد ولما جاءوا بطلحة ليبايع فقال إنما أبايع كرهاً فبايع وكان به شلل فقال رجل يعتاف وقيل حبيب بن ذؤيب إنا لله وإنا إليه راجعون أول يد بايعت يد شلاء لا يتم هذا الأمر ثم جيء بالزبير فقال مثل ذلك وبايع وفى الزبير اختلاف وقيل أن علياً قال لطلحة والزبير إن أحببتما أن تبايعانى، وإن أحببتما بايعتكما فقالا بل نبايعك، قال بعض أهل التاريخ: وقد قالا بعد ذلك إنما فعلنا ذلك خشية على نفوسنا وعرفنا أنه لا يبايعنا ثم هربا إلى مكة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر ولم يبايعه كثير من أهل مكة والمدينة وكان ممن لم يبايعه النعمان بن بشير وكان قد أخذ أصابع نائلة امرأة عثمان التى قطعت فى دفاعها عن عثمان يوم قتله وقميص عثمان الذى قتل فيه وهرب به فلحق بمعاوية فى الشام فكان من وراء ذلك ما سيذكر فى محله، وقيل أن صهيباً وسلمة بن سلامة بن وقش وأسامة بن زيد لم يبايعوا علياً ولم يمدوا له يداً، ثم جيء بعده بقوم كانوا قد تخلفوا فقالوا نبايع على إقامة كتاب الله فى القريب والبعيد والعزيز والذليل فبايعهم ثم قام العامة فبايعوا وصار الأمر أمر أهل المدينة وكأنهم كما

كانوا فيه وتفرقوا إلى منازلهم وبويع يوم الجمعة لخمس بقين من ذى الحجة والناس يحسبون بيعته من قبل عثمان وأول خطبة خطبها حين استخلف حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله أنزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض الفرائض أدّوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة أن الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق لا يحل دم أمرىء مسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وأن ما خلفكم الساعة تحدوكم فخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بالناس أخراهم، اتقوا الله عباد الله فى بلاده وعباده إنكم مسؤلون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله فلا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ولما فرغ من الخطبة وهو على المنبر قالت السبئية:

خذها إليك واحذرن أبا حسن ... أنا غرّ الأمر أمرار الرسن

صولة أقوام كأشداد السفن ... بمشرفيات كغدران اللبن

وتطعن الملك بلين كالشطن ... حتى يمرّون على غير عنن

فقال على:

إني عجزت عجزة لا أعتذر ... سوف أكيس بعدها وأستمر

أرفع من ذيلي ما كنت أجر ... وأجمع الأمر الشتيت المنتشر

إن لم يشاغبني العجول المنتصر ... إن تتركوني والسلاح يبتدر

ثم نزل ورجع إلى بيته وجعل يفرق عماله على الأمصار فبعث عثمان بن حنيف على البصرة وعمارة بن شهاب على الكوفة وعبيد الله بن عباس على اليمن وقيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام فلم يفلحوا وظهر معاوية بمن معه ليفسد الأمر على علىّ وأرسل رجلاً من بنى عبس يدعى قبيصة إلى علىّ ومعه طومار مختوم عنوانه من معاوية إلى علىّ، وقال له: إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار ثم أوصاه بما يقول فقدم الرجل إلى المدينة فى ربيع الأول فدخلها وقد رفع الطومار فتبعه الناس ينظرون إليه وعلموا أن معاوية معترض، قال ابن عباس أتيت علياً بعد قتل عثمان عند عودى من مكة فوجدت المغيرة بن شعبة مستخلياً به فخرج من عنده فقلت له ما قال لك هذا: فقال: قال لى بعد مرته هذه أن لك حق الطاعة والنصيحة وأنت بقية الناس وأن الرأى اليوم تحرز به ما فى غد

وأن الضياع اليوم يضيع به ما فى غد أقرر معاوية وابن عامر وعمال عثمان على أعمالهم حتى تأتيك بيعتهم ويسكن الناس ثم أعزل من شئت فأبيت عليه ذلك وقلت: لا أداهن فى دينى ولا أعطى الدنية فى أمرى قال: فإن كنت أبيت علىّ فانزع من شئت واترك معاوية فإن فى معاوية جزاءة وهو فى أهل الشام يستمع منه ولك حجة فى إثباته كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام، فقلت: لا والله لا أستعمل معاوية يومين ثم انصرف من عندى وأنا أعرف فيه أنه يودّ أنى مخطىء ثم عاد إلىّ الآن فقال إنى أشرت عليك أوّل مرة بالذى أشرت وخالفتنى فيه ثم رأيت بعد ذلك أن تصنع الذى رأيت فتعزلهم وتستعين بمن تثق به فقد كفى الله وهم أهون شوكة مما كان، قال ابن عباس: فقلت لعلى أما المرة الأولى فقد نصحك وأما المرة الثانية فقد غشك، قال: ولم نصحنى قلت لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى ثبتهم لا يبالون من ولى هذا الأمر ومتى تعزلهم يقولون أخذ هذا الأمر بغير شورى وهو قتل صاحبنا ويؤلبون عليك فتنتقض عليك الشام وأهل العراق مع إنى لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية فإن بايع لك فعلىّ أن أقلعه من منزله فقال على والله لا أعطيه إلا السيف ثم تمثل:

وما ميتة إن متها غير عاجز   بعار إذا ما غالت النفس غولها

فقلت ياأمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأى فى الحرب أما سمعت رسول الله ﷺ يقول الحرب خدعة، فقال: بلى فقلت أما والله لئن أطعتنى لأصدرنهم بعد ورد ولا تركنهم ينظرون فى دبر الأمور ولا يعرفون ما كان وجهها فى غير نقصان عليك ولا إثم لك، فقال: ياابن عباس لست من هناتك ولا من هنات معاوية فى شىء، قال ابن عباس: فقلت له أطعنى والحق بمالك ينبع وأغلق بابك عليك فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غدا فأبى علىّ، فقال: تشير علىّ وأرى فإذا عصيتك فأطعنى. قال: فقلت أفعل أن أيسر مالك عندى الطاعة فقال له علىّ: تسير إلى الشام فقد وليتكها فقال ابن عباس ما هذا برأى معاوية رجل من بنى أمية وهو ابن عم عثمان وعامله ولست آمن أن يضرب عنقى بعثمان وأن أدنى ما هو صانع أن يحبسنى فيتحكم علىّ لقرابتى منك وإن كل ما حمل عليك حمل علىّ ولكن أكتب إلى معاوية فمنه وعده فقال: لا والله لا كان هذا أبداً، وكان المغيرة يقول نصحته فلم يقبل فغششته وخرج فلحق بمكة وجعل علىّ يتجهز لأهل الشام ويكثر من جمع الرجال إذ جاءه الخبر عن طلحة والزبير وعائشة وأهل مكة بنحو

آخـر وأنهم على الخلاف فـأعلم عليّ الناس ذلك وأن عـائشة وطلحـة والزبير قـد سـخطوا إمارته ودعـوا الناس إلى الإصـلاح، وكان سـبب اجتـماع طلحـة والزبير وعائشة بمكة أن عـائشة كانت خرجت إليهـا وعثمان محـصور ثم خرجت من مكة تريد المدينة فلما كانت بسرف لقيها رجـل من أخوالها من بنى ليث يقال له عبيد بن أبى سلمى وهو ابن أم كلاب فقالت له عائشة مهيم، قال: قتل عثمان وبقوا ثمانياً، قالت: ثم صنعوا ماذا، قال: اجتمعوا على بيعة عليّ فقالت ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصـاحبك ردونى ردونى فـانصرفت إلى مكة وهى تقـول قتل والله عثمان مـظلوماً والله لأطلبن بدمه فقال لها: ولم والله ان أول من أمـال جرفه لأنت ولقد كنت تقولين اقـتلوا نعثلاً فقد كـفر، قالت: إنهم استـتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولى الأخير خير من قولى الأول فقال لها ابن أم كلاب:

فـمنـك البـداء ومنك الـغيـر ... ومـنـك الـريـاح ومـنـك المطـر

وأنت أمـــرت بقــتـل الإمــام ... وقلـت لنـا أنه قــدكـــفــر

فـــهـــبنا أطعـناك فـي قــتـله ... وقـــاتله عنـدنـا من أمـــر

ولـم يســقط الســقف من فــوقنا ... ولم ينكـسف شـمـسنا والقـمـر

وقـــــد بـايـع النـاس ذا تـدرا ... يريل الـشـبـا ويقـيم الصـعـر

ويلـبس لـلحـــرب أثوابـهـــا ... ومـا من وفى مـثل من قـد غـدر

فانصرفت إلى مكة فقصـدت الحجر فسترت فيه فاجتـمع الناس حولها فقالت:
أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعـبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس ونقموا عليه استـعمال من حدثت سنه وقد استعمل أمثالهم قبله ومواضع من الحمى حمـاها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عـذرا بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحـرام واستحلوا البلد الحـرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحـرام والله لا صبع من عثمـان خير من طباق الأرض أمـثالهم ووالله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص مـنه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذ ماصوه، فقال عبد الله بن عامر الحضرمى: وكان عامل عثمان على مكة ها أنا أوّل طالب فكان أول مجيب وتبعـه بنو أمية على ذلك وكانوا هربوا من المدينة بعد قـتل عثمـان إلى مكة ورفعوا رءوسـهم وكان أول ما تكلم بالحـجاز وتبعهم سعيد بن العاص والوليد بن عقـبة وسائر بنى أمية، وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ويعلى بن أمية وهو ابـن منية من اليمن ومعه ستمائة بعير

وستمائة ألف درهم فأناخ بالأبطح وقدم طلحة والزبير من المدينة فلقيا عائشة واتفقوا على الشخوص إلى البصرة فجهزهم يعلى بن منية بستمائة بعير وستمائة ألف درهم وجهزهم ابن عامر بمال كثير ونادى مناديها إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة فمن أراد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان وليس له مركب وجهاز فليأت فحملوا ستمائة على ستمائة بعير وساروا فى ألف وقيل فى تسعمائة من أهل المدينة ومكة ولحقهم الناس فكانوا فى ثلاثة آلاف رجل فبعثت أم الفضل بنت الحرث أم عبد الله بن عباس رجلاً من جهينة يدعى ظفرا فأستأجرته على أن يأتى عليا بالخبر فقدام على علىّ بكتابها فلما جاءه الخبر سار فى تعبيته التى تعباها لأهل الشام آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين فى تسعمائة وهو يرجو أن يدرك أصحاب عائشة فيحول بينهم وبين الخروج أو يأخذهم وساروا حتى انتهوا إلى الربذة فلما انتهوا إليها أتاهم خبر سبق عائشة ومن معها فأقام بها يأتمر ما يفعله وأتاه أبنه الحسن فى الطريق فقال له: لقد أمرتك فعصيتنى فتقتل غدا بمعصية لا ناصر لك فقال له علىّ إنك لا تزال تخن خنين الجارية وما الذى أمرتنى فعصيتك، قال: أمرتك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ثم أمرتك يوم قتل أن لا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك فأبيت على وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحوا فإن كان الفساد كان على يد غيرك فعصيتنى فى ذلك كله، فقال أى بنى قد بايعونى طائعين غير مكرهين فأنا مقاتل من خالفنى بمن أطاعنى حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين فكف عنك يابنى، وأرسل إلى المدينة فأتاه ما يريده من دابة وسلاح وأمر أمره وقام فى الناس فخطبهم وسار من الربذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح والراية مع محمد بن الحنفية وعلىّ على ناقة حمراء يقود فرسا كميتا فلما التقى الجمعان تردّدت الرسل بينهما وطال الكلام فى أمر الصلح ووضع الحرب فأبى قوم عائشة إلا القتال وأقبل كعب بن سور فأتى عائشة فقال أدركى فقد أبى القوم إلا القتال لعل الله أن يصلح بك فركبت وألبسوا هودجها الأدراع فلما برزت من البيوت وهى على الجمل بحيث تسمع الغوغاء وقفت واقتتل الناس قتالاً عظيماً جداً.

وقاتل الزبير فحمل عليه عمار بن ياسر فجعل يحوزه بالرمح والزبير كاف عنه ويقول أتقتلنى ياأبا اليقظان فيقول لا يا أبا عبد الله، قال أهل التاريخ: وإنما كف الزبير عنه لقول صاحب الشريعة تقتل عمارا الفئة الباغية قالوا ولولا ذلك لقتله،

وبينما عائشة واقفة إذ سمعت ضجـة شديدة، فقالت: ما هذا قالوا ضجة العسكر، قالت: بخير أو بشر قـالوا بشر فما فجاءها إلا الهزيمة فـمضى الزبير من وجهه إلى وادى السباع وأما طلحـة فأتاه سهم فأصابه فشك رجله بصـفحة الفرس وهو ينادى إلىّ إلىّ عباد الله الـصبر الصبر، ثم دخل البـيوت ودمه يسيل وهو يقـول اللهم خذ لعثمان منى حـتى ترضى، فلما امتلأ خفه دما وثقل قـال لغلامه: أردفنى وأمسكنى وأبلغنى مكانا أنزل فيه فدخل البصرة فأنزله فى دار خربة فمات فيها، وقيل أنه اجتاز به رجل من أصحاب علىّ، فـقال له: أنت من أصحاب أميـر المؤمنين، قال: نعم، فقال: امـدد يدك أبايعك له فبايعه فـخاف أن يموت وليس فى عنقه بيـعة ولما قضى دفن فى بنى سعد وكان الذى رمى طلحة مروان بن الحكم وقيل غيره وأما الزبير فانه مر بعسكر الأحنف بن قيس فلما رآه الأحنف قـال: من يأتينى بخبر هذا وأشار إليه فقال رجل اسـمه عمرو بن جـرموز أنا ثم تبغه فلمـا لحقه نظر إليه الزبيـر قال: ما وراءك، قال: إنما أريد أن أسألك فقال غلام للزبير: كـان معه أنه معدّ قال الزبير ما يهولك من رجل وحـضرت الصلاة فـقال ابن جرموز الصـلاة الصلاة، فقـال الزبير الصلاة ونزل ليصلى فأستدبره ابن جرموز وطعنه فـقتله وأخذ فرسه وسلاحه وخاتمه وخلى عن الغلام فدفنه بوادى السباع ورجع إلى الناس بالخبر ثم سار إلى علىّ ودفع إليه سيف الزبير فنظر إليه وقال طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله ﷺ.

وقالت عائشـة: لما انجلت الوقعة وانهزم الناس لكعب بـن سور خل عن الجمل وتقدم بالمصحف فادعـهم إليه وناولته مصحفا فـاستقبل القوم فرموه بالسـهام فقتلوه ورموا عائشة فى هودجها فـجعلت تنادى البقيـة البقية يابنيّ ويعلو صـوتها الله الله اذكروا الله والحساب فلم يمـتنعوا عنها فجعلت تحرض الناس فحملت مـضر البصرة حتى قصفت مـضر الكوفة حتى زحم على وكانت راية على مع ابنه مـحمد فنخس على قفا ابنه محمد. وقال له أحمل فتقدم وأخذ علىّ الراية من يده. وقال يابنى بين يدى واشتدت الحرب وكـثر الهول والكرب وتساقطت النبال تبـاعاً وأبى أهل الكوفة إلا القتال ولم يريدوا إلا عـائشة وتزاحف الناس بعضهم على بـعض ونظرت عائشة من يسـارها فقالت من الـقوم عن يسارى فـقال لهـا صبـرة بن شيمـان بنوك الأزد فصاحت يا آل غسان حافظوا اليوم فجلادكم الذى كنا نسمع به وتمثلت:

وجـالد من غسـان أهل حـفاظهـا   وكـعب وأوس جالـدت وشبـيب

فكان الأزد يأخذون بعر الجمل يشمونه ويقولون بعر جمل أمّنا ريحه ريح المسك. وقالت لمن عن يمينها من القوم عن يمينى قال بكر بن وائل قالت لكم يقول القائل

وجاءوا إلينا في الحديد كأنهم   من الغرّة القعساء بكر بن وائل

واشتدّ الفريقان فى القتال شدة بالغة فكثرت الجرحى والقتلى فى العسكر جميعاً فقال قوم لا تزال الحرب أو يصرع الجمل وكره القوم بعضهم بعضاً وأخذ عميرة بن يثربى برأس الجمل فكان لا يتقدّم إليه أحد إلا قتله حتى قتل هو دون زمام الجمل ولم يزل الأمر كذلك حتى قتل على خطام الجمل أربعون رجلاً، قالت عائشة: ما زال جملى معتدلاً حتى فقدت أصوات بنى ضبة، قيل وأخذ الخطام سبعون رجلاً من قريش وكلهم يقتل وأحدق أهل النجدات والشجاعة بعائشة فكان لا يأخذ الخطام أحد إلا قتل وما زال حتى ضاع الخطام ونادى علىّ أعقروا الجمل فإنه إن عقر تفرقوا فضربه رجل فسقط واجتمع القعقاع وزفر على قطع بطان البعير وحملا الهودج فوضعاه وفر من كان وراءه من الناس وتمت هزيمة أصحاب عائشة فلما انهزموا أمر علىّ منادياً فنادى ألا لا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور ثم رسم إلى نفر أن يحملوا الهودج بين القتلى فوضعوه وليس قربه أحد وأتى علىّ إلى عائشة فقال كيف أنت ياأمه قالت بخير . قال: يغفر الله لك قالت ولك فلما كان الليل أدخلها أخوها محمد بن أبى بكر البصرة فأنزلها فى دار عبد الله بن خلف الخزاعى وتسلل الجرحى من بين القتلى ليلاً ودخلوا البصرة فأقام علىّ بظاهر البصرة ثلاثاً وأذن للناس فى دفن موتاهم قيل وكانت القتلى زهاء عشرة آلاف نصفهم من أصحاب علىّ ونصفهم الآخر من أصحاب عائشة وقيل ثلاثة عشر ألفاً وقيل غير ذلك.

ودخل علىّ البصرة يوم الاثنين فبايعه أهلها على راياتهم حتى الجرحى والمستأمنة ثم جهز على عائشة بكل ما ينبغى لها من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك وبعث معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة والمعروفات وسير معها أخاها محمد بن أبى بكر وخرجت يوم السبت غرة رجب فشيعها علىّ أميالاً وسرح بنيه معها يوماً فكان وجهها إلى مكة ووقف علىّ مودعا لها وحضر الناس فودعتهم، فقالت: وهى خارجة يابنىّ لا يعتب بعضنا على بعض أنه والله ما كان بينى وبين علىّ فى القديم إلا ما يكون بين المرأة

وبين أحمائها وأنه على معتبتى لمن الأخيار، فقال علىّ: صدقت والله ما كان بينى وبينها إلا ذاك وأنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة.

قلت: واختلف الكتاب وأهل التاريخ فيما دعا عائشة وعليا إلى هذه الحرب المشئومة وركوب هذا المركب الخشن فمنهم من قال إن الحرب إنما كانت منها أخذا بثأر عثمان لأنها كانت ترمى عليا بقتله أو بالتألب عليه، ومنهم من قال بل لكراهتها فيه وحقدها عليه منذ كانت تحت صاحب الشريعة خصوصاً ما كان علىّ بعد خروجها مع صاحب الشريعة إلى غزوة بنى المصطلق وتشديده على صاحب الشريعة فى طلاقها بعد الذى قاله أهل الإفك فيها، وتحرير الخبر كما روته عائشة، أن صاحب الشريعة كان إذا أراد السفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه فلما كانت غزوة بنى المصطلق أقرع بين نسائه فخرج سهم عائشة فخرجت معه فلما قفل صاحب الشريعة من سفره ذلك وكان قريباً من المدينة بات بمنزل بعض الليل ثم ارتحل بالناس وكانت عائشة قد خرجت لحاجتها وفى عنقها عقد من جزع أظفار أنسل من عنقها ولا تدرى فلما رجعت التمست العقد فلم تجده فخرجت إلى المكان الذى كانت فيه تلتمسه فوجدته وجاء القوم الذين يرحلون بعيرها فأخذوا الهودج وهم يظنون أنها فيه وانطلقوا ورجعت هى إلى المعسكر وما فيه داع ولا مجيب فالتفت بجلبابها واضطجعت وهى تنتظر إحدى خلال ثلاث إما هلاكها جوعاً وعطشاً أو أن يفترسها سبع من سباع البر أو يرجع إليها منشد، وبينما هى على هذا الحال إذ أقبل عليها صفوان بن المعطل السلمى وكان قد عرّس وراء العسكر لحاجته فلم يبت مع الناس فوقف عليها وكان يعرفها جيداً قبل أن يضرب الحجاب فقال لها ماخلفك ههنا ثم قرّب بعيره، وقال: اركبى فركبت وأخذ برأس البعير وسارا حتى أتيا الجيش وبينما كان يقودها إذ مر ببعض المنافقين وبينهم عبد الله بن أبىّ الذى كان يدعوه صاحب الشريعة رأس النفاق. فقال: من هذه فقيل له عائشة زوّج النبىّ مع صفوان، فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها. وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها، وقال هو وغيره ما قالوه إفكاً وخاضوا فى الحديث، وعلم بالأمر صاحب الشريعة فأقلقه فقام فى الناس فخطبهم ثم قال، أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهنّ غير الحق ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلا خيراً وما دخل بيتاً من بيوتى إلا معى . اهـ.

وكان قد كبر ذلك عند عبد الله بن أبى ابن سلول فى رجال من الخزرج مع الذى قاله مسطح وحمنة بنت جحش وهما من أهل الإفك، وذلك أن زينب أختها

كانت عند صاحب الشريعة فأشاعت حمنة من ذلك كلاماً كثيراً، فلما قال صاحب الشريعة تلك المقالة وقع الهرج وعلت الضوضاء بين الناس وتشاوروا حتى كاد يكون بينهم شر فنزل صاحب الشريعة ودعا عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما فأما أسامة فأثنى خيراً وأما عليٌّ فقال: إن النساء لكثير وسل الخادمة تصدقك فدعا صاحب الشريعة بريرة الخادمة يسألها فقام إليها عليّ فضربها ضرباً مبرحاً وهو يقول اصدقي رسول الله فقالت والله ما أعلم إلا خيراً ثم قالت ما قالت، وهبط جبريل بثمان عشرة آية من سورة النور في براءة عائشة، قال الزمخشري في تفسير هذه الآيات: لو قلبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعقاب البليغ والزجر العنيف ما أنزل في إفك عائشة على طرق مختلفة وأساليب مفتنة فأوجز في ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة . اهـ.

وأقامت عائشة على بغضها لعلي والتألب عليه في خلافته فكانت لا تنكف عن التشنيع عليه بالقول إنه حذف من القرآن وأسقط وبدّل وحرّف فمن ذلك آية المتعة، قالت إنه أسقطها بتة وكان يجلد من يقرؤها وينهى عنها، وكانت عوناً لمن خرج على عليّ من الأحزاب حتى مات.

ويعث عليّ قيس بن سعد أميراً على مصر وقيس هذا كان صاحب راية الأنصار على عهد صاحب الشريعة وكان من ذوي الرأي والبأس فقال له علي سر إلى مصر فقد وليتكها واخرج إلى رحلك واجمع ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها وأحسن إلى المحسن واشدد على المريب وارفق بالعامة والخاصة فإن الرفق يمن، فخرج قيس حتى دخل مصر في سبعة من أصحابه ودخل المسجد وصعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب عليّ فقرىء على أهل مصر بإمارته ويأمرهم بمبايعته ومساعدته وإعانته على الحق، ثم قام قيس خطيباً فقال: الحمد الله الذي جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين، أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله وسنته ورسوله فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم، فقام الناس فبايعوا واستقامت مصر واطمأنت القلوب وبعث عليها عماله إلا قريه أسمها خربتا هذه فيها ناس قد أعظموا قتل عثمان واستكبروه وكاتبوا قيساً يدعونه إلى الطلب بدم عثمان وطال بينهم وبينه الأخذ والردّ ثم تهادنوا وكان قيس ذا تدبير وحيلة فلما فاض الخبر بما وقع بين عائشة وعليّ ونهض معاوية بن أبي

سفيـان إلى شق عصا الطاعة كـان معاوية يخشى كثـيراً من قيس المذكور مـخافة أن يقبل عليّ فى أهل العراق وقيس فى أهل مصر فيقع بينهما معاوية فكتب معاوية إلى قيس كتابا يقول فيه سلام عليك، أما بعد فإنكم نقمتم على عثمان ضربة بصوت أو شتيمة رجل أو تسيير آخر واستعمال فتى وقد علمتم أن دمه لا يحل لكم فقد ركبتم عظيمـاً وجئـتم أمراً إدّاً فتب إلـى الله ياقيس فإنك من المجـلبين على عثـمان فـأما صاحبك فإنا استيقنا أنه الذى أغرى الناس وحملهم حتى قتلوه وأنه لم يسلم من دمه عظيم قومك فإن استطعت ياقيس أن تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين إذا ظهرت ما بقيت ولمن أحببت من أهلك سلطان الحجاز ما دام لى سلطان وسلنى ما شئت فإنى أعطيك واكتب إلىّ برأيك . اهـ.

فلما جاءه الكتاب أحب أن يدافعه ولا يبدى له أمراً ولا يتعجل إلى حربه، قال أصحاب التـاريخ: فكتب إليه يقول: أما بعد فقد فهمت مـا ذكرته من قتلة عثمان فذلك شيء لم أقاربه وذكرت أن صاحـبى هو الذى أغرى به حتى قتلوه وهذا مما لم أطلع عليه وذكرت أن عظم عشيرتى لم تسلم فأوّل الناس كان فيه قياماً عشيرتى وأما ما عـرضته من متـابعتك فهذا أمـر لى فيه نظر وفكرة وليس هذا مما يسـرع إليه وأنا كاف عنك وليس يأتيك مـن قبلى شيء تكرهه حتى ترى ونرى إن شـاء الله تعالى، قالوا فلما قرأ معاوية كتاب قـيس رآه مقارباً مباعداً فكتب إليه، أما بعد فـقد قرأت كتـابك فلم أرك تدنو فأعدك سلـما ولا متبـاعدا فأعـدك حربا وليس مـثلى يصانع المخادع وينخدع للمكايد ومعه عدد الرجال وأعنة الخيل والسلام، قالوا فلما قرأ قيس كتابه ورأى أنه لا تفيد معه المدافعـة والمماطلة أظهر له ما فى نفسه فكتب إليه، أمـا بعد فالعجب مـن اغترارك بى وطمعك فىّ واستسقـاطك إياى أتسومنى الخروج عن طاعة أولى الناس بالإمـارة وأقولهم بالحق وأهداهم سـبيلاً وأقـرب بهم من رسول الله ﷺ وسيلة وتأمرنى بالدخول فى طاعتك طاعة أبعد الناس من هذا الأمر وأقولهم بالزور وأضلهم سـبيلاً وأبعـدهم من رسول الله ﷺ وسـيلة ولد ضالين مـضلين طاغوت من طواغيت إبليس. وأما قولك إنى مالىء عليك مصر خيلاً ورجالا فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون أهم إليك إنك لذو جد والسلام، فلما رأى معاوية كتابه أيس منه وثقل عليـه مكانه فجعل يكيد له وافتعل كتـاباً عن قيس إليه بالطلب بدم عثمان والدخول معه فى ذلك وقرأه على أهل الشام وطير خبره إلى الآفاق فبلغ ذلك علياً أبلغـه إياه محمـد بن أبى بكر ومحمد بن جـعفر بن أبى طالب وأعلمـته عيـونه بالشام فكبـر عليه هذا الأمر جـدا وأعظمه فدعـا ابنيه وعـبد الله بن جعـفر

فأخبرهم بالخبر، فقال ابن جعفر: ياأمير المؤمنين دع ما يريبك إلى ما لا يريبك اعزل قيسا عن مصر. فقال عليّ: إنى والله ما أصدّق بهذا عنه، فقال عبد الله: أعزله ياأمير المؤمنين فإن كان هذا حقاً لا يعتزل لك فبينما هم على هذا الحال إذ جاءهم كتاب من قيس يخبر أمير المؤمنين بأمر المتحزبين الطالبين بدم عثمان وأنه كف عن مشاغبتهم وقتالهم، فقال ابن جعفر: ما أخوفنى أن يكون ذلك ممالأة منه فمره بقتالهم فكتب إليه عليّ يأمره بقتالهم فلما قرأ الكتاب كتب جوابه، أما بعد فقد عجبت لأمرك تأمرنى بقتال قوم كافين عنك مفرغيك لعدوك ومتى حاددناهم ساعدوا عليك عدوك فأطعنى ياأمير المؤمنين واكفف عنهم فان الرأى تركهم والسلام، قيل فلما قرأ عليّ الكتاب، قال ابن جعفر: ياأمير المؤمنين ابعث محمد بن أبى بكر على مصر واعزل قيسا فقد بلغنى أن قيسا يقول إن سلطانا لا يستقيم إلا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء فأطاعه عليّ وبعث محمد بن أبى بكر لمصر وقيل بعث قبله الاشتر النخعى فمات بالطريق فبعث محمداً فلما قدم على قيس بمصر قال له قيس ما بال أمير المؤمنين ما غيره أدخل أحد بينى وبينه قال لا وهذا السلطان سلطانك فقال لا والله لا أقيم وخرج منها مقبلاً إلى المدينة وهو غضبان لعزله فجاءه حسان بن ثابت وكان عثمانيا يشمت به، فقال له: قتلت عثمان ونزعك عليّ فبقى عليك الإثم ولم يحسن لك الشكر، فقال له: قيس ياأعمى القلب والبصر والله لو القى بين رهطى ورهطك حربا لضربت عنقك اخرج عنى ثم خاف من مروان بن الحكم بالمدينة فرحل عنها.

ولما قدم محمد بن أبى بكر مصر قرأ كتاب عليّ على أهل مصر ثم قام فخطب فقال: الحمد لله الذى هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق وبصرنا وإياكم كثيراً مما كان عمى عنه الجاهلون، ألا إن أميرالمؤمنين ولانى أمركم وعهد إلى ما سمعتم وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب فإن يكن ما ترون من إمارتى وأعمالى طاعة لله فاحمدو الله على ما كان من ذلك فإنه هو الهادى له وإن رأيتم عاملاً لى عمل بغير الحق فارفعوه إلىّ وعاتبونى فيه فإنى بذلك أسعد وأنتم جديرون، وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته، ثم نزل ولبث شهراً كاملاً حتى بعث إلى أولئك المعتزلين من الطالبين بدم عثمان، وقال لهم: إما أن تدخلوا فى طاعتنا وإما أن تخرجوا من بلادنا فأجابوه إننا لا نفعل هذه ولا هذه وامتنعوا وأخذوا حذرهم فسير إليهم الحرث بن جمهان الجعفى فى جمع كبير قاتلهم فقاتلوه وقتلوه فبعث إليهم

أيضاً ابن مضاهم الكلبي فقتلوه ووصل الخبر بذلك إلى معاوية فكتب إليه يسبه ويقبح فعاله ويتوعده.

وكتب عليّ إلى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ونكث طلحة والزبير وحربه إياهما ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته فاستشار معاوية عمرو بن العاص فى ذلك. وكان قد لحق بمعاوية قبل قتل عثمان بقليل كى لا يقتل عثمان وهو فى المدينة. فقال عمرو اجمع أهل الشام وقاتله أخذا بثأر عثمان حتى تظفر ففعل معاوية ذلك وكان أهل الشام لما قدم عليهم النعمان ابن بشير بقميص عثمان الذى قتل فيه مخضوباً بالدم بأصابع زوجته نائلة إصبعان منها وشىء من الكف وإصبعان مقطوعتان من أصولهما ونصف الإبهام وضع معاوية القميص على المنبر وجمع الأجناد إليه وكلمهم فى أمر القتال والخروج على عليّ وإلزامه بدم عثمان فبكوا جميعاً مدّة وهو على المنبر والأصابع معلقة فيه وأقسم رجال من أهل الشام أن لا يمسهم الماء إلا للغسل من الجنابة وأن لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن قام دونهم قتلوه وكان هذا كله بحضرة رسول عليّ فرجع الرسول إليه وأخبره بالخبر وأن أهل الشام اجتمعوا على قتاله فكبر الأمر على عليّ ونادى فى عسكره بالخروج فخرجوا وعسكروا بالنخيلة ففرق فيهم الأعطية وجهز معاوية وتجهز الناس وحضهم عمرو بن العاص على القتال، وقال لمعاوية: سر إلى عليّ بنفسك ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك فبالغ معاوية فى التأهب والاستعداد ووقف عمرو وسط القوم وناداهم إنما سار إليكم عليّ فى شرذمة قليلة وقد قتل خليفتكم فالله الله فى حقكم أن تضيعوه وفى دمكم أن تطلوه، فعقد له معاوية لواءولواء لا بنيه عبد الله ومحمد ولواء لغلامه وردان وجاءهم الخبر بأن عليا عقد لواء لغلامه المدعو قنبر فأنشد عمرو بن العاص فى ذلك:

هل يغنين وردان عني قنبرا   أو تغنى السكون عني حميرا

إذا الكماة لبسوا السنوّرا

وساروا حتى التقوا جميعاً وسيرّ عليّ جماعة من كبار قومه إلى معاوية ليحتجوا عليه ويدعوه إلى الطاعة فدخلوا عليه وكلموه فى الأمر طويلاً، فقال: ليس بينى وبين عليّ إلا السيف فعادوا وأخبروا عليا بما جرى وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اصطف الفريقان ودارت الحرب بينهما على السهل الخفيف إذ كرهوا أن يجمعوا أهل العراق بأهل الشام فى قتال خوفاً من الاستئصال والهلاك فكانوا يخرجونهم

جماعات قليلة فاقتتلوا على هذا الحال أيام ذى الحجة كلها من سنة ست وثلاثين وربما اقتتلوا فى اليوم الواحد مرتين، ثم عادوا بعد المحرم فى سنة سبع وثلاثين إلى القتال فرتب علىّ أصحابه وحضهم على القتال حتى يموتوا أو يمكنهم الله من عدوهم، وضرب معاوية له قبة عظيمة وألقى عليها الثياب فبايعه أكثر أهل الشام على الموت وأحاط بقبته خيل دمشق ودارت الحرب بين الفريقين فاقتتلا قتالاً عنيفاً وكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه أصابع نائلة زوجته فإذا رأى ذلك أهل الشام ازدادوا غيظاً وحدّة فى أمرهم فإذا أحس منهم بفتور يقول له عمرو بن العاص حرك لها حوارها تحن فيعلق القميص، واشتد أهل الشام فى قتالهم لأصحاب علىّ وأجهزوا عليهم وأطبقوا من كل صوب وحدب وما زالوا كلما انهزمت طائفة من أصحاب علىّ وانكشفت عنه سار إلى استنهاض الأخرى، وكان الأشتر أحد كبار أصحاب علىّ ينادى فى الناس ويقول انصروا أمير المؤمنين وأصدقوا عدوكم اللقاء إن الله مع الصادقين، وكثر القتل فى أصحاب علىّ وكذلك فى أصحاب معاوية واشتد علىّ بمن معه فى القتال فلما رأى عمرو بن العاص ما صاروا إليه، قال لمعاوية هل لك فى أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة قال: نعم، قال: نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها هذا حكم بيننا وبينكم فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول ينبغى لنا أن نقبل فتكون فرقة بينهم، وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا إلى أجل فأجابه معاوية إلى ما طلب وأمر فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا هذا حكم كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم فلما رآها الناس قالوا: نجيب إلى كتاب الله فقال لهم علىّ إن معاوية وعمرا ومن معهما ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً ثم رجالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم والله ما رفعوها إلا خديعة ووهنا ومكيدة، فقالوا له: لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله، وقال جماعة: أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دعيت إليه وإلا دفعناك برمتك إلى القوم أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان، فقال لهم: احفظوا عنى نهيى إياكم واحفظوا مقالتكم لى فإن تطيعونى فقاتلوا وإن تعصونى فاصنعوا ما بدا لكم، واختلفوا فيما بينهم حتى كادوا يفترقون وسب أهل الكوفة الأشتر وضربوا وجه دابته بسياطهم لأنه كان يحض عليا على القتال وعدم وضع الحرب، ويقول لهم إن رفع المصاحف إنما هى حيلة ومشورة من ابن النابغة يعنى به عمرو بن العاص، فلما رأى علىّ اشتداد الخلاف وتفريق الكلمة سير الأشعث بن قيس إلى معاوية يسأله عما يريد، فقال معاوية: إنما أريد أن نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فى

كتابه تبعثون رجلاً ترضون به ونبعث نحن رجلاً نرضى به نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقنا عليه، فرجع الأشعث إلى عليّ وأخبره بما قاله معاوية وفاض الخبر بذلك بين أصحاب عليّ فقالوا: قد رضينا وقبلنا وقال أهل الشام قد رضينا عمرا، وقال أصحاب عليّ: ونحن قد رضينا بأبى موسى الأشعرى فمانعهم على فى ذلك فأصروا على تحكيم أبى موسى، وجاء أبو موسى حتى دخل المعسكر وحضر عمرو بن العاص عند عليّ ليكتبوا القضية بحضوره فكتبوا، بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين فقال عمرو هو أميركم وأما أميرنا فلا، فقال الأحنف لا تمح اسم أمير المؤمنين فإنى أخاف إن محوتها أن لا ترجع إليك أبداً لا تمحها، وإن قتل الناس بعضهم بعضًا قيل فأبى ذلك عليّ ملياً من النهار ثم إن الأشعث بن قيس قال: امح هذا الاسم فمحاه، فقال عليّ: الله أكبر سنة بسنة والله إنى لكاتب رسول الله ﷺ يوم الحديبية فكتبت محمد رسول الله، وقالوا لست برسول الله ولكن أكتب اسمك واسم أبيك فأمرنى رسول الله ﷺ بمحوه فقلت لا أستطيع فقال أرنيه فأريته فمحاه بيده، وقال: إنك ستدعى إلى مثلها فتجيب، فقال عمرو بن العاص: سبحان الله أنشبه بالكفار ونحن مؤمنون ووقع بينه وبين أمير المؤمنين على كلام كثير ثم كتب الكتاب، هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان قاضى على على أهل الكوفة ومن معهم، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم إننا ننزل عند حكم الله وكتابه وأن لا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيى ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان فى كتاب الله وهما أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملا به وما لم يجداه فى كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة . اهـ.

ثم أخذ الحكمان من عليّ ومعاوية ومن العسكرين من العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه واتفقوا على أن يكون الحكم فى رمضان أو بعده وشهد بذلك جماعة من أصحاب على وآخرون من أصحاب معاوية وكتب الكتاب يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين واتفقوا على أن يوافى عليّ على موضع الحكمين بدومة الجندل أو بأذرح فى شهر رمضان وتفرقت جموع كثيرة من أصحاب عليّ وسار بمن بقى معه عن صفين إلى الكوفة ونزل بها.

ولما جاء وقت اجتماع الحكمين أرسل عليّ أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانىء الحارثى وأوصاه أن يقول لعمرو بن العاص إن علياً يقول لك إن أفضل الناس

عند الله عزّ وجلّ من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه من الباطل وإن زاده ويحك لا تكن للخائنين خصيماً وللظالمين ظهيراً، وأرسل معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام حتى توافقوا جميعاً على دومة الجندل باذرح فلما اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى. قال عمرو لأبى موسى يا أبا موسى ألا تعلم أن عثمان قتل مظلوماً، قال: أشهد، قال: ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه قال: بلى، قال فما يمنعك منه وبيته فى قريش كما قد علمت فإن خفت أن يقول الناس ليست له سابقة وجدته ولىّ عثمان المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة والتدبير وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ وكاتبه وقد صحبه وعرض له بسلطان، فقال أبو موسى ياعمرو اتق الله فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف تولاه أهله، ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة بن الصباح إنما هو لأهل الدين والفضل مع إنى لو كنت معطيه أفضل قريش شرفاً أعطيته على بن أبى طالب، وأما قولك إن معاوية ولىّ دم عثمان فوله هذا الأمر فلم أكن لأوليه وادع المهاجرين الأولين، وأما تعريضك لى بالسلطان فوالله لو خرج معاوية لى من سلطانه كله لما وليته وما كنت لأرتشى فى حكم الله ولكنك إن شئت أن تحيى اسم عمر بن الخطاب رحمه الله، قال له عمرو وما يمنعك من ابنى وأنت تعلم فضله وصلاحه فقال: ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة، فقال عمرو: إن هذا الأمر لا يصلح إلا لرجل يأكل ويطعم وكانت فى ابن عمر غفلة فقال له ابن الزبير أفطن فانتبه، فقال والله لا أرشو عليها شيئاً أبداً، وقال يابن العاص إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد ما تقارعوا بالسيوف فلا تردهم فى فتنة فلما اختلفوا فيمن يتولاها. قال عمرو بن العاص لأبى موسى خبرنى ما رأيك، قال أبو موسى: أرى أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا، فقال عمرو الرأى ما رأيت فقاما وأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون وكان عمرو قد عود أبا موسى أن يقدمه فى الكلام ويقول أنت صاحب رسول الله ﷺ وأسن منى، فقال: حينئذ يا أبا موسى أعلم الناس أن رأينا قد اتفق فتكلم أبو موسى، فقال: إن رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة فقال عمرو صدق وبرّ تقدم يا أبا موسى فقال له ابن عباس ويحك والله إنى لأظنه قد خدعك إن كنتما اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم به قبلك ثم تكلم به بعده فإنه رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا بينكما فإذا قمت فى الناس خالفك، قال بعض الكتاب وكان أبو موسى مغفلاً فقال إنا قد اتفقنا والتفت إلى الناس وقال: أيها

الناس إنا قد نظرنا فى أمـر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثـها من أمر قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه وهو أن نخلع عليا ومعاوية ويولى الناس أمرهم من أحبوا، وإنى قد خلعت عليا ومعاوية ثم تنحى وأقبل عمرو، وقال: إن هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحـبه كما خلعه واثبت صاحبى معاوية فأنه ولىّ ابن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه، فعند ذلك وقع الهرج بين الناس وعلت الضوضـاء وتشاتم أبو مـوسى وعمرو بن العـاص وتسابا وضـرب شريح بن هانىء عمرو بن العاص بسوط كان فى يده فقام عليـه ابن لعمرو فضربه كذلك وكثر الصيـاح من الفريقين وطلب أهل الشام أبا مـوسى فهرب إلى مكة وعاد عـمرو بن العاص بأهل الشام إلى مـعاوية فسلموا عليه بالخلافة ورجـع ابن عباس وشريح إلى علىّ وأخبره بما كان فاغتم غماً شديداً وصار إذا صلى الغداة يقنت فيقول اللهم العن معاوية وعمرا وأبا الأعور وحبيبا وعبد الرحمن بن خالد والضحاك بن قيس والوليد فـبلغ ذلك معـاوية فكان إذا قنت أيضـاً سب عليا وابن عـباس والحـسن والحسـين والأشـتـر، وتألب أصحاب علىّ على قـتال معاوية وأصحابه وأتوا عليـا فبايعوه . وقالوا: نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت، وكتب علىّ إلى أهل النهر، بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علىّ أميـر المؤمنين إلى زيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس، أما بعد فإن هذين الرجلين اللذين ارتضيناهما حكمين قد خـالفا كتاب الله واتبـعا هواهما بغـير هدى من الله فلم يعمـلا بالسنة ولم ينفذا القرآن حكما فبـرىء الله منهما ورسوله والمؤمنون فإذا بلغكم كتـابى هذا فأقبلوا إلينا فإنا سائرون إلى عـدوّنا وعدوّكم ونحن على الأمر الأول الذى كنا فيه فكتـبوا إليه، أما بعد فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لـنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت الـتوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقـد نبذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين، فلما قرأ الجواب أيس منهم وسار بمن مال معه حتى نزل على أهل الكوفة واستنصـرهم فاجتمع له منهم زهـاء ثلاثة آلاف مقاتل، وقيل: ثلاثة آلاف ومـائتين وخرج مـعه من أهل الكوفـة أربعون ألف مقـاتل وسبعـة عشر ألـفا من الأبناء ممن أدرك، وثمانية آلاف من الموالى والعبيد فكان جميع أهل الكوفة خمسة وستين ألفاً، فسار بهم علىّ لقتـال من خرج عن دعوته من أهل النهر وغيرهم فـقاتلهم واستظهر عليهم ثم نادى فيمن معه بالخروج لقتال معاوية فراجعه فى ذلك الأشعث بن قيس، وقال: ياأمـير المؤمنين لقـد نفدت نبـالنا وكلت سيـوفنا ونصلت أسنة رمـاحنا وعاد أكثرها قصدا فارجع إلى مصرنا نستعد ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا فإن عدونا

أقوى منا، فأجابه عليّ إلى ذلك وما زالوا حتى نزلوا بالنخيلة فأمر الناس بأن يلزموا المعسكر ويتأهبوا للزحف على العدو وأن يقلوا من زيارة أبنائهم ونسائهم حتى يسيروا إلى عدوّهم فلبثوا على هذا الحال أياماً ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا البيوت إلا نفرا من وجوه الناس، وأصبح عليّ وقد رأى المعسكر خالياً فحزن واشتد به الحزن ودخل الكوفة وقد انكسر عليه رأيه في المسير ولكنه قد كبر عليه الأمر واستعظمه فجعل يستنفرهم ويحثهم على الخروج فلم يطيعوا وبقوا على هذا الحال أياماً فجمع رؤساءهم وكبارهم وقام فيهم، فقال: عباد الله ما بالكم إذا أمرتكم أن تنفروا تثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة وبالذل والهوان من العز خلفا وكلما ناديتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت فى سكرة وكأن قلوبكم مألوسة وأنتم لا تعقلون فكأن أبصاركم كمه وأنتم لا تبصرون لله، أنتم ما أنتم إلا أسد الشرى فى الدعة وثعالب روّاغة حين تدعون إلى البأس إنكم تكادون ولا تكيدون وينتقص أطرافكم وأنتم لا تتحاشون ولا تنام أعينكم وأنتم فى غفلة ساهون إلى أن قال، فلم يلتفتوا إلى مقالته وكادوا يخذلونه.

وبينما كان عليّ على هذا الحال من الضعف والوهن وتفريق كلمة أصحابه إذ جاءه الخبر بفساد أهل مصر على محمد بن أبى بكر عامله بها وخروج معاوية بن خديج السكونى بها يطالب بدم عثمان واجتماع الكثير إليه فكبرالأمر على عليّ، قال بعض الكتاب: فكتب إلى الأشتر وهو بنصيبين يستدعيه فلما حضر أخبره خبر أهل مصر، وقال له: ليس لها غيرك فأخرج إليها فإنى قد وليتك إياها واستعن بالله فخرج الأشتر يتجهز إلى مصر وأتت معاوية عيونه بذلك فعظم عليه الأمر وخشى عاقبته لأنه علم أن الأشتر إن قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبى بكر فأرسل معاوية إلى المقدم على أصحاب الخراج بالقلزم يقول: إن الأشتر قد ولى مصر فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت وبقيت، فقام الرجل من ساعته وسار حتى أتى القلزم وأقام به وخرج الأشتر من العراق يريد مصر فلما انتهى القلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه الضيافة فنزل عنده فأتاه بطعام فأكل فأتاه بشربة من عسل قد وضع له فيها سما فشرب فمات لساعته وجاء الخبر بموته إلى معاوية ففرح فرحاً لا يوصف وقام فى الناس خطيباً فقال بعد كلام: قد كانت لعليّ يمينان فقطعت إحداهما بصفين يعنى بموت عمار بن ياسر وقطعت الأخرى اليوم يعنى بموت الأشتر، وعلم محمد بن أبى بكر بما فعله عليّ من إرساله الأشتر مكانه فكبر عليه الأمر جدا وأرسل إلى عليّ فى ذلك فكتب إليه عليّ يقول: أما بعد فقد بلغنى

موجدتك من تسريحى الأشتر إلى عملك وإنى لم أفعل ذلك إلا استبطاء لك فى الجهاد ولا ازديادا منى لك فى الجد ولو نزعت ما تحت يدك لوليتك ما هو أيسر عليك مؤنة منه وأعجب إليك ولاية، إن الرجل الذى كنت وليته أمر مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضى الله عنه وضاعف له الثواب أصبر لعدوك وشد للحرب، وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك، فكتب إليه محمد أما بعد فقد انتهى إلىّ كتابك وفهمته وليس أحد من الناس أرضى برأى أمير المؤمنين ولا أجهد على عدوه ولا أرأف بوليه منى وقد خرجت فعسكرت وأمنت الناس إلا من نصب لنا حربا وأظهر لنا خلافاً وأنا متبع أمير المؤمنين وحافظه والسلام، وقيل: إنما تولى الأشتر مصر بعد قتل محمد ابن أبى بكر، وقيل: غير ذلك، وكان معاوية شديد الخوف من أهل مصر يهابهم جداً لقربهم منه وشدّتهم على من قام يطالب بدم عثمان ولم يكن يخشى غيرهم لا سيما بعد اختلاف الناس على علىّ بالعراق فجعل يدبر الحيلة فى ذلك ثم دعا عمرو ابن العاص وحبيب بن مسلمة وبسر بن أرطاة وآخرين وشاورهم فى أمر مصر ومن بها من أصحاب علىّ فأشار عليه عمرو بن العاص بفتحها والركوب على من بها من الأحزاب حتى يتم النصر فكاتب معاوية إلى بعض من خالف عليا بمصر فى أمر ذلك فمنوه بالنصر واستنهضوه فأمر عمرو بن العاص ليتجهز إليها وسير معه ستة آلاف رجل فنزلوا على مقربة من أرض مصر فاجتمع إليه من قام يطالب بدم عثمان فتقوت بهم عزيمته وكتب إلى محمد بن أبى بكر أما بعد فتنح عنى بدمك يا ابن أبى بكر فإنى لا أحب أن يصيبك منى ظفر إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مسلموك فاخرج منها إنى لك من الناصحين وبعث معه كتابا من معاوية أيضاً فأرسل محمد الكتابين إلى علىّ وأخبره بنزول عمرو بن العاص على حدود مصر وطلب منه المدد لتثاقل الناس وتقاعدهم فوعده علىّ بإرسال نجدة عاجلة وحضه على أن يضم شيعته إليه.

واشتبك القتال بين محمد بن أبى بكر وعمرو بن العاص ومن بمصر من أصحاب عثمان واشتد شدّة بالغة واجتمع أهل الشام حول محمد وأصحابه وأخذوهم بالرماح والسيوف من كل صوب وكان كنانة بن بشر على مقدمة أصحاب محمد فلما رأى ذلك كنانة نزل عن فرسه ونزل معه أصحابه فضارب أهل الشام بسيفه حتى قتل، وبلغ محمد بن أبى بكر خبر موته فانزعر وتفرق عنه أصحابه

وأطبق عليه عمرو بمن معه ففر محمد على وجهه حتى انتهي إلى خربة فى الطريق فأوى إليها وساق عمرو بن العاص بمن معه يريد الفسطاط وخرج معاوية بن حديج فى طلب محمد بن أبى بكر فدل عليه رجل فأخرجوه من الخربة وقد كاد يهلك عطشا فقال: يا ابن حديج أسقنى، فقال له. لاسقانى الله إن سقيتك قطرة أبداً إنكم منعتم عثمان شرب الماء والله لأقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم والغساق فقتله ابن حديج ثم ألقاه فى جيفة حمار ثم أحرقه بالنار وجاء الخبر إلى علىّ بفتح مصر وقتل محمد بن أبى بكر فحزن كثيراً وحزنت عائشة وجزعت عليه جزعاً شديداً وجعل عمرو يدبر الأمور بمصر وقد أخذ البيعة لمعاوية بن أبى سفيان وجمع إليه كلمة الأحزاب فقويت بهم شوكته واتسعت كلمته وهابه علىّ فأحجم عن تسيير الجند لقتاله بعد أن نادى فيهم بالرحيل، واختلفت كلمة أصحاب علىّ وتفرقوا عنه أو كادوا ومعاوية يبعث البعوث إلى الآفاق لتعم دعوته وتعلو كلمته، فلما دخلت سنة ست وثلاثين للهجرة فرق معاوية جيوشه فى العراق ورسم لهم بقتال كل من لم يذعن لسلطانه فعاثوا وقتلوا ونهبوا وسبوا وفعلوا مالا خير فيه وكذلك فعلوا بأهل البوادى وبلغوا مكة والمدينة وفعلوا بها ما فعلوا وكبر الأمر على علىّ وكاد يسقط فى يده فكانت الأخبار تأتيه فى كل يوم بتثاقل الناس عن الخروج لقتال عدوّه فكان يخطب ويحض ويعذر ويؤنب ويقول ياأيها الناس انصروا من هو على الحق ويحكم المغرور من غررتموه ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب إنا لله وإنا إليه راجعون والناس مع ذلك فى تثاقل وسلطانه فى إدبار، فلما اشتد الحال وعظم الخلاف بين المتحازبين اجتمع عبد الرحمن بن ملجم المرادى، والبرك بن عبد الله التميمى الصريمى، وقيل: اسم البرك الحجاج، وعمرو بن بكر التميمى السعدى وهم من الخوارج فتذاكروا أمر الناس وعابوا عمل ولايتهم ثم ذكروا قتلى النهر فترحموا عليهم. وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم فلو شرينا أنفسنا وقتلنا أئمة الضلالة وأرحنا منهم البلاد لكان فى ذلك المصلحة فقال ابن ملجم ويحكم أنا أكفيكم عليّا وكان ابن ملجم هذا من أهل مصر وقال البرك بن عبد الله وأنا أكفيكم معاوية. وقال عمرو بن بكر وأنا أكفيكم عمرو ابن العاص فتعاهدوا أن لا ينكص أحدهم عن صاحبه الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت فأخذوا سيوفهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة من رمضان وقصد كل منهم الجهة التى يريد فأتى ابن ملجم الكوفة فلقى أصحابه بالكوفة وكتمهم أمره ورأى يوماً أصحاباً له من تيم الرباب، وكان علىّ قد قتل منهم يوم النهر عدة فتذاكروا قتلى النهر، ورأى معهم امرأة من تيم الرباب

اسمـها: قعـام، وقد قتل أبوها وأخـوها يوم النهر وكانت فـائقة الجمـال فلما رآها أخذت قلبـه فخطبها فـقالت: لا أتزوّجك حتى تشـتفى لى، فقـال: وما تريدين، قالت: ثلاثة آلاف وعـبداً وقينة وقـتل علىّ، فقال: أما قـتل علىّ فما أراك ذكـرتيه وأنت تريدينني، قالت: بلى، التمس غرّته فإن أصبـته شفيت نفسك ونفسى ونفعك العيش معى، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها، قال: والله ما جاء بى إلا قتل علىّ فلك ما سألت. قالت: سأطلـب لك من يشد ظهرك ويساعدك ويعث إلى رجل من قومها اسـمه وردان وكلمته فأجابهـا وأتى ابن ملجم رجلاً من أشجع اسمه شبيب بن بجرة فقال له: هل لك فى شرف الدنيا والآخرة؟ قال: وماذا، قال: قتل علىّ، قال شبيب: ثكلتك أمك لقد جئت شـيئاً إدّاً كيف تقدرعلى قتله، قال: أكمن له فى المسجد فـإذا خرج إلى صلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه، فـإن نجونا فقد شفينا أنفسنا وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها، قال: ويحك لو كان غير علىّ كـان أهون، فلما كانت ليلة الجمعة سابع عـشرة رمضان سنة أربعين استيقظ علىّ سحـراً وقال: لابنه الحـسن رأيت الليلة النبىّ ﷺ فقلت: يارسـول الله ماذا لقيت من أمـتك من الأود واللدد؟ فقال: لى أدع الله تعالى عليـهم، فقلت: اللهم أبدلنى بهم خيـراً لى منهم وأبدلهم بى شراً لهم منى، ودخل المؤذن فقـال: الصلاة فخرج علىّ من الباب يـنادى أيها الناس الصلاة الصلاة فاعترضـه ابن ملجم فضربه بالسيف فأصـاب جبهته ووصل إلى دمـاغه فشد عليه الناس من كل جـانب فأمسك وأوثـق وأقـام عـلىّ الجمعـة والسـبت وتوفى ليلة الأحد وغـسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية وصلى عليه الحسن ودفن بدار الإمارة بالكوفة ليلاً وأخفى قـبره لئلا ينبشه الخوارج وأمـا البرك فإنه ضرب معاوية فـأصاب أوراكه وكان معـاوية عظيم الأوراك فقطع منه عرق النكاح فلم يولد له بعـد ذلك ولد فأمر معاوية باتخاذ المقصورة فى الجـوامع من ذلك الوقت، وأما عمرو بن بكر فإنه رصد عمرو بن العاص بمـصر فاشتكى عمرو بطنه فلم يخـرج إلى الصلاة، فصلى بالناس رجل من بنى عامر يقال له خـارجة فضربه ابن بكر فقتله وإليـه أشار ابن عبدون فى قصيدته الرائية:

فليتـها إذ فـدت عـمرا بـخارجـة ... فـدت عليا بمن شـاءت من البشـر

وقيل ان عليا كان إذا رأى ابن ملجم يتمثل بهذا البيت

أريد حـــيـــاته ويريـد قـــتـلي ... عــذيرك من خليلك من مــرادي

وأخذوا ابن ملجم فعذبوه وقطعوه إربا بعـد موت علىّ، قال غير واحد، أنه لما

ضربه ابن ملجم أوصى الحسن والحسين وصية طويلة وفى آخرها، يابنى عبد المطلب لا تخوضوا دماء المسلمين خوضاً تقولون قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن بى غير قاتلى أضربوه ضربة بضربة ولا تمثلوا به فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إياكم والمثلى»، ولما مات علىّ قتل الحسين ولده عبد الرحمن بن ملجم المذكور فقطع يديه ورجليه وكحل عينيه بمسمار محمى فى النار، قيل: كل ذلك ولم يتأوه ولم يجزع فلما أرادوا قطع لسانه تأوه وجزع فسئل عن ذلك، فقال: والله ما أتأوّه فزعاً ولا جزعاً من الموت وإنما أتأوّه لأن تمر علىّ ساعة من ساعات الدنيا لا أذكر الله تعالى فيها فقطعوا لسانه فمات بعد ذلك، ومات علىّ وعمره سبع وقيل: ثمان وخمسون، وقيل: ثلاث ،وقيل: ثمان وستون سنة وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ويوماً واحداً وكانت مدة إقامته بالمدينة أربعة أشهر ثم سار إلى العراق وقتل بالكوفة. قيل: وكان قبل موته قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت فقتل قبل أن يخرج بهم لقتال عدوّه، وكان يجتمع علىّ مع صاحب الشريعة فى عبد المطلب الجد الأدنى وينسب إلى هاشم فيقال: القرشى الهاشمى ولم يزل اسمه فى الجاهلية والإسلام عليا ويكنى أبا الحسن أسلم وهو ابن سبع سنين، وقيل: ابن تسع، وقيل: ابن عشر، وقيل: ابن خمس عشرة، وقيل غير ذلك والصحيح الأول، وشهد المشاهد كلها إلا تبوك فإن صاحب الشريعة خلفه فى أهله، وكان غزير العلم ولما هاجر صاحب الشريعة أقام بعده ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عنه الودائع، وكان لعلىّ شفقة على رعيته فكان متواضعاً ورعاً ذا قوّة فى الدين وكان قوته من دقيق الشعير يأخذ منه قبضة فيضعها فى القدح ثم يصب عليه ماء فيشربه، وقد تفرق عليه الخوارج واعتقد فيه الناس الألوهية، قيل: ولما بلغ عائشة قتل علىّ قالت:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى ... كما قرّ عينا بالإياب المسافر

قالت من قتله: فقيل رجل من مراد فقالت:

فإن يك نائيا فلقد نعاه ... نعىّ ليس في فيه التراب

فقالت زينب بنت أبي سلمة: أتقولين هذا لعلىّ، فقالت: إننى أنسى فإذا نسيت فذكرونى، ومات فى أيامه بنيامين بطرك الإسكندرية بعد أن أقام تسعاً وثلاثين سنة على المشهور وكان فيها من الحوادث والمحن ما مر بك ذكره، فأقيم بعده أغاثو وهو تاسع ثلاثيهم وكان فى أيامه من الحوادث ما سيذكر بعد، ولما مات أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب خلفه ابنه الحسن.

(الفصل الخامس)

(فى خلافة أمير المؤمنين حسن بن علىّ)

ثم قام بالأمر بعد أمير المؤمنين علىّ الحسن ابنه، وكنيته أبو محمد، ولقبه الذكى وأمه فاطمة الزهراء بويع له بالخلافة بعد موت أبيه فى شهر رمضان سنة أربعين للهجرة أى سنة إحدى وستين وستمائة ميلادية فكان الناس فى ريب من بيعته لأنه كان يقول لهم أشترط عليكم فى بيعتى إنكم مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت، فقالوا: ماهذا لكم بصاحب وما يريد هذا إلا القتال ثم سار إلى المدائن واستقر بها فبينما هو بالمدائن إذ نادى مناد أن قيساً قتل، وكان الحسن قد جعله على مقدمة الجيش وهو قيس بن سعد بن عبادة فخرج الحسن لذلك وخرج معه الكثير من الناس وانفشلوا وقد نهبوا متاع الحسن حتى نازعوه بساطاً كان تحته فأزداد لهم بغضاً وكاد يسقط فى يده، وكان بينهم الجراح الأسدى فهزأ الجراح على الحسن وهو يسير معه ووجاه بالخنجر فى فخذه، فقال الحسن: قتلتم أبى بالأمس ووثبتم علىّ اليوم تريدون قتلى زهداً فى العادلين ورغبة فى القاسطين ووالله (لتعلمن نبأه بعد حين) وسار وهو يريد تسليم الأمر إلى معاوية بغضاً فى القوم لخذلهم إياه، ثم كتب إلى معاوية بتسليم الأمر إليه واشترط عليه شروطاً فأجابه معاوية إلى ما التمسه منه وسير له ما اشترط عليه، فسلم الأمر إلى معاوية وبايع له لخمس بقين من ربيع الأوّل قال بعض الكتاب: لأنه رأى المصلحة فى جمع الكلمة وترك القتال، ويقال أنه أخذ من معاوية ألف ألف درهم. وقال قوم: إنه صالحه باذرح فى جمادى الأولى وأخذ منه مائة ألف دينار، ويقال أربعمائة ألف درهم، وقيل أنه شرط عليه أن يمكنه من بيت المال يأخذ منه حاجته وأن يكون ولى العهد من بعده ففرح معاوية بذلك فخلع الحسن نفسه وسلم الأمر إلى معاوية وصالحه ودخل هو وإياه الكوفة فسمى هذا العام عام الجامعة لاجتماع الأمة بعد الفرقة على خليفة واحد، وقيل: أنه لما راسل معاوية فى تسليم الخلافة إليه خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه، وقال: إنا والله ما يثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر فشيبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع وكنتم فى سيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم ألا وقد أصبحتم

بين قتيلين قتيل بصفين تبكون له وقتيل بالنهر وأن تطلبون بثأره، وأما الباقى فخاذل وأما الباكى فثائر ألا وإن معاوية دعانـا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى الله عزّ وجلّ بظبا السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا، فعند ذلك ناداه الناس من كل جانب البقية البقية فأمضى الصلح، قال الليث: شهدت خطبة الحسن ﷺ حين صالح معاوية وخلع نفسه من الخلافة فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمـا بعد فإن أكيس الكيس التقى وأحمق الحـمق الفجور، وإن هذا الأمر الذى اختلفت أنا ومعاوية فـيه إن كان له فهو أحق به منى، وإن كان لى فقد تركته له إرادة لإصلاح الأمة وحقن الدماء عن سفكها والعار على النار.

قال بعض أصحـاب التاريخ: لما مرض الحسن ﷺ كـتب مروان بن الحكم إلى معاوية بذلك فكتب إليه معاوية أن أقبل المطى إلىّ بخبر الحسن فلما بلغ معاوية موته سمع تكبيره من الخـضراء فكبر أهل الشام لذلك التكبير، فقالت فـاختة بنت قريظة لمعاوية، أقـر الله عينك ما الذى كـبرت لأجله، فقـال: مات الحسن، فـقالت أعلى موت الحسن بن فاطمـة تكبر، فقال: والله ما كبرت شمـاتة فى موته ولكن استراح قلـبى، ودخل عليه ابن عباس فقـال له يا بن عباس: هل تدرى ما حدث فى أهل بيتك ؟فقال لا أدرى ما حـدث إلا إنى أراك مستبشراً وقد بلغنى تكبـيرك فقال مات الحسن. فقال ابن عـباس: يرحم الله أبا محمد ثلاثاً، والله يامعـاوية لا تسدّ حفرته حفرتك ولا يزيد عمره فى عمرك ولئن كنا قد أصبنا بالحسن فلقد أصبنا بإمام المتقين وخاتم النبيين فجبر الله تلـك الصدعة وسكن تلك العبرة وكان الله الخلف علينا من بعده.

وكان الحسن قد سمته أمرأته جـعدة بنت الأشعث فمكث شهرين يرفع من تحته فى اليوم كـذا وكذا مرة طست من الدم وكان يقـول سقيت السم مراراً ومـا أصابنى فيـها ما أصـابنى فى هذه المرة، وكان قد أوصى لأخـيه الحسـين وقال: إذا أنا مت فادفنى مع جدى رسول الله ﷺ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً وإن منعوك فادفنى فى بقيع الغـرقد، فلما مـات لبس الحسيـن ومواليه السـلاح وخرجوا ليـدفنوه مع جده فخـرج مروان بن الحكم فى مـوالى بنى أميـة وهو يومئـذ عامل على المدينة فـمنع الحسين من ذلك، وكانت وفاته فى شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين، وقيل: سنة خمسين وصلى عليه سعيد بن العـاص ودفن مع أمه فاطمة، وقيل: دفن بالبقيع فى

قبر بقبة العباس ودفن فى هذا القبـر أيضاً على زين العابدين وابنه محمد الباقر وابن ابنه جعفر بن محمد الـصادق فهم أربعة فى قبر واحد، فكانت خلافة الحـسن ستة أشهر وخمسة أيام، وقيل: ستة أشهر إلا أيامًا، ومات وعمره سبع وأربعون سنة فتم بموته الأمر لمعاوية وانقطع بموته حبل الخلفاء الراشدين وقامت بعدهم الخلافة الأموية فكانت مدة خلافة الراشدين عبارة عن ثلاثين سنة هجرية وبعض أشهر وكان عددهم خمسة خلفاء أولهم أبو بكر وآخرهم الحسن بن علىّ بن أبى طالب.

◻◻◻



(المقالة الرابعة)
(فى الخلفاء الأمويين وفيها فصول)

(الفصل الأول)
(فى خلافة معاوية بن أبى سفيان)

لما خلع الحسن نفسه من الخلافة على الشروط التى تقدم الكلام عليها تم الأمر لمعاوية واستقام له الملك وصفت له الخلافة وعلت كلمته وطارت شهرته وكان قد بويع له بالخلافة يوم التحكيم، بايعه أهل الشام واختلف عليه أهل العراق إلى أن صالحه الحسن بن على فأجمع الناس على بيعته فى جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين هجرية أى سنة اثنتين وستين وستمائة ميلادية.

وكان مولد معاوية بالخيف من منى، أسلم قبل أبيه أبى سفيان وصحب صاحب الشريعة وكتب له وكان فى عسكر أخيه يزيد بن أبى سفيان وكان عاملاً لعمر بن الخطاب فى سنة عشرين هجرية على الشام فلم يزل متولياً عليه عشرين سنة، وذلك بقية خلافة عمر بن الخطاب وخلافة عثمان وفى خلافة علىّ متغلباً عليها إلى أن أسلم إليه الحسن الخلافة فاجتمع له الأمر وبعث نوابه إلى البلاد وذلك فى سنة إحدى وأربعين للهجرة أى سنة إحدى وستين وستمائة للميلاد فسمى هذا العام عام الجماعة، قالوا: لأن الأمة اجتمعت فيه بعد الفرقة على إمام واحد.

قال بعض الكتاب: وكانت امرأة استشارت صاحب الشريعة فى أن تتزوّج بمعاوية فقال لها: صعلوك لا مال له ثم بعد هذا القول بإحدى عشرة سنة صار نائب دمشق ثم بعد الأربعين صار ملك الدنيا، فلما استقرت به الخلافة وتصرف فى الأمور خرج عليه فروة بن نوفل الأشجعى الحرورى وورد الكوفة وهو أول الخوارج،

فكتب معاوية إلى أهل الكوفة لاذمة لكم عندى حتى تكفونى أمره فقاتلوه وقتلوه بشهرزور، وقيل ببعض السواد، ثم خرج بعده معن الخارجى وهو، معن بن عبدالله رجل من محارب فقبض عليه المغيرة وحبسه وبعث إلى معاوية يخبره أمره فكتب إليه إن شهد أنى خليفة فخل سبيله فأحضره المغيرة. وقال له: أتشهد أن معاوية خليفة وأنه أمير المؤمنين، فقال: أشهد أن الله عزّ وجلّ حق **﴿وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور﴾** أمر به فقتل ثم خرج أبو مريم مولى بنى الحرث بن كعب ومعه امرأتان قطام وكحيلة فكان أوّل من خرج معه النساء على الخليفة فعاب ذلك عليه بعض قومه، فقال: قد قاتل النساء مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين بالشام، قال: وسأردّهما فردّهما فوجه إليه المغيرة رجالاً فقاتلوه وقتلوه.

ولما كانت سنة اثنتين وأربعين سير معاوية جنداً ضخماً لبلاد الروم للغزو فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم دخل بسر بن أرطأة أرضهم سنة ثلاث وأربعين، قيل: وبلغ القسطنطينية ثم دخل عبد الله بن خالد وكان على حمص فشتى بهم وغزاهم بسر تلك السنة بحراً ثم دخل إليها عبد الرحمن السبيعى سنة ست وأربعين فشتى بها وشتى أبوه على أنطاكية، ثم دخلوا سنة ثمان وأربعين فشتى عبد الرحمن بأنطاكية ودخل عبد الله بن قيس فى تلك السنة بالصائفة وغزاهم مالك بن هبيرة سنة تسع وأربعين فشتى بأرض الروم ودخل عبد الله بن كرز الجبلى بالصائفة وشتى يزيد بن ثمرة الرهاوى فى بلاد الروم بأهل الشام فى البحر وعقبة بن نافع بأهل مصر كذلك، وسير أيضاً فى سنة ثمان وأربعين للهجرة إلى سنة خمسين أى سنة ثمان وستين وستمائة للميلاد جيشاً كثيفاً إلى قسطنطينية مع سفيان بن عوف فأوغلوا فى بلاد الروم وألقوا الحصارعلى المدينة وكان فى الجيش يومئذ ابن عباس وعمرو بن الزبير وأبو أيوب الأنصارى الذى شهد بدراً وأحدا وحرب صفين فمات أيام الحصار ودفن بقرب سور القسطنطينية، وبعد أن هاجموا المدينة هجمات كثيرة وشددوا عليها من كل جانب هزمهم الروم شر هزيمة وعرقلت النار الإغريقية حركاتهم فكانت تحرق وتبيد وتهلك من فوق ومن تحت الماء وكان معاوية قد أمر أبنه يزيد بالغزو معهم فتثاقل واعتل فأمسك عنه أبوه وأصاب الناس فى غزوتهم هذه جوع ومرض شديد وفاض الخبر بذلك وتحدّث الناس فيه فأنشأ يزيد يقول:

ما إن أبالي بما لاقت جموعهم ... بالفرقدونة من حمى ومن شوم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفعاً ... بدير مرّان عندي أم كلثوم

وأم كلثوم هى امرأته ابنة عبد الله بن عامر فبلغ معاوية شعره فأقسم عليه ليلحقن بسيفان من أرض الروم ليصيبه ما أصاب الناس فسار ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه ثم رجع يزيد والجيش إلى الشام، قال أصحاب التاريخ: فكانت هذه أول مرة لقيت فيها عساكر المسلمين صداً، وكان معاوية قد عقد لعمرو بن العاص النيابة على مصر فى مدة اختلافه مع أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كما تقدم القول، وكتب إلى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج وهما كبراء العاملين على أخذ ثار عثمان بن عفان بمصر يخبرهم بقدوم عمرو بن العاص ومن معه من الجند لأخذ مصر فأجابوه فجهز معاوية عمرو بن العاص فى ستة آلاف فسار إليها واجتمعت عليه العثمانية وهم عشرة آلاف، فكتب عمرو إلى محمد بن أبى بكر ما كتب وكان ما كان من أمر قتل محمد بن أبى بكر وإحراق جثته مما مر بيانه فى محله، فلما تم الأمر إلى عمرو بن العاص ودانت له الأمور كتب إلى معاوية يخبره بما كان من الأمر وأن الله قد فتح عليه بلاد مصر فأقام عمرو أميراً عليها إلى أن مات بها ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين على المشهور ودفن بالمقطم من ناحية الفيح، وكان طريق الناس يومئذ إلى الحجاز فأحب أن يدعو له من مرّ به وهو أول أمير مات بمصر وفى ذلك يقول عبد الله بن الزبير:

ألم تر أن الدهر أخنى بربوة	على عمرو السهمي تجبي له مصر
فأضحى نبيذاً بالعراء وضللت	مكايده عنه وأمواله الدثر
ولم يغن عنه جمعه المال برهة	ولا كيده حتى أتيح له الدهر

ولما مات عمرو بن العاص ولى معاوية على مصر ولده عبد الله بن عمرو المذكور، قال الواقدى: فعمل له عليها سنتين. وقال غيره: بل أشهرا ثم عزله وولى عقبة بن عامر سنة أربع وأربعين فأقام إلى سنة سبع وأربعين فعزله وولى معاوية بن حديج فأقام إلى سنة خمسين فعزله وولى مسلمة بن مخلد وجمعت له مصر والغرب وهو أول وال جمع له ذلك، قال ابن عبد الحكم: حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة، عن بعض شيوخ أهل مصر، قال: أول كنيسة بنيت بفسطاط مصر الكنيسة التى خلف القنطرة أيام مسلمة بن مخلد المذكور فأنكر ذلك الجند على مسلمة. وقالوا له: أتقرّ لهم أن يبنوا الكنيسة حتى كاد يقع بينهم وبينه شر فاحتج عليهم يومئذ مسلمة فقال: إنها ليست فى قيروانكم وإنما هى خارجة فى أرضهم فسكتوا عن ذلك فأقام مسلمة أميرا إلى سنة تسع وخمسين، وكان عبد الرحمن بن

عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفى المشهور بابن أم حكيم وهى أخت معاوية أميراً على الكوفة فأساء السيرة فى أهلها فأخرجوه من بين أظهرهم طريداً فرجع إلى خاله معاوية. فقال: لأولّينك مصر خيراً منها فولاه مصر. فلما سار إليها تلقاه معاوية بن حديج على مرحلتين من مصر فقال ارجع إلى خالك فلعمرى لا تسير فينا سيرتك فى أهل الكوفة فرجع ابن أم حكيم ولحقه معاوية بن حديج وافداً على معاوية فلما دخل عليه وجد عنده أخته أم حكيم وهى أم عبدالرحمن الذى طرده من مصر فلما رآه معاوية قال: بخ بخ هذا معاوية بن حديج فقالت أم حكيم: لا مرحباً تسمع بالمعيدى خير من أن تراه فقال معاوية بن حديج: على رسلك ياأم حكيم أما والله لقد تزوّجت فما أكرمت وولدت فما أنجبت أردت أن يلى ابنك الفاسق علينا فيسير فينا كما سار فى أهل الكوفة فما كان الله ليريد ذلك ولو فعل لضربنا ابنك ضرباً يطأطىء منه وإن كره هذا الجالس فالتفت إليها معاوية فقال: كفى فاستمر مسلمة على إمرة مصر إلى أن مات فى خلافة يزيد فى ذى الحجة سنة اثنتين وستين.

ولما كانت سنة ست وخمسين بايع الناس يزيد بن معاوية بولاية عهد أبيه، وكان الذى أشار على معاوية بذلك المغيرة بن شعبة، وذلك لأن معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة ويستعمل عوضه سعيد بن العاص فبلغه ذلك فقال الرأى أن أشخص إلى معاوية فأستعفيه ليظهر للناس كراهتى للولاية فسار إلى معاوية، وقال لأصحابه حين وصل إليه إن لم أكسبكم الآن ولاية وإمارة لا أفعل ذلك أبداً ومضى حتى دخل على يزيد، وقال له :أنه قد ذهب أعيان أصحاب النبىّ ﷺ وآله وكبراء قريش وذوو أنسابهم وإنما بقى أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة والسياسة ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة. قال: أو ترى ذلك يتم قال: نعم فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المغيرة فأحضر المغيرة، وقال له: ما يقول يزيد، فقال: ياأمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفى يزيد منك خلف فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة، قال: ومن لى بهذا، قال: أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك، قال: فارجع إلى عملك وتحدّث مع من تثق إليه فى ذلك وترى ونرى فودعه ورجع إلى أصحابه فقالوا: مه، قال: لقد وضعت رجل معاوية فى غرز بعيد الغاية على أمة محمد وفتقت عليهم فتقا لا يرتق أبداً وتمثل:

بمثلي شاهدي النجوى وغالى   بي الأعداء والخصم الغضابا

وسار المغيرة حتى قدم الكوفة وذاكر من يثق إليه ومن يعلم أنه شيعه لبنى أمية أمر يزيد فأجابوا إلى بيعته، فأوفد منهم عشرة، ويقال أكثر من عشرة وأعطاهم ثلاثين ألف درهم وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة وقدموا على معاوية فزينوا له بيعة يزيد ودعوه إلى عقدها فقال معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم، وجعل معاوية يعطى المقارب ويدارى المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس وبايعه فلما بايعه أهل العراق والشام سار إلى الحجاز فى ألف فارس فلما دنا من المدينة لقيه الحسين بن على أول الناس فلما نظر إليه معاوية، قال: لا مرحباً ولا أهلاً بدنة يترقرق دمها والله مهريقه. قال: مهلاً فإنى والله لست بأهل لهذه المقالة قال: بلى وأشر منها ولقيه ابن الزبير فقال: لا مرحباً ولا أهلاً خب ضب تلعة يخرج رأسه ويضرب بذنبه ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه ويدق ظهره نحياه عنى فضرب وجه راحلته، ثم لقيه عبد الرحمن بن أبى بكر فقال له معاوية، لا أهلاً ولا مرحباً شيخ قد خرف وذهب عقله ثم أمر فضرب وجه راحلته ثم فعل بابن عمرو نحو ذلك فأقبلوا معه لا يلتفت إليهم حتى دخل المدينة فحضروا بابه فلم يؤذن لهم على منازلهم ولم يروا منه ما يحبون فخرجوا إلى مكة فأقاموا بها، وخطب معاوية بالمدينة فذكر يزيد فمدحه وقال: من أحق منه بالخلافة فى فضله وعقله وموضعه وما أظن قوماً بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم وقد أنذرت أن أغنت النذر ثم أنشده متمثلاً:

قد كنت حذرتك آل المصطلق وقلت ياعمرو أطعني وانطلق

إنك إن كلفتني ما لم أطق ساءك ما سرك مني من خلق

دونك ما استسقيته فأحس وذق

ثم دخل على عائشة وقد بلغها أنه ذكر الحسين وأصحابه فقال: لأقتلنهم إن لم يبايعوا فشكاهم إليها فوعظته. وقالت له: بلغنى أنك تتهددهم بالقتل. فقال: يأم المؤمنين هم أعز من ذلك ولكنى بايعت ليزيد وبايعه غيرهم أفترين أن أنقض بيعة قد تمت، قالت: فارفق بهم فإنهم يصيرون إلى ماتحب إن شاء الله، قال: افعل ومكث بالمدينة ما شاء الله ثم خرج إلى مكة فلقيه الناس. قال بعض الكتاب: فقال أولئك النفر نتلقاه فلعله قد ندم على ما كان منه فلقوه ببطن مر فكان أول من لقيه الحسين فقال له معاوية: مرحباً وأهلا يا بن رسول الله وسيد شباب المسلمين وأمر له بدابة فركب وسايره ثم فعل بالباقين مثل ذلك وأقبل يسايرهم لا يسير معه غيرهم حتى دخل مكة فكانوا أول داخل وآخر خارج ولا يمضى يوم إلا ولهم صلة ولا

يذكر لهم شيئاً حتى قضى نسكه وحمل أثقاله وقرب مسيره، فقال بعض أولئك النفر لبعض: لا تخدعوا فما صنع بكم هذا لحبكم ما صنعه إلا لما يريد فأعدّوا له جوابا فاتفقوا على أن يكون المخاطب له ابن الزبير فأحضرهم معاوية وقال: قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم وحملي ماكان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم في شيء من ذلك فسكتوا فقال: ألا تجيبون مرتين، ثم أقبل على ابن الزبير فقال: هات لعمري إنك خطيبهم، فقال: نعم، نخيرك بين ثلاث خصال قال: أعرضهن، قال: تصنع كما صنع رسول الله ﷺ أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر. قال معاوية: ما صنعوا؟ قال: قبض رسول الله ﷺ ولم يستخلف أحدا فارتضى الناس أبا بكر. قال: ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف. قالوا: صدقت فاصنع كما صنع أبو بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه فاستخلفه، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه، قال معاوية: هل عندك غير هذا؟ قال: لا، ثم التفت إلى من لم يتكلموا. وقال: فأنتم قالوا: قولنا قوله قال: فإني قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر إني كنت أخطب منكم فيقوم إليّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس فأحمل ذلك واصفح وإني قائم بمقالة فاقسم بالله لئن ردّ عليّ أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه، ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم، فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فإن ذهب رجل منهم يرد عليّ كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما ثم خرجا وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال. إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم وأنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله، فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب رواحله وانصرف إلى المدينة فبايعه أهل المدينة ثم انصرف إلى الشام وقد تم له ما أراد وقضى الأمر ولم يختلف فيه اثنان.

وخطب معاوية قبل مرضه فقال: إني كزرع مستحصد وقد طالت إمرتي عليكم حتى مللتكم ومللتموني وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقي ولن يأتيكم بعدي إلا من أنا خير منه، كما أن من قبلي كان خيراً مني، وقد قيل من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. اللهمّ إني قد أحببت لقاءك فأحبب لقائي وبارك لي فيه فلم يمض غير قليل

حتى ابتدأ به مرضه فلما مرض المرض الذى مات فيه دعا ابنه يزيد فقال يابنى إنى قد كفيتك الشد والترحـال ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك مـا لم يجمعه أحد فانظر أهل الحـجاز فإنهم أصلك وأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب وانظر أهل العـراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل فإن عزل عامل أيسر من أن يشهر عليك مائة ألف سيف وانظر أهل الشـام فليكونوا بطانتك وعـيبتك فإن رابك من عـدوك شيء فانتـصر بهم، فـإذا أصبتهم فـاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغـيرت أخلاقهم وإنى لست أخاف عليك أن ينازعك فى هذا الأمـر إلا أربعة نفر من قريـش الحسين ابن عليّ وعبـد الله بن عـمـر وعبد الله بن الزبيـر، وعبد الرحمن بن أبى بكر فـأما ابن عمر فأنه رجل قـد وقدته العبادة. فإذا لم يبق أحد غيـره بايعك . وأما الحسين ابن عليّ فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العـراق حتى يخرجوه فإن خرج وظفرت به فأصفح عنه فإن له رحما ماسة وحقا عظيماً وقرابة مع محمد ﷺ وأما ابن أبى بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئـاً صنع مثله ليس له همة إلا فى النساء واللهو وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب، فإن أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبيـر فإن هو فـعلها بك فظفـرت به فقطعـه إربا إربا واحقـن دماء قومـك ما استطعت . اهـ.

قال ابن الأثيـر الجزرى: ذكر فى هذه الرواية عبـد الرحمن بن أبى بكر وليس ذلك بصحيح، فإن عبد الرحمن بن أبى بكركان قد مات قبل معاوية . اهـ.

وقال بعض أهل التاريخ: إن يزيد كـان غائباً فى مرض أبيه ومـوته وأن معاوية أحضر الضـحاك بن قيس ومسلم بن عـقبة المرى فأمرهمـا أن يؤدّيا عنه هذه الرسالة إلى يزيد ابنه.

قلـت: وهذا هو المشـهور، ولما حضرته الوفاة جـمع أهله. فقال ألستم أهلى؟ قالوا: بلى فداك الله بنا فقال: وعليكم حزنى ولكم كدى وكسبى. فقالوا: بلى فداك الله بنا ؟

قال: فهذه نفسى قد خرجت من قدمى فردوها علىّ إن استطعتم فبكوا وقالوا: والله ما لنا إلى هذا سبيل فرفع صوته بالبكاء ثم قال: فمن تغرّه الدنيا بعدى، قـال بعض أهل التاريخ: ولما ثقل به الضعف وتحـدث الناس أنه الموت. قال لأهله احشوا عينى اثمدا وأسبـغوا رأسى دهنا ففعلوا وبرقوا وجهه بالدهن. ثم مـهدوا له مجلساً وأسندوه وأذنوا للناس فدخلوا وسلموا عليه قيـاماً ولم يجلس أحد فلما خرجوا عنه

قالوا: هو أصح الناس فقال معاوية عند خروجهم:

وتجلدي للشامتين أريهم — أني لريب الدهر لا أتضعضع

فسمعه رجل من العلويين فأجابه:

وإذا المنية أنشبت أظفارها — ألفيت كل تميمة لا تنفع

قيل إنه أوصى أن تدق قلامة أظافر صاحب الشريعة وكانت عنده وتجعل فى منافذ وجهه وأن يكفن فى ثوب صاحب الشريعة، ومات بدمشق فى نصف رجب وقيل فى مستهل رجب سنة ستين هجرية أى سنة ستين وثمانمائة ميلادية وصلى عليه الضحاك بن قيس لغيبة الخليفة يزيد ابنه ببيت المقدس، واختلف فى عمره فقيل ثمانون، وقيل: خمس وسبعون سنة، وقيل: خمس وثمانون، وقيل: ثمان وثمانون، وقيل تسعون سنة، وكانت خلافته منذ خلص له الأمر تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام، وكان أميراً وخليفة أربعين سنة منها أربع سنين فى خلافة عمر بن الخطاب، وكان مليح الشكل عظيم الهيبة وافر الحشمة يلبس الثياب الفاخرة والعدّة الكاملة ويركب الخيل المسوّمة وكان كثير البذل والعطاء محسناً إلى رعيته كبير الشأن له فى العلم أخبار كثيرة وهو أول من اتخذ المقاصير وأقام الحرس والحجاب، وأوّل من مشى بين يديه صاحب الشرطة بالحربة، وأوّل من تنعم فى مأكله ومشربه وملبسه وكان حليماً يجتمع مع صاحب الشريعة فى عبد مناف بن قصى وينسب إلى أمية بن عبد شمس فيقال الأموى.

(الفصل الثانى)

(فى خلافة يزيد بن معاوية)

ثم قام بالأمر بعد معاوية ابنه يزيد بويع له بالخلافة يوم موت أبيه فى رجب سنة إحدى وستين هجرية أى سنة ثمانين وستمائة ميلادية، وقيل: سنة ستين هجرية وقد كان بحمص فقدم منها وبادر إلى قبر أبيه ثم دخل دمشق إلى الخضراء وكانت دارا للسلطنة فخطب الناس بها وبايعوه بالخلافة وكتب إلى الآفاق بذلك فبايعوه ولم يبايعه الحسين بن على ولا عبد الله بن الزبير واختفيا من عامله الوليد بن عقبة بن أبى سفيان، وأقاما مصرين على الامتناع وبيان ذلك، أنه لما امتنع الحسين وابن الزبير من البيعة ليزيد خرج الحسين إلى مكة فلقيه عبد الله بن مطيع. فقال له: جعلت فداك أين تريد قال: أما الآن فمكة وأما بعد فإنى أستخير الله، قال: خار الله لك

وجعلنا فداك فإذا أتيت مكـة فإياك أن تقرب الكوفة فإنها بلدة مشـؤمة بها قتل أبوك وخذل أخوك إلزم الحرم فـإنك سيد العرب لا تعذل بك أهل الحجـاز أحدا ويتداعى إليك الناس من كل جانب ولا تفارق الحرم، فسار الحسين إلى مكة ونزل بها فكان أهلها يختلفـون إليه ويأتونه وعبد الله بن الزبير بها لا يريد إلا خـروج الحسين عنها لأن أهل الحجاز لا يبايعون الزبير مـا دام الحسين باقياً بالبلد، ولما بلغ أهل الكوفـة امتناع الحسين ومن امتنع عن مبايعة يزيد، وأنه سار إلى مكة ونزل بها اجتمع جماعة من كبارهم وكتبـوا إلى الحسين يقولون: بسم الله الرحمن الرحـيم، سلام عليك، فإننا نحمد إليك الله الذى لا إله إلا سواه، أما بعد فالحمد لله الذى قصم عدوك الجبار العنيد الذى انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها وغصبها دنياها وتأمر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها وأنه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق والنعمان بن بشير فى قصر الإمارة لسنا نجتمع معه فى جمعة ولا عيد ولو بلغنا إقبالك إلينا أخـرجناه حتى نلحقه بالشام إن شـاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وسيروه إليه ثم كتبوا كتاباً آخر وسيروه بعد ليلتين فكتب الناس معه نحواً من مائة وخـمسين صحيفة ثم أرسلوا إليه رسولاً ثالثـاً يحثونه على المسير إليهم فتـاقت نفس الحسين عند ذلك إلى الإمـارة وسير مسلم بن عقـيل إلى الكوفة وأمره بكتمان أمره واللطف فإن رأى الناس مجتمعين له عجل إليه بذلك فسار مسلم حتى أدرك الكوفة وأقبلت الشيعة تختلف إليه فبلغ ذلك النعمان بن بشير وهو يومئذ أمير الكوفة فـخطب فى الناس وحذرهم من العاقبة، وكتب عـبد الله بن مسلم من سعيد الحضـرمى حليف بنى أمية إلى يزيد يعلمه بخبر قدوم مـسلم بن عقيل الكوفة ومبايعة الناس له ويقول له إن كان لك فى الكوفة حاجة فابعث إليك رجلاً قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك فى عدوك فإن النعـمان ضعيف أو هو يتضعف فخلع يزيد النعمان وولى عبيدالله بن مرجانة فسـار إليها وتمكن من مسلم بن عقيل فقتله وأعلم يزيد بالخبر فـسرّ به جداً وكتب إليه يقـول: بلغنى أن الحسين قد توجـه نحو العراق فضع المراصد والمسالح واجترىء واحبس على التهمة وخذ على الظنة غير أن لا تقتل إلا من قاتلك، ولما أراد الحسين المسير إلى الكوفة حسب كتب أهل العراق أتاه الكثير من أشياعه يسألونه العدول عن المسير ويحذرونه العاقبة فلم يقبل وسار وهو لا يعلم ماجرى بمسلم بن عـقيل وبينما هو فى طريقه إلى الـصفاح إذ لقيه الفـرزدق الشاعر فقال له: أعطاك الله سؤلك وأملك فيما تحب، فقال له الحسين: بين لى خبر الناس خلفك، فقال الخبير: سألت قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية والقضاء ينزل

من السماء والله يفعل ما يشاء، فقال الحسين: صدقت لله الأمر يفعل ما يشاء وكل يوم ربنا فى شأن إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد من كان الحق نيته والتقوى سريرته.

وجعل الحسين يرسل الرسل وهو فى الطريق إلى أهل الكوفة يعرفهم بقدومه ويأمرهم بالجد فى أمرهم فكان أصحاب يزيد يقبضون عليهم فيقتلونهم وجاء الخبر إلى الحسين بمقتل ابن عقيل بالثعلبية فتكدر جداً ووثب بنو عقيل مع الحسين يطلبون بثأر عقيل، وأتاه أيضاً خبر مقتل أخيه من الرضاعة عبد الله بن بقطر وكان سرحه إلى مسلم بن عقيل من الطريق وهو لا يعلم بقتله فأخذته خيل الحصين وأعلم الحسين الناس بخبر قتل أخيه من الرضاعة ومسلم بن عقيل. وقال: قد خذلنا شيعتنا فمن أحب أن ينصرف فلينصرف ليس عليه منا زمام فتفرقوا يميناً وشمالاً حتى بقى فى أصحابه الذين جاؤا معه من مكة، فلما سار من شراف وانتصف النهار كبر رجل من أصحابه فقال له: مم كبرت، قال: رأيت النخل، يريد نخل العلفة وأنهم قريبون فيها، فقال رجل من بنى أسد: ما بهذه الأرض نخلة قط، فقال الحسين: فما هو قال: هى هوادى الخيل فقال الحسين: وأنا أيضاً أراه ذلك أما لنا ملجأ نلجأ إليه نجعله فى ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد ثم مال بمن معه إلى ذو حسم وهو جبل هناك فلم يكن بأسرع من أن ظهر أصحاب يزيد وهم ألف فارس فوقفوا مقابل الحسين وأصحابه فى نحر الظهيرة، وكان مقدّم قوم يزيد الحر بن يزيد التميمى فوقع بينه وبين الحسين كلام مما هم فيه ثم سار الفريقان كل فى ناحية حتى أتى الحسين قرية اسمها العقر فنزل بها هو ومن معه وذلك يوم الخميس الثانى من المحرم سنة إحدى وستين فلما كان الغد قدم عليهم عمر بن سعد بن أبى وقاص من الكوفة فى أربعة آلاف وجاء عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس من قبل اليزيد من مزو فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وبين الماء وذلك قبل قتل الحسين بثلاثة أيام فلما اشتد العطش على الحسين وأصحابه أمر أخاه العباس بن علىّ فسار فى عشرين راجلاً يحملون القرب وثلاثين فارساً فدنوا من الماء فقاتلوا عليه وملؤا القرب وعادوا، ثم بعث الحسين إلى عمر بن سعد عمرو بن قرظة بن كعب الأنصارى أن ألقنى الليلة بين عسكرى وعسكرك فخرج إليه عمرو فاجتمعا وتحادثا طويلاً ثم انصرف كل واحد منهما إلى عسكره فتحدث الناس فى ذلك. وقالوا: إن الحسين قال لعمر اختاروا منى واحدة من ثلاث إما أن أرجع إلى المكان الذى أقبلت منه أو

أضع يدى فى يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بينى وبينه رأيه وإما أن تسيروا بى إلى أىّ ثغر من ثغور المسلمين شئتم فأكون رجلاً من أهله لى ما لهم وعلىّ ما عليهم، فكتب عمر إلى ابن زياد عامل يزيد يعلمه بالخبر ويسأله أن يجاوب الحسين إلى خصلة من هذه الثلاث فلما علم ابن زياد ما فى كتاب عمر وقد وحرضه شمر بن ذى الجوشن على أن لا يمكّن الحسين من شيء مما سأل كتب ابن زياد إلى عمر يقبح فعله ويقول له: إنى لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه ولا لتطاول ولا لتقعد له عندى شافعا انظر فإن نزل هو وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعثه إلىّ سالماً، وإن أبوا فارحف إليهم واقتلهم ومثل بهم فإن قتل الحسين فأوطىء الخيل صدره فإنه عاق شاق قاطع ظلوم أو تعتزل ويكون الأمر لذى شمر وسلم الكتاب لشمر المذكور فلما جاء عمر الكتاب ركب والناس معه بعد العصر وساروا إلى الحسين فأرسل لهم الحسين العباس فى عشرين فارساً فتقررت القاعدة بينهم على أن يلتقوا فى غداة غد فافترقوا على ذلك وباتوا ليلتهم تلك فلما كانت عشية الليلة سمعته أخته زينب وهو فى خباء له يقول وعنده حوىّ مولى أبى ذر الغفارى يعالج سيفه:

يادهر أف لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل ... والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل ... وكل حيّ سالك السبيل

فأعادها مرتين أو ثلاثاً فلما سمعته لم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها حتى انتهت إليه وصاحت واثكلاه ليت الموت أعدمنى الحياة اليوم ماتت فاطمة أمى وعلى أبى والحسين أخى ياخليفة الماضى وثمال الباقى، فلما سمعها قام إليها وقال ياأخية لا يذهبن حلمك الشيطان فقالت: بأبى أنت وأمى استقتلت نفسى لنفسك الفداء فترقرقت عيناه. وقال: لو ترك القطا لنام فلطمت وجهها. وقالت: واويلتاه أفتغصبك نفسك اغتصاباً فذلك أقرح لقلبى وأشد على نفسى ثم لطمت وجهها وشقت جيبها وخرت مغشية عليها فقام الحسين فصب الماء على وجهها، وقال: اتق الله وتعزى بعزاء الله واعلمى أن أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون وإن كل شيء هالك إلا وجه الله أبى خير منى وأمى خير منى وأخى خير منى ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله ﷺ أسوة ثم قال لها ياأخية إنى أقسم عليك لا تشقى علىّ جيبًا ولا تخمشى علىّ وجها ولا تدعى علىّ بالويل والثبور وإن أنا هلكت، وأصبح الحسين وقد أمر أصحابه أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض وأن يدخلوا

الأطناب بعضها فى بعض ويكونوا بين أيدى اليبوت فيستقبلون القوم من وجه واحد والبيوت على أيمانهم وعن شمائلهم ومن ورائهم ويباتوا ليلتهم تلك وفى غداة السبت وقيل الجمعة يوم عاشوراء خرج عمر بن سعد فيمن معه من الناس وعبى الحسين أصحابه وهم اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً فجعل زهير بن القيس فى ميمنة أصحابه وحبيب بن مطهر فى ميسرتهم وأعطى رايته العباس أخاه وجعلوا البيوت فى ظهورهم ثم ركب دابته ودعا بمصحف فوضعه أمامه ونادى الحسين عمر وأصحابه ونهاهم عن قتاله وبالغ فى النهى. وقال: دعونى أنصرف إلى مأمنى من الأرض فقال له قيس بن الأشعث: أو لا تنزل على حكم ابن عمك يعنى ابن زياد فإنك لن ترى إلاما تحب فقال له الحسين: أنت أخو أخيك أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل لا والله ولا أعطيهم بيدى عطاء الذليل ولا أقر إقرار العبد ثم التفت إلى القوم وقال عباد الله ﴿**إنى عذت بربى وربكم أن ترجمون**﴾ أعوذ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ثم أناخ راحلته ونزل عنها وخرج زهير بن القين أحد أصحابه على فرس له فى السلاح فقال مقالة طويلة ونهى أصحاب يزيد عن القتال وجعل يعرّض بذكر ابن زياد ويسبه فغضب القوم ومالوا على زهير بالسب والشتم وقالوا والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ونبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله بن زياد.

ورتب عمر أصحابه وأحكم ترتيبهم ثم اشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس وكثر الرمى بالنبال والحجارة وسالت الدماء وحملت رجال عمر بن سعد على أصحاب الحسين فأعملوا فيهم السيف حتى أفنوهم وأشتد العطش بالحسين فدنا من الفرات ليشرب فرماه حصين بن نمير بسهم فوقع فى فمه فجعل يتلقى الدم بيده ورمى به إلى السماء. وقال اللهم إنى أشكو إليك ما يصنع بابن بنت نبيك، اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحداً. ثم إن شمر بن ذى الجوشن أقبل فى نفر نحو العشرة من رجالهم نحو منزل الحسين فحالوا بينه وبين رحله وأحاطوا بالحسين وهو يطاردهم ويدفعهم عنه فنادى شمر فى الناس ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم فحملوا عليه من كل جانب وطعنه سنان بن أنس النخعى برمح فوقع يخبط فى دمه ونزل إليه فذبحه وأخذ رأسه فرفعه إلى خولى وسلب الحسين ما كان عليه ومال الناس على الفرش والحلل والإبل فانتهبوها ونهبوا ثقله ومتاعه وما على النساء حتى إن كانت المرأة لتنزع ثوبها من ظهرها فيؤخذ منها ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية ثم انتهوا إلى

عليّ بن الحسين زين العابدين فأراد شمر قتله فمنع عمر بن سعد قتله ومنع الناس من الدخول إلى بيوت النساء وانتدب عمر بن سعد المذكور عشرة من أصحابه فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره وكان عدة من قتل مع الحسين من أصحابه اثنين وسبعين رجلاً منهم من أولاد عليّ أربعة العباس وجعفر ومحمد وأبو بكر ومن أولاد الحسين أربعة ثم إن عبيد الله بن زياد جهز عليّ بن الحسين ومن كان مع الحسين من النساء إلى يزيد بن معاوية وهو يومئذ بدمشق مع شمر بن ذى الجوشن فى جماعة من أصحابه فساروا حتى قدموا دمشق ودخلوا على يزيد ابن معاوية ومعهم رأس الحسين فرمى به بين يدى يزيد ثم تكلم شمر بن ذى الجوشن فقال ياأميرالؤمنين: ورد علينا هذا يعنى الحسين فى ثمانية عشر رجلاً من أهل بيته وستين من شيعته فسرنا إليهم وسألناهم النزول على حكم أميرنا عبيد الله ابن زياد أو القتال، فاختاروا القتال فغدونا عليهم عند شروق الشمس وأحطنا بهم من كل جانب فلما أخذت السيوف مأخذها جعلوا يلوذون كما يلوذ الحمام من الصقور فما كان إلامقدار جزر جزور أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم فهاتيك أجسادهم مجردة وثيابهم مزملة وخدودهم معفرة تسقى عليهم الرياح زوّارهم العقبان ووفودهم الرخم.

فلما سمع يزيد ذلك دمعت عيناه وقال: ويحكم قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو كنت صاحبه لعفوت عنه. ثم قال يرحم الله أبا عبد الله وتمثل بقول الشاعر:

يفلقن هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ثم أمر بالذرية فأدخلوا دار نسائه. وكان يزيد إذا حضر غداؤه دعا عليّ بن الحسين وأخاه عمر بن الحسين فأكلا معه ثم وجه الذرية صحبة عليّ بن الحسين إلى المدينة ووجه رجلاً فى ثلاثين فارسا يسير أمامهم حتى انتهوا إلى المدينة، قال أصحاب التاريخ: وكان بين وفاة صاحب الشريعة وبين اليوم الذى قتل فيه الحسين خمسون عاما. وقيل: أن الحسين لما وصل كربلاء سأل عن اسم المكان فقيل له كربلاء فقال: ذات كرب وبلاء لقد مر أبى بهذا المكان عند سيره إلى صفين وأنا معه فوقف وسأل عنه فأخبروه باسمه فقال ههنا محط رحالهم وههنا مهراق دمائهم فسئل عن ذلك فقال نفرمن آل محمد: ينزلون ههنا ثم أمر بأثقاله فحطت فى ذلك المكان.

وكان قتل الحسين يوم عاشوراء سنة ستين للهجرة. وقيل إحدى وستين أى نحو سنة ثمانين وستمائة ميلادية ذكره أبو حنيفة فى الأخبار الطوال وقتل مع الحسين فى هذه الواقعة سبعون رجلاً وقتل معه العباس بن علىّ وأمه أم البنين بنت حزام وقتل جعفر ابن على وأمه أم البنين أيضاً وقتل عبد الله بن على وأمه أم البنين أيضاً وقتل عثمان ابن علىّ وأمه أم البنين أيضاً وقتل محمد بن علىّ وأمه أم ولد وقتل أبو بكر بن علىّ وأمه ليلى بنت مسعود الدارمية وقتل علىّ بن الحسين بن علىّ وأمه ليلى ابنة أبى مرة بن عروة الثقفى وقتل عبد الله بن الحسين بن علىّ وأمه الرباب ابنة امرىء القيس الكلبى وقتل أبو بكر ابن أخيه الحسن وقتل القاسم بن الحسن وقتل عون ابن أبى جعفر بن أبى طالب وقتل محمد بن عبد الله بن جعفر وقتل جعفر بن عقيل ابن أبى طالب وقتل عبد الرحمن بن عقيل وقتل عبد الله بن عقيل وقتل مسلم بن عقيل بالكوفة كما تقدم القول وقتل عبد الله بن مسلم بن عقيل وقتل محمد بن أبى سعيد بن عقيل، وفى هذه السنة أى سنة ستين دعا ابن الزبير إلى نفسه بالخلافة بمكة وعاب يزيد بشرب الخمر واللعب بالكلاب والتهاون بالدين وأظهر ثلبه وتنقصه فبايعه أهل تهامة والحجاز، فلما بلغ يزيد ذلك ندب له الحصين بن نمير السكونى وروح ابن زنباع الجذامى، وضم إلى كل واحد جيشاً واستعمل على الجميع مسلم بن عقبة المزى وجعله أمير الأمراء ولما ودعهم. قال: يا مسلم لاتردّون أهل الشام من شىء يريدونه بعدوهم وأجعل الطريق على المدينة فإن حاربوك فحاربهم فإن ظفرت بهم فأبحها ثلاثاً فسار مسلم بن عقبة حتى نزل الحرّة فخرج أهل المدينة وعسكروا بها وأميرهم عبد الله بن حنظلة وهو غسيل الملائكة فدعاهم مسلمة ثلاثاً فلم يجيبوه فقاتلهم فغلب أهل الشام وقتلوا أمير المدينة عبد الله بن حنظلة وسبعمائة من المهاجرين والأنصار ودخل مسلم المدينة وأباحها ثلاثة أيام ثم شخص بالجيش إلى مكة وكتب إلى يزيد بما صنع بالمدينة فلما بلغ مسلم (هرشى) اعتل ومات فتولى أمرة الجيش الحصين بن نمير السكونى فسار حتى وافى مكة فتحصن منه ابن الزبير فى المسجد الحرام بجميع من كان معه فنصب الحصين المنجنيق على أبى قبيس ورمى به الكعبة فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر للحصين بموت يزيد بن معاوية، فأرسل إلى ابن الزبير يسأله الموادعة فأجابه إلى ذلك وفتح الأبواب. واختلط العسكران يطوفان بالبيت فبينما الحصين يطوف ليلة بعد العشاء إذ استقبله ابن الزبير فأخذ الحصين

بيده. وقال له سراً: هل لك في الخروج معي إلى الشام فأدعو الناس إلى بيعتك فإن أمرهم قد فرج ولا أدرى أحداً أحق بها اليوم منك ولست أعصى هناك فاجتذب ابن الزبير يده وقال وهو يجهر بقوله دون أن أقتل بكل واحد من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام فقال الحصين: لقد كذب الذى يزعم أنك من دهاة العرب أكلمك سراً فتكلمني علانية وأدعوك إلى الخلافة وتدعوني إلى الحرب ثم انصرف بمن معه إلى الشام.

ومات يزيد بن معاوية في ربيع الأول سنة أربع وستين أى سنة ثلاث وثمانين وستمائة للميلاد ودفن بمقبرة باب الصغير، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر وقيل: وثمانية أشهر، وترك من البنين أحد عشر ذكراً لأمهات شتى، ومما يحكى عن نجابته وشدة حذقه ما قاله محمد بن عبيد الله بن عمرو العتبى قال: نظر معاوية ومعه امرأته ابنة قرظة إلى يزيد وأمه ترجله فلما فرغت منه قبلته فقالت ابنة قرظة لعن الله سواد ساقى أمك، فقال معاوية: أما والله لما تفرجت عنه وركاها خير مما تفرّجت عنه وركاك، وكان لمعاوية من ابنة قرظة عبد الله وكان أحمق فقالت له لا والله ولكنك تؤثر هذا، فقال: سوف أبين لك ذلك فأمر فدعى له عبد الله فلما حضر قال: أى بنىّ إنى أردت أن أعطيك ما أنت أهله ولست بسائل شيئاً إلا أجبتك إليه فقال: حاجتى أن تشترى كلبا فارهاً وحماراً، فقال: أى بنىّ أنت حمار وأشترى لك حمار قم فأخرج، ثم أحضر يزيد وقال له مثل قوله لأخيه فخر ساجداً، ثم قال: حين رفع رأسه الحمد لله الذى بلغ أمير المؤمنين هذه المدة وأراه فى هذا الرأى حاجتى أن تعتقنى من النار لأن من ولى أمر الأمة ثلاثة أيام أعتقه الله من النار فتعقد لى العهد بعدك وتولينى العام الصائفة وتأذن لى فى الحج إذا رجعت وتولينى الموسم وتزيد لأهل الشام كل رجل عشرة دنانير وتفرض لأيتام بن جميح وبنى سهم وبنى عدى لأنهم حلفائى، فقال معاوية: قد فعلت وقبل وجهه، ثم نظر إلى امرأته ابنة قرظة وقال كيف رأيتى، فقالت: أوصه به ياأمير المؤمنين قيل ففعل، وله لطائف أخرى واستعمل فى أيامه على مصر فى أواخر سنة اثنتين وستين سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدى فبقى إلى خلافة الزبير وعزل.

ومات فى أيامه أغاثو بطرك الإسكندرية تاسع ثلاثيهم بعد أن أقام سبع عشرة سنة ولم يحدث فى أيامه شىء يذكر فأقيم بعده يوحنا وهو الأربعون من بطاركتهم وأصله من مدينة سمنود وفى أيامه صارت الشدة على النصارى وعظم عليهم الخطب

واشتد الكرب وكثر البلاء وتتبعهم أهل الفساد بالقتل والنهب والسلب فكان حازماً وقوراً صبوراً لا يتزعزع، حسن السياسة كثير التفكر ولما مات يزيد تولى الخلافة بعده ابنة معاوية.

(الفصل الثالث)

(فى خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان)

ثم قام بالأمر بعد يزيد معاوية ابنه بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة أربع وستين هجرية أى نحو ثلاث وثمانين وستمائة ميلادية فأقام فيها أربعين يوماً، وكان خيراً من أبيه فيه دين وعقل، وقيل: أقام خمسة أشهر وأياماً ثم خلع نفسه عن رضا ورغبة، قال أصحاب التاريخ: إن معاوية بن يزيد هذا لما خلع نفسه صعد المنبر فجلس طويلاً ثم حمد الله وأثنى عليه بأبلغ ما يكون من الحمد والثناء ثم ذكر النبىّ بأحسن ما يذكر به ثم قال: أيها الناس ما أنا بالراغب فى الائتمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم وإنى لأعلم أنكم تكرهوننا أيضاً لإنا بلينا بكم وبليتم بنا إلا أن جدى معاوية ﷺ قد نازع فى هذا الأمر من كان أولى به منه ومن غيره لقرابته من رسول الله ﷺ وعظم فضله وسابقته أعظم المهاجرين قدراً وأشجعهم قلباً وأكثرهم علماً وأولهم إيماناً وأشرفهم منزلة وأقدمهم صحبة ابن عم رسول الله ﷺ وصهره وأخوه زوّجه ﷺ ابنته فاطمة وجعله لها بعلاً باختياره لها وجعلها له زوّجة باختيارها له أبو سبطيه وسيدى شباب أهل الجنة وأفضل هذه الأمة تربية الرسول وابنى فاطمة البتول من الشجرة الطيبة الطاهرة الزكية فركب جدى معه ما تعلمون وركبتم معه ما لا تجهلون حتى انتظمت لجدى الأمور فلما جاءه القدر المحتوم واخترمته أيد المنون بقى مرتهنا بعمله فريداً فى قبره ووجد ما قدمت يداه ورأى ما ارتكبه واعتداه ثم انتقلت الخلافة إلى يزيد أبى فتقلد أمركم لهوى كان أبوه فيه ولقد كان أبى يزيد بسوء فعله وإسرافه على نفسه غير خليق بالخلافة على أمة محمد فركب هواه واستحسن خطاه وأقدم على ما أقدم من جراءته على الله وبغيه على من استحل حرمته من أولاد رسول الله ﷺ فقلّت مدته وانقطع أثره وراجع عمله وصارحليف حفرته رهين خطيئته وبقيت أوزاره ومعايبه وحصل على سدم وندم

حيث لا ينفعه الندم وشغلنا الحزن له عن الحزن عليه فليت شعرى ماذا قال: وماذا قيل له: هل عوقب بإساءته؟ وجوزى بعمله وذلك ظنى، ثم اختنقته العبرة فبكى طويلاً وعلا نحيبه، ثم قال: وصرت أنا ثالث القوم والساخط علىّ أكثر من الراضى وما كنت لا تحمل آثامكم ولا يرانى الله جلّت قدرته متقلدا أوزاركم وألقاه بتبعاتكم فشأنكم أمركم فخذوه ومن رضيتم به عليكم فولوه فلقد خلعت بيعتى من أعناقكم والسلام، فقال له مروان بن الحكم: وكان تحت المنبر أسنة عمرية ياأبا ليلى، فقال أعزب عنى أعن دينى تخدعنى فوالله ما ذقت حلاوة خلافتكم حتى أتجرع مرارتها ايتنى برجل مثل رجال عمر رضي الله عنه على أنه ما كان من حين جعلها شورى وصرف بها عمن لا يشك فى عدالته ظلوماً والله لئن كانت الخلافة مغنما لقد نال أبى منها مغرما ومأثماً ولئن كانت سوءاً فحسبه منا ما أصابه، ثم نزل فدخل عليه أقاربه وأمه فوجدوه يبكى فقالت له أمه: ليتك كنت حيضة ولم أسمع بخبرك، فقال: وددت والله ذلك، ثم قال: ويلى إن لم يرحمنى الله، ثم إن بنى أمية قالوا لمؤدّبه عمر المقصوص أنت علمته هذا ولقنته إياه وصرفته عن الخلافة وزينت له حب علىّ وأولاده وحملته على ما وسمنا به من الظلم وحسنت له البدع حتى نطق بما نطق. وقال بما قال، فقال: والله ما فعلته ولكنه مجبول ومطبوع على حب علىّ فلم يقبلوا منه ذلك وأخذوه ودفنوه حياً حتى مات.

وتوفى معاوية بن يزيد بعد خلعه نفسه بأربعين ليلة وقيل: بتسعين وكان عمره ثلاثاً وعشرين سنة، وقيل: إحدى وعشرين سنة، وقيل: ثمان عشرة ولم يعقب واجتمع بنو أمية وانتخبوا مروان بن الحكم ليقوم بالأمر بعده وكان ذلك فى سنة أربع وستين للهجرة.

(الفصل الرابع)

(فى خلافة مروان بن الحكم المعروف بالطريد)

ثم قام بالأمر بعد معاوية مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بويع له بالخلافة بالحاسبية سنة أربع وستين للهجرة أى سنة ثلاث وثمانين وستمائة للميلاد ثم دخل الشام فأذعن أهلها له بالطاعة. وكان يقال له بن الطريد لأن صاحب الشريعة كان قد طرد أباه إلى الطائف وردّه عثمان حين ولى وكان مروان قد لحق صاحب الشريعة وهو صبى وولى نيابة المدينة مرات، وهو

قاتل طلحة أحد العشرة، وكان كاتب السر لعثمان وبسببه جرى عليه ماجرى كما تقدم الكلام عنه، ولما بويع لمروان بالشام قام أهل مكة بمبايعة عبدالله بن الزبير وكان مروان وقتئذ بالمدينة فقصد السير إلى عبد الله وممانعته ثم سار مع من سار من بنى أمية إلى الشام، وبايع لابن الزبير أهل البصرة واجتمعت له أهل الحجاز واليمن وبعث إلى بلاد العراق فبايعه أهلها وبايع له فى الشام سرا الضحاك بن قيس وبحمص النعمان بن بشير الأنصارى وبقير بن زمر بن الحارث: قال بعض أهل التاريخ: ولو صانع الزبير بنى أمية قليلاً لاستقر له الأمر، وكان ابن الزبير شجاعاً كثير العبادة هذا ما كان من أمر ابن الزبير، أما ما كان من أمر بنى أمية فإنهم لم يقبلوا به وكان مروان كما تقدم القول بالشام فاجتمع بنو أمية وافترق أهل الشام إلى يمانية مع مروان وإلى قيسية مع الضحاك بن قيس وجرت بينهما أمور يطول شرحها ثم اقتتلوا بمرج راهط قتالاً شديداً فانهزم الضحاك وأصحابه شر هزيمة وقتل كثيرمن فرسان قيس، وقتل الضحاك وقتل معه أيضاً ثمانون رجلاً من أشراف أهل الشام وذلك فى المحرم سنة خمس وستين وقيل: فى أواخر سنة أربع وستين، ودخل مروان دمشق وذهب إلى دار الخلافة واجتمع إليه الناس وانحاز له زفر بن الحرث وكان بقنسرين يبايع لابن الزبير واستوثق الشام لمروان، والحجاز والعراق واليمن لابن الزبير فلما استقر مروان بالشام ودانت له أمورها سار إلى مصر فقدمها وعليها عبد الرحمن بن جحدم القرشى يدعو إلى ابن الزبير فخرج إلى مروان فيمن معه فبعث مروان عمرو بن سعيد من وراء عبد الرحمن حتى دخل مصر فأمسى عبد الرحمن وكأنه بين منتطح عنزين فلما أحس بذلك رجع خائباً فبايع الناس مروان ودانت له الأمور بمصر أيضاً كما دانت له بالشام.

وفى هذه الأيام هدم ابن الزبير الكعبة وحفر أساسها وأدخل الحجر الأسود فيها وأعادها إلى ماكانت عليه، فأمر مروان قومه بأن لا يحجوا إلى هناك بل إلى جامع عمر بالقدس وانقسم عرب الشام مع مروان وبنى فاطمة فقام مروان ومزق الفاطميين وأبادهم وتفرغ لحرب الشيعة من العجم فبددهم أيضاً من سهول عين وما زال حتى استتب له الأمر ودانت له المصاعب، فلما كانت سنة خمس وستين هجرية رسم بالبيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز، وكان السبب فى ذلك أن عمرو بن سعيد بن العاص لما هزم مصعب بن الزبير عندما وجهه أخوه عبد الله إلى الشام لقتال معاوية ومن معه من الأحزاب ورجع عمرو إلى دمشق ظافراً غانماً بلغ مروان أن عمرا يقول أن الأمر لى من بعد مروان فأكبر ذلك جدا وأرسل فى طلب حسان بن مالك بن

بحدل فلما حضر إليه أخبره بخبر عمرو وما يقوله، وقال: إنى أريد أن أبايع ولدى عبد الملك وعبد العزيز، فقال له حسان: أنا أكفيك عمرا فلما اجتمع الناس عند مروان عشيا قال: أنه قد بلغنا أن رجالا يتمنون أمانىّ، قوموا فبايعوا لعبد الملك وعبد العزيز من بعده فقاموا جميعاً لساعتهم وبايعوا عن آخرهم وكان مروان قبلا قد حلف أنه يعهد لخالد بن يزيد فعتب عليه خالد فغضب وسماه ابن زانية، وكان مروان متزوّجا بأم خالد بن يزيد المذكور فقام خالد ودخل على أمه فأخبرها بما كان من مروان فقالت له: لا يعلمن ذلك منك إلا أنا أكفيكه فدخل عليها مروان فقال لها هل قال لك خالد فىّ شيئاً؟ فقالت: لا إنه أشد لك تعظيما من أن يقول فيك شيئاً فصدقها ولبث أياما، ثم إنه نام عندها ليلة فقامت عليه ووضعت على وجهه رداء مشرباً بالسم وفوق الرداء وسادة ثم جلست فوقها حتى مات فكانت خلافته عشرة أشهر، وقيل: تسعة أشهر وعمره ثلاثة وستون سنة، وقيل: إحدى وستون سنة، روى الحاكم فى كتاب الفتن والملاحم من المستدرك عن عبد الرحمن بن عوف قال: كان لا يولد لأحد مولود إلا أتى به رسول الله ﷺ فيدعو له فأدخل عليه مروان بن الحكم فقال: هو الوزغ ابن الوزغ الملعون ابن الملعون . اهـ.

وكان مروان قصيراً أحمر أوقص يكنى أبا الحكم وأبا عبد الملك، قيل: وأعتق فى يوم واحد مائة رقبة وهو أوّل من قدّم الخطبة فى صلاة العيد قبل الصلاة ولما مات بويع لولده عبد الملك فى اليوم الذى مات فيه.

(الفصل الخامس)

(فى خلافة عبد الملك بن مروان)

ثم قام بالأمر بعد مروان ابنه عبد الملك بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة ست وستين للهجرة أى سنة خمس وثمانين وستمائة للميلاد وهو أوّل من سمى بعبد الملك فى الإسلام وأوّل من ضرب الدراهم والدنانير بسكة الإسلام، وكان على الدنانير قبل ذلك نقش بالرومية وعلى الدراهم نقش بالفارسية، قيل: أنه لما أتته الخلافة كان قاعداً والمصحف فى حجره فأطبقه وقال هذا آخر العهد بك، وكان عامله بمصر أخوه عبد العزيز بطاعة عبد الملك ولم يكد يستتب له الأمر بالشام ومصر حتى خرج فى سنة ست وستين المختار من العلوية بالكوفة وأراد الأخذ بثأر الحسين فبايعه الناس واجتمع إليه خلق كثير واستولى على الكوفة وأراد الأخذ بدم

أهل البيت وطلب شمر بن ذى الجوشن فظفر به وقتله وأحاط بدار خولى الأصبحى صاحب رأس الحسين وقتله وأحرقه بالنار، ثم قتل عمرو بن سعد بن أبى وقاص صاحب الجيش الذى قتل الحسين وقتل جعفر بن عمرو المذكور وبعث برأسيهما إلى محمد بن الحنفية بالحجاز واتخذ له كرسيا وادّعى أن فيه من السر ماكان فى تابوت عهد بنى إسرائيل ومن خبر هذا الكرسى ما هو غريب، قال الطفيل بن جعدة بن هبيرة: أضقنا إضاقة شديدة، يعنى أنه كان فى حاجة للقوت، فخرجت يوماً فإذا جار لى زيات عنده كرسى ركبه الوسخ فقلت فى نفسى لو قلت للمختار فى هذا شيئاً فأخذته من الزيات وغسلته فخرج عود نضار قد شرب الدهن وهو يبض، قال الراوى: فقلت للمختار إنى كنت أكتمك شيئاً وقد بدا لى أن أذكره لك، إن أبى جعدة كان يجلس على كرسى عندنا ويروى أن فيه أثراً من علىّ قال: سبحان الله أخرته إلى هذا الوقت ابعث به فأحضرته عنده وقد غشى فأمر لى باثنى عشر ألفا ثم دعا الصلاة جامعة فاجتمع الناس، فقال المختار: إنه لم يكن فى الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن فى هذه الأمة مثله وأنه كان فى بنى إسرائيل التابوت وأن هذا فينا مثل التابوت فكشفوا عنه وقامت السبئية فكبروا ثم لم يلبثوا أن أرسل المختار الجند لقتال ابن زياد وخرج بالكرسى على بغل وقد غشى فقتل أهل الشام مقتلة عظيمة فزادهم ذلك فتنة وكبر اعتقادهم فى ذلك الكرسىّ وارتفعوا حتى تعاطوا الكفر. قال ابن جعدة: فندمت على ما صنعت . اهـ.

ثم أرسل المختار عسكرا لقتال عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان وكان عبيد الله والياً على البصرة فولاه يزيد على الكوفة فقدم عليها ليرى ما كان الناس عليه وهو الذى قتل مسلم بن عقيل بن أبى طالب الذى كان الحسين قد أرسله إلى الكوفة ليأخذ له البيعة كما تقدّم بيان هذا كله فى محله وكان المختار قد استولى على الموصل لما أرسل لقتال عبيد الله وقدّم على الجيش إبراهيم بن الأشتر فاقتتلوا قتالاً شديداً وانهزم أصحاب ابن زياد وقتل وكان القاتل له إبراهيم المذكور وأخذ رأسه ثم أحرقوا جثته بالنار ورميت بالتراب.

وولى ابن الزبير أخاه مصعبا على البصرة فاستدعى مصعب المهلب بن أبى صفرة من خراسان فأتاه بمال ورجال كثيرة وسارا إلى قتال المختار وحصراه فى قصر الإمارة بالكوفة. وما زالا يقاتلانه حتى قتل المختار وأصحابه وكانوا سبعة آلاف، وكان عبد الملك بن مروان يراقب الفرص ويتحين انتفاعها فلما علم بظفر مصعب وقتله للمختار خشى استفحال أمر مصعب واتساع كلمته فتجهز وسار فى جيش

عظيم إلى العراق فالتقى الجمعان واقتتلا وكان أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك سراً فتخلفوا عن مصعب، وقتل مصعب وأبنه بدير الجاثليق عند نهر دجيل وله من العمر ست وثلاثون سنة وكان مصعب هذا صديق عبد الملك قبل خلافته فدخل عبد الملك الكوفة وبايعه الناس واستوثق ملك العراق واستناب عليها أخاه بشر بن مروان وكر راجعاً إلى دمشق ثم جهز الحجاج بن يوسف الثقفى فى جيش لحرب ابن الزبير وكان السبب فى تسيير الحجاج المذكور دون غيره أن الحجاج قال لعبد الملك: قد رأيت فى المنام أنى أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فابعثنى إليه وولنى قتاله فبعثه فى ثلاثة آلاف من أهل الشام وكتب معه أماناً لابن الزبير ومن معه إن أطاعوا فسار فى جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين ولم يتعرض للمدينة ونزل الطائف فكان يبعث الخيل إلى عرفة ويبعث ابن الزبير أيضاً فيقتتلون بعرفة فتنهزم خيل ابن الزبير فى كل ذلك وتعود خيل الحجاج بالظفر، ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه فى دخول الحرم وحصر ابن الزبير ويخبره بضعفه وتفرّق أصحابه ويستمدّه فكتب عبد الملك إلى طارق يأمره باللحاق بالحجاج فقدم المدينة فى ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين وأخرج عامر بن الزبير عنها وجعل عليها رجلاً من أهل الشام اسمه ثعلبة فكان ثعلبة يخرج المخ وهو على منبر صاحب الشريعة ثم يأكله ويأكل عليه التمر ليغيظ أهل المدينة، وكان مع ذلك شديداً على أهل الزبير، وقدم طارق على الحجاج بمكة فى سلخ ذى الحجة فى خمسة آلاف فحاصر الحجاج ومن معه ابن الزبير ونصب المنجنيق على أبى قبيس وهو جبل هناك ورمى به الكعبة وحج ابن عمر تلك السنة فأرسل إلى الحجاج يقول اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فإنك فى شهر حرام وبلد حرام وقد منعت الناس عن الطواف فبطل الرمى حتى عاد الناس من عرفات وطافوا وسعوا فنادى منادى الحجاج انصرفوا إلى بلادكم فإنا نعود بالحجارة على ابن الزبير الملحد فكانت الحجارة تقع بين يدى ابن الزبير وهو يصلى فلا ينصرف وكان أهل الشام يقولون عند الرمى بالمنجنيق هذه العبارة.

«يابن الزبير طالما عصيكا * وطالما عنيتنا اليكا * لتجزين بالذى أتيكا»

يعنون عصيت وأتيت، وطال القتال بين الفريقين واشتد الشاميون أصحاب الحجاج على ابن الزبير وأصحابه فغلت الأسعار عنده وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح فرسه وقسم لحمها فى أصحابه وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم والمدّ الذرة بعشرين درهما، وكانت بيوت ابن الزبير مملوءة قمحاً وشعيراً وذرة وتمرا، وكان أهل الشام ينتظرون فناء ما عنده وكان يحفظ ذلك ولا ينفق منه إلا بما يمسك الرمق

ويقول نفوس أصحابى قوية ما لم يفن، فلما كان قبيل مقتله تفرّق الناس عنه وخرجوا إلى الحجاج بالأمان فكانوا نحو عشرة آلاف فلما تفرّق أصحابه عنه خطب الحجاج الناس وقال: قد ترون قلة من مع ابن الزبير وما هم عليه من الجهد والضيق ففرح أصحاب الحجاج واستبشروا وتقدّموا فملؤا ما بين الحجون إلى الإبواء فهال ابن الزبير الأمر ودخل على أمه فقال يا أماه قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك فقالت أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قاتل معك وإن قتلت كنت على حق، فلما وهن أصحابك ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك فى الدنيا القتل أحسن، فقال: ياأماه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى، قالت: يابنى إن الشاة لا تتألم بالسلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وخرج يقاتل الحجاج وطارقاً وأصحابهما فكانت مدّة القتال أربعة أشهر وقيل: سبعة، وبينما هو يحمل عليهم سقطت عليه شرافة من شراريف المسجد فخرّ منها فبادروا إليه واحتزوا رأسه وذلك يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وله ثلاث وسبعون سنة، وسير الحجاج رجلين إلى عبد الملك بالخبر فلما شاع الخبر بين أهل الشام كبروا وفرحوا بقتله وأمر الحجاج بجثته فصلبوها على الثنية اليمنى بالحجون، قيل: وكان ابن الزبير قبل موته بقى أياماً يستعمل الصبر والمسك لئلا ينتن فلما صلب ظهرت منه رائحة المسك فقيل: إن الحجاج صلب معه كلباً ميتاً فغلب على ريح المسك، وقيل: بل صلب معه سنورا، قال بعض أصحاب التاريخ: ولما قتل عبد الله ركب أخوه عروة ناقة ليس لها مثيل فسار إلى عبد الملك فقدم الشام قبل وصول رسل الحجاج بخبر قتل عبد الله فأتى باب عبد الملك فاستأذن فأذن له فلما دخل سلم عليه بالخلافة فردّ عليه عبد الملك السلام ورحب به وعانقه وأجلسه على السرير فقال عروة:

متت بأرحام إليك قريبة ولا قرب للأرحام ما لم تقرّب

ثم تحدّثا حتى جرى ذكر عبد الله، فقال عروة: إنه كان، فقال عبد الملك وما فعل قال: قتل فخر ساجداً، فقال عروة: إن الحجاج صلبه فهب جثته لأمه، فقال: نعم، وكتب إلى الحجاج يعظم صلب عبد الله وكان الحجاج لما غاب عروة كتب إلى عبد الملك يقول له أن عروة كان مع أخيه فلما قتل عبد الله أخذ مالا من

مال الله فهرب فكتب إليه عبد الملك أنه لم يهرب ولكنه أتانى مبايعاً وقد أمنته وحللته مما كان وهو قادم عليك فإياك وعروة، وعاد عروة إلى مكة وسلم إلى الحجاج كتاب عبد الملك فأنزل الحجاج جثة عبد الله ودفعها إلى أمه فغسلته ودفنته، وقيل: ألقيت جثته فى مقابر اليهود ثم دخل الحجاج مكة فأخذ البيعة من أهلها لعبد الملك بن مروان وأمر بكنس المسجد الحرام من الحجارة والدم وسار إلى المدينة، وكان عبد الملك قد استعمله على مكة والمدينة، فكانت خلافة ابن الزبير بالحجاز واليمن تسع سنين لا غير.

ودانت لعبد الملك الأمور فعلت كلمته وكبرت هيبته وقاتل الخوارج من أصحاب العباسيين وأقام المستشفيات للمرضى والخانات للغرباء بدمشق فامتدت فى عهده وكثرت بعد ذلك فى جميع بلاد المسلمين وقد كانت لا تعرف قبله، ولما كانت سنة اثنتين وثمانين هم عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد ومبايعة ابنه الوليد. وكان عبد العزيز يومئذ عاملاً على مصر فكلم قبيصة بن ذؤيب فى ذلك، وكان قبيصة المذكور صاحب الخاتم فنهاه قبيصة عن ذلك. وقال: لا تفعل فإنك تبعث على نفسك صوت عاد ولعل الموت يأتيه فكف عبد الملك عن أخيه وفى نفسه ما فيها وبينما هو على هذا الحال إذ دخل عليه روح بن زنباع وكان روح هذا أجل الناس عند عبد الملك فكلمه عبد الملك فى ذلك، فقال: ياأمير المؤمنين لو خلعته ما انتطح فيه عنزان وأنا أول من يجيبك إلى ذلك ففرح عبد الملك. وقال: نصبح إن شاء الله وبات روح عند عبد الملك ليلته تلك فدخل عليهما قبيصة بن ذؤيب وقد جاءه الخبر بموت عبد العزيز فلما دخل سلم عليهما. فقال عبد الملك: ما وراءك ياقبيصة. قال: آجرك الله فى عبد العزيز أخيك. قال : هل توفى؟ قال: نعم. فاسترجع ثم أقبل على روح. وقال: كفانا الله ما كنا نريد. فقال قبيصة: ياأمير المؤمنين إن الرأى كله فى الأناة. فقال عبد الملك: وربما كان فى العجلة خير، وكانت وفاة عبد العزيز فى جمادى الأولى فى مصر سنة خمس وثمانين فضم عبد الملك عمله إلى ابنه عبد الله وولاه مصر، وكان حين ولى على مصر حدثاً فكان أهل مصر يسمونه تكيس. قاله ابن خلكان. وقيل: أن الحجاج كتب إلى عبد الملك يزين له بيعة الوليد وسير إليه فى ذلك وفداً فلما أراد عبد الملك خلع عبد العزيز والبيعة للوليد كتب إلى عبد العزيز يقول: رأيت أن يصير هذا الأمر لابن أخيك فأبى فكتب إليه ليجعل الأمر له ويجعله له أيضاً من بعده، فكتب إليه عبد العزيز إنى أرى فى ابنى أبى بكر ما ترى فى الوليد، فكتب إليه عبد الملك ليحمل له خراج

مصر فأجابه عبد العزيز، إنى وإياك ياأمير المؤمنين قد بلغنا سنا لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً وإنا لا ندرى أينا يأتيه الموت أولا فإن رأيت أن لا تفسد علىّ بقية عمرى فافعل فرق له عبد الملك وتركه، وكان عبد الملك قبل الخلافة متعبداً ناسكاً عالماً تقياً واسع العلم حازماً لا يكل أمره إلى سواه محباً للفخر مقداماً على سفك الدماء ولذلك كان عماله الحجاج بالعراق ومحمد بن يوسف أخو الحجاج باليمن ومحمد بن مروان بالجزيرة وكل من هؤلاء ظلوم غشوم جبار، قال الليث بن سعد، وعبد الله ابن عبد الملك أول من نقل فى عمالته على مصر الدواوين إلى العربية وإنما كانت بالقبطية. (قلت): وقد قال بعض أصحاب التاريخ: أنها بقيت بالقبطية والعربية معاً زمناً طويلاً حتى زالت القبطية من جميع الدواوين وبقيت العربية فاشية إلى يومنا الذى نحن فيه، وهو أول من نهى الناس عن لباس البرانس وشدّد فى المنع وأقام إلى سنة تسعين هجرية أى سنة عشر وسبعمائة ميلادية حتى عزله أخوه الوليد.

ومن غريب ما سمع فيما حكاه ابن خلكان أن علىّ بن عبد الله بن عباس ومحمدا ابنه دخلا على عبد الملك بن مروان وعنده قائف فأجلسهما ثم قال للقائف: أتعرفُ هذا؟ قال: لا، ولكن أعرف من أمره أن هذا الذى معه ابنه وأنه يخرج من عقبة فراعنة يملكون الأرض لا يناويهم مناو إلا قتلوه فتغير لون عبد الملك. ثم قال: زعم راهب إيليا وكان قد رآه عندى أنه يخرج من صلبه ثلاثة عشر ملكاً ووصفهم بصفاتهم، وذكر أبو حنيفة فى الأخبار الطوال أن عبد الملك أوصى ابنه الوليد لما ثقل فى مرضه فقال: ياوليد لا ألفينك إذا وضعتنى فى حفرتى تعصر عينيك كالأمة الولهاء بل اتزر وشمر والبس جلد النمر وادع الناس إلى البيعة فمن قال برأسه كذا أى لا فقل بالسيف كذا أى اضرب عنقه . اهـ.

وكان عبد الملك طويل العنق رقيق الوجه مشدود الأسنان بالذهب شديد البخل يلقب برشح الحجر لبخله ويلقب أيضاً بأبى ذباب لبخره. وكان يلقب بحمامة المسجد لقبه به ابن عمر، قيل لابن عمر: أرأيت لو تفانى أصحاب صاحب الشريعة فمن نسأل بعدهم. فقال سلوا هذا الفتى يعنى عبد الملك، وحج بالناس عبد الملك فخطب الناس بالمدينة فقال بعد حمد الله والثناء عليه، أما بعد فإنى لست بالخليفة المستضعف يعنى عثمان ولا بالخليفة المداهن يعنى معاوية ولا بالخليفة المأفون يعنى يزيد ألا وإنى لا أداوى هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم وإنكم تحفظون أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون مثل أعمالهم وأنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون

ذلك من أنفسكم والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه ثم نزل فأكبر الناس أمره، ومات عبد الملك في شوّال سنة ست وثمانين وقيل سنة خمس وثمانين هجرية أي سنة أربع وسبعمائة ميلادية وله ثلاث وستون سنة وقيل ستون سنة وخلف سبعة عشر ولدا ولي الخلافة منهم أربعة وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة عشر يوماً منها ثمان سنين مزاحماً لابن الزبير ثم انفرد بالملك إلى أن مات وكان عاقلاً حازماً أديبا لبيبا عالما. قال عمران بن موسى المؤدّب: كان يروى أن عبد الملك المذكور لما اشتد مرضه. قال: ارفعوني على شرف ففعلوا ذلك فتنسم الروح ثم قال: يادنيا ما أطيبك إن طويلك لقصير وإن كبيرك لحقير وإن كنا منك لفي غرور وتمثل بهذين البيتين:

إن تناقش يكن نقاشك يارب عذاباً لا طوق لي بالعذاب

أو تجاوز فأنت رب صفوح عن مسيء ذنوبه كالتراب

ويروى أن هذه الأبيات تمثل بها معاوية.

وفي أيامه مات يوحنا بطرك الإسكندرية فكانت مدته ثمان سنين وفي أيامه صارت الشدة على النصارى وكبر عليهم الأمر وعظم الخطب. وكانت أيام هذه الشدائد طويلة فأقيم بعده إيساك وهو إسحق وكان متأصلاً وهو حادي أربعيهم وأصله من إقليم الغربية فأقام سنتين وأحد عشر شهراً. وفي رواية سنتين فقط ومات وكان تقياً وهو الذي أعاد الصلح بين ملك الحبشة وملك النوبة وعمل على إعزاز الدين وجمع المتشردين من المسيحيين، فأقيم بعده سيمون وهو سمعان وكان متأصلاً من إقليم الشرقية ويلقب بالسرياني وهو ثاني أربعيهم فأقام بطركا سبع سنين وقيل سبع سنين وستة أشهر ومات وفي أيامه قدم رسول أهل الهند في طلب أسقف يقيمه لهم فامتنع من ذلك حتى أذن له الخليفة ففعل وكان ورعاً تقياً جداً صالحاً متعبداً ذكر أنه دعا الله سبحانه وتضرع إليه فأحيا على يديه قسيسا كان ميتاً وخلا الكرسي بعده ثلاث سنين بغير بطرك، ثم قدم المتأصلون بعده الأكسندروس من أهالي نباموسير وهو ثالث أربعيهم وكان راهباً في دير الزجاج مرت به متاعب وشدائد عظيمة للغاية وقد صودر فيها مرتين أخذ منه فيهما ستة آلاف دينار نقرة فكانت أول جزية أخذت من الرهبان خلافاً للعهد، قال أصحاب التاريخ: واشتد عبد الله بن عبد الملك بن مروان على القبط بمصر وضيق عليهم واقتدى به قرة بن شريك أيضاً في ولايته على مصر فقتلا وأحرقا وخربا وأراقا الدماء بجوار وأنزلا بالنصارى شدائد لم يبتلوا بمثلها فكانت أيامهما كلها بلايا وإحنا ورزايا ومحنا.

ولما مات عبد الملك بن مروان تولى الخلافة بعده ولده الوليد.

(الفصل السادس)

(فى خلافة الوليد بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعد عبد الملك ابنه الوليد بعهد منه بويع له بالخلافة يوم مات والده فى شوّال سنة ست وثمانين للهجرة أى سنة خمس وسبعمائة للميلاد ولم يدخل دار الخلافة حتى صعد المنبر فقال: الحمد لله إنالله وإنا إليه راجعون والله المستعان على مصيبتنا بأمير المؤمنين والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة قوموا فبايعوا فكان أول من عزى نفسه وهناها وقيل أنه لما صعد المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس لا مقدّم لما أخر الله ولا مؤخر لما قدّم وهذا كان من قضاء الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه، وهو الموت وقد صار إلى منازل الأبرار ولى هذه الأمة بالذى يحق لله عليه فى الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه من حج البيت وغزو الثغور وشن الغارة على أعداء الله فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً، أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الفرد أيها الناس من أبدي لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ومن سكت مات بدائه، ثم نزل وجعل يتصرف فى الأمور وفتح الفتوحات العظام مثل الهند والأندلس واتسع ملكه فى الأندلس وإفريقية اتساعاً عظيماً بما منحه لأهلها من الحرية والمساواة حتى ضعفت النصرانية فيها وانحسمت أو كادت تنحسم منها وانمحت آثارها من إفريقية كلها وصار نصارى أسبانيا يختتنون ويمتنعون من شرب الخمر وأكل الخنزير ونحو ذلك من المحرمات الإسلامية حتى كان يقال لهم ميزارابى ومعناها (أنصاف عرب) وحارب الروم وغزاهم عدة غزوات وامتد حكمه فى مسافة مائة يوم من المشرق إلى المغرب من التتارية الهندية إلى الأقيانوس وقد وصلت فتوحات العرب يومئذ إلى العجم والشام وإفريقية وسردينيا وأسبانيا ونحوها وامتدوا إلى نواحى الصين وكان أهل سروقة وقرطبة وغيرهما يتكلمون بالعربية وهى فاشية بينهم.

ورسم الوليد بالإقلاع عن استعمال اليونانية وأرقامها فى الحساب فامتدت لذلك الأرقام الهندية التى تلقتها العرب عن الهنود وراجت بذلك الأمور الحسابية واتسع نطاق الرياضة ونحوها. وكان الوليد يركب المركوب الحسن الجيد ويتقى الركوب

والسفـر فـى الحـرب فـى أيـام معلومـة فى كل شـهر وينهى عن ذلك. قـال الحافظ ابن عسـاكر وكان الـوليد عند أهل الشام من أفـضل خلفائهم بنى مـساجـد بدمشق وأعطى الناس وفرض للمجذومين. وقال: لا تسـألوا الناس وأعطى كل مقعد خادماً وكل أعمى قائداً. وكان يبر حملة الكتاب ويقضى عنهم ديونهم وبنى الجامع الأموى وهدم كنيسة مارى يوحنا وزادها فى الجـامع المذكور وذلك سنة ست وثمانين فى ذى القعـدة وذكر أنه كان فى الجامـع وهو يبنى اثنا عشر ألف مـرخم وتوفى الوليد ولم يتمـه فأتمه سليمـان أخوه فكان جـملة ما أنفق على بنائه أربعـمائة صندوق فى كل صندوق ثمانية وعـشرون ألف دينار. وكـان فـيه ستـمـائة سلسـلة ذهبـا للقنـاديل. وما زالت إلى أيام عمر بن عـبد العزيز فجعلها فى بيت المال واتخذ عـوضها صفرا وحديداً وبنى قبة الصـخرة ببيت المقدس وبنى المسجد النبـوى ووسعه حتى دخلت حجرة صاحب الشريعة فيه قيل وله آثار حسنة كثيرة جداً، قلـت: وقوله أن الوليد بنى قبـة الصـخـرة فيه نظـر وإنما بنـى قـبـة الصخـرة عبـد الملك بن مروان فى أيام فتنة ابن الزبيـر لما منع عبد الملك أهـل الشام من الحج خوفـاً من أن يأخذ منهم ابن الزبير البيعة له فكان الناس يقفون يوم عرفة بقبة الصخرة إلى أن قتل ابن الزبير وكان الوليد أراد أن يخلع أخاه سليـمان ويبايع لولده عبد العزيز فـأبى سليمان فكتب إلى عماله ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه إلا الحـجاج وقتيبة وخواص من الناس فكتب الوليد إلى سليـمان يأمره بالقـدوم عليه فأبطأ فـعزم الوليد على المسـير إليه ليـخلعه وأخرج خيمه ففاجأته المنية قبل أن يسـير إليه. وكان موته فى خامس عشر جمادى الآخرة سنة ست وتسعـين للهجرة أى سنة أربع عشـرة وسبعمائـة للميلاد عن ست وأربعين سنة وقـيل ثمان وأربعين وقيل خـمسين سنة وترك أربعة عـشر ولداً وحمل على أعناق الرجال ودفـن فى مقابر باب الصـغير وتولى دفنه عـمر بن عبـد العزيز فكانت خلافـته تسع سنين وثمانيـة أشهر وقيل عـشر سنين وروى أن عمر بن عـبد العـزيز قال: لما لحـدت الوليد ارتكض فى أكـفـانه وغلت يداه إلى عنقه نسـأل الله العافية.

واستعـمل على مصر فى خلافـته بعد عزله لأخيـه عبد الله كمـا تقدم قرة بن شـريك العبسى فقـدمهـا يوم الاثنين ثالث عـشر ربيع الأول فـقال فى ذلك أحـد الشعراء:

عـجب مـا عـجبت حين أتانا ... أن قـد أمـرت قـرة بن شـريك
وعـزلت الفـتى المبـارك عـنا ... ثم ضـللـت فـيـه رأي أبيك

وكان قرة ظلوماً غشوماً عسوفا قيل كان يدعو بالخمر والملاهى فى جامع مصر، أخرج أبو نعيم فى الحلية. قال: قال عمر بن عبد العزيز الوليد بالشام والحجاج بالعراق وقرة بمصر وعثمان بن حيان بالحجاز امتلأت والله الأرض جورا. وقال ابن عبد الحكم أنبأنا سعد بن عفير أن عمال الوليد بن عبد الملك كتبوا إليه أن بيوت الأموال قد ضاقت من مال الخمس فكتب إليهم أن ابنوا المساجد فأول مسجد بنى بفسطاط مصر المسجد الذى فى أصل حصن الروم عند باب الريحان قبالة الموضع الذى يعرف بالقالوس يعرف بمسجد العيلة، وأقام قرة والياً بمصر إلى أن مات سنة ست وتسعين فولى بعده عبد الملك بن رفاعة القينى فأقام إلى سنة تسع وتسعين فى خلافة سليمان بن عبد الملك ومات ولما مات الوليد خلفه أخوه سليمان بن عبد الملك.

(الفصل السابع)

(فى خلافة سليمان بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعد الوليد أخوه سليمان وذلك لأن أباهما عقد لهما جميعاً بالأمر من بعده فبويع له بالخلافة يوم موت أخيه الوليد فى خامس عشر جمادى الآخرة سنة ست وتسعين هجرية أى سنة أربع عشرة وسبعمائة ميلادية. وكان سليمان بالرملة فلما جاءته الخلافة عزم على الإقامة بها ثم توجه إلى دمشق وكمل عمارة الجامع الأموى وجهز أخاه مسلمة بن عبد الملك فى سنة سبع وتسعين إلى غزو الروم فانتهى إلى القسطنطينية فنازلها على عهد انسطاسيوس قيصر. وكان عدد أصحاب مسلمة مائة وعشرين ألفا من العرب والعجم وحارب فى طريقه طيان وعمورية وفرغانة من آسية الصغرى ودخل بوغاز كليبولى وتجاوز البحر من المكان المدعو ممر العرب ودخل أوروبا وقطع على سواحل بحر مرمرة إلى أن قابل القسطنطينية من الجنوب وأقام مضارب جنوده وأعلن الحرب على الروم وألقى على المدينة الحصار وكان انسطاسيوس قيصر قد علم قيام العرب عليه فاستعدّ لقتالهم وأمر الروم بالتأهب لحصار ثلاث سنين وأن يترك الذين لا قدرة لهم بالقسطنطينية وملأ الساحات والأهراء بالذخائر وأصلح الأسوار وحصنها وجعل عليها المنجنيقات والدوافر لرشق النار الرومية والسهام والأحجار ونحوها ثم لم يلبثوا أن بعثوا بقوم ليحرقوا عمارة العرب ويناوشوا العدو قبل أن يناوشهم هو فلم يفلحوا إذ افتتنوا

وقتلوا رئيسهم وتركوا راياتهم فى رودس وتفرّقوا فى تلك الأطراف أشتاتاً إلى أن قام الملكُ ثودوسيوس ولم يكن أهلاً لهذا المنصب إذ كان من آحاد الحرّاس على بيت المال وكان ساذجاً غير مدرّب فعفا عن أولئك القوم ولم يؤاخذهم بما فعلوه فلم يستقر به المنصب إلا شهرا وخلع وقام بعده ليون اسوريكوس وكان مهيباً مقداماً عريقًا بالملك فلما قدمت عساكر مسلمة ونظرهم الروم بالقسطنطينية داخلهم الخوف واستولى عليهم الجبن فعرضوا على المسلمين الصلح بأن يؤدّوا لهم الجزية فى كل سنة عن كل نفس دينارا فلم يقبل مسلمة وداخله الطمع وتقوّى حيث قدمت عليه عمارته البحرية من الشام وكانت قد مرت بعمارة المصريين التى كانت يومئذ على ثغور بلاد الفرنسيس وأتت بها فكانت جميعها نحو ألف وثمانمائة سفينة أكبرها كانت تحمل مائة رجل بجهازهم.

أما الروم فإنهم لما شاهدوا تلك السفن الكثيرة أمروا فرفعت السلسلة الحامية للمينا لكى تدخل السفن المذكورة وتستأمن من داخل البوغاز وأمر مسلمة قومه بالتأهب لمصادمة الروم فى تلك الليلة براً وبحراً فتقدمت السفن إلى جانب السلسلة ووقفت متردّدة بين أن تدخل المينا وبين أن تقضى ليلتها فى مكانها خوفاً من الحيلة فبينما هم على هذا الحال إذ اشتعلت النار الإغريقية من كل جانب وتساقطت عليها تساقط المطر فأحرقتها كلها ولم تنج منها واحدة وهلك من فيها من الجند ثم أتى بعد ذلك النبأ بموت سليمان بن عبد الملك وذلك فى سنة تسع عشرة وسبعمائة للميلاد أى سنة تسع وتسعين للهجرة فانفشل من بقى منهم وفترت هممهم وانجلوا عن مواقفهم وكادوا يتمزقون أشتاتًا، وكان سليمان عادلاً حكيماً طويلاً جميلاً به عرج مولعاً بالنساء شديد الغيرة وفى عهده خصى أبو بكر محمد بن عمرو الأنصارى المخنثين بالمدينة قيل وكان العامل على المدينة أبا بكر عمر بن حزم فكتب إليه سليمان يقول أحص من عندك من المخنثين واتفق أن نقطة من السطر الأول وقعت على الحاء فصارت خاء فخصاهم ، ومما يحكى من محاسنه أن رجلاً دخل عليه فقال يا أمير المؤمنين أنشدك الله والأذان فقال له سليمان أما أنشدك الله فقد عرفناها ـ فما الأذان قال قوله تعالى **﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾** فقال له سليمان ما ظلامتك فقال ضيعتى الفلانية غلبنى عليها عاملك فلان فنزل سليمان عن سريره ورفع البساط ووضع خده على الأرض وقال والله لا رفعت خدّى من الأرض حتى يكتب له بردّ بيعته فكتب الكتاب وهو واضع خدّه وقيل إنه أطلق من سجن الحجاج ثلثمائة ألف ما بين رجل وامرأة وصادر آل الحجاج وأعمل فيهم القتل والتشريد

واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيرًا ومشيراً وأراد أن يستكتب يزيد بن أبى مسلم وزير الحجاج فقال له عمر بن عبد العزيز سألتك الله يا أمير المؤمنين لا تحى ذكر الحجاج باستكتابك يزيد فقال يا عمر إنى لم أجد عنده خيانة فى درهم ولا دينار فقال يا أمير المؤمنين إن إبليس أعف منه فى الدرهم والدينار وقد أغوى الخلق كلهم جميعاً فأضرب سليمان عما عزم عليه.

وفى كامل المبرد وغيره أن يزيد هذا دخل على سليمان بن عبد الملك وكان يزيد دميماً قبيحاً فقال له سليمان قبح الله رجلاً أجَّرك رسنه وأشركك فى أمانته فقال يا أمير المؤمنين لا تقل هذا قال ولم قال لأنك رأيتنى والأمر عنى مدبر ولو رأيتنى والأمر علىّ مقبل لاستحسنت ما استقبحت منى ولاستعظمت ما استصغرت منى فقال له سليمان ويحك أو قد استقر الحجاج فى قعر جهنم بعد أم لا فقال يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك فى الحجاج قال ولم قال لأن الحجاج وطأ لكم المنابر وأذل لكم الجبابرة وأنه يأتى يوم القيامة عن يمين أبيك ويسار أخيك فحيثما كانا كان.

وكان سليمان فصيحاً بليغاً أديباً مخسنا لعلم العربية مترفعا عن سفك الدماء. قال ابن خلكان فى ترجمته أنه كان يأكل فى كل يوم نحو مائة رطل شامى، ولما ولى رد الصلاة إلى ميقاتها الأول، وكان من قبله من خلفاء بنى أمية يؤخرونها إلى آخر وقتها ولذلك قال محمد بن سيرين أن سليمان افتتح خلافته بخير افتتحها بإقامة الصلاة لميقاتها واختتمها باستخلافه لعمر بن عبد العزيز وذكر المفضل وغيره أن سليمان بن عبد الملك خرج من الحمام فى يوم الجمعة فلبس حلة خضراء واعتم بعمامة خضراء وجلس على فراش أخضر وبسط ما حوله بالخضرة ثم نظر فى المرآة وكان جميلاً فأعجبه جماله فشمر عن ذراعيه. وقال: كان فينا نبينا محمد ﷺ نبياً ورسولاً وكان أبو بكر ﷺ صدّيقاً. وكان عمر ﷺ فاروقاً. وكان عثمان ﷺ حييا. وكان على ﷺ شجاعاً وكان معاوية ﷺ حليماً. وكان يزيد صبوراً. وكان عبد الملك سائساً. وكان الوليد جباراً وأنا الملك الشاب ثم خرج لصلاة الجمعة فوجد حظية له فى صحن الدار فأنشدته هذه الأبيات:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير أن لا بقاء للإنسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب ... عابه الناس غير أنك فاني

فلما فرغ من الصلاة ودخل داره. قال لتلك الحظية ما قلت لى فى صحن الدار وأنا خارج؟ قالت: ما قلت لك شيئاً ولا رأيتك وأنى لى بالخروج إلى صحن الدار.

فقال إنا لله وإنا إليه راجعون نعيت إليّ نفسى فما دارت عليه جمعة أخرى حتى مات وقيل إنه صعد المنبر وخطب وأن صوته ليسمع فى أقصى المسجد فأخذته الحمى فما زال صوته يختفى حتى لم يسمعه من تحته. وقال ابن خلكان أنه حم ومات من ليلته وقيل: إنه مات بذات الجنب. وقيل إنه قبل موته أكل زنبيلين من التين والبيض ألطفه بهما بعض المسيحيين فأمر بأن يقشر البيض وجعل يأكل بيضة وتينة حتى أتى على الزنبيلين ثم أتوه بمح وسكر فأكل فاحتم ومرض ومات، مات فى عاشر صفر سنة ثمان وتسعين هجرية. وقيل سنة تسع وتسعين بمرج دابق من أرض قنسرين وله تسع وثلاثون سنة وقيل خمس وأربعون سنة وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر واستعمل فى أيامه على مصر عبد الملك بن رفاعة القينى إلى سنة تسع وتسعين التى مات فيها سليمان.

(الفصل الثامن)

(فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز)

ثم قام بالأمر بعد سليمان الخليفة الراشد أبو حفص عمر بن عبد العزيز بويع له بالخلافة يوم مات سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين هجرية أى سنة سبع عشرة وسبعمائة ميلادية وكانت خلافته بعهد من سليمان له وذلك أنه لما كان سليمان بدابق ومرض مرضه الذى مات فيه عهد فى كتاب كتبه لأحد أولاده وهو غلام لم يبلغ أشدّه فعلم رجاء بن حيوة بالخبر فدخل عليه وقال له ما تصنع يا أمير المؤمنين إن مما يحفظ الخليفة فى قبره أن يستخلف على الناس الرجل الصالح. فقال سليمان يا رجاء إنى مستخير الله وسأنظر ولم أعزم ولبث سليمان يوماً أو يومين ثم مزق الكتاب ودعا رجاء فقال له يا رجاء ما ترى فى ولدى داود. فقال رجاء هو غائب عند القسطنطينية ولا ندرى أحيّ أم لا. قال: فمن ترى؟ قال: رجاء رأيك ياأمير المؤمنين قال: فكيف ترى فى عمر بن عبد العزيز. قال: رجاء فقلت: أعلمه والله خيراً فاضلاً سليماً. فقال سليمان: هو على ذلك ولئن وليته ولم أولّ أحدا سواه لتكونن فتنة ولا يتركونه أبداً يلى عليهم إلا أن يجعل أحدهم بعده. قال وكان عبد الملك قد عهد إلى الوليد وسليمان أن يجعلا أخاهما يزيد ولى عهد فأمر سليمان أن يجعل يزيد بن عبد الملك بعد عمر وكان يزيد غائباً فى الموسم. قال رجاء فقلت رأيك فكتب سليمان، بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير

المؤمنين لعمر بن عبد العزيز إنى قد وليتك الخلافة بعدى ومن بعدك يزيد بن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم، قال: وختم الكتاب ثم أرسل إلى كعب بن جابر العبسى صاحب شرطته. فقال: ادع أهل بيتى فجمعهم كعب فلما اجتمعوا . قال سليمان لرجاء اذهب إليهم بكتابى وأخبرهم بما فيه ومرهم فليبايعوا من وليت فيه ففعل رجاء فلما علموا ما فى الكتاب. قالوا: ندخل فنسلم على أمير المؤمنين ثم دخلوا فقال لهم سليمان فى هذا الكتاب الذى فى يد رجاء بن حيوة عهدى فاسمعوا وأطيعوا لمن سميت فيه فبايعوا عمر رجلاً رجلاً ثم تفرقوا وثقل المرض بسليمان فمات. قال رجاء بن حيوة فغمضته وسجيته وأغلقت الباب وأجلست على الباب من أثق به ثم خرجت فأرسلت إلى كعب بن جابر فجمع أهل بيت سليمان فى مسجد دابق فقلت بايعوا فقالوا: قد بايعنا مرة قلت وأخرى هذا عهد أمير المؤمنين فبايعوا الثانية. قال فلما بايعوا بعد موته رأيت أن قد أحكمت الأمر فقلت قوموا إلى صاحبكم فقد مات.

ذكر غير واحد عن محمد المروزى. قال: أخبرت أن عمر بن عبد العزيز ﷺ لما دفن سليمان بن عبد الملك وخرج من قبره سمع للأرض هدّة أو رجة. فقال ما هذه؟ فقيل هذه مراكب الخلافة قرّبت إليك ياأمير المؤمنين لتركبها. فقال مالى ولها نحوها عنى وقربوا إلىّ دابتى فقرّبت إليه فركبها فجاء صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة على عادة الخلفاء قبله فقال له تنح عنى مالى ولك إنما أنا رجل من المسلمين ثم سار مختلطا بين الناس حتى دخل المسجد فصعد المنبر فاجتمع إليه الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه. ثم قال: أيها الناس إنى ابتليت بهذا الأمر بغير رأى منى فيه ولا طلبة ولا مشورة من المسلمين وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم غيرى فصاح المسلمون صيحة عظيمة قد اخترناك ياأمير المؤمنين ورضيناك أميرنا باليمن والبركة فلما سكتوا حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه. ثم قال، أوصيكم بتقوى الله فإن تقوى الله تعالى خلف من كل شىء وليس من تقوى الله خلف واعملوا لآخرتكم فإن من عمل لآخرته كفاه أمر دنياه وآخرته وأصلحوا سرائركم يصلح الله علانيتكم وأكثروا ذكر الموت وأحسنوا له الاستعداد قبل أن ينزل بكم فإنه هاذم اللذات وإنى والله لا أعطى أحدا باطلاً ولا أمنع أحداً حقا، يا أيها الناس من أطاع الله وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعونى ما أطعت الله فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم، ثم نزل ودخل دار

الخلافة فأمر بالستور فهتكت وبالبسط فرفعت وأمر ببيع ذلك وإدخال ثمنه فى بيت مال المسلمين. ثم ذهب يتبوأ مقيلاً فأتاه ابنه عبد الملك فقال ما تريد أن تصنع ياأبت؟ قال يابنى أقيل قال تقيل ولا تردّ المظالم. قال: أى بنى إنى قد سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان فإذا صليت الظهر رددت المظالم. فقال ياأمير المؤمنين من أين لك أن تعيش إلى الظهر فقال ادن منى يابنى فدنا منه فقبله بين عينيه. وقال الحمد لله الذى أخرج من ظهرى من يعيننى على دينى فخرج ولم يقل وأمر مناديه أن ينادى ألا كل من كانت له ظلامة فليرفعها قيل فتقدم إليه ذمى من أهل حمص فقال ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله. قال: وما ذاك. قال: إن العباس بن الوليد اغتصبنى أرضى والعباس جالس فقال عمر ما تقول ياعباس. فقال إن أمير المؤمنين الوليد أقطعنى إياها وهذا كتابه فقال عمر ما تقول ياذمى. قال ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى. فقال عمر كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد أردد إليه أرضه ياعباس فردها إليه ثم جعل لا يدع شيئاً مما كان فى يد أهل بيته من المظالم إلا رده مظلمة مظلمة فلما بلغ الخوارج سيرته وما رد من المظالم اجتمعوا. وقالوا: ما ينبغى لنا أن نقاتل هذا الرجل وبلغ عمر بن الوليد خبر رد الضيعة التى كانت للذمى كتب إلى عمر بن عبد العزيز، إنك قد زريت على من كان قبلك من الخلفاء وعبت عليهم وسرت بغير سيرتهم بغضا لهم وشيناً لمن بعدهم من أولادهم وقطعت ما أمر الله به أن يوصل إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جوراً وعدواناً ولن تترك على هذا الحال والسلام، فلما قرأ كتابه كتب إليه (بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن الوليد السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، أما بعد فقد بلغنى كتابك أما أوّل شأنك ياابن الوليد فأمك بنانة أم السكون كانت تطوف فى سوق حمص وتدخل فى حوانيتها ثم الله أعلم بها ثم اشتراها زيان من بيت مال المسلمين فأهداها لأبيك فحملت بك فبئس المولود ثم نشأت فكنت جباراً عنيداً تزعم أنى من الظالمين إذ حرمتك وأهل بيتك مال الله الذى فيه حق القرابة والمساكين والأرامل وأن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعملك صبياً سفيها على جند المسلمين تحكم فيهم برأيك ولم يكن له فى ذلك نية إلا حب الوالد لولده فويل لأبيك ما أكثر خصماءه يوم القيامة وكيف ينجو أبوك من خصمائه وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لغالية البربرية فى خمس العرب نصيباً فرويدا ياابن بنانة فلو التقت حلقتا البطان وردّ الفىء لأهله لتفرّغت لك

ولأهل بيتك فوضعتهم على المحجة البيضاء فطالما تركتم الحق وأخذتم فى الباطل ومن وراء ذلك ما أرجو أن أكون رأيته من بيع رقبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل فإن لكل فيك حقاً والسلام على من اتبع الهدى ولا ينال سلام الله القوم الظالمين.

قيل: إنه وقع فى زمانه غلاء عظيم فقدم عليه وفد من العرب فاختاروا رجلاً منهم لخطابه فتقدم إليه وقال: يا أمير المؤمنين إنا وفدنا إليك من ضرورة عظيمة وراحتنا فى بيت المال وماله لا يخلو إما أن يكون لله أو لعباده أولئك فإن كان لله فالله غنى عنه وإن كان لعباده فآتهم إياه. وإن كان لك فتصدّق به علينا إن الله يجزى المتصدّقين، قيل فتغرغرت عينا عمر بالدموع. وقال هو كما ذكرت وأمر بحوائجهم فقضيت فهمّ الأعرابى بالانصراف فقال عمر كما أوصلت أيها الرجل حوائج عباد الله إلىّ فأوصل حاجتى وفاقتى إلى الله فقال الأعرابى إلهى اصنع بعمر بن عبد العزيز كصنيعه فى عبادك قيل فما استتم كلامه حتى ارتفع غيم عظيم وأمطرت السماء مطراً كثيراً فجاء فى المطر بردة كبيرة فوقعت على جرة فانكسرت فخرج منها كاغد مكتوب فيه، هذه براءة من الله العزيز الغفار لعمر بن عبد العزيز من النار، قلت ولعل هذا من مبالغات الكتاب تذكرة وعبرة.

ولما استقامت لعمر الأمور ودانت له الخلافة لم يوجه عنايته إلى تتميم الغزوات التى بدأ بها سليمان وترك مسلمة بمن معه من المسلمين فى حصار قسطنطينية طول الشتاء كراهة فى مسلمة وكان ذلك الشتاء قارساً جداً شديداً دامت فيه الثلوج مغطية للأرض مائة يوم فمات خلق كثير من المسلمين ولبثوا على هذا الحال يقاسون العناء حتى دخل الربيع وورد على من بقى منهم الخبر بقدوم عمارتين فيهما من الرجال والذخائر شىء كثير لنجدتهم إحداهما أربعمائة سفينة مشحونة قمحاً من الإسكندرية وثانيهما ثلثمائة وستون سفينة من إفريقية ولكنه لم يتم فرحهم بمقدم تلك العمارة حتى شاع الخبر ثانية بأنه حل بهما ماحل بالعمارة الأولى فلم يحصلوا منهما إلا على ما قل ففشا الجوع والمرض فى جند المسلمين وعادوا يأكلون ما يجدونه من الميتة وغيرها واستنصر ليون قيصر الروم على من بقى منهم بالبلغاريين واستأجرهم لذلك فجاءه منهم عدد كثير واقتتلوا مع المسلمين قتالاً عنيفاً فقتلوا منهم زهاء عشرين ألفاً وطيروا الأخبار بتجهيز الفرنجة براً وبحراً للنجدة فتشددت بذلك عزائم الروم وخافت العرب جداً ولبثوا يتوقعون الشر من كل جانب فوردت إلى مسلمة الأخبار بأن يرجع

بمن معه من المسلمين فقام على الفور وسار بمن بقى معه وهم قليلون فمر بمضيق كلبيولى من حيث أتى فلم يعارضه معارض فلما وصل بتينة قام عليه أهلها وقتلوا ممن كان معه خلقاً كثيراً ولم يصل من جميع تلك العمارة الكبيرة إلا خمسة فقط جاءت بالأخبار إلى الإسكندرية فكانت مدة حصار مسلمة لقسطنطينية فى هذه الغزوة ثلاثة عشر شهراً. قال أهل التاريخ: وكان إخفاق مسلمة فى غزوته هذه سبباً فى منع العرب من تخطى أوروبا من جهة المشرق ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا فشنوا الغارة على بلاد الفرنسيس من جهة المغرب بمعاونة عرب الأندلس وجعلوا يتهدّدونها فى كل آونة ولا ينكفون عن مناوشتها كلما تمكنوا من ذلك، وكان عمر يكره الحرب جداً ولا يهتم بالفتوحات فلم يضم إلى دولته فى خلافته إلا جرجان وطبرستان وكتب فى سنة مائة هجرية إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وقد كانت سيرته وأجناده وصلت إليهم فأسلم حيشبة بن زاهر وتسمى بعض ملوكهم من هذا الحين بأسماء العرب. وكان عمر قد استعمل على ذلك الثغر عمرو بن مسلم أخا قتيبة بن مسلم فغزا بعض الهند فظفر وبقى ملوك السند مسلمين على بلادهم أيام عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك. فلما كان أيام هشام ارتدوا عن الإسلام وكان سببه ما سيذكر فى محله إن شاء الله.

وتحالف بنو أمية لأسباب عدّة على بغض عمر بن عبد العزيز فرشوا عبداً أسود فسقاه السم. وروى أنه دعا بخادمه الذى سقاه السم فقال له ويحك ما حملك على أن سقيتنى السم قال: ألف دينار أعطيتها قال هاتها فجاء بها فأمر بطرحها فى بيت المال وقال لخادمه أخرج بحيث لا يراك أحد ولما ثقل به مرضه قالوا له لو تداويت. قال لو كان دوائى فى مسح أذنى ما مسحتها نعم المذهوب إليه ربى، قال مسلمة بن عبد الملك دخلت على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ﷺ أعوده فى مرضه الذى مات فيه فإذا عليه قميص وسخ فقلت لفاطمة بنت عبد الملك يافاطمة اغسلى قميص أمير المؤمنين فقالت نفعل إن شاء الله تعالى ثم عدت فإذا القميص على حالته فقلت يافاطمة ألم آمرك أن تغسلى قميص أميرالمؤمنين فإن الناس يعودونه فقالت والله ما له قميص غيره. قال: وكان عمر ﷺ كثيراً يتمثل بهذه الأبيات

نهارك يامغرور سهو وغفلة	وليلك نوم والردى لك لازم
يغرّك ما يفنى وتفرح بالمنى	كما غرّ باللذات في النوم حالم
وشغلك فيما اليوم تكره غبه	كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وكان مرضه بدير سمعان بأرض حمص، وكانت شكواه عشرين يوماً فلما احتضر قال أجلسونى فأجلسوه فقال، إلهى أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت ولكن لا إله إلا الله وتوفى لخمس وقيل لست مضين وقيل لعشرة بقين من رجب الفرد سنة إحدى ومائة للهجرة وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر. وقيل وهو ابن أربعين سنة وقبره بدير سمعان ظاهر يزار فكانت مدّة خلافته سنتين وخمسة أشهر وكان يقال له أشج بنى أمية وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب فعمر جدّه من قبل أمه وهو تابعى روى الحديث عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد وروى عنه جماعة ومولده بمصر سنة إحدى وستين، قال الإمام أحمد ليس أحد من التابعين قوله حجة إلا عمر بن عبد العزيز . اهـ.

وكان عمر عفيفاً زاهداً ناسكاً عابداً مؤمناً تقياً صادقاً وهو أوّل من اتخذ دار الضيافة وأول من فرض لأبناء السبيل وأزال ما كانت بنو أمية تذكر به عليا على المنابر من اللعن وجعل مكان ذلك: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون**﴾ فقال فيه كثير عزة لذلك:

وليت ولم تسبب عليا ولم تخف	بريا ولم تقبل مقالة مجرم
وصادقت بالقول الفعال مع الذي	أتيت فأمسى راضياً كل مسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها	مناد ينادي من فصيح وأعجمي
يقول أمير المؤمنين ظلمتني	بأخذك ديناري وأخذك درهمي
فاربح بها من صفقة لبائع	وأكرم بها من بيعة ثم أكرم

قال ميمون بن مهران قال عمر بن عبد العزيز لما وضعت الوليد فى حفرته نظرت فإذا وجهه قد اسودّ فإذا مت ودفنت فاكشف عن وجهى. قال ميمون ففعلت فرأيته أحسن مما كان أيام تنعمه ورثاه الشعراء فأكثروا فى رثائه وبالغوا جداً.

واستعمل على مصر فى خلافته أيوب بن شرحبيل الأصبحى فأقام بها عاملاً إلى سنة إحدى ومائة وعزل فى خلافة يزيد بن عبد الملك، وبعد موت عمر ابن عبد العزيز خلفه فى الملك يزيد بن عبد الملك بن مروان.

(الفصل التاسع)

(فى خلافة يزيد بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعد عمر بن عبد العزيز يزيد بن عبد الملك بن مروان بويع له بالخلافة يوم مات ابن عمه عمر سنة إحدى ومائة للهجرة أى سنة تسع عشرة وسبعمائة للميلاد بعهد له من أخيه سليمان فى ذلك فلما ولى قال خذوا بسيرة عمر ابن عبد العزيز فساروا بسيرته أربعين يوماً فدخل عليه أربعون رجلاً من مشايخ دمشق وحلفوا له أنه ليس على الخلفاء حساب ولا عقاب فى الآخرة وخدعوه بذلك فانخدع لهم وكان طائفة من جهال الشاميين يعتقدون ذلك، قال بعض أهل التاريخ: إن يزيد هذا هو المعروف بالفاسق وهو غلط وإنما الفاسق ولده الوليد كما اشتهر . اهـ.

وقيل أنه لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال له اكتب إلى يزيد فأوصه بالأمة. قال: بماذا أوصيه إنه من بنى عبد الملك ثم كتب إليه، أما بعد فاتق يايزيد الصرعة بعد الغفلة حين لا تقال العثرة ولا تقدر على الرجعة إنك تترك ما تترك لمن لا يحمدك وتصير إلى من لا يعذرك والسلام، ولما استقرت بيزيد الخلافة عمد إلى كل ما عمده عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فردّه ورد المكوس التى أزالها عمر ابن عبد العزيز عن أهل اليمن وغير ذلك وجهز جيشاً عظيماً لقتال يزيد بن المهلب ابن أبى صفرة وسيره مع أخيه مسلمة والعباس ابن أخيه. وكان ابن المهلب قد كثرت لومه واجتمع إليه من أهل الكوفة والبصرة والثغور وغيرها فالتقى مسلمة بأهل الشام وابن المهلب فى لومه وعسكره الجرار فاقتتلوا قليلاً وكان يزيد بن عبد الملك قد أمر بإحراق جسر كان على الفرات ليأخذوا الطريق على ابن المهلب وأصحابه فلما علا دخان الحريق سأل أصحاب ابن المهلب عنه فقيل لهم حرق الجسر فانهزموا فقيل لابن المهلب انهزم الناس فقال لم انهزموا هل كان قتال ينهزم من مثله فقيل له قالوا أحرق الجسر فلم يلبث أحد فقال قبحهم الله بق دخن عليه فطار ثم خرج ومعه أصحابه. وقال أضربوا وجوه المنهزمين ففعلوا ذلك بهم وبينما هو على هذا الحال إذ جاءه الخبر بموت أخيه حبيب فاغتم غما شديداً واستثقل وتقاعس عن الحرب فتسلل عنه من يكره القتال وبقى معه جماعة من جنسه فانقض عليه أهل الشام وعلى أصحابه فقتلوه وقتلوا أخاه محمد بن المهلب وآخرين معه واختلفوا فيمن قتله

واحتزوا رأس يزيد بن المهلب وأتوا بهـا إلى مسلمة فسيـرها إلى يزيد بن عبد الملك وأسر أهل الشام من أصحاب يزيد بن المهلب خلقا فسيرهم مسلمة إلى الكوفة فجاء كتاب يزيد بن عبـد الملك إلى محمد بن عمرو بن الوليد يأمره بضـرب رقابهم فأمر صاحب شرطته أن يخرجهم عشـرين عشرين وثلاثين ثلاثين فقام نحو ثلاثين رجلاً من تميم فـقالوا نحن انهـزمنا بالناس فابدؤا بنا قـبل الناس فـضرب رقابهـم ثم جاء محمد بن عمـرو كتاب من عند مسلمة يأمره بترك قتل الأسـرى وأقبل مسلمة حتى نزل الحيرة واجـتمع أهل المهلب بالبصرة فـأعدّوا السفن وتجهزوا للركـوب فى البحر وحملوا أموالهم وعيالاتهم حتى وصلوا إلى حيـال وساروا فى البر فسير مسلمة فى أثرهم مدرك بن ضب الكلبى فأدركهم فـى عقبة فعطفوا عليه وقاتلوه واشـتد قتالهم فقـتل أكثر أصـحاب ابن المهلب وقـتل أولاد المهلب عن آخرهم وحـملت رؤوسهم والأسرى إلى مسلمة بالحيرة فبعثهم إلى يزيد بن عبد الملك فسيرهم يزيد إلى العباس ابن الوليد وهو على حلب فنصب الرؤوس وفرح يزيد بقتـل آل المهلب فرحا عظيمًا وقد كـان يتمنى قتلهم وقطع شـأفتهم لعـداوة سابقة بينه وبين يـزيد بن المهلب قبل تولى يزيد بن عـبد الملك الخـلافة، قـال صاحب الكامل إن ابن المهلب خـرج من الحمام أيام سليمان بن عبد الملك وقد تضمخ بالغالية فاجتاز بيزيد بن عبد الملك وهو إلى جانب عـمر بن عبد العـزيز. فقال يزيد قبح الله الدنيـا لوددت أن مثقال غـالية بألف دينار فلا ينالها إلا كـل شريف فسمع ابن المهلب فقـال له بل وددت أن الغالية لو كانت فى جبهة الأسد فلا ينالها إلا مثلى. فقال له يزيد بن عبد الملك لئن وليت يوماً لأقتلنك فقال له ابن المهلب والله لئن وليت هذا الأمر وأنا حىّ لأضربن وجهك بخمسين ألف سيف فهذا كان سبب البغض بينهما وقيل غير ذلك . اهـ.

وكان قـد جىء إلى يزيد بن عـبد الملك بثـلاثة عشـر رجلاً من الأسرى فـلما أدخلوهم عليه وعنده كثير عزة أنشد:

حليم إذا مـا نـال عـاقب مـجـمـلا ... أشـد العـقـاب أو عـفـا لم يثـرّب

فـعـفـو أمـيـر المؤمنين وحـسـبـه ... فـمـا تأته مـن صـالح لـك يكتب

أسـاءوا فـإن تصـفـح فـإنك قـادر ... وأفضل حلم حسبة حلم مـغضب

فقال يزيد بن عبد الملك هيهـات يا أبا صخر طف بك الرحم لا سبيل إلى ذلك إن الله عزّ وجلّ أقاد بنيهم بأعمالهم الخبيثة ثم أمر بهم فقتلوا وبقىَ غلام صغير فقال اقتلونى فما أنا بصغير فأمر به يزيد فقتل أيضاً، وكان أهل المهلب مشهورين بالكرم والجود والفتوّة ولهم أخبار طويلة لا محل لذكرها هنا.

وبينما كان مسلمة بن عبد الملك أخو يزيد والعباس بن أخيه يقاتلان آل المهلب إذ دخل على يزيد بن عبد الملك جماعة من المتقربين إليه. وقالوا: ياأمير المؤمنين إن أهل العراق أهل غدر وإرجاف وقد توجهنا محاربين والحوادث تحدث ولا نأمن من أن يرجف أهل العراق فيقولون مات أميرالمؤمنين فيفت ذلك فى أعضائنا فلو عهدت إلى عبد العزيز بن الوليد لكان رأياً صواباً فبلغ ذلك مسلمة بن عبد الملك فأتى أخاه يزيد فقال ياأمير المؤمنين أيما أحب إليك أخوك أم ابن أخيك فقال بل أخى فقال فأخوك أحق بالخلافة فقال يزيد إذا لم تكن فى ولدى فأخى أحق بها من ابن أخى كما ذكرت قال فابنك لم يبلغ فبايع لهشام بن عبد الملك ثم بعده لابنك الوليد. وكان الوليد يومئذ ابن إحدى عشرة سنة فبايع بولاية العهد لهشام بن عبد الملك أخيه وبعده لابنه الوليد بن يزيد وعاش اليزيد حتى بلغ ابنه الوليد أشدّه فكان إذا رآه يقول الله بينى وبين من جعل هشاماً بينى وبينك وظلت ولاية العهد لهشام حتى ولى الخلافة، وفى أيام يزيد بن عبد الملك ولد أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن محمد بن على فى ربيع الآخر وهو السفاح وقدم على أبيه محمد بن على أبو محمد الصادق من خراسان وجماعة من أصحابه فأخرج إليهم أبا العباس مقمطا بقماط ولفائف وله خمسة عشر يوماً وقال لهم هذا صاحبكم الذى يتم الأمر على يده فقبلوا أطرافه. وقال لهم والله ليتمن الله هذا الأمر حتى تدركوا ثأركم من عدوكم.

وخرج فى أيام يزيد كثير من طوائف الترك وقاتلوا المسلمين وأجلوا من كان منهم بأرمينية والجزيرة والمتولى عليهما يومئذ ابن هبيرة فجهز يزيد الجراح لقتالهم وردّهم إلى الطاعة فقاتلهم قتالاً شديداً وأفحش فى قتلهم وسبى ذراريهم وقاتل سائر الخوارج حتى أرجعهم إلى الطاعة وكاتب يزيد بالفتح وطلب المدد فوعده ولكن المنية عاجلته وكانت وفاة يزيد بإربل من أرض البلقاء وقيل بالجولان وحمل على أعناق الرجال إلى دمشق ودفن بين باب الجابية وباب الصغير لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة وله أربعون سنة وقيل خمس وثلاثون سنة وكانت خلافته أربع سنين وشهراً وأياماً، ذكر الحافظ ابن عساكر أن سبب موت يزيد بن عبد الملك هذا أنه كان اشترى فى أيام أخيه سليمان جارية من عثمان بن سهل بن حنيف بأربعة آلاف دينار وكان اسمها حبابة وأحبها حباً شديداً فبلغ أخاه سليمان ذلك فقال هممت أن أحجر على يزيد فبلغ ذلك يزيد فباعها خوفاً من أخيه سليمان فلما أفضت الخلافة إليه قالت له زوجته ياأمير المؤمنين هل بقى فى نفسك من الدنيا شيء؟ قال نعم فقالت وما هو؟ قال حبابة فاشترتها له وهو لا يعلم وزينتها

وأجلستها من وراء ستر لها ثم قالت ياأمير المؤمنين هل بقى في نفسك من الدنيا شيء؟ قال أو ما أعلمتك أنها حبابة فرفعت الستر وقالت هاأنت وحبابة وتركته وإياها فحظيت عنده وغلبت على عقله ولم ينتفع به في الخلافة وأنه قال يوماً إن بعض الناس يقولون إنه لن يصفو لأحد من الملوك يوم كامل من الدهر وإنى لأكذبنهم في ذلك ثم أقبل على لذاته واختلى بحبابة وأمر أن يحجب عن سمعه وبصره كل ما يكره فبينما هو على تلك الحالة في صفو عيشه وزيادة فرحه وسروره إذ تناولت حبابة حبة رمان وهي تضحك فغصت بها فماتت فاختل عقل يزيد وتكدّر عيشه وذهب سروره ووجد عليها وجداً شديداً وتركها أياماً لا يدفنها وهو يقبلها ويسترشفها حتى أنتنت وفاحت فأمر بدفنها ثم نبشها من قبرها وله معها أخبار طوال أضربنا عن إيرادها وغنته يوماً

وبين التراقي واللهاة حرارة وما طفئت يوماً بسوغ فتبردا

فأهوى عند سماعه قولها ليطير فقالت ياأمير المؤمنين إن لنا فيك حاجة فقال والله لأطيرن فقالت على من تخلف الأمة والملك. قال عليك والله وقبل يدها فخرج بعض خدمه وهو يقول سخنت عينك ما أسخفك.

ولما عاد من دفنها سمع جارية له تتمثل بعدها

كفى حزناً بالهائم الصب أن يرى منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى بكاء مرا واشتدّ به النحيب ولم يعش بعدها إلا خمسة عشر يوماً وكان مرضه بالسل وقال فيها:

فإن تسل عنك النفس أو تدع الهوى فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد
وكل خليل زارني فهو قائل من آجلك هذا هالك اليوم أو غد

قال صاحب الكامل: ولم يعلم بموت يزيد أحد حتى ناحت سلاّمة حظيته، هي حظية أخرى غير حبابة كان يحبها فقالت:

لا تلمنا إن خشعنا أو هممنا بخشوع
قد لعمري بت ليلى كأخي الداء الوجيع
ثم بات الهمّ مني دون من لي بضجيع
للذي حل بنا اليو م من الأمر الفظيع
كلما أبصرت ربعا خالياً فاضت دموعي
قد خلا من سيد كا ن لنا غير مضيع

ثم نادت وا أميـر المؤمنيناه فعلمـوا بموته قال والشـعر لبـعض الأنصار . اهـ.
واستـأمر يزيد على مصر فـى خلافته بشـر بن صفوان الكلبى فـأقام إلى سنة ثلاث ومائة ثم خلعه وولى أخاه حنظلة فأقـام إلى سنة خمس ومائة وهى السنة التى مات فيها يزيد بن عبد الملك ثم عزل ولما مات يزيد خلفه فى الملك هشام بن عبد الملك.

(الفصل العاشر)

(فـى خلافة هشام بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعد يزيد أخوه هشام بن عبد الملك بن مروان بويع له بالخلافة يوم مات أخوه يزيد سنة خمس ومـائة هجرية أى سنة ثلاث وعشرين وسبعـمائة ميلادية بعهد منه إليه ولما أتته الخلافة كان بالرصافة فـسجد وسجد أصحابه لما بشر بها وسار إلى دمشق، قال مصعب الزبيرى زعموا أن عبد الملك بن مروان رأى فى منامه أنه بال فى المحراب أربع مرات فدس من يسأل سعيـد بن المسيب وكان يعبر الرؤيا فقال يملك من صلبه أربعة فكان آخرهم هشاماً. اهـ.

فلما كانت السنة الأولى من خلافته سير مسلم بن سـعيد لغزو الترك فعبر النهر وعاث فى بلادهم وخرب وأتلف وأراق الدماء وقفل فتأثره الترك فعبرالنهر ولم ينالوا منه أرباً ثم غزا افشـين فلم يروا بدأ من مصالحته على ستـة آلاف رأس وسلموا إليه القلعـة ثم غزا غـزوة أخرى فى سنة ست ومـائة فأبطأ عنه الناس. وكـان ممن أبطأ البخترى بـن درهم فأرسل مسلم نصر بن سيار إلى بلخ وأمـره أن يخرج الناس إليه وكان العـامل على بلخ يومئذ عـمرو بن مسلم فذهـب نصر وأحرق باب البخـترى وزياد بن طريف الباهلـى ومنعهمـا عمرو من دخول بـلخ فقامت بسـبب ذلك فتنة عظيمة فانهـزم نصر المذكور وأمرهم بأن يلحقوا بمـسلم بن سعيد، ولما قطع مـسلم النهر ولحـقه من لحقه من أصـحابه سار إلى بخارى فـجاء كتاب خالـد بن عبد الله القسرى بولايته ويأمره بإتمام الغزوة فسار إلى فـرغانة وبلغه أن خاقان كان قادماً عليه بخيله ورجله فارتحل فلحقه خاقان بعد ثلاث مراحل وأحاط بالمسلمين ونازلهم وقتل المسيب بن بشر الرياحى والبراء من فرسان المـهلب وغيرهما من الأبطال وسار مسلم بالناس ثمـانية أيام والتـرك مطيفون بهـم وكان مسلم قـد أحرق مـا ثقل من أمتـعة المسلمين ما قيمته ألف ألف وأصبحوا فى اليوم التاسع قريب النهر ودونه أهل فرغانة والشاش فأمر مسلم أصحابه أن يخـترطوا سيوفهم ويحملوا على الأعداء فأفرج أهل فرغانة والشاش عن النهر فـعبر مسلم وأصحابه وأتبعهم ابن خـاقان فكان حميد بن

عبد الله على الساقة من وراء النهر مثخنا بالجراح فبعث إلى مسلم بالتربص وعطف على جموع الترك وقاتلهم قتالاً شديداً وأسر قائدهم وقائد الصغد وبينما هو يدبر أمر أصحابه إذ أصابه سهم فمات ثم أتى مسلم وقومه خجندة وقد أهلكهم الجوع.

ولما كانت سنة اثنتين وعشرين ومائة ظهر زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب يريد منصب الخلافة وأقبل إلى الكوفة ولبث بها مستخفياً يتنقل فى المنازل وأقبلت الشيعة تختلف إليه تبايعه فبايعه أناس من وجوه أهل الكوفة. قال أهل التاريخ، وكانت بيعته إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وجهاد الظالمين ونصر أهل البيت أتبايعون على ذلك فإذا قالوا نعم وضع يده على أيديهم ويقول، عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ﷺ لتفين ببيعتى ولتقاتلن عدوى ولتنصحن لى فى السر والعلانية فإذا قال نعم مسح يده على يده ثم قال، اللهم اشهد، فبايعه خمسة عشر ألفاً وقيل أربعون ألفاً فأمرهم بالاستعداد ولما شاع خبر خروجه أتاه سلمة بن كهيل فذكر له قرابته من صاحب الشريعة الإسلامية وحقه فأحسن وبالغ ثم قال له أنشدك الله كم بايعوك؟ قال أربعون ألفاً قال فكم بايع جدك، قال ثمانون ألفاً. قال: فكم قفل معه؟ قال ثلثمائة. قال: أنشدتك الله أنت خير أم جدك؟ قال جدى قال فهذا القرن؟ خير أم ذلك القرن قال ذلك القرن قال أفتطمع أن يفى لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك؟ قال قد بايعونى ووجبت البيعة فى عنقى وأعناقهم قال أفتأذن لى أن أخرج من هذا البلد فلا آمن أن يحدث حدث فلا أملك نفسى؟ فأذن له فخرج إلى اليمامة وأكثر زيد من دعاء الناس إلى بيعته فبايعه ناس كثير منها ورسم لأصحابه فيها بالخروج فخرج معه من كان يريد الوفاء له بالبيعة فعلم يوسف بن عمر بخبره وهو على الحيرة يومئذ وبعث فى طلبه وكان على الكوفة الحكم بن الصلت فخاف جماعة ممن خرج مع زيد واجتمع كبارهم وتكلموا مع زيد فيما هو فيه ثم فارقوه ونكثوا بيعته وقالوا سبق الإمام، يعنون محمد الباقر، وكان قد مات وقالوا جعفر ابنه إمامنا اليوم بعد أبيه فسماهم زيد بن على لذلك الرافضة، قال صاحب الكامل، وهم يزعمون أن المغيرة سماهم الرافضة. اهـ.

وكانت طائفة أتت جعفر بن محمد الصادق قبل خروج زيد فأخبروه ببيعة زيد فقال بايعوه فهو والله أفضلنا وسيدنا فعادوا وكتموا ذلك وخرج زيد فيمن بقى معه من أهل الكوفة واقتتل مع أصحاب يوسف والريان وأهل الشام فتخلى عنه نفر ممن بقى معه فلما رأى زيد خذلان الناس إياه قال لنصر بن خزيمة وقد كان يقاتل مع

زيد أنا أخاف أن يكونوا قد فعلوها حسينية، يعنى كما فعلوا بالحسين، فقال نصر بن خزيمة أما والله لأقاتلن معك حتى أموت وأن الناس فى المسجد فامض بنا نحوهم فساروا حتى انتهوا إلى باب المسجد بعد قتال فجعل أصحابه يدخلون راياتهم من فوق الأبواب ويقولون ياأهل المسجد اخرجوا من الذل إلى العز اخرجوا إلى الدين والدنيا فإنكم لستم فى دين ولا دنيا فرماهم أهل الشام بحجارة من فوق المسجد فانصرفوا ثم عادوا بعد ذلك إلى القتال فاشتد أصحاب يوسف بن عمر على أصحاب زيد بن علىّ واشتد كذلك أصحاب زيد واقتتلوا قتالاً عنيفاً فقتل نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحق الأنصارى بين يدى زيد ورمى زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى فثبت فى دماغه وأحضر أصحابه طبيبا فانتزع النصل فضج زيد ومات لساعته واختلف أصحابه فى أين يدفنونه فقال بعضهم نطرحه فى الماء وقال بعضهم بل نحتز رأسه ونلقيه بين القتلى فمانع ابنه يحيى وقال والله لا يأكل لحم أبى الكلاب فقال بعضهم ندفنه فى الحفرة التى يؤخذ منها الطين ونجعل عليه الماء ففعلوا فلما دفنوه أجروا عليه الماء وقيل إنه دفن بنهر يعقوب سكر أصحابه الماء ودفنوه ثم أجروا الماء وكان معهم مولى لزيد بن علىّ من أهل السند قيل إنه رآهم فلما تفرق الناس وتتبع يوسف بن عمر الجرحى دله السندى المذكور على موضع زيد فنبشه وقطع رأسه وسيرها إلى الحيرة وأمر فصلبوا جثته بالكناسة ومعه نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحق وزياد النهدى وسيروا رأس زيد إلى هشام بن عبد الملك فأمر بها فصلبت على باب دمشق ثم أرسلها إلى المدينة وبقيت الجثة مصلوبة إلى أن مات هشام وولى الوليد فأمر بإنزالها وإحراقها.

وكثرت فى أيام هشام الخوارج والدعاة وكان لهم مع عماله وقائع مشهورة يطول شرحها وكان هشام حازماً عاقلاً صاحب سياسة حسنة ورأى ودهاء وحزم وفيه حلم فكان لذلك موفقاً وكان يوصف بالبخل والحرص ويقال إنه جمع من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبله، قال عقال بن شبة دخلت على هشام وعليه قباء فنك أخضر فوجهنى إلى خراسان وجعل يوصينى وأنا أنظر إلى القباء ففطن فقال مالك فقلت رأيت عليك قبل أن تلى الخلافة قباء مثل هذا فجعلت أتأمل أهو هذا أم غيره. فقال هو والله ذلك وأما ما ترون من جمعى المال وصونه فهو لكم، قال وكان محشوا عقلا . اهـ.

وكان حسن الخلق قال مجمع بن يعقوب الأنصارى شتم هشام رجلاً من الأشراف فوبخه ذلك الرجل وقال أما تستحى أن تشتمنى وأنت خليفة الله فى أرضه فاستحى منه . وقال اقتص منى فقال إذا أنا سفيه مثلك. قال: فخذ منى عوضاً من المال قال ما كنت لأفعل قال فهبها لله قال هى لله ثم نكس هشام رأسه واستحى وقال والله لا أعود إلى مثلها أبداً، ذكر صاحب الكامل أن الجعد بن درهم أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام فأخذه هشام وسير به إلى خالد القسرى وهو يومئذ على العراق وأمره بقتله فحبسه خالد ولم يقتله فبلغ الخبر هشاماً فكتب إلى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله فأخرجه خالد من الحبس فى وثاقه فلما صلى العيد يوم الأضحى. قال فى آخر خطبته انصرفوا وضحوا يقبل الله منكم فإنى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم فإنه يقول ما كلم الله موسى ولااتخذ إبراهيم خليلاً تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ثم نزل وذبحه . اهـ.

وكان هشام شديد التمسك بدينه قيل إنه تفقد بعض ولده فلم يحضر الجمعة. فقال ما منعك من الصلاة قال نفقت دابتى قال أفعجزت عن المشى وأمر فمنعوه الدابة سنة ومات هشام بالرصافة لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة وكان مرضه الذبحة وعمره خمس وخمسون سنة وقيل ست وخمسون فكانت خلافته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وأحدا وعشرين يوماً.

واستعمل على مصر فى خلافته أخاه محمد بن عبد الملك وعزله وولى بعده الحر بن يوسف ثم ولى حفص بن الوليد فأقام إلى آخر سنة ثمان ومائة وولى بعده فى سنة تسع ومائة عبد الملك بن رفاعة ثم صرفه فى سنته وولى أخاه الوليد فأقام إلى أن توفى سنة تسع عشرة فولى بعده عبد الرحمن بن خالد الفهمى فأقام سبعة أشهر وصرف وأعيد حنظلة بن صفوان فى سنة عشرين ثم صرفه وأعاد حفص بن الوليد فأقام ثلاث سنين ثم عزل وكان عبد الله بن الحجاب متولى الخراج بمصر فى سنة سبع ومائة للهجرة أى سنة سبع وعشرين وسبعمائة للميلاد فاشتد على القبط فى تحصيل الخراج شدة بالغة وزاد قيراطاً فى كل دينار فاسترحموه فلم يقبل فانتقض عليه عامة الحوف الشرقى من القبط فحاربهم وقتل وسبى ونهب وخرب وأراق الدماء أبحرا وقد كان قبله فى سنة أربع ومائة للهجرة اشتد أسامة بن زيد التنوخى متولى الخراج عليهم وأوقع بهم وأخذ أموالهم ووسم أيدى الرهبان بحلقة حديد منقوش عليها اسم الراهب وديره وتاريخه فكان إذا وجد أحدهم بغير وسم قطع يده

وشهره وكتب إلى جميع العمال بأن من وجد من النصارى وليس معه منشور يؤخذ منه عشرة دنانير ثم كان منه بعد ذلك أن كبس دياراتهم وقبض على كثير من الرهبان بغير وسم فضرب أعناقهم وضرب باقيهم بالسياط حتى ماتوا تحت الضرب ثم أمر فهدموا الكنائس ونهبوا ما فيها فكانت شدة عظيمة للغاية ووصل الخبر بذلك إلى هشام بن عبد الملك فكتب هشام إلى مصر بأن يجرى النصارى على عوائدهم وما بأيديهم من العهد فلم يعمل حنظلة بن صفوان بما رسم به هشام بل شدد عليهم فى ولايته الثانية وزاد فى الخراج وأحصى الناس والبهائم وجعل على كل رجل منهم وسما صورة أسد وتتبعهم فمن وجد يده بغير وسم قطع يده فازدادت الشدة وعظم أمرها أياماً كثيرة وكادت تهب الفتنة وتعم سائر البلاد فخاف العمال وانكفوا وسكنت الأحوال.

ومات فى خلافة هشام الأكسندروس بطرك الإسكندرية فكانت مدته أربعاً وعشرين سنة قاسى فيها من البلايا والمحن ما مرّ بك بيانه فخلا الكرسى بعده أربع سنين فأقيم بعده قسيما أو هو قزمان وهو رابع أربعيهم وأصله من نبا موسير فأقام سنة ومات ولم يعرف من أخباره شيء فقام بعده تاودورو وهو خامس أربعيهم وكان فى دير أبو بحنس وفى أيامه أحدثت كنيسة يوقنا بخط الحمرة ظاهر مدينة مصر فقام جماعة من المسلمين فى سنة سبع عشرة ومائة للهجرة أى نحو سنة سبع وثلاثين وسبعمائة للميلاد على الوليد بن رفاعة أمير مصر يومئذ بسببها وشددوا فى طلب هدمها وكادت الفتنة تنتشر ويعظم ضرامها وبقى الحال هكذا أياماً كثيرة ثم سكنت، وفى سنة سبع ومائة أى فى خلافة هشام بن عبد الملك تمكن ملك الروم يومئذ من إقامة بطرك للملكية بالإسكندرية فمضى ومعه هدية سنية للغاية إلى هشام فكتب له برد كنائس الملكية إليهم فأخذوا يومئذ من المتأصلين كنيسة البشارة وكان الملكيون أقاموا سبعاً وسبعين سنة بغير بطرك فى أرض مصر من عهد عمر بن الخطاب إلى خلافة هشام بن عبد الملك فغلب المتأصلون فى هذه المدة على كنائس مصر كافة وأقاموا منهم بها أساقفة وبعث إليهم أهل بلاد النوبة فى طلب أساقفة فسيروا إليهم جماعة فصارت النوبة من ذلك العهد على مذهب دسقورس وبقيت كذلك إلى أن تفشت فيها الديانة الإسلامية وعمت سائر أرجائها فدانت بها إلى هذا الحين، ولما مات هشام بن عبد الملك تولى الخلافة بعده ابن أخيه الوليد بن يزيد المعروف بالفاسق.

(الفصل الحادى عشر)

(فى خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعد هشام ابن أخيه الوليد بن يزيد المعروف بالفاسق بويع له بالخلافة فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة للهجرة أى نحو سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة للميلاد يوم موت عمه هشام بالرصافة. وقد كان أبوه حين احتضر عهد بالأمر إلى هشام أخيه بأن يكون العهد من بعده لولده الوليد. فلما مات هشام بويع له وهو إذ ذاك بالبريه فارا من عمه هشام لأنه كان بينه وبين عمه منافسة بسبب استخفافه بالدين وشربه الخمر واشتهاره بالفسق فهم هشام بقتله ففر منه وصار لا يقيم بأرض خوفاً من هشام فلما كانت الليلة التى قدم عليه البريد فى صبيحتها بالخلافة قلق تلك الليلة قلقاً شديداً. فقال لبعض أصحابه ويحك إنه قد أخذنى الليلة قلق فاركب بنا حتى نتنفس فسارا مقدار ميلين وهما يتحدثان فى أمر هشام وما يتعلق به مما كتبه إليه بالتهديد والوعيد ثم نظرا فرأيا من بعد رهجا وصوتا ثم انكشف ذلك عن بريد يطلبونه فقال لصاحبه ويحك إن هذه رسل هشام اللهم أعطنا خيرهم. فلما قرب البريد منهما وأثبتوا الوليد معرفة ترجلوا وجاؤا فسلموا عليه بالخلافة فبهت . وقال ويحكم أمات هشام؟ قالوا: نعم ثم أعطوه الكتب فقرأها وسار من فوره إلى دمشق وكتب إلى الآفاق بأخذ البيعة فجاءته بيعتهم وكتب إليه مروان بن محمد ببيعته وأستأذنه فى القدوم عليه فلما استقرت به الخلافة أجرى على زمنى أهل الشام وعميهم وكساهم وأمر لكل إنسان منهم بخادم وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزاد فى العطاء وزاد الوفود . قال صاحب الكامل ولم يسئل فى شىء إلا وقال:

ضمنت لكم إن لم يعقني عائق ... بأن سماء الضر عنكم ستقلع
سيوشك إلحاق بعن زيادة ... وأعطيه مني عليكم تبرع
فيجمعكم ديوانكم وعطاؤكم ... به تكتب الكتاب شهرا وتطبع

وقال حلم الوادى المغنى كنا مع الوليد وأتاه خبر موت هشام وهنىء بولاية الخلافة وأتاه القضيب والخاتم ثم قال فأمسكنا ساعة ونظرنا إليه بعين الخلافة فقال غنونى:

طاب يومي ولذ شـرب السلافة وأتانا نعيٌ من بالرصافه
وأتانا البـريد ينعي هشاما وأتانا بخاتم للخلافه
فاصطبحنا من خمر عانة صرفا ولهونا بقينة عرافه

قال وحلف لا يبرح من موضعه حتى يغنى فى هذا الشعر وشرب عليه ففعلنا ذلك ولم نزل نغنى إلى الليل .اهـ.

وعقد فى هذه السنة يعنى السنة التى تولى الخلافة فيها لولديه الحكم وعثمان البيعة من بعده وجعلهما وليى عهده أحدهما بعد الآخر وجعل الحكم مقدماً وكتب بذلك إلى الآفاق وجعل يتنسم خبر أولاد الحسين بعد خروج زيد بن عليّ وقتله فى خلافة هشام عمه، فلما كانت سنة خمس وعشرين جاء الخبر إلى الوليد بالقبض على يحيى بن زيد بن على بن الحسين بخراسان وقد كان هرب إليها بعد موت أبيه زيد وسار منها إلى بلخ مختفياً فأقام بها عند الحريش بن عمرو بن داود فكتب الوليد يأمره أن يؤمنوه ويخلوا سبيله وسبيل أصحابه فأطلقوهم فساروا إلى نيسابور وبها عمرو بن زرارة وكان مع يحيى سبعون رجلاً فرأى يحيى تجاراً وجماعة من أبناء السبيل فسلبهم متاعهم وأخذ هو وأصحابه دوابهم ولحق بالجوزجان فسار فى أثره سالم بن أحوز فلحقه بها فقاتله قتالاً شديداً فقتل أصحاب يحيى عن آخرهم وأصاب يحيى بسهم فى جبهته فاحتزوا رأسه وسلبوه قميصه وصلبوا جثته بالجوزجان، قال صاحب الكامل فلم يزل مصلوباً حتى ظهر أبو مسلم الخراسانى واستولى على خراسان فأنزله وصلى عليه ودفنه وأمر بالنياحة عليه فى خراسان وأخذ أبو مسلم ديوان بنى أمية وعرف منه أسماء من حضر قتل يحيى فمن كان حياً قتله ومن كان ميتاً خلفه فى أهله بسوء وكانت أم يحيى ريطة بنت أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنيفة.

وكان الوليد يتظاهر بالكفر والزندقة منهمكا على شرب الخمر واللذات والقصف واللهو قليل الاهتمام بأمور الرعية، قال الحافظ ابن عساكر وغيره انهمك الوليد فى شرب الخمر ولذاته ورفض الآخرة وراء ظهره وأقبل على القصف واللهو والتلذذ مع الندماء والمغنين وكان يضرب بالعود ويوقع بالطبل ويمشى بالدف وكان قد انتهك محارم الله تعالى حتى قيل له الفاسق وكان مع ذلك أكمل بنى أمية أدباً وفصاحة وظرفا وأعرفهم بالنحو واللغة والحديث وكان جوادا مفضالا ولم يكن فى بنى أمية أكثر إدماناً للشراب والسماع ولا أشد مجونا وتهتكا واستخفافا لأمر الأمة من الوليد المذكور، ويقال إنه واقع جارية له وهو سكران وجاءه المؤذنون يؤذنون بالصلاة

فحلف أنه لا يصلى بالناس إلا هى فلبست ثيابه وتنكرت وصلت بالمسلمين وهى جنب سكرى. قال ويقال إنه اصطنع بركة من خمر فكان إذا طرب ألقى بنفسه فيها وشرب منها حتى يبين النقص فى أطرافها . اهـ.

ولما كثر مجونه وزاد حبه وولوعه للمعاقرة وشرب الخمر وإتيان المنكرات والاستخفاف بأمور الرعية قام عليه أهل دمشق واجتمعوا على خلعه وبايعوا ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك الملقب بالناقص فخرج عليه يزيد وتغلب على دمشق وكان الوليد يومئذ بناحية تدمر فى الصيد فجهز يزيد عسكرا وسار بهم نحوه فحاربوه إلى أن أحاطوا به بحصن البحرة من أرض تدمر وشددوا فى القتال وأخذوا عليه جميع الطرق وتسوّروا عليه وذبحوه وأتوا برأسه على رمح فأمر به يزيد فنصبوه على صور دمشق، وقيل لما حصره أصحاب يزيد همّ أصحابه بالقتال فنهاهم عن ذلك فأفلتوا من حوله فدخل عليه أصحاب يزيد فى قصره فقال يوم كيوم عثمان فقيل له ولا سواء فقطع رأسه وطيف به فى دمشق ثم نصب على قصره ثم على أعلى سور دمشق، وكان أكثر الناس بغضا إليه وأكبرهم حقدًا عليه أهل اليمن فسعوا فى قتله وأغروا به يزيد حتى ركب عليه وقتله، وقال حمزة بن بيض فى الوليد:

وصلت سماء الضر بالضر بعدما ... زعمت سماء الضر عنا ستقلع
فليت هشاماً كان حياً يسومنا ... وكنا كما كنا نرجي ونطمع

وقال أيضا:

يا وليد الخنا تركت الطريقا ... واضحا وارتكبت فجا عميقا
وتماديت واعتديت وأسرف ... ـت وأغويت وانبعثت فسوقا
أبدا هات ثم هات وهاتي ... ثم هاتي حتى تخرّ صعيقا
أنت سكران ما تفيق فما تر ... تق فتقا وقد فتقت فتوقا

وحكى الماوردى فى كتاب أدب الدين والدنيا عن الوليد بن يزيد المذكور أنه تفاءل يوماً فى المصحف فخرج له قوله تعالى واستفتحوا وخاب كل جبارعنيد فمزق المصحف وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يارب مزقني الوليد

قال: فلم يلبث إلا أياماً قليلة حتى قتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على أعلى سور بلده . اهـ.

قتل فى جمادى الأولى سنة ست وعشرين ومائة وكانت خلافته سنة واحدة وقيل سنة وشهرين وبموته اضطربت الأمور واختل نظام البلاد واضطرمت نار الفتنة واستنصر على بنى أمية أعداؤهم فزالت هيبتهم وذبلت شوكتهم فلم تقم لهم قائمة بعده كما سيذكر فى محله، ومع ما اشتهر به الوليد من الزندقة والتظاهر بالمنكرات فقد كان له محاسن أخرى فما نقل عنه من حسن الكلام ما قاله لما مات مسلمة بن عبد الملك لهشام وهوجالس للعزاء فقد أتاه الوليد المذكور وهو نشوان يجرّ مطرف خز عليه فوقف على هشام فقال ياأمير المؤمنين إن عقبى من بقى لحوق من مضى، وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن رمى، واختل الثغر فهوى وعلى أثر من سلف، يمضى من خلف، فتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى .اهـ.

فأعرض هشام ولم يحر جواباً وسكت القوم فلم ينطقوا، قيل وقد نزه قوم الوليد مما قيل فيه وأنكروه ونفوه عنه وقالوا إنه قيل عنه وألصق به وليس بصحيح، وكان من فتيان بنى أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم وأشدائهم وله شعر جيد للغاية لا سيما فى الخمر والغزل والعتاب وقد أخذ كثير من الشعراء معانيه فى وصف الخمر فسرقوها وأدخلوها فى أشعارهم وخاصة أبا نواس فإنه أكثرهم أخذا لها، قال المدائنى دخل ابن للغمر بن يزيد أخى الوليد على الرشيد فقال له ممن أنت؟ فقال من قريش قال من أيها؟ فأمسك فقال قل وأنت آمن ولو أنك مروان فقال أنا ابن الغمر بن يزيد فقال رحم الله عمك الوليد ولعن يزيد الناقص فإنه قتل خليفة مجمعا عليه ارفع حوائجك فرفعها فقضاها.

وفى أيامه انتقض القبط بصعيد مصر من جور العمال وشقوا عصا الطاعة فوقعت الحرب بينهم وبين الجند المرابط بمصر واقتتلوا أياماً كثيرة فقتل خلق ثم خرج يحنس القبطى وكان من فحول زمانه وكبار القوم وعظمائهم فى مدينة سمنود فحارب العمال وقاتلهم قتالاً عنيفاً ودامت الفتنة أياماً كثيرة اشتد فيها المسلمون على النصارى شدّة بالغة وطال الأخذ والردّ وعمت الصعيدين ثم انجلت بموت يحنس المذكور وخلق معه فكانت فتنة عظيمة للغاية على جميع النصارى وبموت الوليد بن يزيد تولى الخلافة بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك.

(الفصل الثانى عشر)

(فى خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان)

ثم قام بالأمر بعد الوليد يزيد بن الوليد بن عبد الملك بويع له بالخلافة يوم قتل ابن عمه الوليد سنة ست وعشرين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ميلادية وهو أول خليفة كانت أمه أمة وكان بنو أمية يتحرزون ذلك تعظيماً للخلافة ولما سقط إليهم أن ملكهم يزول على يد خليفة أمه أمة كانوا يتخوّفون من ذلك إلى أن ولى الخلافة الوليد بن يزيد فعلموا أن ملكهم قد انقضى، وكان يزيد المذكور يسمى الناقص وإنما سمى بذلك لأنه نقص أعطيات الناس وردّهم إلى ماكانوا عليه أيام هشام وقيل لنقصان كان فى أصابع رجليه وأول من سماه بهذا الاسم مروان بن محمد، ولما تولى الخلافة خطب الناس فذم الوليد وذكر الحاده وأنه إنما قتله لفعله الخبيث ثم قال: أيها الناس إن لكم علىّ أن لا أضع حجرا على حجر ولا لبنة ولا أكترى نهرا ولا أكثر مالا ولا أعطيه زوجة وولدا ولا أنقل مالا عن بلد حتى أسد ثغره وخصاصة أهله بما يغنيهم فما فضل نقلته إلى البلد الذى يليه ولا أجمركم فى ثغوركم فأفتنكم ولا أغلق بابى دونكم ولا أحمل على أهل جزيتكم ولكم أعطياتكم كل سنة وأرزاقكم فى كل شهر حتى يكون أقصاكم كأدناكم فإن وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن الوزارة وإن لم أف فلكم أن تخلعونى إلا أن أتوب وإن علمتم أحد ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيكم وأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه أيها الناس لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . اهـ.

وأقام يزيد فى الخلافة والأمور مضطربة عليه إذ قامت الفتنة على ساقها وهاجت وخرج أهل حمص واختلف أهل فلسطين ووثبوا على عمالهم ووثب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعمان وكان قد حبسه الوليد بها فخرج من الحبس وأخذ ما كان بها من الأموال وأقبل إلى دمشق وجعل يلعن الوليد ويسبه وخرج أهل اليمامة أيضاً على عاملهم يوسف ابن عمر واقتتلوا واشتد الاضطراب وعم الخلل ولم تكن لتستقر به الخلافة حتى مرض فى سنة ست وعشرين ومائة هجرية فلما علم جماعة القدرية وهم شيعته بمرضه دخلوا عليه وما زالوا به حتى رسم بالبيعة لأخيه إبراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ومات لعشر بقين من ذى الحجة وقيل فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة هجريةوهو ابن أربعين سنة وقيل: ست وأربعين وقيل: سبع وثلاثين سنة فكانت خلافته ستة

أشهر وليليتين وقيل ستة أشهر واثنى عشر يوماً وقيل خمسة أشهر واثنى عشر يوماً وكان موته بدمشق وكان يظهر التنسك وقراءة القرآن وأخلاق عمر بن عبد العزيز وكان ذا دين وورع قال الشافعى: ولى يزيد بن الوليد فدعا الناس إلى القدر . اهـ. وهو أول من خرج بالسلاح يوم العيد خرج بين صفين يحملون السلاح وكان آخر ما تكلم لما احتضر واحسرتاه واأسفاه ولما مات تولى الخلافة بعده أخوه إبراهيم بن الوليد.

(الفصل الثالث عشر)

(فى خلافة إبراهيم بن الوليد)

ثم قام بالأمر بعد يزيد أخوه إبراهيم بعهد من يزيد بويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه أخوه سنة ست وعشرين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة للميلاد ولم يثبت له الأمر لاضطراب الأمور ووقوع الخلاف فكان جمعة يسلم عليه بالخلافة وجمعة بالإمارة وجمعة لا يسلم عليه لا بالخلافة ولا بالإمارة. وما زالت الأمور مضطربة والفتنة يمتد لهيبها من بلد إلى آخر إلى أن قتله مروان بن محمد وصلبه وكان مروان المذكور والياً على الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان ولاه عليها الوليد خوفاً من خروجه عليه فقد كان حضر فى جيش عظيم لقتال الوليد وردّه عن الملك ولم يبايعه حتى ولاه ما ذكر فخرج فى ثمانين ألفا من أهل الجزيرة وأهل قنسرين وأهل حمص فسير لقتالهم إبراهيم بن الوليد جنداً من دمشق مع سليمان بن هشام فنزل عين الجرف فى مائة وعشرين ألفا ونزلها أيضاً مروان فى ثمانين ألفا ودعاهم مروان إلى الكف عن قتاله وإطلاق ابنى الوليد الحكم وعثمان من السجن وضمن لهم أنه لا يطلب أحداً من قتلة الوليد فلم يجيبوه إلى شىء من ذلك وجدّوا فى قتال بعضهم وكثر القتل بينهم واشتد فانهزم أصحاب سليمان بن هشام ووضع أهل حمص السلاح فيهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأتوا مروان من أسرائهم بمثل القتلى فأخذ مروان عليهم البيعة لولدى الوليد الحكم وعثمان وكانا معتقلين وهرب سليمان بن هشام مع من بقى واجتمعوا مع إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج فقال بعضهم لبعض: إن بقى ولدا الوليد حتى يخرجهما مروان ويصير الأمر إليهما لم يستبقيا أحداً من قتلة أبيهما فأمروا بقتلهما وأخرج يوسف بن عمر فضربت عنقه وأرادوا قتل أبى محمد السفيانى فدخل بيتاً من بيوت السجن وأغلقه فلم

يقدروا على فتحه فأرادوا إحراقــه فلم يؤتوا بالنار لإحراقه حتى قيل قد دخلت خيل مروان المدينــة فهربوا واختــفى إبراهيم وانتــهب مروان مــا فى بيت المال فكان شيئاً كثيراً.

وكانت خلافة إبراهيم شهرين وعشرة أيام فبايع الناس مروان على ما سيذكر فى محله واستوثق له الأمر قبل ظهور إبراهيم بن الوليد ودخل عليه ونزل له عن الخلافة وذلك سنة سبع وعــشرين ومائة هجرية أى سنة أربع وأربعــين وسبعمــائة ميلادية، واستعمل على مصر فى خلافته حســان بن عتاهية الخببى ثم عزله وأعاد حفص بن الوليد فبقى إلى أن عزل فى سنة ثمان وعشرين ومائة هجرية.

(الفصل الرابع عشر)

(فى خلافة مروان بن محمد)

لما قتل إبراهيم بن الوليد بويع لمروان بن محمد المنبوز بالحمار بالخلافة سنة ست وعشرين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ميلادية، وتحرير الخبر أنه لما دخل مــروان دمشق وهرب إبراهيم بــن الوليد ومن مــعه كــمــا تقدّم القــول ثار مَن بدمشق من موالى الوليد إلى دار عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فقتلوا الحجاج ونبشوا قبر يزيد بن الــوليد وأخرجوا جثته وصلبوها على باب الجابــية وكبرت الفتنة وأتى مروان بولدى الوليد الحكم وعثمان مقــتولين وبيوسف بن عمر فدفنهم وأخرج محمد السفــيانى من محبسه يجرّ فى قيوده فلمّا وقف الــسفيانى بين يديه سلم عليه بالخلافة وقد كان يسلم على مروان إلى ذلك اليوم بالإمرة فأسكته مروان فقال محمد السفــيانى: إنهمــا جعلاها لك بعــدهما، قال صــاحب الكامل وأنشــده شعرا قــاله الحكم:

ألا من مــــبلغ مــــروان عنّي ... وعــمــى الغــمـــر طال به حنينا

بأني قـــد ظلمت وصــار قــومي ... على قــتل الولــيد مــشــايعــينا

أيذهــب كلــهم بــدمي ومــــالي ... فــلا غثــاً أصبت ولا ســمــينا

ومــــــــروان بــأرض بني نــزار ... كليث الــغــاب مــفــترس عــرينا

أتنــكث بيــــعــــتي من أجــل أمي ... فــقــد بــايعــتم قــبلي هجــينا

فــإن أهــلك أنا وولى عــهــدي ... فــمــــروان أمــيــر المؤمنينا

ثم قال لمروان: أبسط يدك أبايعك وسمعه جميع من حضر فكان أول من بايع معاوية بن يزيد بن حصين بن نمير وعظماء أهل حمص والناس بعدهم فلما استقر له الأمر رجع إلى أهله بحوران فتقدم إليه جماعة فى طلب الأمان لإبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام فأمنهما فقدما عليه وبايعاه كما تقدم القول، ولم تستقر به الخلافة حتى ظهر الاضطراب وظهر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بالكوفة ودعا الناس إلى نفسه وتغلب على حلوان والجبال وهمدان وأصبهان والرى وكثرت لمومه وخرج إليه عبيد أهل الكوفة وانتقض أهل حمص فقاتلهم مروان ودخل حمص وأعمل فى أهلها السيف وهدم من سورها نحو غلوة وخالف أهل الغوطة فحصروا دمشق ومقدمهم يومئذ يزيد بن خالد فسير إليهم مروان عشرة آلاف من حمص فقاتلوهم قتالاً شديداً وأخذوا مقدمهم يزيد بن خالد المذكور فاحتزوا رأسه وبعثوا به إلى مروان بحمص، واختلف أيضاً أهل فلسطين وانتقضوا فسير لهم مروان عسكراً ومقدمهم أبو الورد فقاتلوهم وشدد أبو الورد فى قتالهم حتى هزمهم وجاء مروان الخبر وهو يومئذ بدير أيوب ففرح بذلك وبايع لابنيه عبيد الله وعبد الله وزوجهما ابنتى هشام بن عبد الملك. قال أصحاب التاريخ: فجمع لذلك بنى أمية واستقام له الشام ماخلا تدمر فسار إليها وأرسل من يقاتلها فاستأمن من بها بعد القتال وهدم سورها، وأرسل مروان إلى الشام بعد ذلك فى طلب الجند لقتال الضحاك بالعراق وقد كان خرج عن طاعة مروان وتقدم مروان إلى فرقيسيا فبينما هو بها إذ رجع عشرة آلاف ممن كان أخذهم من أهل الشام لقتال الضحاك فنزلوا بالرصافة وحبوا إلى سليمان بن هشام بن عبد الملك خلع مروان بن محمد ومنوه بالخلافة إن هو فعل ذلك فأجابهم وسار بإخوته ومواليه معهم فعسكر بقنسرين وكاتب أهل الشام فأتوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان فرجع إليه من قرقيسيا واجتمع إلى سليمان بن هشام نحو من سبعين ألفا من أهل الشام وغيرهم وعسكر بقرية خساف من أرض قنسرين فجاءه مروان عند وصوله واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم سليمان ومن معه واتبعتهم خيل مروان تقتل وتأسر واستباحوا عسكرهم فبلغ قتلى أصحاب سليمان زهاء ثلاثين ألفا وقتل إبراهيم بن سليمان وأكثر ولده ومضى سليمان حتى دخل حمص وانضم إليه من بقى من عسكره فتحصن بها ورمم ما تخرّب من أسوارها فتبعه مروان وقاتله فهزمه فخرج سليمان ومضى إلى تدمر فأقام بها ونزل مروان على حمص فحاصر أهلها عشرة أشهر. قال أصحاب التاريخ:

ونصب عليهم نيفاً وثمانين منجنيقا يرمى بها الليل والنهار فلما تتابع عليهم البلاء طلبوا الأمان فأمّنهم.

وفى خلال هذه الخطوب والحروب ظهر أبو مسلم الخراسانى وهو عبد الرحمن صاحب الدعوة العباسية بخراسان وظهر السفاح بالكوفة فلما استقر للسفاح الأمر وظهرت آثار الدعوة لبنى العباس على ما سنذكره فى محله إن شاء الله جهز السفاح عمه عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس لقتال مروان بن محمد فالتقى الجمعان بالزاب زاب الموصل وجعل كل فريق يرتب عسكره ويبالغ فى ترتيبها فقال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: ياعبد العزيز إن زالت اليوم الشمس ولم يقاتلونا كنا الذين ندفعها إلى المسيح عليه السلام وإن قاتلونا فأقبل الزوال فإنا لله وإنا إليه راجعون، وأرسل مروان إلى عبد الله بن على مقدّم عسكر السفاح يسأله الموادعة. فقال عبد الله كذب ابن رزيق لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله فقال مروان لأهل الشام: قفوا لا تبدؤهم بالقتال وجعل ينظر إلى الشمس فحمل الوليد ابن معاوية بن مروان بن الحكم وهو ختن مروان بن محمد على ابنته فغضب مروان من ذلك وشتمه وأمر عبد الله الناس بأن ينزلوا عن خيلهم فنزلوا وأشرعوا الرماح وجثوا على الركب ولم يظهروا عزمًا على القتال فاندفع عليهم أصحاب مروان وقاتلوهم فجعل أهل الشام يتأخرون كأنهم يدفعون فنادى عند ذلك عبد الله بن علىّ يأهل خراسان يالنارات إبراهيم يامحمد يامنصور واشتد بينهم القتال وحمى الوطيس وضعفت همم أصحاب مروان وتثاقلوا عن القتال فكان مروان ذلك اليوم لا يدبر شيئاً إلا كان فيه الخلل وانفشل عسكره فشلاً عظيماً وانهزموا وانهزم مروان وقطع الجسر فكان من غرق يومئذ عند عبور ذلك الجسر أكثر ممن قتل، وكتب عبد الله بن علىّ إلى السفاح بالفتح وحوى عسكر مروان بما فيه فكان فيه من السلاح والكراع والأموال شيئاً كثيراً للغاية فلما وصل الكتاب إلى السفاح فرح فرحاً لا يوصف وخر ساجداً لله تعالى وأمر لمن شهد الواقعة بخمسمائة دينار ورفع أرزاقهم إلى ثمانين، ولما تمت هزيمة مروان تبعه عبد الله إلى أن وصل نهر الأردن فلقى جماعة من بنى أمية وكانوا نيفًا وثمانين رجلاً فقتلهم عن آخرهم ثم أمر عبد الله بسحبهم فسحبوا وبسط عليهم ببساط وجلس هو وأصحابه فوقهم واستدعى بالطعام فأكلوا وهم يسمعون أنينهم من تحتهم فقال عبد الله: يوم كيوم الحسين ولا سواء ولما رأى مروان اشتداد الفتنة واستفحال الخطب وأن الأعداء كادوا يطبقون عليه من كل جانب وكان قد نزل بحوران قام منها قاصداً أبا عون عبد الملك بن يزيد الأسدى الذى ولاه

السفاح على شهر زور فلاقاه جند عبد الله بن علىّ العباسى فمر فى أشهر أمّة بالموصل فرأى الرايات سوداً وهى رايات العباسيين فذهب إلى حوران وأقام نيفا عن عشرين يوماً حتى دنا منه عسكر السفاح فسار إلى حمص ثم إلى دمشق ثم إلى فلسطين وكان السفاح قد كتب إلى عمه عبد الله فتبعه عبد الله إلى دمشق وجهز السفاح أيضاً عمه صالح بن علىّ على طريق السماوة فلحق بأخيه عبد الله وقد نزل دمشق وفتحها عنوة وأباحها ثلاثة أيام ونقض عبد الله سورها فلم يبق فيه حجراً على حجر وهرب مروان إلى مصر فتبعه صالح بن علىّ ومروان ينهزم أمامه حتى أدركه أبو عون وجماعة أصحاب صالح بعد حين فى كنيسة بأبى صير من صعيد مصر وقد تبددت أصحابه ولم يبق معه إلا القليل جداً فقاتلوه ليلاً وكان أصحاب صالح قليلين فخافوا إن هم أصبحوا ورأوا أصحاب مروان قلتهم أهلكوهم فتحالفوا على القتال ليلاً وكسروا أجفان سيوفهم وحملوا على أصحاب مروان فانهزموا وحمل رجل على مروان فطعنه وهو لا يعرفه وصاح صائح صرع أميرالمؤمنين فابتدروه واحتزوا رأسه وبعثوا به إلى صالح فلما وصل إليه أمر أن يقص لسانه فقطعوا لسانه وتركوه لحظة لطيفة فأتت هرة فأخذته فقال صالح: ماذا ترينا الأيام من العجائب والعبر هذا لسان مروان قد أخذته هرة وذلك فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية وقيل ثلاث وثلاثين ومائة أى نحو سنة خمسين وسبعمائة ميلادية وهو ابن ست وخمسين سنة فكانت خلافته خمس سنين وشهرين وعشرة أيام وهو آخرخلفاء بنى أمية فكانوا أربعة عشر خليفة أولهم معاوية بن أبى سفيان وآخرهم مروان الجعدى المنبوز بالحمار وكانت مدّة خلافتهم نيفا وثمانين سنة وهى ألف شهر، ورجع صالح إلى الشام ومعه رأس مروان وخلف أبا عون بمصر فلما رفع صالح رأس مروان إلى السفاح سجد لله شكراً. وذكر أنه بينما كان مروان يحارب على الزاب ترجل عن فرسه لحاجة طبيعية فرجع الفرس إلى الوراء فظن عسكره أنه قتل فوقع فيهم الخوف وانفشلوا وهربوا فصار ذهاب ملكهم مثلاً فقيل: «انتهى ملك بنى أمية ببولة» ولما قتل مروان هرب ولداه عبيد الله وعبد الله إلى أرض الحبشة فقتل عبيد الله قتله الحبشان ونجا عبد الله فى عدد من أصحابه وبقى إلى خلافة المهدى حتى قبض عليه نصر بن محمد بن الأشعث عامل فلسطين وبعث به إلى المهدى، وكان مروان المذكور بطلاً شديداً شجاعاً ذا هيبة أبيض ربعة أشهل

ضخما كث اللحية وكان حازمًا سياسيًا واستعمل على مصر فى خلافته الحوثرة بن سهيل الباهلى ثم ولى بعده المغيرة بن عبيد الفزارى سنة إحدى وثلاثين ومائة ثم ولى عبد الملك بن مروان مولى لخم سنة ثنتين وثلاثين ومائة فلما قامت الدولة العباسية واستقام الأمر للسفاح على ما سيذكر فى محله وانهزم مروان الحمار وهرب إلى مصر ولى السفاح نيابة الشام ومصر صالح بن علىّ بن عبد الله بن عباس فسار صالح بعد قتل مروان إلى الشام واستخلف على مصر أبا عون عبد الملك بن يزيد الأسدى كما تقدم القول.

(فصل)

(فى كيفية الدعوة لبنى العباس وفى ظهور دولتهم)

لما كان ظهور الدولة العباسية من الأهمية التاريخية بمكان لا سيما وفى ذكر حوادث ذلك الظهور وأصل الدعوة لبنى العباس وما ترتب عليها تذكرة وعبرة رأيت أن لا بأس بإيراد تفصيلها هنا إظهاراً لأصل الدعوة وكيف كان كتمانها بين الأحزاب أعواماً مع كثرة الدعاة وتخلفهم على الناس. قال أصحاب التاريخ: لما كان محمد ابن علىّ بن عبد الله بن عباس نازلاً بأرض الشراة من أعمال البلقاء بالشام خرج أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى الشام يريد لقاء سليمان بن عبد الملك فاجتمع به محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس المذكور فأحسن صحبته واجتمع أبو هاشم بسليمان فأكرمه وقضى حوائجه ورأى من علمه وفصاحته ما حسده عليه وخافه فوضع عليه من وقف على طريقه فسمه فى لبن فلما أحس أبو هاشم بذلك قصد الحميمة وبها محمد بن علىّ بن عبدالله المذكور فنزل عليه فأخبره بخبره وأعلمه أن أمر الخلافة صائر إلى ولد محمد بن علىّ بن عباس المذكور وعرفه ما يعمل وأوصاه بكتمان الأمر وكان أبو هاشم قد أعلم شيعته من أهل خراسان والعراق عند ترددهم إليه أن أمر الخلافة صائر إلى ولد محمد بن علىّ وأوصاهم بقصده بعده. فلما مات أبو هاشم قصدت شيعته محمد بن علىّ وبايعوه وعادوا فدعوا الناس إليه فأجابوهم وسير محمد بن عبد الله إلى الآفاق جماعة فوجه ميسرة إلى العراق ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وهو أبو محمد الصادق وحيان العطار وخال إبراهيم بن سلمة إلى خراسان وعليها الجراح الحكمى وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته فلقوا من لقوا ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم إلى محمد بن علىّ فدفعوها

إلى ميسرة فبعث بها ميسرة إلى محـمد بن عليّ ففرح بها واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن عليّ اثنى عشر نقـيباً وسبعين رجلاً أخر فكتب لهم مـحمد بن على كتاباً ليكون لهم مـثالاً وسيـرة يسيرون بهـا وذلك سنة مائة للهجـرة فعمـلوا به وجعلوا يدعون الناس فظهر أمرهم بخراسان فجاء رجل إلى سـعيد بن خزيمة عامل خراسان فقال له: إن ههنا قـوماً قد ظهر منهم كلام قبـيح وأعلمه حالهم فبعث سعـيد إليهم فأتى بهم فـقال: من أنتم؟ قالوا ناس من التـجار. قال فمـا هذا الذى يحكى عنكم قالوا :لا ندرى قـال :جئتـم دعاة قالوا: إن لنا فى أنفـسنا وتجارتنا شـغلا عن هذا فقال: من يعرف هؤلاء فـجاء ناس من أهل خراسان أكثرهم من أهل ربـيعة واليمن فقالوا: نحن نعرفهم وهم علينا إن أتاك منهم شيء تكرهه فخلى سبيلهم فظلوا على ما كانوا عليه من الدعوة إلى محمد بن عليّ وابن خزيمة لاه عنهم.

فلما كانت سنة أربع ومائة هجرية ولد (أبو العباس عبد الله) بن محمد بن عليّ ابن محمد بـن على فى ربيع الآخر وهو السفاح وجاء إلى أبيه مـحمد بن عليّ (أبو محمد الصادق) من خراسان فى عدة من أصحابه فأخرج إليهم محمد بن على ولده أبا العباس المذكور فى خـرقة وله خمسة عشر يومـاً وقال لهم: هذا صاحبكم الذى يتم الأمر على يده فـفرحوا به وقبلـوا أطرافه. وقال لهم والله ليتـمن الله هذا الأمر حتى تدركـوا ثأركم من عدوّكم، قالوا: وكان أول من قدم خـراسان من دعاة بنى العبـاس زياد أبو محمـد مولى همدان فى ولاية أسـيد بعث به محـمد بن على بن عبـدالله بن عباس. وقال له انزل فى اليـمن والطف بمضر ونهاه عن رجل بنيـسابور يقال له غـالب لأنه كان مـفرطا فى حب بنى فاطمـة. ويقال أوّل من أتى خـراسان بكتاب محمد بن على حرب بن عثـمان مولى بنى قيس بن ثعلبة من أهل بلخ فلما قدم زياد دعـا إلى بنى العباس وذكـر سيرة بنى أمـية وظلمهم وأطـعم الناس الطعام فقدم عليه غالب من نيسابور فتناظرا فى تفـضيل آل عليّ وآل العباس ثم افترقا وأقام زياد بمرو شتوة فكان يتخلف إليه من أهلها جماعة فعلم أسيد بخبره فدعاه وقال: ما هذا الذى بلغني عنك؟ قـال الباطل: إنما قـدمت إلى تجارة وقـد فرقت مـالى على الناس فإذا اجتمـع خرجت فقال له أسيد أخرج عن بلادى فـانصرف من عنده وعاد إلى ما كـان عليه من دعوة الناس فـرفعوا أمـره إلى أسيد ثانيـة وخوّفوه من جـانبه فأحضره وقتله وقتل معه عـشرة من أهل الكوفة ولم ينج منهم إلا صغيران وقيل بل أمر بزياد أن يوسط بالسـيف أى يقطع نصفين فضـربوه بالسيف فلم يعمل فيـه فكبر الناس فقـال أسيد مـا هذا قيل نبا السـيف عنه ثم ضرب أخرى فنبـا السيف عنه ثم

ضربه الثالثة فقطعه اثنين وعرض البراءة على أصحابه فمن تبرأ خلى عنه وذلك قبل الأضحى بأربعة أيام، فقام بالأمر بعدهم رجل من أهل الكوفة يسمى كثيراً فنزل على أبى النجم فكان يأتى إليه كل من تبع مقالة زياد وبقى على هذا الحال سنة أو سنتين، واشتد ابن أسيد والى خراسان على من بها من الأحزاب فقتل وجلد وحبس منهم خلقا ووجه بكير بن ماهان فى نحو سنة ثمان عشرة ومائة هجرية عمار بن يزيد والياً على شيعة بنى العباس فنزل مرو وغيّر اسمه وتسمى بخداش ودعا إلى محمد بن علىّ فتسارع إليه الناس وأطاعوه فلما ظهرت كلمته غير ما دعاهم إليه وأظهر دين الخرّمية ورخّص لبعضهم فى نساء بعض. وقال لهم: إنه لا صوم ولا صلاة ولا حج وأن تأويل الصوم أن يصام على ذكر الإمام فلا يباح باسمه والصلاة الدعاء له والحج القصد إليه وكان يتأوّل بعض آيات القرآن وكان ممن اتبعه على مقالته مالك بن الهيثم والحريش بن سليم الأعجمى وغيرهما فأخبرهم أن محمد بن على بن عبد الله بن العباس أمر بذلك فبلغ خبره أسيد بن عبد الله والى خراسان فظفر به فأغلظ القول لأسيد فقطع لسانه وسمل عينيه ثم صلبه، وكان لما ظهر أمر خداش المذكور وأطاعه من أطاعه من الأحزاب بخراسان أهمل محمد بن على بن عبد الله أمرهم وترك مكاتبتهم ومراسلاتهم فلما قتل خداش وجهوا إليه سليمان ابن كثير ليعلمه أمرهم وما هم عليه فعنفه محمد فى ذلك ثم صرفه إلى خراسان ومعه كتاب مختوم فلما فضوه لم يروا فيه إلا بسم الله الرحمن الرحيم فعظم ذلك عليهم وعلموا مخالفة خداش لأمره ثم وجه إليهم بكير بن ماهان بعد ذلك وكتب معه إليهم يعلمهم كذب خداش فلم يصدقوه واستخفوا به فعاد بكير إلى محمد فبعث معه بعصى مضببة بعضها بحديد وبعضها بنحاس فجمع بكير النقباء والشيعة ودفع إلى كل واحد منهم عصا فعلموا أنهم مخالفون لسيرته فتابوا ورجعوا.

وما زال السر مكتوماً والدعوة إلى ولد العباس جارية والنقباء يعملون على جمع القلوب واستمالة الناس حتى كانت سنة تسع وعشرين ومائة هجرية ظهر أبو مسلم الخراسانى فكان تمام الأمر على يديه. قال جماعة الكتاب: وأبو مسلم هذا هو إبراهيم بن عثمان بن بشار بن سدوس بن جودزده من ولد بزرجمهر الفارسى ويكنى أبا إسحق ولد بأصبهان ونشأ بالكوفة وكان أبوه أوصى إلى عيسى بن موسى السراج فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين. وقال بعضهم: إنه من أهل ضياع بنى معقل العجلية بأصبهان أو غيرها من الجبل وكان اسمه إبراهيم ويلقب حيكان وكان مع أبى موسى السراج صاحبه يخرز الأعنة ويعمل السروج وله معرفة بصناعة الأدم

والسروج فكان يحملها إلى أصبهان والجبال والجزيرة والموصل ونصيبين وآمد وغيرها يتجر فيها فاتصل بإبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس الإمام أحد الأئمة الاثنى عشر من ولد العباس فتخيل فيه النجابة والفتوّة وتحقق أن الأمر يتم على يديه لبنى العباس فقال له: غيّر اسمك فإنه لا يتم لنا الأمر إلا بتغيير اسمك فسمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم ويكنى أبا مسلم وكان له من العمر يومئذ تسع عشرة سنة ثم زوّجه إبراهيم الإمام ابنة عمران بن إسماعيل الطائى المعروف بأبى النجم وهى بخراسان مع أبيها فبنى بها أبو مسلم بخراسان وولدت له ابنتين فاطمة وأسماء وفاطمة هى التى تذكرها الخرمية فى مذهبهم الذى دعاهم إليه خداش، قال ابن خلكان: ونشأ أبو مسلم عند عيسى بن معقل بن عمير أخى إدريس بن معقل جد أبى دلف العجلى برستاق فايق فلما ترعرع اختلف مع ولده إلى المكتب فخرج أديبًا لبيبًا يشار إليه فى صغره ثم إنه اجتمع على عيسى بن معقل وأخيه إدريس بقايا من الخراج تقاعدا من أجلها عن حضور مؤدّى الخراج بأصبهان فأنهى عامل أصبهان خبرهما إلى خالد بن عبد الله القسرى والى العراقين فأنفذ خالد من الكوفة من حملهما إليه بعد قبضه عليهما فتركهما خالد فى السجن فصادفا فيه عاصم بن يوسف العجلى محبوساً بسبب من أسباب الفساد وقد كان عيسى بن معقل قبل أن يقبض عليه أنفذ أبا مسلم إلى قرية من رستاق فايق لاحتمال غلتها فلما اتصل به خبر عيسى بن معقل باع ماكان احتمله من الغلة وأخذ ما كان اجتمع عنده من ثمنها ولحق بعيسى بن معقل فأنزله عيسى بداره فى بنى عجل وكان يختلف إلى السجن ويتعهد عيسى وإدريس ابنى معقل وكان قد قدم الكوفة جماعة من نقباء الإمام محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب مع عدّة من الشيعة الخراسانية فدخلوا على العجليين السجن مسلمين فصادفوا أبا مسلم عندهم فأعجبهم عقله ومعرفته وكلامه وأدبه ومال هو إليهم ثم عرف أمرهم وأنهم دعاة واتفق مع ذلك أن هرب عيسى وإدريس من السجن فعدل أبو مسلم من دور بنى عجل إلى هؤلاء النقباء ثم خرج معهم إلى مكة حرسها الله تعالى فأورد النقباء على إبراهيم بن محمد الإمام وكان قد تولى الإمامة بعد وفاة أبيه عشرين ألف دينار ومائتى ألف درهم وأهدوا إليه أبا مسلم فأعجب به وبمنطقه وعقله وأدبه وقال لهم هذا عضلة من العضل وأقام أبو مسلم عند الإمام يخدمه حضراً وسفراً ثم إن النقباء عادوا إلى الإمام وسألوه رجلاً يقوم بأمر خراسان فقال: إنى جرّبت هذا الأصبهانى وعرفت ظاهره وباطنه فوجدته حجراً لا يرض ثم دعا أبا مسلم وقلده الأمر وأرسله إلى

خراسان فكان من أمره ما كان وكان إبراهيم الإمام قد أرسل إلى أهل خراسان سليمان بن كثير بن الحرانى يدعوهم إلى أهل البيت فلما بعث أبا مسلم أمر من هناك بالسمع والطاعة وأمره أن لا يخالف سليمان بن كثير فكان أبو مسلم يختلف ما بين إبراهيم وسليمان. اهـ.

ويقال: إن أبا مسلم المذكور ولد بمدينة جى الأصبهانية وكان أول ظهوره بمرو يوم الجمعة لتسع بقين من رمضان سنة تسع وعشرين ومائة والوالى بخراسان يومئذ نصر بن سيار الليثى من قبل مروان بن محمد المنبوز بالحمار آخر خلفاء بنى أمية فكتب نصر يومئذ إلى مروان يقول:

أرى جذعا ان يثن لم يقو ريض　　عليه فبادر قبل أن يثني الجذع

وكان مروان يومئذ مشغولاً عن أبى مسلم بغيره ممن خرج بالجزيرة وغيرها فلم يجبه عن كتاب نصر بن سيار ولم يكن أبو مسلم يومئذ إلا فى خمسين رجلا فكتب نصر ثانية إلى مروان يقول:

أرى خلل الرماد وميض نار　　ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالزندين تورى　　وإن الحرب أولها كلام
لئن لم يطفها عقلاء قوم　　يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب ليت شعري　　أأيقاظ أمية أم نيام
فإن كانوا لحينهم نيامًا　　فقل قوموا فقد حان القيام

فلم يرد عليه الجواب ولما علم مروان بخبر إبراهيم الإمام وتخلف الناس إليه وتقربهم منه سير رجلاً للقبض عليه ووصف له صفته وهى صفة أبى العباس لأنه كان يسمع أن فى الكتب أن من كانت هذه صفته يفنيهم ويسلبهم ملكهم، قال ابن أشعث: قال خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك بن مروان أما إذا كان الفتق من سجستان فليس عليك منه بأس إنما كنا نتخوّف لو كان من خراسان يعنى حيث غلب أبو مسلم. وقال محمد بن على بن عبد الله لنا ثلاثة أوقات موت الطاغية يزيد بن معاوية ورأس المائة وفتق إفريقية فعند ذلك يدعو لنا دعاة ثم تقبل أنصارنا من المشرق حتى ترد خيلهم ويستخرجون ما كنز الجبارون . اهـ.

وقال مروان لرسوله إن اسم الذى تقبض عليه إبراهيم بن محمد فلما وصل الرسول أخذ أبا العباس بالصفة التى قال له عنها مروان. وقد كان إبراهيم مختفيًا

فظهر وأمن جانب الرسـول فقال جماعة لرسول مـروان انك إنما أمرت بالقبض على إبراهيم وهذا الذى قـبضت عـليه عـبد الله فـأخذ الرسـول بقـولهم وخلى عن أبى العبـاس وقبض على إبراهيم فـانطلق به إلى مروان وتحـقق إبراهيم أنه مقـتول فنعى نفسه إلى أهل بيته وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبى العباس عبد الله وبالسمع له والطاعة وأوصى إلى أبى العـباس وجعله الخليفة بعـده فسار أبو العبـاس بمن معه من أهل بيته حتى قدموا الكوفة فى صفـر وشيعتهم من أهل خراسان بظاهرالكوفة. ولما وصل رسول مروان ومعه إبراهيم دخل به على مـروان فقال مروان: ليست هذه الصفة التى وصفت لك فقال هذا إبراهيم الذى سميتـه فأمر به مروان فحبسوه وأعاد جماعة أخر فى طلب أبى العباس.

وكان من تمام حظ أبى مـسلم وقوع الخلاف بين الكرمانى ونصـر عاملى مروان على مرو فسير أبو مسلم النقباء إلـى طخارستان فما دون بلخ ومرو الروذ والطالقان وخوارزم يدعون الناس إلـى طاعة بنى العباس. وقال لهم إن أعـجلكم عدوّكم دون الوقت بالأذى والمكروه فـقـد حل لكم أن تدفعـوا عن أنفـسكم وتجـرّدوا السيـوف وتجاهدوا أعداء الله ومن شغله منكم عـدوّه عن الوقت فلا حرج عليكم أن تظهروا بعد الوقت، وكان قد اشتدّ الخلاف بين الكرمانى ونصر عاملى مروان وقامت الحرب بينهما وحمى وطيـسها فاشتدّت عزيمة أبو مـسلم وبث دعاته بين الناس وأظهر أمره بلا تحاش فأتاه فى ليلة واحدة أهل ستين قرية فـلما كانت ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان من السنة أى سنة تسع وعشرين ومـائة عقد اللواء الذى كان الإمام بعث به الذى يسمـونه الظل على رمح طوله ثلاثة عشـر ذراعا وهو يتلو: ﴿**أذن لـلـذيـن يقاتِلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير**﴾ ولبـسوا السـواد هـو وسليمـان ابن كثير وأخـوة سليمان ومواليه ومن كان أجاب الدعوة من أهل سـفيذنج وأوقدوا النيران ليلتهم تلك لشيعتهم وكانت علامتهم فتجمع إليه الناس حين أصبحوا معدّين فقال لهم إنى مـؤوّل لكم الظل والسحاب. أن السحـاب يطبق الأرض وأن الأرض كمـا لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليـفة عبـاسى إلى آخر الدهر ففـرحوا بمقالته واشتدت عزائمهم.

وقدم عـلى أبى مسلم الدعـاة بمن أجاب الدعـوة فكان أوّل من قدم عليـه أهل التقادم مع أبى الوضاح فى تسعمائة راجل وأربعة فرسان ومن أهل هرمز فرّه جماعة وقدم مع أبى القـاسم محرز بن إبراهيم الجـوبانى ألف وثلاثمائة راجل وستة عـشر فارسًا ودخلوا جميعاً إلى معسكر أبى مسلم وهم يصيحون بأصوات التهليل والتكبير

وكان أبو مسلم قد عسكر بسفيذنج فلما رأى هذه الجموع فرح بها وحصن حصن سفيذنج ورمه وسد دروب سفيذنج ولبث على هذا الحال إلى يوم عيد الفطر فأمر أبو مسلم فى ذلك اليوم سليمان بن كثير أن يصلى به وبالشيعة صلاة العيد ونصب له منبرا بالعسكر ورسم له أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة. قال بعض الكتاب: وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة قبل الصلاة وبالآذان والإقامة، ورسم له أيضاً بست تكبيرات تباعاً ثم يقرأ ويركع بالسابعة ويكبر فى الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعًا ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتح الخطبة بالتكبير ثم يختمها بالقرآن وكان بنو أمية يكبرون فى الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفى الثانية ثلاث تكبيرات فلما قضى سليمان الصلاة نهض أبو مسلم والشيعة إلى طعام قد أعده لهم فأكلوا فرحين مسرورين، ولم يمض إلا القليل حتى خرج الكرمانى ونصر إلى القتال فى واقعة يقال لها واقعة الخندقين فاقتتلوا قتالاً شديداً فلما استيقن أبو مسلم أن كلا الفريقين قد أثخن صاحبه وأنه لا مدد لهم جعل يكتب إلى أصحاب الكرمانى يذم أصحاب نصر وإلى أصحاب نصر يذم أصحاب الكرمانى حتى صار هوى الفريقين معه وأقبل حتى نزل بين خندق الكرمانى وخندق نصر فهابه الفريقان وبعث إلى الكرمانى يقول له: إنى معك ففرح الكرمانى بذلك فانضم أبو مسلم إليه فلما علم نصر بذلك أكبره جدا وأرسل إلى الكرمانى يقول ويحك لا تغتر فوالله إنى لخائف عليك وعلى أصحابك منه وطال بين الفريقين الأخذ والرد فمال الكرمانى إلى مقالة نصر وخرج ليكتب كتاب الصلح بينه وبين نصر فأبصر نصر منه غرّة فوجه إليه نحوا من ثلاثمائة فارس فالتقوا بها واشتد القتال بينهما فطعن الكرمانى فى خاصرته فخر عن دابته فأخذوه وقتلوه وأمر نصر فصلبوا جثته وصلبوا معها سمكة فانضم حينئذ علىّ بن الكرمانى بمن كان مع أبيه إلى عسكر أبى مسلم وقاتلوا نصرا قتالا شديداً وطالت الحرب بين أبى مسلم ونصر بن سيار فكانت سجالا والدعوة قائمة والأحزاب تكثر واختلفت كلمة العرب وتفرقوا عن قتال أبى مسلم وأصحابه بعد أن كانوا يدا واحدة عليه ثم دخل أبو مسلم إلى مرو والقتال قائم فيها بين علىّ بن الكرمانى وأصحابه ونصر بن سيار ومضى أبو مسلم إلى قصر الإمارة وأرسل إلى الفريقين أن كفوا ولينصرف كل فريق إلى عسكره فلم يروا بدّا من الكف عن القتال وصفت مرو لأبى مسلم فأمر بأخذ البيعة من الجند وكان الذى يأخذها أبو منصور طلحة بن رزيق أحد النقباء عالماً بحجج الهاشمية ومعايب الأموية وكان النقباء أثنى عشر رجلاً عدد حوارى المسيح اختارهم محمد بن على من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله إلى خراسان سنة ثلاث ومائة وأربع ومائة، وكانت البيعة: أبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله ﷺ

وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى إلى بيت الله الحرام وعلى أن لا تسألوا رزقا ولا طعما حتى يبتدئكم به ولاتكم.

ووردت الأخبار إلى أبى العباس بما صار إليه أمر أبى مسلم وكان يومئذ بالحميمة فهم بالمسير منها إلى الكوفة فأعلم أهل بيته بعزمه فوافقوه وخرجوا معه وكانوا أخوه أبو جعفر المنصور وعبد الوهاب ومحمد أبناء إبراهيم الإمام وأعمامه داود وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد بنو علىّ بن عبد الله بن عباس وما زالوا حتى قدموا الكوفة فلقيهم أبو سلمة الخلال أحد مقدمى شيعتهم فأنزلهم دار الوليد بن سعد مولى بنى هاشم وكتم أمرهم عن الناس نحوا من أربعين ليلة فلم يعلم بهم أحد لا من القواد ولا من الشيعة وكان إذا سئل عن الإمام أبى العباس يقول: لا تعجلوا وكان أبو سلمة يميل إلى جعل أمر الخلافة فى آل أبى طالب ولكنه كان يرى دون ذلك صعوبات وجعل جماعة من الشيعة يترددون على الإمام فى مخباه ويأتمرون بأمره حتى اتفق جماعة من القواد على أن يلقوا الإمام ويتفقوا معه على ما فيه المصلحة والظهور بعد هذا الانكماش فساروا إليه ودخلوا عليه وسلموا عليه بالخلافة وعزوه فى أخيه إبراهيم الإمام ورجعوا فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول فلبسوا السلاح واصطفوا لخروج أبى العباس وأتوا بالدواب فركب أبو العباس وركب من معه من أهل بيته ودخلوا دار الإمارة فلبث بها برهة لطيفة ثم خرج إلى المسجد فخطب وصلى بالناس ثم صعد المنبر فقال مقالته التى سيأتى ذكرها فى محلها، قيل التقى داود بن على وابنه موسى بأبى العباس وأهل بيته وهم فى طريقهم إلى الكوفة فسألهم داود عن خبرهم فقص عليه أبو العباس قصتهم وأنهم يريدون الكوفة ليظهروا بها ويظهروا أمرهم فقال له داود: يا أبا العباس تأتى الكوفة وشيخ بنى أمية مروان بن محمد بحرّان مطل على العراق فى أهل الشام والجزيرة وشيخ العرب يزيد ابن هبيرة بالعراق فى جند العرب فقال: ياعمى من أحب الحياة ذل ثم تمثل بقول الأعشى:

فما ميتة إن متها غير عاجز ... بعار إذا ما غالت النفس غولها

فالتفت داود إلى ابنه موسى. وقال: صدق والله ابن عمك فارجع بنا معه نعش أعزاء ونموت كرماء فرجعوا جميعاً فكان عيسى بن موسى يقول إذا ذكر خروجهم من الجهمية يريدون الكوفة، أن نفرا أربعة عشر رجلاً خرجوا من دارهم وأهلهم يطلبون ما طلبنا لعظيمة همتهم كبيرة أنفسهم شديدة قلوبهم . اهـ. وتمت البيعة بعد ذلك لأبى العباس على ما سيذكر فى محله.

(المقالة الخامسة)
(فى الخلفاء العباسيين وفيها فصول)

(الفصل الأول)
(فى خلافة أبى العباس السفاح)

كان أول خلفاء الدولة العباسية السفاح وهو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس الهاشمى بويع له بالخلافة فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة يوم الجمعة ثالث عشرى ربيع الأول أى سنة تسع وأربعين وأربعمائة ميلادية وصعد المنبر حين بويع له فقام فى أعلاه وصعد محمد بن داود بن علىّ فقام دونه فتكلم أبو العباس فقال: الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه وكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا فأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوّام به والذابين عنه والناصرين له فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها وخصنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته وأنشأنا من آبائنا وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته جعله من أنفسنا عزيزا عليه ما عنتنا وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتابا يتلى عليهم فقال تبارك وتعالى فيما أنزل من محكم كتابه ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**﴾. وقال تعالى: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى**﴾. وقال: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾. وقال: ﴿**وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى**﴾. وقال: ﴿**واعلموا إنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى**﴾ فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا وأجزل من الفىء والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا وفضلاً علينا والله ذو الفضل العظيم، وزعمت الشامية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم ولم أيها الناس وبنا هدى الله الناس بعد ضلالاتهم وبصرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد

هلكتهم وأظهر بنا الحق ودحض الباطل وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ورفع بنا الخسيسة وتمم بنا النقيصة وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل التعاطف والبر والمواساة فى دنياهم وإخواناً على سرر متقابلين فى آخرتهم فتح الله ذلك منة وبهجة لمحمد ﷺ . فلما قبضه الله إليه وقام بالأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم حووا مواريث الأمم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خماصا منها ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها بما ملأ الله لهم حينا حتى أسقوه فلما أسقوه انتقم منهم بأيدينا وردّ علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا ليمنّ بنا على الذين استضعفوا فى الأرض وختم بنا كما افتتح بنا وإنى لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله ياأهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم عليها وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح . اهـ.

وكان موعوكا فاشتد عليه الوعك فجلس على المنبر وقام عمه داود على مراقى المنبر فقال: الحمد لله شكرا الذى أهلك عدوّنا وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ ، أيها الناس الآن أقشعت حنادس الدنيا وانكشف غطاؤها وأشرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها وبزغ القمر من مبزغه وأخذ القوس باريها وعاد السهم إلى منزعه ورجع الحق فى نصابه فى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم، أيها الناس إنا والله ما خرجنا فى طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا نحفر نهرا ولا نبنى قصرا وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبنى عمنا وما كرهنا من أموركم فلقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم واستنزالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسول الله ﷺ وذمة العباس رحمه الله علينا أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ تبا تبا لبنى حرب بن أمية وبنى مروان آثروا فى مدتهم العاجلة على الآجلة والدار الفانية على الدار الباقية فركبوا الآثام وظلموا الآنام وانتهكوا المحارم وغشوا بالجرائم وجاروا فى سيرتهم فى العباد وسنتهم فى البلاد وخرجوا فى أعنة المعاصى وركضوا فى ميدان الغى جهلا باستدراج الله وأمنا لمكر الله فأتاهم بأس الله بياتا وهم نائمون فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق

فبعدا للقوم الظالمين وأدالنا الله من مروان وقد غره بالله الغرور أرسل لعدو الله فى عنانه حتى عثر فى فضل خطامه أظن عدو الله أن لن نقدر عليه فنادى حزبه وجمع مكايده ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحا ضلاله وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا، أيها الناس أن أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة لأنه كاره أن يخلط بكلام الجمعة غيره وإنما قطعه عن استتمام الكلام شدة الوعك فادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية فقد بدلكم الله مروان عدوّ الرحمن وخليفة الشيطان المتبع السفلة الذين أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين بالشاب المكتهل المتمهل المقتدى بسلفه الأبرار الأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ومناهج التقوى، فعج الناس له بالدعاء ثم قال: ياأهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا وأبلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا وأراكم الله بهم ما لستم تنتظرون فاظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم وأدالكم على أهل الشام ونقل إليكم السلطان وأعز الإسلام ومنّ عليكم بإمام منحه العدالةَ وأعطاه حسن الإيالة فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ولا تخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم وأن لكل أهل بيت مصرا وإنكم مصرنا ألا وأنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد، وأشار بيده إلى أبى العباس السفاح، واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام والحمد لله على ما أبلانا وأولانا.

ثم نزل أبو العباس ومشى داود بن على أمامه حتى دخل القصر وأجلس أخاه أبا جعفر المنصور ليأخذ البيعة على الناس فى المسجد فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم المغرب وجنهم الليل فدخل القصر ولما تمت له البيعة على وجه ما ذكر أنفذ أخاه المنصور والياً على الجزيرة وأذربيجان وأرمينيا وولى عمه داود المدينة ومكة واليمن واليمامة وولى ابن أخيه عيسى الكوفة وسوادها وكان على الشام عمه عبد الله وعلى مصر أبو عون بن يزيد وعلى خراسان والجبال أبو مسلم وجعل عمه سليمان على البصرة وكور دجلة والبحرين وعمان واستعمل عمه إسماعيل بن عليّ على الأهواز واشتد فى الانتقام من بنى أمية وبالغ فى تنكيل من بقى من الذرارى ومحا آثارهم وقتل سليمان بن هشام وغيره من كبار القوم الذين كانوا مع الأمويين بإغراء الشريف وكان خصيصاً به حيث أنشده يوماً هذه الأبيات:

لا يغـرنك مـا ترى من رجـال إن تحـت الـضلـوع داء دويـا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فـوق وجـهـهـا أمـويا

وقد كان السفاح أمّن سليمان بن هشام المذكور، وتطاولت أيدى العباسيين إلى نبش قبور جميع بنى أمية بدمشق وهتكوا حرمة الأموات فلما أتوا إلى قبر هشام وجدوا جسمه صحيحاً فأمر بصلبه ثم حرقه بالنار فحرق وأفلت من الأمويين عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل حيث فرّ هارباً إلى الأندلس فقبلوه وأسس الخلافة الأموية فى قرطبة سنة تسع وثلاثين ومائة هجرية أى نحو سنة ست وخمسين وسبعمائة ميلادية. وكان من أمره وأمر من ملك بعده ما لا علاقة لنا به هنا، وقتل سليمان بن علىّ بن عبد الله بن عباس جماعة من بنى أمية وألقاهم فى الطرق فأكلتهم الكلاب وصارت تطوف بمشاش عظامهم فى الأزقة وأخذ بثأر إبراهيم ابن محمد والحسين بن علىّ بن أبى طالب من قاتليهما بالكيل الوافى.

ولما قتل مروان بأبى صير بمصر كما تقدم بقيت نساؤه وذراريه بالكنيسة وكان قد وكل بهنّ خادماً وأمره أن يقتلهنّ جميعاً إذا هو قتل. فلما قتل مروان كبس أصحاب صالح بن علىّ بن عبد الله بن العباس على من بالكنيسة وأخذوا نساء مروان وبناته وسيروهن إلى صالح بن علىّ فلما دخلن عليه تقدمت ابنة مروان الكبرى فقالت: ياعم أمير المؤمنين حفظ الله لك من أمرك ما تحب حفظه نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا فقال والله لا أستبقى منكم واحداً ألم يقتل أبوك ابن أخى إبراهيم الإمام؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن علىّ بن الحسين وصلبه فى الكوفة؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان؟ ألم يقتل ابن زياد الدعى مسلم بن عقيل؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علىّ وأهل بيته؟ ألم يخرج إليه بحرم رسول الله ﷺ سبايا فأوقفهنّ موقف السبى؟ ألم يحمل رأس الحسين وقد قرع دماغه فما الذى يحملنى على الإبقاء عليكن؟ قالت فليسعنا عفوكم فقال أما هذا فنعم وإن أحببت زوّجتك ابنى الفضل فقالت: وأىّ عز خير من هذا بل تلحقنا بحرّان فحملهنّ إليها فلما دخلنها ورأين منازل مروان رفعن أصواتهنّ بالبكاء و أكثرن من العويل، وخاف العمال الذين كانوا على عهد بنى أمية فمنهم من استأمن وتخلى عن العمالة ومنهم من تحصن وقاتل مع أهل عمالته كأبى الورد مجزة بن الكوثر بن زفر بن الحرث الكلابى وكان من أصحاب مروان وقواد عسكره فلما شاع خبر خروجه انضم إليه جماعة كثيرة من أهل قنسرين وأهل حمص وتدمر ومعهم أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن

معاوية فدعوا إليه وقالوا هذا السفياني الذى كان يذكر وهم فى نحو من أربعين ألفا فعسكروا بمرج الأخرم فسار عبد الله بن على لقتالهم وكان يقاتل حبيب بن مرة المرى بالبثنية وحوران فاقتتلوا قتالا شديدا وثبت أبو الورد وأصحابه وقتل من أصحاب عبد الله خلق كثير فاشتد عبد الله فى قتال أبى الورد وثبت حتى انهزم أصحاب أبى الورد وانكشف ولم يبق معه إلا خمسمائة من فرسانه فقتلوا جميعهم وهرب أبو محمد ومن معه حتى جاءوا تدمر فأمّن عبد الله أهل قنسرين ودخلوا تحت الطاعة وبايعوه فرحل عنهم إلى دمشق وقد خرج أهلها فلما علموا بحضوره إليهم خافوا وعادوا إلى الطاعة فأمّنهم ولم يؤاخذهم بما كان منهم . قال أصحاب التاريخ: وكان حرب عبد الله وأبى الورد فى سلخ ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائة.

ولما رأى قسطنطين ملك الروم من اختلال الأمور وسقوط الدولة الأموية وقيام العباسيين وعدم استقرار أمرهم نشط إلى رد ما أخذه المسلمون من أملاك الروم فجهز جيشا على ملطية وكمخ فنازل كمخ أولا وقاتلها قتالاً عنيفا فهزم من بها من المسلمين شر هزيمة وانقلب على ملطية وراسل أهلها فى الاستسلام والخروج من البلد إلى أى بلد أخرى من بلاد المسلمين فلم يقبلوا فنصب المنجنيقات وعزم على الرمي على البلد فأذعنوا وسلموا البلد على الأمان وانتقلوا إلى بلاد الإسلام وحملوا ما قدروا على حمله من متاعهم وألقوا ما لم يقدروا على حمله بالآبار والمجارى وتفرقوا فى الجزائر ثم سار ملك الروم إلى قاليقلا وحاصرها وفتحها عنوة على يد قائد جيوشه كوشان الأرمنى وغنم وسبى منها ثم رحل عنها واسترجع صقلية وعمر فيها الحصون والمعاقل وعززها بمراكب الحرب تطوف بالجزيرة وتذب عنها وتغزو ما تصادفه من مراكب المسلمين التى تحمل التجارة ، ومع هذا كله فقد دانت للسفاح الأمور وعلت كلمته واستوزر أبا مسلمة حفصا الخلال وهو أول من لقب بالوزير واستمر اللقب لمن بعده إلى زمن الصاحب واستمر الوزراء من بعده على هذا الحال ولما كانت سنة ست وثلاثين ومائة عقد السفاح لأخيه أبى جعفر عبد الله بن محمد بالخلافة من بعده وجعله ولى عهد المسلمين ومن بعد أبى جعفر ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على وجعل العهد قريب وختمه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى فلم يتم عليه هذا الحرب حتى مات بالأنبار لثلاث عشرة ليلة مضت من ذى الحجة وقيل لاثنتى عشرة مضت منه بالجدرى وعمره ثلاث وثلاثون سنة وقيل ست وثلاثون وقيل ثمان وعشرون فكانت ولايته من وقت قتل مروان إلى أن مات أربع سنين ومن يوم أن بويع بالخلافة إلى أن مات أربع سنين وثمانية أشهر

وقيل وتسعة أشهر وقد كان قبل موته تحوّل من الحيرة إلى الأنبار. قال ابن خلكان فى ترجمة السفاح إن السفاح نظر يوماً فى المرآة وكان من أجمل الناس وجها فقال: اللهم إنى لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك ولكنى أقول اللهم عمرنى طويلا فى طاعتك متمتعا بالعافية قال فما استتم كلامه حتى سمع غلاما يقول لغلام آخر الأجل بينى وبينك شهران وخمسة أيام فتطير من كلامه. وقال حسبى الله ولا حول ولا قوّة إلا بالله عليه توكلت وبه استعنت فما مضت الأيام المذكورة حتى أخذته حمى فمرض ومات بعد شهرين وخمسة أيام بالجدرى بالأنبار بالمدينة التى بناها وسماها الهاشمية وكان أبيض مليحا جميلاً حسن اللحية والهيئة. قال الإمام أبو الفرج بن الجوزى وغيره إن السفاح خطب يوماً فسقطت العصا من يده فتطير من ذلك فقام رجل من أصحابه ومسح العصا وناوله إياها وأنشد:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عينا بالإياب المسافر

فسرى عنه وسر بذلك.

ومات فى أيام السفاح تاودوروس بطرك الإسكندرية بعد أن أقام إحدى عشرة سنة فأقيم بعده ميخائيل وهو سادس أربعيهم وأصله من دير بومقار وفى أيام تاودوروس المذكور خالفت القبط من مدينة رشيد من جور العمال وتسلطهم فقاتلهم عبد الملك بن موسى بن نصير عامل مصر يومئذ وقاتلوه قتالاً عظيماً وما زالوا حتى هزمهم وقبض على ميخائيل البطرك فاعتقله وألزمه بمال كثير فسار بأساقفته فى أعمال مصر يسأل أهلها فوجدهم فى شدة عظيمة وعبودية لا تطاق فعاد إلى الفسطاط حيث عبد الملك ودفع له ما حصل عليه فأفرج عنه ثم لم يلبث أن قبض عليه بعد أيام قلائل وأنزل به بلاء كبيراً وبطش بالنصارى وأعمل فيهم السيف وأحرقت فى هذه الأثناء مصر وجميع غلاتها وأسر كثيراً من النساء الراهبات ببعض الديارات ونهب ما فيها وخربها تخريباً وراود عبد الملك إحدى النساء الراهبات عن نفسها فاحتالت عليه ودفعته عنها بأن رغبته فى دهن معها إذا دهن به الإنسان جسده لا يعمل فيه السيف ووثقته بأن مكنته من التجربة فى نفسها فتمت حيلتها عليه وأخرجت زيتا ودهنت به نفسها ثم مدت عنقها فضربها عبد الملك بسيفه أطار رأسها فعلم أنها اختارت الموت على الزنا. رحمها الله وما زال البطرك وكبار القبط فى الاعتقال مقيدين بالحديد يتجرعون مضض الشدّة وألم الضيق حتى أفرج عنهم فى

خلافة السفاح أى بعد زوال دولة بنى أمية وذهاب ملكهم وظهور الدولة العباسية ، وقد خلع السفاح أبا عون عبد الملك المذكور وولى بدله صالح بن علىّ ثم صرفه وأعاد أبا عون المذكور سنة سبع وثلاثين ومائة للهجرة حيث مات السفاح وبموت السفاح قام بالأمر بعده أخوه أبو جعفر المنصور.

(الفصل الثانى)

(فى خلافة أبى جعفر المنصور)

ثم قام بالأمر بعد السفاح أخوه أبوجعفر المنصور وهو عبد الله بن محمد المنصور بويع له بالخلافة يوم وفاة أخيه سنة ست وثلاثين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ميلادية بعهد منه وكان السفاح قد ولاه إمرة الحاج فأتته الخلافة بمنزل صفية فقال: صفت لنا إن شاء الله ، وكتب إلى أبى مسلم الخراسانى يستدعيه فأقبل أبو مسلم عليه فأخبر أبو جعفر بخبر موت السفاح ثم بكى وجزع جزعًا شديدًا فقال له أبو مسلم: ولم هذا الجزع وقد أتتك الخلافة؟ قال: أتخوّف شر عمى عبد الله بن علىّ وشغبه علىّ فقال: لا تخفه فأنا أكفيكه إن شاء الله فسرى عنه وبايع له أبو مسلم والناس وأقبلا حتى أتيا الكوفة وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق وأرسلوا فى طلب البيعة إلى المنصور فلما جاء الخبر بذلك إلى عبد الله بن علىّ وكان عبد الله يومئذ بدلوك وهى بأفواه الدروب فى عسكر الصائفة أمر مناديه أن ينادى الصلاة جامعة فاجتمعوا عليه فقرأ عليهم الكتاب بوفاة السفاح ثم دعا الناس إلى بيعته وقال لهم: اعلموا أنه لما أراد السفاح أن يوجه الجنود لقتال مروان بن محمد دعا بنى أبيه فأرادهم على المسير إليه فقال من انتدب منكم فسار إليه فهو ولىّ عهدى فلم ينتدب غيرى وعلى هذا خرجت من عنده وقتلت من قتلت ، وشهد له بعض قوّاده بذلك فبايعوه ثم سار عبد الله حتى نزل حران وقاتل من بها وضيق عليها وكان أبو جعفر المنصور قد عاد من مكة ومعه أبو مسلم الخراسانى فسيره لقتال عبد الله فسار أبو مسلم فى جنوده فقاتل عبد الله عند نصيبين خمسة أشهر وحمل أهل الشام حملة رجل واحد على عسكر أبى مسلم فأزالوا صفهم وجالوا جولة فانهزم عسكر أبى مسلم فأمر أبو مسلم مناديا فنادى ياأهل خراسان ارجعوا فإن العاقبة لمن اتقى فتراجع الناس وارتجز أبو مسلم يومئذ فقال:

من كـــان ينوي أهـله فـــلا رجع   فـــرّ من الموت وفي الموت وقع

فلمـا كان يوم الثلاثاء أو الأربـعاء لسبع خـلون من جمادى الآخـرة سنة ست وثلاثين ومائة التـقوا فاقتـتلوا فمكر بهم أبو مسلـم وأمر أحد قوّاده أن يعبى الميمنة أكثرها إلى الميسرة ويترك فى الميمنة أشـد الجند بأسا فلما رأى ذلك أهل الشام كشفوا ميســرتهم وانضموا إلى ميمنتـهم بإزاء ميسرة أبى مسلم فـأمر أبو مسلم أهل القلب فحملوا على من بقى فى ميـمنته على ميسرة أهل الشام فحطموهـم فانهزم أصحاب عبد الله وتركـوا عسكرهم فأخذ أصحـاب أبو مسلم ما فيه وأرسل أبو مـسلم الخبر بذلك إلى المنصور وهرب عبد الله إلى البصرة ونزل عند أخيه سليمان بن علىّ فأقام زمانا مختفيا وأمّن أبو مسلم الناس بعد هزيمة عبد الله وكف عنهم فلما علم المنصور بما جرى لعبد الله أرسل أبا الخصيب إلى أبى مـسلم ليكتب ما أصاب من أموال عبد الله فأراد أبو مسلم قتله وقال: أنا أمين عـلى الدماء خائن فى الأموال وشتم المنصور فرجع أبو الخصـيب إلى المنصور فأخبـره بما جرى له فخاف المنصـور من رجوع أبى مسلم إلى خـراسان لئلا يفسـد عليه الأمر فكتب إليـه يقول: إنى قد وليتك مـصر والشام فهى خـير لك من خراسان فوجـه إلى مصر من أحببـت وأقم بالشام فتكون بقرب أميـرالمؤمنين فإنى أحب لقاءك ، فلما أتاه الكتاب غـضب وقال يولينى الشام ومصر وخراسان لى ، فكتب الرسول إلى أبى جعفر المنصور بذلك وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمـعا على الخلاف وسار يريد خراسان فانتـقل المنصور من الأنبار إلى المدائن، قال صـاحب الكامل: وكتب إلى أبى مسـلم فى المسير إليـه فكتب إليه أبو مسلم وهو بالزاب: إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكـرمه الله عدوّ إلا أمكنه الله منه وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان إن أخـوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء فنحن نافرون عن قربك حريـصون على الوفاء لك ما وفيت حريون بالسـمع والطاعة غير أنها من بعيد حيـث يقارنها السلامة فإن أرضاك ذلك فأنا كأحـسن عبيدك وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ممـا أبرمت من عهدك ضنا بنفسى ، فلمـا وصل الكتاب إلى المنصـور كتب إلى أبى مسلم قـد فهمت كتـابك وليست صفتك صـفة أولئك الوزراء الغشيشة ملوكهم الذين يتـمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم فإنما راحـتهم فى انتـشار نظام الجـماعـة فلو سوّيت نفـسك بهم فأنت فى طـاعتك ومناصـحتك واطلاعك بما حـملت من أعبـاء هذا الأمر على مـا أنت به وليس مع الشريطة التى أوجـبت منك سمعـا ولا طاعة وحمل إلـيك أمير المؤمنين عـيسى بن

موسى رسالة لتسكن إليها إن أصغيت. وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك فإنه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من الباب الذى فتحه عليك.

فخرج أبو مسلم مراغما وأخذ طريق حلوان فقال المنصور لعمه عيسى بن علىّ ومن حضر من بنى هاشم: اكتبوا إلى أبى مسلم فكتبوا إليه يعظمون أمره ويشكرونه ويسألونه أن يتم على ما كان منه وعليه من الطاعة ويحذرونه عاقبة البغى ويأمرونه بالرجوع إلى المنصور وبعث المنصور الكتاب مع أبى حميد المروروذى وقال له: كلم أبا مسلم بألين ما تكلم به أحدا منه وأعلمه أنى رافعه وصانع به ما لم يصنعه به أحد إن هو صلح وراجع ما أحب فإن أبى أن يرجع فقل له: يقول لك أمير المؤمنين لست من العباس وإنى برىء من محمد إن مضيت مشاقا ولم تأتنى إن وكلت أمرك إلى أحد سواى وإن لم آل طلبك وقتالك بنفسى ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك ولا تقولن هذا الكلام حتى تيأس من رجوعه ولا تطمع منه فى خير ، قال: فسار أبوحميد فقدم على أبى مسلم

بحلوان فدفع إليه الكتاب. وقال له الناس يبلغونك عن أمير المؤمنين ما لم يقله وخلاف ما عليه منك حسدا وبغيا يريدون إزالة النعمة وتغييرها فلا تفسد ماكان منك وكلمه وقال: يا أبا مسلم إنك لم تزل أمير آل محمد يعرفك بذلك الناس وما ذخر الله لك من الأجر عنده فى ذلك أعظم مما أنت فيه من دنياك فلا تحبط أجرك ولا يستهوينك الشيطان ، فقال له أبو مسلم متى كنت تكلمنى بهذا الكلام فقال: إنك دعوتنا إلى هذا الأمر وإلى طاعة أهل بيت النبىّ ﷺ بنى العباس وأمرتنا بقتال من خالف ذلك فدعوتنا من أرضين متفرقة وأسباب مختلفة فجمعنا الله على طاعتهم وألف ما بين قلوبنا وأعزنا بنصرنا لهم ولم نلق منهم رجلاً إلا بما قذف الله فى قلوبنا حتى أتيناهم فى بلادهم ببصائر نافذة وطاعة خالصة أفتريد حين بلغنا غاية منانا ومنتهى أملنا أن تفسد أمرنا وتفرق كلمتنا وقد قلت لنا من خالفكم فاقتلوه وإن خالفتكم فاقتلونى فأقبل أبو مسلم على أبى نصر مالك بن الهيثم. فقال: أما تسمع ما يقول لى هذا ما كان بكلامه يامالك قال: لا تسمع قوله ولا يهولنك هذا منه لعمرى ما هذا كلامه ولما بعد هذا أشدّ منه فامض لأمرك ولا ترجع فوالله لئن أتيته ليقتلنك ولقد وقع فى نفسه منك شىء لا يأمنك أبدا ثم شاور أبو مسلم غيره من أصحابه فأشاروا عليه بأن لا يذهب إلى أبى جعفر المنصور وأن ينزل الرى ويقيم بها فإن استقام له المنصور استقام هو له أيضاً وإن أبى المنصور كان أبومسلم فى جنده

بالرىّ فدعا أبا حميد فقال له: ارجع إلى صاحبك فليس من رأيى أن آتيه وقد عزمت أن لا أعود إليه أبداً فلما يئس من رجوعه معه قال له ما أمره به أبوجعفر المنصور فوجم طويلاً ثم قال قم وقد أخذه الخوف وأوجس من المنصور الشر ، وكان المنصور قد كتب إلى أبى داود خليفة أبى مسلم بخراسان يقول له إن لك إمرة خراسان ما دمت على قيد الحياة فكتب أبو داود المذكور إلى أبى مسلم يقول ما هذا إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله فى أرضه وأهل بيت النبىّ ﷺ فلا تخالفن إمامك ولاترجعن إلا بإذنه ، واتفق وصول كتاب أبى داود ليد أبى مسلم وهو على تلك الحال مع رسول أبى جعفر المنصور فزاده خوفا وهما فأرسل إلى أبى حميد فقال له: اعلم إنى كنت عازما على المسير إلى خراسان ولكنى عدلت عن ذلك حتى أوجه أبا إسحق إلى أمير المؤمنين فيأتيني برأيه فإن أبا إسحاق ممن أثق به فلما تمثل بين يدى المنصور أجله وقال له اصرف أبا مسلم عن وجهه ولك منى ولاية خراسان وأجازه فانصرف أبو إسحق وقال لأبى مسلم: ما أنكرت قط شيئاً وما رأيت بنى هاشم إلا معظمين لحقك يرون لك ما يرون لأنفسهم وما زال به حتى حبب إليه الشخوص إلى حيث أمير المؤمنين والاعتذار إليه مما كان منه فلما قصد المسير قال له نيزك أحد قواده: هل أجمعت على الشخوص إلى أمير المؤمنين قال نعم وتمثل:

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الأقوام

فقال له نيزك: هذا ما اختاره الله تعالى لك واحفظ عنى واحدة إذا دخلت عليه فاقتله وبايع من شئت فإن الناس لا يخالفونك، وسار أبو مسلم قاصدا الخليفة فى ثلاثة آلاف رجل واستخلف أبا نصر فى عسكره. وقال له: أقم حتى يأتيك كتابى فإن كان مختوماً بنصف ختم فأنا الذى كتبته وإن أتاك بخاتم كامل فلم أكتبه فلما علم أبو أيوب وزير المنصور بقدوم أبى مسلم خاف منه ومن أصحابه وخشى أنهم يقتلون المنصور ثم يقتلونه هو أيضاً فدبر الحيلة على اغتيال أبى مسلم قبل أن يتمكن من الفتك بالخليفة وبه فدعا سلمة بن سعيد بن جابر وقال له تأتى أبا مسلم فتلقاه وتكلمه فى أن يعطيك كسكر إقطاعاً إذا ولاه أمير المؤمنين عند قدومه جميع ما وراء بابه فإن أمير المؤمنين على عزم أن يوليه ذلك ويريح نفسه فقال حتى يأذن لى أميرالمؤمنين فأذن له المنصور وأمره أن يبلغ سلامه وشوقه إلى أبى مسلم فسار إليه سلمة ولقيه فى الطريق وأخبره الخبر فطابت نفس أبى مسلم وزال عنه الخوف والغم فلما وصل تلقاه بنو هاشم والناس ثم قدم فدخل على المنصور فقبل يده وأمره أن ينصرف ويروّح نفسه لثلاثة فانصرف فلما كان الغد دعا المنصور عثمان بن نهيك

وأربعة من الحرس منهم شبيب بن واج وأبوحنيفة حرب بن قيس. قال صاحب الكامل: فرسم لهم بقتل أبى مسلم إذا صفق بيده وتركهم خلف الرواق وأرسل إلى أبى مسلم يستدعيه وكان عنده عيسى بن موسى يتغدّى فدخل على المنصور فقال له المنصور: أخبرنى عن نصلين أصبتهما مع عبد الله بن علىّ فقال أبو مسلم هذا أحدهما قال أرنيه فأنضاه وناوله إياه فوضعه المنصور تحت فراشه وأقبل عليه يعاتبه وقال له أخبرنى عن كتابك إلى السفاح تنهاه عن الموات أردت أن تعلمنا الدين فقال ظننت أن أخذه لا يحل فلما أتانى كتابه علمت أنه أهل بيت معدن العلم. قال فأخبرنى عن تقدمك إياى بطريق مكة قال كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس فتقدمتك للرفق قال: فقولك لمن أشار إليك بالانصراف إلىّ بطريق مكة حين أتاك موت أبى العباس إلى أن تقدم فنرى رأينا ومضيت فلا أنت أقمت حتى ألحقك ولا أنت رجعت إلىّ قال منعنى من ذلك ما أخبرتك من طلب الرفق بالناس وقلت تقدم الكوفة وليس عليك من خلاف قال فجارية عبد الله أردت أن تأخذها فقال لا ولكنى خفت أن تضيع فحملتها فى قبة ووكلت بها من يحفظها. قال فمن أرفقك وخروجك إلى خراسان. قال خفت أن يكون قد دخلك منى شىء فقلت آتى إلى خراسان فأكتب إليك بعذرى فأذهب ما فى نفسك قال فالمال الذى جمعته بخراسان قال أنفقته بالجند تقوية لهم واستصلاحا قال ألست الكاتب التى تبدأ بنفسك وتخطب عمتى آمنة ابنة علىّ وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعبا ثم قال: وما الذى دعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره فى دعوتنا وهو أحد فتياننا قبل أن يدخلك فى هذا الأمر؟ قال أراد الخلاف وعصانى فقتلته.

فلما طال عتاب المنصور قال أبو مسلم لا يقال هذا إلىّ بعد بلائى وما كان منى فقال له المنصور يابن الخبيثة والله لو كانت أمة مكانك لأجزأت إنما عملت فى دولتنا وبريحنا فلو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلا ، فعند ذلك أخذ أبو مسلم بيد المنصور وجعل يقبلها ويعركها ويعتذر إليه فقال له المنصور ما رأيت كاليوم والله ما زدتنى إلا غضبا فقال أبو مسلم دع هذا فقد أصبحت ما أخاف إلا الله تعالى فغضب المنصور وقال له قتلنى الله إن لم اقتلك ثم صفق بإحدى يديه على الأخرى فخرج إليه القوم وخبطوه بسيوفهم والمنصور يصيح أضربوه قطع الله أيديكم ، وكان أبو مسلم قد قال عند أول ضربة استبقنى ياأمير المؤمنين لعدوك قال لا أبقانى الله أبداً إن أبقيتك وأىّ عدو أعدى منك ، وكان قتله يوم الخميس لخمس بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين

ومائة هجرية أى سنة أربع وخمسين وسبعمائة ميلادية ، ولما قتل أبو مسلم أمر المنصور فأدرجوه فى بساط فدخل على المنصور جعفر بن حنظلة فقال له ما تقول فى أمر أبى مسلم؟ فقال: ياأمير المؤمنين إن كنت أخذت من رأسه شعرة فاقتل ثم اقتل ثم اقتل فقال المنصور: وفقك الله ها هو فى البساط فلما نظر إليه قتيلاً قال ياأمير المؤمنين عدّ هذا اليوم أول خلافتك فأنشد المنصور:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى   كما قر عينا بالإياب المسافر

ثم أقبل المنصور على من حضره وأبو مسلم طريح بين يده وأنشد:

زعمت أن الدين لا ينقضي   فاستوف بالكيل أبا مجرم

أشرب بكأس من كنت تسقي بها   أمرّ في الحلق من العلقم

ثم كتب أبو جعفر المنصور بعد قتل أبى مسلم إلى أبى نصر مالك بن الهيثم الذى استخلفه أبو مسلم فى عسكره كما تقدم يأمره على لسان أبى مسلم بنقل الأثقال وما خلف عنده وأن يقدم وختم الكتاب بخاتم أبى مسلم فلما رأى الخاتم تاما علم أن أبا مسلم لم يكتب فقال: فعلتموها ثم انحدر إلى همذان يريد خراسان فكتب المنصور لأبى نصر عهده على شهر زور وكتب إلى زهير بن التركى وهو على همذان أن مر بك أبو نصر فاحبسه فسبق الكتاب إلى زهير وأبو نصر فى همذان فلما وصل أبو نصر قال له زهير: قد صنعت لك طعاماً فلو أكرمتنى بدخول منزلى فأجابه إلى ذلك فقبض عليه زهير وحبسه ثم خلى عنه لما رأى عهد أمير المؤمنين معه ، ولما قتل المنصور أبا مسلم خطب الناس فقال: أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ولا تمشوا فى ظلمة الباطل بعد سعيكم فى ضياء الحق إن أبا مسلم أحسن مبتدأ وأساء معقبا وأخذ من الناس نبأ أكثر مما أعطانا ورجح قبيح باطنه على حسن ظاهره وعلمنا من خبث سريرته وفساد نيته ما لو علمه اللائم لنا فيه لعذرنا فى قتله وعنفنا فى إمهالنا وما زال ينقض بيعته ويخفر ذمته حتى أحل لنا عقوبته وأباحنا دمه فحكمنا فيه حكمه لنا فى غيره ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه وما أحسن ما قال النابغة الذبيانى للنعمان:

فمن أطاعك فانفعه بطاعته   كما أطاعك وأدلله على الرشد

ومن عصاك فعاقبه معاقبة   تنهي الظلوم ولا تقعد على ضمد

وقد تقدم الكلام على أبى مسلم المذكور بما فيه الكفاية ونقول هنا أيضاً إنه كان طاغية داهية جبارا ذا رأى وعقل وتدبير ، قيل إنه خطب يوماً فقام إليه رجل فقال ما

هذا السواد الذى أرى عليك؟ فقال على الفور حدثنى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله أن النبىّ ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة ياغلام اضرب عنقه فضرب عنقه فأطاحها ، قتل فى أيامه ستمائة ألف نفس صبرا ما عدا من قتل فى الحروب ، ولم يمض على قتل أبى مسلم إلا القليل حتى خرج رجل اسمه سنباد من خراسان يريد الأخذ بثأر أبى مسلم فكثرت جموعه وكان عامتهم من أهل الجبال فسار بهم إلى نيسابور فغلب عليها وعلى قومس والرى وقتل وسبا وتسمى فيروز اصبهبذ وأخذ خزائن أبى مسلم من الرى وكان قد تركها بها عند ذهابه إلى المنصور فسير إليه المنصور عسكرا كبيرا مع جمهور بن مرار العجلى فالتقوا بين همذان والرى وعزم جمهور على مطاولته لكثرة لمومه فأمر سنباد فحملوا السبايا من النساء المسلمات على الجمال فلما رأين عسكر المسلمين صحن وقمن فى المحامل ونادين وامحمداه ذهب الإسلام وبينما هما على هذا الصياح والعويل والنداء على عسكر المسلمين إذ ارتفعت ريح ووقعت فى أثوابهن فنفرت الإبل وعادت على أعقابها إلى عسكر سنباد فانفشلوا وتفرقوا وكان ذلك سبب الهزيمة وتبع المسلمون الإبل ووضعوا السيوف فى أصحاب سنباد فقتلوا منهم خلقا كثيراً وأسروا كذلك وسبوا نساءهم وذراريهم ثم قتل سنباد بين طبرستان وقومس.

ولما كانت سنة أربع وأربعين ومائة ظهر أمر محمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب بالمدينة فاهتم المنصور بأمر محمد حيث أعلموه بأن محمدا كان يزعم أن المنصور ممن بايعه بالخلافة يوم تشاور بنو هاشم بمكة فيمن يعقدون له الخلافة حين اضطرب أمر مروان بن محمد فخافه المنصور وخشى عاقبة ظهوره وشدد فى طلبه ووكل أمر البحث عنه لجماعة من رقيق الأعراب فخرجوا فى طلبه فى ظهر المدينة واستعمل المنصور كل حيلة ودهاء فى طلب ابنى عبد الله فأدرك عبد الله فحبسه وضيق عليه ونزل محمد فى بنى راسب بالبصرة فعلم المنصور بخبره فسار إليه فرحل محمد عن البصرة قبل وصول المنصور إليها فرجع المنصور واشتد خوف محمد وإبراهيم ابنى عبد الله وضاقت الدنيا عليهما فخرجا حتى أتيا عدن ثم سارا إلى السند ثم إلى الكوفة ثم إلى المدينة فكان إذا ظهر محمد بين الناس صاحوا وهللوا وقالوا ها هو المهدى وكان إذا أرسل المنصور فى طلبه اختفى فكتب المنصور إلى محمد بن خالد بن عبد الله القسرى وقد ولاه المدينة أن اكشف المدينة وأعراصها فى طلب محمد فطاف بيوت الناس وكبس على من بها فلم يجد محمداً فخلعه المنصور واستعمل رياح بن عثمان بن حيان المرى مكانه وألزمه

بالقبض على ابنى عبد الله فجدّ رياح فى طلبهما وشدد فأخبر أن محمدا فى شعب من شعاب رضوى جبل جهينة من أعمال ينبع فرسم إلى عامله هناك بطلب محمد فلما أحس محمد بذلك هرب على الأقدام وكان معه ولد صغير ولد له وهو فى الهرب وجارية له أيضاً فسقط ولده المذكور من الجبل عندما هم بالهرب فتقطع فبكى عليه وأنشد:

منخرق السربال يشكو الوجى ... مسكنه أطراف مرّ وحداد

شرّده الخوف فأزرى به ... كذاك من يكره حرّ الجلاد

قد كان في الموت له راحة ... والموت حتم في رقاب العباد

وما زال رياح يجدّ فى الطلب وينفق الأموال الطائلة للعيون والإرصاد حتى قبض على جميع بنى الحسين وقيدهم بالحديد وكان محمد قد بعث بابنه علىّ إلى مصر يدعو إليه الناس فقبض عليه عامل مصر وشيعه إلى المنصور فاعترف له وأخبره بأسماء أصحاب أبيه فأمر به فحبسوه وبقى محبوساً إلى أن مات المنصور ، وقتل المنصور أكثر بنى الحسن صبرا ولم يظفر بمحمد فلما كانت سنة خمس وأربعين ومائة ظهر محمد بالمدينة فى جمع من أصحابه فكسر أبواب السجن وأخرج من به وقبض على رياح وأخيه عباس وابن مسلم بن عقبة المرى فحبسهم فى دار الإمارة ثم خرج إلى المسجد فصعد على المنبر فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ، قال صاحب الكامل: ثم قال أما بعد فإنه قد كان من أمر هذا الطاغية عدوّ الله أبى جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندا لله فى ملكه وتصغيرا للكعبة الحرام وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى، وإن أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين والأنصار المرأسين اللهم إنهم لأحلوا حرامك وحرموا حلالك وأمّنوا من أخفت وأخافوا من أمّنت اللهم فأحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا ، أيها الناس إنى والله ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندى أهل قوة ولا شدة ولكن اخترتكم لنفسى والله ما جئت هذه وفى الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذ لى فيه البيعة .اهـ.

واستولى محمد على المدينة واستعمل عليها عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير ومال إليه الناس واستفتوا مالك بن أنس فى الخروج مع محمد وقالوا إن فى أعناقنا بيعة لأبى جعفر المنصور فقال: إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين فأسرع الناس إلى محمد ثم تفرق بعضهم لما سمعوا عن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب وكان شيخاً كبيراً أنه يقول إن محمدا مقتول لا محالة قيل فدس له

محمد من قتله، فلما ظهرت كلمة محمد بالمدينة أخذ المنصور فى التأهب لقتاله وشاور أصحاب الرأى فى أمره فحسنوا له التعجيل فى الخروج إليه وأخذه فكتب إليه المنصور يقول: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض**﴾ الآيتين ولك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم وأموالكم وأسوّغك ما أصبت من دم أو مال وأعطيك ألف ألف درهم وما سألت من الحوائج وأنزلك من البلاد حيث شئت وأن أطلق من فى حبسى من أهل بيتك وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك وأتبعك أو دخل فى شىء من أمرك ثم لا أتبع أحدا منهم بشىء كان منه أبداً فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إلىّ من أحببت يأخذ لك منى الأمان والعهد والميثاق وما تتوثق به والسلام. فلما وصل الكتاب إلى محمد كتب إليه يقول: ﴿**طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون**﴾ ، إلى ﴿**يحذرون**﴾ ، وأنا أعرض عليك من الأمان مثل ما عرضت علىّ فإن الحق حقنا وإنما ادّعيتم هذا الأمر بنا وخرجتم له بشيعتنا وحظيتم بفضله فإن أبانا عليا كان الوصى وكان الإمام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ثم قد علمت أنه لم يطلب الأمر أحد مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء وليس يمتّ أحد من بنى هاشم بمثل الذى نمتّ به من القرابة والسابقة والفضل وإنا بنو أم رسول الله ﷺ فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم إن الله اختارنا واختار لنا فوالدنا من النبيين محمد أفضلهم ومن السلف أولّهم إسلاماً علىّ ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة وأول من صلى إلى القبلة ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء العالمين وأهل الجنة ومن المولودين فى الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة وأن هاشماً ولد عليا مرتين وأن عبد المطلب ولد حسنا مرتين وأن رسول الله ﷺ ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين وإنى أوسط بنى هاشم نسبا وأصرحهم أبا لم نعرف فى العجمة ولم نتازع فى أمهات الأولاد فما زال يختار لى الآباء والأمهات فى الجاهلية والإسلام حتى يختار لى فى الأشرار فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة وأهونهم عذابا فى النار ولك الله علىّ إن دخلت فى طاعتى وأجبت دعوتى أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته إلا حدا من حدود الله أوحقا لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمنى من ذلك وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد لأنك أعطيتنى من الأمان والعهد ما أعطيته رجالا قبلى فأى الأمانات تعطينى أمان ابن هبيرة أم أمان عمك

عبد الله بن عليّ أم أمان أبى مسلم؟ قال صاحب الكامل: فلما ورد كتابه يعنى كتاب محمد على المنصور قال له أبو أيوب الورنانى دعنى أجبه عليه قال لا إذا تقارعنا على الأحساب فدعنى وإياه ثم كتب إليه المنصور، بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغنى كلامك وقرأت كتابك فإذا جلّ فخرك بقرابة النساء لتضلّ به الجفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ولا كالعصبة والأولياء لأن الله جعل العم أبا بدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا ولو كان اختار الله لهنّ على قدر قرابتهنّ كانت آمنة أقربهنّ رحما وأعظمهنّ حقا وأولى من يدخل الجنة ولكن اختار الله لخلقه على علمه فيما مضى منهم واصطفائه لهم وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها فإن الله لم يرزق أحدا من ولدها الإسلام لابنتا ولا ابنا ولو أن رجلاً رزق الإسلام بالقرابة لرزقه عبد الله ولكان أولاهم بكل خير من الدنيا والآخرة ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ولقد بعث الله محمدا ﷺ وله عمومة أربعة فأنزل الله عز وجل ، ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ فأنذرهم ودعاهم فأجاب اثنان أحدهما أبى وأبى اثنان أحدهما أبوك فقطع الله ولايتهما منه ولم يجعل بينه وبينهما إلاً ولا ذمه ولا ميراثاً ، وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا وابن خير الأشرار وليس فى الكفر بالله صغير ولا فى عذاب الله خفيف ولا يسير وليس فى الشر خيار ولا ينبغى لمؤمن يؤمن بالله أن يفتخر بالنار وسترد فتعلم وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون، وأما أمر حسن وأن عبد المطلب ولده مرتين وأن النبىّ ﷺ ولدك مرتين فخير الأولين والآخرين رسول الله ﷺ لم يلده هاشم إلا مرة ولا عبد المطلب إلا مرة، وزعمت أنك أوسط بنى هاشم وأصرحهم أما وأبا وإنه لم يلدك العجم ولم تعرف فيك أمهات الأولاد فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرا فانظر ويحك أين أنت من الله غدا فإنك قد تعدّيت طورك وفخرت على من هو خير منك نفسا وأبا وأولادا وأخا إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وما خيار بنى أبيك خاصة وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات الأولاد ما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من على ابن الحسين وهو لام ولد ولهو خير من جدك حسن بن حسين وما كان فيكم بعده مثل محمد بن علىّ وجدته أم ولد ولهو خير من أبيك ولا مثل ابنه جعفر وجدّته أم ولد وهو خير منك ، وأما قولك إنكم بنو رسول الله ﷺ فإن الله تعالى يقول فى كتابه ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم**﴾ ولكنكم بنو بنته وإنها لقرابة قريبة ولكنها لا يجوز لها الميراث ولا ترث الولاية ولا يجوز لها الإمامة فكيف تورث بها ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرج

فاطمة نهارا ومرضها سرا ودفنتها ليلا فأبى الناس إلا الشيخان ولقد جاءت السنة التى لا اختلاف فيهـا من المسلمين أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يورّثون ، وأما مـا فخرت به من على وسابقته فقد حـضرت رسول الله ﷺ الوفاة فأمر غيره بالصلاة ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه وكان فى الستة فتركوه كلهم دفعا له عنها ولم يروا له حقا فيها ، وأما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان وهو له متهم وقاتله طلحة والزبير وأبى سعد بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعده ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها وتفرّق عنه أصحابه وشك فيه شيعته قبل الحكومة ثم حكم حكمين رضى بهما وأعطاهما عهد الله وميثاقه فاجتمعا على خلعه ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية ورفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالا من غير ولايته ولا حله فإن كان لكم فيها شىء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه ثم خرج عمك حسين على ابن مرجانة فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه ثم خرجتم على بنى أمية فقاتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء وحملوهم وطاء فى المحامل كالسبى المجلوب إلى الشام حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم وسنينا سلفكم وفضلناه فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا إنما ذكرنا أباك لتقدمة ما له على حمزة والعباس وجعفر وليس ذلك كما ظننت ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين متسلما منهم مجتمعا عليهم بالفضل وابتلى أبوك بالقتال والحرب وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فى الصلاة المكتوبة فاحتججنا وذكرناهم فضله وصفاته وظلمناهم بما نالوا منه فلقد علمت أن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحاج الأعظم وولاية زمزم فصارت للعباس بين إخوته فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر فلم نزل نليها فى الجاهلية والإسلام ولقد قحط أهل المدينة فلم يتوسل عمر إلى ربه ولم يتقرّب إليه إلا بأبينا حتى يغيثهم الله فسقاهم الغيث وأبوك حاضر لم يتوسلوا به ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبىّ ﷺ غيره فكانت وراثته من عمومته ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم فلم ينله إلا ولده فالسقاية سقايته وميراث النبىّ له والخلافة فى ولده فلم يبق شرف ولا فضل فى جاهلية ولا إسلام فى الدنيا والآخرة إلا والعباس وارثه ومورثه وأما ما ذكرت من بدر فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله وينفق عليهم للأزمة التى أصابته ولو أن العباس أخرج بدر كارها لمات طالب وعقيل جوعاً وللحسا جفان عتبة وشيبة ولكنه كان من المطعمين فأذهب عنكم العار والسبة وكفاكم النفقة والمؤنة ثم فدى عقيلا يوم بدر فكيف تفخر علينا وقد غلبناكم فى الكفر وفديناكم وحزنا عليكم

مكارم الآباء وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ولم تدركوا لأنفكسم والسلام عليكم ورحمة الله . اهـ.

فلم يردّ عليه محمد ثم سير أبو جعفر المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى لقتال محمد بن عبد الله المذكور بالمدينة واستحثه فى ذلك وشدد عليه فقال عيسى: شاور عمومتك ياأميرالمؤمنين ثم قال فأين قول ابن هرثمة:

نزور امرأ لا يمخض القوم سره	ولا ينتجي الأدنين عما يحاول
إذا ما أتى شيئاً مضى كالذي أتى	وإن قال إني فاعل فهو فاعل

فقال المنصور: امض أيها الرجل فوالله ما يراد غيرى وغيرك وما هو إلا أن تشخص أنت أو أشخص أنا فسار وسير معه الجنود فلما صار عيسى بن موسى على قيد أربعة أميال من المدينة رتب عسكره وأرسل إلى محمد بن عبد الله بأمان أبى جعفر المنصور إن هو أطاع وانكف عما هو فيه فأبى محمد الطاعة وبرز عيسى بن موسى بعسكره للقتال وكذلك محمد بن عبد الله فاقتتلوا قتالاً عنيفاً للغاية فتفرق أكثر أصحاب محمد بن عبد الله حتى لم يبق معه إلا زهاء ثلثمائة رجل وذهب عيسى بن حضير وهو من أصحاب محمد فأحرق السجل الذى فيه أسماء الذين بايعوا محمدا خوفا من وقوعه فى يد عيسى بن موسى إذا هو دخل المدينة بعسكره وجعل محمد يقاتل بمن بقى معه حتى ضربه أحد أصحاب عيسى بن موسى دون شحمة أذنه اليمنى فبرك لركبته وجعل يذب عن نفسه ويقول ويحكم ابن نبيكم يجرح مظلوم فطعنه ابن قطحبة فى صدره فصرعه ثم نزل إليه فأخذ رأسه وأتى به عيسى وهو لا يعرف من هو لكثرة الدماء فأرسل عيسى الرأس إلى المنصور مع محمد بن أبى الكرام بن عبد الله بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فأمر المنصور فطيف برأس محمد فى الكوفة وسيره إلى الآفاق وكان قتل محمد المذكور فى يوم الأثنين بعد العصر لأربع عشرة خلت من شهر رمضان وكان محمد هذا يلقب بالمهدى وبالنفس الزكية ورثاه هو وأخاه عبد الله بن مصعب بن ثابت بهذه القصيدة:

ياصاحبيّ دعا الملامة واعلما	أن لست في هذا بألوم منكما
وقفا بقبر للنبيّ فسلما	لا بأس أن تقفا به وتسلما
قبر تضمن خير أهل زمانه	حسبا وطيب سجية وتكرما
رجل يفي بالعدل جور بلادنا	وعفا عظيمات الأمور وأنعما
لم يجتنب قصد السبيل ولم يحد	عنه ولم يفتح بفاحشة فما
لو أعظم الحدث ثان شيئاً قبله	أحدا لكان قصاره أن يسلما

ضحوا بإبراهيم خير ضحية فتصرمت أيامه فتصرما
بطلا يخوض بنفسه غمراته لا طائشا رعشا ولا مستسلما
حتى مضت فيه السيوف وربما كانت حتوفهم السيوف وربما
أضحى بنو حسن أبيح حريمهم فينا وأصبح نهبهم متقسما
ونساؤهم في دورهن نوائح سجع الحمام إذا الحمام ترنما
يتوصلون بقتله ويرونه شرفا لهم عند الإمام ومغنما
والله لو شهد النبيّ محمد صلى الإله على النبيّ وسلما
إشراع أمته الأسنة لابنه حتى تقطر من ظباتهم دما
حقا لأيقن أنهم قد ضيعوا تلك القرابة واستحلوا المحرما

ولما قتل محمد نصب عيسى بن موسى بعض الألوية بالمدينة ونادى مناديه: من دخل تحت لواء منها فهو آمن ثم أخذ أصحاب محمد فصلبهم ما بين ثنية الوداع إلى دار عمر بن عبد العزيز صفين وبقوا على هذا الحال ثلاثاً فأمر بهم عيسى فألقوهم على مقابر اليهود ثم بعد ذلك فى خندق فى أصل ذباب وزال عن أبى جعفر المنصور ما كان يلاقيه من خروج محمد بن عبد الله.

وخرجت فى خلافة المنصور أيضاً الراوندية وهم قوم من خراسان على مذهب أبى مسلم كانوا يقولون بالتناسخ ويزعمون أن روح آدم حلت فى عثمان بن نهيك وأن ربهم الذى يقيتهم هو الخليفة أبو جعفر المنصور فلما ظهروا وأتوا إلى قصر المنصور فى سنة إحدى وأربعين ومائة للهجرة أى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة للميلاد قالوا هذا ربنا فحبس المنصور رؤساءهم وكانوا نحو مائتين فهاجوا وماجوا وأخذوا نعشا وحملوه ومشوا به كأنهم يشيعون جنازة حتى بلغوا باب السجن فرموا بالنعش وكسروا باب السجن وأخرجوا أكابرهم ثم طلبوا المنصور وهم نحو ستمائة رجل فتنادى الناس وأغلقت الأبواب ووقع خوف عظيم وخرج المنصور ماشياً واجتمع عليه خلق كثير وكان معن بن زائدة مستخفيا خوفا لأنه كان حارب مع ابن هبيرة الشيبانى فظهر وحارب الراوندية بين يدى المنصور فعفا عنه وكان ذلك يوم استئصال الراوندية وقطع دابرهم ، وكره المنصور بعد واقعة الراوندية الإقامة بالهاشمية فدلوه على أن تكون إقامته على نهر الفرات ليكون متوسطا ما بين البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد وتكون دجلة والفرات خنادق مدينته فوقع اختياره على مكان اسمه بغداد ومعناه بستان دار واستشار المنجمين فى اختيار وقت البناء فأخبروه فوكل البناء لأربعة من القواد وأمر أن يكون عرض أساس القصر من أسفله

خمسين ذراعاً ومن أعلاه عشرين ذراعا ووضع بيده أول لبنة وهو يقول باسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ثم قال: ابنوا على بركة الله وأمر بإيوان كسرى فنقض ونقل إلى المدينة الجديدة ونقضت شرفة من القصر الأبيض فوجد أنه يلزم لنقض ذلك أكثر من كلفة الجديد فعدل عن ذلك فتمت على أحسن مثال وتوارد إليها السكان من العراقين والشام والجزيرة والعجم والعرب ومصر وغيرها وسميت دار السلام ثم تحوّل المنصور عن مدينة أبى هبيرة إلى بغداد مدينته الجديدة ونقل أبواب مدينة واسط إليها وخلع ابن أخيه عيسى بن موسى عن ولاية العهد وبايع لابنه محمد المهدى بعد أمور أضربنا عن إيرادها هنا صفحا.

وظهر فى أيامه رجل ادّعى النبوّة اسمه أستاذسيس فى جهة خراسان فاجتمع إليه نحو ثلثمائة ألف مقاتل من أهل هراة وباذغيس وسجستان فسار إليه الأجشم عامل مرورّوذ فى عسكر فقاتل الأجشم وأصحابه وتتابع القواد فى هجماته حتى هزمهم شر هزيمة فبعث المنصور وهو بالراذان خازم بن خزيمة إلى المهدى فى اثنى عشر ألفا فولاه المهدى حربه فزحف عليه فى عشرين ألفا وبعد قتال شديد تقوّى المسلمون عليه وقتلوا من عسكره نحو سبعين ألفا وأسروا نحو أربعة عشر ألفا وأسر أستاذسيس المذكور وبنوه وتفرق الباقوون من قومه. قيل إن أستاذسيس هذا هو أبو مراجل أم المأمون وابنه غالب خال المأمون وهو الذى قتل الفضل بن سهل ، ثم خرج المنصور قاصدا الحج فى سنة ثمان وخمسين ومائة للهجرة أى سنة أربع وسبعين وسبعمائة للميلاد فخرج ولده المهدى معه ليودّعه فقال له: يابنى إنى أهجس بالموت ولا أدرى إذا كنا نجتمع بعد هذا فإنى ولدت فى ذى الحجة ووليت فى ذى الحجة وأخشى أن أموت فى ذى الحجة من هذه السنة وإنى لذلك عزمت على الحج والآن أوصيك بخصال وما أظنك تفعل واحدة منها ، وكان له سفط قيل إن فيه أوراق عمه وعليه قفل لا يفتحه غيره فقال للمهدى: انظر إلى هذا السفط فاحتفظ به فإن فيه علم آبائك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فإن أحزنك أمر فانظر فى الدفتر الكبير فإن أصبت فيه ما تريد وإلا ففى الثانى حتى بلغ سبعة فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة فإنك واجد فيها ما تريد وما أظنك تفعل ، وانظر هذه المدينة وإياك أن تستبدل بها غيرها وقد جمعت لك فيها من الأموال ما إن انكسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا وما أظنك تفعل، وأوصيك

بأهل خراسان خيرا فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم فى دولتك ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عما كان منهم وتخلف من مات منهم فى أهله وولده وما أظنك تفعل، وإياك أن تبنى مدينة الشرقية فإنك لا تتم بناءها وأظنك ستفعل، وإياك أن تستعين برجل من بنى سليم وأظنك ستفعل ، وإياك أن تدخل النساء فى أمرك وأظنك ستفعل ، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى يجعل الله لك مخرجا فى كربك ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب ، يابنى احفظ محمدا ﷺ فى أمته يحفظك الله ويحفظ عليك أمورك ، وإياك والدم الحرام فإنه حوب عند الله عظيم وعار فى الدنيا لازم مقيم والزم الحدود فإن فيها خلاصك فى الآجل وصلاحك فى العاجل ولا تعتد فيها فتبور فإن الله تعالى لو علم أن شيئاً أصلح منها لدينه وأزجر عن معاصيه لأمر به فى كتابه ، واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أنه أمر فى كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى فى الأرض فسادا مع ما ذخر له من العذاب العظيم فقال: ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا** ﴾ الآية. فالسلطان حبل الله المتين وعروته الوثقى ودينه القيم فاحفظه وحصنه وذب عنه وأوقع بالملحدين واقمع المارقين منه وقابل الخارجين عنه بالعقاب ولا تتجاوز ما أمر الله به فى محكم القرآن واحكم بالعدل ولا تشطط فإن ذلك أقطع للشغب وأحسم للعدوّ وأنجع فى الدواء وعف عن الفىء فليس بك إليه حاجة مع ما خلفه لك وافتتح بصلة الرحم وبرّ القرابة وإياك والأثرة والتبذير لأموال الرعية واشحن الثغور واضبط الأطراف وأمن السبيل وسكن العامة وأدخل المرافق عليهم وادفع المكاره عنهم وأعدّ الأموال وأحرزها فإن النوائب غير مأمونة وهى من شيم الزمان وأعدّ الأكراع والرجال والجند ما استطعت وإياك وتأخير عمل اليوم إلى الغد فتتدارك عليك الأمور وتضيع وجدّ فى إحكام الأمور النازلات فى أوقاتها أوّلاً فأولا واجتهد وشمر فيها وأعدّ رجالا بالليل لمعرفة ما يكون فى النهار ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل وباشر الأمور بنفسك ولا تضجر ولا تكسل واستعمل حسن الظن وأسئ الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من تثبت على بابك وسهل أذنك للناس وانظر فى أمر النزاع إليك وكن بهم عينا غير نائمة ونفسا غير لاهية ولا تنم فإن أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ولا دخل عينه الغمض إلا وقلبه مستيقظ. هذه وصيتى إليك والله خليفتى عليك ، ثم ودّعه وبكى وبكى ولده المهدى ، وسار المنصور فاشتدّت به علته وأدركته منيته ببئر ميمونة محرما

بمرضه وهو القيام وذلك فى ذى الحجة وهو ابن ثلاث وستين سنة فكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما وأمه بربرية وكان طويلا أسمر نحيفاً خفيف اللحية رحب الجبهة وكأن عينيه لسانان ناطقان صارمان مهيبا ذا جبروت وسطوة وحزم ورأى وشجاعة وكمال عقل ودهاء وعلم وفقه وخبرة بالأمور.

قيل : ولما قرب من مكة فى حجته التى مات فيها رأى على جدار سطرين مكتوبين وهما

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت　　　سنوك وأمر الله لابدّ واقع

أبا جعفر هل كاهن أو منجم　　　لك اليوم من ريب المنية دافع

فلما قرأها تيقن فراغ أجله قيل فمات بعد ثلاثة أيام وقيل غير ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومات فى أيامه خائل بطرك الإسكندرية بعد أن أقام ثلاثاً وعشرين سنة فأقيم بعده مينا وهو سابع أربعيهم وفى أيام مينا هذا اشتدّ الولاة والعمال على القبط وضيقوا عليهم وساموهم الخسف فخرج منهم جماعة بناحية سخا وأخرجوا العمال وطردوا أرباب الجباية وذلك سنة سبعين وسبعمائة للميلاد أى سنة خمسين ومائة للهجرة فبعث إليهم يزيد بن حاتم بن قبيصة أمير مصر إذ ذاك عسكرا عظيماً فأتاهم القبط ليلا وقتلوا منهم عدة كثيرة وهزموا باقيهم شر هزيمة وشردوهم فاشتد البلاء بأسباب ذلك على النصارى فى الأقاليم القبلية والبحرية وزادوا فى التضييق عليهم حتى احتاجوا إلى أكل الميتة والجيف وهدمت جميع الكنائس بمصر فكان منها كنيسة العذراء التى بجوار أبى شنودة بمصر وهدمت أيضاً كنائس محارب قسطنطين فبذل أهل البلاد لسليمان بن علىّ أمير مصر يومئذ فى تركها خمسين ألف دينار فأبى فلما ولى بعده موسى بن عيسى أذن لهم فى بنائها فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة قاضى مصر يومئذ واحتجا بأن بناءها من عمارة البلاد وبأن الكنائس التى بمصر لم تبن إلا فى الإسلام فى زمن الصحابة والتابعين ، واستعمل جعفر المنصور فى أيامه على مصر موسى بن كعب التميمى بعد ولاية أبى عون التى كانت إلى سنة إحدى وأربعين ومائة فأقام موسى المذكور سبعة أشهر ومات وولى بعده محمد بن الأشعث الخزاعى ثم عزل سنة اثنتين وأربعين وولى نوفل بن الفرات ثم عزل نوفل وولى بعده حميد بن قحطبة الطائى ثم صرف سنة أربع وأربعين وولى يزيد بن حاتم المهلبى فأقام إلى سنة اثنتين وخمسين فعزل وولى محمد بن سعيد

فأقام إلى أن استخلف المهدى فعزله فى سنة تسع وخمسين ومائة ، ولما مات أبو جعفر المنصور ولى الخلافة بعده محمد المهدى ابنه.

(الفصل الثالث)

(فى خلافة محمد المهدى)

ثم قام بالأمر بعد أبى جعفر المنصور ابنه أبو عبد الله محمد المهدى بالله بويع له بالخلافة يوم مات أبوه المنصور بعهد منه وهو يومئذ ببغداد ثم بويع له البيعة العامة بها لإحدى عشرة خلت من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة للهجرة أى نحو سنة أربع وسبعين وسبعمائة للميلاد ، قال صاحب الكامل: ذكر علىّ بن محمد النوفلى عن أبيه قال: خرجت من البصرة حاجا فاجتمعت بالمنصور بذات عرق فكنت أسلم عليه كلما ركب وقد أشفى على الموت فلما صار ببئر ميمونة نزل به ودخلنا مكة فقضيت عمرتى وكنت أختلف إلى المنصور فلما كان فى الليلة التى مات فيها ولم نعلم صليت الصبح بمكة وركبت أنا ومحمد بن عون بن عبد الله بن الحرث وكان من مشايخ بنى هاشم وساداتهم فلما صرنا بالأبطح لقينا العباس بن محمد ومحمد بن سليمان فى خيل إلى مكة فسلمنا عليهما ومضينا فقلت لمحمد أحسب الرجل قد مات فكان كذلك ثم أتينا العسكر فإذا موسى بن المهدى قد صدر عن عمود السرادق والقاسم بن المنصور فى ناحية السرادق وسمعنا منهما بكاء وخرج أبو العنبر خادم المنصور مشقق الأقبية وعلى رأسه التراب وصاح واأمير المؤمنيناه فما بقى أحد إلا قام ثم تقدموا ليدخلوا عليه فمنعهم الخدم وقال ابن عياش المنتوف: سبحان الله أما شهدتم موت خليفة قط؟ اجلسوا فجلسوا وقام القاسم فشق ثيابه ووضع التراب على رأسه وموسى على حاله ثم خرج الربيع وفى يده قرطاس ففتحه فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف من بنى هاشم وشيعته من أهل خراسان دعاته المسلمين ثم بكى وبكى الناس. ثم قال: قد أمكنكم البكاء فانصتوا رحمكم الله ثم قرأ: أما بعد فإنى كتبت كتابى هذا وأنا حى فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة أقرأ عليكم السلام وأسأل الله أن لا يفتنكم بعدى ولا يلبسكم شيعاً ولا يذيق بعضكم بأس بعض ، ثم أخذ فى وصيتهم بالمهدى وإذكارهم البيعة له وحثهم على الوفاء بعهده ، ثم تناول يد الحسن بن زيد وقال قم فبايع فقام إلى موسى فبايعه الناس الأول فالأول ثم أدخل

بنو هاشم على المنصور وهو فى أكفانه مكشوف الرأس فحملناه حتى أتينا به مكة ثلاثة أميال قال فكأنى أنظر إليه والريح تحرك شعر صدغيه وذلك أنه كان وفر شعره للحلق وقد فصل خضابه حتى أتينا به حفرته وكان أول شىء ارتفع به على بن عيسى بن ماهان أن عيسى بن موسى أبى من البيعة فقال على بن عيسى بن ماهان والله لتبايعن أو لأضربن عنقك فبايع ثم وجه موسى بن المهدى إلى المهدى بخبر وفاة المنصور وبالبيعة له مع منارة مولى المنصور وبعث أيضاً بالقضيب والبردة وبخاتم الخلافة وقدم الخبر مع منارة فى منتصف ذى الحجة فبايعه أهل بغداد. قال بعض أهل التاريخ: إن الربيع كتم موت المنصور وألبسه ثيابه على أحسن ما كان يلبس وأسنده وجعل على وجهه كلة خفيفة يرى شخصه منها ولا يفهم حاله وأدخل أهله عليه وأدناهم منه ثم قرب منه هو (أى الربيع) كأنه يخاطبه ثم رجع إليهم وقال لهم أمير المؤمنين يقول لكم جددوا البيعة إلى المهدى فبايعوه ثم أخرجهم ولم يلبث أن خرج إليهم باكياً مشقق الجيب لاطماً رأسه وهو يصيح واأمير المؤمنيناه فعلموا بأن أمير المؤمنين مات. قالوا: فلما بلغ ذلك المهدى أنكره على الربيع وقال أما منعتك جلالة أمير المؤمنين أن تفعل به ما فعلت؟ وضربه. وقال آخرون لم يصح ضربه ، ولما استقرّ بالمهدى الخلافة تقرب منه جماعة من بنى هاشم وشدوا أزره وكلموه فى خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة لموسى الهادى بن المهدى ووافقته شيعة المهدى على ذلك أيضاً فسر المهدى هذا الأمر وأعجبه جدا وكتب إلى عيسى ابن موسى بالقدوم وهو بقرية الرحبة من أعمال الكوفة فأحس عيسى بالذى يراد منه فامتنع من القدوم فسير المهدى روح بن حاتم إلى الكوفة وولاه عمالتها وأمره أن يتصرف فى عيسى بن موسى ويضره فلم يجد روح سبيا للإضرار به لأنه كان لا يأتى من القرية إلى الكوفة إلا نادرا وألح المهدى على عيسى إنك إن لم تجبنى إلى أن تخلع نفسك من ولاية العهد لموسى وهارون استحللت دمك بمعصيتك ما يستحل من أهل المعاصى وإن أجبتنى عوّضتك منها ما هو أجدى عليك وأعجل نفعا ، فلم يقدم عليه وخاف انتقامه فوجه إليه المهدى عمه العباس بن محمد برسالة وكتب يستدعيه فلم يحضر معه فلما عاد العباس وجه إليه المهدى أبا هريرة محمد بن فرّوخ القائد فى ألف من أصحاب المهدى المتشيعين له وجعل مع كل واحد منهم طبلا وأمرهم أن يضربوا طبولهم جميعاً عندما يدخلون القرية التى بها عيسى فوصلوا إليها سحرا وضربوا طبولهم فخاف عيسى واضطرب اضطراباً شديداً ودخل عليه أبو هريرة وأمره بالشخوص معه فاعتل بالشكوى فلم يقبل منه وأخذه معه وأنزله دار

ومحمد بن سليمان فى عسكر المهدى فأقام أياماً يأتى فيها إلى المهدى فلا يكلمه بشيء ولا يرى ما يروعه.

واتفق أنه حضر الدار يوماً قبل حضور المهدى فجلس فى مقصورة للربيع وقد اجتمع شيعة رؤساء المهدى على خلعه فثاروا به وهو فى المقصورة فأغلق الباب دونهم فضربوا الباب بالعمد حتى كسروه وشتموا عيسى أقبح الشتم وجاء المهدى إلى مجلسه فأظهر إنكارا لما فعلوه فلم يرجعوا فبقوا على هذا الحال أياماً إلى أن كلمه فى ذلك أهل بيته وألح عليه المهدى فأبى وقال: إن عليه أيماناً فى أهله وماله فأحضر له من القضاة والفقهاء عدة فأتوه بما رأوا فأجاب إلى خلع نفسه فأعطاه المهدى عشرة آلاف ألف درهم وضياعه بالزاب وكسكر فكان خلعه لنفسه لأربع بقين من المحرم بايع للمهدى ولابنه موسى الهادى ثم جلس المهدى من الغد وأحضر أهل بيته وأخذ بيعتهم ثم خرج إلى الجامع وعيسى معه وخطب الناس وأعلمهم بخلع عيسى والبيعة للهادى ودعاهم إلى البيعة فسارع الناس إليها وأشهد على عيسى بالخلع، قال صاحب الكامل: فأنشد فى ذلك بعض الشعراء:

كره الموت أبو موسى وقد   كان في الموت نجاة وكرم
خلع الملك وأضحى ملبسا   ثوب لؤم ما ترى منه القدم

ولما دانت للمهدى الأمور وتم له ما أراد من البيعة للهادى تفرغ للغزو والجهاد فأرسل فى سنة تسع وخمسين ومائة عبد الملك بن شهاب المسمعى فى جمع كثير من الجند والمتطوّعة إلى بلاد الهند فركبوا البحر من فارس ونزلوا بأرض الهند وفتحوا بايزيد عنوة فلجأ أهلها إلى البلد فأحرقوه عليهم ثم أصاب المسلمين يومئذ وباء عظيم فرجع من بقى منهم وبرجوعهم عصفت بهم الرياح عند ساحل حوران فكسرت جميع سفنهم ولم ينج إلا النزر اليسير.

وتجهز أيضاً لحرب الروم فى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة للميلاد أى سنة ثلاث وستين ومائة للهجرة وجمع عسكره من خراسان ونحوها وقام إلى البدندون وترك ولده موسى ببغداد وأخذ معه هارون الرشيد ثم سمع وهو فى طريقه أن بحلب من الزنادقة شيء كثير فعرّج إليها وأقام بها أياماً فجمع سائر من بها من هذه الطائفة وقتلهم وأحرق كتبهم ثم نهض إلى جيحان وجيش ولده هارون الرشيد للغزو فتغلغل هارون فى البلد وفتح وأخضع وظفر وغنم وعاد بالغنائم، وظهر فى هذا الحين رجل اسمه يوسف ادّعى الولاية واستغوى خلقاً كثيراً وظهر أيضاً يوشيا وادّعى

النبوّة فبعث إليه المهدى جيشاً عظيماً وأتى به بعد قتال فصلبه ثم ظهر المقنع الخراسانى واسمه عطاء وكان رجلاً غريباً قيل إنه خيل للناس صورة قمر يطلع ويراه الناس عن بعد شاسع نحو شهرين فتبعه خلق كثير جداً فأرسل إليه المهدى جيشا وما زال يقاتله والحرب بينهم سجال حتى قتله وقد أشار ابن سينا إلى ما كان يصنع المذكور فقال:

إليك فما بدر المقنع طالعا   بأسحر من ألحاظ بدريّ المعمم

قيل: وتغالى المقنع فادّعى الربوبية واستمال جماعة وكان يقول بالحلول الإلهى فى الأنبياء كلهم إلى أن حل فيه فاتسعت كلمته وطارت شهرته وكبرت هيبته وعمر قلعة تسمى بسيام وقيل تكس بما وراء النهر من رستاق كش وتحصن بها وكان يقول بالتناسخ فاجتمع إليه أصحاب المهدى وحصروه فى قلعته وشدّدوا فى الحصار أياماً كثيرة فلما يئس من نفسه سقى نساءه سما فمتن ثم تناوله لنفسه فمات ودخل العسكر قلعته وقتلوا من بها من أصحابه بحد السيف قال بعض الكتاب وبعد أن تناول السم رمى بنفسه إلى النار خوفاً من أن العدوّ يلقى جسده وتبعه جنده فصارت القلعة خالية خاوية وكانت فعلته هذه سببا فى زيادة افتتان من بقى من شيعته بما وراء النهر حتى قالوا إنه صعد إلى السماء وكان قبل ذلك قد أعلمهم بأن روحه ستتحوّل إلى هيكل رجل أشمط على برذون أشهب وأنه يعود إليهم ويملكهم سائر المعمور من الأرض فكانوا ينتظرونه وهم يعرفون إلى ذلك الحين (بالمبيضة) وكان المقنع المذكور فى بداية أمره قصارا من أهل كاوه من أعمال مرو وكان مشوّه الخلق قصيرا أعور اتخذ له برقعا من الذهب فكان لا يسفر عن وجهه أبدا ولذلك سمى بالمقنع.

وكان المهدى مولعاً باللهو ويأذن بالشرب فى حضرته فنهاه عن ذلك وزيره يعقوب بن داود بن طهمان فألقاه فى السجن فقال فيه بشار بن برد :

بني أمية هبوا طال نومكم   إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا   خليفة الله بين الناي والعود

وبقى يعقوب مسجوناً إلى خلافة الرشيد فأخرجه وقد عمى فلحق بمكة وقتل المهدى بشارا المذكور لقوله هذين البيتين وهو أوّل من رتب البريد بين مكة والمدينة واليمن من بغال وإبل.

ومات المهدى بقرية من قرى ماسبذان وذلك أنه ساق خلف صيد فدخل خربة

فدق ظهره باب الخربة من قوّة سوق الفرس فتلف لوقته، وقيل بل سمته جاريته حسنة وذلك أنه خرج يريد الهادى بجرجان فلما بلغ ماسبذان عمدت حسنة جاريته إلى كمثرى فأهدتها إلى جارية أخرى كان المهدى يحبها وكانت سمت كمثراة منها وهى الأطيب فمر المهدى وكان يحب الكمثرى فأخذ تلك الكمثراة المسمومة وأكلها فصاح من وقته جوفى جوفى فسمعت حسنة وجاءت تبكي وتلطم وجهها وتقول: قصدت أن أنفرد بك فقتلتك ومات من يومه وقيل فى موته غير ذلك وهو أنه لما خرج إلى ماسبذان كان يريد خلع ابنه موسى الهادى والبيعة للرشيد بولاية العهد وتقديمه على الهادى فبعث إليه وهو بجرجان فى أن يخلع نفسه فأبى فبعث إليه فى القدوم عليه فضرب الرسول وامتنع فسار المهدى يريده فلما بلغ ماسبذان أكل طعاما ثم قال: إنى داخل إلى البهو أنام فلا توقظونى حتى أكون أنا الذى انتبه فدخله فنام ونام أصحابه فاستيقظوا ببكائه فأتوه مسرعين فقال وقف على الباب رجل فقال:

كأني بهذا القصر قد باد أهله ... وأوحش منه ربعه ومنازله
وصار عميد القوم من بعد بهجه ... وملك إلى قبر عليه جنادله
فلم يبق إلا ذكره وحديثه ... تنادى عليه معولات حلائله

فبقى بعد ذلك عشرة أيام ومات، ويحكى أيضاً أنه لما هم المهدى بالخروج إلى ماسبذان قدّم إلى حسنة حظيته أن تخرج معه فأرسلت إلى طوفيل بن توما النصرانى المنجم الرهاوى وكان رئيس المنجمين تقول: أشرت على أمير المؤمنين بهذا السفر فجشمتنا سفرا لم يكن فى الحساب فعجل الله موتك وأراحنا منك فلما بلغته الرسالة. قال للجارية: ارجعى إليها وقولى لها إن هذه الإشارة ليست منى وأما دعاؤك علىّ بتعجيل الموت فهذا الشيء قد قضى الله به وموتى سريع فلا تتوهمى أنه بدعوتك ولكن أعدّى لنفسك تراباً كثيراً فإذا مت أنا فاجعليه على رأسك، قيل فما زالت متوقعة تأويل قوله هذا إلى أن مات المهدى بعد عشرين يوماً، قال أبو الفرج: وكان طوفيل هذا على مذهب الموارنة الذين فى جبل لبنان من مذاهب النصارى وله كتاب فى التاريخ حسن ونقل كتاب أوميروس الشاعر على فتح مدينة إيليون فى قديم الدهر من اليونانية إلى السريانية بأبلغ ما يكون من العبارات .اهـ.

وكان موت المهدى لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة للهجرة أى نحو سنة خمس وثمانين وسبعمائة للميلاد ولم يوجد له نعش يحمل عليه فحمل على باب ودفن تحت شجرة جوز وله اثنتان وأربعون سنة ونصف وقيل ثلاث

وأربعون سنة وكانت خلافته عشر سنين وشهرا وكان جوادا ممدوحا محببا للرعية حسن الخَلَق والخُلُق يقال أن أباه خلف فى الخزائن مائة ألف ألف درهم وستين ألف ألف ففرقها ويقال إنه أجاز شاعرا بمائة ألف درهم.

واستعمل فى أيامه على مصر بعد عزله محمد بن سعيد فى سنة تسع وخمسين أبا ضمرة محمد بن سليمان كذا فى تاريخ ابن كثير وأما الجزار فقال أنه ولى بعد يزيد بن حاتم عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج التجيبى ثم ولى بعده أخوه فأقام سنة وشهرين ثم ولى بعده موسى بن على اللخمى سنة خمس وخمسين فأقام إلى سنة إحدى وستين ثم ولى عيسى بن اللخمى ثم ولى واضح مولى المنصور سنة اثنتين وستين ثم صرف من عامه وولى منصور بن يزيد الحميرى ثم ولى بعده يحيى بن داود أبو صالح الخراسانى ثم ولى سالم بن سوادة التميمى سنة أربع وستين ثم ولى إبراهيم بن صالح العباسى سنة خمس وستين ثم ولى موسى بن كعب مولى خثعم ثم ولى الفضل بن صالح العباسى سنة تسع وستين وهى السنة التى مات فيها المهدى كما تقدم.

ومات فى خلافة المهدى مينا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثمان سنين فأقاموا بعده يوحنا وهو ثامن أربعيهم وأصله من نبا وأبو صير وكان راهباً بدير أبو مقار، وفى أيامه خرج القبط بناحية بلهيت فبعث إليهم موسى بن على أمير مصر يومئذ جندا فقاتلوهم وطال القتال بينهم أياما ثم سكنت الفتنة وعاد العمال إلى مجاملتهم خوف اشتداد الفتنة فعادوا إلى ما كانوا عليه من الطاعة والسكون وكان فى أيام يوحنا هذا من الحوادث ما سيذكر فى محله.

(الفصل الرابع)

(فى خلافة موسى الهادى)

ثم قام بالأمر بعد محمد المهدى ابنه موسى الهادى بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة تسع وستين ومائة هجرية أى سنة خمس وثمانين وسبعمائة ميلادية وكان مقيما بجرجان يحارب أهل طبرستان وكان الرشيد مع المهدى بماسبذان فسار منها إلى بغداد بالجند وأرسل أحد القواد إلى الهادى بالخاتم والقضيب والتعزية والتهنئة، فلما

جاء الخبر إلى الهادى نادى فى عسكره بالرحيل وركب هو على البريد مجداً فبلغ بغداد فى عشرين يوماً فتلقاه الناس وبايعوه وكتب إلى الآفاق بوفاة المهدى والبيعة له واستوزر الربيع وجعل يتصرف فى الأمور فلم يمض على خلافته حول كامل حتى ظهر الحسين بن علىّ بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب بالمدينة، قال صاحب الكامل: وكان سبب ذلك أن الهادى استعمل على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فلما وليها أخذ أبا الزفت حسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن ومسلم بن جندب الشاعر الهذلى وعمر بن عبد السلام مولى آل عمر على نبيذ لهم فأمر بهم فضربوا جميعاً وجعل فى أعناقهم حبالاً وطيف بهم فى المدينة فجاء الحسين بن علىّ إلى العمرى. وقال له: قد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لا يرون به بأساً فلم تطوف بهم فأمر بهم فردوا وحبسهم ثم إن الحسين بن علىّ ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفلا الحسن بن محمد فأخرجه العمرى من الحبس وكان قد ضمن بعض آل أبى طالب بعضا وكانوا يعرضون فغاب الحسن بن محمد عن العرض يومين فأحضر العمرى الحسين بن علىّ ويحيى بن عبد الله وسألهما عنه وأغلظ لهما فحلف له يحيى أنه لا ينام حتى يأتيه به أو يدق عليه باب داره حتى يعلم أنه جاءه به فلما خرجا قال له الحسين: سبحان الله ما دعاك إلى هذا ومن أين تجد حسنا تحلف له بشىء لا تقدر عليه؟ فقال والله لانمت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف فقال له الحسين إن هذا ينقض ما كان بيننا وبين أصحابنا من الميعاد وكانوا قد تواعدوا على أن يظهروا بمنى وبمكة فى الموسم فقال يحيى قد كان ذلك فانطلقا وعملا فى ذلك من ليلتهم وخرجوا فى آخر الليل وجاء يحيى حتى ضرب على العمرى باب داره فلم يجده وجاءوا فاقتحموا المسجد وقت الصبح فلما صلى الحسين وقت الصبح أتاه الناس فبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه للمرتضى من آل محمد وجاء خالد البريدى فى مائتين من الجند وجاء العمرى ووزير بن إسحق الأزرق ومحمد بن واقد الشروى ومعهم ناس كثير فدنا خالد منهم فقام إليه يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن فضربه يحيى على أنفه فقطعه ودار له إدريس من خلفه فضربه فصرعه ثم قتلاه فانهزم أصحابه ودخل العمرى فى المسوّدة فحمل عليهم أصحاب الحسين فهزموهم من المسجد وانتهبوا بيت المال وكان فيه بضعة عشر ألف دينار وقيل سبعون ألفا وتفرق الناس وأغلق أهل المدينة أبوابهم فلما كان الغد اجتمع عليهم شيعة بنى العباس فقاتلوهم وفشت الجراحات فى الفريقين واقتتلوا إلى

الظهر ثم افترقوا ثم إن مباركاً التركى أتى شيعة بنى العباس من الغد وكان قدم حاجا فقاتل معهم فاقتتلوا أشد قتال إلى منتصف النهار ثم تفرقوا ورجع أصحاب الحسين إلى المسجد وواعد مبارك الناس فى الرواح إلى القتال فلما غفلوا عنه ركب رواحله وانطلق وراح الناس فلم يجدوه فقاتلوا شيئاً من قتال إلى المغرب ثم تفرقوا وقيل إن مباركاً أرسل إلى الحسين يقول له: والله لأن أسقط من السماء فتخطفنى الطير أيسر علىّ من أن تشوكنى شوكة أو أقطع من رأسك شعرة ولكن لابد من الأعذار فبيتنى فإنى منهزم عنك فوجه إليه الحسن وخرج إليه فى نفر فلما دنوا من عسكره صاحوا وكبروا فانهزم هو وأصحابه وأقام الحسين وأصحابه أياماً يتجهزون فكان مقامهم بالمدينة أحد عشر يوماً ثم خرجوا لست بقين من ذى القعدة فلما خرجوا عاد الناس إلى المسجد فوجدوا فيه العظام التى كانوا يأكلون وآثارهم فدعوا عليهم ولما فارق المدينة قال: ياأهل المدينة لا أخلف الله عليكم بخير فقالوا بل أنت لا أخلف الله عليك ولا ردك علينا وكان أصحابه يحدثون فى المسجد فغسله أهل المدينة، ولما أتى الحسين مكة أمر فنودى أيما عبد أتانا فهو حر فأتاه العبيد فانتهى الخبر إلى الهادى وكان قد حج تلك السنة رجال من أهل بيته منهم سليمان بن المنصور ومحمد بن سليمان بن علىّ والعباس بن محمد بن علىّ وموسى وإسماعيل ابنا عيسى بن موسى فكتب الهادى إلى محمد بن سليمان بتوليته على الحرب وكان قد سار بجماعة وسلاح من البصرة لخوف الطريق فاجتمعوا بذى طوى وكانوا قد أحرموا بعمرة فلما قدموا مكة طافوا وسعوا وأحلوا من العمرة وعسكروا بذى طوى وانضم إليهم من حج من شيعتهم ومواليهم وقوّادهم ثم إنهم اقتتلوا يوم التروية فانهزم أصحاب الحسين وقتل منهم وجرح وانصرف محمد بن سليمان ومن معه إلى مكة ولا يعلمون ما حال الحسين فلما بلغوا ذا طوى لحقهم رجل من أهل خراسان يقول البشرى البشرى هذا رأس الحسين فأخرجه وبجبهته ضربة طولى وعلى قفاه ضربة أخرى وكانوا قد نادوا الأمان فجاء الحسن بن محمد بن عبد الله أبو الزفت فوقف خلف محمد بن سليمان و العباس بن محمد فأخذه موسى بن عيسى وعبد الله بن العباس بن محمد فقتلاه فغضب محمد بن سليمان غضبا شديداً وأخذ رؤوس القتلى فكانت مائة رأس ونيفا وفيها رأس الحسين بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ وأخذت أخت الحسين فتركت عند زينب بنت سليمان واختلط المنهزمون بالحاج وأتى الهادى بستة أسرى فقتل بعضهم واستبقى بعضهم وغضب

على موسى بن عيسى فى قتل الحسن بن محمد وقبض أمواله فلم تزل بيده حتى مات وغضب على مبارك التركى وأخذ ماله وجعله سائس الدواب فبقى كذلك حتى مات الهادى، وأفلت من المنهزمين إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ فأتى مصر وعلى بريدها واضح مولى صالح بن المنصور وكان شيعيا لعلىّ فحمله على البريد إلى أرض المغرب فوقع بأرض طنجة بمدينة وليلة فاستجاب له من بها من البربر فضرب الهادى عنق واضح وصلبه وقيل إن الرشيد هو الذى قتله وأن الرشيد دس إلى إدريس الشماخ اليمامى مولى المهدى فأتاه وأظهر أنه من شيعتهم وعظمه وآثره على نفسه فمال إليه إدريس وأنزله عنده ثم إن إدريس شكا إليه مرضا فى أسنانه فوصف له دواء وجعل فيه سما وأمره أن يستن به عند طلوع الفجر فأخذه منه وهرب الشماخ ثم استعمل إدريس الدواء فمات منه فولى الرشيد الشماخ بريد مصر. قال أصحاب التاريخ: وولد لإدريس المذكور ولد جاءت منه الدولة الإدريسية ثم المغربية ثم المهدية ثم المراكشية عند بناء مراكش وكان تأسيسها فى سنة ثلاث وستين وأربعمائة هجرية أى نحو سنة سبعين وألف ميلادية.

ولما وضع رأس الحسين بين يدى الهادى قال: كأنكم قد جئتم برأس طاغوت من الطواغيت إن أقل ما أجزيكم أن أحرمكم جوائزكم فلم يعطهم شيئاً، وكان الحسين شجاعاً كريما قدم على المهدى فأعطاه أربعين ألف دينار ففرقها فى الناس ببغداد والكوفة وخرج من الكوفة لا يملك ما يلبسه إلا فرواً ليس تحته قميص، ولما فرغ الهادى من قتال الحسين وأصحابه ودانت له الأمور جدّ فى خلع هارون الرشيد والبيعة لابنه جعفر فوافقه على ذلك جماعة من قوّاده وجعلوا يعيبون الرشيد وينقصونه فى مجالسهم وأمر الهادى أن لا يسار بين يدى الرشيد بالحربة فاجتنبه عند ذلك الناس وتركوا السلام عليه وكان الذى يتولى أمور الرشيد بأمر الهادى يحيى بن خالد بن برمك فخوّفوا الهادى منه وقالوا إن الذى يفسد عليك أمرك إنما هو يحيى لا هارون فبعث إليه الهادى يتهدده ثم استدعاه ليلة فخاف وأوصى وتحنط وتمثل بين يديه فقال له: يايحيى مالى ولك قال مايكون من العبد إلى مولاه إلا طاعته فقال لا تدخل بينى وبين أخى وتفسد علىّ فقال من أنا حتى أدخل بينكما إنما صيرنى المهدى معه ثم أمرتنى أنت بالقيام بأمره فانتهيت إلى أمرك فسكن غضب الهادى وقد كان هارون أذعن لخلع نفسه فمنعه يحيى فلما أحضره الهادى وكلمه فى خلع هارون قال له: ياأمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وإن

تركتهم على بيـعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعـده كان ذلك أوكد للبيعة فـقال الهادى صدقت يايحـيى وسكت عنه فلم يرض بذلك القوّاد والشـيعة الذين بايعـوه وعادوا فحـملوا الهادى على معـاودة الرشيد بالخلـع فقبض على يحـيى بن خالد وحبـسه فأرسل إليـه يحيى يقول: عندى نصيـحة فأحضـره بين يديه فقال له ياأمـير المؤمنين أرأيت إن كان الأمر لا تبلغه ونسـأل الله أن يعدمنا قبله، يريد بذلك موت الهادى، أتظن الناس يسلمـون الخلافـة لجعـفر وهو لم يـبلغ الحنث أو يرضون به لصـلاتهم وحجهم وغزوهم قال: ما أظن ذلك فقال ياأمير المؤمنين أفتأمن أن يسمو إليها أكابر أهلك مثل فلان ويطمع فيها غـيرهم فتخرج من ولد أبيك والله لو أن هذا الأمر لم يعقده المهدى لأخيك لقد كان ينبغى أن تعقده أنت له فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدى ولكنى أرى أن تقرّ الأمر على أخيك فإذا بلغ جعفر أتيت بالرشيد فخلع نفسه له وبايعه فقبل قوله وقال له: نبهتنى إلى أمر لم أنتبه له وأطلقه ثم إن القواد عاودوا القول فى خلع الرشيد فأرسل الهادى إلى الرشـيد فى ذلك وشدد وضيق فقال يحيى للرشيد استـأذن أمير المؤمنين فى الخروج إلى الصيد فـإذا خرجت فابعد وادافع الأيام ففعل فأذن له فمضى إلى قصر بنى مقاتل فـقام أربعين يوماً ثم استدعاه فتعلل فشدّد فى طلبه فحضر ثـم خرج الهادى إلى حديقة الموصل فمرض بها واشـتدّ مرضه فلما ثقل أجمع جميع القـواد الذين كانوا بايعوا جعفرا على قـتل يحيى بن خالد ولكنهم عدلوا عن ذلك وخـافوا من الهـادى إن تراجعت إليه صـحته ولـم تطل أيام مرض الهادى حتى مات فى ربيع الأول سنة سبعين ومائة هجرية فكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر وقيل كانت أربعة عشر شهرا وكان عمره ستا وعشرين سنة وقيل ثلاثا وعشرين سنة ودفن بعيس اباذ الكبـرى فى بستانه، قيل إن وفـاته كانت من قبل جـوار لأمه الخيزران كانت أمرتهن بقتله وكان سبب ذلك أنه لما ولى الخلافة جعلت تستبدّ بالأمر حتى مـضى أربعة أشهر فـتزاحم الناس على بابها وكـانت المواكب تغدو وتروح إلى بابها فكلمته يوما فى حاجة لم يجد إلى إجابتـها إليها سبيلاً فقالت لابدّ من إجابتى فقـال والله لا قضيـتها لك قـالت إذن والله لا أسألك حاجـة أبداً قال لا أبالى والله فغضبت وقامت فقال مكانك والله وإلا أنا نفى من قرابتى من رسول الله ﷺ لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى وخاصتى لأضربن عنقه ولأقبضن ماله ما هذه المواكب التى تغدو وتـروح إلى بابك أما لك مغـزل يشغلك أو مصـحف يذكرك أو

بيت يصونك إياك وإياك لا تفتحى بابك لمسلم ولا ذمى فانصرفت وهى لا تعقل من الغيظ فوضعت جواريها عليه لما مرض فقتلنه بالغم والجلوس وقيل بل مات بقرحة فى جوفه، وكان طويلاً جسيماً أبيض مشربا بحمرة وكان بشفته العليا نقص وتقلص وكان أبوه قد وكل به خادماً يقول له موسى: أطبق فيضم شفته فلقب لذلك موسى أطبق، وكان شديدا جدًا على الزنادقة أصحاب مانى فأعمل فيهم القتل والتشريد والصلب بوصية من أبيه المهدى وذلك أنه قال له يوماً: يابنى إذا صار الأمر إليك فتجرّد لهذه العصابة يعنى أصحاب مانى فإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها من هذا إلى تحريم اللحوم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا ثم تخرجها إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور فارفع فيها الخشب وجرد السيف فيها وتقرب بأمرها إلى الله فإنى رأيت جدى العباس ﷺ فى المنام قلدنى سيفين لقتل أصحاب الاثنين، فلما ولى الهادى أعمل فيهم القتل وأمر أن يهيأ له ألف جذع ليرفع عليها كل من يأتون به من أصحاب مانى فمات ولم يدرك منشوده.

واستعمل على مصر فى خلافته علىّ بن سليمان العباسى فى سنة تسع وستين بعد عزله للفضل بن صالح العباسى ثم ولى موسى بن عيسى العباسى فبقى إلى أن مات الهادى فى سنة سبعين ومائة كما تقدم القول.

(الفصل الخامس)

(فى خلافة هارون الرشيد)

ثم قام بالأمر بعد الهادى أخوه هارون الرشيد بن محمد المهدى وكان أبوهما قد أخذ لهما ولاية العهد معا كما مر. بويع له بالخلافة فى الليلة التى مات فيها أخوه فى رابع عشر ربيع الأول سنة سبعين ومائة هجرية أى سنة ست وثمانين وسبعمائة ميلادية وله من العمر اثنتان وعشرون سنة وكان مولده بالرى وولد له فى تلك الليلة المأمون فكانت ليلة عجيبة لم ير مثلها فى بنى العباس وذلك لأنه مات فيها خليفة

وولد خليفة وولي خليفة. قيل لما مات الهادى جاء يحيى بن خالد إلى الرشيد وهو نائم فى فراشه فقال له: قم ياأمير المؤمنين فقال: كم تروعنى إعجابا منك بخلافتى فكيف تكون حالتى مع الهادى أن بلغه هذا فأعلمه بموته وأعطاه خاتمه فلبس ثيابه وخرج فصلى على الهادى بعيساباذ، ودخل خزيمة بن خازم فى الليلة التى مات فيها الهادى على جعفر بن الهادى فحمله من فراشه وقال له: لتخلعنها أو لأضربن عنقك فلم ير بداً من الإجابة إلى الخلع وركب من الغد خزيمة وأظهر جعفرا للناس فأشهدهم جعفر بالخلع وأقال الناس من بيعتهم، ولما بويع إلى هارون بالخلافة قلد يحيى بن خالد البرمكى وزارته وقال له: قد قلدتك أمر الرعية فاحكم فيها بما ترى وأعزل من رأيت واستعمل من رأيت ودفع إليه خاتمه فقال إبراهيم الموصلى فى ذلك.

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة فلما ولى هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذي الذي فهارون واليها ويحيى وزيرها

ورسم بعزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزا واحدا وسماها العواصم وعمر مدينة طرسوس وبذل الجهد فى مد نطاق ملكه وتأييد سلطانه وكان سعيد الطالع موفقا فى جميع أعماله وعزل عمر بن عبد العزيز العمري عن المدينة وولى مكانه إسحق بن سليمان بن عبد الله بن عباس ثم حج الرشيد ودخل مكة محرما وقسم فى الحرمين مالاً كثيراً، وفى سنة خمس وسبعين ومائة للهجرة قامت الفتنة بدمشق بين المضرية واليمانية فى ولاية عبد الصمد بن علىّ فجمع الرؤساء وسعوا فى الصلح فتكلموا مع بنى القين فأجابوا إليه وكلموا اليمانية فحاولوا وساروا إلى بنى القين وقتلوا منهم ستمائة نفر فاستنجد بنو القين قضاعة وسليما فلم ينجدوهم فاستجاشوا قيسا فأجابوهم وقتلوا من اليمانية نحو ثمانمائة واشتد القتال فعزل الرشيد عبد الصمد عن دمشق وولاها إبراهيم بن صالح فأحسن سياستها، وحج فى سنة ست وثمانين ومائة ومعه أولاده الثلاثة محمد الأمين وعبد الله المأمون والقاسم وكان قد ولى الأمين العهد وأعطاه العراق والشام إلى آخر المغرب وولى المأمون العهد بعده وضم إليه همذان إلى آخر المشرق وبايع لابنه القاسم من بعد المأمون ولقبه المعتصم وجعل خلعه وإثباته للمأمون وجعله فى حجر عبد الملك بن صالح وضم إليه الجزيرة والثغور والعواصم ومرّ بالمدينة فأعطى فيها ثلاثة أعطية واحد منه وآخر من الأمين وآخر من المأمون فبلغ ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ثم سار إلى مكة فأعطى مثلها وأحضر الفقهاء والقضاة والقواد وكتب كتابى

العهد وأشهد فيهما بالوفاء للأمين والمأمون وعلقهما فى الكعبة، فتطير الناس من ذلك وخافوه جدا وأشهد على أن ما فى عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع للمأمون وجدد له البيعة عليهم فى طبرستان وأرسل إلى بغداد فجدد له العهد على الأمين.

قال الكسائى: دخلت على الرشيد يوما فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام فقال: اقعد فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان فى مجلسه ولم يبق إلا خاصته فقال لى: ياعليّ ألا تحب أن ترى محمداً وعبد الله قلت ما أشوقنى إليهما ياأمير المؤمنين وأسرّنى بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما فأمر بإحضارهما فلم ألبث أن أقبلا ككوكبى أفق يزينهما هدوّ ووقار وقد غضا أبصارهما وقاربا خطوهما حتى وقفا على باب المجلس فسلما على أبيهما بالخلافة ودعوا له بأحسن الدعاء فأمرهما بالدنو منه فسير محمدا عن يمينه وعبد الله عن يساره ثم أمرنى أن أستقرئهما وأسألهما ففعلت فما سألتهما عن شيء إلا أحسنا الجواب فيه والخروج منه فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه ثم قال لى: ياعلى كيف ترى مذهبهما وجوابهما فقلت ياأميرالمؤمنين كما قال الشاعر:

أرى قمري مجد وفرعي خلافة يزينهما عرق كريم ومحتد

ياأمير المؤمنين هما فرع زكا أصله وطاب مغرسه وتمكنت فى الثرى عروقه وعذبت مشاربه أبوهما أغرّ نافذ الأمر واسع العلم عظيم الحلم يحكمان بحكمه ويستضيئان بنوره وينطقان بلسانه ويتقلبان فى سعادته فأمتع الله أمير المؤمنين بهما وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما فما رأيت أحدا من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب لساناً ولا أحسن ألفاظاً ولا أشدّ اقتدارا على تأدية ما حفظا منهما ودعوت لهما دعاء كثيراً وأمّن الرشيد على دعائى ثم ضمهما إليه وجمع يديه عليهما فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ثم أمرهما بالخروج فلما خرجا أقبل عليّ فقال: كأنك بهما وقد عم القضاء ونزلت مقادير السماء وبلغ الكتاب أجله قد تشتت كلمتهما واختلف أمرهما وظهر تعاديهما ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء وتقتل القتلى وتهتك ستور النساء، ويتمنى كثير من الأحياء أنهم فى عداد الموتى، قلت: أيكون ذلك ياأمير المؤمنين لأمر رؤى فى أصل مولدهما أو لأثر وقع لأمير المؤمنين فى مولدهما فقال: لا والله إلا بأثر واجب حملته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء . اهـ.

ويقال إن العماني الشاعر قام بحضرة الرشيد فلم يزل يحرضه على محمد ويحضه على تجديد العهد له فلما فرغ من كلامه قال له: أبشر ياعماني بولاية العهد له فقال أي والله ياأمير المؤمنين سرور العشب بالغيث والمرأة النزور بالولد والمريض المدنف بالبرء لأنه نسيج وحده وحامي مجده وشبيه جدّه قال: فما تقول في عبد الله؟ قال مرعى ولا كالسعدان فتبسم الرشيد وقال قاتله الله ما أعرفه بمواضع الرعية أما والله إني لأتعرّف في عبد الله حزم المنصور ونسك المهدي وعز نفس الهادي والله لو شاء الله أن أنسبه إلى الرابعة لنسبته إليها، وقال الأصمعي: بينما أنا سائر إلى الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقا شديداً فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكي ثم أنشأ يقول:

قلد أمور عباد الله ذا ثقة   موحد الرأي لا نكس ولا برم
واترك مقالة أقوام ذوي خطل   لا يفهمون إذا ما معشر فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمرا عظيما ثم قال لمروان الخادم: عليّ بيحيي فما لبث أن أتاه فقال: يا أبا الفضل إن رسول الله ﷺ مات في غير وصية والإسلام جذع والإيمان جديد وكلمة العرب مجتمعة قد آمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبي بكر وكان من خبره ما قد علمت وأن أبا بكر صير الأمر إلى عمر فسلمت الأمة له ورضيت بخلافته ثم صيرها عمر شورى فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت إلى غير أهلها وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره إلى من أرضى سيرته وأحمد طريقته وأثق بحسن سياسته وآمن ضعفه ووهنه وهو عبد الله وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم وفيه ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته والتبذير لما حوته يده ومشاركته النساء والإماء في رأيه وعبد الله المرضى الطريقة الأصيل الرأي الموثوق به في الأمر العظيم فإن ملت إلى عبد الله أسخطت بني هاشم وإن أفردت محمدا بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية فأشر عليّ في هذا الأمر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها لأنك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر، فقال: ياأمير المؤمنين إن كل زلة مستقالة وكل رأي يتلافى خلا هذا العهد فإن الخطأ فيه غير مأمون والزلة فيه لا تستدرك وللنظر فيه مجلس غير هذا فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة فأمرني بالتنحي فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما فما زالا في مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد، ودخلت أم جعفر على الرشيد فقالت ما أنصفت ابنك محمدا حيث وليته العراق وأعريته من العدد والقواد وصيرت ذلك إلى

عبد الله دونه فقال لها: وما أنت وتمييز الأعمال وأخبار الرجال؟ إنى وليت ابنك السلم وعبد الله الحزب وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من المسالم ومع ذلك فإنا تتخوّف ابنك على عبد الله ولا نتخوف عبد الله على ابنك إن بويع، ويحكى عن سعيد بن عامر البصرى قال: حججت فى هذه السنة يعنى سنة ست وثمانين ومائة التى حج فيها الرشيد وولداه وقد كتب الشرطين بينهما وعلقهما فى الكعبة وقد استعظم الناس أمر الشرط والإيمان فى الكعبة فرأيت رجلاً من هذيل يقود بعيرا ويقول:

وبيعة قد نكثت أيمانها وفتنة قد سعرت نيرانها

فقلت له: ويحك ما تقول ؟قال أقول إن السيوف ستسل والفتنة ستقع والتنازع فى الملك سيظهر قلت وكيف ترى ذلك؟ قال أما ترى البعير واقفاً والرجلان يتنازعان والغربان قد وقعا على الدم والتطخا به؟ والله لا يكون آخر هذا الأمر إلا محاربة وشرا. ويروى أن الأمين لما حلف للرشيد بما حلف له به وأراد الخروج من الكعبة ردّه جعفر بن يحيى وقال له: فإن غدرت بأخيك خذلك الله حتى فعل ذلك ثلاثا كلها يحلف له فامتعضت لذلك أم جعفر وحقدت على جعفر بن يحيى فكانت ممن حرّض الرشيد على أمره وبعثته على ما نزل به، وقد كان من أمر الفتنة بينهما ما سيأتى ذكره فى محله إن شاء الله تعالى.

ولما كانت سنة ست وثمانين ومائة للهجرة أى سنة ست عشرة وثمانمائة للميلاد أوقع الرشيد بالبرامكة وأبادهم وقد اختلف الكتاب فى الأسباب وتباينت أقوالهم والأكثر أنه لإتيان جعفر عباسة أخت الرشيد فإنه كان زوجها من جعفر ليحل له النظر إليها لأن الرشيد لم يكن يصبر على أخته ولا غنى له عن جعفر فباشرها جعفر فحبلت منه وجاءت بغلام وقيل إنها ولدت توأمين وقيل لأن الرشيد كان حبس يحيى بن عبد الله بن الحسن عند يحيى فأسراه وقيل قتل البرامكة خوفاً منهم على ملكه لأنهم كانوا عظموا واشتهروا بالجود والكرم ومال إليهم الناس وأحبوهم، وعندى أن ذلك أقرب إلى الصواب، قال ابن خلدون: وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتيازهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة

وعشـرون رئيسـاً من بين صاحب سـيف وصاحب قـلم زاحموا فـيهـا أهل الدولة بالمناكب ودفـعوهم عنهـا بالراح بما لمكان أبيهم يحـيى من كفـالة هارون ولىّ عـهد وخليفـة حتى شب فى حجره ودرج من عـشه وغلب على أمره وكـان يدعوه ياأبتى توجه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجـوه وخضعـت لهم الرقاب وقصـرت عليهم الآمال وتخـطت إليهم من أقصىّ التـخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء وتسـربت إلى خزائنهم فى سبـيل التزلف والاستمالة أموال الجباية وأفاضـوا فى رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوّقوهم المنن وكسـبوا من بيـوتات الأشراف المعـدم وفكوا العانى ومـدحوا بما لم يـمدح به خليـفتهم وأسنـوا لعفاتـهم الجوائز والصـلات واستولوا علـى القرى والضـياع من الضواحى والأمصار فى سـائر الممالك حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخـاصة وأغصوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحـسد ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية حتى لقد كان بنو قحطبـة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقع فى نفـوسهم من الحسـد عواطف الرحم ولا ردعتهم أواصـر القرابة وقارن ذلك عند مـخدومهم نواشىء الغيـرة والاستنكاف من الحجر والأنفـة وكانت الحقـود التى بعثتهـا منهم صغائر الدالة وانتـهى بها الإصرار على شأنهم إلى كـبائر المخالفة كقـصتهم فى يحيى بن عبـد الله بن حسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب أخى محمد المهدى الملقب بالنفس الزكـية الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذى استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطه وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره الطبرى ودفعه الرشيـد إلى جعفر وجعل اعتداله بداره وإلى نظره فحبـسه مدة ثم حملتـه الدالة على تخلية سبيله والاسـتبداد بحل عقـاله حرما لدماء أهل البيت بزعمه ودالة على السلطان فى حكمه وسأله الرشيد عنه لما وشى به إليه ففطن. وقال أطلقته فأبدى له وجه الاستـحسان وأسرها فى نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفســه وقومه حتى ثل عرشـه وألقيت عليهم سمـاؤهم وخسفت الأرض بهم وبدارهم وذهبت سلفا ومثـلا للآخرين أيامهم إلى أن قال: وانظر مـا نقله ابن عبد ربه فى مفـاوضة الرشيد عمه داود بن علىّ فى شأن نكبـتهم وما ذكره فى باب الشعـراء فى كتـاب العقد فى مـحاورة الأصـمعى للرشـيد وللفضل بن يـحيى فى سمارهم تفـهم أنهم إنما قتلتهم الغيرة والمنافـسة فى الاستبداد من الخليـفة فمن دونه وكذلك ما تحيل به أعـداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعـر احتيالا على إسماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم وهو قوله:

ليت هندا أنجزتنا ما تعد　　وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدّت مرة واحدة　　إنما العاجز من لا يستبدّ

وأن الرشيد لما سمعها قال: إى والله إنى عاجز حتى بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال . اهـ.

قال صاحب الكامل: لما رجع الرشيد من الحج نزل العمر الذى عند الأنبار سلخ المحرم وأرسل مسرورا الخادم ومعه جماعة من الجند إلى جعفر ليلاً وعنده ابن بختيشوع الطبيب وأبو زكار المغنى وهو فى لهوه وأبو زكار يغنى:

فلا تبعد فكل فتى سيأتي　　عليه الموت يطرق أو يغادي
وكل ذخيرة لابد يوما　　وإن كرمت تصير إلى نفاد

قال مسرور فقلت له: ياأبا الفضل الذى جئت له هو والله ذاك قد طرقك أجب أمير المؤمنين فوقع على رجلى يقبلها وقال حتى أدخل فأوصى فقلت أما الدخول فلا سبيل إليه وأما الوصية فاصنع ما شئت فأوصى بما أراد وأعتق مماليكه وأتتنى رسل الرشيد تستحثنى فمضيت به إليه فأعلمته وهو فى فراشه فقال ائتنى برأسه فأتيت جعفرا فأخبرته فقال: الله الله والله ما أمرك إلا وهو سكران فدافع حتى أصبح أو راجعه فىّ ثانية فعدت لأراجعه فلما سمع حسى قال: ياماص بظر أمه ائتنى برأسه فرجعت إليه فأخبرته فقال آمره فرجعت فحذفنى بعمود كان فى يده. وقال نفيت من المهدى إن لم تأتنى برأسه لأقتلنك قال فخرجت فقتلته وحملت رأسه إليه، وكان قتل جعفر بالأنبار فى صفر وبعد قتله أرسل من أحاط بيحيى ولده وجميع أسبابه وأخذ جميع ما وجد للبرامكة من مال ومتاع وضياع وغير ذلك وكتب إلى كافة البلاد بقبض أموالهم وأرسل رأس جعفر وجثته إلى بغداد وأمر بوضع الرأس على جسر وجثته على جسر آخر ولكنه مع ذلك لم يتعرض لمحمد بن خالد بن برمك قالوا لبراءته، وكان عمر جعفر لما قتل سبعا وثلاثين سنة وكانت الوزارة فيهم سبع عشرة سنة والبرامكة عائلة من فارس واسعة السمعة كانت لهم رتبة الأمانة والكهانة قبل الإسلام بمائتى سنة وقد قال يحيى بن خالد عند ما نكب: الدنيا دول والمال عارية ولنا بمن قبلنا أسوة وفينا لمن بعدنا عبرة، وشوهد بعد قتله فى حضنه رقعة مكتوب فيها: المقرف يذهب والمعرق يتبعه قريباً وسينتصب الاثنان أمام قاضٍ عدل حيث لا تغنى الكتابات والأعذار شيئاً، وسار الرشيد إلى الرى ثم رجع إلى العراق ودخل بغداد وأمر بإحراق جثة جعفر ثم مضى إلى الرقة ومات يحيى بن

خالد في هذا الحين في السجن في الرقة وعمره سبعون سنة ومات الفضل بن يحيى بن خالد ابن برمك مسجوناً في السنة الثانية وعمره خمس وأربعون سنة قيل ولم ير أجمل منه فلم يكن الرشيد بعد قتل البرامكة يطيق المقام ببغداد فبارح السنة المذكورة الرقة إلى خراسان ثم سار طالباً حرب رافع بن الليث بما وراء النهر لخروجه بسمرقند فلما كان في طوس جيء ببشر بن الليث أسيراً فقال له الرشيد: والله لو لم يبق من أجلي إلا أن أحرك شفتي بكلمة لقلت اقتلوه ثم أمر قصابا ففصل أعضاءه ومثل به تمثيلاً، وكان الرشيد قد غضب على عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب فأمر به فألقوه في السجن مكبلا على غير سبب ظاهر فلما كان في بعض الأيام استحضره وجعل يعنفه ويوبخه شديداً قال غوث بن المدرع عن الرياشي قال: سمعت الأصمعي يقول كنت عند الرشيد وأتي بعبد الملك بن صالح يرفل في قيوده فلما نظر إليه قال: هيه ياعبد الملك كأني أنظر إلى شؤبوبها قد همع وعارضها قد لمع، وكأني بالوليد قد أقلع عن براجم بلا معاصم ورؤوس بلا غلاصم مهلا مهلا بني هاشم والله والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر وألقت إليكم الأمور أزمّتها فخذوا حذركم مني قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل، فقال له عبد الملك أفذا أتكلم أوتوأما فقال: بل توأما قال فاتق الله ياأمير المؤمنين فيما ولاك وراقبه في رعاياك التي استرعاك، قد سهلت والله لك الوعور، وجمعت على طاعتك القلوب في الصدور، وكنت كما قال أخو بني جعفر بن كلاب، يعني لبيدا:

ومقام ضيق فرّجته ... ببيان ولسان وجدل
لا يقوم الفيل أو فياله ... زل عن مثل مقامي أو رحل

قال: فأراد يحيى بن خالد البرمكي أن يضع من مقام عبد الملك عند الرشيد فقال له ياعبد الملك بلغني أنك حقود فقال أصلح الله الوزير إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندي فإنهما لباقيان في قلبي فالتفت الرشيد إلى الأصمعي فقال: ياأصمعي حررها فوالله ما احتج أحد للحقد بمثل ما احتج به عبد الملك ثم أمر به فرد إلى محبسه ثم التفت إلى الأصمعي وقال والله ياأصمعي لقد نظرت إلى موضع السيف من عنقه مرارا ويمنعني من ذلك إبقائي على قومي في مثله . اهـ.

وكان هارون الرشيد موفق الغزوات ميمون الطالع كتب إليه نيقفور ملك الروم الذي قام بعد خلع إيزمينى الملك كتاباً يقول فيه: من نيقفور ملك الروم إلى هارون الرشيد ملك العرب أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي قد أقامتك رخا وأقامت نفسها بيدقا فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه إليها وما ذاك إلا

من ضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابى فاردد علينا ما سلبته من أموالنا وإلا فالسيف يقضى فيما بيننا، فلما تقدم السفراء بالكتاب أخذه الرشيد وقرأه ولما وصل إلى قوله فالسيف يقضى فيما بيننا ألقى السفراء المذكورون ضمة سيوفهم أمامه فنظر إليها الرشيد وهو يبتسم قيل واستل سيفه وضرب به تلك السيوف الرومية فبراها كما يبرى الكاتب القلم ثم كتب على ظهر الجواب: بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نيقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه، وعندى أن هذا من مبالغة الكتاب لأن الرشيد كان أديباً مهيباً حسن السياسة غير مشاغب ولا متسرع إلى فحش القول وهو من الحلم وسعة الصدر بمكان، قالوا: ثم ركب الرشيد على نيقفور من يومه حتى نزل هرقلة ففتح وغنم وخرّب وبعث داود بن عيسى بن موسى فى سبعين ألفا غازياً فى أرضهم وفتح شرحبيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودلسة وفتح يزيد بن مخلد حصن الصفصاف ومقلونية وأناخ عبد الله بن مالك على حصن ذى الكلاع واستعمل الرشيد حميد بن معيوف على الأساطيل من سواحل الشام ومصر إلى قبرص فهزم وخرب وسبى من أهلها سبعة عشر ألفاً وجاء بهم إلى الرافقة فبيعوا بها وبلغ فداء أسقف قبرص يومئذ ألفى دينار، وسار الرشيد إلى طوانة فنزل بها وحاربها وحاصرها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر فسأله نيقفور الصلح على خراج يحمله فى كل سنة فصالحه ورجع إلى قصره على الفرات ثم لم تلبث الروم حتى انتقضوا فى الشتاء فركب عليهم ثانية ولم تمنعه ثلوج الجبال وقاتلهم قيل فقتل منهم أربعين ألفا وجرح نيقفور فى ثلاثة محال ثم عصى ثالثة فجيش عليه وأخضعه، وكان الرشيد يركب على مائة وخمسة وثلاثين ألفا من العساكر المرتزقة سوى من لا ديوان له والمتطوعة الجميع نحو ثلثمائة ألف وقد تجاوز بجميع هذه الجنود مدن آسية الصغرى حتى أنقرة وحاصر هرقلة شهرا وخرّبها وأخذ ما فيها من الخيرات والكنوز وما زال يخرب ويسلب ويأسر ويشدّد على نيقوفور إلى أن تصالحا على أن تبقى مدينة هرقلة خربة أمثولة وذكرا لظفر الرشيد وعلى أن يكون المال المدفوع مسكوكا عليه اسمه واسم أولاده الثلاثة فكان ذلك.

ومات الرشيد فى سنة ثلاث وتسعين ومائة لثلاث خلون من جمادى الآخرة فى ليلة السبت بطوس وهو ابن سبع وأربعين سنة وقيل خمس وأربعين وكان به مرض فاشتدّت علته بجرجان فسار إلى طوس ومات فيها وكان قد سير ولده المأمون إلى

مرو وكان قد حفر قبره فى وسط الدار التى كان فيها قيل ولما احتضر خاف وانزعج وغشى عليه ثم أفاق فرأى الفضل بن الربيع فقال يافضل:

أحين دنا ما كنت أخشى دنوّه ... رمتني عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوما وكنت محسدا ... فصبرا على مكروه تلك العواقب
سأبكي على الوصل الذي كان بيننا ... وأندب أيام السرور الذواهب

فبكى الفضل عند سماعه هذه الأبيات وترك الرشيد اثنى عشر ابنا وخمس عشرة بنتا وكان جواداً ممدوحاً غازياً مجاهداً شجاعاً مهيباً مليحاً أبيض طويلاً عبل الجسم قد وخطه الشيب ويقال إنه منذ استخلف كان يصلى كل يوم وليلة مائة ركعة ويتصدّق من ماله الخاص بألف درهم وكان له معرفة جيدة بالعلوم وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وأشهرا وقيل ثلاثاً وعشرين فقط وكان مولده بالرى.

واستأمر على مصر فى خلافته مسلمة بن يحيى الأزدى بعد خلعه موسى بن عيسى العباسى فى سنة اثنتين وسبعين ثم ولى بعده محمد بن زهير الأزدى سنة ثلاث وسبعين ثم ولى داود بن يزيد المهلبى سنة أربع وسبعين ثم أعاد موسى بن عيسى سنة خمس وسبعين ثم عزله الرشيد سنة ست وسبعين وولى عليها جعفر بن يحيى البرمكى فاستناب عليها عمر بن مهران شيعيًا ردىء الشكل أحول وكان سبب ذلك أن الرشيد بلغه أن موسى بن عيسى عزم على خلعه فقال: والله لأولين عليها أخس الناس فاستدعى عمر بن مهران هذا وولاه عليها نيابة عن جعفر فسار عمر إليها على بغل وغلامه أبو درة على بغل آخر فدخلها كذلك فانتهى إلى مجلس موسى بن عيسى فجلس فى أخريات الناس حتى انفضوا فأقبل عليه موسى وهو لا يعرف هو فقال: ألك حاجة ياشيخ؟ قال نعم أصلح الله الأمير ثم مال بالكتب فدفعها إليه فلما قرأها قال أنت عمر بن مهران قال نعم قال: لعن الله فرعون حين قال أليس لى ملك مصر ثم سلم إليه العمل وارتحل عنها.

ثم فى سنة سبع وسبعين ومائة عزل الرشيد جعفرا عن مصر وولى عليها إسحق ابن سليمان كذا فى تاريخ ابن كثير وغيره وذكر الأديب أبو الحسن الجزار فى أرجوزته فى أمراء مصر خلاف ذلك فإنه قال أعيد موسى بن عيسى سنة خمس وسبعين، ثم أعيد إبراهيم بن صالح العباسى سنة ست وسبعين، ثم ولى عبد الله ابن المسيب الضبى ثم ولى إسحق بن سليمان العباسى سنة سبع وسبعين كذا قال. اهـ.

ثم عزل إسحق سنة ثمان وسبعين وولى هرثمة بن أعين فأقام نحوا من شهر، ثم عزل وولى عبد الملك بن صالح العباسى فأقام إلى سلخ سنة ثمان وسبعين وولى عبد الله بن مهدى العباسى سنة تسع وسبعين، ثم أعيد موسى بن عيسى سنة ثمانين، ثم أعيد عبيد الله المهدى وصرف فى رمضان سنة إحدى وثمانين، ثم صرف وولى الليث بن الفضل البيوردى، ثم ولى أحمد بن إسماعيل العباسى سنة سبع وثمانين، ثم ولى عبيد الله بن محمد العباسى، ثم ولى الحسين بن جميل الأزدى سنة تسعين، ثم ولى مالك بن دلهم الكلبى سنة اثنتين وتسعين ثم ولى الحسن سنة ثلاث وتسعين وهى السنة التى مات فيها الرشيد.

ومات فى أيامه يوحنا بطرك الإسكندرية بعد أن أقام ثلاثاً وعشرين سنة وكان تقيًا محباً للفقراء ولم تصبه شدائد بل كانت أيامه كلها سلاماً فأقيم بعده مرقس المعروف بالجديد وهو تاسع أربعيهم وأصله من مدينة الإسكندرية ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

(الفصل السادس)

(فى خلافة محمد الأمين بن هارون الرشيد)

ثم قام بالأمر بعد هارون الرشيد ابنه محمد الأمين بويع له بالخلافة يوم توفى أبوه بطوس سنة ثلاث وتسعين ومائة هجرية أى سنة ثمان وثمانمائة ميلادية واستناب أخاه على ممالك خراسان وهو إذ ذاك ببغداد فورد عليه بها خاتم الخلافة والبردة والقضيب وهما لصاحب الشريعة ثم بويع له بها البيعة التامة فى سائر الآفاق. وكان الرشيد قد جدد البيعة بطوس بولاية العهد لابنه المأمون بعد الأمين كما تقدّم القول وأشهد على نفسه أن جميع ما معه من مال وسلاح وغير ذلك للمأمون وأوصى أن يكون ما معه من الجيوش مضمومين معه بخراسان فلما مات الرشيد نادى الفضل بن الربيع فى عسكر الرشيد بالرحيل إلى بغداد وخالف وصية الرشيد فعظم ذلك على المأمون وكتب إلى الفضل يذكره بالعهود التى أخذها عليه الرشيد ويحذره البغى ويسأله الوفاء فلم يلتفت الفضل إليه فكان هذا الأمر سبب ابتداء الوحشة بين الأمين والمأمون، وكان الأمين عديم السياسة فلم يلبث على كرسى الخلافة طويلاً حتى أمر بإبطال ذكر اسم المأمون من الخطبة واستبدله باسم ابنه موسى ولقبه الناطق بالحق وكان يومئذ طفلاً فأدّى ذلك إلى وقوع الوحشة واشتداد الخلاف بينه وبين المأمون

وطال الأخذ والرد بين الفريقين حينا فكثرت أحزاب المأمون وانضم إليه ناس من كبار الدولة وأمراء الجند بعد أمور قد أضربنا عن إيرادها هنا وتجهز كل منهما لقتال الآخر فأرسل الأمين عليّ بن عيسى بن ماهان بجيش عظيم لقتال المأمون فى خراسان وجهز المأمون كذلك طاهر بن الحسين بعسكر قليل وأرسله إلى الرى فخلع طاهر بيعة الأمين بمن معه من الجند وبايع المأمون فقامت الحرب بينه وبين عليّ بن عيسى وقاتل عليّا قتالاً شديداً وقتل عليّ وأخذت رأسه إلى طاهر وانهزم عسكره فأرسل الأمين عسكرا آخر صحبة أحمد بن مرشد وعبد الله بن حميد بن قحطبة وكان مع كل واحد عشرون ألفا وساروا إلى حلوان لقتال طاهر فلما وصلوا إلى خانقين وقع فيهم الخلاف فرجعوا دون قتال فتقدم طاهر ونزل في حلوان ولحقه هرثمة بجيش آخر من عند المأمون وكتب يأمره بالقيام إلى الأهواز ولما بلغ المأمون قتل ابن ماهان أمر أن يخطب له بإمرة المؤمنين وعقد للفضل بن سهل على المشرق من همذان إلى التبت طولاً ومن بحر فارس إلى بحر الديلم وجرجان عرضا ولقبه بذى الرياستين يعنى رياسة الحرب ورياسة القلم، وولى الحسن بن سهل ديوان الخراج ثم استولى طاهر على الأهواز وواسط والمدائن ونزل صرصر فى سنة ست وتسعين ومائة أى نحو سنة إحدى عشرة وثمانمائة للميلاد وفى التى بعدها ألقى هرثمة وطاهر الحصار على بغداد وأوقعا فيها النهب والحريق ومنعا الميرة فغلا فيها سعر كل شيء ودام الحصار وشدة الحال السنة بطولها وهجم طاهر بعد ذلك على بغداد وبعد قتال شديد انجلى عن تمزيق شمل جند الأمين وتفريقهم أيدى سبأ وخذلهم للخليفة نادى منادى طاهر من لزم بيته فهو آمن وتحصن الأمين فى مدينة المنصور وتفرق عنه عامة جنده وخصيانه فحاصره طاهر وسدّ عليه المنافذ ثم طلب الأمين الأمان من هرثمة وأن يطلع إليه فلم يقبل فروجع طاهر فى ذلك فأبى فلما كانت ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة هجرية أى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة للميلاد خرج الأمين وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود فأرسل إليه هرثمة يمنعه من ذلك وأن يبقى إلى الليلة القابلة فلم يقبل ودعا الأمين بابنيه وضمهما لصدره وقبلهما وبكى ثم مضى راكباً إلى الشط فوجد حراقة هرثمة فصعد إليها فاحتضنه هرثمة وضمه إليه وقبل يديه ورجليه وقد علم أصحاب طاهر بخبره فشدوا على حراقة هرثمة حتى أغرقوها فأخرج الملاح هرثمة من الماء أما الأمين فإنه لما سقط شق ثيابه وعدا سابحا إلى الجانب الثانى فأمسكوه وأخذوه عريان ووضعوه فى بيت حتى جاء الليل وأرسل إليه طاهر بعض الأعجام فقتلوه وأخذوا رأسه فنصبه

طاهر على برج من أبراج بغداد إلى أن أرسلت إلى المأمون وكتب له بالفتح وأرسل له البردة والقضيب ودخل طاهر المدينة وأقام خطبة المأمون نهار الجمعة واستتبت له الخلافة واستوثق له الأمر مشرقا ومغربا بعد أمور أضربنا عن إيرادها هنا.

قال أبو حنيفة فى الأخبار الطوال وغيره عن الكسائى أنه قال: إن الرشيد ولانى تأديب الأمين والمأمون فكنت أشدّد عليهما فى الأدب وآخذهما به أخذا شديداً وخاصة الأمين فأتتنى ذات يوم خالصة جارية زبيدة وقالت ياكسائى إن السيدة تقرأ عليك السلام وتقول لك حاجتى إليك أن ترفق بابنى محمد فإنه قرة عينى وثمرة فؤادى وإنى أرق عليه رقة شديدة فقلت لخالصة: إن محمدا مترشح للخلافة بعد أبيه ولا يجوز التقصير فى أمره فقالت خالصة إن لرقة هذه السيدة سببا أنا أخبرك إياه إنها فى الليلة التى ولدته فيها رأت فى منامها كأن أربع نسوة أقبلن إليه فاكتنفنه عن يمينه وشماله وأمامه ووراءه فقالت التى بين يديه ملك قليل العمر كثير الكبر ضيق الصدر واهى الأمر كبير الوزر شديد الغدر، وقالت التى من ورائه: ملك قصاف مبذر متلاف قليل الإنصاف كثير الإسراف، وقالت التى عن يمينه: ملك عظيم البذل ثقيل الحمل كثير الإثم قطوع للرحم، وقالت التى عن يساره: ملك غدَّار كثير العثار سريع الدمار، قال: ثم بكت خالصة وقالت ياكسائى وهل ينفع الحذر من القدر؟ اهـ.

ولما همّ محمد بخلع المأمون شاور عبد الله بن حازم فقال له: أنشدك الله ياأمير المؤمنين أن لا تكون أول الخلفاء نكث عهده ونقض ميثاقه واستخف يمينه فقال: أسكت لله أبوك فعبد الملك بن صالح كان أفضل منك رأياً حيث يقول لا يجتمع فحلان فى أجمة ثم جمع القواد وشاورهم فاتبعوه فى مراده إلى أن بلغ إلى هرثمة ابن حازم فقال ياأمير المؤمنين لن ينصحك من كذبك ولن يغشك من صدقك لا تجرّئ القواد على الخلع فيخلعوك ولاتحملهم على نكث العهود فينكثوا عهدك وبيعتك فإن الغادر مخذول والناكث مغلول فأقبل الأمين على علىّ بن عيسى بن ماهان فتبسم محمد وقال: لكن شيخ هذه الدعوة وناب هذه الدولة لا يخالف إمامه ولا يوهن طاعته ثم رفعه إلى موضع ما رفعه إليه فيما مضى فكان على بن عيسى هذا أول من أجاب إلى خلع المأمون فأكبره الأمين وقرّبه وسيره فى جيش عظيم نحو المأمون فلما قرب من الرى قيل له إن طاهر بن الحسين مقيم بها وقد كان يظن أن طاهراً لا يثبت له فقال ما طاهر إلا شوكة من أغصانى وشرارة من نارى وما مثل طاهر يؤمر على جيش وما بينه وبين الأمين إلا أن تقع عينه على سوادكم فإن

السخال لا تقوى على نطاح الكباش والثعالب لا تقدر على لقاء الأسد فقال له ابنه: ابعث طلائع وارتد موضعا لعسكرك فقال: ليس طاهر يستعدّ له بالمكائد والتحفظ إن حال طاهر يؤدى إلى أمرين إمـا أن يتحصن بالرى فيثب به أهلها ويكفـونا مؤنته أو يخليها ويدبر راجعا إذا قربت خيـولنا منه فقال له ابنه إن الشرارة ربما صارت ضراما فقال إن طاهرا ليس قرنا فى هذا الموضع وإنما يحـترس الرجال من أقرانها، وسـار على بن عيـسى وبث عساكره من الرى وتبـين ما عليه طاهر من الجدّ وأهـبة الحرب وضم الأطراف فـعدل إلـى رستـاق من رسـاتيق الرى مـتيـاسـرا عن الطريق فنزل وانبسطت عساكـره وأقبل طاهر فى نحو من أربعة آلاف فارس فأشـرف على عساكر علىّ وتبين كثرتها وعدة ما فيها فعلم أن لا طاقة له بذلك الجيش فقال لخواصه ومن معه: نجعلها خارجية وكردس خـيله كراديس وصمد فى نحو القلب فى سبعمائة من الخوارزمية وغيرهم من فرسان خراسان وخرج إليه من القلب العباس بن الليث مولى العهد وكـان فارساً فقصـده طاهر وضم يديه على سيفه فأتى عـليه وكان علىّ على برذون فسقط كميت بين أرجل الرجال فتـمالئوا على رأسه وتنازعوا فى خاتمه ورأسه فذبحه رجل يعرف بـطاهر بن الراجى وقبض آخر على خصلة من شعر لحـيته وآخر على خاتمه وكـان سبب هزيمة الجـيش ضربة طاهر بيديه جمـيعاً للعـباس بن الليث وبذلك سمى طاهر ذا اليمينين لجمع السيف بيديه، وذكر أحمد بن هشام وكان من وجوه القواد قـال: جئت إلى مضرب طاهر وقد توهم أنى قتلت فى المعـركة ومعى رأس علىّ فقلت البشرى هذه خصلة من رأس علىّ مع غـلامى فى المخلاة فطرحتها قدامه ثم أتى بجـثته وقد شدت يداه ورجـلاه كما يفعل بالدواب إذا مـاتت فأمر به طاهر فألقى فى بئـر وكتب إلى ذى الرياستـين فكان فى الكتاب: أطال الله بقـاءك وكبت أعداءك كتابى إليك ورأس على بن عيسى بين يدي وخاتمه فى أصبعى والحمد لله رب العالمين، فسرّ المأمون بذلك وسلم عليه فى ذلك الوقت بالخلافة، وحدّث إبراهيم بن المهدي قال: بعث إلىّ الأمـين وهو محاصر فصرت إلـيه فإذا هو جالس فى طارمة خـشبهـا من عود وصندل عشـرة فى عشرة وإذا سليـمان بن أبى جعـفر المنصور معه فى الطارمـة وهى قبة كان اتخذ لها فراشـا مبطنا بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الأحمر وغير ذلك من أنواع الإبريـسم فـسلمت فإذا قدامه قدح بلور محروز فيه شـراب ينفذ مقداره خمسة أرطال وبين يدى سليمـان قدح مثله فجلست بإزاء سليمـان فأتيت بقدح كالأول والثانى. قـال: فقال الأمين إنما بعـثت إليكما لما بلغنى قدوم طاهر بن الحسين إلى النهـروان وما قد صنع فى أمرنا من المكروه وقابلنا

به من الإساءة فدعوتكما لأفرج بكما وبحديثكما فأقبلنا نحدثه ونؤنسه حتى سلا عما كان يجده وفرح ودعا بجارية من خواص جواريه تسمى ضعفا قال فتطيرت من اسمها ونحن على تلك الحال فقال لها: غنينا فوضعت العود فى حجرها وغنت:

كليب لعمري كان أكثر ناصرا وأكثر جمعا منك ضرّج بالدم

فتطير من قولها ثم قال لها: اسكتى قبحك الله ثم عاد إلى ما كان عليه من الغم والإقطاب فأقبلنا عليه نحادثه ونبسطه إلى أن سلا وضحك ثم أقبل عليها وقال هات ما عندك فغنت

هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

فأسكتها وزأرها وعاد إلى الحالة الأولى فسليناه حتى عاد إلى الضحك فأقبل عليها الثالثة فقال غنى فغنت:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

وقيل بل إنها غنت:

أما ورب السكون والحرك إن المنايا كثيرة الشرك

فقال لها: قومى عنى فعل الله بك وصنع بك فقامت فعثرت بالقدح الذى كان بين يديه فكسرته فاهريق الشراب وكانت ليلة قمراء ونحن على شاطىء دجلة فى قصره المعروف بالخلدة فسمعنا قائلاً يقول: قضى الأمر الذى فيه تستفتيان، قال ابن المهدى فقمت وقد وثب فسمعت منشدا من ناحية القصر ينشد هذين البيتين:

لا تعجبنّ من العجب قد جاء ما يقضي العجب
قد جاء أمر فادح فيه لذي عجب عجب

قال: فما قمنا معه بعدها إلى أن قتل.

ومات محمد الأمين وهو ابن ثمان وعشرين سنة وقيل سبع وعشرين وكان طويلاً أبيض بديع الحسن وكانت خلافته أربع سنين وثمانية شهور وقيل ثلاثة أعوام وأياما لأنه خلع فى رجب سنة ثمان وتسعين ومائة ومن حسب له إلى موته فخلافته خمس سنين خلا أشهرا وكان مبذرا للأموال لعابا لا يصلح للخلافة مشتغلا باللهو والقصف والإقبال على اللذات فقال فيه بعضهم:

إذا غدا ملك باللهو مشتغلا فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس في الميزان هابطة لما غدا وهو برج اللهو والطرب

قال صاحب الكامل: وأكثر الشعراء فى مراثى الأمين وهجائه فما قيل فى مراثيه قول الحسين بن الضحاك وكان من ندمائه وكان لا يصدق بقتله ويطمع فى رجوعه.

ياخير أسرته وإن زعموا	إني عليك لمثبت أسف
الله يعلم أن لي كبدا	حرّى عليك ومقلة تكف
ولئن شجيت لما رزئت به	إني لأضمر فوق ما أصف
هلا بقيت لسدّ فاقتنا	أبدا وكان لغيرك التلف
فلقد خلفت خلائفا سلفوا	أو ليس يعوز بعدك الخلف
لا يأت رهطك بعد هونهم	إني لرهطك بعدها شنف
هتكوا لحرمتك التي هتكت	حرم الرسول ودونها السجف
ونبت أقاربك التي خذلت	وجميعها بالذل معترف
تركوا حريم أبيهم نفلا	والمحصنات صوارخ هتف
أبدت مخلخلها على دهش	أبكارهن ورنت النصف
سلبت معاجرهن واختلست	ذات النقاب ونوزع الشنف
فكأنهن خلال منتهب	درّ تكشف دونه الصدف
سلك تخوّف نظمه قدر	فوهي فصرف الدهر مختلف
هيهات بعدك أن يدوم لنا	عز وأن يبقى لنا شرف
أفبعد عهد الله تقتله	والقتل بعد أمانة سرف
فستعرفون غدا بعاقبة	عز الإله فأوردوا وقفوا
يامن يخوّن نومه أرقا	هدت الشجون وقلبه لهف
قد كنت لي أملا غنيت به	فمضى وحلّ محله الأسف
مرج النظام وعاد منكرنا	عرفا وأنكر بعده العرف
والشمل منتشرا لفقدك والـ	ـدنيا سدى والباب منكشف

وأسرف الحسين بن الضحاك فى مراثى الأمين وذم المأمون فلهذا حجبه المأمون عنه ولم يسمع مديحه مدة ثم أحضره وقال له: أخبرنى هل رأيت يوم قتل أخى هاشمية قتلت وهتكت؟ قال: لا قال: فما قولك:

ومما شجى قلبي وكفكف عبرتي	محارم من آل النبي استحلت

الأبيات. فقال: ياأمير المؤمنين لوعة غلبتنى وروعة فاجأتنى ونعمة سلبتها بعد أن غمرتنى وإحسان شكرته فأنطقنى وسيد فقدته فأقلقنى فإن عاقبت فبحقك وإن عفوت فبفضلك فدمعت عين المأمون وقال: قد عفوت عنك وأمرت بإدرار أرزاقك عليك وعطائك ما فاتك متمما وجعلت عقوبة ذنبك امتناعى من استخدامك . اهـ.

واستعمل الأمين على مصر فى خلافته حاتم بن هرثمة بن أعين ثم صرفه فى سنة خمس وتسعين ثم ولى المطلب بن عبد الله الخزاعى سنة ثمان وتسعين ثم صرفه وولى العباس بن موسى فى السنة التى قتل فيها الأمين أى سنة ثمان وتسعين ومائة للهجرة.

(الفصل السابع)

(فى خلافة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد)

ثم قام بالأمر بعد الأمين أخوه عبد الله المأمون بويع له بالخلافة البيعة العامة صبيحة الليلة التى قتل فيها الأمين بإجماع من الأمة على ذلك سنة ثمان وتسعين ومائة هجرية أى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ميلادية خلا ما كان من أمير الأندلس صبيحة الليلة التى قتل فيها الأمين بإجماع من الأمة على ذلك سنة ثمان وتسعين ومائة هجرية أى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ميلادية خلا ما كان من أمير الأندلس فإنه كان هو والأمراء قبله وبعده لم يتقيدوا بطاعة العباسيين لبعد الديار واستبدادهم بالأمر فيها فلما استوثق الأمر للمأمون تمم ما بدأ به أبو جعفر المنصور جده من تعميم المعارف بين الرعية واستجلب ما تصل إليه قدرته من كتب الفلسفة والرياضيات وغيرها واستأجر لترجمتها من اللغات الأعجمية مهرة المترجمين ونجباء العلماء ورتب المجالس للمناظرة فى الأديان والفلسفة والنجوم وحث الرعية على ترك ما يرغب فيه الصين والترك ومن نحا نحوهم من التنافس فى دقة الصنائع العلمية وغيرها فارتقت العرب فى أيامه إلى ارقى درجات العلوم والمعارف وفارقتهم أو كادت العوائد البدوية القديمة فى عهد قريب جداً لم يكن فى حسبان.

وظهر فى أيامه بالكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن العلوى المعروف بابن طباطبا ودعا الناس إليه وكان القائم بأمره أبو السرايا فبايعه أهل الكوفة واستوثقوا له فأرسل إليه المأمون الحسن بن سهل الضبى فى عشرة آلاف فهزمهم ابن طباطبا واستباحهم ولكنه لم يلبث أن مات فجأة وقيل سمه أبو السرايا

ليستبدّ بالأمر وأقام غلاما من أولاد عليّ يقال له ابن زيد صورة والكلمة لأبي السرايا ثم قام ففتح البصرة وواسطا وجرى بينه وبين جند المأمون عدة وقائع انجلى الأمر فيها عن فرار أبى السرايا من الكوفة بثمانمائة فارس بعد أن حصره هرثمة ودخل هرثمة الكوفة ونادى بالأمان فسار أبو السرايا إلى جلولاء فتفرق عنه أصحابه وظفر به حماد الكندغوش وقبض عليه وعلى من بقى معه وأتى بهم إلى الحسن بن سهل وهو فى النهروان فقتله وسير برأسه إلى المأمون.

وكان المأمون يميل لآل عليّ ويحب عليا الرضا بن موسى الكاظم فعهد إليه بالخلافة من بعده وأمر جنده بخلع الأسود ولبس الأخضر وكتب بذلك إلى الآفاق فشق الأمر على بنى العباس ووقع الخلاف وهاج الناس وهموا فى بغداد ببيعة إبراهيم بن المهدى وخلع المأمون لهذا السبب ولتقديمه الحسن بن سهل فبايعوا إبراهيم المذكور فى سنة اثنتين ومائتين ولقب بالمبارك وكان القيم على أمور إبراهيم المطلب بن عبد الله بن مالك فاستولى إبراهيم على الكوفة وجمع عسكره إلى المدائن واستعمل على الجانب الغربى من بغداد العباس بن موسى الهادى وعلى الجانب الشرقى إسحق بن الهادى فسار يومئذ المأمون من مرو إلى العراق واستخلف على خراسان غسان بن عباد وعند وصوله إلى برخس وثب أربعة رجال بالفضل بن سهل فقتلوه وعمره يومئذ ستون سنة فغضب المأمون وجعل لمن يقبض عليهم عشرة آلاف دينار فأمسكهم العباس بن الهيتم الدينورى فأمر المأمون بضرب أعناقهم وقام طالبا العراق فبلغ ذلك إبراهيم بن المهدى والمطلب وأصحابه فترك المطلب إبراهيم وتمارض وسار إلى بغداد واشتغل سرا لجانب المأمون وخلع إبراهيم فعلم إبراهيم بذلك وكان فى المدائن فقصد بغداد وأمر بالمطلب فنهبت دور أهله ولم يظفروا به وعظمت الفتنة وكاد يتسع نطاقها وكان المأمون قد زوّج ابنته من على الرضا الذى عهد إليه بالخلافة بعده فلم يلبث حتى مات فى السنة التالية لزواجه فدفن عند قبر الرشيد وكتب المأمون إلى بغداد يعلم أهلها بموته ويقول لهم: إن من نقمتم عليّ بسببه قد مات فارجعوا إلى خليفتكم فرجعوا وخلعوا بيعة إبراهيم بن المهدى ودعوا للمأمون فاختفى إبراهيم وقدم المأمون إلى بغداد وانقطعت بعودته الفتن وكان لابسا الأخضر فدخل عليه الناس وسلموا بالأخضر ثم رجعوا إلى اللباس الأسود كما رسم هو.

وظهر فى أيامه القول بخلق القرآن وقيل ظهر فى أيام الرشيد وكان الناس فيه بين أخذ وترك إلى زمن المأمون فحمل الناس على القول بخلق القرآن وكل من لم

يقل بخلقه عاقبه أشد عقوبة وكان الإمام أحمد إمام أهل السنة من الممتنعين عن القول بخلق القرآن فحمل إلى المأمون مقيداً فمات المأمون قبل وصوله إليه، ودخل المأمون بلاد الجزيرة والشام وأقام بها مدة طويلة ثم غزا الروم وفتح فتوحات عظيمة للغاية وبث العيون بعد ذلك فى طلب إبراهيم بن المهدى فظفر به لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة سبع ومائتين فى الدرب المعروف بالطويل ببغداد فأدخل إلى المأمون وهو فى زى امرأة ومعه امرأتان أخذه حارس أسود فى الدرب المذكور فلما رآه المأمون على هذه الحالة قال له: هيه ياإبراهيم. فقال: أمير المؤمنين وليّ الثار محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الزمان واستولى عليه الاغترار بما مدّ له من أسباب الشقاق أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذى عفو كما جعل كل ذى ذنب دونى فإن تعاقب فبحقك وإن تعف فبفضلك، قال: بل العفو ياإبراهيم فكبّر إبراهيم ثم خر ساجدا ثم أمر المأمون بالاحتفاظ به إلى بكرة فلما كان الغد أقعد إبراهيم فى دار المأمون والمقنعة التى تقنع بها فى عنقه والملحفة على صدره ليرى الناس الحال التى أخذ عليها ثم حوله إلى أحمد بن أبى خالد ثم عفا عنه من بعد أن كان وكل به فقال إبراهيم فى ذلك من كلمة له.

إن الذي قسم الخلافة حازها	من صلب آدم للإمام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها	وحوى رداؤك كل خير جامع
فبذلت أعظم ما يضيق ببذله	وسع النفوس من الفعال البارع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله	عفو ولم يشفع إليك بشافع

وهى طويلة ومطلعها

ياخير من رفلت يمانية به	بعد النبيّ لآيس أو طامع

فذكر أن المأمون قال حين أنشده هذه القصيدة: أقول كما قال يوسف لإخوته ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾.

واختلف أهل مصر فى أيام المأمون وخرج عن طاعته عبد الله بن السرى واستقل بحكم البلاد فأكبر المأمون هذا الأمر جداً وسير عبد الله بن طاهر إلى قتال ابن السرى فقدم ابن طاهر فى سنة عشر ومائتين فلما قرب من مصر وصار على مرحلة قدّم قائدا من قوّاده إليها لينظر موضعا يعسكر فيه وكان ابن السرى قد خندق على مصر وبث العيون والأرصاد فجاءه الخبر بوصول قائد ابن طاهر إلى ما قرب

منه فخرج إليه فى أصحابه فالتقى هو والقائد واقتتلوا قتالاً شديداً. وكان القائد فى قلة فسير بريدا إلى عبد الله بن طاهر يخبره بما هو عليه فجعل عبد الله الرجال على البغال وجنبوا الخيل وأسرعوا السير فلحقوا بالقائد وهو يقاتل ابن السرى فلما رأى ابن السرى ذلك خاف ولم يقدر على الصبر فى القتال فانهزم وتساقط أكثر أصحابه فى الخندق فكان من هلك منهم بسقوط بعضهم على بعض أكثر ممن قتله الجند بالسيف ودخل ابن السرى مصر وأغلق الباب عليه وعلى أصحابه وحاصره عبد الله فلم يعد ابن السرى يخرج إليه واشتد على ابن السرى الأمر فأرسل إلى عبد الله ألف وصيف ووصيفة مع كل واحد منهم ألف دينار وكان إرسالهم ليلاً فردّهم عبد الله وكتب إليه: لو قبلت هديتك نهاراً لقبلتها ليلاً بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون فعندما وصل الكتاب إلى ابن السرى خاف كثيراً وطلب الأمان.

وبعد أن فرغ عبد الله من قتال ابن السرى وتم له فتح مصر سار بعسكره إلى الإسكندرية لاستخلاصها من أيدى المتغلبين عليها فقد كان خرج جمع من الأندلس فتغلبوا عليها واستتبت قدمهم فيها وأحدثوا بها من الأحدوثات ما راق لهم فلم يكن لأهل الإسكندرية قبل على ردهم لقيام فتنة ابن السرى وغيره ممن خرج وكان يقدم هؤلاء القوم رجل يدعى أبا حفص وكان داهية حسن السياسة فلما رأى أبو حفص كثرة عسكر عبد الله وأن لا قبل له على قتاله أجاب إلى الطاعة وسأله الأمان على أن يرتحل بمن معه عن الإسكندرية إلى حيث أطراف الروم فأعطاهم الأمان على ذلك فرحلوا ونزلوا بجزيرة اقريطش واستوطنوها وأقاموا بها فأعقبوا وتناسلوا وجعل عبد الله يدبر الأمور ويسوس البلاد حتى استوثقت منه الرعية بالطاعة فولاه المأمون الولاية على مصر والشام والجزيرة وأطلق كلمته فكبرت هيبته وحسده الناس وقال للمأمون بعض إخوته إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد علىّ بن أبى طالب ويتمنى أن تكون الخلافة فيهم وكذا كان أبوه قبله فأنكر المأمون ذلك ولم يصدقه فعاوده أخوه المعتصم وبالغ فى الأمر لكراهته فى عبد الله فوضع المأمون رجلاً. وقال له: امش فى هيئة القراء والنساك إلى مصر فادع جماعة من كبرائها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا ثم سر إلى عبد الله بن طاهر فادعه إليه واذكر له مناقبه ورغبه فيه وابحث عن باطنه وائتنى بما تسمع ففعل الرجل ذلك فاستجاب له جماعة من الأعيان فقعد بباب عبد الله بن طاهر فلما خرج عبد الله يريد الركوب نهض إليه الرجل وناوله رقعة فتناولها وسار فلما عاد إلى منزله أرسل يطلب الرجل فلما دخل

عليه الرجل قال له: قد فهمت ما في رقعتك فهات ما عندك فقال: ولى أمانك؟ قال نعم فدعاه إلى القاسم من ولد علىّ بن أبى طالب وذكر فضله وزهده وعلمه فقال عبد الله أتنصفنى ياهذا؟ قال نعم قال هل يجب شكر الله على العباد؟ قال نعم قال فتجىء إلىّ وأنا فى هذه الحالة من النعم لى خاتم فى المشرق جائز وخاتم فى المغرب جائز وفيما بينهما أمرى مطاع ثم ما ألتفت عن يمينى ولا شمالى وورائى وأمامى إلا رأيت نعمة لرجل (يعنى المأمون) أنعمها علىّ ومنة ختم بها رقبتى ويدا لائحة بيضاء ابتدأنى بها تفضلا وكرما فهل إذن تدعونى إلى أن أكفر بهذه النعم وهذا الإحسان وتقول اغدر بمن كان أولى بهذا وأحرى واسع فى إزالة خيط عنقه وسفك دمه أتراك لو دعوتنى إلى الجنة عياناً أكان الله يجب منى أن اغدر به وأكفر إحسانه وأنكث بيعته؟ فسكت الرجل فقال له عبد الله ما أخاف عليك إلا نفسك فارحل عن هذا البلد فإن السلطان الأعظم إذا بلغه ذلك كنت الجانى على نفسك ونفس غيرك فلما أيس منه جاء إلى المأمون فأخبره فاستبشر وقال: ذلك غرس يدى وألف أدبى وقراب سيفى ثم كتم الأمر على عبد الله حتى مات المأمون.

ولما كانت سنة اثنتى عشرة ومائتين نادى منادى المأمون: برئت الذمة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدمه على أحد من أصحاب الرسول وتكلم فى أشياء من التلاوة أنها مخلوقة وغير ذلك. (قلت): وتنازع الكتاب فى السبب الذى من أجله أمر بالنداء فى أمر معاوية فقيل فى ذلك أقاويل منها أن بعض سماره حدّث بحديث عن مطرف بن المغيرة بن شعبة الثقفى وقد ذكر هذا الخبر ابن بكار فى كتابه فى الأخبار المعروفة بالموفقيات التى وضعها للموفق وهو ابن الزبير، قال: سمعت المدائنى يقول قال مطرف بن المغيرة بن شعبة: وفدت مع أبى المغيرة إلى معاوية فكان أبى يأتيه يتحدث عنده ثم ينصرف إلىّ فيذكر معاوية ويذكر عقله ويعجب مما يرى منه إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء فرأيته مغتما فانتظرته ساعة وظننت أنه لشىء حدث فينا أو فى عملنا فقلت له: ما لى أراك مغتما منذ الليلة؟ قال يابنى إنى جئت من عند أخبث الناس قلت له وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به إنك قد بلغت منا ياأمير المؤمنين فلو أظهرت عدلا وبسطت خيرا فإنك قد كبرت ولو نظرت إلى إخوتك من بنى هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شىء تخافه فقال لى: هيهات هيهات ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل فوالله ما غدا أن هلك فهلك ذكره إلا أن يقول قائل أبو بكر ثم هلك أخو عدى فاجتهد وشمر عشر سنين فوالله ما غدا أن هلك فهلك ذكره إلا أن يقول قائل عمر ثم ملك أخونا عثمان فملك

رجل لم يكن أحد فى مثل نسبه فعمل ما عمل وعمل به فوالله ما غدا أن هلك وهلك ذكره وذكر ما فعل به وأن أخا هاشم يصرخ به فى كل يوم خمس مرات (أشهد أن محمدا رسول الله) فأى عمل يبقى مع هذا؟ لا أم لك، والله إلا دفنا دفنا قال: وإن المأمون لما سمع هذا الخبر بعثه ذلك على أن أمر بالنداء على حسب ما وصفنا وانتشرت الكتب فى الآفاق بلعنه على المنابر فأعظم الناس ذلك وأكبروه واضطربت العامة فأشير عليه بترك ذلك فتركه.

قال صاحب مروج الذهب: أخبرنا القاضى أبو محمد عبد الله بن أحمد بن يزيد الدمشقى بدمشق قال: لما توجه المأمون غازياً ونزل البديدون جاءه رسول ملك الروم فقال له إن الملك يخيرك بين أن يردّ عليك نفقتك التى أنفقتها فى طريقك من بلدك إلى هذا الموضع وبين أن يخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم بغير فداء ولا درهم ولا دينار وبين أن يعمر لك كل بلد للمسلمين مما خربت النصرانية ويرده كما كان وترجع عن غزاتك فقام المأمون ودخل خيمة فصلى ركعتين واستخار الله عزّ وجلّ وخرج فقال للرسول: قل له أما قولك ترد علىّ نفقتى فإنى سمعت الله تعالى يقول فى كتابنا حاكيا عن بلقيس ﴿وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدوننى بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ وأما قولك إنك تخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم فما فى يدك إلا أحد رجلين إما رجل طلب الله عزّ وجلّ والدار الآخرة فقد صار إلى ما أراد وأما رجل الدنيا فلا فك الله أسره، وأما قولك إنك تعمر كل بلد للمسلمين قد خربته الروم فلو أنى قلعت أقصى حجر فى بلاد الروم ما اعتضت بامرأة عثرت عثرة فى حال أسرها فقالت وامحمداه وامحمداه. عد إلى صاحبك فليس بينى وبينه إلا السيف. ياغلام اضرب الطبل فرحل فلم يثن عن غزاته حتى فتح خمسة عشر حصنا وانصرف فنزل على عين البديدون المعروفة بالقشيرة فأقام هنالك حتى ترجع رسله من الحصون فوقف على العين ومنع الماء فأعجبه ماؤها وبرده وصفاؤه وبياضه وطيب حسن الموضع وكثرة الخضرة فأمر بقطع خشب طوال وأمر به فبسط على العين كالجسر وجعل فوقه كالأزج من الخشب وورق الشجر وجلس تحت الكنيسة التى عقدت له والماء تحته وطرح فى الماء درهم صحيح فقرأ كتابته وهو فى قرار الماء لصفاء الماء ولم يقدر أحد أن يدخل يده فى الماء من شدة برده، فبينما هو كذلك إذ لاحت سمكة نحو الذراع كأنها سبيكة فضة فجعل لمن يخرجها سيفا فبادر بعض الفراشين فأخذها وصعد فلما صارت على حرف العين أو الخشب الذى عليه المأمون

اضطربت وأفلتت من يد الفراش فوقعت فى الماء كالحجر فنضح من الماء على صدر المأمون ونحره وترقوته فبلت ثوبه ثم انحدر الفراش ثانية فأخذها ووضعها بين يدى المأمون فى منديل تضطرب فقال المأمون: تقلى الساعة ثم أخذته رعدة من ساعته فلم يقدر أن يتحرك من مكانه فغطى باللحف والدواويج وهو يرتعد كالسعفة ويصيح البرد البرد ثم حوّل إلى المضرب ودثر وأوقدوا النيران حوله وهو يصيح: البرد البرد ثم أتى بالسمكة وقد فرغ من قليها فلم يقدر على الذوق منها وشغله ما هو فيه عن تناول شيء منها ولما اشتدّ به الأمر سأل المعتصم بختيشوع وابن ماسويه فى ذلك الوقت عن المأمون وهو فى سكرات الموت وما الذى يدل عليه علم الطب من أمره وهل يمكن برؤه وشفاؤه فتقدم ابن ماسويه وأخذ إحدى يديه وأخذ بختيشوع يده الأخرى وأخذا المجسة من كلتا يديه فوجدا نبضه خارجا عن الاعتدال منذرا بالفناء والانحلال والتزقت أيديهما ببشرته لعرق كان يظهر من سائر جسده كالزيت أو كلعاب بعض الأفاعى فأخبرا المعتصم بذلك فسألهما عن ذلك فأنكرا وأنهما لم يجداه فى شيء من الكتب وأنه دال على انحلال الجسد، ثم أفاق المأمون من غشيته وفتح عينيه من رقدته فأمر بإحضار ناس من الروم فسألهم عن اسم الموضع والعين فأحضروا له عدة أسرى وأدلاء وقيل لهم فسروا هذا الاسم (القشيرة) فقيل له تفسيره مد رجليك فلما سمعها اضطرب من هذا الفأل وتطير منه وقال سلوهم ما اسم الموضع بالعربية فقالوا الرقة وكان فيما علم من مولد المأمون أنه يموت بالموضع المعروف بالرقة وكان المأمون كثيراً ما يحيد عن المقام بمدينة الرقة فراراً من الموت فلما سمع هذا من الروم علم أنه الموضع الذى وعد به فيما تقدم من مولده وأن فيه وفاته وقيل إن اسم البديدون تفسيره مدّ رجليك والله أعلم بكيفية ذلك وأحضر المعتصم الأطباء حوله يؤمل خلاصه مما هو فيه فلما ثقل قال: أخرجونى أشرف على عسكرى وانظر إلى رجالى وأتبين ملكى وذلك فى الليل فأخرج فأشرف على الخيام والجيش وانتشاره وكثرته وما أوقدوا من النيران فقال يامن لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه ثم ردّ إلى مرقده، وأجلس المعتصم رجلاً يلقنه الشهادة لما ثقل مرضه فرفع الرجل صوته ليقولها فقال له ابن ماسويه لا تصح فوالله لا يفرق بين ربه وبين مانى فى هذا الوقت ففتح عينيه من ساعته وبهما من العظم والكبر والاحمرار ما لم ير مثله قط وأقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه ورام مخاطبته فعجز عن الكلام فرمى بطرفه إلى السماء وقد امتلأت عيناه دموعاً فانطلق لسانه وقال: يامن لا يموت ارحم من يموت وقضى من ساعته وذلك يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من

رجب سنة ثمان عشرة ومائتين وحمل إلى طرسوس فدفن بها فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وقيل فى سبب علته وموته غير ذلك أيضاً. قال ابن خلكان: وكان المأمون عظيم العفو جوادا بالمال عارفا بالنجوم والنحو وغيرهما من أنواع العلوم خصوصاً علم النجوم وكان يقول: لو يعلم الناس ما أجده فى العفو من اللذة لتقربوا إلىّ بالذنوب . وقال غيره إنه لم يكن فى بنى العباس أعلم من المأمون وكان يشتغل بعلم النجوم كثيراً وفى ذلك يقول أبو سعد المخزومى:

هل رأيت النجوم أغنت عن المأ ... مون شيئاً وملكه المأنوس

خلفوه بعرصتي طرسوس ... مثلما خلفوا أباه بطوس

وكان أبيض مليح الوجه مربوعاً طويل اللحية دينا عارفا بالعلم فيه دهاء وسياسة وخبرة بالأمور.

واستأمر على مصر فى خلافته المطلب فى سنة تسع وتسعين ومائة ثم ولى السرى بن الحكم سنة مائتين ثم ولى سليمان بن غالب سنة إحدى ومائتين ثم أعيد السرى بن الحكم فى السنة فما زال إلى أن مات فى سنة خمس ومائتين فولى بعده أبو نصر محمد بن السرى ثم تغلب عليها عبد الله بن السرى فى سنة ست وأقام مستبدا بحكمها إلى سنة عشرة وقد استفحل أمره وكادت تظهر كلمته ويستقل بملكها فوجه إليه المأمون عبد الله بن طاهر فى عسكر عظيم فقاتله وطال القتال بينهما واشتد وما زالا حتى استنقذها منه ابن طاهر بعد حروب يطول ذكرها وقد ذكر الوزير أبو القاسم المغربى أن البطيخ العبدلاوى الذى بمصر منسوب إلى عبد الله بن طاهر هذا قال ابن خلكان إما لأنه كان يستطيبه أو لأنه أول من زرعه بها، ثم ولى بعده عيسى ابن يزيد الجلودى ثم فى سنة ثلاث عشرة ومائتين ثار رجلان بمصر وهما عبد السلام وابن حليس فخلعا طاعة المأمون واستحوذا على الديار المصرية وتبعهما طائفة من القيسية واليمانية القاطنين بمصر وقطعا الخطبة للمأمون واستبدا بالحكم فشق ذلك على المأمون واستعظمه جداً وولى أخاه أبا إسحق بن الرشيد نيابة مصر مضافة إلى الشام فقدمها سنة أربع عشرة ومائتين وقاتل عبد السلام المذكور وابن حليس قتالا عنيفا وما زال حتى فتحها عنوة وقبض على عبد السلام وابن حليس وقتلهما وأقام بمصر ثم ولى عليها عمر بن الوليد التميمى ثم صرف وولى أبو عبيد عيسى بن يزيد الجلودى ثم ولى عبدويه بن جبلة سنة خمس عشرة ومائتين ثم صرف وولى عيسى ابن منصور مولى بنى نصر وفى أيامه قدم المأمون إلى مصر وزار الكثير من مدنها

وقراها وبقى عيسى إلى سنـة ثمان عشرة ومائتين وهى السنة التى مات فـيها المأمون كما تقدم.

ومات فى خلافة المأمون مرقس بطرك الإسكندرية بعد أن أقام عشرين سنة وقيل عشـرين سنة وسبعـين يوماً فـأقيم بعده يعـقوب وهو خمـسيهم وأصـله من مدينة الإسكندرية وهو راهب من دير أبو مقار وفى أيام مرقس هذا كانت الفتنة بين الأمين وعبد الله المأمـون ولدى هارون الرشيد كما تقـدم بيانه فى محله فانتـهبت النصارى يومئـذ بالإسكندرية وأحرقت لهم مواضع كـثيرة جدّاً وأحـرقت أيضاً ديارات وادى هبيب ونهبت فلم يبق من رهبانها إلا نفر قليل وكانت شدة عظيمة، وفى أيامه مضى بطرك الملكية إلى بغداد وعالـج بعض خطايا أهل الخليفة وقد كان طبيبـاً ماهراً عارفاً بالطب جيداً حاذقاً فيه فلما عوفيت تقدم إلى الخليفة فى رد كنائس الملكية التى كانت القبط تغلـبت عليها وأخـذتها منهم فكتب إلى عـامله بمصر بردها فـاستردها قـهرا وتغلب الملكيـون وقهـروا المتأصلين وعلت كلمـتهم وتولى البطـرك المذكور بطركـية الملكية أربعين سنة ثم مـات واشتد الجور على القبط لذلك وسامـهم العمال الخسف وضيق عليهم أصحـاب جباية الأموال فلما ضاق بهم الخناق انـتقضوا فى سنة ست عشرة ومائتين فـأوقع بهم الأوفشين وقاتلهم قتالاً عنيفـاً حتى نزلوا على حكم عبد الله المأمون ورجعوا إلى الطاعة فحكم فيهم بقـتل الرجال وبيع النساء والذرية فبيعوا وسبى أكثـرهم ومن هذا الحين ذلت القبط فى أرضهم وغلبهم المسلمـون على عامة القرى وشـددوا عليهم وضـيقوا وبـالغوا فى تذليلهم فـاتخذوا كتـابة الخراج حـرفة يستـعينون بها على الوقت بعـد أن كانوا سادة البـلاد وأصحاب حـقولها ومزارعـها وغياضهـا وبساتينها وكان لهم بعد ذلك مع المسلمـين أخبار كثيرة سـيأتى ذكرها فى محلها.

(الفصل الثامن)

(فى خلافة أبى إسحق إبراهيم المعتصم بن هارون الرشيد)

ثم قام بالأمـر بعد المأمون أخوه أبو إسـحق إبراهيم المتعصم بن هارون الرشـيد بويع له بالخـلافة يوم موت أخـيه سنة ثمـان عشـرة ومائتين هجـرية أى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة مـيلادية بعهـد منه فلما استوثق له الأمر قـام ملك الروم المسمى طبوفـيل قيصـر فى جمع عظيم وبلغ زمطة فسـبى وقتل وحرق وخـرب وسبى من

المسلمين والمسلمات خلقا كثيراً حتى بلغ ملطية وغيرها فقام المعتصم لقتاله وكان مغازيا شجاعاً ليس فى بنى العباس أشجع ولا أقوى قلبا منه وقصد عمورية التى كانت أعظم المدن عند الروم فوصلها وحاصرها خمسة وخمسين يوماً وخرب أسوارها ودخلها عنوة قيل وقتل فيها ثلاثين ألفا وسبى مثلها وفعل أفعالاً قد أضربنا عن إيرادها هنا، وكان المعتصم قد وجه عجيف بن عنبسة إلى بلاد الروم لقتالها ولكنه لم يطلق يده فى النفقات كما أطلق يد الأفشين ولم يمدحه على شىء فعله ألبتة وقد استقصر أمره فأحس عجيف بذلك وأكبره جداً فدخل على العباس بن المأمون يوماً وجعل يوبخه على فعله من مبايعة المعتصم عند وفاة المأمون ثم أخذ يشجعه على خلع بيعة المعتصم وإرجاع الأمر لنفسه فقبل العباس قوله وتاقت نفسه إلى الاستبداد بالأمر فدس رجلاً اسمه الحرث السمرقندى أحد أقارب عبيد الله بن الوضاح وكان العباس يأنس به ويميل إليه. وكان الحرث أديبا له عقل ومداراة فجعله العباس رسوله وسفيره إلى القواد فجعل يدور فى العسكر حتى استمال له جماعة من القواد وبايعوه وجماعة من خواص المعتصم فكان يقول لكل من بايعه: إذا أظهرنا أمرنا فليثب كل منكم بالقائد الذى هو معه وكل من بايعه من خواص المعتصم بقتل المعتصم وكذلك فعل مع غيرهم من بقية الخواص الذين بايعوه فضمنوا له ذلك فلما كان اليوم الذى دخل فيه المعتصم الدرب بعسكره يريد أنقرة وعمورية أشار عجيف إلى العباس أن يثب بالمعتصم فى الدرب ويقتله ويرجع إلى بغداد فإن الناس يفرحون بانصرافهم من الحرب فأبى العباس ذلك. وقال: لا أفسد هذه الغزوة حتى دخلوا بلاد الروم وافتتحوا عمورية فعاود عجيف العباس فى الركوب على المعتصم وقتله ودس إلى العسكر بأن ينتهبوا الغنائم التى غنموها من عمورية كى لا يبقى مع المعتصم أحد فيتمكن العباس من قتله فلم يطاوعه العباس ولم يأذن أحدا ممن بايعوه بالوثوب وعلم المعتصم بما ينويه العباس وبالحال جميعه وبجميع من بايعه من القواد وغيرهم فأحضر العباس ليلة فى مجلس الشراب وجعل يسقيه حتى سكر ثم استحلفه أن لا يكتمه من أمره شيئاً فشرح له أمره كله فأمر به فقيدوه فى الحال وسلمه إلى الأفشين فحبسه وتتبع المعتصم أولئك القواد فلما نزل بمنبج طلب العباس الطعام فقدم إليه طعاماً كثيراً فأكل ومنع الماء وأدرج فى مسح فمات من يومه وفعلوا كذلك بعجيف ومن كان معه ثم قدم راجعاً إلى الثغور.

وتمم المعتصم المدينة التى كان أنشأها الرشيد ولم يستتمها وذلك فى سنة عشرين ومائتين وسماها سر من رأى فرخمها الناس وقالوا سامرا وصارت دارا لملك

العباسيين من خلافة المعتصم، والمعتصم هذا أول من استخدم الترك فى جنده لشدتهم وبأسهم وخبرتهم بالحروب إذ كانت قد قلت حماسة العرب وارتاحوا للمعيشة الرافهة حتى أنهم لم يجسروا على مقابلة الروم عندما قام ملكهم طيوفيل لقتال المعتصم ولم يردّه إلا الترك وكان لذلك يحب الأتراك وشراءهم من أيدى مواليهم فاجتمع له منهم أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزى عن سائر جنوده وقد كان اصطنع قوماً فى حوفى مصر من حوف اليمن وحوف قيس فسماهم المغاربة واستنقذ رجال خراسان من الفراعنة وغيرهم من الأشروسية فكثر جيشه وضخم وكانت الكلمة بين عساكره للترك فتكبروا وجاروا وظلموا وكانوا يؤذون العوام بمدينة بغداد بجريهم الخيول فى الأسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمة لامرأة أو شيخ كبير أو صبى أو ضرير فأغضب ذلك المعتصم وعزم على النقلة منهم والجلاء عن بغداد وأن ينزل فى فضاء من الأرض فنزل الراذان على أربع فراسخ من بغداد فلم يستطب هواءها فلم يزل يتنقل وينقر المواضع والأماكن إلى دجلة وغيرها حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالقاطول فاستطاب الموضع وكان هناك قرية يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر المعروف بالقاطول آخذا من دجلة فبنى هناك قصرا وبنى الناس وانتقلوا عن مدينة السلام وخلت من السكان إلا اليسير وكان فيما قاله بعض العيارين فى ذلك معيرا للمعتصم بانتقاله عنهم:

أيا ساكن القاطول بين الجرامقه   تركت ببغداد الكباش البطارقة

وكان المعتصم داهية كبير السياسة مقداماً صعب المراس طلب الإمام أحمد قبل غزوته لعمورية وكان الإمام فى سجن المأمون وامتحنه بخلق القرآن بناء على وصية أخيه المأمون وعقد له مجلسا للمناظرة وفيه عبد الرحمن بن إسحق والقاضى أحمد ابن أبى دواد وغيرهما فناظروه ثلاثة أيام ولم يزل معهم فى جدال إلى اليوم الرابع فأمر بضربه فضرب بالسياط قيل ولم يزل عن الصراط إلى أن أغمى عليه ونخسه عجيف بالسيف ورمى عليه بارية وديس عليه ثم حمل وصار إلى منزله وكانت مدّة مكثه فى السجن ثمانية وعشرين شهرا ولم يزل بعد ذلك يحضر الجمعة والجماعات ويفتى ويحدّث إلى أن مات المعتصم وولى الواثق فأظهر ما أظهره المأمون والمعتصم من القول بخلق القرآن. وقال للإمام أحمد: لا تجمعن إليك أحداً ولا تساكنى فى بلد أنا فيه فأقام الإمام أحمد مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق

وولى المتوكل فرفع المحنة وأمر بإحضار الإمـام أحمد وإكرامه وإعزازه واطلق له مالاً كثيراً قيل فلم يقبله وفرّقـه وأجرى المتوكل على أهل الإمام وولده فى كل شهر أربعة آلاف درهم. قيل فلـم يرض الإمام بذلك، وذكر العراقى فى مجمع الأخبار وغيره أن الإمام أحمد نوظر فى الأيام الثلاثة وأن المعـتصم كان يخلو به ويقول له: ويحك ياأحمد أنا والله عليك شفيق وإنى لأشـفق عليك مثل شفقتى على ابنى هارون يعنى الواثق فأجبنى فـوالله لئن أجبتنى لأطلقن غلك بيدى ولأطأن عـتبتك ولأركبن إليك بجندى فيقول: ياأمـير المؤمنين أعطونى شيئاً من كتـاب الله تعالى أو سنة رسول الله ﷺ فإذا طال به المجلس ضجر وقام وردّ أحمـد فى الموضع الذى كان فيه وتتردّد إليه رسل المعتصم يقـولون ياأحمد أمير المؤمنين يقول لك ما تقـول فى القرآن؟ فيرد عليهم كمـا ردّ أولاً فلما كان فى اليوم الثالث طلب للمناظرة فـأدخل على المعتصم وعنده محـمد بن عبد الملـك الزيات والقاضى أحمد بن داود فـقال المعتـصم كلموه وناظروه فلم يزالوا معه فى جدال إلى أن قالوا: ياأمير المؤمنين اقتله ودمه فى أعناقنا فرفع المعتصم يده ولطم بها وجه الإمام أحمد فخر مـغشياً عليه فتمعرت وجوه قوّاد خراسان وكان عم أحـمد منهم فخاف الخليفة منهم على نفـسه فدعا بماء ورش على وجهه فلما أفاق من غشيـته رفع رأسه إلى عمه وقال: ياعم لعل هذا الماء الذى رش على وجهى غصب عليه صاحبه فقـال المعتصم: ويحكم أما ترون ما يتهجم به علىّ هذا وقرابتى من رسـول الله ﷺ؟ لا رفعت السوط حتى يقول القـرآن مخلوق ثم التفت إلى أحـمد وقال وأعـاد عليه القول فرد أحـمد كالأول فلم يزل كـذلك حتى ضجر وطال المجلس فعند ذلك قال: عليك لعنة الله لقد كنت طمعت فيك غير هذا خذوه اخلعوه اسـحبوه فأخذ وسـحب وخلع ثم قال المعتصم: السيـاط قال العراقى وشدوا يـديه فخلعت ولم يزل أحـمد يتـوجع منها حـتى مات. ثم قـال المعتـصم للجلادين تقدموا ونظر إلـى السياط فقال ائتوا بغيـرها. ثم قال لأحدهم زمه وأوجع قطع الله يدك فتقدم وضربه سـوطين ثم تنحى ثم قال لآخر أزمه وشد قطع الله يدك فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى ولم يزل يدعو رجلاً رجلاً فيضربه كل واحد سوطين ويتنحى ثم قام المعتصـم وجاء وهم محدقون به وقال: ياأحمـد تقتل نفسك؟ أجبنى حتى أطلق عنـك بيدى وجعل بعـضهم يقول له ياأحـمد أمامـك على رأسك قائم فأجـبه وعجيف ينخسه بـالسيف ويقول أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وبعضهم يقول ياأمير المؤمنين اجعل دمه فى عنقى فرجع المعتصم إلى الكرسى. ثم قال للجلاد زمه قطع الله يدك ثم جاء المـعتصم إليـه ثانياً وقال ياأحـمد أجبـنى فقال كـالأول فرجع

المعتصم وجلس على الكرسى ثم قال للجلاد شدّ عليه قطع الله يدك، قال أحمد فذهب عقلى فما عقلت إلا وأنا فى حجرة مطلق عنى قال الراوى: وكل ذلك وهو صائم لم يفطر ﷺ وضرب ثمانية عشر سوطا، ووجه المعتصم رجلا ينظر الضرب والجراحات ويعالجه فنظر إليه وقال والله لقد رأيت من ضرب ألف سوط فما رأيت أشدّ ضرباً من هذا ثم عالجه وبقى أثر الضرب بينا فى ظهره إلى أن مات والكلام على المحنة بخلق القرآن كثير جداً أضربنا عن إيراده هنا خوف الإطالة.

ومات المعتصم فى سنة سبع وعشرين ومائتين على دجلة فى قصره المعروف بالخاقانى يوم الخميس لثمان عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول وقيل لساعتين من ليلة الخميس وهو ابن ثمان وأربعين سنة وقيل ست وأربعين سنة وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية شهور وثمانية أيام وهو الثامن من خلفاء بنى العباس قيل وخلف من الذهب ثمانية آلاف دينار ومن الدراهم ثمانية عشر ألف ألف درهم ومن الخيل ثمانية آلاف فرس ومثلها من الجمال والبغال ومن المماليك ثمانية آلاف مملوك وثمانية آلاف جارية. وكان يقال له الثمانى لأجل ذلك وكان أميًا وذلك أنه كان له مملوك صغير يذهب معه إلى الكتاب فمات فقال له الرشيد مات مملوكك ياإبراهيم فقال استراح من الكتاب ياأمير المؤمنين فقال الرشيد: أو بلغ منك الكتاب إلى هذا الحد؟ اتركوا ولدى لا تعلموه فكان أمياً ولذلك، قال زنام الزامر: أفاق المعتصم فى علته التى مات فيها فركب فى الزلال فى دجلة وأنا معه فمر بإزاء منازله فقال يازنام ازمر لى:

يامنزلا لم تبل أطلاله	حاشى لأطلالك أن تبلي
لم أبك أطلالك لكنني	بكيت عيشي فيك اذ ولى
والعيش أولى ما بكاه الفتى	لابدّ للمحزون أن يسلى

قال: فما زلت أزمر له هذا الصوت وأكرره وقد تناول منديلاً بين يديه فما زال يبكى فيه وينتحب حتى رجع إلى منزله . اهـ.

ولما احتضر جعل يقول: ذهبت الحيل ليست حيلة حتى أصمت ثم مات ودفن بسامرّا.

واستعمل المعتصم على مصر فى خلافته نصر بن كيدر السعيدى سنة تسع عشرة ثم ولى المظفر بن كيدر ثم ولى موسى بن أبى العباس الحنفى ثم ولى مالك بن كيدر

سنة أربع وعشـرين ومائتين ويبقى أميـرا عليها فى خـلافة الواثق بالله إلى سنة تسع وعشرين ومائتين كما سيأتى ذكره فى محله.

ومات فى خلافة المعتصم يعقوب بطرك الإسكندرية بعد إقامته بطركا عشر سنين وقيل عشر سنين وثمانية أشهر فأقيم بعده سيماون وهو سمعان حادى خمسيهم وفى أيام يعقوب البطرك المذكور خفت الشدّة وزال البأس عن المسيحيين فعمرت ديارات القبط وعاد رهبانهم إلى مواطنهم وعمرت كنيسة بيت المقدس لمن يرد إليها من الحاج من نصارى مصـر وقدم على يعقوب المذكـور ديونوسيس بطرك أنطاكيـة زائراً فأكرم وفادته ولبث طويلاً ثم عاد إلى كرسيه ومات أيـضاً سمعان البطرك بعد أن أقام سنة وقيل سبعة أشهر وستة عشر يوماً وقيل غير ذلك وكان راهباً من رهبان دير أبو مقار فخلى كرسى البطريكية بعده سنة وسبعـة وعشرين يوماً. ثم أقيم بعده يوساب وهو يوسف ثانى خمسيهم وأصله من رهبان دير أبو مقار أيضاً وكان تقديمه فى سنة سبع وعشـرين ومائتين بديـر أبو مقار بوادى هبـيب وهى السنة التى مات فـيها الخليـفة المعتصم بن هارون الرشيد كما تقدم.

(الفصل التاسع)

(فى خلافة هارون الواثق بالله)

ثم قام بالأمر بعد المعتـصم ابنه هارون الواثق بالله بويع له بالخلافة بسرّ من رأى التى هى مدينة السامرة يوم مـوت أبيه المعتصم سنة سبع وعشـرين ومائتين هجرية، أى سنة إحدى وأربعين وثلثمـائة ميلادية وتقدمت البيعة إلى بغداد واستقر له الأمر ببغداد وغيرها وكـان واسع المعروف متعطفا على أهل بيته محـبا للرعية ولكنه سلك مسلك أبيه وعـمه فى القول بخلق القرآن على أنه فى سنة ثلاثين ومـائتين لما كانت الفدية بين المسلمين والروم على نهر اللامس على مسيرة يومين من طرسوس بعد ما وقع بين الفريقين من الحروب الهائلة أمر الواثق خاقان خادم الرشيد الذى كان الفداء على يديه يومئذ أن يسأل أسرى المسلمين واحـداً فواحداً فمن قال منهم بخلق القرآن وأن الله سبحانه وتعـالى لا يرى فى الآخرة بالأبصار نودى به وأعطى ديناراً ومن لم يقل ذلك ترك فى أيدى الروم، فلما كان فى يوم عاشوراء أتت الروم ومن معهم من الأسرى وكان الأمر بين الفريقين فكان المسلمون يطلقون أسيراً والروم أسيراً فيلتقيان وسط الجسـر وما زالوا حتى فـرغوا قيل وكـانت عدة أسارى المسلمـين أربعة آلاف

وأربعمـائة وستين والصبـيان ثمانمائة ومائة من أهل الذمـة فلما فاض الخبـر بما فعله الواثق من إكـراه الناس على القول بـخلق القرآن أكـبروا هذا الأمـر وأعظموه جـداً فخرج عـلى الواثق لذلك أحمد بن نصر أحـد الفقهاء وقـام معه آخر اسـمه هارون السراج وآخر اسمه طالب وغيرهما ودعوا الناس إلى أحمد بن نصر فبايعه خلق على الأمر بالمعروف والنهى عن المـنكر وفرقوا الأموال فى الناس دينارا لكل واحد فـفشا أمره وعلم فـأرسل الواثق من قبض على أحمد بن نصـر المذكور وعلى طالب ومن نحا نحوهما وأرسلوا إلى الواثق فى سـامرا قيل فجلس لهم مجلساً عامّـا حضر فيه أحمد بن أبى داود فلم يسأله الواثق عن خروجه بل سأله عن خلق القرآن فقال: هو كـلام الله ثم سأله عـن رؤية الله عزّ وجلّ فى الآخـرة فـقال جـاءت بهـا الأخبـار الصحيـحة ونصيحـتى أن لا يخالف حديث رسول الله ﷺ فسـأل الواثق العلماء حوله فقالوا باستباحة دمه فدعا الواثق بالصمصامة وهو سيفه المشهور فانتضاه ومشى إليه وضربه على حبل عاتقه ثم على رأسه ثم وخـزه فى بطنه ثم أمر سيما الدمشقى بأن يحز رأسه فـحزها ونصبه ببـغداد وصلب شلوه عند بابها فزالت الفـتنة واختفى أمـرها، وكان الواثق محبا للنظر مكرما لأهله مبغـضاً للتقليد وأهله محبا للأشراف على علوم الناس وآدابهم ممن تقدم وتأخـر من الفلاسفة والمتـطببين فجرى بـحضرته أنواع من العلوم فى الطبـيعيـات وما بعد ذلك من الإلهـيات فقـال لهم الواثق: قد أحببت أن أعلم كـيفية إدراك مـعرفة الطبيب ومأخـذ أصوله أذلك من الحس أم من القياس والسنة أم يدرك مـن جهة العقل أم على ذلك وطريقه يعلـم عندكم من جهة السمع كما يذهب إليه جماعة من أهل الشريعـة وقد كان ابن بختيشوع وابن ماسويه وميـخائيل فيـمن حضر وقـيل إن حنين بن إسحق وسلمـويه فيمن حـضر فى هذا المجلس فقـال منهم قائل: زعم طوائف من الأطباء وكثير من مـتقدميهم أن الطريق الذى يدرك به الطب هو التجربة فقط وحـدّوه بأن يتكرر الحس على محسوس واحد فى أحوال مـتغايرة فـيوجد بالحس فـى آخر الأحوال كـما يوجد فى أولهـا والحافظ لذلك المجرب وزعموا أن التجربة ترجع إلى مباد أربعة هن لها أوائل ومقدمات وبها علت وصحت وإليها تنقـسم التجربة فصارت بذلك أجزاء لها فزعـموا أن قسماً من تلك الأقسام طبيعى وهو ما تفعله الطبيعة فى الصحيح والمريض من العرق والرعاف والإسهال والقىء التى تعـقب فى المشاهدة منفعة أو ضرراً وقسـما إرادياً وهو ما يقع من قبل النفس الناطقة وذلك كمثل منام يراه الإنسان وهو أن يرى كأنه عالج مريضاً به علة مشاهدة معـقولة بشىء من الأشياء معروف فـيبرأ ذلك المريض من مرضه أو يخطر مثل ذلك بباله فى حال فكره فيتردد ويغلب ظنه بعـطبه فيجريه بأن يفعله كما

يرى فى منامه فيجده كما يرى أو يخالف ذلك فيفعله مراراً فيجده كذلك وقسما هو نقل وهو على ثلاثة أقسام إما أن ينقل الدواء الواحد من مرض إلى مرض يشبهه وذلك كالنقلة من ورم الحمرة إلى الورم المعروف بالنملة وإما من عضو إلى عضو يشبهه وذلك كالنقلة من السفرجل إلى الزعرور فى علاج انطلاق البطن. وكل ذلك لا يعمل به عندهم إلا بالتجربة وذهب طائفة أخرى منهم إلى أن الحيلة فى تقريب أمر صناعة الطب وتسهيلها أن ترد أشخاص من العلل ومولداتها إلى الأصول الحاصرة الجامعة لها إذا كان لا غاية لتولدها وأن يستدل على الدواء من نفس الطبيعة والمرض الحاضر الموجود فى الحال والوقت دون الأسباب الفعالة التى عدمت ودون الأزمان والأوقات والأسباب والعادات ومعرفة طبائع الأعضاء وحدودها إلى آخرما قال مما لا موضع هنا لإيراده. قال المسعودى: وللواثق أخبار حسان مما كان فى أيامه من الأحداث وما كان يجرى من المباحثة فى العقليات والسمعيات فى جميع الفروع والأصول مما لا يسع المقام شرحها.

واعتل الواثق فصلى بالناس يوم النحر أحمد بن أبى داود وكان قاضى القضاة يومئذ فدعا فى خطبته للواثق فقال: اللهم اشفه مما ابتليته قيل وكان الواثق مؤثراً لكثرة الجماع فقال لطبيبه: اصنع لى دواء لذلك فقال الطبيب ياأمير المؤمنين لا تهدم بدنك بهذا الفعل واتق الله فى نفسك فقال: لابد من ذلك فأمر الطبيب أن يؤخذ لحم سبع فيغلى عليه سبع غليات بخل خمر ويتناول منه عند الشراب وزن ثلاثة دراهم ولا يتجاوز هذا القدر فأمر بذبح سبع فذبح وطبخ لحمه وصار يتنقل منه على شرابه فلم يكن إلا قليل حتى استسقى فأجمع رأى الأطباء على أن لا دواء له سوى أن يبزل بطنه ثم يترك فى تنور قد سجر بحطب زيتون حتى يصير جمرا ثم يلج فيه ففعل ذلك ومنع من الماء ثلاث ساعات فجعل يستغيث ويطلب الماء فلم يسقوه فصار فى جسده نفاطات مثل البطيخ ثم أخرجوه فجعل يقول: ردونى فى التنور وإلا مت فردوه فسكن صياحه ثم انفجرت تلك النفاطات وقطر منها ماء فأخرج من التنور وقد أسودّ جلده ومات بعد ساعة قيل ولما احتضر أنشد يقول:

الموت فيه جميع الناس تشترك   لا سوقة منهم يبقى ولا ملك
ما ضر أهل قليل في مقابرهم   وليس يغني عن الملاك ما ملكوا

ثم أمر بالبسط فطويت وألصق خده بالأرض وجعل يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه، فلما مات غطوه بثوب واشتغل الناس بالبيعة للمتوكل فجاء جرذ من البستان فاستل عينيه وذهب بهما ولم يعلموا به حتى غسلوه وهذا من

اغرب ما سمع، قال صاحب حياة الحيوان. حكى أن ذلك له سبب وهو أن أحمد ابن محمد الواثقى. قال كنت أمرض الواثق إذ لحقتـه غشية فما شككت أنه قد مات فقـال بعضنا لبعض: تقـدموا فمـا جسر أحـد منا فتقـدمت أنا فلما أردت أن أضع إصبعى على أنفه فتح عينه فكدت أن أموت فـزعاً وتأخرت إلى خلفى فعلقت قبيعة السيف بالعـتبـه وذعرت فاندق السـيف فكاد أن يدخل فى لحمى فـخرجت وطلبت سيفا غـيره ثم رجعت فوقفت عنده فوجـدته مات بلا شك فشددت لحيته وغـمضته وأخذ الفراشون تلك الفرش الثمينة لـيردوها إلى الخزانة وترك وحده فى البيت فقال لى أحمد بن أبى داود القاضى: إنا نشـتغل بعقد البيعة فاحـفظه حتى يدفن فرجعت وجلست عند الباب فـسمعت بعد ذلك حركـة أرعبتنى فدخلت فإذا بجـرذ قد جاء فاستل عينـيه فأكلهما فقلت لا إله إلا الله هذه العـين التى فتحها من ساعـة فعثرت واندق سيـفى هيبـة لها . اهـ. ، ومات الـواثق بسر من رأى فى رجب سنة اثنتـين وثلاثين ومائتين هجرية أى سنة تسع وستين وثمانمائة للميلاد وهو ابن ست وثلاثين سنة وأشهـر وكانت خلافـته خمس سنين وتـسعة أشهـر وكان أبيض مليـحاً يعلوه اصفرار حسن الـلحية فى عينه نكتة عالماً أديبـاً جيد الشعر شجـاعاً مهيباً حـازماً فيه جبروت كأبيه.

واستعمـل على مصر فى خلافته عـيسى بن منصور حيث أعاده إليهـا ثانية بعد خلع مالك بن كـيدر فى أخريات سنة تسع وعشـرين ومائتين وبقى أميراً عـليها إلى خلافة جعفر المتوكل فى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين كما سيأتى ذكره فى محله.

(الفصل العاشر)

(فى خلافة جعفر المتوكل على الله)

ثم قام بالأمر بعد الواثق أخوه جعـفر المتوكل على الله بويع له بالخلافة بسر من رأى التى هى سـامرا يوم مـوت أخيـه الواثق بعهـد منه فى ذى الحـجة سنة اثنتـين وثلاثين ومائتين للهـجرة أى سنة ست وأربعين وثمانمائة للمـيلاد. وذلك أنهم كانوا أتوا بمحمد ولد الواثق ليبايعوه خلافاً للعهد فألبسوه قلنسوة سوداء وكان حدثاً صغيراً فلما رأوه على هذا الحال عـدلوا عن رأيهم وأحضروا جعفرا أخـا الواثق بن المعتصم وبايعوه وأخلوا عن ولده محمد المذكور ولقبـوا جعفرا بالمتوكل وكان عمره يوم بويع ستا وعـشرين سنة وأول من سلم عليه بالخـلافة أحمد بن أبى داود وألبـسه الطويلة وعممـه وقبل بين عينيه وقـال له: السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحـمة الله وبركاته

فلما استقرت به الخلافة رفع المحنة بخلق القرآن وأظهر السنة وأمر بنشر آثار صاحب الشريعة. قال ابن خلكان فى ترجمته أنه قال: ركبت إلى دار الواثق فى مرضه الذى مات فيه لا عودة فجلست فى الدهليز أنتظر الإذن فبينما أنا جالس إذ سمعت النياحة عليه وإذا بإيداخ ومحمد بن عبد الملك الزيات يأتمران فى أمرى فقال نقتله فى التنور. وقال إيداخ بل ندعه فى الماء البارد حتى يموت ولا يرى عليه أثر القتل فبينما هما على ذلك إذ جاء أحمد بن أبى داود القاضى فدخل وحدثهما كلاماً لا أعقله لما دخلنى من الخوف وشغل القلب بأعمال الحيلة فى الهرب فبينما أنا كذلك وإذا بالغلمان يتعادون ويقولون: انهض يامولانا فلم أشك إنى داخل لأبايع ولد الواثق ثم ينفذ فىّ ما قدّر فلما دخلت بايعونى فسألت عن الحال فأعلمت أن ابن أبى داود كان السبب فى ذلك ثم إن المتوكل قتل إيداخ بالماء البارد وابن الزيات فى التنور وهذا من أغرب الاتفاق وعجيب الظفر ومن العجب أيضاً أن محمد بن عبد الملك الزيات هو الذى صنع التنور ليعذب فيه الناس فعذبه الله فيه، انتهى.

وكان المتوكل شديد البغض لعلى بن أبى طالب وذريته فأمر فى سنة ست وثلاثين ومائتين بهدم قبر الحسين بن علىّ وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يبذر ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه فنادى بالناس فى تلك الناحية من وجدناه عند قبر الحسين بعد ثلاثة أيام حبسناه فى المطبق فخاف الناس وهربوا وتركوا زيارته وخرب وزرعوا موضعه فلم يبق له أثر وكان للمتوكل نديم اسمه عبادة المخنث فكان إذا حضر عند المتوكل فى مجلس شراب يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو أصلع ثم يرقص بين يدى المتوكل والمغنون يغنون قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين يريدون بذلك علىّ بن أبى طالب فإنه كان كذلك والمتوكل يشرب ويضحك ففعل ذلك يوماً والمنتصر حاضر فأومأ إلى عبادة يتهدده فسكت عبادة خوفاً منه فقال المتوكل: ما حالك ياعبادة؟ فقام وأخبره فقال المنتصر ياأمير المؤمنين إن الذى يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس إنما هو ابن عمك وشيخ أهل بيتك وبه فخرك فكل أنت لحمه إذا شئت ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه فقال المتوكل للمغنين غنوا جميعاً:

غار الفتى لابن عمه رأس الفتى في حرامه

قيل فكان ذلك من الأسباب التى استحل بها المنتصر قتل المتوكل وقيل إن الذى أغراه على بغض علىّ وأهل بيته إنما هم جماعة ممن أشتهروا بالتعصب والبغض لعلى. قال صاحب الكامل: منهم علىّ بن الجهم الشاعر الشامى من بنى شامة بن

لؤى وعمرو بن الرخجى وأبو السمط من ولد مروان بن أبى حفصة من موالى بنى أمية وعبد الله بن محمد بن الهاشمى المعروف بابن أترجة وكانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم والإساءة إليهم ثم حسنوا له الوقيعة فى أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم فى الدين ولم يبرحوا به حتى ظهر منه ما كان فغطت هذه السيئة جميع حسناته وكان من أحسن الناس سيرة ومنع الناس من القول بخلق القرآن إلى غير ذلك من المحاسن. اهـ.

وفى خلافة المتوكل جاءت الروم إلى دمياط فى ثلثمائة مركب حربية مع ثلاثة من كبار البحر وأرسوا على مقربة من دمياط واتفق قبل وصولهم أن عنبسة بن إسحق الضبى الذى كان يومئذ على معونة مصر لما حضر العيد أرسل فى طلب جميع الجند الذين بدمياط إلى مصر فساروا منها فجاءها الروم وهى خالية فدخلوها وأعملوا فى أهلها القتل وأحرقوا وسبوا ودمروا جامعها وأخذوا ما بها من سلاح وكراع وغير ذلك وسبوا من النساء المسلمات والمسيحيات زهاء ستمائة امرأة وأوقروا سفنهم من ذلك وكان عنبسة قد حبس بشر بن الأكشف بدمياط لأمر نقمه عليه فلما أحس بشر بدخول الروم إلى البلد كسر قيوده وخرج فقاتلهم وتبعه فى ذلك جماعة وسارت الروم إلى أشتوم (تنيس) وكان عليه سور وبابان من حديد قد بناه المعتصم فى خلافته فنهبوا ما فيه من السلاح والمتاع وأخذوا البابين وأقبلوا راجعين ولم ينل منهم أحدا، وفى خلافته قامت الفتنة بين البجاة أهل النوبة وأهل مصر وقد كان بينهما هدنة من أيام الفتح وكان فى بلاد البجاة معادن الذهب يؤدون منها الخمس إلى مصر فامتنعوا أيام المتوكل وقاموا على من كان من أهل مصر بتلك المعادن فقتلوه فكتب صاحب البريد بذلك إلى المتوكل فاستشار فى غزوهم فقالوا له: إنهم أهل إبل وشاه وأن بين بلادهم وبلاد المسلمين مسيرة شهر ولابد فيها من الزاد وإن فنيت الأزواد هلك الجند فأمسك عنهم وخاف أهل الصعيد من شرهم فولى المتوكل محمد ابن عبد الله القمىّ على أسوان وقفط والأقصر وإسنا وأرمنت وأمره بحرب البجاة وكتب إلى عنبسة بن إسحق الضبى عامل مصر يومئذ بتجهيز العساكر معه فسيره فى عشرين ألفا من الجند والمتطوعة وحملت المراكب من القلزم دقيقاً وتمرا وأدما إلى سواحل بلاد البجاة فلما انتهوا إلى حصونهم وقلاعهم زحف عليهم ملكهم واسمه على بابا فى أضعاف جند القمى على المهارى وطاول على بابا عسكر القمى كى تفنى أزوادهم فيهلكون بلا حرب ولا قتال فلما جاءت المراكب بالمؤنة وفرق القمى فى أصحابه ناجزهم البجاة الحرب. وكانت إبلهم نفورة فأمر القمى جنده باتخاذ

الأجراس بخيلهم ثم حملوا علهيم فانهزموا وأثخن فيهم قتلاً حتى استأمنوا على أداء الخراج عما مضى ولما يأتى.

وكانت أيام المتوكل أحسن الأيام وأنضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل ولم يكن المتوكل يوصف فى عطائه وبذله بالجود ولا بتركه وإمساكه بالبخل ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بنى العباس ظهر فى مجلسه اللعب والمضاحك والهزل مما قد استفاض فى الناس تركه إلا المتوكل فإنه السابق إلى ذلك والمحدث له وأحدث أشياء من نوع ما ذكر اتبعه فيها الكثير من خواصه وأكثر رعيته فلم يكن فى وزرائه والمتقدمين من كتابه وقوّاده من يوصف بجود أو أفضال أو يتعالى عن مجون وطرب وكان الفتح بن خاقان التركى مولاه أغلب الناس عليه وأقربهم منه وأكثرهم تقدماً عنده ولم يكن الفتح المذكور مع هذه المنزلة من الخلافة ممن يرجى فضله أو يخاف شره ولما كانت سنة خمس وثلاثين ومائتين هجرية عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة وهم محمد ولقبه المنتصر بالله وأبو عبد الله محمد وقيل طلحة وقيل الزبير ولقبه المعتز بالله وإبراهيم ولقبه المؤيد بالله وعقد لكل منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل وأقطع كلا منهم إقطاعاً محدودا وطير الأخبار بذلك إلى الآفاق فزاد الناس فى تعظيمهم وصارت المواكب تغدو وتروح على أبوابهم.

وخرج الجند فى خلافته وكادوا يشقون عصا الطاعة لولا ما استعمله من الدهاء والحيلة قال سعيد بن نكيس: كنت واقفاً بين يدى المتوكل فى مضربه بدمشق إذ سعت الجند واجتمعوا وضجوا يطلبون الأعطية ثم خرجوا إلى تجريد السلاح والرمى بالنشاب وأقبلت أرى السهام ترتفع فى الرواق فقال لى: ياأبا سعد ادع لى رجاء الحضاريّ فدعوته فقال له: يارجاء أما ترى ما خرج إليه هؤلاء فما الرأى عندك؟ فقال ياأمير المؤمنين قد كنت مشفقاً فى هذا السفر من مثل هذا فأشرت بما أشرت من تأخيره فمال المتوكل إليه وقال: دع ما مضى وقل الآن مما حضر برأيك فقال: ياأمير المؤمنين لتوضع الأعطية. فقال له فهذا ما أرادوا فيه مع ما خرجوا إليه ما يعلم قال: ياأمير المؤمنين مر بهذا فإن الرأى بعده فأمر عبد الله بن يحيى بوضع الأعطية فيهم فلما خرج المال وبدئ بإنفاقه دخل رجاء فقال مر الآن ياأمير المؤمنين بضرب الطبل للرحيل إلى العراق فإنهم لا يأخذون مما أخرج إليهم شيئاً ففعل ذلك فترك الناس الأعطية حتى إن المعطى ليتعلق بالرجل ليعطيه رزقه فلا يأخذه، قال سعيد: وقد كان الأتراك رأوا أنهم يقتلون المتوكل بدمشق وكان حالاً بها فلم يمكنهم فيه حيلة بسبب

بغا الكبير فدبروا فى إبعاده عنه وطرحوا فى مضرب المتوكل وهو بدمشق الرقاع يقولون فيها : إن بغا دبر أن يقتل أمير المؤمنين والعلامة فى ذلك آن يركب فى يوم كذا فى خيله ورجله فيأخذ عليه أطراف عسكره ثم يأخذ جماعة من الغلمان العجم يدخلون عليه فيفتكون به فقرأ المتوكل الرقاع فبهت مما تضمنته ودخل فى قلبه من بغا كل مدخل وشكا إلى الفتح ذلك. وقال له فى أمر بغا والإقدام عليه وشاوره فى ذلك فقال: ياأمير المؤمنين إن الذى كتب الرقاع قد جعل للأمر دلائل فى وقت بعينه من ركوب الرجل الأطراف من العسكر وتوكيله بنواحيه فبعد ذلك يتبين الأمر وأنا أرى أن تمسك فإن صح هذا الدليل نظرنا كيف يفعل وإن بطل ما كتب به فالحمد لله وأقبلت بعد ذلك الرقاع تطرح فى كل وقت على جهة النصح والصدق فلما علموا بما علم به الخليفة وتمكن به ما عندهم من الأمر كتبوا رقاعاً فطرحوها فى مضرب بغا يقولون فيها: إن جماعة من الغلمان والأتراك قد عزموا على الفتك بالخليفة فى عسكره ودبروا ذلك واتفقوا عليه وتعاقدوا على أن يأتوه من نواحى كذا ونواحى كذا فالله الله إلا ما احترست لأمير المؤمنين وحرسته فى هذه الليلة من هذه المواضع وحصنتها بنفسك ومن تثق به فإنا قد نصحنا وصدقنا وأكثروا طرح الرقاع بهذا المعنى والتوكيد فى حراسة الخليفة فلما وقف بغا عليها وتتابعت عليه لم يأمن أن يكون ما كتب إليه فيها حقا مع ما كان وقف عليه من الأمر قبل ذلك فلما كانت الليلة التى ذكروها جمع جيوشه وأمرهم بالركوب بالسلاح وركب بهم إلى المواضع التى ذكرت فأخذها على المتوكل وحرسها واتصل الخبر بالمتوكل فلم يشك أن ما كتب له حق فأقبل يتوقع من يوافيه فيفتك به وسهر ليلته وامتنع عن الأكل والشرب فلم يزل على تلك الحال إلى الغداة وبغا يحرسه والأمر عند المتوكل على خلاف ذلك وقد اتهم بغا واستوحش من فعله فلما عزم المتوكل على الانصراف قال له: يا بغا قد أبت نفسى مكانك منى ورأيت أن أقلدك هذا الصقع وأقر عليك ما كان لك من رزق وجاه ونزل ومعونة وكل سبب فقال: أنا عبدك ياأمير المؤمنين فافعل ما شئت وأمرنى بما أحببت فخلفه بالشام وانصرف فأحدث الموالى عليه ما أحدثوا فلم يعلم المتوكل وجه الحيلة ولم يعرف كل واحد منهما الحيلة فى ذلك إلى أن تمت الحيلة وذلك أنه لما عزم بغا الصغير على قتل المتوكل دعا بباغر التركى وكان قد اصطنعه واتخذه وملأ عينه من الصلات وكان مقداما أهوج فقال له: ياباغر أنت تعلم محبتى لك وتقديمى إياك وإيثارى لك وإحسانى عليك وإنى قد صرت عندك فى حد من لا يعصى له أمر ولا يخرج عن محبسه وأريد أن آمرك بشىء فعرفنى كيف قلبك فيه فقال أنت تعلم

كيف أفعل فقل لى كيف شئت حتى أفعله قال: إن ابنى فارساً قد أفسد علىّ عملى وعمل على قتلى وسفك دمى وقد صح عندى ذلك منه قال فتريد منى ماذا؟ قال أريد أن يدخل علىّ غدا فالعلامة بيننا أن أضع قلنسوتى فى الأرض فإذا أنا وضعتها فى الأرض فاقتله قال نعم ولكن أخاف أن يبدو لك أو تجد فى نفسك علىّ قال: قد آمنك الله من ذلك فلما دخل فارس حضر باغر ووقف موقف الضارب فلم يزل يراعى بغا أن يضع قلنسوته فلم يفعل وظن أنه نسى فغمزه بعينه أى افعل قال لا فلما لم ير العلامة وانصرف فارس قال له بغا: اعلم أنى فكرت فى أنه حدث وأنه ولدى وقد رمت أن أستخلصه هذه المرة فقال له باغر: أنا قد سمعت وأطعت وأنت أعلم وما دبرت وقدّرت عليه فيه صلاحه. ثم قال له وههنا أمر أكبر من ذلك وأهم فعرفنى كيف تريد أن تكون فيه قال له قل ما شئت حتى أفعله قال أخى وصيف قد صح عندى أنه يدبر علىّ وعلى رفقائى وأن مكاننا قد ثقل عليه وأنه عوّل على أن يقتلنا ويفنينا وينفرد بالأمر قال فماذا تريد أن يصنع به؟ قال أفعل هذا فإنه يصير إلىّ غدا فالعلامة أن أنزل عن المصلى الذى يكون معى قاعداً عليه فإذا رأيتنى نزلت عنه فضع سيفك عليه واقتله قال نعم فلما صار وصيف إلى بغا حضر باغر وقام مقام المستعدّ فلم ير العلامة حتى قام وصيف وانصرف قال فقال له بغا: ياباغر إنى فكرت فى أنه أخى وإنى قد عاقدته وحلفت له فلم استجرئ أن أفعل ما دبرته ووصله وأعطاه ثم أمسك عنه مدة مديدة ودعا به فقال ياباغر قد حضرت حاجة أكبر من الحاجة التى قدّمتها فكيف قلبك؟ قال قلبى على ما تحب فقل ما شئت حتى أفعله فقال هذا المنتصر قد صح عندى أنه على إيقاع التدبير علىّ وعلى غيرى حتى يقتلنا وأريد أن أقتله فكيف ترى نفسك فى ذلك ففكر باغر فى ذلك ونكس رأسه وقال: هذا لايجىء منه شىء قال وكيف قال يقتل الابن والأب باق إذن لا يستوى لكم شىء ويقتلكم أبوه كلكم به قال فما ترى عندك؟ قال نبدأ بالأب أوّلا فنقتله ثم يكون أمر الصبى أيسر من ذلك فقال له: ويحك ويفعل هذا ويتهيأ قال نعم أفعله وأدخل عليه حتى أقتله فجعل يردد عليه فيقول لا نفعل غير هذا. ثم قال له فادخل أنت فى أثرى فإن قتلته وإلا فاقتلنى وضع سيفك علىّ وقل أراد أن يقتل مولاه فعلم بغا حينئذ أنه قاتله وتوجه له فى التدبير فى قتل المتوكل وكانت الوحشة قائمة بين المتوكل وابنه المنتصر على ما تقدم بيانه فعمل المنتصر مع بغا على قتل أبيه المتوكل والتخلص منه فبينما المتوكل فى قصره يشرب مع ندمائه وقد سكر إذ دخل عليه بغا الصغير وأمر الندماء بالانصراف ولم يبق عنده إلا الفتح بن خاقان فإذا الغلمان الذين

عينهم المنتصر لقتله قد دخلوا عليه وبأيديهم السيوف فهجموا فقال الفتح بن خاقان: ويلكم أمير المؤمنين ثم رمى بنفسه عليه فقتلوهما معا ثم خرجوا إلى المنتصر فسلموا عليه بالخلافة، ذكر عن عليّ بن يحيى المنجم أنه قال كنت أقرأ على المتوكل قبل قتله بأيام كتابا من كتب الملاحم فوقفت على موضع فيه أن الخليفة العاشر يقتل فى مجلسه فتوقفت من قراءته فقال مالك فقلت خير قال: لابد من أن تقرأه فقرأته وحدث عن ذكر الخلفاء فقال: ليت شعرى من هذا الشقى المقتول؟ قال أبو الوارث قاضى نصيبين رأيت فى النوم آتيا وهو يقول:

يا نائم العين في جثمان نعمان ... ما بال عينك لا تبكي بتهتان
أما رأيت صروف الدهر ما فعلت ... بالهاشميّ وبالفتح بن خاقان

فأتى البريد بعد أيام بقتلهما، وكان قتل المتوكل فى شوال سنة سبع وأربعين ومائتين للهجرة وعمره نحو أربعين سنة وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام وكان أسمر رقيقا مليح العينين خفيف اللحية ليس بالطويل فيه قصف وانهماك على اللهو والمفاكهة ولكنه أحيا السنة وأمات بدعة القول بخلق القرآن وكان قد عزم على خلع ولده المنتصر من ولاية العهد وتقديم ابنه المعتز عليه لفرط محبته لأمه وأخذ يؤذيه ويتهدده إن لم يخلع نفسه واتفق مصادرته لوصيف وبغا فعملا مع المنتصر على قتله كما تقدم. حدّث البحترى قال: اجتمعنا ذات يوم مع الندماء فى مجلس المتوكل فتذاكرنا أمر السيوف فقال بعض من حضر: بلغنى ياأمير المؤمنين أنه وقع عند رجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له مثيل فأمر المتوكل بكتاب إلى عامله بالبصرة يطلبه بشرائه بما يبلغ فنفذت الكتب على البريد وورد جواب عامل البصرة أن السيف اشتراه رجل من أهل اليمن فأمر المتوكل بالبعث إلى اليمن يطلب السيف وابتياعه فنفذت الكتب بذلك قال البحترى: فبينا نحن عند المتوكل إذ دخل عليه عبيد الله والسيف معه وعرّفه أنه ابتيع من صاحبه باليمن بعشرة آلاف درهم فسرّ بوجوده وحمد الله على ما سهل من أمره وانتضاه فاستحسنه وتكلم كل واحد منا بما يحب وجعله تحت ثنى فراشه فلما كان من الغداة قال للفتح اطلب لى غلاماً تثق بشجاعته ونجدته أدفع له هذا السيف ليكون واقفاً به على رأسى لا يفارقنى فى كل يوم ما دمت جالساً قال: فلم يستتم الكلام حتى أقبل باغر التركى فقال الفتح ياأمير المؤمنين هذا باغر التركى قد وصف لى بالشجاعة والبسالة وهو يصلح لما أراده أمير المؤمنين فدعا به المتوكل فدفع إليه السيف وأمره بما أراد وقدّم أن يزاد فى مرتبه وأن يضعف له الرزق. قال البحترى: فوالله ما انتضى ذلك السيف ولا خرج من

غمـده من الوقت الذى دفع إليه إلا فى الليلة التى ضـربه فيـها باغر به قـال: ولقد رأيت من المتوكل فى الليـلة التى قتل فيهـا عجبـا وذلك أننا تذاكرنا أمر الكبـر وما كانت تستعـمله الملوك من الجبروت فجعلنا نخوض فى ذلك وهـو يتبرأ منه ثم حوّل وجهة إلى القبلة فسجد وعفر وجـهه بالتراب خضوعا لله عزّ وجلّ ثم أخذ من ذلك التراب فنثره علي لحيته ورأسه وقال: إنما أنا عبد الله وأن من صار إلى التراب لحقيق أن يتواضع ولا يتكبر. قال البحتـرى: فتطيرت له من ذلك وأنكرت ما فعله من نثر التراب على رأسه ولحيته ثم قعد للشـراب فلما عمل فيه غنى من حضره من المغنين صوتاً استحـسنه ثم التفت إلى الفتح فقال يافتح مـا بقى أحد سمع هذا الصوت من مخارق غيرى وغيرك ثم أقبل علـى البكاء. قال البحترى: فتطيرت من بكائه وقلت هذه ثانية فأنا فى ذلك إذ أقبل خادم من خدم قبيـحة ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها إليه قبيـحة فقال له الرسول: ياأمير المؤمنين تقول لك قبيـحة إنى استعملت هذه الخلعة لأمير المؤمنين واستحسنتها ووجهت بهـا لتلبسها قال فإذا فيه دراعة حمراء لم أر مثلهـا قط ومطرف خز أحـمر كـأنه دبقى من رقتـه. قال فلبس الخلعـة والتحفُ المطرف قال: فإنى على ذلك إذ تحرك المتوكل فيـه وقد كان التف عليه المطرف فجذبه جذبة فمزقه من طرفه إلى طرفه قال فأخـذه ولفه ودفعه إلى خادم قبيحة الذى جاءه بالخلعة وقال: قل لها احتفظـى بهذا المطرف عندك ليكون كفنا لى عند وفاتى فقلت فى نفـسى إنا لله وإنا إليـه راجعـون انقضت والله المدة قـال: وسكر المتـوكل سكرا شديدا وكان من عادته أنه إذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الذين عند رأسه فبينما نحن كذلك ومضى من الليل ثلاث ساعات إذ أقبل باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك وهم متلثمون والسيوف فى أيديهم تبرق فى ضوء تلك الشموع فهجموا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حـتى صعد باغر وآخـر معه من الأتراك على السرير فـصاح بهم الفتح ويلكم مولاكم فلما رآهم الغلمان ومن كان حاضرا من الجلساء والندماء تطايروا على وجوههم فلم يبق أحد فى المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانعهم قال البحترى: فسمـعت صيحة المتوكل وقد ضـربه باغر بالسيف الذى كان المتوكل دفـعه إليه على جانبـه الأيمن فقدّه إلى خاصـرته ثم ثناه على جانبه الأيـسر ففعل مـثل ذلك وأقبل الفتح يمانعهم عنه فـبعجه واحد منهم بالسيف الذى كان معـه فى بطنه فأخرجه من متنه وهو صابر لا يتنحى ولا يزول. قال البحترى: فـما رأيت أحداً كان أقوى نفسا ولا أكرم منه ثم طرح بنفسه على المتوكل فماتا جميعا فلفا فى البساط الذى قتلا فيه

وطرحا ناحية فلم يزالا على حالتهما فى ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة للمنتصر فأمر بهما فدفنا جميعاً وقيل إن قبيحة كفنته بذلك المطرف الممزق بعينه . اهـ.

وكان أوتامش غلام الواثق مع المنتصر فكان المتوكل يبغضه لذلك وكان بغا الصغير توحش من المتوكل فكان المنتصر يجتذب قلوب الأتراك إليه وأوتامش يساعده على ذلك وكان عبيد الله بن خاقان الوزير والفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر مائلين إلى المعتز بن المتوكل وكانا قد أوغرا قلب المتوكل على ولده المنتصر فكان المتوكل لا يبعد أحداً من الأتراك إلا اجتذبه المنتصر إليه حتى استمال قلوب الأتراك وكثيراً من الفراعنة والأشروسية إلى أن كان من الأمر ما تقدم وقال البحترى فى غدر المنتصر بأبيه وفتكه به من قصيدة له:

أكان وليّ العهد أضمر غدره ... فمن عجب أن ولي العهد غادره

فلا ملك الباقي تراث الذي مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره

واستعمل المتوكل على مصر فى خلافته هرثمة بن النضر الجبلى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ثم ولى ابنه حاتم فى السنة فأقام شهرا وصرف. ثم ولى على بن يحيى سنة أربع وثلاثين وصرف ثم ولى أخوه إسحق بن يحيى الجبلى سنة خمس وثلاثين. ثم ولى عبد الواحد بن يحيى مولى خزاعة سنة ست وثلاثين ثم ولى عنبسة بن إسحق الضبى سنة ثمان وثلاثين ثم عزله وولى يزيد بن عبد الله من الموالى سنة اثنتين وأربعين وبقى إلى خلافة المعتز بالله فعزله وولى مكانه من سيأتى ذكرهم فى محله إن شاء الله.

ومات فى خلافة المتوكل يوساب بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثمان عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة. وفى أيام يوساب هذا قدم إلى مصر يعقوب مطران الحبشة وقد كانت نفته زوجة النجاشى لأمر نقمته عليه وأقاموا عوضه أسقفا آخر فبعث النجاشى يطلب من البطرك إعادته وشدّد فى ذلك فبعث به إليه وبعث أيضاً عدة أساقفة إلى إفريقية. وفى أيامه مات بطرك أنطاكية الذى كان قدم إلى مصر فى السنة الخامسة عشرة من بطريكيته. وفى أيامه أيضاً أى فى سنة خمس وثلاثين ومائتين أمر المتوكل الخليفة أهل الذمة يعنى القبط بلبس الطيالسة العسلية وشد الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب وعمل كرتين فى مؤخر السرج وعمل رقعتين على لباس الرجال مخالفة للون الثوب قدر كل واحدة منهما أربع أصابع ولون كل واحدة منهما غير لون الأخرى ومن خرجت من النساء لبست إزاراً عسليًا، ولم يقف المتوكل عند

هذا الحد من الشدة والجبروت حتى منعهم أيضاً من لبس المناطق وهدم البيع المحدثة ورسم بأخذ العشر من المنازل وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب ونهى أن يستعان بهم فى أعمال السلطان وأن لا يعلم أحد منهم مسلماً وكانوا يومئذ هم أصحاب المعارف والعلوم على اختلافها وأن لا يظهروا فى عيد الشعانين صليباً ولا أن يشعلوا فى الطريق ناراً وأن تسوّى قبور موتاهم بالأرض حتى لا يظهر لها رسم وكتب بذلك جميعه إلى الآفاق ولما كانت سنة تسع وثلاثين ومائتين هجرية أمر أيضاً بأن يلبس الرجل منهم دراعتين عسليتين على الدراريع والأقبية وبالاقتصار فى مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين وغير ذلك من صنوف الشدائد والبلايا مما لا يسعنا إيراده هنا، ولما مات يوساب البطرك فى خلال هذه المحن والبدع الغريبة خلا الكرسى بعده ثلاثين يوماً ثم أقيم قسيس بدير يوحنس اسمه ميخائيل وهو المعروف أيضاً بخائيل ثالث خمسيهم وأصله راهب بالدير المذكور وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل الحادى عشر)

(فى خلافة محمد المنتصر بالله)

ثم قام بالأمر بعد المتوكل ابنه محمد المنتصر بويع بالخلافة فى الليلة التى قتل فيها أبوه وبويع له من الغد البيعة العامة وذلك فى شهر شوال سنة سبع وأربعين ومائتين للهجرة أى نحو سنة إحدى وستين وثمانمائة للميلاد فلم تطل مدته ولم يتمتع بالملك وكانت بيعته بالقصر المعروف بالجعفرى الذى أحدث بناءه المتوكل وهو ابن خمس وعشرين سنة وقيل ست وعشرين.

ذكر عن أبى عثمان سعيد الصغير أنه قال: لما كانت الليلة التى قتل فيها المتوكل كنا فى الدار مع المنتصر فكان كلما خرج الفتح خرج معه وإذا رجع قام لقيامه وإذا ركب أخذ بركابه وسوّى عليه ثيابه فى سرجه وكان اتصل بنا الخبر أن عبيد الله بن يحيى قد أعدّ قوماً فى طريق المنتصر ليغتالوه عند انصرافه وكان المتوكل قد أسمعه وأحفظه ووثب عليه فانصرف غضبان وانصرفنا معه إلى داره. وكان واعد الأتراك على قتل المتوكل إذا ثمل من النبيذ. قال: فلم ألبث إذ جاءنى رسوله أن أحضر فقد جاءت رسل أمير المؤمنين إلى الأمير ليركب. قال: فوقع فى نفسى ما كنا سمعنا من اغتيال المنتصر فركبت فى سلاح وعدّة وجئت باب المنتصر فإذا هم يموجون وإذا

واجن قد جاءه فأخبره أنهم قد فرغوا من المتوكل فركب فلحقته فى بعض الطريق وأنا مرعوب فرأى منى ذلك فقال: ليس عليك بأس أمير المؤمنين قد شرق بقدح شربه فمات رحمه الله تعالى فشق علينا ومضينا ومعنا أحمد بن الخصيب وجماعة من القوّاد حتى دخلنا القصر ووكل بالأبواب فقلت له: ياأمير المؤمنين لا ينبغى أن تفارقك مواليك فى هذا الوقت قال أجل وكن أنت خلف ظهرى فأحطنا به وبايعه من حضر وكل من جاء يوقف حتى جاء سعيد الكبير فأرسله خلف المؤيد. وقال: امض أنت إلى المعتز حتى يحضر فأرسلنى فمضيت وأنا آيس من نفس ومعى غلامان لى فلما صرت إلى باب المعتز لم أجد به أحدا من الحرس والبوّابين فصرت إلى الباب الكبير فدققته دقا عنيفاً فأجبت بعد مدة من أنت؟ فقلت: رسول أمير المؤمنين المنتصر فمضى الرسول وأبطأ وخفت وضاقت علىّ الأرض ثم فتح الباب وخرج بيدون الخادم وأغلق الباب ثم سألنى عن الخبر فأخبرته أن المتوكل شرق بكأس شربه فمات لساعته وأن الناس قد اجتمعوا وبايعوا المنتصر وقد أرسلنى لأحضر الأمير المعتز ليبايع فدخل ثم خرج فأدخلنى على المعتز فقال لى: ويلك ما الخبر؟ فأخبرته وعزيته وقلت تحضر وتكون فى أول من يبايع وتأخذ بقلب أخيك فقال حتى نصبح. قال: فما زلت به أنا وبيدون حتى ركب وسرنا وأنا أحدثه فسألنى عن عبيد الله بن يحيى فقلت هو يأخذ البيعة على الناس والفتح قد بايع فأيس وأتينا باب الخير ففتح لنا وصرنا إلى المنتصر فلما رآه قرّبه وعانقه وعزاه وأخذ البيعة عليه ثم وافى سعيد الكبير بالمؤيد ففعل به مثل ذلك فأصبح الناس وأمر المنتصر بدفن المتوكل والفتح ولما أصبح الناس شاع الخبر فى الماخورة وهى مدينة المتوكل وفى أهل سامرا بقتل المتوكل فتوافى الجند والشاكرية بباب العامة والجعفرية وغيرهم من الغوغاء والعامة وكثر الناس وتسامعوا وركب بعضهم بعضا وتكلموا في أمر العامة فخرج إليهم عتاب بن عتاب وقيل زرافة فوعدهم عن أمير المؤمنين المنتصر فأسمعوه فدخل عليه فأعلمهم فخرج المنتصر وبين يديه جماعة من المغاربة فصاح بهم. وقال: خذوهم فدفعوهم فتفرّقوا وقد مات منهم ستة أنفس.

ولما استقام له أمر الخلافة اجتمع أحمد بن الخصيب ووصيف وبغا وهم يومئذ أصحاب الرأى فى دولة المنتصر بالله وتآمروا على خلع المعتز والمؤيد ابنى المتوكل من ولاية العهد خوفاً منهما لأمور كانت بينهم وتعاهدوا على ذلك ووكلوا جماعة الأتراك بالعمل فجدّوا فى ذلك وألحوا على المنتصر وقالوا: لابد من خلعهما من الخلافة ومبايعة ولدك عبد الوهاب. ولم يزالوا به حتى أجابهم وسير إلى المعتز

والمؤيد من أحضرهما بعد أربعين يوماً من خلافته وجعلا فى دار فأحس المعتز بما وراء ذلك وعلم أنهم إنما أتوا بهما للخلع فكلم أخاه المؤيد فى ذلك فقال المؤيد: لا أظن أن أمير المؤمنين يفعل ذلك فبينما هما على هذا الحال إذ دخل عليهما جماعة من قواد المنتصر يطلبون منهما الخلع فقال المؤيد: السمع والطاعة. وقال المعتز: لا اخلع نفسى أبداً فإن أردتم القتل فشأنكم فأعلموا الخليفة بذلك ثم عادوا وهم أشدّ مما كانوا عليه. وقالوا: لابد من الخلع وقبضوا على المعتز بعنف وأدخلوه بيتا وأغلقوا عليه الباب فلما رأى المؤيد ذلك خشى العاقبة وصاح فى وجوههم ويلكم ياكلاب تفعلون بمولاكم هذه الفعال خلوا عنه ودعونى وإياه حتى أكلمه فسكتوا عنه وسألوا المنتصر فى ذلك فأذن له فدخل عليه المؤيد وقال ياجاهل كيف تأبى الخلع وأنت تعلم أنهم نالوا من أبيك وهو هو ما نالوا؟ ويحك لا تراجعهم فقال المعتز وكيف أخلع وقد جرى فى الآفاق؟ فقال هذا الأمر كان سبب قتل أبيك وهو يقتلك لا محالة فإن كان فى سابق علم الله أنك تلى الخلافة يوماً لتلين فقال أفعل فخرج المؤيد. وقال قولوا لأمير المؤمنين إنه أجاب إلى الخلع فذهبوا وعادوا ومعهم كاتب فجلس وقال للمعتز: اكتب بخطك خلعك فامتنع فقال المؤيد للكاتب هات قرطاسك أملل علىّ ما شئت فأملى عليه كتاباً إلى المنتصر يعلمه فيه ضعفه عن هذا الأمر وأنه لا يحل له أن يتقلده وكره أن يأثم المتوكل بسببه إذ لم يكن موضعا له ويسأله الخلع ويعلمه أنه قد خلع نفسه وأحل الناس من بيعته ثم ناول الورقة المعتز وقال له: اكتب فأبى. فقال اكتب ويلك فكتب وخرج الكاتب عنهما فلم يكن بأسرع من أن دعاهما المنتصر فدخلا عليه فأجلسهما. قال هذا كتابكما فقالا نعم يا أمير المؤمنين فقال لهما وطوائف الترك وقوف بين يديه أترانى خلعتكما طمعا فى أن أعيش حتى يكبر ولدى وأبايع له والله ما طمعت فى ذلك ساعة قط وإذا لم يكن لى فى ذلك طمع فوالله لأن يليها بنو أبى أحب إلىّ من أن يليها بنو عمى ولكن هؤلاء الترك وأومأ إليهم بين قائم وقاعد ألحوا علىّ فى خلعكما وشددوا فى ذلك فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتى عليكما فما ترياني صانعاً؟ إذن أقتله فوالله ماتفى دماؤهم كلهم بدم بعضكم فكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل علىّ وأقرب إلى المصلحة فقبلا يده فضمهما إلى صدره ثم إنهما أشهدا على أنفسهما القضاة وبنى هاشم والقواد ووجوه الناس وغيرهم بالخلع وكتب بذلك المنتصر إلى محمد بن عبد الله بن طاهر وإلى غيره، حكى عن أبى العباس محمد بن سهل. قال: كنت أكتب لعتاب بن عتاب على ديوان جيش الشاكرية فى خلافة المنتصر فدخلت إلى بعض

الأروقة فإذا هو مفروش ببساط سوسجرد ومسند ومصلى ووسائد بالحمرة والزرقة وحول البساط دارات فيها أشخاص ناس وكتابة بالفارسية وكنت أحسن القراءة بالفارسية وإذا عن يمين المصلى صورة ملك وعلى رأسه تاج كأنه ينطق فقرأت الكتابة فإذا هى صورة شيرويه القاتل لأبيه إبرويز الملك ملك ستة أشهر ثم رأيت صور ملوك شتى ثم انتهى بى النظر إلى صورة عن يسار المصلى عليها مكتوب صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك قاتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ملك ستة أشهر فعجبت من ذلك واتفاقه عن يمين مقعد المنتصر وعن شماله فقلت: لا أرى أنه يدوم ملكه أكثر من ستة أشهر فكان والله كذلك فخرجت من الرواق إلى مجلس وصيف وبغا وهما فى الدار الثانية فقلت لوصيف أعجز هذا الفراش أن يفرش تحت أمير المؤمنين إلا هذا البساط الذى عليه صورة يزيد بن الوليد قاتل ابن عمه وصورة شيرويه قاتل أبيه إبرويز وعاشا ستة أشهر بعد ما قتلا فجزع وصيف من ذلك. وقال علىّ: بأيوب بن سليمان النصرانى خازن الفرش فمثل بين يديه فقال له وصيف: لم تجد ما يفرش فى هذا اليوم تحت أمير المؤمنين إلا هذا البساط الذى كان تحت المتوكل ليلة الحادثة وعليه صورة ملك الفرس وغيره؟ وقد كان ناله آثار الدماء قال: سألنى أمير المؤمنين المنتصر عنه وقال ما فعل البساط؟ فقلت عليه آثار دماء فاحشة وقد عزمت أن لا أفرشه من ليلة الحادثة فقال لم لا تغسله وتطويه؟ فقلت خشيت أن يشيع الخبر عند من يرى ذلك البساط من أثر الحادثة فقال: إن الأمر أشهر من ذلك يريد قتل الأتراك لأبيه المتوكل فطويناه وبسطناه تحته فقال وصيف وبغا: إذا قام أمير المؤمنين من مجلسه فخذه وأحرقه بالنار فلما قام أحرق بحضرة وصيف وبغا فلما كان بعد أيام قال المنتصر لأيوب بن سليمان: افرش ذلك البساط فقال وأين ذلك البساط؟ فقال وما الذى كان من أمره؟ قال: إن وصيفا وبغا أمرانى بإحراقه فسكت المنتصر ولم يعد فى أمره شيئاً إلى أن مات، وكان خلع المنتصر لأخويه المعتز وإبراهيم من ولاية العهد بعده فى سنة ثمان وأربعين ومائتين هجرية. وقد كان المتوكل أخذ لهم العهد فى كتب كتبها وشروط اشترطها وأفرز لكل واحد منهم جزءاً من الأعمال رسمه له وجعل ولى عهده والتالى لملكه محمدا المنتصر وتالى المنتصر وولى عهده المعتز وتالى المعتز وولى عهده إبراهيم المؤيد وأخذت البيعة على الناس بذلك وفرق فيها أموالاً وعم الناس بالجوائز والصلات وتكلم فى ذلك الخطباء ونطقت به الشعراء. وكان من الأعمال المشهورة فلم تلبث أن زالت وانطوى خبرها وخرج فى أيام المنتصر بناحية اليمن والبوازيج والموصل أبو العمود الشادى فحكم

واشتدّ أمره فيمن انضاف إليه من المحكمة من ربيعة وغيرهم من الأكراد فسرح إليه المنتصر جيشاً عليهم سما التركى فكانت له مع الشادى حروب فأسر الشادى وأتى به المنتصر فجاد عليه بالعفو وأخذ عليه العهد وخلى سبيله. أخبر أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد. قال: رأى بعض الكتاب فى المنام فى الليلة التى استخلف فى صبيحتها المنتصر كأن قائلاً يقول:

هذا الإمام المنتصر والملك الحادي عشر

وأمره إذا أمر كالسيف ما لاقى بتر

وطرفه إذا نظر كالدهر في خير وشر

وأظهر المنتصر الإنصاف فى الرعية فمالت إليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة الهيبة منها له واستوزر أحمد بن الخصيب ثم ندم على ذلك ونفى عبد الله بن خاقان وذلك أن ابن الخصيب ركب ذات يوم فتظلم إليه متظلم بقصة فأخرج رجله من الركاب فزج بها فى صدر المتظلم فقتله فتحدث الناس بذلك. وقال بها بعض الشعراء يومئذ، حكى عن أبى العباس أحمد بن محمد بن موسى بن الفرات قال: كان أحمد بن الخصيب سيىء الرأى فى والده وكان عاملاً له فجاءنى مخبر من خدم الخاصة فقال إن الوزير قد ندب لأعمالكم فلانا وقد أمره فى والدك بكل مكروه وأن يصادره على جملة من المال غليظة ذكرها فقعدت وعندى بعض أصدقائنا من الكتاب أبادر بالكتاب إلى والدى بذلك فاشتغلت عن جليسى الكاتب فاتكأ على الوسادة وغفا فانتبه مرعوبا. وقال :قد رأيت رؤيا عجيبة رأيت أحمد بن الخصيب واقفا فى هذا الموضع وهو يقول يموت الخليفة المنتصر إلى ثلاثة أيام، قال: قلت له الخليفة فى الميدان يلعب بالصولجان وهذه الرؤيا ضرب من البلغم والمرار، وقد قدمنا الطعام فما استتممنا الكلام حتى دخل علينا داخل فقال: رأيت الوزير بدار الخاصة غيرمسفر الوجه وإنى سألت عن سبب ذلك فقيل لى إن الخليفة المنتصر انصرف من الميدان وهو عرق فدخل الحمام ونام فى الباذهنج فضربه الهواء وركبته حمى هائلة فدخل عليه أحمد بن الخصيب فقال: ياسيدى أنت متفلسف وحكيم الزمان تنزل من الركوب تعبا فتدخل الحمام ثم تخرج عرقا فتنام فى الباذهنج فقال له المنتصر أتخاف أن أموت رأيت فى المنام البارحة آتيا أتانى فقال لى تعيش خمسا وعشرين سنة فعلمت أن ذلك بشارة فى المستقبل من عمرى وإنى أبقى فى الخلافة هذه المدة قال فمات فى اليوم الثالث فنظروا فإذا هو قد استوفى خمسا وعشرين سنة، وفى رواية أن المنتصر ضربته الريح يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الأول ومات مع

صلاة العصر لخمس ليال خلون من ربيع الآخر وصلى عليه أحمد بن محمد المستعين وكان أول خليفة من بنى العباس أظهر قبره وذلك أن أمه حبشية سألت ذلك فأذن لها وأظهرته بسامرا. وقيل أيضاً إن الطيفورى الطبيب سمه فى مشرط حجمه به وقد كان عزم على تفريق جمع الأتراك فأخرج وصيفا فى جمع كثير إلى غزاة الصائفة بطرسوس ونظر يوماً إلى بغا الصغير وقد أقبل فى القصر وحوله جماعة من الأتراك فأقبل على الفضل بن المأمون فقال: قتلنى الله إن لم أقتلهم وأفرق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله فلما نظر الأتراك إلى ما يفعل بهم وما قد عزم عليه وجدوا منه الفرصة وقد شكا ذات يوم حرارة فأراد الحجامة فخرج له من الدم ثلاثمائة درهم لما كان فى المبضع من السم وشرب شربة بعد ذلك فحلت قواه، ويقال إن السم كان فى مبضع الطبيب حين فصده، وذكر ابن أبى الدنيا عن عبد الملك بن سليمان بن أبى جعفر قال: رأيت فى نومى المتوكل والفتح بن خاقان وقد أحاطت بهما نار وقد جاء محمد المنتصر فاستأذن عليهما فمنع الوصول ثم أقبل المتوكل علىّ فقال ياعبد الملك قل لمحمد بالكاس الذى سقيتنا تشرب قال فلما أصبحت غدوت على المنتصر فوجدته محموماً فواظبت على عيادته فسمعته فى آخر علته يقول: عجلنا فعوجلنا فمات من ذلك المرض وذلك فى سنة ثمان وأربعين ومائتين وكانت خلافته ستة أشهر وأياماً وعمره ستا وعشرين سنة وقيل خمساً وعشرين وأمه رومية وكان مربوعا سمينا أعين أقنى الأنف مليحاً مهيباً كامل العقل يحب الخير سخيًا أديبا عفيفا وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق وكثرة الإنصاف وحسن المعاشرة بما لم يسبقه خليفة إلى مثله. قيل ولما احتضر أنشد يقول:

وما فرحت نفسي بدنيا أخذتها ... ولكن إلى الرب الكريم مصيرى

وكان محبًا لعلى بن أبى طالب وأولاده فأمر الناس بزيارة قبر علىّ والحسين وأمّن العلويين وكانوا فى خوف أيام أبيه وأطلق وقوفهم وردّ لهم كثيراً مما أخذ منهم ومن كلامه: والله ما عز ذو باطل ولو طلع القمر من جبينه ولا ذل ذو حق ولو اتفق العالم عليه.

ومات فى أيامه ميخائيل بطرك المتأصلين بعد أن أقام سنة وقيل سنة وخمسة أشهر ودفن بدير أبو مقار وهو أول بطرك دفن بالدير المذكور فخلا الكرسى بعده أحداً وثمانين يوما ثم أقيم بعده شماس بدير أبو مقار اسمه قسيما وهو قزمان رابع خمسيهم وأصله من مدينة سمنود بإقليم الغربية وكان جليل القدر متواضعاً ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل الثانى عشر)

(فى خلافة أحمد المستعين بالله)

ثم قام بالأمر بعد المنتصر ابن عمه أحمد المستعين بالله بن محمد المعتصم بويع له بالخلافة ليلة الاثنين لست خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين هجرية أى سنة اثنتين وستين وثمانمائة للميلاد وعمره إذ ذاك ثمان وعشرون سنة. قال أصحاب التاريخ: لما مات المنتصر اجتمع غلمانه ومواليه ومماليكه وبينهم بغا الصغير وبغا الكبير وأوتامش وغيرهم من كبار المماليك واتفقوا على أن لا يولوا الخلافة أحدا من أولاد المتوكل خوفا على أنفسهم من أولاد المتوكل وشدد أحمد بن الخصيب فى ذلك فاستحلفوا قواد الترك والمغاربة والأشروسية على ذلك وأجمعوا على أحمد بن محمد بن المعتصم كى لا تخرج الخلافة من ولد مولاهم المعتصم فبايعوه فى الليلة المذكورة. فلما كان يوم الاثنين سار المستعين إلى دار العامة فى زى الخلافة وسار إبراهيم بن إسحق بين يديه بالحربة واصطف له بعض الجند صفين وحضر الدار أصحاب المراتب العالية من العباسيين والطالبيين وغيرهم فبينما هم على هذا الحال إذ جاءت صيحة من ناحية الشارع والسوق وإذا نحو من خمسين فارسا قالوا إنهم من أصحاب محمد بن عبد الله بن طاهر ومعهم جماعة من أخلاط الناس والغوغاء والسوقة وشهروا السلاح وصاحوا النفير يامنصور وشدوا على من كان هناك من الجند واختلط بعضهم ببعض فحمل عليهم الجند فهزموهم حتى أدخلوهم أحد الدروب وتبعوهم فقتل جماعة من الفريقين ثم تفرقوا وقد كانت البيعة تمت للمستعين وانصرف من حضر من جماعة الأتراك والهاشميين وغيرهم فدخل الغوغاء والمنتهبة دار العامة فانتهبوا ما كان فى خزانتها من الأسلحة والسيوف والتروس وغير ذلك فأدركهم بغا فى طائفة من الترك فقتل منهم خلقاً وأجلاهم عن الخزانة واشتد القتال بين الفريقين ثم تفرقوا وطيروا الخبر بالبيعة إلى الآفاق فبايعوا جميعاً، ولما قامت الفتنة وخرجت الغوغاء وانتهبوا دار العامة همّ الأتراك بقتل المعتز والمؤيد فمنعهم أحمد بن الخصيب من ذلك وأشار بحبسهما فحبسوا فى الجوسق ووكل بهما فلم تتم على ابن الخصيب سنة حتى غضب عليه المستعين واستصفى ماله ومال ولده ونفاه إلى اقريطش ثم كادت الأمور تعتل ونظام الخلافة يختل إذ ظهرت

الفتنة ببغداد وسامرا وقامت الغوغاء وانضم إليهم بعض الجنود ففتحوا المحبوس وأخرجوا من بها فبعثوا فى طلبهم طائفة من الموالى فوثب العامة بهم فهزموهم فرسم الخليفة بركوب بغا وأوتامش ووصيف وعامة الترك فقتلوا من العامة جماعة وصارت العامة تضرب بالأحجار وما زالوا بهم حتى فرقوهم وانقضت الفتنة، واستوزر المستعين بالله أبا موسى أوتامش المذكور فعلت كلمته واتسعت شهرته وأباح له الخليفة التصرف فى بيت المال وأطلق يده فأخذ وادخر والموالى تنظر إلى الأموال تؤخذ وهم فى ضيق وشدة فثاروا على أوتامش وانضم إليهم جماعة من العامة وزحفوا إليه وهو فى الجوسق مع المستعين فأراد الهرب فلم يمكنه فاستجار بالمستعين فلم يجره وأقاموا على ذلك يومين ثم دخلوا الجوسق وأخذوا أوتامش فقتلوه وقتلوا كاتبه ونهبوا داره فأخذوا منه أموالاً كثيرة وتحفا وثياباً فاخرة. فلما قتل أوتامش استوزر المستعين أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد ثم وقعت بين بغا الصغير وأبى صالح المذكور وحشة فهرب أبو صالح إلى بغداد واستوزر المستعين محمد بن الفضل الجرجرائى بعده.

وظهر بالكوفة أبو الحسن يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب الطيار فخشى المستعين أمره وسير إليه من قتله وحمل رأسه إلى بغداد فأمر بصلبه فضج الناس من ذلك لما كان فى نفوسهم من المحبة له لأنه استفتح أموره بالكف عن الدماء والتورع عن أخذ شئ من أموال الناس وأظهر العدل والإنصاف قيل وكان خروجه لذل نزل به وشدة لحقته ومحنة نالته من المتوكل وطوائف الترك ودخل الناس إلى محمد بن طاهر يهنئونه بالفتح وهم مع ذلك فى ضجر من مقتل أبى الحسن يحيى ودخل عليهم أبو هاشم الجعفرى وهو داود بن القاسم بن إسحق بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بينه وبين جعفر الطيار ثلاثة آباء ولم يكن يعرف فى ذلك الوقت أقعد نسبا فى آل أبى طالب وسائر بنى هاشم وقريش منه وكان ذا زهد وورع ونسك وعلم صحيح العقل سليم الحواس منتصب القامة فقال لابن طاهر: أيها يابن طاهر وخرج من داره وهو يقول يابنى طاهر:

فذل الحياة وعز الممات ... وكل أراه طعاما وبيلا
فإن كان لابد من واحد ... فسيري الى الموت سيرا جميلا

فلما أحس ابن طاهر بما وراء نصب الرأس من قيام الفتنة وخروج الناس أمر بإنزالها. قال بعض الكتاب: وكان قتل يحيى عند الناس من أكبر الكبائر فجزعت

عليه النفوس جزعاً كثيراً ورثاه القريب والبعيد وحزن عليه الصغير والكبير، ولما كانت سنة تسع وأربعين ومائتين هجرية عقد المستعين لإبنه العباس على مكة والمدينة والبصرة والكوفة وعزم على البيعة له ولكن منعه من ذلك صغر سنه فطلب عيسى ابن فرخا نشاه وهو وزير المستعين يومئذ من أبى النصر الشاعر أن يقول فى ذلك شعرا يشير فيه بالبيعة له فقال فى ذلك قصيدة طويلة منها هذه الأبيات:

بك الله حاط الدين وانتاش أهله ... من الموقف الدحض الذي مثله يردى
فول ابنك العباس عهدك أنه ... له موضع واكتب إلى الناس بالعهد
فقد كان يحيى أوتي العلم قبله ... صبيا وعيسى كلم الناس في المهد

وخرج فى سنة خمسين ومائتين بالرى محمد بن جعفر بن الحسن ودعا للحسن ابن زيد صاحب طبرستان وكانت له حروب بالرى مع أهل خراسان من المسوّدة فأسر وحمل إلى نيسابور إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فمات في محبسه قيل حتف أنفه، ثم ظهر بها أيضاً أى بالرى أحمد بن عيسى بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب ودعا إلى الرضا من آل محمد وحارب محمد بن طاهر بالرى وقام معه ناس كثير ثم انهزم عن الرى وسار عنها إلى مدينة السلام فدخلها، ولم تكد تسكن الفتنة حتى ظهر أيضاً بقزوين الكركى وهو الحسن بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وهو من ولد الأوسط وقيل إن اسم الكركى الحسن بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب فسير المستعين لقتاله جماعة ومعهم موسى وبغا فرحل الكركى إلى الديلم. ثم وقع فى قبضة الحسن بن زيد الحسنى فأهلكه وخرج كذلك بالكوفة الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب فسرح إليه محمد بن عبد الله بن طاهر جيشاً من بغداد فانكشف الحسين واختفى لترك أصحابه له وتخلفهم عنه وذلك سنة إحدى وخمسين ومائتين.

واشتد الخليفة المستعين فى غضون هذه الحوادث على باغر التركى أحد كبار الأتراك الذين فى خدمته لأسباب نقمها عليه لا موضع لإيرادها هنا فانقبضت نفس باغر من الخليفة وأصر على قتله وجعل يدبر الحيلة فى ذلك وكاشف جماعة من الترك الذين كانوا معه فى قتل المتوكل على ما فى خاطره فوافقوه ومنوه فانكشف إلى المستعين أمرهم وما خفى من سرهم فعاجل باغرا وأركب عليه جماعة من خواصه ومواليه فقبضوا عليه وحبسوه فى حمام ثم قتلوه وبلغ الخبر طوائف الترك

فوثبوا على إصطبل الخليفة فانتهبوه وركبوا ما فيه من الخيول وغيرها وحصروا الجوسق وشدّدوا فى الحصار فانحدر المستعين إلى بغداد فى حراقة ومعه بغا ووصيف وشاهك الخادم وأحمد بن صالح بن شيرزاد ودليل فلما علم الترك بانحداره انعطفوا نحو دار دليل ودور أهله وجيرانه فانتهبوا ما فيها ومنعوا الناس من الانحدار إلى بغداد وشدّدوا فى المنع فلم يجسر أحد على الانحدار ثم وصل إلى بغداد جميع القوّاد وكبار الجند وجلة الكتاب والعمال وبنى هاشم وغيرهم فأغضب جماعة الترك فعل المستعين فاختاروا منهم وفدا فدخلوا عليه وألقوا أنفسهم بين يديه وجعلوا مناطقهم فى أعناقهم تذللا وخضوعاً وسألوه الصفح عنهم فأغلظ عليهم فى القول وقال: إنما أنتم أهل بغى وفساد واستقلال للنعم ألم ترفعوا إلىّ فى أولادكم فألحقتهم بكم وهم نحو من ألفى غلام وفى بناتكم فأمرت بتصيرهنّ فى عداد المتزوجات وهنّ نحو من أربعة آلاف وغير ذلك كله أجبتكم إليه وأدررت عليكم الأرزاق فعملتم آنية الذهب والفضة ومنعت نفسى لذتها وشهوتها وأنتم تزدادون شغباً وفساداً؟ فعادوا وتضرعوا وسألوه العفو فقال: قد عفوت فارجعوا إلى سامرا وأنظر أنا فى أمرى فانصرفوا آيسين منه وأخبروا من وراءهم بما جرى وزاد بغضهم له وحرضوا بعضهم على خلعه والبيعة للمعتز ولد أخيه وكان هو والمؤيد فى حبس الجوسق وعليهم من يحرسهم كما تقدم فساروا فى جمع عظيم وأخرجوا المعتز من الحبس وقد طال شعره وتغيرت أحواله فأخذوا من شعره وأصلحوا حاله وبايعوه بالخلافة فأمر للناس برزق عشرة أشهر للبيعة فلم يجدوا من المال ما يكفى فأعطوا شهرين وذلك فى يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرّم سنة إحدى وخمسين ومائتين وركب من ذلك اليوم إلى دار العامة فأخذ البيعة على الناس وخلع على أخيه المؤيد وعقد له عقدين أسود وأبيض فكان الأسود لولاية العهد بعده والأبيض لولاية الحرمين وتقلدهما وأتت الكتب فى سامرا بخلافة المعتز بالله من سائر الأمصار وأرّخت باسم جعفر بن محمد الكاتب وأحدر أخاه أبا أحمد مع عدّة من الموالى لحرب المستعين إلى بغداد فكان أول حرب جرت بينهم ببغداد بين أصحاب المعتز والمستعين وهرب محمد بن الواثق إلى المعتز بالله ولم تزل الحروب بينهم وبين أهل بغداد للنصف من صفر من هذه السنة واشتدّت الحرب بينهم فكانت أمور المعتز تقوى وحالة المستعين تضعف والفتنة قائمة فلما رأى محمد بن عبد الله بن طاهر ذلك كاتب المعتز وجنح إليه ومال إلى الصلح على خلع المستعين وعلمت العامة ببغداد بما قد عزم عليه محمد بن عبد الله من خلع المستعين فثارت منكرة لذلك متحيزة إلى المستعين ناصرة

له فما زال محمد بن عبد الله بالمستعين حتى أظهره على أعلى قصره فخاطبته العامة وعليه البردة فأنكر ما بلغهم من خلعه وشكر محمد بن عبد الله بن طاهر ثم التقى محمد بن عبد الله وأبو أحمد الموفق بالشماسية فاتفقا على خلع المستعين على أن له الأمان ولأهله وولده وما حوت أيديهم من أملاكهم وعلى أنه ينزل مكة هو ومن يشاء من أهله وأن يقيم بواسط العراق إلى وقت مسيره إلى مكة فكتب له المعتز على نفسه شروطا أنه متى نقض شيئاً من ذلك فالله ورسوله منه براء والناس فى حل من بيعته وعهودا غير هذه لا يسعها هذا المقام. قيل وقد خذل المعتز بعد ذلك لمخالفتها حين عالج فى نقضها فخلع المستعين نفسه من الخلافة وذلك يوم الخميس لثلاث خلون من المحرّم سنة اثنتين وخمسين ومائتين فكان له مذ وافى مدينة السلام إلى أن خلع سنة كاملة وكانت خلافته مذ تقلد الأمر على ما بيناه آنفا إلى أن زال عنه ثلاث سنين وثمانية أشهر وثمانية وعشرين يوماً فقال بعض الشعراء فى خلعه:

خلع الخليفة أحمد بن محمد	وسيقتل التالي له أو يخلع
ويزول ملك بني أبيه ولا ترى	أحدا بملك منهم يتمتع
أيها بني العباس إن سبيلكم	في قتل أعبدكم سبيل مهيع
رقعتم دنياكم فتمزقت	بكم الحياة تمزقا لا يرقع

وقال البحترى الشاعر ومحمد بن مروان بن أبى الجنوب وغيرهما فى خلعه أبياتاً كثيرة كلها حكم أضربنا عن إيرادها هنا. وأحدر إلى دار حسن بن وهب ببغداد وجمع بينه وبين أهله وولده ثم أحدر إلى واسط وقد وكل به أحمد بن طولون التركى وذلك قبل ولايته مصر وعلم عجز محمد بن عبد الله بن طاهر عن قيامه بأمر المستعين حين استجار به وخذلانه إياه وميله إلى المعتز، ولما كان من الأمر ما تقدّم من خلع المستعين انصرف أبو أحمد الواثق من بغداد إلى سامرا فخلع عليه المعتز وتوّجه ووشحه بوشاحين وخلع على من كان معه من القواد وقدم على المعتز عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أخو محمد بن عبد الله بالبردة والقضيب والسيف وبجوهر الخلافة ومعه شاهك الخادم وكتب محمد بن عبد الله إلى المعتز فى شاهك المذكور إن من أتاك بإرث رسول الله ﷺ لجدير أن لا تخفر ذمته، واستتب الأمر إلى المعتز وانطلقت كلمته واتسعت وجعل المعتز يتوقع الغدر بأخيه المستعين والإيقاع به، فلما كان فى شهر رمضان من السنة أى سنة اثنتين وخمسين ومائتين بعث المعتز سعيد بن صالح الحاجب إلى واسط ليغتال المستعين ويوقع به وكان حين خلع من

الخلافة سير به إليها مع جملة من أحزابه فسار إليه سعيد ونزل واسطا وما زال يراقب الفرص حتى مال عليه وقتله واحتز رأسه وحمله إلى المعتز وترك جثته ملقاة على الطريق حتى تولى دفنها جماعة من العامة وقيل فى موته غير ذلك، ووصلت الرأس إلى المعتز وهو يلعب بالشطرنج فقيل له هذا رأس المخلوع فقال: ضعوها حتى أفرغ من الدست فلما فرغ نظر إليه وأمر بدفنه.

(الفصل الثالث عشر)

(فى خلافة المعتز بالله بن جعفر المتوكل)

ثم قام بالأمر بعد المستعين ابن عمه محمد المعتز بالله وهو الزبير بن جعفر المتوكل وأمه أم ولد يقال لها قبيحة ويكنى أبا عبد الله وله من العمر يومئذ ثمان عشرة سنة بويع له بالخلافة لما خلع المستعين نفسه وذلك فى يوم الخميس لليلتين خلتا من المحرم وقيل لثلاث خلون منه سنة اثنتين وخمسين ومائتين هجرية أى سنة ست وستين وثمانمائة ميلادية وبايعه القواد والموالى والشاكرية وأهل بغداد وخطب له في المسجد الجامع ببغداد فى الجانبين وكان على وزارته جعفر بن محمد ثم صرفه واستوزر جماعة فكانت بعد ذلك تخرج الكتب باسم صالح بن وصيف التركى كأنه مرسوم بالوزارة وما زال على هذا الحال يدبر الأمر حينا فلما كان بعد ذلك بقليل أنهى إلى المعتز أن أخاه المؤيد يدبر عليه وأنه قد احتال على جماعة من الموالى لينصروه فقبض على المؤيد فى الحال وحبسه وحبس معه أخاه أبا أحمد وهما لأب وأم وطولب المؤيد بأن يخلع نفسه من ولاية العهد فلم يقبل فضرب أربعين عصا إلى أن أجاب وأشهد على نفسه بذلك، ثم اتصل بالمعتز أيضاً أن جماعة من الترك اجتمع رأيهم على إخراج المؤيد من حبسه والانتصار له فأكبر المعتز هذا الأمر وخشى عاقبته وجعل يدبر على هلاك المؤيد فلما كان يوم الخميس لثمان بقين من رجب سنة اثنتين وخمسين ومائتين أخرج المؤيد وأحضر القضاة والفقهاء فرأوه ولا أثر فيه ثم أمر بعد ذلك فأدرج فى لحاف مسموم وشد طرفاه حتى مات فيه وضيق فى حبس أبى أحمد فكان بين دخوله سامرا وما لقى بها من الإكرام وبين حبسه ستة أشهر وثلاثة أيام ثم شخص المعتز إلى البصرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان بعد قتل المؤيد بخمسين يوماً ورتب إسماعيل بن قبيحة وهو أخو المعتز لأبيه وأمه مكان المؤيد فى ولاية العهد، واجتمع بعد ذلك بأيام سائر قواد الموالى على المعتز فسألوه الرضا

عن وصيف وبغا وكانا على ما هما عليه من الذل والضيق فأجابهم إلى ذلك كارهاً وكانت هذه حيلة منهم للإيقاع به لما نقموه عليه فلما كان رجب سنة خمس وخمسين ومائتين دخلوا عليه في عدة وافرة بغير استئذان وجعلوا يقرّعونه بذنوبه ويوبخونه على أعمال الحيلة على إفنائهم وقتل كبارهم واصطناعه للمغاربة والفراعنة دونهم وقد كانوا أحسوا منه بذلك وطالبوه بالأموال وكان المدبر لهذه الفتنة صالح بن وصيف مع قواد الترك فلج المعتز وأنكر أن يكون قبله شيء من المال وقد كانوا يطلبون خمسين ألف دينار وأرسل المعتز إلى أمه أن تعطيه ذلك القدر فأرسلت تقول: ما عندي شيء وقد كان عندها من المال والنفائس والجواهر الثمينة شيء كثير للغاية، فلما رأى الأتراك أنهم لم يحصل لهم من المعتز ولا من أمه شيء وليس في بيت المال شيء اتفقت كلمتهم وكلمة المغاربة والفراعنة على خلعه فجلس على بابه جماعة منهم بالسلاح وأرسلوا إليه أن اخرج إلينا فامتنع واعتذر بأنه تناول دواء فأمر صالح أن يدخل عليه بعضهم فدخلوا وجروه برجله إلى باب حجرته وضربوه بالدبابيس ومزقوا ثيابه وأوقفوه في الشمس في صحن الدار فكان لشدة حرارتها يرفع رجلاً ويضع أخرى وكان بعضهم يلطمه على وجهه ويقول له: اخلعها وهو يتقى بيديه ثم أدخلوه إلى حجرته وأشهدوا عليه جماعة بالخلع وبعثوا إلى مدينة السلام في طلب محمد بن الواثق الملقب بالمهتدى . وقد كان المعتز نفاه إليها واعتقله فيها فأتى به في يوم وليلة إلى سامرا فتلقاه الأولياء في الطريق ودخل الجوسق فأعلموه بأنهم سيبايعونه في الحال وسألوه الموافقة على ذلك فامتنع. وقال: لا أقبل البيعة حتى أرى المعتز وأسمع كلامه فأتى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل. فلما رآه محمد بن الواثق وثب إليه وعانقه وأجلسه بجانبه على السرير. وقال له: ياأخي ما هذا الأمر؟ فقال المعتز: أمر لا أطيقه ولا أقوم به ولا أصلح له فأراد المهتدى أن يتوسط في أمره ويصلح الحال بينه وبين مقدمي الأتراك فقال المعتز: لا حاجة لي فيها ولا يرضوني لها فقال المهتدى: فأنا في حل من بيعتك قال أنت في حل وسعة فلما جعله في حل من بيعته حوّل وجهه عنه فأقيم من حضرته وردّ إلى محبسه فقتل في محبسه بعد أن خلع بستة أيام تسلمه صالح بن وصيف ومنعه من الطعام والشراب ثلاثة أيام ثم أنزله في سرداب وأطبقه عليه حتى مات ثم أخرجه وأشهد عليه أن لا أثر به وقيل أيضاً إنه بعد خلعه بخمسة أيام أدخله الحمام ومنعه الماء حتى عاين التلف ثم أتوه بماء مالح فشربه فسقط ميتا وذلك في رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وكان عمره ثلاثاً وعشرين سنة فكانت خلافته أربع سنين

وستة أشهر وقيل وثلاثة وعشرين يوماً وكان عمره كله أربعاً وعشرين سنة وكان أبيض أسود الشعر كثيفه حسن العينين والوجه أحمر الوجنتين حسن الجسم طويلاً فصيحاً كبير المعرفة واسع الدراية والخبرة له فى الفصاحة وحسن الإلقاء كلام كثير يدل على مبلغ علمه، وهو أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب وكان من سبقه من الخلفاء من بنى العباس وكذلك جماعة من بنى أمية لا يركبون إلا بالحلية الخفيفة من الفضة والمناطق واتخاذ السيوف والسروج واللجم فلما ركب المعتز بحلية الذهب اتبعه الناس فى ذلك وفشت هذه العادة بينهم ثم تغالى فيها الخلفاء والسلاطين من بعده وبالغوا جداً.

واستعمل المعتز على مصر فى خلافته أحمد بن مزاحم بن خاقان سنة ثلاث وخمسين ومائتين وهو طاغية جباراً عسوفاً فولى الشرطة أرجوز التركى وكان أرجوز هذا أكبر ويلاً منه وأشد عسفاً وجوراً فأكثر من الإرهاب والتشديد على الرعية وبالغ فى إيذاء الناس بطرق وأنواع مختلفة ومنع النساء من الدخول إلى الحمامات ومن زيارة قبور الأموات والولولة فى الجنازات وضيق على المخنثين والنوائح وحبسهم وأكثر من الإحداثات والبدع الغريبة، فلما كانت سنة أربع وخمسين ومائتين منع من الجهر بالبسملة فى الصلاة بالجامع وكان أهل مصر يجهرون بها منذ الإسلام إلى ذلك الحين وأخذ أهل الجامع بتمام الصفوف فكان الموكل بذلك رجل من العجم يقوم وبيده السوط إلى مؤخر المسجد وأمر أهل الحلق بالتحوّل عن القبلة قبل إقامة الصلاة ومنع من المساند التى كان المصلون يستندون إليها ومن الحصر التى كانت للمجالس بالمساجد ورسم بأن تصلى التراويح فى رمضان خمس تراويح وكان أهل مصر يصلونها ستا إلى أن منعهم من ذلك فى تلك السنة ومنع من التشويب ورسم بالأذان يوم الجمعة فى مؤخر المسجد وأن يغلس بصلاة الصبح، ونادى مناديه أن لا يشق ثوب على ميت أو يسوّد وجه أو يحلق شعر أو تصيح امرأة أو تولول فمن فعل شئ من ذلك عوقب وعاقب على ذلك وشدد فيه وكبر عسفه وظلمه فضاق خناق الناس وابتهلوا إلى الله تعالى وما زالوا على هذا الحال معه حتى مات مزاحم وتولى بعده الولاية باكياك التركى وقيل باكيال فالتمس باكيال من يستخلفه بمصر لقيامه هو بخدمة ركاب الخليفة، وقد كانت العادة أن من يتولى ولاية كمصر أو غيرها من العمالات الكبيرة من الأمراء والكبراء فلا يأتيها بل يبقى فى خدمة الركاب ويوليها من يشأ من مواليه أوضائعه أو غيرهم ممن يثق به، فأشير على باكيال المذكور بأحمد بن طولون فولاه إياها فكان من أمره وسعد أحواله وإقبال الدنيا عليه بحذافيرها وظهور دولته ما سيذكر فى ترجمته فى وصل بعد.

(فى ترجمة أحمد بن طولون ، وفى ظهور دولته بديار مصر)

هو أبو العباس أحمد بن طولون كان أبوه من الأتراك الذين أهداهم نوح بن أسد الساماني عامل بخارى إلى المأمون بن هارون الرشيد فى سنة مائتين هجرية ويقال إلى الرشيد فى سنه تسعين ومائة وولد ابنه أحمد هذا فى سنة أربع عشرة وقيل سنة عشرين ومائتين ثم مات طولون فى سنة ثلاثين وقيل سنة أربعين ومائتين هجرية، وحكى ابن عساكر عن بعض مشايخ مصر أن طولون لم يكن أبا أحمد ولكنه تبناه وأمه جارية تركية يقال لها هانم، وكان الترك قد طلبوا منه أن يقتل الخليفة المستعين لما سيروه معه إلى واسط مبعداً فأبى وقال: والله لا تجارأت على قتل أولاد الخليفة فلما جاء مصر قال: لقد وعدنى الترك إن قتلت المستعين أن يولونى واسطًا فخفت الله ولم أفعل فعوّضنى ولاية مضر والشام وسعة الأحوال، وكان سبب ولايته على مصر وظهور دولته أنه لما تولى الخلافة المعتز بالله بن جعفر المتوكل استعمل على ديار مصر مزاحم بن خاقان أحد مقدمى الترك فى دولة المعتز وكان مزاحم هذا طاغية جباراً فولى الشرطة أرجوز التركى فكان أرجوز أشد ويلاً وأكبر عسفاً وجوراً فأكثر من الإرهاب والتهديد وبالغ فى إيذاء الناس ومنع النساء من الدخول إلى الحمامات وزيارة قبور الأموات وغير ذلك من البدع والأحداث الغريبة كما مر بيان ذلك فى موضعه فلما مات وتولى مكانه الأمير باكياك وقيل باكيال واتصل به خبر ما يفعله أرجوز من الجور والعسف التمس من يستخلفه بمصر فأشير عليه بأحمد بن طولون لما ظهر عنه من حسن السيرة وطيب السريرة فولاه مصر وسرحه إليها وكان بها ابن المدبر على الخراج وقد تحكم فى البلد وأحدث الإحداثات الغريبة وكان قهرمانا من دهاة الرجال وأبالسة الكتاب فضرب على الناس الضرائب الكثيرة وقرر المغارم الفادحة وابتدع بدعاً صارت سنة من بعده مرعية إلى يومنا هذا منها أنه أحاط بالنطرون ومنع الناس منه بعد أن كان مباحًا، وقرر على الكلأ الذى ترعاه الماشية مالاً سماه المراعى وقرّر على ما يطعمه الله من صيد البحر أيضاً مالا سماه المصائد فانقسم مال مصر من حينئذ إلى قسمين خراجى وهلالى فالخراجى ما يؤخذ فى كل سنة من الأرض التى تزرع حبوباً ونخيلاً وكروماً وفاكهة وما شاكل ذلك، والهلالى قسمه إلى قسمين سماهما المرافق والمعاون وهو ما يؤخذ على الضرائب المحدثة كالمراعى والمصائد ونحوهما فكانت هذه المغارم وقراً ثقيلاً

على الناس فكثر بغضهم لابن المدبر وجعلوا يدبرون له المكائد ويتربصون الفرص للبطش به فلما أحس منهم بذلك جعل فى خاصته نحوا من مائة غلام هندى ممتازين وزججهم بالسلاح فكانوا فى خدمته لا يفارقونه فى حله وترحاله، فلما قدم أحمد ابن طولون إلى مصر واستقر به منصب النيابة كف يد ابن المدبر واستولى على البلد وكان باكيال قد استعمل أحمد على مصر وحدها دون باقى الأعمال كالإسكندرية ورشيد والصعيد الأعلى فلما قتل باكيال وصارت مصر إلى ليارجوج التركى وكان بين ليارجوج وأحمد بن طولون مودة متأكدة استعمله على ديار مصر جميعها وكان المتولى على الإسكندرية يومئذ عيسى بن دينار فأقره ابن طولون على ولايتها ونزلت هى وغيرها من بقية الثغور تحت حكم ابن طولون فلما تم له أمر ذلك قدم عليه ابن المدبر فى حاشيته وغلمانه ومعه شقير الخادم غلام قبيحة أم أمير المؤمنين المعتز وهو يومئذ على البريد فنظر ابن طولون وإذا بين يدى ابن المدبر مائة غلام لهم خلق حسن وطول أجسام وبأس شديد وعليهم أقبية ومناطق ثقال عراض وبأيديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من الفضة وهم يقفون بين يديه فى حافتى مجلسه إذا جلس ويركبون بين يديه إذا ركب فيصير له بهم هيبة وجلالة فى صدور الناس فداخل ابن طولون شئ من ذلك وكبرت هذه النعمة فى عينيه وحسد ابن المدبر عليها، وقدّم إليه ابن المدبر الهدايا النفيسة والتعابى الثمينة استجلاباً لرضاه فلم يقبلها وردها على ابن المدبر فنظر ابن المدبر إلى شقير. وقال إن هذه لهمة عظيمة ومن كانت هذه همته لا يؤمن على طرف من الأطراف وخافه ابن المدبر وخشى عاقبة التقرب منه وكره المقام معه فى مصر ثم اجتمع بشقير الخادم وتناجيا فى أمر ابن طولون وكتبا إلى الخليفة المعتز يطلبان خلع ابن طولون عن مصر فلم يكن إلا أيام حتى بعث ابن طولون إلى ابن المدبر يقول له: قد كنت أعزك الله أهديت لنا هدية وقع الغنا عنها ولم يجز أن يغتنم مالك كثره الله فرددناها توفيراً عليك ونحب أن تجعل العوض منها الغلمان الذين رأيناهم بين يديك فأنا إليهم أحوج منك، فقال ابن المدبر لما بلغته الرسالة هذه أخرى أعظم مما تقدم قد ظهرت من هذا الرجل إذ كان يرد الأموال والأعراض ويستهدى الرجال ويثابر عليهم ثم لم يجد ابن المدبر بداً من أن يبعث بالغلمان كارهاً فزالت بعد ذلك هيبة ابن المدبر وكبرت هيبة ابن طولون وخافه الناس وجعل ابن المدبر يدبر الحيلة على خلع ابن طولون ويكاتب الخليفة فى ذلك وأحمد يعلم بالأمر ويكتمه عن ابن المدبر حتى انقضت خلافة المعتز بالله.

وظهرت كلمة ابن طولون واتسعت شهرته فأضيفت إليه نيابة الشام والعواصم

والثغور وإفـريقية فعـمد إلى الفتح ففـتح أنطاكية وعدة مدن أخـرى وطالت ولايته فرتب الأمـور وأحكم السيـاسة وأمن الطرق ووسع أبواب الخيـر فكانت ظاهرة بينة وابتنى بالقاهرة جامعه المشهور والبيمارستان والعين التى أنشـأها بالمعافر وقد وقعت عند جميع أهله وجيرانه أحـسن موقع لأنهم فى حاجة زائدة إلى الماء، قيـل وكان السبب في إنشائه إياها أنه ركب يومـا فمر بمسجد الإقدام وحـده وتقدّم عسكره وقد كدّه العطش وكان فى المسجد خياط فقـال: ياخياط أعندك ماء؟ فقال نعم وأخرج له ركوة صـغيرة وقـال اشرب ولا تمدّ يعنى لا تشرب كـثيراً فـتبسم أحـمد بن طولون وشرب فمدّ فيه حتى شرب أكـثرها ثم ناوله إياها. وقال: يافتى سقيتنا وقلت لا تمد فقال نعم أعزك الله موضعنا هنا منقطع وأنا أخيط بشىء حتى أجمع ثمن راوية فقال له: أو الماء عندكم ههنا معوز؟ فقال نعم قـال الراوى: فمضى أحمد بن طولون ولما رجع إلى داره. قال علىّ بالخياط الذى فى مسجـد الإقدام فجاءوا به فلما رآه أحمد قال له سـر مع المهندسين حتى يخطـوا عندك موضع سقـاية ويجروا الماء وهذه ألف دينار خذها ثم ابتدأ بالإنفاق وأجرى على الخياط فى كل شهر عشرة دنانير. وقال له بشرنى ساعة يجرى الماء فيها فجدّوا فى العمل فلما جرى الماء أتاه مبشراً فخلع عليه وجمله واشتـرى له دارا يسكنها وأجرى عليه الرزق السنوى بـكثرة. قال بعض أهل التاريخ: وكان قد أشير عليه بأن يجرى الماء من عين أبى خليد المعروفة بالنعش فقال هذه العين لا تعـرف إلا بأبى خليد وإنى أريد أن أسـتنبط بئرا فعـدل عن العين إلى الشرق فـاستنبط بئره هذه وبنى عليـها القناطر وأجرى الماء إلى الفـسقيـة التى بقرب درب سالم وتولى بناء هذه السقاية قبطى من أقبـاط مصر حسن الهندسة حاذق ماهر قيل إنه دخل على ابن طولون عـشية من العشـايا فقال له: إذا فرغت مما تحـتاج إليه فأعلمنـى لنركب إليها فنـراها فقال يركب الأمـير إليـها فى غد فـقد فـرغت وتقدم المهندس المذكور فرأى مـوضعاً بها يحتـاج إلى قصرية جيـر وأربع طوبات فبادر إلى عمل ذلك وأقبل ابن طولون يتأمل العـين فاستحسن جميع ما شـاهده فيها ثم أقبل إلى الموضع الذى فيه قـصرية الجير فـوقف بالاتفاق عليها فلرطوبة الجـير غاصت يد الفرس فيه فكبا بأحمد ولسوء ظنه قدّر أن ذلك لمكروه أراده به المهندس فأمر به فشق عنه ما عـليه من الثيـاب وضربه خـمسمـائة سوط وأمـر به إلى المطبق فوضع فـيه وانصرف ابن طولون وأقام المهندس بالمطبق إلى أن أراد ابن طولون بناء جـامعه فقدّر له ثلاثمائة عمود فقيل له ما تجدها أو تنفذ إلى الكنائس فى الأرياف والضياع فتحمل ذلك فأنكره ولم يختره وتعـذب قلبـه بالفكـر فـى أمره وبلـغ المهنـدس القبطى وهو

بالمطبق الخبر فكتب إلى ابن طولون يقول: أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عِمد إلا عمودى القبلة فسرّ ابن طولون بذلك وأحضر القبطى وقد طال شعره حتى تدلى على وجهه وقال له: ويحك ما تقول فى بناء الجامع؟ فقال أنا أصوره للأمير حتى يراه عياناً بلا عمد إلا عمودى القبلة فأمر بأن تحضر له الجلود فأحضرت وصوّره له فأعجبه واستحسنه وأطلق القبطى وخلع عليه وأطلق له للنفقة عليه مائة ألف دينار وقال له أنفق وما احتجت إليه بعد ذلك أطلقناه لك فوضع البناء يده فى الموضع الذى هو فيه وهو المعروف بجبل يشكر فكان ينشر من الحجر ويعمل الجير ويبنى إلى أن فرغ من جميعه وبيضه وخلقه وعلق عليه القناديل بالسلاسل الحسان الطوال وفرش فيه الحصر وحمل إليه صناديق المصاحف ونقل إليه القراء والفقهاء وصلى فيه وتصدّق بصدقات عظيمة وأجاز المهندس بعشرة آلاف دينار وأجرى عليه الرزق الواسع إلى أن مات.

وذهب ابن طولون فى يوم الجمعة إلى الجامع فلما رقى الخطيب أبو يعقوب البلخى المنبر وخطب دعا للخليفة وولده ونسى أن يدعو لأحمد بن طولون ونزل عن المنبر فأشار أحمد إلى نسيم الخادم أن اضربه خمسمائة سوط فذكر الخطيب سهوه وهو على مراقى المنبر فعاد وقال بعد الحمدلة والديباجة ﴿**ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما**﴾ اللهم وأصلح الأمير أبا العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين وزاد فى الشكر والدعاء له بقدر الخطبة ثم نزل فنظر أحمد إلى نسيم أن اجعلها خمسمائة دينار. قال القضاعى: وذكر أن السبب فى بنائه يعنى فى بناء ذلك الجامع أن أهل مصر شكوا إليه ضيق الجامع يوم الجمعة من جنده وسودانه فأمر بإنشاء الجامع المذكور بجبل يشكر بن جديلة من لخم فابتدأ فى بنائه فى سنة ثلاث وستين ومائتين وفرغ منه سنة خمس وستين ومائتين، وقيل إن أحمد بن طولون. قال: إنى أريد أن أبنى بناء إن احترقت مصر بقى وإن غرقت بقى فقيل له يبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر المشوى بالنار إلى السقف ولا يجعل فيه أساطين رخام فإنها لا صبر لها على النار فبناه هذا البناء وكان من أمره وإعادة ترميمه فى أيام دولة خليل بن قلاون ما كان مما لا موضع هنا لذكره.

وبعد أن تم بناء السقاية رسم فكانت تفتح طول النهار لمن كشف وجهه للأخذ منها ولمن كان له غلام أو جارية والليل للفقراء والمساكين واتخذ لها مستغلاً فيه فضل وكفاية لمصالحها ثم بلغه أن قوماً لا يستحلون شرب مائها. قال محمد بن عبد الله

ابن عبد الحكم الفقيه: كنت ليلة فى دارى إذ طرقت بخادم من خدّام أحمد بن طولون. فقال لى الأمير يدعوك فركبت مذعوراً مرعوباً فعدل بى عن الطريق فقلت أين تذهب بى؟ فقال إلى الصحراء فأيقنت بالهلاك وقلت للخادم: الله الله فىّ فإنى شيخ كبير ضعيف مسن فتدرى ما يراد منى فارحمنى فقال احذر أن يكون لك فى السقاية قول وسرت معه وإذا بالمشاعل فى الصحراء وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية وبين يديه الشموع فنزلت وسلمت عليه فلم يرد علىّ فقلت: أيها الأمير إن الرسول قد أعيانى وكدّنى وقد عطشت فيأذن لى الأمير فى الشرب فأراد الغلمان أن يسقونى فقلت أنا آخذ لنفسى فاستقيت وهو يرانى وشربت وزدت فى الشرب حتى كدت أنشق ثم قلت: أيها الأمير سقاك الله من أنهار الجنة فلقد أرويت وأغنيت ولا أدرى ما أصف أطيب الماء فى حلاوته وبرده أم صفاءه أم طيب ريح السقاية قال فنظر إلىّ وقال: أريدك لأمر وليس هذا وقته فأصرفوه فصرفت فقال لى الخادم أصبت فقلت أحسن الله جزاءك فلولاك لهلكت وكان مبلغ ما أنفق على هذه العين فى بنائها ومستغلها أربعين ألف دينار ثم كان من أمر ابن طولون ما سيذكر فى محله فى خلافة المهتدى ومن جاء بعده من الخلفاء.

ومات فى خلافة المعتز قسيما بطرك المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وقيل سبع. سنين وخمسة أشهر فخلا الكرسى بعده أحدا وخمسين يوما وفى أيام هذا البطرك أمر نوفل قيصر الروم بمحو الصور من الكنائس لأمور فبعث إليه قسيما وناظره حتى أفحمه ورجع به إلى حسن الاعتقاد فرسم بإعادة الصور إلى ما كانت عليه فلما مات قسيما أقيم بعده سانوتيو أو هو شنوده خامس خمسيهم وبلده البتانون وكان راهباً بدير أبى مقار ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

(الفصل الرابع عشر)

(فى خلافة جعفر المهتدى بالله هارون)

ثم قام بالأمر بعد المعتز ابن عمه جعفر بن هارون الواثق بن المعتصم ولقب بالمهتدى وقيل إن اسمه محمد ويلقب بأبى إسحق بويع له بالخلافة قبل الظهر من يوم الأربعاء لليلة بقيت من رجب الفرد سنة خمس وخمسين ومائتين هجرية أى سنة ثمان وستين وثمانمائة ميلادية وأمه أم ولد رومية يقال لها قرب ويكنى بأبى عبد الله وله يومئذ سبع وثلاثون سنة وقيل تسع وثلاثون. ولما استقر به المنصب أخرج

الملاهى وحرم سماع الغناء والشراب وأمر بنفى المغنيات وطرد الكلاب والسباع وألزم نفسه الإشراف على الدواوين والجلوس للناس وإزالة المظالم وتغيير المنكرات. وقال إنى أستحى من الله أن لا يكون فى بنى العباس مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى أمية وكان صالح بن وصيف بعد خلع المعتز وقتله قد خرج هارباً فلم يهتد له على محل. فلما كان لثلاث بقين من المحرم زعم المهتدى أن امرأة دفعت إلى سيما الشرابى كتابا. وقالت: إن فيه نصيحة وإن منزلها بمكان كذا وطلبت المرأة فلم توجد ودعا المهتدى القواد وسليمان بن وهب فأراهم الكتاب فزعم سليمان أنه خط صالح ابن وصيف فقرأه على القواد فإذا فيه أنه مستخف بسامرا. وإنما استتر طلباً للسلامة وإبقاء الموالى وطلبا لانقطاع الفتن وذكر ما صار إليه من أموال الكتاب ويدل فيه على قوّة نفسه فلما فرغوا من قراءته جعل المهتدى يحث الجماعة على الصلح مع ابن وصيف والاتفاق والنهى عن التباغض والتباين فاتهمه الأتراك بأنه يعلم بمكان ابن وصيف ويميل إليه وطال بينهم وبينه الأخذ والرد فلما كان الغد اجتمعوا بدار موسى ابن بغا واتفقوا على خلع المهتدى وكان بينهم الأمير باكيال فقال لهم: ويحكم إنكم قتلتم ابن المتوكل. وهو فتى حسن الوجه سخى الكف فاضل النفس وتريدون اليوم قتل هذا وهو مسلم تقى يصوم ولا يشرب النبيذ من غير ذنب والله لئن قتلتم هذا لألحقن بخراسان لأشيع أمركم هناك فاتصل خبر ذلك إلى المهتدى فتحوّل من مجلسه وهو متقلد سيفه وقد لبس ثياباً نظافاً وتطيب وأمر بإدخالهم عليه فدخلوا فقال لهم بلغنى ما أنتم عليه ولست كمن تقدمنى مثل المستعين والمعتز والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنط وقد أوصيت إلى أخى بولدى. وهذا سيفى والله لأضربن به ما استمسك قائمه بيدى والله لئن سقط منى شعرة ليهلكن وليذهبن أكثركم كم هذا الخلاق على الخلفاء والإقدام والجراءة على الله سواء عليكم من قصد الإبقاء عليكم ومن كان إذا بلغه هذا منكم دعا بالنبيذ فشربه مسروراً بمكروهكم حتى تعلمون أنه وصل إلى شىء من دنياكم أما إنكم لتعلمون أن بعض المتصلين بكم أيسر من جماعة من أهلى وولدى سوأة لكم يقولون إنى أعلم بمكان صالح وهل هو إلا رجل من الموالى؟ فكيف الإقامة معه إذا ساررتكم فيه وإذا أبرمتم الصلح فيه كان ذلك ما أنفذه لجميعكم وإن أبيتم فشأنكم واطلبوا صالحاً وأما أنا فما أعلم مكانه فعند ذلك علت ضوضاء القوم وقالوا له: احلف لنا على ذلك فقال أما اليمين فنعم ولكنها تكون بحضرة بنى هاشم والقضاة غدا إذا صليت الجمعة فلم يتم شىء من ذلك. وقد اشتد بغض الترك له وهموا بخلعه فمنعهم من ذلك خوف الاضطراب

وقلة الأموال فأتاهم مال من فارس عشرة آلاف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم وانتشر الخبر بين العامة أن القوم قد اتفقوا على خلع المهتدى والفتك به وأنهم قد أرهقوه فجعلوا يكتبون الرقاع ويرمونها فى الطرق والمساجد مكتوباً فيها يامعشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهى لعمر بن الخطاب أن ينصره الله على عدوه ويكفيه مؤنة ظالمه وتتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه فإن الأتراك قد أخذوه بأن يخلع نفسه وهو يعذب منذ أيام وصلى الله على سيدنا محمد، واشتدّ الأتراك على المهتدى وبالغوا فى إهانته حتى يخلع نفسه فلم يفعل وظهر بابك التركى ومن معه بشق عصا الطاعة والخروج على الخليفة فأمر الخليفة بقتله فقتل فهاج الترك ووقع الحرب بينهم وبين المغاربة أنصار الخليفة واشتدّ الحال وطالت أيام القتال فقتل من الفريقين أربعة آلاف على رواية بعض أصحاب التاريخ وخرج المهتدى والمصحف فى عنقه وهو يدعو الناس إلى نصرته على الترك ومعه طوائف المغاربة وبعض العامة فحمل عليهم طيبغا أخو بابك فهزمهم ومضى المهتدى وهو مهزوم والسيف فى يده وقد جرح جرحين حتى دخل دار محمد بن يزداد فتجمع الترك وهجموا على الدار وأخذوه أسيرا وحمله أحمد بن خاقان وجعلوا يصفعونه ويقولون: اخلعها وهو لا يفعل فسلم إلى رجل فوطىء مذاكيره حتى قتله وقيل مات بالخناجر ومنهم من روى أنه جعل بين لوحين عظيمين وشدّ بالحبال إلى أن مات وقيل قتل خنقاً. وقيل كبس عليه بالبسط والوسائد حتى مات فلما مات داروا به ينوحون ويبكون عليه وندموا على ما كان منهم من قتله لما تبينوه من نسكه وقتل وله من الولد سبعة عشر ذكراً وست بنات قيل وكان قد ذهب فى أمره إلى القصد والدين فقرّب العلماء ورفع من منازل الفقهاء وعمهم ببره وكان يقول: يابنى هاشم دعونى حتى أسلك مسلك عمر ابن عبد العزيز فى بنى أمية وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب وأمر بإخراج آنية الذهب من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم وعمد إلى الصور التى كانت فى المجالس فمحيت وذبح الكباش التى كان يناطح بها بين يدى الخلفاء والديوك وقتل السباع المحبوسة ورفع بسط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة بإباحته. وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها فى كل يوم عشرة آلاف درهم فأزال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤنته فى كل يوم نحو مائة درهم. قيل وكان يواصل الليل بالنهار فى التهجد والعبادة وأنه لما قتل أخرج رجل من الموضع الذى كان يأوى إليه فأصيب له سفط مقفل فتوهموا أن فيه مالاً أو جوهراً فلما فتح وجدوا فيه جبة صوف وغل وقيل جبة شعر فسألوا من كان يخدمه فقال: كان إذا جن الليل لبسها وغل نفسه وكان يركع ويسجد إلى أن يدركه الصباح رحمه الله.

وعرضت على المهتدى يوماً دفاتر خزائن الكتب فإذا على ظهر كتاب منها هذه الأبيات قالها المعتز بالله وكتبها بخطه:

إني عرفت علاج الطب من وجعي ... وما عرفت علاج الحب والخدع
جزعت للحب والحمى صبرت لها ... إني لأعجب من صبري ومن جزعي
من كان يشغله عن إلفه وجع ... فليس يشغلني عن حبكم وجعي
وما أملّ حبيبي ليتني أبداً ... مع الحبيب وياليت الحبيب معي

فقطب وجه المهتدى بالله. وقال حدث وسلطان الشباب وكان كثيراً ما ينشد البيت الأول من هذا الشعر، وقال عبد الله بن إبراهيم الإسكافى: جلس المهتدى للمظالم فاستعداه رجل على ابن له فأمر بإحضاره فأحضر وأقامه إلي جانب خصمه ليحكم بينهما فقال الرجل للمهتدى والله ياأمير المؤمنين ما أنت إلا كما قيل:

حكمتموه قاضيا بينكم ... أبلج مثل القمر الزاهر
لا يقبل الرشوة في حكمه ... ولا يبالي بغبن الخاسر

فقال المهتدى: أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك وأما أنا فما جلست حتى قرأت ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ الآية، قال: فما رأيت باكياً أكثر من ذلك اليوم. وقال أبو العباس بن هاشم بن القاسم الهاشمى: كنت عند المهتدى بعض عشايا شهر رمضان فقمت لأنصرف فأمرنى بالجلوس فجلست حتى صلى المهتدى بنا المغرب وأمر بالطعام فأحضر وأحضر طبق خلاف عليه رغيفان وفى إناء ملح. وفى آخر زيت وفى آخر خل فدعانى إلى الأكل فأكلت مقتصراً ظنًا منى أنه يحضر طعاماً جيداً فلما رأى أكلى كذلك قال: أما كنت صائماً فقلت بلى فقال: أفلست تريد الصوم غدا قلت وكيف لا وهو شهر رمضان فقال كل واستوف عشاءك فليس ههنا غير ما ترى فعجبت من قوله وقلت ولم يا أمير المؤمنين؟ قد أسبغ الله عليك النعمة ووسع رزقه فقال: إن الأمر على ما وصفت والحمد لله ولكنى فكرت فى أنه كان من بنى أمية عمر بن عبد العزيز فغرت لبنى هاشم أن لا يكون فى خلفائهم مثله وأخذت نفسى بما رأيت. اهـ.

ومات ولم يستكمل الأربعين سنة وكان موته فى سنة ست وخمسين ومائتين هجرية فكانت خلافته أحد عشر شهراً وخمسة عشر ليلة ودفن بسامرّا وقيل كان مولده فى سنة ثمان عشرة ومائتين للهجرة.

وفى خلافته كانت الأمور قد انتظمت لأحمد بن طولون بمصر واتسعت شهرته وبسط يده على مشرق الأرض ومغربها مع ما انضاف إلى مصر من الديار الشامية وأنطاكية والجزيرة فلما كانت أخريات سنة ست وخمسين ومائتين هجرية خرج على ابن طولون إبراهيم الصوفى عامل إقليم إسنا بالصعيد الأعلى وبالغ فى العصيان وأكثر من الشدّة وبسط يده على سائر بلاد ذلك الصقع وعاث وظلم وقتل من لم يطعه فأنفذ ابن طولون طائفة من العسكر لقتاله فاجتمع الفريقان واقتتلا فكانت الدائرة على أصحاب ابن طولون فانحدروا إلى أخميم مدحورين فسير إليهم ابن طولون نجدة فقاتلت الصوفى وشدّت فى قتاله حتى ظفرت وقهرت لمومه ومزقت شملهم كل ممزق ففر ابن الصوفى فى نفر من أصحابه وسار فى عرض البرّية طلبا للنجاة واختفى أمره وانقطع ذكره ولم يكد يخفى خبره ويتناسى الناس فتنته حتى خرج أيضاً ابن شيخ على أعمال فلسطين والأردن واستبدّ بها بعد موت أبيه أحمد ابن عيسى بن شيخ الشيبانى وقد كان أبوه يتقلد جند تلك الأنحاء وطمع ابن شيخ المذكور فى الاستقلال بملك الشامات والتغلب عليها وأكثر أصحابه من الإرجاف ووردت الأخبار إلى ابن طولون بأنه يريد ديار مصر ليأخذها وقد خرج والأمور مضطربة ببغداد والفتنة قائمة بين الأتراك والمغاربة وعامة أهل بغداد فلم يهم ابن طولون ذلك ولا أحله محلا واتفق أن أرسل ابن المدبر صاحب خراج مصر سبعمائة وخمسين ألف دينار حملا من مال مصر إلى بغداد فقبض ابن شيخ عليها وفرقها فى أصحابه فتقوت بها قلوبهم واشتدّت عزيمتهم وطمعوا فى المحال من التغلب والفوز وتاهبوا للنزول على مصر وأخذها من ابن طولون ثم كان من أمر الفريقين بعد ذلك ما كان مما سيذكر إن شاء الله فى خلافة أبى القاسم أحمد المعتمد بن المتوكل حسب ترتيب حوادث كل خلافة وزمن وقوعها.

(الفصل الخامس عشر)

(فى خلافة أبى القاسم أحمد المعتمد على الله بن المتوكل)

ثم قام بالأمر بعد المهتدى ابن عمه أحمد المعتمد على الله بن المتوكل على الله ابن المعتصم بالله بويع له بالخلافة يوم قتل ابن عمه المهتدى بسامرا سنة ست وخمسين ومائتين هجرية أى سنة تسع وستين وثمانمائة ميلادية. فكان له اسم

الخلافة فقط ولأخيه الموفق بن المتوكل تدبير الملك وما زال كذلك إلى أن مات الموفق فقام بتدبير الملك بعده ابنه أحمد المعتضد وغلب على عمه المعتمد كما كان أبوه غالباً عليه قيل فكان المعتمد يطلب الشيء الحقير فلا يناله ولم يكن له سوى الاسم فضاق به الحال واشتد عليه الأمر يوماً فقال فى ذلك متوجعاً:

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلّ ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه

وكانت أيام المعتمد كلها حروباً هائلة وكروبا مستمرة وخروج الكثير من الخوارج مثل يعقوب بن الليث الصفار وصاحب الزنج وغيرهما وقد بالغ جماعة الكتاب فى عدد من قتل فى هذه الحروب والفتن فكانوا بين مكثر ومقلل فأما المكثر فكان يقول: إنه أفنى من الناس ما لا يدركه العدّ ولا يقع عليه الإحصاء ولا يعلم ذلك إلا علام الغيوب فيما فتح من هذه الأمصار والبلدان والضياع وأباد أهلها والمقلل يقول: أفنى من الناس خمسمائة ألف ألف وكلا الفريقين يقول فى ذلك ظنا وحدسا إذ كان شيئاً لم يدرك ولم يضبط وكان ممن تم خروجه فى أيامه واستفحل أمره بتاتا ابن شيخ فإنه استبد بحكم الشامات وقطع الحمل عن بغداد فسير إليه المعتمد حسينا الخادم فكلمه فى ذلك فاعتذر فأعطاه حسين عهده على أرمينية ليقيم الدعوة للمعتمد وكان قد بالغ فى الامتناع فأجابه إلى ذلك بعد أمور وأخذ العهد وأقام الدعوة ولبس السواد الذى هو زى العباسيين ظنا منه أن الشام تكون بيده فلم يلبث على ذلك طويلا حتى أنفذ المعتمد أماجور التركى وقلده دمشق وأعمالها فسار إليها فى ألف رجل فلما قرب منها أنهض عيسى إليه ولده منصورا فى عشرين ألف مقاتل فلما التقوا انهزم عسكر منصور وقتل منصور فوهن عيسى وسار إلى أرمينية من طريق الساحل فخلا الجوّ لأماجور التركى وولى دمشق وجعل يتصرف فى الأمور على ما يهواه وكان الخليفة المعتمد قد أرسل إلى أحمد بن طولون فى مناجزة ابن شيخ وقتاله حتى يظفر به وسير إلى ابن المدبر أن يطلق النفقة لابن طولون فتجهز ابن طولون وخرج فى عسكر عظيم وجنائب ومواهى وطبول وغير ذلك واستخلف على ديار مصر أخاه موسى فبينما هو فى طريقه إذ جاءه مرسوم الخليفة بالعودة إلى مصر وأن أماجور قد ولى قتال ابن شيخ فعاد أحمد بن طولون ودخل القاهرة فى شعبان من هذه السنة.

وداخل قلب ابن طولون من حب الاستبداد بملك مصر وشق عصا طاعة العباسيين ما أقلقه وعظمت رغبته فى ذلك فجعل يشيد الحصون ويبنى القلاع

وينشيء المعـاقل ويكثر من الـكراع وآلات القتـال وابن المدبر صاحب خـراج مصـر يحفظ له كل ذلك وكان ابن طولون إلى هذا الحين يسكن خارجاً عن سور الفسطاط فى دار الإمارة التى كـانت لمن سلف من الأمراء وهى فى ضـاحية العـسكر وكانت ضاحيـة العسكر فيها الأسـواق والبنيات العظيمة والطرق الواسـعة فلم تكف موالى وغلمان وأتباع ابن طولون وضاقت بأدواته وآلات حربه فصعد يوماً إلى المقطم ونظر إلى ما حوله فـرأى بين ضاحية العسكر وبين المقطم فضـاء لا شيء فيه من البناء إلا بعض المدافن لليهـود والنصارى فاختـارها للبناء قـيل ورسم بحرث المدافن ونبشـها واختط في موضـعها قصـرا عظيماً وميـداناً وتقدم إلى أصحابه وغلمـانه وأتباعه أن يختطوا لأنفـسهم حوله فـفعلوا فاتصل بنـاؤهم إلى عمائر الفـسطاط فلما رأى ابن طولون كثرة البناء أعجبه وأمر بقطع القطائع وسمي كل قطيعة منها باسم من أسكنها فكانت لغلمان النوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ولغلمان الروم قطيعة مفردة وللفراشين قطيعة وكذلك لغيرهم من بقية الموالى والأتباع، وابتنى كذلك القواد مواضع متفرّقة فزادت القطائـع ضخامـة وتشعبـت فيهـا الطرق والمسالك وبنيت المسـاجد العظيـمة والأفران والحمامات والطواحين واختص كل سـوق منها باسم مخصوص فكان منها سوق الشوّايين وسوق البقالين وصارت من هذا الحين هذه القطائع مدينة عظيمة آهلة للغـاية فكانت غلمان ابن طولون تضـرب فى الميدان بـالصوالجة ثـم عاد بعد حـين فـسمى القصر والميـدان باسم الميدان وعمل له أبواباً لكل بـاب اسم فكان منها باب الميـدان ومن هذا البـاب كان يدخل ويخـرج مـعظم الجيـش وباب الصوالجـة وباب الخاصـة ولم يدخل منه إلا خاصة ابن طولون وباب الجـبل لأنه مما يلى المقطم وباب الحرم ولا يدخل منه إلا النسـاء والخصيان وباب الدرمون قـال بعض الكتاب: وهذا كان يجلس عنده حاجب أسود ضخم الجثـة يتقلد جنايات السود الرجالة فقط ويقال له الدرمون وباب دغـاج وكان يجلس عنده حـاجب اسمه دغـاج وباب الساج لأنه عمل من خـشب الساج وباب الصـلاة وهو فى الطريق الموصل إلى الجامـع ويسمى أيضاً بـباب السبـاع لأنه كان عليـه صورة سـبعيـن من الجص. وكانت جمـيع هذه الأبواب تفتح فى يوم عيد أو يوم عرض الجيش أو يوم صدقة وما عدا هذه الأيام لا تفتح إلا فى أوقات معلـومة على ترتيب مقرّر معلوم. وكان للقـصر مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض ويـوم الصدقة لينظر من يدخل ومن يخـرج وكان الناس يدخلون من باب الصوالجة ويخرجون من باب السباع وكان على باب السباع مجلس يشـرف منه ابن طولون ليلة العـيـد على القطائع لدى حـركات الغلـمان وتأهبـهم

وتصرفهم في حوائجهم وكان يشرف منه أيضاً على البحر وعلى باب مدينة الفسطاط وما يلي ذلك فكان متنزها حسنا للغاية، ولما تم تأهب ابن طولون واستعداده للاستبداد بملك مصر وشاع خبر ذلك خافه أماجور صاحب الشام وخشي عاقبة جواره. وقيل بل حسده فكانت تأتي إلى أماجور الأخبار تترى بعزم ابن طولون على قتاله وأخذ الشام منه فسير إلى الخليفة المعتمد من يخبره بخبر ابن طولون ويحذره من شره ويقول: إنه إذا ترك وشأنه ولم يعاجله الخليفة استفحل أمره واستعصى إخضاعه وتبعه في ذلك غيره من الولاة والعمال فأرسل الخليفة إلى ابن طولون يقول: تنح عن مصر عاجلاً إلى سامرا واستخلف عليها من تشاء من أصحابك فهم ابن طولون أن يفعل ذلك وجعل يتأهب للخروج فمنعه من ذلك أحد خواصه وأعلمه بما يبطنه له الخليفة ففطن ابن طولون للأمر وسير إلى سامرا أحمد الواسطي أحد خواصه وكبار ديوانه ومعه من الهدايا النفيسة والتعابي الثمينة لوزير الخليفة ما يجل عن الوصف وأوصاه بأن يبالغ في استمالة الوزير وفي استرضائه فلما وصل ابن الواسطي إلى سامرا تمثل بين يدي الوزير ودفع إليه الهدايا فأعجبته جدّاً وسرّ بها سروراً عظيماً ومال إلى ابن طولون وأحبه وكلم الخليفة في أمره واستماله إليه واسترضاه عنه فعفا الخليفة عما سلف من ابن طولون ورسم بتجديد الولاية له على مصر وأجاز له حمل نسائه وأولاده إلى مصر وقد كانوا إلى ذلك الحين في سامرا وعاد ابن الواسطي ومعه كتب ابن المدبر وشقير الخادم التي كانا يبعثان بها إلى الوزير بالوشاية في حق ابن طولون فجعل ابن طولون من هذا الحين يدبر على الفتك بهما فلم تكن إلا أشهر حتى هلك شقير الخادم ففرح ابن طولون بموته وجعل يكيد لابن المدبر فأرسل ابن المدبر إلى أخيه وهو على خزائن الخلافة يومئذ يعلمه بما هو عليه من الشدّة والخوف ويسأله أن يوليه خراج الشام والرحيل عن مصر خوفاً من بطش ابن طولون فعلم ابن طولون بذلك وأن ابن المدبر سائر عنه إلى الشام فخفف عنه فجعل ابن المدبر يحسن السيرة معه ويتقرب إليه ويلاطفه وزوّج ابنته لخمارويه بن أحمد ووهب لها جميع ماله في ديار مصر من دور ومزارع وإقطاعات ثم جاءه مرسوم الخليفة بعد ذلك بقليل بالجلاء عن مصر فرحل عنها إلى الشام وتولى أمور خراجها وخلا الجوّ لابن طولون فبسط يده على مشرق البلاد ومغربها وأبطل بعض المغارم والمكوس واستشار ابن دسومة عبد الله أمين متولي الخراج يومئذ في إزالة الخراج الهلالي وهو ما كان يؤخذ على المصائد والمراعي ونحوهما مما أحدث ابن المدبر وكانت قيمته يومئذ مائة ألف دينار فقال: أيها الأمير إن الدنيا والآخرة ضرتان

والحازم من لا يخلط بينهما والمفرط من خلط بينهما فتتلف أعماله ويبطل سعيه وأفعال الأمير أيده الله الخير وتوكله توكل الزهاد وليس مثله من ركب خطة لم يحكمها ولو كنا نثق بالنصر دائماً طول العمر لما كان شيء عندنا أكثر من التضييق على أنفسنا فى العاجل معاداة الآجل ولكن الإنسان قصير العمر كثير المصائب مدفوع إلى الآفات وترك الإنسان ما قد أمكنه وصار فى يده تضييع ولعل الذى حماه من نفسه يكون سعادة لمن يأتى من بعده فيعود ذلك توسعة لغيره بما حرمه هو ويجتمع للأمير أيده الله بما قد عزم على إسقاطه من الهلالى فيضبط به الأمير أيده الله أمر دنياه وهذه طريقة أمور الدنيا وإحكام أمور الرياسة والسياسة وكل ما عنّ للأمير من أمر غير هذا فهو مفسد لدنياه وهذا رأيى والأمير أيده الله على ما عساه يراه، وكان ابن دسومة هذا طاغية شيطاناً من شياطين جباة الأموال وكان يكره أن ابن طولون يزيل هذه البدعة فأشغل قلب ابن طولون كلامه. وقال سننظر إن شاء الله تعالى ونام ليلته تلك وهو مشغول البال بمقالة ابن دسومة قيل فرأى فى منامه رجلاً من إخوانه الزهاد فى طرسوس يقول ليس فيما أشار به عليك ابن دسومة مصلحة ومن ترك شيئاً لله عزّ وجلّ عوّضه الله خيراً منه فأمض ما كنت عزمت عليه فأصبح وقد طير الخبر إلى الآفاق بإزالة ذلك الخراج ففرح الناس ومدحوه.

ولما كانت سنة تسع وخمسين ومائتين هجرية عاد ابن الصوفى العلوى وظهر بمصر وقد كان ظهر فى سنة ست وخمسين وهرب إلى الواحات واختفى خبره فدعا الناس لنفسه فتبعه خلق عظيم وسار بهم إلى الأشمونين فاهتم ابن طولون بأمره وسير إليه جيشاً كبيراً ومقدمه ابن أبى الغيث فوجده قد صعد إلى لقاء ابن أبى عبد الرحمن العمرى. وكان العمرى هذا قد ظهر بالنوبة وهو عبد الحميد بن عبد العزيز ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب وكان سبب ظهوره بمصر أن البجاة الذين هم أهل النوبة أقبلوا يوم العيد فنهبوا وقتلوا وعادوا غانمين وفعلوا ذلك مرات فخرج هذا العمرى غضباً لله وللمسلمين وكمن لهم فى طريقهم فلما عادوا يشنون الغارة خرج عليهم وقتل مقدّمهم وأثخن فيمن كان معه من اللموم ودخل بلادهم فنهبها وأعمل فى أهلها السيف ثم تابع عليهم الغارات وسبى وأفحش فى القتل حتى أدّوا له الجزية ولم يكونوا قبل ذلك أدّوها لأحد ولا دانوا إلى ملك من الملوك فظهرت كلمة العمرى واتسعت شهرته فلما لاقاه العلوى اقتتلا قتالا عنيفاً فانجلت الواقعة عن انهزام العلوى فولى منهزما إلى أسوان فعاث فيها وقطع كثيراً من نخلها وعلم بأن ابن أبى الغيث قائد عسكر ابن طولون يطلبه أيضاً فولى هارباً إلى عيذاب وعبر

البحر إلى مكة وتفرق أصحابه فى أرض الله الواسعة فلما وصل مكة بلغ خبره إلى واليها فقبض عليه وسجنه ثم سيره إلى ابن طولون فأمر به فطيف به فى البلد ثم سجنه أياماً كثيرة ثم أطلقه فرجع إلى المدينة فأقام بها إلى أن مات، وصعد ابن أبى الغيث بمن معه من العسكر ومن جاء نجدة من ابن طولون لقتال العمرى أيضاً حيث علم بقلة أصحابه بعد قتاله للعلوى فلما التقى الفريقان تقدّم العمرى. وقال لأبى الغيث مقدّم عسكر ابن طولون: إن ابن طولون لا يعرف خبرى على حقيقته فإنى لم أخرج للفساد ولم يتأذ بى مسلم ولا ذمى وإنما خرجت طالباً للجهاد فاكتب إلى الأمير أحمد وعرّفه كيف حالى فإن أمرك بالانصراف فانصرف وإن أمرك بغير ذلك كنت معذوراً فلم يجبه أبو الغيث إلى ذلك وقاتله. وكان العمرى من القوّة وكثرة اللموم على غير ما كان يظنه أبو الغيث فشدّ فى قتال أبى الغيث حتى هزمه شر هزيمة ورجع من بقى من عسكره إلى مصر وأخبروا بحال العمرى فقال ابن طولون: كنتم انهيتم حاله إلىّ فإنه نصر عليكم ببغيكم وتركه فلما كان بعد مدة وثب على العمرى غلامان من غلمانه فقتلاه وحملا رأسه إلى أحمد بن طولون فسألهما عن سبب قتله فقالا: أردنا التقرب من الأمير أيده الله فأمر بقتلهما فقتلا وأمر برأس العمرى فغسل وكفن ودفن، ولم تكد تخمد فتنة ابن الصوفى العلوى والعمرى حتى خرج آخر اسمه أبو نوعة ودعا الناس لنفسه فانضم إليه خلق عظيم فسار بهم فى عرض البلاد فقتل وسبى وأراق الدماء فسير إليه ابن طولون طائفة من الجند فقاتلها وظفر بها وكاد يمزقها تمزيقاً فأنجدها ابن طولون فقهرته وظفرت به وعادت غانمة.

ولما كانت سنة إحدى وستين ومائتين هجرية عصى أيضاً على ابن طولون أهل برقة فأخرجوا أميرهم محمد بن الفرج الفرجانى فسير إليهم ابن طولون جيشا وعليه غلامه لؤلؤ وأمره بالرفق بهم وترك الشدّة فإن عادوا إلى الطاعة فبها ونعمت وإلا فالسيف حتى يؤدّوها صاغرين فسار لؤلؤ حتى نزل على برقة وحاصرها وفعل ما أمره به ابن طولون فطمع أهل برقة فى عسكر ابن طولون وخرجوا يوماً على بعض العسكر وهم نازلون على باب البلدة فأوقعوا بهم وقتلوا منهم فأرسل لؤلؤ إلى ابن طولون فى أمرهم فرسم له بالجدّ فى قتالهم فنصب عليهم المجانيق وجدّ فى قتالهم فطلبوا الأمان فأمنهم ففتحوا له أبواب البلد فدخل وقبض على جماعة من رؤسائهم وضربهم بالسياط وقطع أيدى بعضهم وأخذ معه جماعة منهم وعاد إلى مصر واستعمل على برقة عاملا فلما دخل لؤلؤ القاهرة بعسكره خلع عليه ابن طولون خلعة فيها طوقان من ذهب فوضعهما فى عنقه وركب فى موكب حافل وأمامه

الغنائم والأسرى وطاف المدينة فكان يوماً مشهوداً. واتفق أنه مات في هذه السنة أيضاً أماجور مقطع دمشق فتولى ابنه مكانه وجاء الخبر بذلك إلى ابن طولون فتاقت نفسه إلى أخذ الشام وضمها إلى ديار مصر فكتب إلى ابن أماجور يذكر له أن الخليفة المعتمد على الله قد أقطعه الشام وسائر الثغور ويسأله النزول على حكمه فأجابه ابن أماجور بالسمع والطاعة إذ كان يرى أن لا قبل له على مخالفته فسار ابن طولون فى عسكر عظيم إلى الشام واستخلف بمصر ولده العباس فلقيه ابن أماجور بالرملة فأقره عليها وسار إلى دمشق فملكها وأقر قوّاد أماجور على أقطاعهم وسار إلى حمص فملكها وملك كذلك حماة وحلب وكان المتولى على أنطاكية يومئذ سيما الطويل فراسله ابن طولون يدعوه إلى طاعته ليقره على ولايته فامتنع فعاوده فلم يطعه فسار إليه وحاصر أنطاكية وشدّد فى حصارها وكان سيما المذكور سيء السيرة مع أهل البلد فكاتبوا ابن طولون ودلوه على عورة البلد فنصب عليه المجانيق وقاتله فملك البلد عنوة والحصن الذى له فركب سيما وقاتل قتالاً شديداً حتى قتل ولم يعلم به أحد فاجتاز بجثته بعض قوّاده فعرفها فحمل رأسه إلى ابن طولون فساءه قتله ورحل عن أنطاكية إلى طرسوس فدخلها وعزم على المقام بها وملازمة الغزاة فلم يتمكن من ذلك لغلاء الأسعار وقلة المأكول بها وقد ضاقت البلد عنه وعن عسكره فركب أهلها إليه بالمخيم. وقالوا له: قد ضيقت بلدنا وأغليت أسعارنا فإما أقمت فى عدد يسير وإما رحلت عنا وأغلظوا له فى القول وشغبوا عليه فقال ابن طولون لأصحابه: لتنهزموا من الطرسوسين وترحلوا عن البلد ليظهر للناس وخاصة العدوّ أن ابن طولون على بعد صيته وكثرة عسكره لم يقدر على أهل طرسوس وانهزم عنهم ليكون أهيب لهم فى قلب العدوّ وعاد إلى الشام فأتاه الخبر أن ولده العباس الذى استخلفه بمصر قد شق عصا الطاعة وأخذ الأموال وسار إلى برقة مشاقفا لأبيه فلم يهمه ذلك ولم يزعجه وقضى أشغاله وحفظ أطراف بلاده وترك عسكرا بحرّان وكذلك بالرقة مع غلامه لؤلؤ وكانت حرّان يومئذ لمحمد بن أتامش وكان بطلاً شجاعاً مقداماً فأخرجه ابن طولون عنها وهزمه شر هزيمة فاتصل خبر ما جرى له بأخيه موسى بن أتامش وكان بطلاً كذلك شديد المراس فجمع عسكرا عظيماً وسار نحو حرّان وبها عسكر ابن طولون ومقدّمهم أحمد بن جيعويه فلما اتصل به خبر مجيء موسى بن أتامش أقلقه ذلك وأزعجه ففطن له رجل من الأعراب يقال له أبو الأغر فقال: أيها الأمير أراك مفكراً منذ أتاك خبر ابن أتامش وما هذا محله فإنه طياش قلق ولو شاء الأمير أن آتيه به أسيراً لفعلت فغاظه قوله

وقال: قد شئت أن تأتى به أسيراً قال: فاضمم إلىّ عشرين رجلاً أختارهم قال: افعل فاختار عشرين رجلاً وسار بهم إلى عسكر موسى فلما قاربهم كمن بعضهم وجعل بينهم وبينه علامة إذا سمعوها ظهروا ثم دخل المعسكر فى الباقين فى زى الأعراب وقارب مضارب موسى وقصد خيلاً مربوطة فأطلقها هو وأصحابه فيها فنفرت وصاح هو ومن معه من الأعراب وأصحاب موسى غارّون وقد تفرق بعضهم فى حوائجهم فانزعج العسكر وركبوا وركب موسى فانهزم أبو الأغرّ من بين يديه فتبعه حتى أخرجه من المعسكر وجاز به الكمين فنادى أبو الأغر بالعلامة التى بينهم فثاروا من النواحي وعطف أبو الأغر على موسى فأسروه فأخذوه وساروا به إلى ابن جيعويه فسيره إلى ابن طولون فاعتقله وعاد إلى مصر. وجعل يدبر الحيلة للقبض على ولده العباس فعلم أنه إنما خرج عن الطاعة بإغراء جماعة من أصحابه وقد حسنوا له أخذ الأموال والخروج إلى برقة ففعل ذلك ووصل برقة فى ربيع الأول من السنة فأرسل إليه أبوه يلاطفه ويستعطفه فلم يرجع وخاف من كان مع العباس من ابن طولون فأشاروا على العباس بقصد أفريقية فسار إليها وكاتب وجوه البزبر فأتاه بعضهم وامتنع بعضهم وكتب إلى إبراهيم بن الأغلب يقول: إن أمير المؤمنين الخليفة المعتمد على الله قد قلدنى أمر أفريقية وأعمالها وسارحتى أتى حصن ليدة ففتحه أهله له فعاملهم أسوأ معاملة ونهبهم فمضى أهل الحصن إلى إلياس بن منصور والناقوسى مقدّم الأباضية واستغاثوا به فكبر هذا الأمر عليه وأعظمه جدا وسار فى لموم عظيمة لقتال العباس. وكان إبراهيم بن الأغلب قد سير إلى عامل طرابلس جيشاً عظيماً ورسم له بقتال العباس أيضاً فالتقى الجمعان واقتتلا قتالاً عنيفاً قاتل فيه العباس بيده فلما كان الغد وافاهم إلياس بن منصور الأباضى فى اثنى عشر ألفا من الأباضية فاجتمع هو وعامل طرابلس على قتال العباس فقتل من أصحاب العباس خلق عظيم وانهزم شر هزيمة وكاد يسقط فى يد إلياس ونهبوا سواده وجميع ما حمله من مصر فعاد إلى برقة وهو فى أسوأ حال، وجاء الخبر إلى مصر بانهزامه فاغتم أبوه غمّا شديداً وسير إليه عسكرا لما علم بسلامته فقاتلوه قتالاً صبر فيه الفريقان فانهزم العباس ومن معه وكثر القتل فى أصحابه وأخذ العباس أسيراً وحمل إلى أبيه فحبسه فى حجرة فى داره إلى أن قدم باقى الأسرى من أصحابه فلما تكاملوا أتى بهم بين يدى ابن طولون وبينهم العباس فأمر ابن طولون ولده العباس أن يقطع أيدى أعيانهم وأرجلهم ففعل ولم يتأخر خوفاً من أبيه فلما فرغ من ذلك نظر إليه أبوه نظرة الأسف ووبخه وذمه وقال: هكذا يكون الرئيس والمقدّم لقد كان

الأجـدر بك أن تلقى بنفسك بين يدىّ وتطلب الصـفح عنك وعنهم فـيكون أعلى لمحلك من القلوب وتكون قد قضيت حقهم فيما أعانوك وفارقوا أوطانهم لأجلك ثم أمر به فضـرب مائة مقرعة ودمـوعه تجرى على خدّه رقـة لولده ثم ردّه إلى الحجرة واعتقله.

وأما الخليفة المعـتمد على الله فإنه بايع بالخلافة لابنه جعفـر وسماه المفوّض إلى الله وكان المعتمد قد آثر اللذة فـغلبت عليه وغلب أخوه أبو أحمد الموفق على الأمور كلها كما تـقدّم ثم لم يلبث أن حصر المعتمـد وحبسه فكان أول خليفة قـهر وحجر عليه ووكل بـه فلما اشتـدّ به الحال وزاد به الضـيق هرب وسار إلى حـديقة الموصل فسـير أبو أحـمد الموفق صاعـداً إلى سامـرا وكتب إلى إسحق بـن كنداج فردّه من الموصل واستـفحل أمـر الخلاف بين المعتـمد وأخيـه الموفق فتطرق الخلل إلى مـقام الخلافة وكادت تزول هيبـتها وتنفصم عروتها وتحرك عقـيب ذلك أيضاً بسواد الكوفة قوم يعـرفون بالقرامطة وتمذهبوا بمذهب دعـاهم إليه رجل كان قد مـرض بقرية من سواد الكوفة فـأخذه رجل من أهل القرية اسمه كرمـيتة ومعناه باللغة النبطيـة أحمر العين فلما عـوفى من مرضه دعا باسـمه ثم اختصر إلى أن قـالوا قرمط ثم كان من قرمط هذا أنه دعـا قوماً من السـواد والبادية ممن لا يدينون بشىء إلى دينه فـأجابوه إليه. قال بعض الكتاب: والمعروف من مذهبهم وتعليمهم أنه جاء بكتاب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم يقول الفـرج بن عثمان وهو من قرية يقال لهـا نصرانة أنه داعية المسيح وهو عـيسى وهو الكلمة وهو المهدى وهو أحـمد بن محمد ابن الحـنفية وهو جـبـريل، وذكر أن المسيح تصـوّر بجسم إنسان وقال له: إنك الداعيـة وإنك الحجة وإنك الناقة وإنك الدابة وإنك يحيى بن زكريا وإنك روح الـقدس وعرفه أن الصلاة أربع ركعـات ركعتان قـبل طلوع الشمس وركعـتان بعد غـروبها وأن الأذان فى كل صلاة أن يقول المؤذن الله أكـبر ثلاث مرات أشهد أن لا إله إلا الله مـرتين أشهد أن آدم رسول الله أشهد أن نوحاً رسول الله أشهد أن إبراهيم رسول الله أشهد أن موسى رسول الله أشهد أن عيسى رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله، كل ذلك مرة وأن القبلة إلى بيت المقدس والجمعة يوم الاثنين لا يعمل فـيها شىء وأن يقرأ فى كل ركعـة الاستفتاح المنـزل على أحمد بن محمد ابن الحنفية وهو: الحمد لله بكلمته وتعالى باسـمه المتجد لأوليائه بأوليائه قل إن الأهلة مـواقيت للناس ظاهرها لـيعلم عـدد السنين والحسـاب والشهـور والأيام وباطنها لأوليائى الذين عرّفوا عبـادى سبلى اتقونى ياأولى الألباب أنا الذى لا أسأل

عما لفعل وأنا العليم الحكيم وأنا أبلو عبادي وأمتحن خلقي فمن صبر على بلائي ومحنتي واختياري أدخلته في جنتي وأخلدته في نعيمي ومن زال عن أمري وكذب رسلي أخذته مهاناً في عذابي وأتممت أجلي وأظهرت أمري على ألسنة رسلي، أنا الذي لم يعل عليّ جبار إلا وضعته ولا عزيز إلا أذللته وبئس الذي أصرّ على أمره ودام على جهالته وقال لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين أولئك هم الكافرون، ثم يركع، ومن شرائعه أن يصام يومان في السنة وهما المهرجان والنيروز وحرّم النبيذ وحلل الخمر ومنع أكل ذي ناب وذي مخلب وقال: لا غسل بعد جنابة والوضوء كوضوء الصلاة وغير ذلك من الأحكام والنواهي.

وبلغت سيطرة الموفق وتصرفه في أمور الخلافة مبلغاً عظيماً جداً فعلت شهرته وكبرت هيبته فجعل يدس الدسائس بين عمال ابن طولون في الشامات وغيرها رجاء أن يفسد عليه الأمر لما علمه من تقربه إلى الخليفة المعتمد وتقرب الخليفة إليه ودس إلى لؤلؤ غلام ابن طولون وفي يده يومئذ حمص وقنسرين وحلب وديار مضر من الجزيرة فخرج عن طاعة مولاه وسار إلى بالس فنهبها وكاتب الموفق في المسير إليه واشترط شروطاً فأجابه الموفق إليها وكان بالرقة فسار إلى الموفق ونزل قرقيسا وبها ابن صفوان العقليي فحاربه وأخذها منه وسلمها إلى أحمد بن مالك بن طوق وسار إلى الموفق فوصل إليه وهو يقاتل الخبيث العلوى وجاء الخبر بذلك إلى ابن طولون فأهمه جدا وأكبره للغاية وجعل يدبر على الموفق وكاتب المعتمد سراً في أمر الموفق وما يفعله وكان المعتمد قد ضجر وصغرت نفسه مما يلاقيه من الموفق إذ لم يكن له من الخلافة غير اسمها ولا ينفذ له توقيع لا في قليل ولا في كثير وكان الحكم كله للموفق والأموال تجبى إليه فكتب المعتمد إلى ابن طولون يعلمه بمقدمه عليه بمصر فأشار عليه ابن طولون باللحاق به ووعده النصرة وسير عسكرا إلى الرقة ينتظر وصول المعتمد إليهم فاغتنم المعتمد غياب الموفق عنه فسار في جمادى الأولى ومعه جماعة من القواد فأقام بالكحيل يتصيد فلما صار إلى عمل إسحق بن كنداجيق وكان عامل الموصل وعامة الجزيرة وثب ابن كنداجيق بمن مع المعتمد من القواد فقبض عليهم وهم نيزك وأحمد بن خاقان وخطارمش فقيدهم وأخذ أموالهم ودوابهم وكان قد كتب إليه صاعد بن مخلد وزير الموفق في ذلك فقبض عليهم وحملهم مع المعتمد حتى أدخلهم سامرا وعلم الموفق بما جرى فاشتد بغضه لابن طولون ووهب لإسحق بن كنداجيق سائر البلاد التي كانت تحت حكم ابن طولون فامتدّ ملك ابن كنداجيق إلى أطراف أفريقية واتسعت كلمته. وعلم ابن طولون

بالأمر فجعل يكيد للموفق وجمع إليه القضاة والعلماء بدمشق وكلمهم فى أمر الخليفة المعتمد وما يقاسيه من الشدائد وكيف يغلب الموفق عليه ويبسط يده على جميع الأمور فلم يترك له من الخلافة إلا الاسم فتقررت القاعدة بينهم على أن يذكر الخطيب كل ذلك عند صلاة كل جمعة ويدعو الله إلى نصرته ويلعن الموفق فعلم الموفق بالخبر فاكبره وأعظمه جداً وتقدم إلى الخليفة المعتمد فى لعن ابن طولون على المنابر فأجابه إلى ذلك كارهاً فصاروا يلعنونه على منابر العراق باللهم العنه لعناً يفل حدّه ويتعس جدّه واجعله مثلاً للغابرين إنك لا تصلح عمل المفسدين، واشتد البغض بين الفريقين وجعل كل يتربص الفرص للإيقاع بصاحبه ثم عادا فتوادذا وتحابا وتناسيا ما فات فعادت الأمور بين مصر ودار الخلافة إلى سابق مجراها وفرح الخليفة المعتمد على الله بذلك لميله إلى ابن طولون وإيثاره على الموفق ولم يكن ليطمئن قلب ابن طولون بعقد الصلح مع الموفق وزوال الوحشة من بينهما حتى جاءه الخبر بخروج بزماز وشقه عصا الطاعة فسار من فوره فى عسكر إلى طرسوس لقتاله وإرجاعه إلى الطاعة فلما بلغ أدنة كاتبه وراسله يستميله فلم يلتفت بزماز إلى ذلك فسار إليه ابن طولون ونازله وحصره فخرق بزناز نهر البلد على معسكر ابن طولون فكادوا يهلكون جميعاً فرحل ابن طولون مغيظا حنقا وكان الزمان شتاء وأرسل إلى بزماز يقول: إننى لم أرحل إلا خوفاً أن تخترق حرمة هذا الثغر فيطمع فيه العدوّ وعاد إلى أنطاكية ولبث بها أياماً وطلب لبناً فأتوه بشىء من لبن الجواميس فأكثر منه فأصابته هيضة فأشار عليه طبيبه سعيد بن شيوفيل النصرانى بالحمية أياماً فلم يمتثل فكبرت الهيضة حتى صارت ذربا وكان الطبيب يعالجه وهو يأكل ما يشاء سرّاً فلم ينجع الدواء واشتدت علته واستعصت فكر راجعاً إلى مصر حملاً على أعناق الرجال ووصل إلى الفرما فأنزلوه فى حراقة فى النيل فصعدت به إلى الفسطاط وقد اشتدت علته فجعل يتصدق على الفقراء والمساكين وخرج العلماء والمشايخ وبطرك المتأصلين إلى المقطم يدعون الله ويبتهلون إليه فى شفاء ابن طولون فلما كان يوم الأحد عاشر ذى القعدة سنة سبعين ومائتين هجرية توفى فكانت إمارته نحو ست وعشرين سنة وكان حازماً عاقلاً كثير المعروف والصدقة متدينا وعمل كثيراً من أعمال البر ومصالح الخلق وترك من الأموال عشرة آلاف ألف دينار من العبيد المزججين بالسلاح سبعة آلاف وبغير سلاح أربعة وعشرين ألفا وشيئاً كثيراً جداً من الخيل والبغال والجمال ودواب الحمل وكان يجلس للنظر فى مظالم الرعية بنفسه ويتصدق فى كل شهر بشىء كثير من المال وكان من تولى توزيع صدقاته إبراهيم بن قراطغان

فدخل عليه يوماً. وقال: أيد الله الأمير إنى أقف فى المواضع التى تفرق فيها الصدقات فتخرج لى الكف المخضوبة نقشاً والمعصم الرائع فيه الحديدة والكف فيها الخاتم فقال ابن طولون: ويحك كل من مد إليك يده فأعطه فهذه والله هى اللطيفة المستورة التى ذكرها الله سبحانه فى كتابه فقال: ﴿**يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف**﴾ فاحذر أن تردّ يدا امتدت إليك، ومات عن ثلاثين ولدا ذكرا وثلاث عشرة أنثى وحزن عليه الخليفة المعتمد وبكاه، وكان أحمد قد عهد بالولاية من بعده إلى ابنه خمارويه فتولاها فى ثانى يوم موت أبيه فى ذى القعدة وله من العمر يومئذ عشرون سنة ولقب بأبى الجيش خمارويه وجعل يتصرف فى الأمور على أحسن ما يكون من الرفق بالرعية والنظر فى الظلامات ونصرة الضعيف على القوى فأحبته الرعية ومالت إليه القلوب فلم يكن ليستقر به منصب الولاية حتى طمع فى أملاك مصر إسحق بن كنداجيق صاحب الموصل والجزيرة وكلم ابن الساج صاحب الشام فى الخروج معه على خمارويه وأخذ البلاد منه فأجابه ابن الساج إلى ذلك وكاتبا الموفق بالله فى ذلك فرسم لهما بقصد البلاد ووعدهما إنفاذ الجيوش فجمعا وقصدا ما يجاورهما من البلاد فاستوليا عليه وأعانهما نائب خمارويه بدمشق ووعدهما بالانحياز إليهما فرحل من بالشام من نواب خمارويه إلى أنطاكية وحلب وحمص وعصى متولى دمشق المذكور واستولى ابن كنداجيق على تلك الأنحاء وجاء الخبر إلى خمارويه بمصر بما جرى فأكبره جدا ورسم إلى من كان بدمشق من العساكر بالزحف على ابن كنداجيق وإجلائه عن البلاد فطاولهم ابن كنداجيق حتى يأتيه المدد من العراق فهجم الشتاء على الفريقين وأضر بأصحاب خمارويه ضرراً عظيماً فتفرقوا فى المنازل بشيرز ووصل المدد من العراق إلى عسكر ابن كنداجيق وعليهم أبو العباس أحمد بن الموفق وهو المعتضد بالله فسار بهم ابن كنداجيق مجدًا إلى عسكر خمارويه بشيرز فلم يشعروا حتى كبسهم بالمنازل ووضع السيف فيهم فقتل منهم خلقاً وفرّ من بقى إلى دمشق فساق ابن الموفق خلفهم بعسكره فجلوا عنها إلى الرملة فملك ابن الموفق دمشق ودخلها فى شعبان سنة إحدى وسبعين ومائتين وأقام عسكر خمارويه بالرملة وسيروا الخبر بما جرى إلى خمارويه فهاله الأمر وأزعجه وخرج من فوره من مصر فى عسكر عظيم للغاية يريد الشام فلم يصل إليها حتى جاءه الخبر بوقوع الخلاف بين محمد بن أبى الساج وإسحق بن كنداجيق وقد كانا على اتفاق فى الخروج عن طاعة خمارويه وكان سبب الاختلاف بينهما أن ابن أبى الساج نافر

إسحق فى الأعمال وأراد أن يتقدم عليه فلم يرض إسحق بذلك وامتنع عليه فأرسل ابن أبى الساج إلى خمارويه فى طلب الطاعة والرجوع إلى خدمة خمارويه فأجابه خمارويه إلى ذلك فخطب له ابن أبى الساج بقنسرين وسير ولده يوداد إلى خمارويه رهينة فمال إليه خمارويه وأرسل إليه مالاً كثيراً له ولقوّاده وطلبه فحضر إليه ببالس ثم عبر ابن أبى الساج الفرات إلى الرقة فلقيه ابن كنداجيق واقتتلا قتالاً عنيفاً فكانت الدائرة على ابن كنداجيق وعبر خمارويه الفرات ونزل الرقة ومضى ابن كنداجيق منهزماً إلى قلعة ماردين فحصره ابن أبى الساج فيها ثم سار عنها، فخرج ابن كنداجيق من ماردين نحو الموصل فلقيه ابن أبى الساج وكان قد كمن له فانهزم وعاد فارا إلى ماردين وقوى ابن أبى الساج وظهر أمره واستولى على الجزيرة والموصل وخطب لخمارويه فيها ثم لنفسه بعده وما زال على هذا الحال إلى أن كانت سنة خمس وسبعين ومائتين خالف ابن أبى الساج وخرج عن طاعة خمارويه واستبدّ بالأمر وقطع الخطبة لخمارويه فى أعماله كلها ووردت الأخبار بذلك إلى خمارويه فسار عن مصر فى عسكر عظيم يريد الشام فلاقاه ابن أبى الساج عند ثنية العقاب بقرب دمشق واقتتلا قتالاً شديداً فانهزمت ميمنة خمارويه وأحاط باقى عسكره بابن أبى الساج ومن معه فمضى منهزما واستبيح معسكره فأخذت دوابه وآلات حربه وجميع ما فيه وكان ابن أبى الساج قد ترك بحمص شيئاً كثيراً من الأموال والكراع وخمارويه يعلم بذلك فسير خمارويه إلى حمص عسكرا فسبقوا ابن أبى الساج إليها ومنعوه من دخول البلد واستولوا على جميع ما له هناك فمضى منهزماً إلى حلب ومنها إلى الرقة فتبعه خمارويه بعسكره ففارق الرقة فعبر خمارويه الفرات فى أثر ابن أبى إسحق الساج فلم يدركه فسير خلفه إسحق بن كنداجيق في عسكر عظيم وكان قد رضى خمارويه عن إسحق المذكور فكان بين إسحق وبين ابن أبى الساج أمور قد أضربنا عن إيرادها هنا خوف الإطالة.

ولما كانت سنة ثمان وسبعين ومائتين هجرية مات الموفق فقام المعتضد بأمور الناس فى التدبير مكان أبيه الناصر وهو الموفق وخلع جعفر المفوّض بن المعتمد من ولاية العهد وقيل بل بايعه الناس بولاية العهد بعد المفوّض بن المعتمد وخطب له يوم الجمعة بعد المفوض وذلك لسبع ليال بقين من صفر واجتمع عليه أصحاب أبيه وتولى ما كان أبوه تولاه وجعل يتصرف كما يحب ويختار فأقام إسماعيل بن بلبل فى الوزارة بعد شغب كثير كان فى مدينة السلام ثم لم يلبث أن قيد إسماعيل بن بلبل ووجه إلى العباس بن أبى عبد الله بن سليمان بن وهب فأحضره وخلع عليه

وردّ إليه أمر كتابته وذلك يوم الثلاثاء لثمان بقين من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين ولم يزل إسماعيل بن بلبل يعذب بأنواع العذاب وجعل فى عنقه غلا فى رمانة جديد والغل والرمانة مائة وعشرون رطلا وألبس جبة صوف قد صيرت فى ودك الأكارع وعلق معه رأس كلب ميت فلم يزل على ذلك حتى مات فى جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين ومائتين ودفن بغله وقيوده وأمر المعتضد بضرب جميع الآنية التى كانت فى خزانته فضربت وفرقت فى الجند.

وخرج الخليفة المعتمد على الله يوماً فى المحرم افتتاح سنة تسع وسبعين وجلس للقواد واستدعى القضاة والوجوه وأرباب الدولة فلما تكامل مجلسهم أعلمهم أنه خلع ابنه المفوض إلى الله جعفرا من ولاية العهد وعهد بها للمعتضد بالله أبى العباس أحمد بن الموفق فأكبروا هذا الأمر وأعظموه وشهدوا على المفوض أنه قد تبرأ من العهد وأسقط اسمه من السكة والخطبة والطرز وغير ذلك فلم ينقض شهر رجب من هذه السنة حتى مرض المعتمد ومات ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت منه. وكان سبب موته أنه شرب يوماً على الشط ببغداد شراباً كثيراً وتعشى فأكثر أيضاً فمات ليلاً فأحضر المعتمد القضاة وأعيان الناس فنظروا إليه وحمل إلى سامرا فدفن بها وكان عمره خمسين سنة وكانت خلافته ثلاثًا وعشرين سنة وستة أشهر ذكره ابن الأثير. وقال المسعودى فى كتابه مروج الذهب: وقد كان المعتمد قعد للغداء واصطبح يوم الاثنين لإحدى عشرة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين فلما كان عند العصر قدم الطعام فقال ياموشكيره للموكل به ما فعلت الرؤوس بأرقابها وقد كان قدّم من الليل أن يقدّم له رأسا جملين وقد فصل فيهما رقابهما فقدمتا وكان معه على المائدة رجل من ندمائه يعرف بقف الملقم ورجل آخر يعرف بخلف المضحك فأول من ضرب بيده إلى الرؤوس الملقم فانتزع أذن واحدة منها وأما المضحك فإنه يقتلع اللهازم والأعين فأكلوا وأكل المعتمد وأتموا يومهم فأما الملقم صاحب اللقمة الأولى فإنه تهرى فى الليل وأما المضحك فإنه مات قبل الصباح وأما المعتمد فإنه أصبح ميتاً وقد لحق بالقوم ودخل إسماعيل بن حماد القاضى على المعتضد وعليه السواد فسلم عليه بالخلافة وكان هو أول من سلم عليه بها وحضر الشهود منهم أبو عوف والحسين بن سالم وغيرهم من العدول حتى أشرفوا على المعتمد ومعهم بدر غلام المعتضد يقول: هل ترون به من بأس أوثر مات فجأة وقتلته مداومته على شرب النبيذ فنظروا إليه فإذا ليس به من أثر فغسل وكفن وحمل فى

تابوت أعدّ له إلى سامرا فدفن بها وذكروا أيضاً أن سبب موته أنه سقى نوعاً من السم فى شرابهم الذى كانوا يشربونه وهو نوع يقال له البيش يحمل من بلاد الهند وجبال الترك والتبت وربما وجد فى ستبل الطيب وهو ألوان ثلاثة.

ومات فى خلافة المعتمد سانيوتيو بطرك الإسكندرية بعد أن أقام إحدى عشرة سنة فأقيم بعده خائيل وهو سادس خمسيهم واشتدّ أحمد بن طولون فى أيامه على خائيل المذكور شدّة بليغة وألزمه بحمل عشرين ألف دينار، وكان سبب ذلك أن أسقفا اسمه سكا كانت بكنيسة الأسكندرية قد زاغ عن الأمانة المستقيمة وظهرت له تعاليم جديدة فاستتابه خائيل البطرك المشار إليه فلم يتب فنهاه فلم ينته فخلعه وأبعده عن الكنيسة فمضى الأسقف المذكور إلى ابن طولون ووشى فى حق البطرك وبالغ فى الوقيعة فيه وقال لابن طولون إن لدى البطرك من الأموال والتحف والنفائس ما لا يدخل تحت الحصر وكان ابن طولون فى ذلك الحين فى حاجة إلى المال للنفقة على العسكر الذاهب إلى الشام لردّ الخوارج فسير ابن طولون فى الحال فى طلب خائيل البطرك فلما تمثل بين يديه طلب منه عشرين ألف دينار نقرة فاعتذر البطرك وقال: من أين يكون لى هذا المال؟ وأنا إنما أعيش من صدقات أهل البر وحسنات ذوى البيوتات فشدّد ابن طولون فى الطلب وبالغ فى التشديد ثم أمر بخائيل البطرك فألقوه فى السجن هو وتلميذه ابن المنذر فمضى عليهما حول وهما معتقلان وكان لابن طولون ديوانى اسمه موسى وله ولدان هما يوحنا وإبراهيم فتقدما إلى ابن طولون فى كفالة البطرك فى وفاء المال المطلوب بشرط الإفراج عنه ليتمكن من جمعه فأجابهما ابن طولون إلى ذلك وأطلق البطرك وتلميذه وضرب للوفاء أجلا فجعل خائيل يبيع جميع متاع الكنائس الموقوفة عليها وباع كذلك أرض الحبش بظاهر الفسطاط والكنيسة الكائنة بجوار المعلقة من قصرالشمع لليهود وهى باقية فى تصرفهم إلى هذا اليوم وقرر الديارية على كل واحد من القبط قيراطا فى السنة فلم يقم مع هذا كله إلا بنصف المقررعليه فانكمش فى كنيسة العذراء بالمعلقة فعاد ابن طولون وقبض عليه وألقاه فى السجن فلم يمض على ابن طولون بعد ذلك إلا أيام قلائل حتى مات، وخلفه ابنه خمارويه وكان خمارويه يعلم بأصل الفتنة وأن خائيل البطرك برىء مما اتهم به فأطلق سبيله وكف عن مطالبته بشىء بعد الذى أدّاه فعدّ عمل خمارويه هذا حسنة من حسناته الكثيرة.

(الفصل السادس عشر)
(فى خلافة أبى العباس أحمد المعتضد بالله بن الموفق)

ثم قام بالأمر بعد المعتمد ابن أخيه أبو العباس أحمد المعتضد بالله بن الموفق بالله بويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه عمه المعتمد على الله وهو يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين للهجرة أى نحو سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة للميلاد، فلما أفضت الخلافة إليه واستوثق له الأمر سكنت الفتنة وصلحت شئون البلاد فارتفعت الحروب ورخصت الأسعار وهدأ الهرج وسالمه كل مخالف ودانت له الأمور وانفتح له الشرق والغرب وأديل إليه أكثر المخالفين له والمنابذين لطاعته وأقرّ عبيد الله بن سليمان على وزارته وما زال عبيد الله وزيراً حتى مات فاستوزر بعده القاسم ابنه وولى غلامه بدراً الشرطة ومحمد بن الشاه بن مالك الحرس.

وفى السنة التى تولى الخلافة فيها المعتضد قدم الحسن بن عبد الله المعروف بابن الجصاص رسولاً من مصر لخمارويه بن أحمد بن طولون ومعه هدايا كثيرة وأموال جليلة فوصل إلى المعتضد فخلع عليه وعلى سبعة نفر معه ثم سعى فى تزويج ابنه خمارويه المسماه قطر الندا من علىّ المكتفى فقال المعتضد إنما أراد أن يتشرف بنا وأنا أريد فى تشريفه أنا أتزوّجها فتزوّجها وتولى ابن الجصاص أمرها وحمل جهارها فيقال أنه حمل معها جواهر لم يجتمع مثلها عند خليفة قط فاقتطع ابن الجصاص بعضه وأعلم قطر الندا أن ما أخذ مودع لها عنده إلى وقت حاجتها إليه فماتت والجوهر عنده فكان ذلك سبب غناه واستغلاله. قيل: وكان ما كان لابن الجصاص من بعد ذلك فى أيام المقتدر من المحن والقبض عليه وما أخذ منه من الأموال بهذا السبب وغيره، وحمل المعتضد صداق قطر الندا وهو بمدينة بلد إلى أبى الجيش وكان الصداق ألف ألف درهم وغير ذلك من المتاع والطيب ولطائف الصين والهند والعراق وكان مما خص به أبا الجيش فى نفسه وحباه به بدرّة من الجوهر الثمين فيها در وياقوت وأنواع من الجوهر ووشاح وتاج وإكليل وقيل قلنسوة وكردف وكان وصولهم إلى مصر فى رجب سنة ثمانين ومائتين وانحدر المعتضد من مدينة بلد والموصل بعد أن عمل ما وصفنا إلى مدينة السلام فى البحر، فلما اطمأن قلب أبى الجيش خمارويه بمصاهرة الخليفة المعتضد عكف على اللهو والترف فبنى القصور

العالية والميادين الفسيحة وأقبل على قصر أبيه فزاد فيه وجعل ميدانه بستاناً وغرس فيه أنواع الرياحين والشجر المطعم العجيب وأنواع الورد والزعفران والنخيل والأعناب وكسا أجسام النخيل بالنحاس المذهب وجعل بين النحاس وأجسام النخيل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر وغرس فيه الريحان على نقوش وأشكال غريبة وكتابات مكتوبة يتعاهدها البستانى بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة وبنى فى البستان برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص وسرح فيه من أنواع القمارى والدباسى والزينات وكل طائر مستحسن حسن الصوت وسرح فى البستان من الطير العجيب مثل الطاوس ودجاج الحبش ونحوها وعمل فى داره مجلساً سماه بيت الذهب قد طلى حيطانه كلها بالذهب المجلول باللازورد على أحسن نقش وجعل فى حيطانه صوراً بارزة من خشب مصنوع على صورته وصور خطاياه والمغنيات اللاتى تغنينه بما عليهن من الحلى والزينة والثياب بألوانها ولم يعرف ملك قط تقدم خمارويه فى عمل مثل هذا البستان، واشتكى يوماً إلى طبيبه مما يلاقيه من الأرق فأشار عليه بالتغميز فأنف من ذلك فأشار بعمل بركة من زئبق فعملها خمسين ذراعاً فى خمسين وملأها من الزئبق وجعل فى أركان البركة سككا من الفضة الخالصة وجعل فى السكك زنانير من حرير فى حلق من الفضة وعمل فراشاً من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدّه ويلقى على تلك البركة وتشدّ زنانير الحرير التى فى حلق الفضة بسكك الفضة وينام على هذا الفراش فلا يزال هذا الفراش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه، ولم يمض على مصاهرة أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون للمعتضد سوى نحو عامين حتى ذبح أبو الجيش فى دمشق فى ذى القعدة سنة اثنتين وثمانين وقد كان بنى فى سفح الجبل أسفل من دير مروان قصرا وكان يشرب فيه فى تلك الليلة وعنده طغج التركى، وكان الذى تولى ذبحه غلاماً من خدمه وحمل أبو الجيش فى تابوت إلى مصر فلما وصلها أخرج من التابوت وجعل على السرير وذلك على باب مصر وخرج ولده الأمير جيش وسائر الأمراء والأولياء وتقدم القاضى أبو عبيد الله محمد بن عبدة المعروف بالعبدانى وصلى عليه وذلك فى الليل، حكى أبو بشر الدولابى عن أبى عبد الله المنجارى وكان شيخاً من أهل العراق وكان يقرأ فى دور آل طولون ومقابرهم أنه بات فى تلك الليلة مع من يقرأ عند القبر وقد قدّم أبو الجيش ليدلى فى القبر ونحن نقرأ وجماعة من القراء سبعة سورة الدخان فأجدر من السرير ودلى فى القبر وانتهينا من السورة فى هذا الوقت إلى قوله عز وجل: ﴿ **خذوه فاعتلوه إلى سواء**

الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾
قال: فخفضنا أصواتنا وأذعرنا حياء ممن حضر . اهـ.

وكانت مدة ولاية خمارويه اثنتى عشرة سنة وثمانية عشر يوماً فقام بالأمر بعده ولده جيش تولى الملك ثانى يوم وفاة أبيه فلم تستقم له الأمور وشاغب القوّاد عليه لحداثة سنه واحتقره الجند وكادت تخرج عليه عمال البلاد الشامية وغيرها من بقية العمالات التابعة لمصر وعصاه ابن طغج بن جف والى الشام ولم يبايع له. وكان سبب ذلك أنه لما ولى اجتمع إليه الأحداث والسفل فأخلد إلى استماع أقوالهم فافسدوا بينه وبين قوّاده وأصحابه فجعل يذمهم جهارا ويظهر العزم على استبدالهم ثم قطع أعطية بعضهم وأخذ نعمهم فلما اشتدّ بهم الحال اتفقوا على قتله وأن يقيموا عمه بدله فبلغه خبر ذلك فلم يقدر على كتمانه واطلق لسانه فيهم ففارقه بعضهم وساروا إلى بغداد وتقدموا إلى الخليفة المعتضد فخلع عليهم وأحسن إليهم وبقى الجند على خلافهم لابن خمارويه واحاطوا بقصره يوماً يريدون خلعه وشددوا فى الطلب فسألهم كاتبه علىّ بن أحمد المردانى أن ينصرفوا يومهم ذلك فانصرفوا فأرسل ابن خمارويه فى الحال جماعة فقبضوا على اثنين من عمومته وقتلوهما وأصبح الجند وقد اجتمعوا حول القصر يريدون خلعه فلما تكامل حضورهم رمى بالرأسين إليهم فهاجوا وماجوا وهجموا على القصر ودخلوا على ابن خمارويه فقتلوه ونهبوا داره وعاثوا فى البلد فنهبوا ما قدروا على نهبه ثم أحرقوها فكان المنظر مرعباً والخطب شديداً للغاية ثم أتوا بأخيه هرون وولوه الأمرة فكانت ولاية جيش تسعة أشهر لا غير، وجعل هرون يتصرف فى الأمور فغلب عليه هواه ولم يمض على ولايته إلا القليل حتى افتتن الناس وظهر بغضهم له فاختل نظام الدولة وانعكست الأمور على هرون وطمع الولاة والعمال فى الاستقلال وبلغ المعتضد خبر هذا كله فتاقت نفسه إلى استرداد سائر المدن والبلدان التى كان ابن طولون قد ضمها إلى ديار مصر وسار فى عسكر عظيم أولاً إلى أجيدة فاطاعه صاحبها محمد بن أحمد بن عيسى بن شيخ وعاهده على الوفاء، ثم سار عنها إلى قنسرين فملكها ووردت الأخبار بذلك إلى هرون فكاد يسقط فى يده وسير إلى المعتضد يستعطفه ويسترضيه بعد أمور وعهود وجعل يعمل على تسكين القلاقل والفتن جهد الاستطاعة فلم يتم له كل ما أراد وكان من أمره ما سيذكر فى خلافة المكتفى بالله ابن المعتضد.

ولما كانت سنة اثنتين وثمانين ومائتين أمر المعتضد بالكتابة إلى جميع الأعمال

والبلاد كلها بترك افتتاح الخراج فى النيروز الفارسى وتأخير جمع الخراج إلى الحادى عشر من حزيران وسماه بالنيروز المعتضدى وأنشئت الكتب بذلك من الموصل والمعتضد يومئذ بها قالوا: وإنما أراد بذلك الترفيه على الناس والرفق بهم وكتب أيضاً إلى جميع البلدان برد الفاضل من سهام المواريث إلى ذوى الأرحام وأبطل ديوان المواريث ففرح الناس بذلك ومدحوه ثم نزل فى سنة ثلاث وثمانين ومائتين إلى تكريت وسار الحسن بن حمدان فى الأولياء لحرب هرون الشارى فكانت بينهم حروب عظيمة كانت للحسن بن حمدان عليه فأتى به إلى المعتضد أسيراً بغير أمان ومعه أخوه فدخل المعتضد بغداد وقد نصبت له القباب وزينت له الطرقات وعبى المعتضد جيوشه بباب الشماسية على أحسن ما يكون من التعبية وأكمل هيئة، ثم خلع على الحسن بن حمدان خلعا شرفه بها وطوّقه بطوق من ذهب وخلع على جماعة من فرسانه ورؤساء أصحابه وأهله وشهرهم فى الناس كرامة لما كان من فعلهم وحسن بلائهم، ثم أمر بالشارى فأركب فيلا وعليه دراعة ديباج وعلى رأسه برنس خز طويل وخلفه أخوه على جمل وعليه دراعة ديباج وبرنس خز وسيرهم فى أثر الحسن بن حمدان وأصحابه ثم دخل المعتضد فى أثره عليه قباء أسود وقلنسوة محدودة على فرس ضاف وعن يساره أخوه عبد الله الموفق وخلفه بدر غلامه وأبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب وزيره وابنه القاسم بن عبد الله فأكثر الناس من الدعاء له وتكاثف الناس فى منصرفهم من الجانب الشرقى إلى الجانب الغربى فانخسف بهم كرسى الجسر الأعلى وسقط على زورق مملوء ناسا فغرق فى هذا اليوم نحو من ألف نفس ممن عرف دون من لم يعرف واستخرج الناس من دجلة بالكلاليب والغواصة وارتفع الضجيج وكثر الصراخ من الجانبين فبينما الناس على هذا الحال من الصراخ والعويل إذ أخرج بعض الغواصة صبيا عليه حلى فاخرة من ذهب وجوهر فبصر به شيخ من المنظارة طرار فجعل يلطم وجهه حتى دمى أنفه ثم تمرغ على التراب واظهر أنه أبنه وجعل يقول ياسيدى لم تمت إذ اخرجوك صحيحاً سوياً لم يأكلك السمك ولم تمت حبيبى إذ كحلت عينى بك مرة قبل الموت وأخذه فحمله على حمار ثم مضى به فما برح القوم الذين رأوا من الشيخ ما رأوا حتى أقبل رجل معروف باليسار مشهور من التجار حين بلغه الخبر وهو لا يشك إلا أن الصبى فى أيديهم وليس يهمه ما كان عليه من حلى وثياب وإنما أراد أن يكفنه ويصلى عليه ويدفنه فأخبره الناس بالخبر فبقى هو ومن معه من التجار متعجبين مبهوتين وسألوا عنه واستبحثوا فإذا لاعين ولا أثر وعرف توابوا هذا الجسر هذا الشيخ المحتال فأيأسوا أبا الغريق منه وذكروا أنه شيخ قد أعياهم أمره وحيرهم كيده

وأنه بلغ من حيله وخبثه ودهائه أنه أتى يوما من أول الصباح إلى باب بعض العدول الكبار المشهورين بالرياسة واليسار ومعه جرة فارغة على عاتقه وفأس وزنبيل فقام فى ثوب خلق ولم يتكلم حتى وضع الفأس فى الدكاكين التى على باب ذلك العدل فهدمها وجعل ينتقى الآجر ويعزله فسمع ذلك العدل بهدمها ووقع الفأس والهدم فخرج لينظر فإذا الشيخ دائب بهدم دكاكينه التى على باب داره فقال: ياعبد الله أى شيء تصنع ومن أمرك بهذا؟ فجعل الشيخ يعمل عمله ولا يلتفت إلى العدل ولا يكلمه فاجتمع الجيران وهما فى المحاورة فأخذوا بيد الشيخ فوكزه هذا ودفعه هذا فالتفت إليهم، فقال: ويلكم أى شيء تريدون منى أما تستحيون تعبثون بى وأنا شيخ كبير، فقالوا: ما لنا والعبث بك ويحك من أمرك بهذا قال: ويحكم أمرنى صاحب الدار فقالوا: هذا صاحب الدار يكلمك. قال: لا والله ما هذا صاحب الدار فلما سمعوا كلامه وغفلته رحموه . وقالوا هذا مجنون أو مخدوع خدعه بعض جيران هذا العدل ممن قد حسده على ما أنعم الله تعالى به عليه وهم الذين حملوا هذا الشيخ على هذا الفعل فلما منعوه من الهدم مضى إلى الجرة التى جاء بها وقد كان وضعها إلى جانب الباب فأدخل يده فيها كأنه قد خبأ ثيابه فيها فصرخ وبكى فلم يشك العدل أن محتالاً خدعه وأخذ ثيابه فقال وأى شيء ذهب لك. قال قميص جديد اشتريته أمس وملحفة لبيتى وسراويل فرقوا له جميعاً ودعاه العدل فكساه ووهب له دراهم كثيرة ووهب له الجيران دراهم كثيرة وانصرف غانماً، وهذا الشيخ كان يعرف بالعقاب ويكنى بأبى الباز وله أخبار عظيمة وحيل عجيبة، قال بعض الكتاب: وهذا الشيخ هو الذى احتال للمتوكل حين بايعه بختيشوع الطبيب أنه أن سرق من داره شيء يعرفه فى ثلاث ليال ذكرت من ذلك الشهر فعليه أن يحمل إلى خزانة أمير المؤمنين عشرة آلاف دينار، وإن خرجت هذه الليالى ولم يتم عليه ما ذكر فله الضيعة المعين ذكرها فى المبايعة فأتى بهذا الشيخ فى عنفوان شبابه إلى المتوكل فضمن للمتوكل أن يأخذ من دار بختيشوع شيئاً لا ينكره وقد كان بختيشوع حرس داره وحصنها فى هذه الليالى فاحتال العقاب المذكور بحيل لطيفة إلى أن سرق بختيشوع نفسه وجعله فى صندوق وأتى به المتوكل فى خبر ظريف وأنه رسول لعيسى بن مريم نزل إلى بختيشوع بشمع أسرجه وتخليط عمله وبنج فى طعام اتخذه وأطعمه الحراس لداره فى تلك الليلة إلى آخر القصة مما لا حاجة لإيرادها هنا.

وكان المعتضد حازماً كيسا كثير الحساب حكى عبد الله بن حمدون وكان من

ندماء المعتضد وخاصته وممن كان يأنس به فى الخلوة أنه أمر أن ينقص من مرتب حشمه ومن كان يجرى عليه من الأتراك من كل رغيف أوقية وأن يبتدأ بأمر خبزه لأن للوصائف عددا من الرغفان فيها ثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك. قال ابن حمدون فتعجبت من ذلك فى أول أمره ثم تبينت القصة فإذا أنه يتوفر من ذلك فى كل شهر مال عظيم، وتقدم إلى خازنه أن يختار له من الثياب التسترية والدبيقية أحسنها لتقطيعها لنفسه. وكان مع ذلك قليل الرحمة كثير الإقدام سفاكاً للدماء شديد الرغبة فى أن يمثل بمن يقتله وكان إذا غضب على القائد النبيل والذى يختصه من غلمانه أمر أن تحفر له حفرة ثم يدلى على رأسه فيها ويطرح التراب عليه ونصفه الأسفل ظاهر على التراب ويداس التراب فلا يزال كذلك حتى تخرج روحه من دبره، وذكر من عذابه أنه كان يأخذ الرجل فيكتف ويقيد ويؤخذ القطن فيحشى فى أذنه وخيشومه وفمه وتوضع المنافخ فى دبره حتى ينتفخ ويعظم جسمه ثم تسد دبره بشىء من القطن ثم يفصد وقد صار كالجمل العظيم من العرقين المعروفين فوق الحاجبين فتخرج النفس من ذلك الموضع، وربما كان يوضع الرجل فى أعلى السطح مجردا موثقا ويرمى بالنشاب حتى يموت، واتخذ المطامير وجعل فيها أصناف العذاب وجعل عليها الحرمىّ المتولى لعذاب الناس ولم يكن له رغبة إلا فى النساء والبناء فإنه أنفق على قصره المعروف بالثريا أربعمائة ألف دينار وكان طول قصره المعروف بالثريا ثلاثة فراسخ.

ومما ذكر من حزمه فى الأمور وحيله وصبره أنه أطلق يوماً من بيت المال لبعض الرسوم فى الجند عشر بدر فحملت إلى منزل صاحب عطاء الجيش ليصرفها فيهم فنقب منزله فى تلك الليلة وأخذت العشر بدر فلما أصبح الصباح نظر إلى النقب ولم ير المال فأمر باحضار صاحب الحرس وكان على الحرس يومئذ مؤنس العجلى فلما أتاه قال له: أن هذا المال للسلطان والجند ومتى لم تأت به أو بالذى نقبه وأخذ المال الزمك أمير المؤمنين غرمه فجدّ فى طلبه وطلب اللص الذي جسر على هذا الفعل فسار إلى مجلسه وأحضر التوّابين والشرط، والتوّابون هم شيوخ من أنواع اللصوص الذين كبروا وتابوا فإذا جرت حادثة علموا من فعلها فدلوا عليه وربما قاسموا اللصوص ما سرقوه، فتقدم إليهم فى الطلب وتهددهم وأوعدهم وطالبهم فتفرق القوم فى الدروب والأسواق والمغرف والمواخير ودكاكين الرواسين ودور القمار فما لبثوا أن احضروا رجلاً نحيفاً ضعيف الجسم رث الملابس هين الحالة فقالوا ياسيدى هذا صاحب الفعلة وهو غريب من غير هذا البلد وأطبق القوم كلهم على

أنه صاحب النقب ولص المال فأقبل عليه مؤنس العجلى فقال: ويلك من كان معك ومن أعانك وأين أصحابك ما أظنك تقدر على عشر بدر وحدك فى ليلة ما كنتم إلا عشرة وأقل ذلك خمسة فأقرّ لى بالمال إن كـان مجتمعاً وعلى أصحابك إن كان المال قد قسـم فما زاده على الإنكار شيئاً فأقبل يتـرفق به ويعده أن يثيبه ويرزقه ويعظم جائزته ويعـده بكل جميل على رده والإقـرار به ويتوعده بكل مكروه على جحوده وإنكاره فلما غـاظه ذلك وانكره ويئس من إقراره أخذ فى عقـوبته ومساءلتـه فضربه بالسـوط والقلوس والمقارع والدرة علـى ظهره وبطنه وقـفاه ورأسـه وأسفل رجليه وكعـابه وعضله حتى لم يكن للضرب فـيه موضع وبلغ به ذلك إلى حـالة لا يعقل فيهـا ولا ينطق فلم يقر بشىء فبلغ ذلك الخليفة المعتـضد فأرسل فأحضـر صاحب الجيش فقـال له: ما صنعت فى المال فأخبـره الخبر، فقال له: ويلك تأخـذ لصا قد سرق من بيت المال عشر بدر فتـبلغ به الموت والتلف حتى يهلك الرجل ويضيع المال فأين حيل الرجال فأتى به وقد حمل فى جل فوضع بين يديه وقد عقل فسأله فأنكر فقـال له: ويلك إن مت لم ينفعك وإن برئت من هذا الضـرب لم أدعك تصل إليه فلك الأمان والضمان على ما تصلح به حالتك ويحمد به أمرك فأبى إلا الانكار فقال علىّ بأهل الطب: فاحضروا، فقال: خـذوا هذا الرجل إليكم فعالجوه بأرفق العلاج وواظبوا عليه بالمراهم والغـذاء والتعاهد واجتهدوا أن تبـرئوه فى أسرع وقت فأخذوه إليهم وأخرج مالا مكان المال وأمر بتفريقه على الجند فيقال أنه برىء وصلح فى أيام يسيـرة ثم واظبوا عليه بالطـعام والشراب والوطاء والطيب حـتى صح قوى جسـمه وظهر لونه ورجعت إليه نفسه ثم ذكر به فأمر باحضاره فلما حضر بين يديه سأله عن حاله فدعا وشكر. وقال: أنا بخير مـا أبقى الله أمير المؤمنين ثم سأله عن المال فعاد إلى الإنكار فـقال له: ويلك لست تخـلو من أن تكون أخذته وحـدك كله أو وصل إليك بعضه فـإن كنت أخذته كله فإنك تنفقه فى أكل وشـرب ولهو ولا أظنك تفنيه قبل موتك، وإن مت فعليك وزره، وإن كنت أخذت بعضه سمحنا لك به فأقر على أصحـابك فإنى اقتلك إن لم تقـرّ ولا ينفعك بقـاء المال بعدك ولا يبالى أصـحابك بقتلك ومتى أقررت دفعت إليك عشـرة آلاف درهم وأخذت لك من أصحاب الجسر مثل ذلك ورسـمتك من التـوّابين وأجريت لك فى كل شـهر عـشرة دنانير تـكفيك لأكلك وشربك وكسوتك وطيبك وتكون عزيزاً وتنجو من القتل وتتخلص من الإثم فأبى إلا الإنكار فاستحلفه بالله واظهر له مصحفا فحلف عليه فقال إنى ساظهر على المال فإن أنا ظهرت عليه بعد هذه اليمين قتلتك ولم استبقك فأبى إلا الإنكار، فقال

له: فضع يدك على رأسى واحلف بحياتى فوضع يده على رأسه وحلف بحياته أنه ما أخذه وأنه مظلوم منهم وأن التوّابين قد تبرؤا به، فقال له المعتضد: فإن كنت قد كذبت قتلتك وأنا برىء من دمك قال: نعم، فأمر بإحضار ثلاثين أسود بحيث يراهم ويرونه وأمرهم أن يتناوبوا فى ملازمته فأتت عليه أيام وهو قاعد لا يتكىء ولا يستلقى ولا يضطجع وكلما خفق خفقة وجىء فكه ووقع رأسه حتى إذا ضعف وقارب التلف أمر بإحضاره فأعاد عليه ما كان خاطبه به واستحلفه بالله وبغير ذلك من الإيمان فحلف على ذلك كله وبما لم يستحلفه به أنه ما أخذ المال ولا يعرف من أخذه، فقال المعتضد لمن حضر قلبى يشهد أنه برىء وأن ما يقول حق وأن التوابين قد عرفوا صاحبه وقد أثمنا فى هذا الرجل وسأله أن يجعله فى حل ففعل ثم أمر بإحضار مائدة عليها طعام وأحضر بارد الشراب وأمره بالجلوس والأكل والشرب فأقبل يأكل ويشرب ويحث على الأكل ويلقم ويعاد الشراب عليه ويكرر حتى لم يبق للأكل والشرب موقع ثم أمر ببخور وطيب فبخر وطيب وأتى له بحشية ريش فوطىء له ومهد فلما استلقى واستراح وغفا أمر بإزعاجه وسرعة إيقاظه فحمل من موضعه حتى أقعد بين يديه وفى عينيه الوسن فقال له حدّثنى كيف صنعت وكيف نقبت ومن أين خرجت وإلى أين ذهبت بالمال ومن كان معك قال ما كنت إلا وحدى وخرجت من النقب الذى دخلت منه وكان مقابل الدار حمام له كوم شوك يوقد به فأخذت المال ورفعت ذلك الشوك والقش والقصب فوضعته تحته وغطيته وهو هناك فأمر برده إلى فراشه فردوه وأضجعوه عليه ثم أمر بإحضار المال فأحضر عن آخره وأحضر مؤنس العجلى وأحضر الوزير والجلساء وقد غطى المال بالبساط ناحية من المجلس ثم أمر بإيقاظ اللص وقد اكتفى من النوم وذهب عنه الوسن فقال له بحضرة الجميع مثل قوله الأول فجحد وانكر فأمر بكشف البساط وقال له ويلك أليس هذا المال ألست فعلت كذا وكذا وأخذ يصف له ما كان حدّثه به ثم أمر فقبض على يديه ورجليه وأوثق ثم أمر بمنفاخ فنفخ فى دبره وأتى بقطن فحشى فى أذنيه وفمه وخيشومه وأقبل ينفخ وخلى عن يديه ورجليه من الوثاق وأمسك بالأيدى وقد صار كأعظم ما يكون من الزقّاق المنفوخة وقد ورم سائر أعضائه وعظم جسمه وعيناه قد امتلأتا وبرزتا فلما كاد أن ينشق أمر بعض الأطباء فضربه فى عرقين فوق الحاجبين وهما فى الجبين فأقبلت الريح تخرج منهما مع الدم ولها صوت وصفير إلى أن خمد وتلف وكان ذلك أعظم ما رؤى فى ذلك اليوم من العذاب.

ولما كثرت مظالم المعتضد وكثر سفكه للدماء قيل أنه ظهر له شخص فى صور

مختلفة فى داره فكان تارة يظهر فى صورة راهب ذى لحية بيضاء وعليه لباس الرهبان، وتارة يظهر شابا حسن الوجه ذا لحية سوداء بغير تلك البزة، وتارة يظهر شيخاً أبيض اللحية ببزة التجار، وتارة يظهر بيده سيف مسلول وضرب بعض الخدم فقتله فكانت الأبواب تؤخذ وتغلق فيظهر له أين كان فى بيت أو صحن أو غيره، وكان يظهر له فى أعلى الدار التى بناها فأكثر الناس القول فى ذلك واستفاض الأمر وأشتهر فى خواص الناس وعوامهم والقول فى ذلك على حسب ما كان يقع لكل واحد منهم فمن قائل أن شيطاناً مريداً أصمد له يظهر فيؤذيه، ومنهم من يقول أن بعض مؤمنى الجن رأى ما هو عليه من المنكر وسفك الدماء فظهر له رادعاً وعن المنكرَ زاجراً، ومنهم من رأى أن ذلك من بعض خدمه كان قد هوى بعض جواريه فاحتال بحيلة فلسفية من بعض العقاقير الخاصة يضعها فى فمه فلا يدرك بحاسة البصر وكل ذلك ظن وحسبان، فلما اشتدّ أمر ذلك على المعتضد أحضر المعزمين وقد كبر قلقه واستوحش وحار عليه أمره فقتل وغرق جماعة من خدمه وجواريه وضرب وحبس جماعة منهم وعمل أعمالاً لا يسعنا ذكرها هنا لشناعتها.

ومات المعتضد لأربع ساعات خلت من ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين فى قصره المعروف بالحسنى بمدينة السلام، وقيل أن وفاته كانت بسمٍ دسه إليه إسماعيل بن بلبل قبل قتله إياه فكان يسرى فى جسده، ومنهم من ذكر أن جسمه تحلل فى مسيره فى طلب وصيف الخادم، ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته فى منديل أعطته إياه يتنشف به، وقيل غير ذلك مما لم نذكره هنا. وقد كان أوصى أن يدفنَ فى دار محمد بن عبد الله بن طاهر فى الجانب الغربى من الدار المعروفة بدار الرخام فلما اعتراه الغشى ووقع للموت شكوا فى وفاته فتقدم الطبيب إلى بعض أعضائه فجسه فأحس به وهو على ما به من السكرات فأنف من ذلك وركله برجله فقلبه أذرعا فيقال أن الطبيب مات منها ومات المعتضد من ساعته وسمع ضجة وهو على ما به من الحال ففتح عينه وأشار بيديه كالمستفهم فقال له مؤنس الخادم ياسيدى الغلمان قد ضجوا عند القاسم بن عبيد الله فاطلقنا لهم العطاء فقطب وجهه وهمهم فى سكرته فكادت أنفاس الجماعة أن تخرج من هيبته وحمل إلى دار محمد بن عبد الله بن طاهر فدفن بها، قال صاحب مروج الذهب: وللمعتضد أخبار وسير وحروب وسير فى الأرض غير ما ذكر وكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر ويومين قيل ولما حضرته الوفاة أنشد:

تمتع من الدنيا فإنك لا تبقى وخذ صفوها ما إن صفت ودع الرنقا
ولا تأمنن الدهر إني أمنته فلم يبق لي خِلاً ولم يرع لي حقا
قتلت صناديد الرجال ولم أدع عدواً ولم أمهل على طغيه خلقا
وأخليت دار الملك من كل نازع فشردتهم غربا ومزقتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزاً ورفعة وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقا
رماني الردى سهما فأخمد جمرتي فها أن اذا في حفرتي عاجلا ألقى
ولم يغن عني ما جمعت ولم أجد لذى الملك والأحياء في حسنها رفقا
فياليت شعري بعد موتي ما ألقى إلى نعم الرحمن أم ناره ألقى

وكان المعتضد أسمر نحيف الجسم معتدل الخلق قد وخطه الشيب وكان شهماً شجاعاً مقداماً ذا عزم وفيه شح مهيباً عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفاً منه وبعد موته تولى الخلافة بعده ولده أبو محمد على المكتفى بالله.

(الفصل السابع عشر)
(فى خلافة أبى محمد على المكتفى بالله بن المعتضد)

ثم قام بالأمر بعد المعتضد ابنه أبو محمد على المكتفى بالله بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم بويع له بالخلافة يوم مات أبوه وهو يوم الاثنين لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين هجرية أى سنة إحدى وتسعمائة للميلاد وأخذ له البيعة القاسم بن عبيد الله والمكتفى يومئذ بالرقة وله من العمر نيف وعشرون سنة فلما وصله الخبر أخذ البيعة على من عنده من الأجناد ووضع لهم العطاء وسار إلى بغداد ووجه إلى النواحي من ديار ربيعة ومضر ونواحي العرب من يحفظها وكان وصوله إلى مدينة السلام يوم الاثنين لسبع ليال بقين من جمادى الأولى سنة تسع وثمانين ومائتين، وكان دخوله إليها فى البحر ونزل قصر الحسنى على دجلة وخلع على القاسم بن عبيد الله ولم يخلع على أحد من القواد وفى اليوم الذى دخل فيه مدينة السلام قتل عمرو بن الليث الصفار قتله صبراً صافى الخرّمى وكان أمر قتله من أغرب الأمور، وذلك أنه لما قبض على عمرو المذكور فى أيام المعتضد وأودع فى السجن مدة مرض المعتضد قد ذكره المعتضد عند امتناعه من الكلام واحتضاره فأشار بيديه يريد صافيا الخرّمى فلما حضر إليه أمره بقتل عمرو

المذكور بالإيماء والإشارة بأن وضع يده على رقبته وعلى عينه يعنى بذلك أذيم الأعور فلم يفعل ذلك صافى لعلمه بقرب وفاة المعتضد وكره قتل عمرو المذكور فلما دخل المكتفى مدينة السلام سأل القاسم بن عبيد الله الوزير عنه فقال هو حىّ يرزق فسرّ بذلك وأراد الإحسان إليه لأنه كان يكثر من الهدية إليه لما كان بالرى فكره الوزير ذلك فبعث إليه من قتله، وعلم المقتدر بما جرى فأكبر الأمر وأعظمه جداً وكان دائماً يذكر هذه الفعلة للقاسم ولا ينساها، ولم تستقر الخلافة بالمكتفى حتى أمر بهدم المطامير التى كان المعتضد اتخذها لعذاب الناس واطلق من كان محبوساً فيها وأمر برد المنازل التى كان المعتضد اتخذها لموضع المطامير إلى أهلها وفرق فيهم أموالاً فمالت قلوب الرعية إليه وكثر الداعى له بهذا السبب وغلب عليه القاسم بن عبيد الله وفاتك مولاه فكان بعد ذلك لا يعمل إلا بمشورتهما، وجاءته الكتب تترى من أهل مصر والشام يشكون ما يلقون من القرمطى من القتل والسبى والتخريب وقد كان عاث هو وأصحابه فى سائر البلاد وأفحش فى القتل وإراقة الدماء بلا رحمة ولا شفقة وحصر دمشق وضيق عليها فجاءت إليها النجدة من مصروبغداد وسير المصريون لقتاله بيدرا القائد وغيره من كبار القواد فقاتلوا شيخاً مقدم القرامطة وشددوا فى قتاله وألحوا فقتل على باب دمشق وأحرق وقتل خلق كثير من القرامطة وتفرق من بقى منهم ثم عادوا فاجتمعوا على الحسين أخى شيخ المذكور فسمى نفسه أحمد وكنى بأبى العباس ودعا الناس فأجابه أكثر أهل البوادى وغيرهم فاشتدّت شوكته وجعل يموّه على الناس وأظهر شامة فى وجهه وزعم أنها آية وسار بجيوشه إلى دمشق فخافه أهلها وصالحوه على خراج دفعوه إليه وانصرف عنهم ثم سار إلى أطراف حمص فأخذها وخطب له على منابرها وتسمى المهدى أمير المؤمنين وأتاه ابن عم له اسمه عيسى المهدى فلقبه المدثر وعهد إليه وزعم أنه المدثر المذكور فى القرآن ولقب غلاماً من أهله المطوّق وقلده قتل أسرى المسلمين، ثم سار إلى حماة ومعرّة النعمان وغيرهما فقتل وسبى وأحرق وخرّب وقتل النساء والصبيان ثم سار إلى بعلبك فقتل عامة أهلها فلم يبق منهم إلا اليسير ثم سار إلى السلمية فمنعه أهلها ثم صالحهم وأعطاهم الأمان ففتحوا له بابها فبدأ بقتل من فيها من الهاشميين وكانوا جماعة، ثم قتل البهائم والصبيان بالمكاتب ثم خرج منها وليس بها عين تطرف وسار فيما حولها من القرى يسبى ويقتل فضج الناس وعجوا إلى الله تعالى وخاف الخليفة المكتفى شر العاقبة فجهز فى رمضان من السنة أى سنة ست وتسعين ومائتين جندا عظيماً وخرج بهم من بغداد فى الشهر بعينه وجعل طريقه على الموصل وقدم بين

يديه أبا الأغرّ فى عشرة آلاف رجل فنزل قريباً من حلب فكبسهم القرمطى صاحب الشامة فقتل منهم خلقاً كثيراً وسلم أبو الأغر فدخل حلب فى ألف رجل فسبقه القرمطى إلى باب حلب فقاتله أبو الأغر بمن بقى معه وأهل البلد فرجع عنهم وما استهل شوّال حتى وصل بدر مولى ابن طولون فى عسكره وانقض على القرمطى وقاتله قتالاً شديداً فانهزم القرمطى وقتل من أصحابه خلق كثير، ومضى من سلم منهم نحو البادية فوجه الخليفة المكتفى فى أثرهم الحسين بن حمدان وجماعة من القواد فلم يدركهم وما زال الحال هكذا إلى مستهل سنة سبع وتسعين، ثم شدد المكتفى فى قتال القرمطى وولى محمد بن سليمان الكاتب أمر حربه ورسم له بمناهضة القرمطى فسار إليه محمد فى عسكرالخليفة فلاقاه على مقربة من حماة فسير إليهم القرمطى جماعة من أصحابه وبقى هو فى جماعة ومعه أمواله وسواد عسكره فالتحمت الحرب بين الفريقين واشتدّت فانهزمت القرامطة وقتل منهم مقتلة عظيمة وتمزق من بقى وفرّ إلى البوادى فتبعهم أصحاب الخليفة، فلما رأى القرمطى ما حل بأصحابه ركب هو وابن عمه المسمى بالمدثر والمطوّق صاحبه وغلام له رومى وسار يريد الكوفة عرضا فى البرية فلما وصل إلى الدالية من أعمال الفرات نفد ما كان معهم من الزاد والعلف فوجه بعض أصحابه إلى الدالية المعروفة بابن طوق ليشترى لهم ما يحتاجون إليه فلما صار فى سوق البلد انكروا حاله فسألوه عن أمره فكتمه فرفعوه إلى متولى تلك الناحية فسأله عن خبره فأعلمه أن القرمطى صاحب الشامة خلف رابية هناك مع ثلاثة نفر فسير إليهم الوالى من قبض عليهم ثم وجه بهم إلى المكتفى بالرقة ورجعت الجيوش بعد أن قتلوا وأسروا، وفى يوم الاثنين لأربع بقين من المحرم أدخل صاحب الشامة الرقة على جمل ظاهر للناس وبين يديه المدثر والمطوّق ثم سار من هناك مع الخليفة المكتفى إلى بغداد فأدخل إليها على فيل وأصحابه على الجمل فأودعوهم السجن حتى قدم محمد بن سليمان الكاتب فى عسكره ومعه جماعة من أعيان القرامطة ورؤسهم فأمر الخليفة بقطع أيديهم وأرجلهم وقطع أعناقهم وضرب صاحب الشامة ألفى سوط وقطعت يداه وكوى فغشى عليه وأخذوا حطبا ووضعوا فيه نارا ووضعوه على خواصره فجعل يفتح عينه ويغمضها فلما خافوا موته ضربوا عنقه ورفعوا رأسه على خشبة فكبر الناس لذلك كثيراً وفرحوا بموته فرحاً عظيماً.

وكان هارون بن خمارويه لما عاقد الخليفة المعتضد وعاهده على الولاء والطاعة أيام خلافته خوفاً من زحفه على أملاك مصر ونزعها منه جعل يراقب الفرص ليتخلص من ربقة تلك العقود فلما ظهر القرمطى صاحب الشامة وكان من أمر

خروج الخليفة المكتفى ومعه محمد بن سليمان الكاتب فى مقدمة عسكره وظهر أمر ابن الكاتب واتسعت كلمته بعد ظفره بالقرمطى عمد هرون بن خمارويه إلى استمالة ابن الكاتب سرا وأوعز إلى بدر الحمامى غلام أحمد بن طولون وفائق أحد أصحابه وهما بدمشق أن يكاتبا ابن الكاتب فى ذلك ويدعوانه إلى قصد البلاد بالعساكر فكتبا إليه ووعداه بالمساعدة على أخذها فكتم ابن الكاتب أمر ذلك، ولما عاد إلى بغداد أنهاه إلى الخليفة المكتفى فكاد الخليفة يتميزغيظا وأمر ابن الكاتب بالعود وسير معه الجنود والأموال ووجه دميانة غلام بأزمار أيضاً وأمره بركوب البحر إلى مصر ودخول النيل وقطع الوارد عنها فسار دميانة ووصل إليها وشدد فى حصار المدينة وضيق على أهلها وزحف إليهم محمد بن سليمان فى عسكره فى البر حتى صار على مقربة من مصر وكاتب من بها من القواد فكان أول من طلب الأمان بدر الحمامى وهو مقدمهم فانحلت عقدتهم وانفشلوا جميعاً وتتابع المستأمنة من القواد فلما رأى ذلك هرون بن خمارويه خرج فيمن معه لقتال محمد بن سليمان فكانت بينهم وقائع كثيرة واتفق فى هذه الأثناء أن وقع بين عسكر هرون خلاف وعظم شر هذا الخلاف فاقتتلوا فخرج هرون يسكنهم فرماه بعض المغاربة بمزراق فقتله فلما قتل استقدموا عمه شيبان وولوه مكان هرون فبذل المال للجند فأطاعوه واجتمعوا عند كلمته وحاربوا معه فأتتهم كتب بدر الحمامى يدعوهم إلى الأمان فأجابوه إلى ذلك ووصل الخبر إلى محمد بن سليمان بما جرى فسار إلى مصر فأرسل إليه شيبان يطلب الأمان فأجابه فخرج إليه ليلاً ولم يعلم به أحد من الجند فلما أصبحوا لم يجدوه فى داره فقيل: أن محمد بن سليمان الكاتب قبض عليه وقتله، وقيل بل هرب فى أرض الله واسعة الفضاء ودخل ابن الكاتب مصر واستولى على دور آل طولون وأموالهم وقبض عليهم جميعاً وهم بضعة عشر رجلاً فقيدهم وسجنهم واستقصى أموالهم وكتب بالفتح إلى الخليفة المتوكل فأمره بأشخاص آل طولون وأسبابهم وجميع متاعهم من مصر والشام إلى بغداد وأن لا يترك منهم أحدًا ففعل، وقد عاث أصحابه وأفسدوا وأحرقوا وقتلوا من السودان سكان قطائع ابن طولون خلقاً عظيماً للغاية وولى معونة مصر عيسى النوشرى فبادت من ذلك اليوم دولة بنى طولون وخلت منهم الديار وعفت الآثار وتعطلت منهم المنازل وحل بهم التنكيل والذل فرثاهم الشعراء وبكاهم الناس كثيراً فمن رثاهم من الشعراء المعاصرين أحمد بن إسحق الجفر وإسماعيل بن أبى هاشم ومحمد بن طسويه وسعيد القاص وأحمد بن محمد الحبيشى وأحمد بن يعقوب فما قاله القاص من قصيدة طويلة هذه الأبيات:

جرى دمعه ما بين سحر إلى نحر ولم يجر حتى أسلمته يد الصبر
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى يبيت على جمر ويضحي على جمر
تتابع أحداث يضيعن صبره وغدر من الأيام والدهر ذو غدر
أصاب على رغم الأنوف وجدعها ذوي الدين والدنيا بقاصمة الظهر
وفقد بني طولون في كل موطن أمرّ على الإسلام فقدا من القطر
وكان أبو العباس أحمد ماجدا جميل المحيا لا يبيت على وتر
كأن ليالي الدهر كانت لحسنها وإشراقها في عصره ليلة القدر

إلى أن قال:

ترى أثراً لم يبق من يستطيعه من الناس في بدو البلاد ولا حضر
وقام أبو الجيش ابنه بعد موته كما قام ليث الغاب في الأسل السمر
أتته المنايا وهو في أمن داره فأصبح مسلوباً من النهي والأمر

إلى أن قال:

فمن يبك شيئاً ضاع من بعد أهله لفقدهم فليبك حزناً على مصر
ليبك بني طولون إذ بان عصرهم فبورك من دهر وبورك من عصر

ثم ظهر بعد ذلك بقليل رجل يعرف بالخلنجى، وهو: من قواد آل طولون وكان تخلف عن محمد بن سليمان فاستمال جماعة من المصريين وقاموا معه وخالفوا على السلطان وكثر جمعه وعلت كلمته وعجز النوشرى عن رده فسار النوشرى إلى الإسكندرية ودخل الخلنجي مصر وجعل يتصرف فى الأمور فكتب النوشرى إلى الخليفة المكتفى بالخبر وطلب منه النجدة فسير إليه الجنود مع فاتك التركى مولى المعتضد وبدر الحمامى فساروا فى شوّال ووصلوا إلى نواحى مصر وتقدم أحمد بن كيغلغ فى جماعة من القواد فلقيهم الخلنجي بالقرب من العريش فى جيش عظيم فاقتتلوا فانتصر عليهم الخلنجي وهزمهم شر هزيمة فطلبوا من الخليفة بعض القواد فسير إليهم جماعة منهم واتصلت الأخبار بقوة الخلنجي فبرز المكتفى إلى باب الشماسية ببغداد ليسير إلى مصر وأهتم لذلك جداً ونادى بالتأهب للمسير، فبينما هو على هذا الحال إذ جاء كتاب من فاتك فى شعبان يذكر أنه هو والقواد جدوا فى قتال الخلنجى فكانت بينهم حروب كثيرة قتل فيها خلق كثير وأن آخر حرب كانت بينهم قتل فيها معظم أصحاب إبراهيم الخلنجى وانهزم الباقون وظفروا بهم وغنموا

عسكرهم وهرب الخلنجي فدخل فسطاط مصر فاستتر بها عند رجل من أهل البلد فدخلوا المدينة فدلوا عليه فأخذوه ومن استتر عنده وألقوهم فى الحبس، فكتب المكتفى إلى فاتك فى حمل الخلنجي ومن معه إلى بغداد وعاد المكتفى فدخل بغداد وأمر برد خزائنه وآلات حربه وكانت قد سارت فبلغت تكريت فوجه فاتك بالخلنجي إلى بغداد فدخلها هو ومن معه فى شهر رمضان من السنة فأمر المكتفى بحبسهم ورجع النوشرى إلى مصر فأقام والياً عليها خمس سنين وشهرين وخمسة عشر يوماً ومات سنة سبع وتسعين ومائتين أى فى خلافة المقتدر بالله كما سيأتى بيانه فى محله.

ولما كانت سنة خمس وتسعين ومائتين هجرية مرض المكتفى بالله وثقل به مرضه إلى شهر ذى القعدة فتوفى فى ثالث عشرة وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة. وقيل اثنتان وثلاثون سنة فكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوماً وكان ربعة جميلاً رقيق البشرة حسن الشعر وكنيته أبو محمد ودفن بدار محمد ابن طاهر وكان يحب عليّ بن أبى طالب ويميل إلى ذريته، يحكى أن يحيى بن عليّ الشاعر أنشده بالرقة قصيدة يذكر فيها فضل أولاد العباس على أولاد عليّ فقطع المكتفى عليه إنشاده. وقال: يايحيى كأنهم ليسوا بنى عم ما أحب أن يخاطب أهلنا بشىء من ذلك وإن كانوا خلفاء ولم يسمع القصيدة ولا أجازه عليها، قال بعض أصحاب التاريخ: ولكنه لم يمض على خلافته قليل حتى تبدلت طباعه وتغيرت أحواله وركب متن هواه فسلك مسالك أبيه ومالت نفسه إلى الإيذاء والعبث بحقوق الرعية وأمر أن يتخذ له قصر بناحية الشماسية بإزاء قطر بل فأخذ بهذا السبب ضياعاً كثيرة ومزارع كانت فى تلك النواحى بغير ثمن من ملاكها فكثر الداعى عليه فلم يستتم ذلك البناء حتى توفى وكان هذا الفعل مشاكلاً لفعل أبيه المعتضد فى بناء المطامير وكان وزيره القاسم بن عبيد الله عظيم الهيبة شديد الإقدام سفاكاً للدماء. وكان الكبير والصغير على رعب منه لا يعرف أحد منهم لنفسه نعمة معه وكانت وفاة القاسم المذكور عشية الأربعاء لعشر خلون من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وتسعين ومائتين وله نيف وثلاثون سنة، قيل: وكان ممن قتله القاسم بن عبيد الله المذكور عبد الواحد بن الخليفة الموفق. وكان معتقلا عند مؤنس فبعث إليه حتى أخذ برأسه فى أيام المكتفى، وقد كان المعتضد يعزه ويميل إليه ميلاً شديداً إذ لم يكن لعبد الواحد المذكور همة فى خلافة ولا طموح إلى رياسة بل كانت همته فى اللعب مع الأحداث. وقد كان المكتفى أخبر عنه أنه أرسل عدة من غلمانه الخاصة فوكل به

من يراعى خبره ومـا يظهر من قوله إذا أخذ الشراب منه فـسمع منه وقد طرب وهو ينشد شعر العتابى حيث يقول:

تـلوم عـلـى تـرك الغـنـاء بـأهلـه	طوى الدهر عنها من طريف وتالد
رأت حولهـا النسوان يمشين حـلقة	مـقلدة أجـيـادهـا بالقـلائد
يسـرك أني نلـت مـا نال جـعـفـر	من الملك أو ما نال يحيى بن خالد
وأن أمــيــر المؤمنين أغـصـني	مـغـصـهـمـا بـالمرهفـات البـوارد
ذريني تجـتني مـيـتـتي مطمـئنة	ولم أتجـشـم هـول تلـك الموارد
فـإن نفـيسـات الأمـور مـشـوبة	بمسـتـودعـات في بطون الأسـاود
وإن الذي يسـمـو إلى درك العـلا	ملقى بأسـبـاب الردى والمكايد

فقال له بعض ندمـائه وقد أخذ منه الشراب ياسـيدى أين أنت مما تمثل به يزيد ابن المهلب:

تأخـرت استبقي الحـياة فلم أجـد	حـيـاة لـنفـسي مـثل أن أتـقـدمـا

فقال له عـبد الله: مه لقد أخطأت الغـرض وأخطأ ابن المهلب وأخطأ قائل هذا البيت وأصاب أبو فرعون التميمى حـيث يقول: قال النديم: حيث يقول: ماذا قال؟ قال:

ومـا بي شيء في الوغى غيـر أنني	أخـاف على فـخـارتي أن تحطمـا
فلو كنت مبـتاعاً من السوق مـثلها	لدى الروع مـا باليـت أن أتقـدمـا

فلما انتـهى ذلك إلى المكتفى ضـحك وقـال: قـد قلت للقاسـم لـيـس عمى عبد الواحد ممن تسمو همته إلى الخلافـة هذا قول من ليس له همة غير فرجه وجوفه وأمرد يعانقـه، وكلاب يهارش بها، وكـباش يناطح بها، وديوك يقاتل بـها، اطلقوا لعمى كذا وكذا فلم يزل القاسم المذكور بعبد الواحـد حتى قتله كما تقدم، وقد كان المكتفى لما أن مات القاسم وتبين قتله لعـبد الواحد أراد نبش القاسم من قبره وضربه بالسوط وحرقه بالنار وقيل غير ذلك.

ومـات فى أيامـه أيضـاً خائـيل بطرك الإسكندرية فكانت مـدته نحـو خـمس وعشرين سنة ووقع فـيها من الحوادث والمحن شىء كثيـر جداً أضربنا عن إيراده هنا فخـلا الكرسى بعده أربع عشـرة سنة إلى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمـائة هجرية أى نحو سنة خمس وسبعين وتسعمائة ميلادية اشتدّ فيها الخطب على المتأصلين وعظمت

نكايتهم، ثم قدّموا غبريال كما سيأتى بيان ذلك فى خلافة المتقى بالله إبراهيم بن المقتدر بن المعتضد. واحترقت فى خلال هذه الفترة أيضاً كنيسة القيامة الكبرى بالإسكندرية فى يوم الاثنين لسادس شوّال سنة ثلاثمائة أى نحو سنة أربع وأربعين وتسعمائة ميلادية وهى التى كانت هيكل زحل قبل المسيحية وكانت من بناء قلوبطره ملكة مصر وهى معظمة عند المسيحيين فلم يبق منها حجر على حجر.

(الفصل الثامن عشر)

(فى خلافة أبى الفضل جعفر المقتدر بالله)

ثم قام بالأمر بعد المكتفى بالله أخوه أبو الفضل جعفر المقتدر بن المعتضد بويع له بالخلافة فى يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين هجرية أى نحو سنة سبع وتسعمائة ميلادية. وكان له يوم بويع ثلاث عشرة سنة، قال أصحاب التاريخ: وكان السبب فى ولاية أبى الفضل جعفر المقتدر المذكور أنه لما ثقل المرض بالمكتفى فكر العباس بن الحسن وزير المكتفى يومئذ فيمن يصلح للخلافة بعد المكتفى. وكان الذين يتولون الدواوين أربعة، هم: أبو عبد الله بن محمد وداود بن الجراح وأبو الحسن محمد بن عبدان وأبو الحسن على ابن محمد بن الفرات فكان إذا ركب العباس بن الحسن الوزير المذكور سار فى ركابه أحد الأربعة ليوصله إلى دار الخلافة فسأل الوزير يوماً ابن الجراح فيمن يصلح للخلافة بعد المكتفى؟ فقال: عبد الله بن المعتز وأخذ يصفه بالعقل وأصالة الرأى مع الوقار والحشمة ثم استشار أبا الحسن بن الفرات فى ذلك أيضاً فلم يبد رأياً فألح عليه فقال: فليتق الله الوزير ولا يولى الخلافة إلا من قد عرفه واطلع على جميع أحواله ولا ينصب بخيلا يضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ولا طماعاً يشره فى أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم. ولا قليل الدين لا يخاف العقوبة والآثام ولا يرجو الثواب فيما يفعله ولا يولى من عرف نعمة هذا وبستان هذا وضيعة هذا وفرس هذا ومن قد لقى الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم، فقال الوزير: صدقت ونصحت فبمن تشير؟ قال: أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد قال: ويحك هو صبى، قال ابن الفرات: ولكنه ابن المعتضد ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا ثم استشار الوزير أيضاً ابن عيسى فيمن يولى الخلافة، فلم يذكر له أحدا

فأعجب الوزير رأى ابن الفرات ومال إلى تولية أبى الفضل جعفر فلما مات المكتفى بايعوا أبا الفضل ولقبوه المقتدر بالله واستقرّت به الخلافة فاستصغره الوزير وجعل يتصرف هو فى الأمور، ثم عزم على خلعه وتقليد الخلافة لأبى عبد الله محمد بن المعتمد وكان حسن السيرة جميل الوجه والعمل فراسله فى ذلك وبقى الأمر مستوراً ليتمكن الوزير من التغلب على غلمان المعتضد إن همّ بخلع المقتدر، واتفق أن وقعت منازعة بين أبى عبد الله المذكور وبين ابن عمرويه صاحب الشرطة بسبب ضيعة مشتركة بينهما فاغلظ له ابن عمرويه فغضب ابن المعتمد غضباً شديداً وأغمى عليه وأفلج فى المجلس فحمل إلى بيته فى محفة فمات فى اليوم الثانى فأراد الوزير البيعة لأبى الحسين بن المتوكل فمات أيضاً بعد خمسة أيام وأبى الله إلا أن يتم الأمر للمقتدر، فلما كانت سنة ست وتسعين ومائتين استمال الوزير العباس بن الحسن إلى رأيه جميع القواد والقضاة والكتاب فتعاهدوا على خلع المقتدر والبيعة لابن المعتز وأرسلوا إلى ابن المعتز فى ذلك فأجابهم على أن لا يحصل حرب ولا سفك دم فوافقوه على ذلك وجعلوا يتأهبون وعاد المقتدر فتودد إلى العباس الوزير، ورأى العباس أمره صالحاً مع المقتدر فاحجم عن خلعه وتزلف إليه فلما آنس منه ذلك جماعة القواد قاموا عليه وقتلوه وقتلوا معه فاتكا المعتضدى وأصبحوا وقد خلعوا المقتدر وبايعوا ابن المعتز وساروا إلى المقتدر ليقتلوه فلم يتمكنوا من ذلك فأحضروا ابن المعتز ولقبوه المرتضى بالله وأجلسوه على كرسى الخلافة فاستوزر محمد بن داود ابن الجراح وقلد علىّ بن عيسى الدواوين فكتب الكتب إلى الآفاق من أمير المؤمنين المرتضى بالله أبى العباس عبد الله بن المعتز بالله، وسير إلى المقتدر من يلزمه بالانتقال إلى دار ابن طاهرالتى كان مقيماً فيها لينتقل هو إلى دار الخلافة فطلب الإمهال إلى الليل وعاد الحسين بن حمدان يطلب المقتدر ليقتله وأحاط بدار الخلافة فقاتله الخدم والغلمان والرجالة من وراء الستور عامة النهار فانصرف عنهم ولما دخل الليل أخذ ماله وعياله وانصرف عن بغداد إلى الموصل ولم يبق مع المقتدر من القواد أحد سوى مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال وحاشية دار الخلافة وقد صمموا على قتل ابن المعتز قبل قتلهم فجهزهم المقتدر بالأسلحة والدروع وركبوا فى السمريات وأصعدوا فى الماء يريدون مقرّ ابن المعتز فلما رآهم من عند ابن المعتز على هذا الحال هالهم أمرهم وكثرتهم وخافوا وهربوا على وجوههم قبل أن يصلوا إليهم وعلم ابن المعتز بذلك فركب ومعه وزيره محمد بن داود وهربا وغلام له ينادى بين يديه يامعشر العامة أدعوا لخليفتكم السنى البربهارى، قال بعض الكتاب: وإنما نسب

هذه النسبة لأن الحسين بن القاسم بن عبيد الله البربهارى كان مقدم الحنابلة والسنة من العامة ولهم فيه اعتقاد عظيم فأراد استمالتهم بهذا القول، وسار ابن المعتز ومن معه نحو الصحراء وكان يظن أن الجند الذين بايعوه يقومون لنصرته ويتبعونه حيث سار فلم يلحقه منهم أحد فلما خذل ابن المعتز نزل عن دابته ومعه غلام وانحدر إلى دار أبى عبد الله الجصاص مستجيرا به واختفى محمد بن داود فى داره واختفى كل من بايع ابن المعتز فبرز ابن عمرويه وجمع أصحابه ونادى بشعار المقتدر تدليسا فقام عليه العامة وقاتلوه وسبوه فاختفى وتفرق أصحابه.

وتقوّت عزيمة المقتدر بعد ذلك فقلد الشرطة مؤنساً الخازن فخرج مؤنس بالعسكر وقبض على وصيف بن صوارتكين وغيره من أصحاب الفتنة فقتلهم وقتل القاضى المثنى أحمد بن يعقوب وأرسل المقتدر إلى ابن الفرات وكان مختفياً وقلده الوزارة وخلع عليه وفتشوا على المعتز فدلهم غلام لابن الجصاص أنه عند مولاه ومعه جماعة فكبست دار ابن الجصاص وأخذ ابن المعتز منها وحبس إلى الليل وعصرت خصيتاه حتى مات ولف فى زلى وسلم لأهله ونهبت أموال ابن الجصاص وقتل محمد بن داود وزير ابن المعتز ونفى على بن عيسى إلى واسط وسيرت العساكر من بغداد فى طلب الحسين بن حمدان فلم يظفروا به فعادوا فكتب الوزير إلى أبى الهيجاء أخى الحسين بن حمدان وهو الأمير على الموصل يومئذ يأمره بطلب الحسين والإتيان به إلى بغداد فسار خلفه وتبعه إلى حيث سار فكانت بينهما وقائع وأمور يطول شرحها ثم تقدم أبو الهيجاء إلى الوزير فى طلب العفو عن الحسين بن حمدان فأجابه الوزير إلى ذلك وعفا المقتدر عنه وعن آخرين ودخل الحسين بغداد وقام بها إلى أن ولى قم فسار إليها.

وجعل ابن الفرات الوزير يتصرف فى الأمور فبسط العدل والإحسان وأخرج الأرزاق والأموال للعباسيين والطالبيين وفرق الأموال فى القواد وأرضاهم وصرف عنهم ما يكرهون فمالوا إليه وأحبوه، ومما حكى عن مكارم أخلاق ابن الفرات المذكور، أنه كان بينه وبين سليمان بن الحسن بن مخلد مودة وصحبة قديمة فلما دانت للخليفة المقتدر الأمور بعد قتل ابن المعتز واستوزر ابن الفرات عثر ابن الفرات على كتب البيعةلابن المعتز فتاملها فإذا هى بخط سليمان لقرابة كانت بينه وبين ابن الجراح فلم يظهر عليها المقتدر وكتم أمرها عنه وأحسن إلى سليمان وقلده المناصب العالية فلما تمكن وظهرت كلمته سعى بابن الفرات إلى المقتدر وكتب بخطه مطالعة تتضمن ذكر أملاك الوزير وضياعه ومستغلاته وما يتعلق بأسبابه وأخذ الرقعة

ليوصلها إلى الخليفة المقتدر فلم يتهيأ له ذلك وجاء دار الوزير والرقعة معه فسقطت من كمه فظفر بها بعض الكتاب فأعطاها للوزير فلما قرأها تعجب جداً وقبض على سليمان وجعله فى زورق وأحدره إلى واسط ووكل به هناك وصادره فى جميع أمواله ثم أراد العفو عنه فكتب إليه، نظرت أعزك الله فى حقك علىّ وجرمك إلىّ فرأيت الحق موفى على الجرم وتذكرت من سالف خدمتك ما عطفنى عليك وثنانى إليك وأعادنى لك إلى أفضل ما عهدت وأجمل ما ألفت، ثم أطلق له عشرة آلاف درهم وعفا عنه وأكرمه واستعمله ولم تطل وزارة ابن الفرات هذا حتى وشى به الوشاة عند الخليفة المقتدر فقبض عليه واستصفى أمواله وهتك حرمته واعتقله ووكل به ونهبت دور أصحابه ومن يتعلق به ووقعت الفتنة ببغداد لقبضه ولقى الناس شدة عظيمة ثلاثة أيام ثم سكنوا وكانت مدة وزارته هذه ثلاث سنين وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوماً وتولى الوزارة بعده أبو على محمد بن يحيى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان فرتب أصحاب الدواوين وتولى الأمور وجعل يتصرف فيها ولكنه لم يفلح، لأنه كان ضجورا ضيق الصدر مهملاً لقراءة كتب العمال وجباية الأموال وكان يظهر التواضع ويتقرب من العامة والخاصة، وكان إذا رأى جماعة من العامة أو غيرهم يصلون جماعة نزل عن دابته وصلى معهم وإذا سأله أحد حاجة دق صدره. وقال: نعم وكرامة فسماه الناس دق صدره، وقصر فى إطلاق الأموال للجند والقواد فتفرقوا عنه وانحط قدر الوزارة واستصغرها الناس وكان أولاده كثيرو التحكم عليه فكانوا يأخذون الرشاوى ويسألونه قضاء حاجات الراشين لهم فقال فيه بعض الشعراء:

وزير قد تكامل في الرقاعه ... يولي ثم يعزل بعد ساعه
إذا أهل الرشا اجتمعوا لديه ... فخير القوم أوفرهم بضاعه
وليس يلام في هذا بحال ... لأن الشيخ أفلت من مجاعه

ثم زاد الأمر به حتى تحكم أصحابه فكانوا يطلقون الأموال ويفسدون الأحوال فانحلت عقدة الوزارة وضعف أمرها وخرجت الممالك وطمع العمال فى الأطراف فلما زاد الحال أحضر الخليفة الوزير ابن الفرات من محبسه فجعله عنده فى بعض الحجر مكرماً فكان يعرض عليه مطالعات العمال وغير ذلك من الأعمال وأحسن إليه ثم عزل الخاقانى وسلم الوزارة لعلىّ بن عيسى والى مكة فأحسن التصرف وأصلح

الأمور ورتب الأشغال وأطلق الأموال، وعمر المساجد وفرشها ورتب لها المرتبات وأبطل بعض المكوس والمغارم التى أحدثها الخاقانى ثم خلعه وأعاد ابن الفرات ثم خلعه.

ولما كانت سنة ثلاثمائة هجرية جهز المهدى صاحب المغرب عسكرا عظيماً من أفريقية وسيرهم مع ولده أبى القاسم إلى الديار المصرية يريد غزوها وسلخها عن أملاك الخليفة المقتدر، فساروا إلى برقة واستولوا عليها وانحدروا منها إلى مصر فملكوا الإسكندرية ومدينة الفيوم وما بينهما وتصرف أبو القاسم فيما نزل عليه من البلاد وضيق على أهلها وجباهم وزاد فى المغارم والمكوس، فسير إليه الخليفة المقتدر بالله مؤنسا الخادم فى جيش عظيم فحاربهم وطالت الحرب بينهم وما زالت سجالاً حتى أجلاهم مؤنس عن مصر فعادوا إلى المغرب مهزومين فلم تكن إلا سنة سبع وثلاثمائة حتى أعاد المهدى ابنه أبا القاسم إلى مصر فى جيش ضخم للغاية فوصل إلى الإسكندرية فى ربيع الآخر فخرج عامل المقتدر عنها هارباً ودخلها القاسم وأقام بها المرابطين من أصحابه وانحدر إلى مصر فدخل الجيزة وملك الأشمونية ومدنا كثيرة من الصعيد الأوسط، وكتب إلى أهل مكة يدعوهم إلى الدخول فى طاعته فلم يقبلوا منه ووردت بذلك الأخبار إلى بغداد فسير المقتدر مؤنساً الخادم فى جيش لقتال أبى القاسم فوقعت بينهما عدة وقائع وقدم من المغرب ثمانون مركباً لنجدة أبى القاسم بن المهدى فأرست بالإسكندرية وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكتامى وهما من أشجع قواد صاحب المغرب وأعرفهم بفنون الحرب، فخشى الخليفة المقتدر العاقبة وأمر فسيروا إلى الإسكندرية مراكب طرسوس وعدتها خمسة وعشرون مركباً وفيها النفط والعدد ومقدمها أبو اليمن فالتقت بمراكب صاحب المغرب واقتتلوا على رشيد قتالاً عنيفاً فظفر أصحاب مراكب المقتدر وأحرقوا كثيراً من مراكب صاحب المغرب وهلك أكثر من فيها من الجند وأسر منهم خلق وبينهم سليمان الخادم ويعقوب ومات سليمان بالحبس بمصر وحمل يعقوب إلى دار السلام ثم هرب منها وعاد إلى أفريقية وطالت أيام الحرب بين مؤنس الخادم وأبى القاسم بن المهدى ووقع الوباء فى عسكر أبى القاسم فمات منهم كثير فعاد من سلم إلى أفريقية وتبعهم عسكر مصر حتى أبعدوهم وسكنت الفتنة واطمأنت القلوب.

وكثر عزل الخليفة المقتدر للوزراء وكبار الدولة وقواد الجند. فكان يعزل الواحد منهم ويولى غيره ثم لا يلبث أن يخلعه ويولى غيره وهكذا حتى ضجر أصحابه وكرهوه وقامت الوحشة بينه وبين مؤنس الخادم ونوزك صاحب الشرطة وبعض قواده

فتآمروا على خلعه من الخلافة والبيعة لأخيه القاهر بالله محمد بن المعتضد، فخرج مؤنس فى عسكره وخرج معه بقية المشاغبين وأحاطوا بدار الخلافة فتفرق من كان بها مع المقتدر وهرب جميع الخدم والأتباع والوزير أبو على ابن مقلة، ودخل مؤنس الدار وأخرج المقتدر ووالدته وخالته وخواصه من الجوارى وأولاده من دار الخلافة وحملوا إلى دار مؤنس فاعتقلوا بها وأحضروا محمد بن المعتضد وبايعوه بالخلافة ولقبوه القاهر بالله وأحضروا القاضى أبا عمر عند المقتدر ليشهد عليه بالخلع فأشهد عليه القاضى بالخلع فقام ابن حمدان وقال للمقتدر: ياسيدى يعز علىّ أن أراك على هذه الحال. وقد كنت أخافها عليك وأحذرها وأنصح لك وأحذرك عاقبة تقرّب الخدم والنساء منك فتؤثر أقوالهم على قولى وكأنى كنت أرى هذا، وبعد فنحن عبيدك وخدمك ودمعت عيناه وعينا المقتدر بالله وشهد الجماعة على المقتدر بالخلع وأودعوا الكتاب بذلك عند القاضى أبى عمر فكتمه ولم يظهره لأحد وأخرج مؤنس الخادم علىّ بن عيسى من الحبس ورتب أبا علىّ بن مقلة فى الوزارة وأضاف إلى نازوك مع الشرطة حجبة الخليفة وكتب بذلك إلى الآفاق ونهبت دار الخليفة وأخرجوا من قبر لوالدة المقتدر قد بنته لنفسها ستمائة ألف دينار فحملت إلى دار الخلافة.
وكان خلع المقتدر فى النصف من المحرم ثم سكنت الحال وبطل النهب. وقد كان عم بغداد كلها وتطاولت أيدى العامة إلى فعل ما لا خير فيه، ولما تم لنازوك أمر حجبة الخليفة أمر الرجالة المصافية بخلع خيامهم من دار الخلافة وأمر أصحابه أن يقيموا بمكانهم فعظم ذلك على المصافية وتقدّم نازوك إلى خلفاء الحجاب أن لا يمكنوا أحداً من الدخول إلى دار الخليفة إلا من له مرتبة، فلما كان يوم الاثنين سابع عشر المحرم بكر الناس إلى دار الخلافة ليروا موكب الخليفة الجديد فامتلأت المراحات والرحبات والطرق وشاطىء دجلة بالناس وكثر الزحام واختلط الناس بعضهم ببعض وحضر الرجالة المصافية شاكى السلاح يطالبون بحق البيعة وجوامك سنة، وكان الحامل لهم على ذلك غيظهم مما فعله بهم نازوك صاحب الشرطة والحجابة من خلع خيامهم وإخراجهم من دار الخلافة، ثم صاحوا وارتفعت زعقاتهم فسمع بها نازوك فخاف أن يقع بينهم وبين أصحابه فتنة وقتال فتقدم إلى أصحابه وأمرهم أن لا يتعرضوا لهم ولا يقاتلوهم فزاد شغبهم وهجموا يريدون صحن الدار فلم يمنعهم أصحاب نازوك فدخلوا جميعاً وبأيديهم السلاح ووصلت أصواتهم إلى مجلس القاهر بالله وعنده أبو علىّ بن مقلة الوزير ونازوك: وأبو الهيجاء بن حمدان فقال الخليفة لنازوك أخرج إلى أولئك القوم فسكنهم وطيب قلوبهم فخرج إليهم

وهو مخمور قد شرب طول ليلته فتقدّم إليه الرجالة ليشكوا حالهم ويطلبوا ما لهم من الجوامك فلما رآهم يقصدونه وبأيديهم السيوف خافهم على نفسه فهرب فطمعوا فيه وتبعوه فانتهى به الهرب إلى باب مسدود فأدركوه عنده فقتلوه بالسيوف وقتلوا خادمه وصاحوا يامقتدر، يامنصور، فهرب كل من كان فى الدار من الوزير والحجاب وسائر الطبقات وبقيت الدار فارغة فحملوا نازوك وصلبوه هو وخادمه أمام دجلة ثم ساروا إلى دار مؤنس وهم فى ضجة شديدة وزعقات متتابعة وطالبوه بالمقتدر وغلمانه وأراد أبو الهيجاء بن حمدان أن يخرج من الدار فتعلق به القاهر. وقال أنا فى ذمامك فأخذ بيده وهمّا بالخروج فوجدا الأبواب مغلقة ورأى الظاهر كثرة الجمع فاشتدّ خوفه وحار فى أمره واختفى فى بستان الدار ودخل بعض الخدم فقتلوا أبا الهيجاء واحتزوا رأسه وحملوها واشتدّت زعقات الرجالة المصافية على مؤنس الخادم فقال: وماذا تريدون؟ قالوا: نريد المقتدر بالله الساعة فأمر بتسليمه إليهم فلم يقبل المقتدر الخروج وخاف على نفسه وامتنع فدخلوا عليه وحملوه وأخرجوه فحمله الرجالة على رقابهم حتى أدخلوه دار الخلافة فسأل عن أخيه القاهر وابن حمدان فقيل له هما حيان، فكتب لهم أماناً بخطه وأمر خادما بالسرعة بكتاب الأمان لئلا يحدث على أبى الهيجاء حادث فجىء له برأس أبى الهيجاء فأسف عليه كثيراً وأحضروا إليه القاهر فأدناه منه وأجلسه بجانبه وقبل جبينه وقال له: ياأخى قد علمت أن لا ذنب لك وأنك قهرت ولو لقبوك بالمقهور لكان أولى من القاهر. والقاهر يقول: ياأمير المؤمنين نفسى نفسى أذكر الرحم التى بينى وبينك فقال له المقتدر: لا بأس عليك ولا تخف وأقسم له الإيمان فسكن خوفه واطمأن قلبه وأخرجوا رأس نازوك ورأس أبى الهيجاء وشهرا ونودى عليهما هذا جزاء من عصى مولاه وأحضر المقتدر أبا علىّ بن مقلة وأعاده إلى وزارته وكتب إلى الآفاق بما تجدد له وسكنت الفتنة وأطلق للجند أرزاقهم وزادهم وأتم أعطياتهم قالوا وأمّن مؤنساً الخادم ولم يفعل به شيئاً لأن إرجاع المقتدر إلى منصب الخلافة بعد خلعه كان بإرشاد مؤنس وتدبيره، وجعل الخليفة المقتدر يتصرف فى الأمور ويعزل ويولى فى الوزراء وأصحاب الرتب العالية ولم يقلع عما كان فيه حتى وقعت الوحشة بينه وبين مؤنس الخادم بسبب ذلك وحقد مؤنس على المقتدر وناواه الشر وجعل يراقب الفرص حتى فرغ بيت المال ولم يبق فيه ما يسدّ طلبات الجند وأرزاقهم فأشار عليهم مؤنس بالخروج وطلب أرزاقهم فخرجوا جميعا وشغبوا وطلبوا من الخليفة المال فخاف وأراد أن ينحدر إلى واسط ويكاتب العساكر من جهة البصرة والأهواز وفارس وكرمان

وغيرها ويترك بغداد لمؤنس وأصحابه إلى أن يجتمع به العسكر ويعود إلى قتاله فردوه عن ذلك وزينوا له البقاء والخروج بمن عنده من الجند لقتال مؤنس وأصحابه، فخرج كارهاً وبين يديه الفقهاء والقراء معهم والمصاحف مشهورة وعليه البردة والناس حوله فوقف على تل عال بعيد عن المعركة فأرسل قواد أصحابه يسألونه التقدم وأكثروا الرسل وهو واقف فلما ألحوا عليه تقدم من موضعه فانهزم أصحابه قبل أن يقترب منهم ولقيه على بن بليق وهو من أصحاب مؤنس فترجل وقبل الأرض، وقال له: إلى أين تمضى ارجع فلعن الله من أشار عليك بالحضور فأراد الرجوع فلقيه قوم من المغاربة والبربر فتركه علىّ معهم وسار عنهم فشهروا عليه سيوفهم فقال ويحكما أنا الخليفة فقالوا قد عرفناك ياسفلة أنت خليفة إبليس تبذل فى كل رأس خمسة دنانير وفى كل أسير عشرة دنانير. وكان قبل هزيمة أصحابه نادى مناديه بذلك ثم ضربه أحد المغاربة بسيفه على عاتقه فسقط على الأرض وذبحه بعضهم، قيل: أن على بن بليق هو الذى غمز عليه فقتلوه ورفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذوا جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوف العورة إلى أن مرّ به رجل من الاكرة فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وأخفى قبره. وكان قتله وقت صلاة العصر يوم الأربعاء لثلاث ليال بقين من شوال سنة عشرين وثلاثمائة هجرية أي نحو سنة أربع وستين وتسعمائة ميلادية وكان وزيره يومئذ أبا الفتح الفضل بن جعفر، ذكر أن الفضل المذكور أخذ الطالع فى وقت ركوب المقتدر بالله إلى الواقعة التى قتل فيها فقال له المقتدر: أىّ وقت هو؟ قال: وقت الزوال فقطب المقتدر وأراد أن لا يخرج فلم يقدر على ذلك فكان آخر العهد به من ذلك الوقت، قال بعض الكتاب: وهذا دليل القائلين أن كل سادس من بنى العباس مخلوع مقتول، قلت فكان السادس منهم محمد بن هارون مخلوع والسادس الآخر المستعين والسادس الآخر المقتدر بالله وهو ثامن عشرهم وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وستة عشر يوماً وله من العمر ثمان وثلاثون سنة وخمسة عشر يوماً وقيل غير ذلك، وكان كثير الطاعة والانقياد إلى النساء والخدم يأخذ بأقوالهم ويعمل بمشورتهم، قال صاحب النشوان وغيره أن صافيا مولى المقتدر. قال: مشيت يوماً بين يدى المعتضد يعنى أبا المقتدر بالله وهو يريد دار الحرم فلما بلغ باب دار المقتدر وقف وتسمع وتطلع من خلل فى الستر فإذا هو بالمقتدر وله إذ ذاك خمس سنين أو نحوها وهو جالس وحوله قدر عشرة وصائف من أترابه فى

قدر سنه وبين يديه طبق فضة فيه عنقود عنب في وقت فيه العنب عزيز جداً والصبي يأكل عنبة واحدة ثم يطعم الجماعة عنبة عنبة على الدور حتى إذا بلغ الدور إليه أكل واحدة مثل ما أكلوا حتى فني العنقود والمعتضد يتميز غيظاً ثم رجع ولم يدخل الدار فرأيته مهموماً فقلت يامولاي ما سبب ما فعلت، فقال: ياصافي والله لولا العار والنار لقتلت هذا الغلام اليوم يعني المقتدر فإن في قتله صلاحاً للأمة فقلت يامولاي ما شأنه وأيّ شيء عمل أعيذك بالله يامولاي من هذا، فقال: ويحك أنا أبصربما أقول أنا رجل قدست الأمور وأصلحت الدنيا بعد فساد شديد ولابد من موتي وأنا أعلم بعدي لا يختارون أحداً على ولدي وأنهم سيجلسون ابني عليا يعني المكتفي وما أظن عمره يطول للعلة التي به يعني الخنازير التي كانت في حلقه فيتلف عن قريب ولا يرى الناس إخراجها عن ولدي ولا يجدون بعده أمثل من جعفر يعني المقتدر وهو صبي وله من الطبع والسجايا هذا الذي رأيته من أنه أطعم الوصائف مثل ما أكل وساوى بينه وبينهن في شيء عزيز في العالم والشح على مثله في طباع الصبيان غالب فتحتوي عليه النساء لقرب عهده بهن فيقسم ما جمعته من الأموال كما قسم العنب ويذر ارتفاع الدنيا فتضيع الثغور وتعظم الأمور وتخرج الخوارج وتحدث الأسباب التي يكون منها زوال الملك عن بني العباس رأساً فقلت: يامولاي يبقيك الله حتى ينشأ في حياتك ويصير كهلا في أيامك ويتأدب بأدبك ويتخلق بأخلاقك ولا يكون هذا الذي ظننت، فقال: ويحك احفظ عني ما أقول لك فأنه كما قلت قال ومكث يومه مهموماً مغموماً وضرب الدهر ضرباته ومات المعتضد وولي المكتفي ولم يطل عمره فمات وولي المقتدر فكانت الصورة كما قال مولاي المعتضد بعينها فكنت كلما ذكرت قوله أعجبت منه فوالله لقد وقفت على رأس المقتدر وهو في مجلس لهو فدعا بالأموال فأخرجت إليه ووضعت البدر بين يديه فجعل يفرقها على الجواري والنساء ويلعب بها ويمحقها ويهبها ففكرت قول مولاي المعتضد اهـ.

واستعمل المقتدر علي مصر في خلافته أبا منصور تكين الخاص ثم صرفه في سنة ثلاث وثلاثمائة وولى ذكاء أبا الحسن ثم صرف وأعيد تكين ثم صرف سنة تسع وولى هلال ابن بدر ثم صرف في سنة إحدى عشرة وولى أحمد بن كيغلغ ثم صرف من عامه وأعيد تكين الخاص فأقام إلى أن مات سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة في خلافة القاهر بن أحمد المعتضد كما سيذكر في محله.

(الفصل التاسع عشر)

(في خلافة القاهر بالله محمد بن أحمد المعتضد)

ثم قام بالأمر بعد المقتدر أخوه أبو منصور محمد بن أحمد المعتضد بالله بويع له بالخلافة ببغداد لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلاثمائة هجرية أى نحو سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ميلادية ولقب بالقاهر وكان الذى أشار بالبيعة له أبو يعقوب إسحق بن إسماعيل النوبختى وما زال بمؤنس الخادم حتى استماله إلى ذلك فأحضروه وبايعوه وكان مؤنس يخافه ويعرف شره فلما تمت له استحلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق ولعلى بن بليق وأخذوا خطه بذلك تحرزا من بطشه وأرسل القاهر إلى فارس فى طلب ابن مقلة فحضر فاستوزره واستحجب على بن بليق وجعل يتصرف فى الأمور فاحضر والدة المقتدر وطالبها بما عندها من الأموال فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشيء من المال والجوهر فضربها أشد ما يكون من الضرب وعلقها برجلها وضرب المواضع الغامضة من بدنها فحلفت أنها لم تملك غير ما أطلعته عليه، وقالت: لو كان عندى مال لما أسلمت ولدى للقتل ثم صادر جميع حاشية المقتدر وأصحابه وحل جميع أوقاف والدة المقتدر وباعها وقد كانت موقوفة على البر والخير وشدد فى البحث على أولاد المقتدر فكبس أعوانه الدور وفتشوها وأزعجوا الناس وما زالوا حتى عثروا على أبى العباس الراضى وهرون وعلى والعباس وإبراهيم والفضل فحملوهم إلى دار الخلافة فصودروا على مال كثير، ثم وكل بهم من يناظرهم واشتد القاهر بالله على أصحاب المراتب فى دولته وأهل الوظائف فى بابه ولا سيما مؤنس الخادم وابن مقلة وابن بليق فكبر عليهم الأمر وخشوا العاقبة فأوعز مؤنس إلى أصحابه أن يأتوه بأخبار القاهر ووكل ابن بليق على دار القاهر أحمد بن زيرك وأمره بالتضييق على القاهر وتفتيش كل من يدخل إلى الدار ويخرج منها وأن يكشف وجوه النساء المتنقبات وإن وجد مع أحد رقعة دفعها إلى مؤنس الخادم ففعل ذلك وبالغ فى التشديد وأخرجوا من كان محبوساً فى دار الخلافة وبينهم والدة الخليفة المقتدر فأخذها ابن بليق وتركها عند والدته وقد أشتدت بها علتها من ضرب القاهر فماتت فى جمادى الآخرة وكانت مكرمة مرفهة فدفنت فى تربتها بالرصافة فاضطرب القاهر من ذلك وعلم بأن ذلك إنما هو برأى مؤنس وابن مقلة فأخذ فى تدبير الحيلة وقد تمكن من إلقاء الفتنة بين الأحزاب وما زال حتى

افتتنوا وتفرّق عن مؤنس أصحابه من طوائف الجند الذين كان معتمده عليهم ثم قبض على مؤنس وحبسه فى دار الخلافة وأراد القبض على ابن مقلة فاختفى فقلد الخليفة الوزارة أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله وختم على دور مؤنس الخادم وابنه ودور ابن مقلة وأحمد بن زيرك والحسن بن هرون وجميع من كان له يد فى المشاغبة ونقل دوابهم ووكل بنسائهم وأمر بإحراق دار ابن مقلة فأحرقت ونهبت دور أتباعهم ونادى على المستترين منهم وإباحة مال من أخفاهم وهدم داره واجتهد فى طلب أحمد بن المكتفى فظفر به فبنى عليه حائطاً وهو حى فمات وقد كانوا على عزم البيعة له وخلع المقتدر قبل ظهور أمرهم بأيام.

ولما طال على مؤنس الحبس دس إلى أصحابه من يحرضهم على الخروج على الخليفة والنداء بشعار مؤنس فثاروا وتبعهم سائر الجند وشغبوا وأحرقوا روشن دار الوزير أبى جعفر وقالوا: لا نرضى إلا بإطلاق مؤنس فلما عظم شغبهم دخل القاهر على علىّ بن بليق فأمر به فذبح واحتز رأسه فوضعوه فى طشت ثم مضى القاهر والطشت يحمل بين يديه حتى دخل على بليق فوضع الطشت بين يديه وفيه رأس ابنه فلما رآه بكى وأخذ يقبله ويرتشفه فأمر به القاهر فذبح أيضاً وجعل رأسه فى طشت وحمل بين يدى القاهر حتى دخل على مؤنس فوضعهما بين يديه فلما رأى الرأسين تشهد واسترجع ولعن قاتلهما، فقال القاهر: جروا برجل الكلب الملعون فجروه وذبحوه وجعلوا رأسه فى طشت وأمر بالرؤس فطيف بها فى جانبى بغداد ونودى عليها هذا جزاء من يخون الإمام ويسعى فى فساد دولته ثم أعيدت ونظفت وجعلت فى خزانة الرؤس كما هى العادة فى مثل هذه الأحوال عند الخلفاء، وكثر عسف القاهر بالله وسفكه للدماء ونكثه للعهود والإيمان التى حلفها إلى كبار العسكر الساجية وغيرهم من الذين قاموا لنصرته فأبغضوه وعملوا على خلعه وزادت رغبتهم فى ذلك بظهور علىّ بن مقلة بينهم والاجتماع بهم ليلاً تارة فى زى أعمى وتارة فى زى مكدى وتارة فى زى امرأة ويغريهم به ويخوّفهم من شره ويذكر لهم غدره ونكثه وشره وخبثه وبالغ فى تحذير سيما كبير العسكر الساجية وتخويفه حتى بادروا جميعاً وهموا بخلعه فجمع سيما جميع العسكر الساجية وأعطاهم العدّة والسلاح وتحالفوا مع العسكر الحجرية أيضاً على أن يكونوا جميعاً على قلب رجل واحد وقتل من خالف منهم فاتصل ذلك بالقاهر ووزيره الخصيبى فأعملا الحيلة على إفساد أمرهم فلم يفلحا فلما كان يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى اجتمع الساجية والحجرية ومقدّمهم سيما وزحفوا إلى دار الخلافة ووكل سيما بأبوابها

من يحفظها وبقى هو على باب العامة وهجموا على الدار من سائر الأبواب وكان القاهر نائماً مخموراً قد شرب أكثر ليلته فلما علا الضجيج وتتابعت زعقات الجند استيقظ مخمورا وطلب بابا يهرب منه فقيل له أن الأبواب جميعها مشحونة بالرجال فهرب إلى سطح حمام ودخل الجند فلم يجدوه فأخذوا الخدم وسألوهم عنه فدلوهم عليه فقصدوه فوجدوه وبيده السيف فاجتهدوا به فلم ينزل لهم فتلاينوا له فلم يقبل منهم. وقال: من صعد إليّ قتلته فأخذ أحدهم سهما وقال إن نزلت وإلا وضعته فى نحرك فنزل حينئذ إليهم فأخذوا وساروا به إلى الحبس فحبسوه ثم سملوا عينيه وهرب وزيره الخصيبى ولبث القاهر معتقلاً إلى أن تمت البيعة لأبى العباس أحمد بن المقتدر بالله ثم كان من أمره ما سيذكر فى محله إن شاء الله.

وكان القاهر كثير التقلب سريع الغضب شديد البطش سفاكاً للدم فخافه الناس وخشوا سطوته واتخذ حربة عظيمة يحملها فى يده إذا سعى فى الدار ويطرحها بين يديه فى حال جلوسه ويباشر الحرب بها لمن يريد قتله. وكان قليل التثبت فى أمره، قال محمد بن علىّ العبدى الخراسانى الإخبارى: وكان القاهر به آنسا، قال: خلا بى يوماً فقال أصدقنى أو هذه وأشار إلىّ بالحربة فرأيت والله الموت عياناً بينى وبينه فقلت: أصدقك ياأمير المؤمنين، فقال لى: انظر يقولها ثلاثاً فقلت: نعم ياأمير المؤمنين قال: عما أسألك عنه ولا تغيب عنى شيئاً ولا تحسن القصة ولا تسجع فيها ولا تسقط منها شيئاً، قلت: نعم ياأمير المؤمنين، قال: أنت علامة بأخبار بنى العباس من أخلاقهم وشيمهم من أبى العباس فمن دونه، فقلت على أن لى الأمان ياأمير المؤمنين، قال: ذلك لك قال: قلت أما أبو العباس السفاح فكان سريعاً إلى سفك الدماء واتبعه عماله فى المشرق والمغرب فى فعله واستنوا بسيرته مثل محمد بن الأشعث بالغرب وصالح بن علىّ بمصر وحازم بن جذيمة وحميد بن قحطبة، وكان مع ذلك بحزا سمحا وصولاً جوادا بالمال وسلك من ذكرنا ممن كان فى عصره سبيله وذهبوا مذهبه مؤتمين به، قال وأخبرنى عن المنصور، قلت: الصدق ياأمير المؤمنين، قال: الصدق، قلت: كان والله أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس بن عبد المطلب وبين آل أبى طالب وقد كان قبل ذلك أمرهم واحداً وكان أوّل خليفة قرّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى المنجم وأسلم على يديه وهو أبو هؤلاء النوبختية وإبراهيم الفزارى المنجم صاحب القصيدة فى النجوم وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك وعلىّ بن عيسى الأسطر لأبى المنجم وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الأعجمية إلى العربية منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب

السندهند وترجمت له كتب أرسطاطاليس من المنطقيات وغيرها وترجم له كتاب المجسطي لبطليموس وكتاب الأرثماطيقى وكتاب إقليدس وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية، وخرجت إلى الناس فنظروا فيها وتعلقوا إلى علمها، وفى أيامه وضع محمد بن إسحق كتاب المغازى والسير وأخبار المبتدأ ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مصنفة وكان أوّل خليفة استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم فى مهماته وقدّمهم على العرب فاتخذت ذلك الخلفاء من بعده من ولده فسقطت وبادت العرب وزال بأسها وذهبت مراتبها وأفضت الخلافة إليه وقد نظر فى العلوم وقرأ المذاهب وارتاض فى الآراء ووقف على النحل وكتب الحديث فكثرت فى أيامه روايات الناس واتسعت عليهم علومهم.

قال القاهر: قد قلت فأحسنت وعبرت فبينت فأخبرنى عن المهدى كيف كانت خلافته، قلت: كان سمحاً سخياً كريماً جواداً فسلك الناس فى عصره سبيله وذهبوا فى أمرهم مذهبه واتسعوا فى مساعيهم وكان من فعله فى ركوبه أن يحمل معه بدر الدنانير والدراهم فلا يسأله أحد إلا أعطاه وإن سكت ابتدأه المفرّق بين يديه وقد تقدّم بذلك إليه وأمعن فى قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم فى أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته لما انتشر من كتب مانى وابن دميان ومرقيون مما نقله عبدالله بن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية وما صنف فى ذلك ابن أبى العرجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانية والدنساقية والمرقونية فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم فى الناس، وكان المهدى أوّل من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم وأقاموا البراهين على المغارين وأزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكرين، وشرع فى بناء المسجد الحرام ومسجد النبىّ ﷺ على ما هما عليه إلى هذه الغاية وبنى بيت المقدس، وقد كان هدمته الزلازل، قال: فأخبرنى عن الهادى على قصر مدّته كيف كانت أخلاقه وشيمه، قلت: كان جباراً عظيماً وأوّل من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والأعمدة المشهورة والقسىّ الموترة فسلكت عماله طريقه ويمموا منهجه وكثر السلاح فى عصره، قال: لقد أجدت فى وصفك وبالغت فيما ذكرت من قولك فأخبرنى عن الرشيد كيف كانت طريقته، قلت: كان مواظباً على الحج والغزو واتخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور فى طريق مكة وأظهر ذلك بها وبمنى وعرفات ومدينة النبىّ ﷺ فعم الناس إحسانه مع ما قرن به من عدله، ثم بنى الثغور ومدّن المدن

وحصَّن فيها الحصون مثل: طرسوس وأدنة وعمر المصيصة ومرعش وأحكم بناء الحرب وغير ذلك من دور السبيل والمواضع للمرابطين واتبعه عماله وسلكوا طريقته وتبعته رعيته مقتدية بعمله مستنة بإمامته فغمط الباطل وأظهر الحق وأنار الإسلام وبرز على سائر الأمم وكان أحسن الناس فى أيامه فعلاً أم جعفر زبيدة بنت جعفر ابن المنصور لما أحدثته من بناء دور السبيل بمكة واتخاذ المصانع والبرك والآبار بمكة وطريقها المعروف إلى هذه الغاية، وما أحدثته من الدور للتسبيل بالثغر الشامى وطرسوس وما أوقفت على ذلك من الوقوف وما ظهر فى أيامه من فعل البرامكة وجودهم وأفضالهم وما اشتهر عنهم من أفعالهم، وكان الرشيد أول خليفة لعب بالصولجان فى الميدان ورمى بالنشاب فى البرجاس ولعب بالإكرة والطبطاب وقرب الحذاق فى ذلك فعم الناس ذلك الفعل وكان أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بنى العباس والنرد وقدم اللعاب وأجرى عليهم الرزق فسمى الناس أيامه لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها أيام العروس وله كثير مما يتجاوز النعت ويتفاوت فيه الوصف، قال القاهر: فأراك قد قصرت فى تفصيل أم جعفر فلم ذلك، قلت: ياأمير المؤمنين ميلاً إلى الاختصار وطلباً للإيجاز قال فتناول الحربة وهزها فرأيت الموت الأحمر فى طرفها ثم برق عينه مع ذلك فاستسلمت وقلت: هذا ملك الموت ولم أشك أنه يقبض روحى فأهوى بها نحوى فزغت منه فاسترجع وقد أخطأتنى فقال ويلك أبغضت ما فيه عيناك ومللت الحياة قلت : ما هو ياأمير المؤمنين، قال: أخبار أم جعفر زدنى منها، قلت: نعم ياأمير المؤمنين كان من فعلها وحسن سيرتها فى الجد والهزل ما برّزت فيه عن غيرها فأما الجد والآثار الجميلة التى لم يكن فى الإسلام مثلها مثل حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز فإنها حفرتها ومهدت الطريق لمائها فى كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثنى عشر ميلاً إلى مكة فكان جملة ما أنفق عليها مما ذكر وأحصى ألف ألف وسبعمائة ألف دينار وما قدمت ذكره من المصانع والدور والبرك والآبار بالثغور والحجاز وإنفاقها الألوف على ذلك دون ما كان فى وقتها من البذل وما عم أهل الفاقة من المعروف والخصب. وأما الوجه الثانى مما تباهى به الملوك فى أعمالهم وينعمون به فى أيامهم ويصنونون به دولهم ويدوّن فى أفعالهم وسيرهم فهو: أنها أوّل من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر وصنع لها الرفيع من الوشى حتى بلغ الثوب من الوشى الذى اتخذ لها خمسين ألف دينار وهى أول من اتخذ الشاكرية من

الخدم والجوارى يختلفون على الدواب فى جهاتها ويذهبون فى حوائجها برسائلها وكتبها وأول من اتخذ القباب الفضة والآبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشى والسمور والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر وشمع العنبر وتشبه الناس فى سائر أفعالهم بأم جعفر ولما افضى الأمر إلى ولدها ياأمير المؤمنين قدم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم ككوثر وغيره من خدمه فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه وعممت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق فبانت قدودهن وبرزت أردافهن وبعثت بهن إليه فاختلفن بين يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه إليهن وأبرزهن للناس من الخاص والعام واتخذ الناس من الخاصة والعامة الجوارى المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق وسموهن الغلاميات، فلما سمع القاهر ذلك الوصف ذهب به الفرح والطرب والسرور ونادى بأعلى صوته ياغلام قدح على وصف الغلاميات فبادر إليه جوار كثيرة قدّهن واحد توهمتهن غلماناً بالقراطق والأقبية والطرر ومناطق الذهب والفضة فأخذ الكأس بيده فأقبلت أتأمل صفاء جوهر الكأس ونورية الشراب وشعاعه وحسن أولئك الجوارى والحربة بين يديه وأسرع فى شربه فقال: هيه، قلت: نعم ياأمير المؤمنين. ثم أفضى الأمر إلى المأمون فكان فى بدء أمره لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره يستعمل النظر فى أحكام النجوم وقضاياها وينقاد إلى موجباتها ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كاردشير ابن بابك واجتهد فى قراءة الكتب القديمة وأمعن فى دراستها وواظب على قراءتها فتفنن فى فهمها وبلغ درايتها فلما كان من الفضل بن سهل ذى الرياستين ما اشتهر وقدم العراق فانصرف عن ذلك كله وأظهر القول بالتوحيد والوعد والوعيد وجالس المتكلمين وقرّب إليه كثيراً من الجدليين والنظارين كأبى الهذيل وأبى إسحق وإبراهيم ابن سيار النظام وغيرهم ممن وافقهم وخالفهم وألزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق فرغب الناس فى صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ووضع كل فريق منهم كتبا ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله وكان أكثر الناس عفوا وأشدهم احتمالاً وأحسنهم مقدرة وأجودهم بالمال الرغيب وأبذلهم للعطايا وأبعدهم عن التسافه وأتبعه وزراؤه وأصحابه فى فعله وسلكوا سبيله وذهبوا مذهبه، ثم المعتصم فإنه ياأمير المؤمنين سلك فى النحلة رأى أخيه المأمون

وغلب عليه حب الفروسية والتشبه بالملوك الأعاجم فى الآلة ولبس القلانس والشاشيات فلبسها الناس اقتداء بفعله وائتماما به فسميت المعتصميات وعم الناس أفضاله وأمنت به السبل فى أيامه وشمل إحسانه، ثم هارون بن محمد الواثق فإنه اتبع ديانة أبيه وعمه وعاقب المخالف وامتحن الناس وكثر معروفه وأمر القضاة فى سائر الأمصار أن لا يقبلوا شهادة من خالفه وكان كثير الأكل واسع العطاء سهل الانقياد متحببا إلى رعيته ، ثم المتوكل ياأمير المؤمنين فإنه خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد ونهى عن الجدل والمناظرة فى الآراء وعاقب عليه وأمر بالتقليد وأظهر الرواية للحديث فحسنت أيامه وانتظمت دولته ودام ملكه وغير ذلك ياأمير المؤمنين مما اشتهر من أخلاقه، فقال القاهر: قد سمعت كلامك وكأنى مشاهد للقوم على ما وصفت معاين لهم فيما ذكرت ولقد سرنى ما سمعت منك ولقد فتحت أبواب السياسة وأخبرت عن طرق الرياسة قال المحدث: ثم أمر لى بجائزة عجل لى عطاءها فى وقتها، ثم قال لى: إذا شئت فقم فقمت وقام على أثرى بحربته فخيل لى والله أنه يرمينى بها من ورائى ثم عطف نحو دار الخدم فما مضت إلا أيام يسيرة حتى كان من أمره ما ظهر اهـ.

قال ابن البطريق: فى تاريخه وكان القاهر قد ارتكب أموراً قبيحة لا يسمع بمثلها فى الإسلام وذكر منها طرفا طويلاً أضربنا عن إيراده هنا، وحكى أن رجلاً قال صليت فى جامع المنصور ببغداد فإذا أنا بإنسان عليه جبة غابية وقد ذهب وجهها وبقى بعض قطن بطانتها وهو يقول: أيها الناس تصدّقوا علىّ بالأمس كنت أمير المؤمنين وأنا اليوم من فقراء المسلمين فسألت عنه فقيل لى أنه القاهر بالله. اهـ.

قلت: وفى هذه الحكاية تذكرة وعبرة والله ليس بظلام للعبيد.

واستعمل القاهر بالله على ديار مصر فى خلافته بعد موت تكين الخاص سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة محمدا ابنه وصير إليه بتنفيذ الولاية واستقرارها فخرج عليه الجند وشقوا عصا الطاعة فقاتلهم محمد بن تكين واشتدّت الفتنة وكادت تعم البلاد وكثر شغب الغوغاء وتطاولت أيديهم إلى النهب والسلب وذهب الأمن وكثر الخوف وانكمش الناس بمصر أياما حتى ظفر محمد بالخوارج وأرجع الأحزاب إلى الطاعة فلم تستقر به الولاية حتى صرف وولى أبو بكر محمد بن طغج الملقب بالإخشيد ثم صرف من عامه وأعيد أحمد بن كيغلغ إلى أن صرف سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة فى خلافة الراضى بالله كما سيذكر فى محله إن شاء الله.

(الفصل العشرون)

(في خلافة أبي العباس أحمد الراضي بالله بن المقتدر)

ثم قام بالأمر بعد القاهر ابن أخيه أبو العباس أحمد الراضى بالله بن المقتدر بن المعتضد بويع له بالخلافة يوم خلع عمه القاهر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة هجرية أى سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ميلادية فاستوزر علىّ بن مقلة وأطلق كل من كان فى حبس القاهر. وكان قبل توليته محبوساً هو ووالدته فى حبس القاهر فأخرجوه وأجلسوه على سرير الخلافة يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى ولقبوه بالراضى بالله وبايعه القواد والناس وجعل يتصرف فى الأمور واستقدم علىّ بن عيسى وأخاه عبد الرحمن وأدناهما منه وأخذ بمشورتهما وهم بإعطاء الوزارة إلى علىّ فامتنع لشيخوخته وأشار بابن مقلة فاستحضر ووليها بعد أن أرسل يؤمنه فأحسن ابن مقلة التدبير وأعاد الأمن إلى ربوع الخلافة وضم إليها المشاغبين والخوارج وزاد فى تمكين صلاتها مع الروم وغيرهم، ولم يمض إلا القليل حتى ظهر ابن رائق وغلب على الراضى وتمكن من مسند الخلافة فصارت الكلمة له فلم يبق للوزير ابن مقلة من الأمر شئ فوقعت الوحشة بينه وبين ابن رائق واستحكم الخلاف فجعل ابن مقلة يدبر على هلاك ابن رائق وهم بإجراء ذلك فمنعه منها ظهور فتنة الحنابلة ببغداد وذلك أن جماعة الحنابلة قويت شوكتهم وعظمت عصابتهم فجعلوا يبالغون فى إظهار عقيدتهم ويسوقون الناس كرهاً إلى احترام شيعتهم والعمل بقولهم فكانوا يكبسون دور العامة وقواد الجند فإن وجدوا نبيذا أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء، واعترضوا الناس فى بيعهم وشرائهم ومنعوا مشى الرجال مع النساء والصبيان فإذا رأوا أحداً من الناس مع امرأة أو صبىّ سألوه عن الذى معه من هو فأخبرهم وإلا ضربوه وخرجوا يوماً على صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة وكادوا يبطشون به جهاراً فاضطربت بغداد من فعالهم وضج الناس فركب بدر الخرشنى وهو صاحب الشرطة المذكور ونادى فى جانبى بغداد فى أصحاب أبى محمد البربهارى بأن لا يجتمع من الحنابلة اثنان ولا يناظرون فى مذهبهم ولا يصلى منهم إمام إلا إذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى صلاة الصبح والعشاءين فلم يفد فيهم وزاد شرهم وكثر تعرضهم للناس وعظمت فتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون المساجد وكانوا إذا مر بهم شافعى المذهب أغروا به العميان

فيقومون عليه ويضربونه حتى يكاد يموت فخاف الراضى شر العاقبة وأخرج توقيعه بما يقرأ على الحنابلة وهو ينكرّ عليهم فعلهم ويقبح عليهم اعتقاد التشبيه وغيره فكان منه قوله: إنكم معاشر الحنابلة تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم الرذلة على هيئته وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين المذهبين والشعر القطط والصعود إلى السماء والنزول إلى الدنيا تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ثم طعنكم على خيار الأئمة ونسبتكم شيعة آل محمد ﷺ إلى الكفر والضلال ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن وإنكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله ﷺ وتأمرون بزيارته وتدّعون له معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء فلعن الله شيطاناً زين لكم هذه المنكرات وما أغواه وأعلموا أن أمير المؤمنين يقسم بالله قسماً جهداً إليه يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقكم ليوسعنكم ضرباً وتشريداً وقتلاً وتبديداً وليستعملن السيف فى رقابكم والنار فى منازلكم ومحالكم . اهـ.

فخافوا عند ذلك وانكمشوا ولم يحركوا يومئذ ساكناً فلما سكنت الحال عاد ابن مقلة إلى مشاغبة ابن رائق وكاتب الخليفة الراضى فى أمر هلاك ابن رائق وحبب له ذلك فوافقه أوّلاً ثم خالفه وأظهر خطه إلى ابن رائق ثم أمر به فقطعت يده ثم عولج فبرئ فعاد يكاتب الراضى ويطلب الوزارة ويقول: إن قطع يده لم يمنعه من عمله وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب واستوزر الراضى بعده عبد الرحمن بن عيسى وسلم إليه ابن مقلة فصادره حتى استصفى ماله وخلع بعد بدر الخرشنى من الشرطة فلم تطل أيام عبدالرحمن وظهر عجزه وعدم فلاحه فضاق عليه أمر الوزارة واستعفى فلما ظهر عجزه إلى الخليفة الراضى ووقوف أمور الخلافة قبض عليه فصادره على مائة ألف دينار وصادر أخاه عليا بسبعين ألف دينار وكان ابن مقلة يدعو على من ظلمه وقطع يده فأوصلوا خبره إلى الراضى وإلى ابن رائق فأمرا بقطع لسانه ثم نقلوه إلى محبس ضيق وألقوه فيه فأصابه ذرب فى الحبس ولم يكن معه من يخدمه فآل به الحال إلى أن كان يستقى الماء من البئر بيده اليسرى ويمسك الحبل بفيه وما زال على هذا الحال من الشدة والضيق حتى مات ودفن بدار الخليفة، ثم أن أهله نبشوه ودفنوه فى داره ثم نبش ونقل إلى دار أخرى، قال بعض الكتاب: ومن العجيب أنه ولى الوزارة ثلاث دفعات ووزر لثلاث خلفاء وسافر ثلاث سفرات اثنتين

منفياً إلى شيراز وواحدة فى وزارته إلى الموصل ودفن بعد موته ثلاث مرات وخص به من خدمه ثلاث وهو من عجيب الاتفاق.

وكان القاهر قد عمد إلى كثير من الأموال عند قتله لمؤنس الخادم وبليق وابنه علىّ وغيرهم فغيبها كما تقدم القول، فلما قبض عليه وسملت عيناه وأفضت الخلافة إلى الراضى وطولب القاهر بالأموال أنكر أن يكون عنده شئ من ذلك فأوذى وعذب بأنواع من التعذيب وكل ذلك لا يزيده إلا إنكاراً فأخذه الراضى وقرّبه وأدناه وطالت مجالسته إياه وإكرامه له وأعطاه حق العمومة والسن والتقدم فى الخلافة ولاطفه وأحسن إليه غاية الإحسان، وكان للقاهر فى بعض الحصون بستان من ريحان وغرس من النارنج قد حمل إليه من البصرة وعمان مما حمل من أرض الهند قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من أحمر وأصفر وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزهر وقد جعل مع ذلك فى الصحن أنواع الأطيار من القمارى والدبابى والشحارير والببغا مما قد جلب إليه من الممالك والأمصار وكان القاهر كثير الشرب كما تقدم فكان يشرب فى ذلك البستان ويجلس كثيراً فى تلك المجالس، فلما أفضت الخلافة إلى الراضى اشتدّ شغفه بذلك الموضع فكان يداوم الجلوس والشرب فيه ثم أن الراضى رفق بالقاهر وأعلمه بما هو فيه من مطالبة الرجال بالأموال والحاجة إليها ولا شئ قبله منها وسأله أن يسعفه بما عنده منها إذ كانت الدولة له وأن يدبر تدبيره ويرجع فى كل الأمور إلى قوله وحلف له بالأيمان الأكيدة أن لا يسعى فى قتله ولا الإضرار به ولا بأحد من ولده فأنعم له القاهر بذلك وقال: ليس لى مال إلا فى بستان النارنج فسار به الراضى إلى البستان وسأله عن الموضع فقال له القاهر: قد حجب بصرى فلست أعرف موضعه ولكن مر بحفره فإنك تظهر على الموضع ولا يخفى عليك فكان ذلك فحفر البستان وقلع تلك الأشجار والغروس والأزهار حتى لم يبق منه موضع إلا حفره وبولغ فى حفره فلم يجد شيئاً، فقال له القاهر: وهل عندى من المال شئ وإنما كانت حسرتى جلوسك فى هذا الموضع وتمتعك به وكان لذتى من الدنيا فتأسفت على أن يتمتع به غيرى فتأسف الراضى على ما توجه عليه من الحيلة فى أمر ذلك البستان وندم على قبوله منه وأبعد القاهر فلم يكن يدنو منه خوفاً على نفسه أن يتناول بعض أطرافه.

وضعفت أمور الراضى واضطربت واختل نظام الخلافة فاستدعى بالأمير محمد ابن رائق فجعله أمير الأمراء وفوّض إليه تدبير المملكة وخلع عليه وأعطاه اللواء فبطل من ذلك اليوم أمر الوزارة ببغداد ولم يبق إلا اسمها فقط والحكم للأمراء

والملوك المتغلبين إذ كان ملك الخلافة جميعه فى أيديهم وهم ملوك الأرض فكان كل من حصل فى يده بلد ملكه ومانع عنه فأصبحت البصيرة وواسط والأهواز فى يد عبدالله البريدى وأخويه وفارس فى يد عماد الدولة ابن بويه والموصل وديار بكر وديار ربيعة وديار مضر فى يد بنى حمدان ومصر والشام فى يد الإخشيد بن طغج والمغرب وأفريقية فى يد المهدى والأندلس فى يد بنى أمية وخراسان وما والاها فى يد نصر بن أحمد السامانى واليمامة وهجر والبحرين فى يد أبى طاهر القرمطى وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ولم يبق فى يد الراضى وابن رائق إلا بغداد وما والاها فبطلت دواوين المملكة ونقص قدر الخلافة وضعف ملكها واختلت الأمور كافة وتقهقر مسند الخلافة كما سيذكر فى محله إن شاء الله.

ومات الراضى ليلة السبت خامس عشر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة هجرية بعلة الاستسقاء وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة وشهوراً فكانت خلافته ست سنتين وعشرة أشهر وكان أديباً شاعراً ظريفاً وله أشعار حسان منها:

يصفرّ وجهى إذا تأمله ... طرفى ويحمرّ وجهه خجلا

حتى كأنّ الذى بوجنته ... من دم جسمى إليه قد نقلا

ومنها أيضاً:

كل صفو إلى كدر، كل أمر إلى حذر ... ومصير الشباب للموت فيه أو الكبر

دردرّ المشيب من ، واعظ ينذر البشر ... أيها الأمل الذي، تاه في لجة الغرر

أين من كان قبلنا، درس العين والأثر ... سيردّ المعاد من ، عمره كله خطر

رب إني ذخرت عندك أرجوك مدخر ... إنني مؤمن بما ، بين الوحي في السور

واعترافي بترك نفعي وإيثاري الضرر ... رب فاغفر لي الخطيئة ياخير من غفر

وكان حاضر الذاكرة حادّ الذهن لا يغيب عن معرفته شىء من أحوال المملكة يحب المناظرة والبحث فى أخبار القدماء ومن ذلك ما ذكر الصولى قال، قال الراضى، ما كان السبب فى لبس المأمون الخضرة ورفعه السواد ثم لبسه السواد بعد ذلك قلت هو ما أخبرنا به محمد بن زكريا العلائى. قال: حدثنا يعقوب بن جعفر ابن سليمان. قال: لما قدم المأمون بغداد اجتمع الهاشميون إلى زينب بنت سليمان ابن علىّ وكانت أقعد ولد العباس نسباً وأكرمهم بيتاً فسألوها أن تكلم أمير المؤمنين فى تغييره الخضرة فضمنت لهم ذلك وجاءت إلى المأمون، فقالت: ياأمير المؤمنين إنك على برّ أهلك من ولد علىّ بن أبى طالب أقدر منك على برّهم لنا من غير أن

تزيل سنة من مضى من آبائك فدع لباسك الخضرة ولا تطمعن أحدا فيما كان منك فقال لها ياعمتى: ما كلمنى أحد فى هذا المعنى بكلام أوقع من كلامك ولا أقصد لما أردت لكن رسول الله ﷺ توفى فولى الأمر أبو بكر فقد عرفت ما كان من أمره فينا أهل البيت ثم وليها عمر فلم يتعدّ فيها فعل من تقدّمه ثم وليها عثمان فأقبل على بنى أمية وأعرض عن غيرهم ثم آل الأمر إلى علىّ بن أبى طالب من غير صفو كصفوها لغيره بل مشوبة بالأكدار فولى مع ذلك عبد الله بن العباس البصرة وولى عبيد الله بن العباس اليمن وولى قثم البحرين وما أحد منهم إلا ولاه فكانت هذه فى أعناقنا حتى كافأته فى ولده بما فعلت ولا يكون بعد هذا إلا ما تحبون، قال: ثم رجع إلى لبس السواد وللمأمون ياأمير المؤمنين شعر يشاكل معنى ما ذكرت من هذا الخبر وهو قوله:

ألام على شكر الوصي أبي الحسن ... وذلك عندي من عجائب ذا الزمن
خليفة خير الناس والأوّل الذي ... أعان رسول الله في السر والعلن
ولولاه ما عدّت لهاشم إمرة ... وكانت على الأيام تقضي وتمتهن
فولى بني العباس ما اختص غيرهم ... ومن فيه أولى بالتكرم والمنن
فأوضح عبد الله بالبصرة الهدى ... وفاض عبيد الله جودا على اليمن
وقسم أعمال الخليفة بينهم ... فلا زلت مربوطاً بذا الشكر مرتهن

وكان الراضى كثير الاستعمال للطيب حسن الهيئة سخياً جواداً فلم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه فى كل يوم إلا بصلة أو خلعة أو طيب وكانوا عدّة ندماء منهم محمد بن يحيى الصولى وابن حمدون النديم وغيرهما فعوتب على كثرة أفضاله على من يحضره من الجلساء، فقال أنا: استحسن فعل أمير المؤمنين أبى العباس لأنه كانت فيه فضائل لا تكاد تجتمع فى أحد لا يحضره نديم ولا مغن ولا قينة فينصرف إلا بصلة أو كسوة قلّت أو كثرت وكان لا يؤخر إحسان محسن لغد ويقول العجب من إنسان يفرح إنساناً فيتعجل السرور ويؤخر ثواب من سره تسويفا وعدة فكان أبو العباس فى كل ليلة أو يوم يقعد لشغله ولا ينصرف أحد ممن حضره إلا مسرورا ونحن وإن لم تتأت لنا الأمور كتأتيها لمن سلف فإنا نواسى جلساءنا وإخواننا ببعض ما حضرنا، وكان لا يستكثر على أحد من ندمائه ما يصل إليه على طول الأيام حتى كان بعضهم ربما يتأخر عن الحضور لما يترادف عليه من فضله وختم الخلفاء فى عدّة أمور فمنها أنه آخر خليفة له شعر يدوّن وآخر خليفة خطب كثيراً

على المنبر وآخر خليفة جالس الجلساء ووصل إليه الندماء وآخر خليفة كانت له نفقة وجوائز جمة وكانت عطاياه وجراياته وخزائنه ومطابخه ومجالسه وخدمه وحجابه على ترتيب الخلفاء المتقدّمين.

واستعمل على مصر فى خلافته بعد أحمد بن كيغلغ الذى صرفه فى سنة ثلاث وعشرين محمد بن طغج الأخشيدى، وقد أصبحت ديار مصر فى يد ابن طغج المذكور لتغلب جميع العمال على ما بأيديهم من البلاد كما تقدّم ذكر ذلك فأقام محمد بن طغج فى مصر إلى أن مات فى ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة فى خلافة المستكفى بالله كما سيأتى ذكر ذلك فى محله.

(وصل)

(فى مبدأ الدولة الإخشيدية وفى كيفية ظهورها)

لما عظم حب الخليفة المعتصم بن هارون للأتراك وكثر إعتماده عليهم جعل يأتى بهم من البلاد البعيدة ويبذل فى ذلك الأموال الطائلة فيوليهم المناصب العالية والوظائف السامية ويجند منهم الجند ويولى القواد ويكثر من نعمته عليهم وعلى بنيهم وبناتهم ويفضلهم على سائر الغلمان والأتباع، وقد علم بأن فى فرغانة جماعة من الترك موصوفين بالبأس والشجاعة والتدرب على الحرب والقتال وبينهم شاب اسمه جف من أولاد ملوكهم فسير فى طلبهم فجاؤا وجاء جف المذكور معهم فلما رآه المعتصم مال إليه وأحبه وأدناه من بابه وأقطعه إقطاعاً بسر من رأى وما زال فى نعمة وافرة إلى أن مات ببغداد سنة سبع وأربعين ومائتين هجرية فخرج أولاده فى طلب العيش والاسترزاق واتصل أحدهم وهو طغج بلؤلؤ غلام أحمد بن طولون بمصر فمال إليه لؤلؤ واستخدمه على مصر وأقام على هذا الحال حينا، ثم انحاز إلى أحمد بن كنداج فلم يزل معه إلى أن مات أحمد بن طولون ووقع الصلح بين ابنه خمارويه وبين ابن كنداج وتطر خمارويه إلى طغج فأعجبه فأخذه من ابن كنداج وقربه إليه وقدّمه على سائر من معه ثم قلده دمشق وطبرية وما زال على نعمة من خمارويه حتى قتل خمارويه فلحق طغج بالخليفة المكتفى فأحبه وخلع عليه خلعة الرضا، وكان وزير الخليفة يومئذ العباس بن الحسن فطلب من طغج أن يجرى معه مجرى التذلل كغيره من أرباب المناصب فأكبر طغج هذا الأمر وأعظمه فأغرى به الخليفة المكتفى فحبسه وحبس معه ابنه أبا بكر محمداً فما زال طغج معتقلاً حتى مات بالسجن وبقى أبو بكر محمد مسجوناً أياماً ثم ذكره الخليفة المكتفى فأطلقه

وخلع عليه فجعل هو وأخوه عبد الله يرصدان العباس بن الحسن الوزير ليأخذا بثأر أبيهما حتى تمكنا من قتله وخرجا إلى الشام فى سنة ست وتسعين ومائتين هجرية، وقيل: هرب طغج إلى الشام وأخوه عبد الله إلى ابن أبى الساج وأقام أبو بكر محمد متغرباً فى البرية حولاً كاملاً ثم اتصل بأبى منصور تكين الجزرى فكان من أعاظم المقربين إليه، ومن كان عليهم معتمده وولاه عمل عمان وجبل الشراة فأحسن السيرة وأخلص لأبى منصور السريرة فسيره سرية إلى قوم قطعوا طريق الحاج فقاتلهم حتى ظفر بهم ومزق شملهم وأسر منهم جماعة وفتح الطريق للحجاج، وكان ممن سار مع الحج فى تلك السنة امرأة من دار الخليفة المقتدر يقال لها العجوز فلما عادت حدّثت المقتدر بما رأت من أبى القاسم محمد فأنفذ إليه خلعا وزاد فى رزقه ولبث أبو بكر محمد فى صحبة تكين إلى أن كانت سنة ست عشرة وثلاثمائة هجرية فارقه لأسباب وسار إلى الرملة فجاءته كتب الخليفة المقتدر بالولاية عليها فتولاها وأقام يتصرف فيها إلى سنة ثمان عشر وثلاثمائة هجرية فكتب إليه المقتدر بولاية دمشق فسار إليها ولم يزل بها إلى أن ولاه القاهر بالله ولاية مصر فى رمضان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة بعد موت تكين ولى على الصلات ولم يدخلها أميراً عليها إلا فى ولايته الثانية ودعى له فيها على المنابر وهو بدمشق اثنين وثلاثين يوماً، وقيل: ثلاثين يوماً ثم صرف عنها وولى مكانه ابن كيغلغ من قبل الراضى بالله بن المقتدر وصرف عنها، ثم وليها أبو بكر محمد فدخلها أميراً فى رمضان سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وقد ضم إليه، ما ذكر من البلاد المتقى أخو الراضى وزاد فى نعمته وأضاف إلى ألقابه «الأخشيد» والأخشيد لقب ملوك فرغانة وهو من أولادهم كما تقدم، ومعناه ملك الملوك وكان هذا اللقب عند ملوك فرغانة ككسرى عند فارس وقيصر عند الروم ودعى له بهذا اللقب على المنابر وأشتهر به حتى نسب إليه ورثته المعروفون بالدولة الاخشيدية وتعرف أيضاً بدولة بنى طغج وقد اكتسب شهرة واسعة وعم ذكره الآفاق وهابه الملوك وتقربوا منه وهادوه وتواددوا إليه وخرج من صلبه ملوك على ديار مصر عرفوا بالدولة الأخشيدية فهو الأمير أبو بكر محمد بن طغج ابن جف بن بلتكين، وقيل: بلكتكين بن نوران بن نورى بن خاقان الفرغانى الأصل صاحب سرير الذهب، ويقال له فى بعض التواريخ إخشيذ بالذال المعجمة ثم كان من أخباره وحوادث أيامه ما سيذكر فى محله إن شاء الله.

(الفصل الحادى والعشرون)

(فى خلافة أبى إسحاق إبراهيم المتقى لله بن المقتدر)

ثم قام بالأمر بعد الراضي ابن أخيه أبو العباس إبراهيم المتقى لله بن المقتدر بن المعتضد بويع له بالخلافة فى العشرين من ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة هجرية أى سنة أربعين وتسعمائة ميلادية وعرضت عليه ألقاب فأختار منها المتقى لله وبايعه الناس كافة فصلى بالناس وصعد على سرير الخلافة وسير الخلع واللواء إلى بجكم بواسط وكان بجكم هذا واسع الكلمة كبيز الشهرة فلما ارتقى منصب الصدارة لم يبق للخليفة منه سوى الاسم فقط، وغلب أبو الوفا توروزن التركى على ما بقى من الأمر للخليفة وظل حال المتقى هكذا ما بين بجكم وأبى الوفا تورون حتى خرج بجكم يوماً يتصيد فبلغ نهر جور فسمع أن هناك أكراداً لهم مال وثروة فشرهت نفسه إلى أخذ المال فقصدهم فى قلة من أصحابه فهرب الأكراد من بين يديه ورمى هو أحدهم فلم يصبه فرمى آخر فأخطأه أيضاً وكان سهمه لا يخيب فأتاه غلام من الأكراد من خلفه وطعنه فى خاصرته فقتله لأربع بقين من رجب، فلما قتل بجكم تفرقت جنوده وانحدر الديلم منهم إلى أبى عبد الله البريدى وكان قد خرج عن طاعة الخليفة وكانوا منتخبين ليس فيهم حشو ولا دخيل فقوى بهم وعظمت شوكته فترفعوا إلى واسط وعلم الخليفة المتقى بحالهم فأرسل إليهم يأمرهم بأن لا يصعدوا فقالوا: نحن محتاجون إلى مال فإن أنفذ لنا منه شئ تربصنا فأنفذ إليهم مائة ألف وخمسين ألف دينار فلم يقنعوا فخافهم واستمال إليه جماعة الأتراك وبعض أجناد بغداد القدماء وبذل فيهم مالا قدره أربعمائة ألف دينار وجعل عليهم سلامة الطولونى مقدماً فاصلحوا حالهم ودبروا أمرهم وبرزوا مع المتقى إلى نهر ديالى ووصل البريدى من واسط إلى بغداد فاختلف عند وصوله جماعة الأتراك واستأمن بعضهم إليه وسار بعضهم إلى الموصل واختفى سلامة الطولونى وخاف أهل بغداد فهمّ الكثير منهم إلى الخروج خوفاً من البريدى وعسفه وظلمه ودخل إلى بغداد فلقيه الوزير أبو الحسن والقضاة والكتاب وأعيان الناس وكان معه عدة سفن كثيرة فأنفذ إليه المتقى يهنئه بسلامته وأظهر له اللين والتلطف عليه لينكف، وأنفذ إليه طعاماً وغيره عدة ليال وجعل يخاطبه بالوزير، ثم أنفذ البريدى إلى المتقى يطلب خمسمائة ألف دينار ليفرقها فى الجند فامتنع من ذلك فأرسل إليه يتهدده ويذكره ما جرى على

المعتز والمستعين والمهتدى وترددت الرسل فأنفذ إليه تمام خمسمائة ألف دينار ولم يلق البريدى الخليفة المتقى مدة مقامه ببغداد، فلما صار إليه المال انصرفت أطماع الجند عن الخليفة إلى البريدى وناووه الشر وعادت مكيدته عليه فشغبوا وكان الديلم قد قدّموا على أنفسهم كورتكين الديلمى وقدم الأتراك تكينك التركى غلام بجكم فاتفقوا معا على الإيقاع بالبريدى ونهب ما عنده فساروا إلى مقره وتبعتهم العامة فقطع البريدى الجسر ووقعت الحرب فى الماء ووثب العامة بالجانب الغربى من بغداد على أصحاب البريدى فهرب هو وأخوه وابنه أبو القاسم وأصحابه وانحدروا إلى واسط، فنهبت داره ودور قواده فدخل كورتكين على الخليفة المتقى وأخبره بخبر البريدى وما جرى عليه ففرح بذلك وقلده إمارة الأمراء وخلع عليه فتاقت نفس كورتكين إلى التفرد بالأمر فقبض على تكينك التركى وغرّقه وتفرد بالأمر فعلت كلمته وطغت جماعة الديلم وزاد شرهم فأخرجوا الناس من دورهم وسكنوا هم فيها فشكا الناس منهم إلى كورتكين فلم يلتفت إليهم فثارت العامة ومنعت الخطيب من الصلاة ومواطن جماعة الديلم فاقتتلوا قتالاً عنيفاً فقتل من الفريقين جماعة كثيرة ولما كثر شر الديلم واتسعت كلمة كورتكين ضاقت أمور المتقى لله وجار وكتب إلى ابن رائق بدمشق يستقدمه إلى بغداد ليوليه إمارة الأمراء مكان كورتكين فجمع إليه ابن رائق جماعة كثيرة من الأتراك وكان فيهم من القواد توزون وفشتكين وغيرهما وسار بهم من دمشق بعد أن استخلف أبا الحسن أحمد بن علىّ بن مقاتل، فلما علم كورتكين بقدومه خرج من بغداد إلى عكبرا ووصل إليه ابن رائق فوقعت الحرب بينهم واتصلت عدة أيام ثم سار ابن رائق من عكبرا ليلاً مع عسكره فأصبح ببغداد دخلها من الجانب الغربى وعبر من الغد إلى الخليفة المتقى فلقيه وركب معه فى دجلة ثم عاد فلحقه فى ثانى يوم كورتكين بجيوشه من الجانب الشرقى ثم دخل بغداد فأيس ابن رائق من ولايتها وخاف شر العاقبة فأمر بحمل أثقاله والعود إلى الشام وترك الخليفة وكورتكين وشأنهما فلما شاع هذا الخبر أخذ الناس أيضًا فى رفع أثقالهم يريدون الخروج عن بغداد ثم إن ابن رائق عزم أن يناوش كورتكين وأصحابه شيئًا من قتال قبل مسيره، فرسم لطائفة من عسكره أن يعبروا دجلة ويأتوا الأتراك من ورائهم وركب هو سميرية وركب معه جماعة من أصحابه فى عشرين سميرية ووقفوا يرمون الأتراك بالنشاب ووصل أصحابه وصاحوا من خلفهم واجتمعت العامة مع أصحاب ابن رائق يضجون فظن كورتكين أن العسكر كبس عليه من خلف ومن أمام فانهزم هو وأصحابه شر هزيمة واختفى كورتكين ورجم العامة أصحابه بالآجر والأحجار فقوى أمر ابن رائق وأخذ من استأمن إليه من الديلم فقتلهم عن آخرهم

وكانوا زهاء أربعمائة فلم يسلم منهم غير رجل واحد اختفى بين القتلى وحمل معهم وألقى فى دجلة فنجا وعاش طويلاً، وقتل جميع الأسرى من القواد وكانوا بضعة وعشرين رجلاً فخلع عند ذلك المتقى على ابن رائق وجعله أمير الأمراء وبث ابن رائق العيون حول كورتكين حتى قبض عليه واعتقله فى دار الخليفة وكان البريدى فى غضون هذه الحوادث بواسط فاستعظم أمر ابن رائق وحسده فأخر عنه حمل المال فكاتبه ابن رائق فى ذلك فلم يرسل شيئًا فانحدر ابن رائق إلى واسط فهرب بنو البريدى إلى البصرة ثم عادوا وضمنوا بقايا واسط وعاد ابن رائق إلى بغداد فخرجت عليه الجنود وفيهم توزون وغيره من القواد فلم يقدر على ردهم فتركوه ورحلوا إلى ابن البريدى بواسط وتحزبوا إليه ففرح بقدومهم وقوى بهم وعزم على الشخوص إلى دار السلام ثم لم يلبث أن سيّر إلى بغداد جيشاً عظيماً من الأتراك والديلم ومقدمه أخوه أبو الحسين البريدى فلما أحس ابن رائق بقدومهم تحصن بدار الخليفة وزمم سورها ونصب عليه المنجنيقات والعرادات وحصن دجلة وحرك العامة للقتال وجند منهم جماعة فثاروا فى بغداد وأحرقوا ونهبوا وأخذوا الناس ليلاً ونهاراً قبل أن تصل جيوش ابن البريدى وخرج المتقى لله وابن رائق وتبعهما أصحابهما فاقتتلوا مع البريدى وأصحابه فانهزم أهل بغداد واستولى أصحاب البريدى على دار الخليفة وهرب المتقى وابنه الأمير أبو منصور فى نحو عشرين فارساً ولحق بهما ابن رائق فى جيشه فساروا جميعاً نحو الموصل وقتل أصحاب البريدى من وجدوه فى دار الخليفة من الحاشية فنهبوها ونهبوا دور الحرم وكثر النهب وعم بغداد ليلاً ونهاراً وأخذوا كورتكين من حبسه وأنفذه أبو الحسين بن البريدى إلى أخيه عبدالله البريدى بواسط فكان آخر العهد به، واشتد البلاء على أهل بغداد وعظم الأمر ووقع الغلاء وعزت الأقوات وأخذ القوى بالضعيف ووقعت الفتن بين الناس فضجوا وعجوا وابتهلوا إلى الله.

ولما عظم أمر البريدى وأراد الشخوص من واسط إلى دار السلام فى جيوشه وعرف الخليفة المتقى ما وراء ذلك أنفذ إلى ناصر الدولة بن حمدان يستمده على البريدى فأرسل أخاه سيف الدولة علىّ بن عبدالله بن حمدان نجدة له فى جيش عظيم، فلقى المتقى وابن رائق فى تكريت منهزمين فسار معهما إلى الموصل ففارقها صاحبها ناصر الدولة وعبر إلى الجانب الشرقى من دجلة وكان بينه وبين ابن رائق وحشة قديمة وكان كل منهما يضمر للآخر السوء فترددت الرسل بينهما على الصلح فاصطلحا وعبر الأمير أبو منصور بن المتقى وابن رائق يسلمان على ناصر الدولة فنثر

الدنانير والدراهم على ولد المتقى فلبثا عنده برهة فلما أراد الانصراف ركب ابن المتقي وأراد ابن رائق الركوب فقال له ناصر الدولة: تقيم اليوم عندى لنتحدث فيما نفعله فاعتذر ابن رائق بابن المتقى فألح عليه ابن حمدان فاستراب ابن رائق من إلحاحه وجرّ بكمه من يده فقطعه وأراد الركوب فشب به الفرس فسقط فصاح ابن حمدان بأصحابه اقتلوه وألقوه فى دجلة، وأرسل ابن حمدان إلى المتقى يقول إنه علم بأن ابن رائق أراد أن يغتاله ففعل به ذلك فرد عليه المتقى رداً جميلاً ورسم إليه بالحضور لديه فسار إليه فخلع عليه المتقى ولقبه ناصر الدولة وجعله أمير الأمراء وخلع على أخيه أبى الحسين علىّ ولقبه سيف الدولة، وجاء الخبر إلى الإخشيد صاحب مصر بموت ابن رائق ففرح وسار من مصر إلى دمشق فى عسكر كثيف يريد أخذها من خليفة ابن رائق فلما وصلها استأمن إليه خليفة ابن رائق وتسلمها الإخشيد فبسط يده على ما جاورها مضافاً ذلك إلى ديار مصر وطال مكث ابن البريدى ولومه ببغداد وزاد عسفه وظلمه وجوره فكرهته العامة وكانت لا تنكف عن مشاغبته ففارقه الجند وانضموا إلى الخليفة المتقى لله وابن حمدان فكثرت جموعهما وقويت عزيمة الخليفة فزحفوا جميعاً إلى بغداد فهرب البريدى واضطرب العامة ببغداد ونهب الناس بعضهم بعضاً ودخل المتقى إلى بغداد ومعه بنو حمدان فى جيوش عظيمة فأقام بها والكلمة لبنى حمدان، ثم لتورون وغيره من كبار الأتراك وعظماءالديلم والخليفة فى أيديهم كالآلة الصماء فلما ضاقت عليه المذاهب خرج من بغدادً إلى الموصل وأرسل إلى الإخشيد محمد بن طغج متولى مصر يشكو حاله ويستقدمه فأتاه من مصر ووصل إليه وهو بالرقة فأكرمه المتقى وأجله ووقف الإخشيد وقوف الغلمان ومشى بين يدى المتقى وحمل إليه هدايا عظيمة وكذلك لوزيره أبى الحسين بن مقلة وسائر الأصحاب وتقدم إلى المتقى فى أن يسير معه إلى مصر والشام ويكون بين يديه فلم يفعل فخوّفه من الرجوع إلى بغداد وحذره من توزون التركى وغدره. وقال له يا أمير المؤمنين: أنا عبدك وابن عبدك وقد عرفت الأتراك وغدرهم فلا تأمن على نفسك فلم يقبل، فقال له: فأقم هنا وأنا أمدّك بالمال والرجال فلم يقبل المتقى وصمم على الرجوع إلى دار السلام وكان قد أنفذ رسلاً إلى توزون فى الصلح فتم الصلح وحلف توزون على الطاعة لأمير المؤمنين فانحدر المتقى من الرقة فى الفرات إلى دار السلام لأربع بقين من المحرم سنة ثلاث وثلاثين وعاد الإخشيد إلى مصر فلما وصل المتقى إلى هيت أقام بها وأنفذ من يجدد اليمين على توزون فعاد وحلف وسار عن بغداد ليلتقى مع المتقى، فالتقى معه بالسندية فنزل توزون

وقـبل الأرض وقـال ها أنا قـد وفيـت بيمـيني والـطاعة لـك ثم وكل به وبالوزير وبالجماعة وأنزلهم فى مضربه مع نساء المتقى وأنفذ رسله إلى دار ابن طاهر ليحضروا المستكفى فلمـا حصل فى المضرب قبض على المتـقى وثمل عينيه فـصاح وصاح من عنده من النسـاء والخـدم فأمـر توزون بضـرب الدبادب حـول المضرب لـئلا تظهـر أصواتهم فخفيت أصواتهم وعـمى المتقى لله وانحدر توزون من الغد إلى دار السلام ومعـه المتقى ووزيره ابن مقلة وقاضـيه أحمـد بن عبدالله بن إسحق فكانت خـلافة المتقى لله ثلاث سنين وخـمسة أشهر وثمانـية عشر يوماً وكان خـلعه فى يوم السبت لعشر بقين من صفر وبقى إلى أن مات سنة سبع وسبعين وثلثمائة .

ولما امتنع المتقى من المسير مع الأخشيد إلى ديار مصر ومن البقاء فى الرقة تحول عنه الاخشيد إلى دمشق فجرى للخليـفة ما جرى ووصل الأخشيد إلى دمشق وولى عليها الحسـين بن لؤلؤ ثم صرفه من عامه إلى نيـابة حمص وولى على دمشق يانس المؤنسى وعاد إلى مصر فدخلها فى جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، ثم ورد عليه الخبر بخلع المتـقى ومبايعة المستكفى فأسف لذلك جـداً وكان من أمره بعد ذلك ما سيذكر فى خلافة المستكفى .

وفى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمـائة أى فى خلافة المتقى المذكـور قدّم المتأصلون غبريال بطركا لـلإسكندرية بعد الفترة التى خلا فيـها المنصب البطريكى وقدرها أربع عشـرة سنة كمـا تقدم الكلام على ذلك فكان غـبريال هذا سابع خـمسـيهم وأصله راهب من دير أبى مـقار وهو من أهل المنوفـية وقـد أخذت فى أيامـه الديارية على النساء والرجال تخلصـاً من طلبات ابن طغج الأخشيد وفـراراً من الشدة التى نالتهم جميعاً بسـبب ذلك فحصل منها شئ كثير جـداً وعم لذلك الضيق وكثرت الكوارث وبلغت الشدّة إلى حد لا يطاق.

(الفصل الثانى والعشرون)

(فى خلافة المستكفى بالله بن المكتفى)

ثم قام بالأمر بعد المتـقى ابن عمه أبو العباس عبـدالله المستكفى بالله بن المكتفى بالله على ابن المعتـضد بالله بويع له بالخلافة بالسـندية يوم خلع المتقى لله سنة ثلاث وثلاثين وثلثمـائة هجرية أى سنة أربع وأربعين وتسـعمائة ميـلادية وهو يوم السبت لثلاث خلون من صـفر حكى أبو العبـاس التميمى الرازى وكـان من خواص توزون

قال: كنت أنا السبب فى البيعة للمستكفى وذلك أنه دعانى إبراهيم بن الزوبيندار الديلمى فمضيت إليه فذكر لى أنه تزوج إلى قوم وأن امرأة منهم قالت له إن هذا المتقى قد عاداكم وعاديتموه وكاشفكم ولا يصفو قلبه لكم وههنا رجل من أولاد الخلفاء من ولد المكتفى وذكرت عقله وأدبه ودينه تنصبونه للخلافة فيكون صنيعتكم وغرسكم ويدلكم على أموال جليلة لا يعرفها غيره وتستريحون من الخوف والحراسة، قال: فعلمت أن هذا الأمر لا يتم إلا بك فدعوتك له، فقلت: أريد أن أسمع كلام المرأة فجاءنى بها فرأيت امرأة عاقلة جزلة فذكرت لى نحواً من ذلك فقلت لابد أن ألقى الرجل فقالت: تعود غدا إلى ههنا حتى أجمع بينكما فعدت إليها من الغد فوجدته قد أخرج من دار ابن طاهر فى زى امرأة فعرفنى نفسه وضمن إظهار ثمانمائة ألف دينار منها مائة ألف لتوزون وذكر وجوهها وخاطبنى خطاب رجل فهم عاقل ورأيته يتشيع قال: فأتيت توزون فأخبرته فوقع كلامى بقلبه وقال: أريد أن أبصر الرجل فقلت لك ذلك ولكن اكتم أمرنا من ابن شيرزاد فقال أفعل وعدت إليهم وأخبرتهم بالذى ذكر ووعدتهم حضور توزون من الغد فلما كان ليلة الأحد لأربع عشرة خلت من صفر مشيت مع توزون مستخفين فاجتمعنا به وخاطبه توزون وبايعه تلك الليلة وكتم الأمر فلما وصل المتقى قلت لتوزون: لما لقيه أنت على ذلك العزم قال: نعم، قلت: فافعله الساعة فإنه إن دخل الدار بعد عليك مرامه فوكل به وسمله وجرى ما جرى وبويع المستكفى بالخلافة يوم خلع المتقى وأحضر المتقى فبايعه وأخذ منه البردة والقضيب وصارت تلك المرأة قهرمانة المستكفى وسمت نفسها علم وغلبت على أمره كله واستوزر المستكفى أبا الفرج محمد بن علىّ الشارى فلم يكن له من الوزارة إلا الاسم فقط والكلمة لابن شيرزاد وحبس المتقى وخلع المستكفى بالله على توزون خلعة وتاجا أهـ .

فلما كان يوم الاثنين انحدر المستكفى فى الماء راكباً فى الطراد المسمى الغزالة وعليه قلنسوة طويلة محدودة يقال إنها كانت لأبيه المكتفى بالله وعلى رأسه توزون التركى ومحمد ابن محمد بن يحيى شيرزاد وجماعة من غلمانه وسلم إليه المتقى ضريراً وأحمد بن يحيى القاضى مقبوضًا عليه وحضر بعد ذلك جميع القضاة مع الهاشميين فبايعوا له وجلس للناس وسأل عن القضاة وكشف عن أمور شهود الحضرة فأمر بإسقاط بعضهم وقبول بعضهم لأشياء كان قد علمها منهم قبل الخلافة واستنابة بعضهم من الكذب فامتثل القضاة ما أمر به من ذلك واستقضى على الجانب الشرقى محمد بن عيسى المعروف بابن أبى موسى الحنفى وعلى الجانب الغربى

الحسن بن أبي الشوارب الأموى الحنفى فتطيرت من ذلك العامة، وقالت يومئذ: إلى ههنا انتهى سلطانه وانتهى فى الخلافة أمره ونهيه، وما دخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة حتى مرض توزون التركى وانقطع بداره فى بغداد أياماً ثم مات ففرح الخليفة المستكفى بخبر موته وظن رجوع الأمر والكلمة إليه فكانت مدة إمارة توزون على ما قاله أصحاب التاريخ: سنتين وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً.

ولما مات توزون كان ابن شيرزاد بناحية بهيت لتخليص أموالها فلما جاء الخبر عزم على عقد الإمارة لناصر الدولة ابن حمدان فاضطربت الأجناد لذلك وعقدوا الرياسة عليهم لابن شيرزاد فحضر إلى بغداد ونزل خارجها فخرج إليه جميع الجند واجتمعوا عليه وحلفوا ووجه إلى الخليفة المستكفى بالله ليحلف له فأجابه إلى ذلك وحلف له بحضرة القضاة والعدول ودخل إليه ابن شيرزاد فأكرمه وأجله وخرج فزاد فى مرتبات الجند زيادة عظيمة فضاقت الأموال عليه وعز نوالها فأرسل إلى ناضرالدولة مع أبى عبد الله محمد بن أبى موسى الهاشمى وهو بالموصل يطالبه بالمال ويعده برد الرياسة إليه فأنفذ له خمسمائة ألف درهم وشيئاً من الأقوات الجند وظلم الناس ببغداد وكثرت طلباته فظهر اللصوص وارتفع الأمن وكثر العسف والعربدة فهرب التجار وأصحاب الأموال وجعل يعزل ويولى الولاة والعمال فاستعمل ينال كوشه على واسط واللشكرى على تكريت، فإما ينال فإنه كاتب معز الدولة بن بويه واستقدمه إلى بغداد فى جمع عظيم فلما شاع خبر قدومه اضطرب الناس فى بغداد وأختفى المستكفى بالله وابن شيرزاد أياماً ثم ترددت الرسل بين المسكتفى وبين ابن بويه فظهر عاد إلى دار الخلافة ببغداد ووصل عز الدولة فى جموعه فدخل من باب الشماسية واجتمع بالخليفة المسكتفى وبايعه وحلف له المستكفى وخلع عليه ولقبه فى ذلك اليوم معز الدولة ولقب أخاه عليا عماد الدولة ولقب أخاه الحسن ركن الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم وجعل يتصرف فى الأمور كما يشاء، ورتب للمستكفى بالله كل يوم خمسة آلاف درهم وأمنّ ابن شيرازاد فظهر وحضر إلى بغداد ولقى معز الدولة فولاه الخراج وجباية الأموال. ناصر الدولة مع أبى عبد الله محمد بن أبى موسى الهاشمى وهو بالموصل يطالبه بالمال ويعده برد الرياسة إليه فأنفذ له خمسمائة ألف درهم وشيئاً من الأقوات كثيراً فقرقها فى العسكر فلم تكف فقسط الأموال على العمال والكتاب والتجار وغيرهم لأرزاق الجند وظلم الناس ببغداد وكثرت طلباته فظهر اللصوص وارتفع الأمن وكثر العنف والعربدة فهرب النجار وأصحاب الأموال وجعل يعزل

ويولى الولاة والعمال فاستعمل ينال كوشه على واسط واللشكرى على تكريت فأما بنيال فأنه كاتب معز الدولة بن بويه واستقدمه إلى بغداد وحلف له بالطاعة إليه إن هو قدم على بغداد وكان ابن بويه يومئذ بالأهواز فسار منها إلى بغداد فى جمع عظيم فلما شاع خبر قدومه اضطرب الناس فى بغداد وأختفى المستكفى بالله وابن شيرزاد أياماً ثم ترددت الرسل بين المستكفى وبين ابن بويه فظهر وعاد إلى دار الخلافة ببغداد ووصل عز الدولة فى جموعه فدخل من باب الشماسية واجتمع بالخليفة المستكفى وبايعه وحلف له المستكفى وخلع عليه ولقبه فى ذلك اليوم معز الدولة ولقب أخاه عليا عماد الدولة ولقب أخاه الحسن ركن الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم وجعل يتصرف فى الأمور كما يشاء ورتب للمستكفى بالله كل يوم خمسة آلاف درهم وأمن ابن شيرزاد فظهر وحضر إلى بغداد ولقى معز الدولة فولاه الخراج وجباية الأموال.

ولما سكنت الأمور واطمأنت الخواطر أو لمت علم قهرمانة المستكفى وليمة عظيمة دعت إليها جماعة من قواد الديلم والأتراك ولم تعلم معز الدولة بخبرها فاستعظم معز الدولة ذلك منها واتهمها بأنها إنما فعلت ذلك لتأخذ عليهم البيعة للمستكفى فيزيلون معز الدولة عن منصبه وجعل من ذلك اليوم يعمل على خلع المستكفى ويدبر الحيلة على الإيقاع به فلما كان ثانى عشرى جمادى الآخرة حضر معز الدولة والناس عند الخليفة، ثم حضر رجلان من نقباء الديلم يصيحان فتناولا يد المستكفى بالله فظن أنهما يريدوان تقبيلها فمداها إليهما فجذباه عن سريره وجعلا عمامته فى حلقه فنهض عند ذلك معز الدولة وخرج من الدار وساق الرجلان المستكفى بالله ماشياً إلى دار معز الدولة فأعتقل بها واضطرب الناس ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شىء وأخذت علم القهرمانة فقطع لسانها فكانت مدّة خلافة المستكفى بالله سنة واحدة وأربعة أشهر كان فيها مغلوباً على أمره مع توزون وابن شيرزاد، حدّث أبو إسحق إبراهيم بن إسحق المعروف بابن الوكيل وهو ممن كان فى خدمة المستكفى، قال: كان المستكفى فى سائر أوقاته فارغاً وجلا من المطيع أن يلى الخلافة ويسلم إليه فيحكم فيه بما يريد فكان صدره يضيق لذلك فيشكو الأمر فى بعض الأوقات إلى من كان يألفه من ندمائه فيشجعونه ويهوّنون عليه أمر المطيع، إلى أن قال لهم فى بعض الأيام: قد اشتهيت أن نجتمع فى مكان كذا وكذا فنتذاكر فى أنواع الأطعمة وما قال الناس فى ذلك، منظوماً فاتفق معهم على ذلك، فلما كان فى اليوم الذى حضروا أقبل المستكفى فقال: هاتوا ما أعدّه كل واحد منكم فقال

بعضهم: أبياتاً طوالاً فى وصف سلة سكبادج كوامخ فأمر المستكفى أن تحضر هذه الجونة بعينها على ما وصفها القائل، ثم قال آخر وآخر والمستكفى يأمر بإحضار كل ما يجرى فى وصفه ما يمكن إحضاره، قال أبو إسحاق: فلم أر المستكفى منذ ولى الخلافة أشدّ سرورا منه فى ذلك اليوم وأجاز جميع من حضر من الجلساء والندماء والملهين ثم أحضر ما حضره فى وقته من عين وورق عند ضيق الأمر عليه فوالله ما رأيت له بعد ذلك يوماً مثله حتى قبض عليه أحمد بن بويه الديلمى وسمل عينيه . اهـ.

وبقى المستكفى معتقلاً فى دار معز الدولة بن بويه إلى أن مات فى سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة وهو ابن ست وأربعين سنة وكان أبيض حسن الوجه قد وخطه الشيب، ولما قبض عليه بويع بعده للمطيع لله.

وكان لما ولى المستكفى الخلافة أرسل إلى محمد بن طغج الاخشيد فأمره على ولاية مصر والشام فلم يحفل بذلك لعلمه أن أركان دولته ثابتة لا تتزعزع فلما كانت سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وقعت بينه وبين سيف الدولة منافرة وأشتدت شدة بالغة ثم اصطلحا على أن يكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص وباقى بلاد الشام للاخشيد ولتوكيد الصلح بينهما تزوج سيف الدولة بنت أخى الأخشيد ولكن لم يلبثا طويلاً على هذا الحال حتى وقع النفور بينهما ثانية، فجهز الاخشيد جيشا عظيما لقتال سيف الدولة وسيره مع خادمه كافور وأبى شجاع فاتك المجنون، ثم خرج الاخشيد خلفهم فى شعبان من السنة واستخلف أخاه أبا المظفر وسار حتى لقى سيف الدولة بقنسرين فحاربه وقهره وفرق جموعه وأخذ منه حلب ثم بلغه خلع المستكفى فعاد إلى دمشق وكان من أمره بعيد ذلك ما سيذكر فى خلافة المطيع.

(الفصل الثالث والعشرون)

(فى خلافة أبى الفضل المطيع لله بن المقتدر)

ثم قام بالأمر بعد المستكفى ابن عمه أبو الفضل المطيع لله بن المقتدر بن المعتضد بويع له بالخلافة لسبع بقين من شعبان سنة أربع وثلاثين وثلثمائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وتسعمائة ميلادية وهو يوم خلع ابن عمه المستكفى بالله وله من العمر يومئذ أربع وثلاثون سنة وأحضر المستكفى عنده فسلم عليه بالخلافة وأشهد على نفسه بالخلع وقد سمل معز الدولة عينيه وأعماه كما تقدم فلم يكن للمطيع من الخلافة إلا الاسم فقط فقد ازداد أمر الخلافة إدبارا وزالت حرمتها أو كادت على

يدى معز الدولة بن بويه فلم يبق فى يد المطيع لا أمر ولا نهى ولا خلافة تعرف ولا وزارة تذكر وأختل النظام وأستخف الديلم بمقام الخلافة فكانوا يقولون إن العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها وكانوا يتشيعون ويغالون فى التشيع فلم يبق عندهم وازع دينى يحثهم على الطاعة، قال صاحب الكامل: حتى لقد بلغنى أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه فى إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوى أو لغيره من العلويين فكلهم أشار عليه بذلك ما عدا بعض خواصه، فإنه قال: ليس برأى فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لقتلوك فأعرض عن ذلك، قال: فهذا كان من أعظم الأسباب فى زوال أمرهم ونهيهم مع حب الدنيا وطلب التفرد بها. اهـ.

ونزع معز الدولة من الخليفة العراق بأسره وما والاه فلم يبق مع الخليفة منه شيء البتة إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجة الخلافة فاشتد الحال على المطيع وعظم الخطب ولبث على هذا الحال طويلاً. وكان معز الدولة إذا أراد غزو جهة حمل معه الخليفة المطيع ليوهم الناس أنه إنما يحارب للخليفة ومعه والأمر على عكس ذلك واشتد فى التشيع للعلويين فأمر أصحابه ببغداد فكتبوا على المساجد ما هذه صورته، لعن الله معاوية بن أبى سفيان ولعن من غصب فاطمة ﵂ فدكا ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ومن نفى أبا ذر الغفارى ومن أخرج العباس من الشورى. اهـ.

فأغضب ذلك الخليفة ولكنه كان محكوماً عليه لا يقدرعلى المنع فلما كان الليل محا الكتابة بعض الناس فغضب معز الدولة وأراد إعادة ما محى فأشار عليه الوزير أبو محمد المهلبى بأن يكتب مكان ما محى لعن الله الظالمين لآل رسول الله ﷺ ولا يذكر أحداً فى اللعن إلا معاوية ففعل ذلك، وسار معز الدولة فى سنة ست وخمسين إلى واسط فجهز فيها الجيوش لمحاربة عمران بن شاهين صاحب البطائح فلما هم بالمسير ابتدأ به مرض الإسهال وقوى عليه فأحجم عن الخروج إلى ابن شاهين وسار إلى بغداد وخلف أصحابه ووعدهم أن يعود إليهم فلما وصل إلى بغداد أشتد به مرضه فلما أحس بالموت عهد إلى ابنه عز الدولة بختيار وأظهر التوبة وتصدق بأكثر ماله وأعتق مماليكه ورد شيئاً كثيراً على أصحابه مما كان قد اغتاله ثم مات ودفن بمقابر قريش فكانت إمارته إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً ويومين

فجعل ابنه بختيار يتصرف فى الأمور فأساء السيرة وجار وظلم وصرف عنه كبار الترك والديلم وأبغض صغارهم وضيق على الخليفة المطيع وطالبه بمال كثير فاعتذر. وقال من أين لى ذلك ولم يبق لى من حكم البلاد سوى الاسم والخطبة فإن شئتم أن أعتزل فعلت، فلم يقبل منه وتهدده فبذل له المطيع أربعمائة ألف درهم واحتاج إلى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك وبلغ فساد الأمور إلى حدّ لا يطاق فكثر إدلال الجند على بختيار وإطراحهم لجانبه وشغبهم عليه ومطالبتهم له بالأرزاق والجوامك المتأخرة وقد قلت عنده الأموال وتعذر عليه تسكين خواطر الجند ولم يجد ديوانه ووزيره جهة يحتال منها بشىء فسار إلى الموصل بهذا السبب فلم يفتح عليه فسار منها إلى الأهواز ليتعرض إلى متوليها ويأخذ منه مالاً وتخلف عنه سبكتكين التركى أحد كبار الجند الأتراك ولم يسر معه، فلما وصل إلى الأهواز لاقاه متوليها وخدمه وقدّم له الطاعة وحمل له أموالاًجليلة المقدار وبختيار يفكر فى طريق يأخذه به فاتفق أنه جرت فتنة بين الأتراك والديلم سببها مضاربة بين غلام تركى وآخر ديلمى فاتصل خبر ذلك بأصحاب كل واحد منهما فقام بعضهم على بعض واقتتلوا فقتل منهم خلق كثير وخرجوا إلى ظاهر البلد فاجتهد بختيار فى تسكين الفتنة فلم يفلح فاستشار جماعة الديلم فى ذلك وفيما يفعله، وكان أذناً يتبع كل قائل فأشاروا عليه بالقبض على كبار الأتراك لتصفو له البلاد فمال إلى ذلك وقبض على جميع كبارهم وقيدهم، وأطلق الديلم فى الأتراك فقتلوا ونهبوا أموالهم وهرب الأتراك ولحقوا بسبكتكين وكان بختيار قد دبر الحيلة للنقض على سبكتكين أيضاً فلم يفلح وظهرت حيلته فركب سبكتكين عند ذلك فيمن جاءه من الأتراك وحصروا دار بختيار يومين ثم أحرقها ودخلها وأخذ ابنى عز الدولة ووالدتهما ومن كان معهما وسيرهم إلى واسط فانحدر معهم الخليفة المطيع لله فاسترجعه سبكتكين ورده إلى داره واستولى على ما كان لبختيار جميعه ببغداد، ونزل الأتراك فى دور الديلم وتتبعوا أموالهم وأخذوها وثارت العامة من أهل السنة ينصرون سبكتكين لأنه كان سنياً فخلع عليهم وجعل لهم العرفاء والقواد فتقوّوا وثاروا بالشيعة وحاربوهم فكانت كأنها حرب دينية وسفكت بينهم الدماء وأحرقت الدور وزال الأمن وكثر السلب والنهب فى الليل والنهار وأشتدّ البلاء وعظمت الفتنة وما زالت نارها تتأجج حتى تم الأمر لسبكتكين فجعل يتصرف ثم لم يلبث أن آنس من الخليفة المطيع الكره له وكان المطيع به مرض الفالج وقد ثقل لسانه وتعذرت الحركة عليه فدعاه سبكتكين إلى أن يخلع نفسه من الخلافة ويسلمها إلى ابنه الطائع ففعل وأشهد على نفسه بالخلع ثالث عشر ذى القعدة

سنة ثلاث وستين وثلثمائة فكانت خلافته تسعا وعشرين سنة وخمسة أشهر إلا أياماً وكان وطىء الجانب كثير الصدقات حسن الأخلاق.

ولما سار الأخشيد من حلب إلى دمشق بعد انتصاره على سيف الدولة وورد الخبر إليه بخلع المستكفى وبيعة المطيع كما تقدم لبث بها أياماً فمرض وأشتدّت علته ومات يوم الجمعة لثمان بقين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة فحملوا تابوته إلى بيت المقدس فدفن هناك، وكانت ولادته فى سنة ثمان وستين ومائتين هجرية ببغداد بشارع باب الكوفة، وكان ملكاً حازماً متيقظا حسن التدبير عارفا بالحروب مكرما للجند شديد البطش ذا قوة عظيمة لا يكاد أحد يجرّ قوسه وله هيبة فى قلوب الرعية وكان متجملاً فى مركبه وملبسه فكان موكبه يضارع موكب الخليفة وبلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف وعدد جيوشه أربعمائة ألف وكان يكره سفك الدماء شديد التحرز على نفسه فكانت تحرسه مماليكه بالمناوبة وإذا نام حرسه ألف مملوك وعاش ستين سنة، وقيل: ستاً وستين وخلف عدة ذكور ولما مات تولى الملك بعده ابنه أبو القاسم آنوجور الأخشيد فى ثانى يوم وفاة أبيه ولاه الخليفة المطيع على سائر ما كان لأبيه مع حداثة سنه وجعل مدبر مملكته كافورا الخادم الأسود فكان آنوجور مغلوباً على أمره ليس له من الملك سوى الاسم والكلمة لكافور فكان كافور يطلق لآنوجور فى كل سنة أربعمائة ألف دينار ويتصرف بما يبقى واتسعت كلمة كافور وهابه الناس فآنس من أبى بكرمحمد بن علىّ بن مقاتل صاحب خراج مصر وحشة فقبض عليه فى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة وخلعه وولى مكانه محمد بن على الماردانى، وسار آنوجور إلى دمشق ولبث بها ما شاء ثم رحل عنها إلى مصر فلم يستقر به المقام حتى جاء الخبر باستيلاء سيف الدولة على دمشق وضمها إلى أملاكه فأكبر هذا الأمر وأعظمه وكر راجعاً إلى دمشق فى عسكر عظيم ومعه عمه الحسن بن طغج وكافور الخادم وقصدهم سيف الدولة فى عسكر وجموع كثيرة فالتقوا بالرملة فى يوم الجمعة ولم يهتم بنو حمدان بلقاء عسكر آنوجور وجعلوا يطغون فى ذلك اليوم فى أرباض البلد فاستغنم كافور الخادم فرصة غيابهم وزحف على معسكرهم بخيله ورجله وكبسهم من كل صوب وحدب وغنم مؤنتهم وذخيرتهم وسائر متاعهم ففرّ سيف الدولة هارباً إلى الشام فتبعه كافور فى عسكره فانهزم إلى حلب ثم إلى الرقة فلما تم النصر لعسكر آنوجور عادوا إلى ديار مصر وبينما هم عائدون جاءهم الخبر بخروج غلبون متولى الريف ونزوله على ديار مصر وتغلبه على الكثير من البلاد فأسرع آنوجور فى المسير ودخل مصر فى قلة فهرب غلبون وعادت

الأمور إلى ما كانت عليه وسير كافور جيشاً خلف أصحاب غلبون فأجلوهم عن سائر بلاد مصر وعادوا ظافرين غانمين وما زال آنوجور على حاله حتى مات فى ذى القعدة سنة تسع وأربعين وثلثمائة فكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة وعشرة أيام ودفن ببيت المقدس عند أبيه، فقام الأمر بعده أخوه عليّ الملقب بأبى الحسن فلم يكن له من حظ الملك فى جانب كافور الخادم غير ما كان لأخيه آنوجور وبقى مغلوباً على أمره، وفى أيامه قصر النيل فى زيادته سنتين متواليتين فحصل بسبب ذلك غلاء شديد ثم قحط تسع سنوات فأشتد الحال بالناس شدة بالغة وكثر الخطف والنهب وعاث اللصوص فى مصر وبقية البلاد وأفسدوا فارتفع الأمن وعم الخلل وكاد الناس يفتنون فتنة كبرى.

ووقع بين أبى الحسن الأخشيد وكافور الخادم منافرة وعظمت فشاغب بعضهما بعضا أياماً كانت أشد هؤلاء على الرعية من الغلاء والقحط وقطع الطرق ثم تصالحا وما زال كافور يتصرف فى الصغير والكبير من الأمور ولا كلمة لأبى الحسن عليّ حتى مات سنة خمس وخمسين وثلثمائة هجرية فاستقر الملك باسم كافور وصار يدعى له على المنابر بالديار المصرية والشامية والحجاز فلم تطل أيامه ومات بمصر فى جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلثمائة فكانت مدة تصرفه منفردا سنتين وأربعة أشهر، وكان عاقلاً ذا رأى وتدبير واسع المعرفة كبير السياسة كيسا حازما كثير التبصر فى العواقب، قال الذهبى: كان كافور هذا خصيا حبشياً اشتراه الأخشيد من بعض أهل مصر بثمانية عشر دينارا ثم تقدم عنده لعقله ورأيه إلى أن صار من كبار القواد ثم لما مات أستاذه صار أتابك ولده آنوجور وكان صبياً فغلب كافور على كافة الأمور وصار الاسم للولد والدست لكافور ثم استقل بالأمر ولم يبلغ أحد من الخصيان ما بلغ كافور ومدحه المتنبى بقوله:

قواصد كافور توارك غيره	ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه	وخلت بياضا خلفها ومآقيا

وهجاه بقوله:

من علم الأسود المخصي مكرمة	أقومه البيض أم آباؤه الصيد
وذاك أن الفحول البيض عاجزة	عن الجميل فكيف الخصية السود

قال محمد بن عبد الملك الهمدانى: كان بمصر واعظ يقص على الناس فقال

يوماً فى قصصه أنظروا إلى هوان الدنيا على الله تعالى فإنه أعطاها لمقصوصين ضعيفين ابن بويه ببغداد وهو أشل وكافور عندنا بمصر وهو خصى فرفع إليه قوله وظنوا أنه يعاقبه فتقدّم إليه بخلعة ومائة دينار وقال لم يقرأ هذا إلا الجفائى له فكان الواعظ يقول بعد ذلك فى قصصه ما أنجب من ولد حام إلا ثلاثة لقمان وبلال المؤذن وكافور، قال أبو جعفر مسلم بن عبيد الله بن طاهر العلوى كنت أساير كافورا يوماً وهو فى مركب خفيف فسقطت مقرعته من يده فبادرت بالنزول وأخذتها من الأرض ودفعتها إليه، فقال: أيها الشريف أعوذ بالله من بلوغ الغاية ما ظننت أن الزمان يبلغنى حتى يفعل بى هذا وكان يبكى، فقلت أنا صنيعة الأستاذ ووليه فلما بلغ باب داره ودعته وسرت فإذا أنا بالبغال والجنائب بمراكبها، وقال أصحابه: أمر الأستاذ بحمل هذا إليك وكان ثمنها يزيد عن خمسة عشر ألف دينار . اهـ.

ولكافور أخبار أخرى كثيرة أضربنا عن إيرادها هنا، ولما مات كافور ولى المصريون مكانه أبا الفوارس أحمد بن على بن الأخشيد وهو يومئذ ابن اثنتين وعشرين سنة وكان بالشامات التابعة لمصر حسين بن الأخشيد فلم وصل أهل الشام خبر موت كافور الخادم وولاية أبو الفوارس أحمد لم يرضهم ذلك وولوا عليهم حسينا المذكور ولكنه لم يلبث حتى قام عليه القرامطة وانتزعوا منه البلاد فجاء هارباً إلى مصر وفى نفسه نزعها من يد أبى الفوارس فلم تساعده الأيام على نوال ذلك وخانته الأقدار ولم يتم على ولاية أبى الفوارس حول كامل حتى أتى جوهر القائد لجيوش المعز لدين الله المهدى المغربى صاحب أفريقية فانتزعها منه كما سيذكر تفصيل ذلك فى محله.

ومات فى خلافة المطيع أيضاً غبريال بطرك المتأصلين فكانت مدته إحدى عشرة سنة كابد فيها من البلايا والمحن ما لا يطاق فأقاموا بعده قسيماً أو هو قزمان ثامن خمسيهم فلبث اثنتى عشرة سنة ومات، وفى أيامه أحرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق الشام ونهبوا ما فيها من الأوانى وغيرها وكانت قيمتها كثيرة ونهبوا كذلك ديراً للنساء بجوارها وقتلوا وسبوا ونهبوا كنائس النسطورية والمتأصلين ولم يبقوا فيها شيئاً فكانت أيامه كلها شدائد فلما مات أقيم بعده مكاريوس أو هو مقار تاسع خمسيهم وهو راهب من دير أبى مقار وأصله من شبرى ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

(وصــــل)

(فيما قاله أصحاب التاريخ فى أصل الفاطميين وفى ظهور دولتهم بديار مصر وفى اعتبارنا لهم ملوكا عليها لا خلفاء كما يدعون)

قال أصحـاب التاريخ: قد كان مـبدأ ظهور هذه العائلة بـبلاد المغرب سنة ست وتسعين ومائـتين هجرية وقد أجمعوا عـلى هذا وعلى أن عدد من ملك منهم أربعة عشـر نفرا منهم ثلاثة ظهـروا بالمغرب وماتوا أولهم أبو مـحمد عـبيد الله فـقيل هو محمد بن عبدالله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبى طالب، قال بعضهم: ومن ينسب هذا النسب يجعله عبدالله ابن ميمون القدّاح الذى ينسب إليه القدّاحية وقال آخرون: بل هو عبيد الله بن أحمد ابن إسماعيـل الثـــانى بن محمـــد بن إسماعيـل بن جعـفـر بن محمـــد بـن عليّ ابن الحسين ابن عليّ بن أبى طالب فيكون أبو محمد عبدالله هذا على مقتضى القول الأول أو عبيد الله على مقتضى القول الثانى رأس هذه العائلة ومؤسسها وقد اختلفوا فى صحة نسبه فقال هو وأصحابه القائلون بإمامته: إن نسبه صحيح على ما ذكر هنا ولم يرتابوا فيه قال صاحب الكامل: وذهب كثير من العلويين العالمين بالأنساب إلى موافقتهم أيضاً ويشهد بصحة هذا القول ما قاله الشريف الرضى:

مـا مـقـامى علـى الهـوان وعندى	مـقـــول صـــارم وأنف حـــمىّ
أليـس الذل فـى بلاد الأعـــادى	وبمصـــر الخليـــفـــة العلوىّ
من أبـوه أبي ومـــولاه مـــولا	ي إذا ضـامنى البـعـيد القـصىّ
لف عــرقى بعـرقـه سـيـد النـــ	ـاس جـمـيـعاً محـمـد وعلىّ
إن ذلـى بذلـك الجـدّ عـــز	وأوامـى بـذلـك الـربـع رىّ

قال: وإنما لم يودعـها فى بعض ديوانه خـوفاً ولا حـجة بما كتبه فى المحـضر المتضـمن القدح فى أنسـابهم فإن الخـوف يحمل على أكثر من هذا قـال: وسألت جمـاعة من أعيان العلويـين فى نسبه يعنى فى نسب مـحمد أبى عبـيد الله هذا فلم يرتابوا فى صحته أهـ .

وذهب آخرون إلى غـير هذا المذهب فقالوا بل إن نسـبه مدخول ليس بصـحيح وإنه كان يهـوديا وكذلك كتبـوا فى الأيام القادرية محضـراً يتضمن القدح فى نـسبه

ونسب أولاده ووقع عليه جماعة من العلويين وغيرهم أن نسبه إلى أمير المؤمنين عليّ ابن أبى طالب غير صحيح وكان ممن كتب فيه من العلويين المرتضى وأخوه الرضى وابن الطحاوى وابن الأزرق العلويون ومن غيرهم ابن الأكفانى وابن الخرزى وأبو العباس الأبيوردى وأبو حامد والكشفلى والقدورى والصميري وأبو الفضل النسوى وأبو جعفر النسفى وأبو عبدالله بن النعمان فقيه الشيعة وزعم القائلون بصحة نسبه أن العلماء ممن كتب فى ذلك المحضر إنما كتبوا خوفاً وتقية وأن نسبه إلى عليّ صحيح لامراء فيه، وأما من رفع نسبه إلى الحسين بن محمد القداح ثم تغالوا حتى قالوا إنه لم يكن من ولد الحسين المذكور ولكنه ابن لامرأة يهودية كان قد أحبها الحسين بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن ميمون القداح فقد اعتمدوا فى ذلك على ما رواه أهل التاريخ ونقله الكتاب من أخبار أيام القدّاح جد هذه العائلة وكيفية ظهوره أنه لما ظهرت كلمة أبى عبدالله الشيعى يعنى ابن ميمون القدّاح وكثرت أحزابه وانتشرت حواشيه فى بلاد أفريقية جعل يغرى الناس بأبى مضر ويعيبه ويسفه أحلامه وما زال حتى فشت دعوته بين سائر وزراء زيادة الله صاحب أفريقية فمالوا إليه وأحبوا نصرته فلما كاد يتم له ذلك مات عبدالله ميمون المذكور وظهر ولده فجعلوا يقولون إنهم من ولد عقيل بن أبى طالب ولكنهم لم يجسروا على الظهور بين الناس فكانوا يخفون أشخاصهم ولبثوا على هذا الحال حينا وكان ولده أحمد هو المشار إليه منهم فتوفى وخلف ولده محمداً وكان محمد هذا هو الذى يكاتبه الدعاة فى البلاد فتوفى محمد وخلف أحمد والحسين فسار الحسين إلى سلمية من أرض حمص إذ كان له بها ودائع وأموال من ودائع جده عبدالله القدّاح ووكلاء وغلمان وبقى ببغداد من أولاد القدّاح أبو الشلغلغ وكان الحسين يدّعى أنه الوصى وصاحب الأمر والدعاة باليمن والمغرب يكاتبونه ويراسلونه فى أمور الشيعة كلها، واتفق أنه جرى فى مجلسه يوماً حديث النساء بسلمية وجمال بعضهن فوصفوا له امرأة رجل يهودى حداد مات عنها زوجها وهى فى غاية الحسن والجمال وأن لها ولداً من الحداد يماثلها فى الجمال فمال إلى زواجها فتزوج بها وأحبها وحسن موقعها معه وأحب ولدها وأدّبه وأحسن تعليمه وكان اسمه عبيد الله فتعلم العلم وصارت له نفس عظيمة وهمة كبيرة ثم مات الحسين فقال بعض علماء زمانه من أهل سلمية إنه مات عن غير ولد فعهد إلى ابن اليهودى الحداد وهو عبيد الله هذا وعرّفه أسرار الدعوة من قول وفعل ودله على مواضع الدعاة وأعطاه الأموال والعلامات وتقدّم إلى أصحابه بطاعته وخدمته وإنه الإمام والوصى وزوّجه ابنة عمه أبى الشلغلغ الذى نزل ببغداد

وهذه دعوة أبى القاسم الأبيض العلوى وغيره قالوا: وجعل لنفسه أى عبيد الله المذكور نسباً وهو عبيد الله بن الحسين بن علىّ بن محمد بن علىّ بن موسى بن جعفر بن محمد ابن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب، وبعض العلماء بالأنساب يقولون بل هو أى عبيد الله المهدى من ولد القدّاح جاءه من زوجة اليهودى الحداد وظهرت كلمة عبيد الله المذكور وعرفه الدعاة واجتمعوا حوله فبذل الأموال وأكثر من الأعطية وشاع خبره عند الناس أيام المكتفى العباسى فطلبه فهرب هو وولده أبو القاسم نزار الذى ولى بعده وهو يومئذ غلام وخرج معه خواصه ومواليه يريد المغرب وعليها زيادة الله فلما انتهى إلى مصر لبث بها مستترا بزى التجار وكان العامل على مصر يومئذ عيسى النوشرى فأتته الكتب من الخليفة بصفته وحليته والأمر بالقبض عليه وعلى كلّ من يشبهه وكان بعض المقربين من مجلس عيسى النوشرى متشيعاً فأخبر عبيد الله بخبر القبض عليه وأشار عليه بالانصراف فرحل عن مصر مع أصحابه ومعه من الأموال شئ كثير فأوسع النفقة على من صحبه، وفرق عيسى النوشرى الرسل فى طلب المهدى المذكور وعلم بخروجه فخرج خلفه فى عسكر فلحقه وقد نزل ببستان فلما رآه لم يشك فيه فقبض عليه ووكل به فلما حضر الطعام دعاه ليأكل فأعلمه أنه صائم فرق له وقال له: أعلمنى بحقيقة حالك حتى أطلقك فخوفه بالله تعالى وأنكر حاله وما زال يعظ النوشرى ويخوّفه الله ويتلطفه حتى رق له وأطلقه وخلى سبيله وقيل إنه أعطى النوشرى مالاً جزيلاً حتى أطلقه وعلم أصحاب النوشرى بما جرى فرجعوا على النوشرى باللوم وعنفوه على إطلاقه فندم وسير خلفه سرية من العسكر وكان المهدى لما لحق بأصحابه رأى ابنه أبا القاسم قد ضيع كلباً كان يصيد به وهو يبكى عليه فعرّفه عبيده أنهم تركوه فى البستان الذى كانوا فيه فرجع المهدى فى طلب الكلب حتى دخل البستان ومعه جماعة من غلمانه فرآهم النوشرى فسأل عنهم فقيل فلان قد عاد بسبب كذا وكذا فقال النوشرى لأصحابه: قبحكم الله أردتم أن تحملونى على قتل هذا الرجل حتى آخذه فلو كان يطلب ما يقال أو كان مريباً لكان يطوى المراحل ويخفى نفسه ولا كان رجع فى طلب كلب وتركه.

واتسعت شهرة أبى عبيد الله بعد ذلك وكثرت جموعه فتقوّت بهم عزيمته وكان فى غضون هذه الحوادث قد عاث أبو عبدالله الشيعى بالمغرب وأكبر الدعوة إلى المهدى عبيد الله بن القدّاح وقتل ونهب وفتح عدّة بلاد من إفريقية مثل ميلاً وسطيف وطبنة ومدينة بلزمة ودار ملوك ومدينة تيجس وباغاية وأنكجان ومجانة وتيفاش

ومسكيانة وتبسة ومدبرة ومرمجنة والقصرين وقسطيلة وغير ذلك من المدن والبلدان وأخرج أبو عبيد الله العمال إلى تلك البلاد وطلب أهل الشر والفساد فقتلهم وأمر أن يجمع ما كان لزيادة الله من الأموال والسلاح وغير ذلك وكان زيادة الله قد هرب إلى ديار مصر فاجتمع له شئ كثير وفيه كثير من الجوارى لهن مقدار وحظ من الجمال، فوكل بهن امرأة صالحة كانت لزيادة الله ولم ينظر إلى واحدة منهن ولما استقر بالقيروان وحضرت الجمعة أمر الخطباء بإقامة الخطبة فيها وفى رقادة فخطبوا ولم يذكروا أحداً وأمر بضرب السكة ولم ينقش عليها اسم ولكنه جعل مكان الاسم من وجه: بلغت حجة الله، ومن الوجه الآخر: تفرّق أعداء الله، ونقش على السلاح: عدّة فى سبيل الله ورسم الخيل على أفخاذها: الملك لله، وأقام على ما كان عليه من لبس الدون الخشن والقليل من الطعام الغليظ، وبتغلب أبى عبدالله على هذه المدن والأمصار زال ملك بنى الأغلب وملك بنى مدرار من أفريقية وكان قد مضى على على ملكهم ثلاثون ومائة سنة وهم منفردون بملك سلجماسة وزال كذلك ملك بنى رستم من تاهرت ولهم ستون ومائة سنة تفردوا بتاهرت، وجاء عبيدالله المهدى وولده أبو القاسم بدعوة من أبى عبد الله الشيعى فدخل القيروان بعد أمور أضربنا عن إيرادها هنا وأبو عبد الله الشيعى ورؤساء كتامة مشاة بين يديه وولده خلفه ونزل بقصر من قصور رقادة وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه فى الخطبة فى البلاد ولقب بالمهدى أمير المؤمنين وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف ومعه الدعاة وأحضروا الناس بالعنف والشدّة ودعوهم إلى مذهبهم فمن أجاب أحسن إليه ومن أبى حبس فلم يدخل فى مذهبهم إلا القليل وقتل كثير ممن لم يوافقهم على قولهم وقسّم على وجوه كتامة أعمال أفريقية ودوّن الدواوين وجبى الأموال واستقرّت قدمه ودانت له أهل البلاد وقتل أبا عبدالله الشيعى وأخاه أبا العباس لأمور لا موضع لذكرها هنا، وتاقت نفسه إلى فتح الديار المصرية وضمها إلى مملكته الواسعة فاستشار جماعة من قواده فى ذلك فأشاروا عليه بالفتح وهوّنوا عليه الأمر وكشفوا له عما أصاب الخلافة العباسية من الوهن وما هى عليه من قرب الزوال، فلما كانت سنة إحدى وثلثمائة هجرية جهز المهدى جيشاً عظيماً وسيره من أفريقية مع ولده أبى القاسم إلى الديار المصرية فقصد برقة واستولى عليها فى ذى الحجة وسار إلى مصر فملكوا الإسكندرية وساروا منها إلى الفيوم فملكها وصار فى يده أكثر ما جاورها من البلاد فضيق عليها وشدّد على أهلها ووردت الأخبار بذلك إلى الخليفة المقتدر بالله العباسى فأكبرها وأعظمها جدا وسيّر لخلاص البلاد مؤنساً الخادم

فى جيش عظيم فالتقى بأبى القاسم وجيوشه واقتتلوا قتالاً عنيفاً فظفر بهم مؤنس وهزمهم شر هزيمة فعادوا إلى المغرب مهزومين وعلم المهدى بما جرى لهم فجيش جيشاً آخر وسيره مع قائد من قواده يقال له حباسة إلى الإسكندرية فى البحر فنزل عليها وقاتلها وتغلب عليها ثم سار منها إلى مصر ونزل بين مصر والإسكندرية وجاء الخبر بذلك إلى المقتدر فأرسل مؤنساً الخادم فى عسكر إلى مصر لقتال حباسة وأمدّه بالسلاح والمال فسار إليها فالتقى العسكران فى جمادى الأولى فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل من الفريقين خلق كثير وجرح خلق واشتد القتال وتعدّدت الوقائع وجدّ أصحاب مؤنس فى قتال المغاربة حتى هزموهم شر هزيمة وتتبعوهم بالقتل والأسر فكان مبلغ القتلى على ما قاله صاحب الكامل سبعة آلاف مع الأسرى، وهرب الباقون، وكانت هذه الواقعة فى سلخ جمادى الآخرة من السنة أى سنة اثنتين وثلثمائة وعادوا إلى المغرب فلما وصلوا إلى المغرب قتل المهدى حباسة أمير تلك الجيوش ومع ذلك لم تفتر للمهدى عزيمة ولم يتحول عن عزمه من أخذ مصر عنوة واشتد عليه هذا الأمر وأقلقه جدا فلما كانت سنة سبع وثلثمائة جهز المهدى جيشاً عظيماً تحت رئاسة ابنه أبى القاسم وسيّره إلى مصر فوصل إلى الإسكندرية فى ربيع الآخر من السنة فرحل عامل المقتدر عنها لعدم قدرته على القتال فدخلها أبو القاسم وسار إلى مصر فدخل الجيزة وملك الأشمونين وكثيراً من الصعيد ووردت الأخبار بذلك إلى الخليفة المقتدر فبعث مؤنساً الخادم فى شعبان لردّ أبى القاسم وجنوده عن البلاد فحصل بينه وبين أبى القاسم عدّة وقعات ووصل من أفريقية ثمانون مركبا نجدة لأبى القاسم وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكتامى وهما أشجع قواد المهدى وجاء الخبر بذلك إلى الخليفة المقتدر بالله فأمر بأن تسير مراكب طرسوس إليهم فسارت خمسة وعشرون مركباً وفيها النفط والعدد ومقدّمها أبو اليمن فالتقت السفن بالسفن واقتتلوا على رشيد فظفر أصحاب مراكب المقتدر وحرقوا كثيراً من مراكب أفريقية وهلك أكثر أهلها وأسر منهم كثير وفى الأسرى سليمان الخادم ويعقوب فقتل من الأسرى كثير وأطلق كثير ومات سليمان فى الحبس بمصر وحمل يعقوب إلى بغداد ثم هرب منها وعاد إلى أفريقية واشتد مؤنس الخادم قائد جيوش المقتدر بالله وألح فى قتال أبى القاسم ومن معه حتى ظفر به وقهره فجاءه مرسوم الخليفة بالتشريف ولقب المظفر ووقع الوباء أيضًا فى عسكر أفريقية وكذلك الغلاء فمات منهم كثير من الخلق والخيل فعاد من سلم إلى أفريقية وسار عسكر مصر فى أثرهم حتى أجلوهم عن البلاد.

فلما كانت سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة هجرية مات أبو محمد عبيد الله المهدى فى ربيع الأول فأخفى ولده أبو القاسم خبر موته سنة لتدبير كان له وكان يخاف أن يختلف الناس عليه إذا علموا بموته وكان عمر المهدى لما توفى ثلاثاً وستين سنة وكانت خلافته منذ دخل رقادة ودعى له بالإمامة إلى أن مات أربعاً وعشرين سنة وشهراً وعشرين يوماً، فقام بالأمر بعده ابنه أبو القاسم محمد وكان أبوه قد عهد إليه ولقب بالقائم بأمر الله، فلما استتب له الأمر ودانت له المملكة هم بفتح ديار مصر فجيش جيشاً عظيماً وسيره إليها مع خادمه زيدان وبالغ فى النفقة عليه فدخلوا الإسكندرية وكان المتولى على ديار مصر فى هذا الحين محمد الإخشيد فأخرج لقتالهم جنوداً فقاتلوهم وهزموا المغاربة وقتلوا فيهم وأسروا خلقاً وعاد المغاربة مغلوبين وبقى الحال فى سكون والقائم لا يبدى حراكًا إلى أن كانت سنة أربع وثلاثين وثلثمائة مات القائم بأمر الله لثلاث عشرة مضت من شوال، فقام بالأمر بعده ابنه إسماعيل وتلقب بالمنصور بالله وكتم خبر موت أبيه لسبب الفتنة القائمة وخروج المدعوّ أبا يزيد وكان المنصور شهماً شجاعاً حسن التدبير فضبط أركان الملك وأحسن تدبير البلاد فبلغت شهرته مبلغاً عظيماً وما زال يتصرف حتى مات سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة للهجرة بالمهدية فكان ثالث من ظهر ومات من هذه العائلة بالمغرب، فقام بالأمر بعده ولده المعز لدين الله أبو تميم معد وهو أول ملوكهم الأحد عشر بديار مصر فلما تمت له البيعة وصفت له الأمور تاقت نفسه إلى فتح ديار مصر والتغلب عليها وقد طمع فيها، وكان لما مات كافور الإخشيدى لم يبق بمصر من تجتمع القلوب عليه فاختلفت عند ذلك كلمة أهل البلاد وتفرّقت أهواؤهم وافتتنوا أو كادوا وأصابهم فى ذلك الحين غلاء شديد ثم قحط ثم وباء أفنى من الخلق ما لا يكاد يدخل تحت الحصر فلما بلغ ذلك المعز أبا تميم طمع فى فتحها وكثرت رغبته فى ذلك فجهز القائد أبا الحسن جوهراً غلام والده المنصور وهو رومىّ فى مائة ألف مقاتل فبرز جوهر إلى رمادة وبين يديه أكثر من ألف صندوق من المال وصار المعز يخرج إليه فى كل يوم وأطلق يده فى بيت ماله. يحكى أن المعز خرج يوماً إلى معسكر جوهر فقام جوهر بين يديه وقد اجتمع القواد وكبار القوم الذين خرجوا مع الجيش فنظر المعز إليهم وقال: والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ووالله لتدخلن ديار مصر بالوردية من غير حرب ولتنزلن فى خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا وأمر المعز بإفراغ الذهب فى هيئة الأرحية وحملها مع جوهر على الجمال ظاهرة وأمر أولاده وإخوته وولى عهده أن يسيروا فى ركاب

جوهر وهو راكب وكتب إلى سائر عماله يأمرهم إذا قدم عليهم جوهر أن يترجلوا مشاة فى خدمته فانحدر جوهر بجيوشه ونزل برقة فتقدم إليه صاحبها بخمسين ألف دينار ذهباً فداء من ترجله ومشيه فى ركابه فرده جوهر عليه وقال: لابد من العمل بما أمر به أمير المؤمنين فمشى صاغراً وكان خروج جوهر من القيروان فى رابع عشر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة فهنأه الشعراء يوم خروجه وودعه كبار الدولة وبالغوا فى تعظيمه، ومدحه محمد بن هانئ الشاعر بقصيدة منها هذه الأبيات:

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع ... وقد راعنى يوم من الحشر أروع

غداة كأنَّ الأفق سدّ بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

فلم أدر إذ ودعت كيف أودّع ... ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع

إلى أن قال:

إذا حل فى أرض بناها مدائنا ... وإن سار عن أرض غدت وهى بلقع

تحل بيوت العز حيث محله ... وجم العطايا والرواق المرفع

رحلت إلى الفسطاط أول رحلة ... بأيمن فأل بالذى أنت تجمع

فإن يك فى مصر ظماء لمورد ... فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ووصل جوهر بمن معه من الجيوش إلى مصر فلما اتصل خبر وصوله هربت العساكر الإخشيدية على وجوههم فنزل بالجيزة فى سابع عشر شعبان من السنة فخرج الناس للقائه واجتمع سائر الأمراء وبينهم الوزير جعفر فى جماعة من الأعيان وعبروا النيل إلى الجيزة والتقوا بالقائد ونادى مناديه فنزل الناس كلهم إلا الشريف والوزير فترجلوا وسلموا عليه واحداً واحداً والوزير عن شماله والشريف عن يمينه ثم دخل بجيوشه البلد من وقت الزوال بسلاحهم وعددهم وكراعهم وطبولهم وبنودهم ونزلوا فيما هو موضع القاهرة اليوم ثم سار إلى الفسطاط ونزل فيه بعسكره وخطب للمعز يوم الجمعة على منابر مصر وسائر أعمالها وأمر أن يزاد عقيب الخطبة «اللهم صل على محمد المصطفى وعلى علىّ المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا اللهم صل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين» وأمر المؤذنين بجامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون أن يؤذنوا بحىّ على خير العمل فشق ذلك على الناس ولكنهم ما استطاعوا له ردّاً وشرع فى بناء القاهرة للجند والقصرين والجامع الأزهر وأرسل بشيراً إلى المعز يبشره بفتح مصر وإقامة الدعوة له بها ويطلبه إليها وقد بدأ ببناء

القاهرة فى سنة تسع وخمسين وثلثمائة للهجرة فلم تأت سنة إحدى وستين حتى تم بناؤها، قال بعض الكتاب: وقد كانت البقعة التى ابتنى فيها القاهرة والقصرين والجامع بقعة رملية فيما بين الفسطاط وعين شمس لا شئ فيها إلا بعض البساتين منها بستان الإخشيد شرق الخليج وميدان الإخشيد ودير للنصارى من أهل البلاد كان يسمى دير العظام فيه بئر لا يزال باقياً يعرف ببئر الجامع الأقمر وتسميه العامة بئر العظمة وكان فى تلك البقعة أيضاً موضع يعرف بقصير الشوك ثم عرف بعد بناء القاهرة بقصر الشوك.

ولما استقر بجوهر المقام بمصر وثبتت قدمه سير جعفر بن فلاح الكتامى إلى الشام فى عسكر عظيم فبلغ الرملة وبها أبو محمد الحسن بن عبدالله بن طغج فقاتله فى ذى الحجة من السنة أى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة واشتد ابن فلاح فى قتاله وألح، فكانت بين الفريقين حروب كان الظفر فيها لابن فلاح وأسر ابن طغج وغيره من كبار القواد وسيرهم إلى جوهر القائد بمصر فبعث بهم جوهر إلى المعز بإفريقية ودخل ابن فلاح الرملة عنوة فقتل ونهب وسبى ثم أمّن من بقى من أهلها وجبى منهم الخراج وسار إلى طبرية فرأى ابن ملهم قد أقام الدعوة للمعز لدين الله فسار عنها إلى دمشق فامتنع عليه أهلها وقاتلوه فقاتلهم وألح فى قتالهم حتى ظفر بهم وملك البلد ونهب بعضه وأقام الخطبة للمعز يوم الجمعة لأيام خلت من المحرم سنة تسع وخمسين وقطعت الخطبة العباسية. قال صاحب الكامل: وكان بدمشق الشريف أبو القاسم بن أبى يعلى الهاشمى وكان جليل القدر نافذ الحكم فى أهلها فجمع أحداثها ومن يريد الفتنة وثار بهم فى الجمعة الثانية وأبطل الخطبة للمعز لدين الله وأعاد خطبة المطيع لله ولبس السواد وعاد إلى داره فقاتله جعفر بن فلاح ومن معه قتالاً شديداً وصبر أهل دمشق ثم افترقوا آخر النهار فلما كان الغد تزاحف الفريقان واقتتلوا ونشبت الحرب بينهما وكثرت القتلى من الجانبين ودام القتال فعاد عسكر دمشق منهزمين والشريف بن أبى يعلى مقيم على باب البلد يحرّض الناس على القتال ويأمرهم بالصبر وواصل المغاربة الحملات على الدماشقة حتى ألجئوهم إلى باب البلد ووصل المغاربة إلى قصر حجاج ونهبوا ما وجدوا فلما رأى ابن أبى يعلى الهاشمى والأحداث ما لقى الناس من المغاربة خرجوا من البلد ليلاً فأصبح الناس حيارى فدخل الشريف الجعفرى وكان قد خرج من البلد إلى جعفر بن فلاح فى الصلح فأعاده وأمره بتسكين الناس وتطييب قلوبهم ووعدهم الجميل ففعل ما أمره وتقدم إلى الجند والعامة بلزوم منازلهم وأن لا يخرجوا منها إلى أن يدخل جعفر بن

فلاح البلد ويطوف فيه ويعود إلى عسكره ففعلوا ذلك، قال: فلما دخلت المغاربة البلد عاثوا فيه ونهبوا قطراً منه فثار الناس وحملوا عليهم ووضعوا السيف فيهم فقتلوا منهم جماعة وشرعوا فى تحصين البلد وحفر الخنادق وعزموا على اصطلاء الحرب وبذل النفوس فى الحفظ وأحجمت المغاربة عنهم ومشى الناس إلى الشريف أبى القاسم بن أبى يعلى فطلبوا منه أن يسعى فيما يعود بصلاح الحال ففعل ودبّر الحال إلى أن تقرر الصلح يوم الخميس لست عشرة خلت من ذى الحجة سنة تسع وخمسين وثلثمائة، وكان الحريق قد أتى على عدة كثيرة من الدور وقت الحرب، وأدخل صاحب الشرطة جعفر بن فلاح البلد يوم الجمعة فصلى مع الناس وسكّنهم وطيب قلوبهم وقبض على جماعة من الأحداث فى المحرم سنة ستين وثلثمائة وقبض على الشريف أبى القاسم بن أبى يعلى الهاشمى المذكور وسيره إلى مصر واستقر أمر دمشق للمعز لدين الله أهـ.

وجاء الخبر بما وقع بدمشق من القتل والنهب إلى الحسين بن أحمد بن بهرام القرمطى صاحب القرامطة وأن ابن فلاح ملك البلد وقتل ابن طغج فأهمه هذا الخبر وأقلقه هو وأصحابه وأزعجهم جداً وذلك لأنه كان قد تقرر بينهم وبين ابن طغج أن يحمل إليهم أن طغج المذكور ثلثمائة ألف دينار نقرة فى كل سنة فلما ملك ابن فلاح الشام علموا أن المال يفوتهم فعزموا على قصد الشام وأرسل صاحبهم الحسين بن أحمد بن بهرام القرمطى إلى عز الدولة بختيار يطلب منه المساعدة بالسلاح والمال فأجابه إلى ذلك فساروا إلى دمشق فى ذى القعدة من السنة فى عدة عظيمة وبلغ خبرهم إلى جعفر بن فلاح فاستهان بهم ولم يحترز منهم فلم يشعر بهم حتى كبسوه بظاهر دمشق وقتلوه ونهبوا أمواله وسلاحه ودوابه وملكوا دمشق وأمنوا أهلها وساروا إلى الرملة فاستولوا على جميع ما بينها وبين دمشق فلما سمع من بها من المغاربة خبرهم ساروا عنها إلى يافا فتحصنوا بها وملك القرامطة الرملة وساروا إلى مصر وتركوا على يافا من يحصرها فلما وصلوا إلى مصر اجتمع معهم خلق كثير من العرب والجند والإخشيدية والكافورية فاجتمعوا بعين شمس واجتمع عسكر جوهر القائد وخرجوا إليهم فاقتتلوا غير مرة كان الظفر فى كل وقعة للقرامطة وحصروا المغاربة حصراً شديداً وخرج المغاربة يوماً من مصر وحملوا على ميمنة القرامطة فانهزم من بها من العرب وتلك اللموم وقصدوا سواد القرامطة فنهبوه فاضطروا إلى الرحيل وعادوا إلى الشام فنزلوا إلى الرملة وحاصروا يافا وضيقوا على من بها فسير

جوهر من مصر نجدة إلى أصحابه بيافا ومعهم ميرة فى خمسة عشر مركباً فخرجت مراكب القرامطة عليها فأسروا مراكب جوهر كلها ولم ينج منها غير مركبين فغنمهما الروم ثم كان بعد ذلك من أمرهم ما سيذكر فى محله.

ولما وصل البشير إلى المعز لدين الله وبشره بفتح الديار المصرية وإقامة الدعوة له بها وطلبه إليها فرح فرحاً لا يوصف وسار من إفريقية يريد الديار المصرية فكان أول مسيره أواخر شوال من السنة أى سنة إحدى وستين وكان أول رحيله من المنصورية فأقام بسردانية وهى قرية قريبة من القيروان ولحقه بها رجاله وعماله وأهل بيته وجميع ما كان له فى قصره من أموال وأمتعة وغير ذلك حتى أن الدنانير سبكت وجعلت كهيئة الطواحين وحمل كل طاحونتين على جمل وسار عن سردانية بعد مقام أربعة أشهر إلى طرابلس ومعه جيوشه وحواشيه ثم رحل عنها إلى مصر ونزل على برقة ومعه محمد بن هانئ الشاعر الأندلسى وكان عندما خرج المعز من القيروان يريد مدحه ابن هانئ المذكور بقصيدة طويلة مطلعها:

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

فأصبحوا وقد رأوا ابن هانئ المذكور ملقى على جانب البحر قتيلاً ولم يدروا من قتله وكان قتله أواخر رجب من سنة اثنتين وستين وثلثمائة وكان من الشعراء المجيدين. قال أهل الانتقاد: ولكنه غالى فى مدح المعز حتى كفره العلماء فمن ذلك قوله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وقوله:

ولطالما زاحمت تحت ركابه جبريلاً

قال صاحب الكامل: ومن ذلك ما ينسب إليه ولم أجدها فى ديوانه قوله:

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو المعالى فكل شئ سواه ريح

ورقادة اسم مدينة بالقرب من القيروان إلى غير ذلك قال: وقد تأول ذلك من يتعصب له والله أعلم اهـ.

ووصل المعز لدين الله إلى الإسكندرية أواخر شعبان من السنة وأتاه أهل مصر وأعيانها فلقيهم وأكرمهم وأحسن إليهم وخطب بالإسكندرية خطبة بليغة وكان ممن سار للقائه قاضى مصر أبو طاهر الذهلى فجلس إلى جنبه فسأله المعز هل رأيت خليفة أفضل منى؟ فقال: لم أر أحداً من الخلائق سوى أمير المؤمنين، فقال له:

أحججت؟ قال نعم، قال: وزرت قبر رسول الله ﷺ؟ قال نعم، قال: وقبر أبى بكر وعمر؟ قال القاضى: فتحيرت ماذا أقول ثم نظرت فإذا ابنه قائم مع كبار الأمراء فقلت: شغلنى عنهما رسول الله ﷺ كما شغلنى أمير المؤمنين عن السلام على ولىّ العهد ونهضت إليه وسلمت عليه فأفسح المجلس إلى غيرى، وسار من الإسكندرية إلى مصر فدخلها خامس رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة وأنزل عساكره مصر والقاهرة في الديار وبقى كثير منهم فى الخيام ونزل هو بالقصرين فكانت أول حكومة انتهت إليه أن امرأة لكافور الإخشيدى تقدمت إليه فذكرت له أنها كانت أودعت رجلاً من اليهود الصوّاغ قباء من لؤلؤ منسوجاً بالذهب وأنه جحد ذلك فاستحضره وقرره فأنكر اليهودى فأمر أن يفتش فوجدوا القباء قد جعله فى جرة ودفنها فى الأرض فدفعه المعز إليها فتقدمت إليه وعرضته عليه فأبى أن يقبله منها ورده عليها فاستحسن منه الحاضرون ذلك وامتدت مملكة المعز لدين الله من حلب إلى بلاد المغرب إلى مكة كما كانت دولة الخلفاء العباسيين فى أيامه ممتدة أيضًا من بغداد وسائر الممالك الشرقية إلى العراق وأعمالها .

ولما كان أصحاب التاريخ على اختلاف فى أصل نسب هذه العائلة أعنى بها الفاطمية وقد أكثروا القول فى ذلك وأطالوا الكلام واحتج كل فريق بحجة واستمسك بشئ من الأدلة على صحة دعواه ولم تكن لتنقطع أيضًا إلى هذا الحين الخلافة من العباسيين وكان القائم بأمرها أمير المؤمنين الخليفة العباسى المطيع لله أبو الفضل بن الخليفة المقتدر يدعون له على المنابر فى بغداد وسائر الممالك الشرقية والعراقين وأعمالها وقد ورد فى حديث صاحب الشريعة الإسلامية النهى عن التعدد فى الأئمة قوله «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا أحدهما» وكانت خلافة الفاطميين لم تظهر لانقراض الخلفاء العباسيين ولا لفقدان صلاحيتهم لحماية البيضة الإسلامية ولا لتعطيل وقع فى الأحكام الشرعية المتعلقة بالإمامة بل كان ظهورها بظهور جوهر الرّومى قائد المعز المغربى المذكور وتغلبه على ديار مصر بعد موت كافور الإخشيدى واختلاف كلمة أهل البلاد يومئذ فضلاً عما قد كان أصابهم من الغلاء والقحط والوباء الشديد الذى لم يبق ولم يذر فلذلك رأيت أن لا أتحول عن تتبع سنى الخلافة العباسية بذكر مدة كل خليفة وما وقع فيها من الحوادث وجعلها مبدأ كل مدة حتى تنقطع تماماً إما بقيام من هو أحق بالخلافة وأولى بالإمامة وهذا بعيد لا سبيل إليه بعد انقراض العباسيين كما قاله المحققون من أهل السنة وإما بتغلب من هو أصلح لحماية البيضة الإسلامية وأقدر على تنفيذ الأحكام الشرعية المتعلقة بالإمامة وهذا

ليس ببعيد إذا كان المراد من الإمامة فى عرف المتأخرين اختيار الأصلح للأمة كما فعل جمهور المهاجرين السابقين من العقبات الثلاث وأصحاب الهجرتين والقبلتين وأهل بدر وبينهم عمر بن الخطاب من اختيارهم لأبى بكر الصديق ومبايعته بالخلافة دون سعد بن عبادة سيد قبيلة الأوس الذى اختاره الأنصار والخزرجيون من الأنصار ودون علىّ بن أبى طالب ابن عم صاحب الشريعة وزوج ابنته فاطمة الزهراء وحينئذ نرجع فى التاريخ إليه ونتبع فى ذكر الحوادث سنى خلافته وهكذا من يأتى بعده من الخلفاء إلى ما شاء الله. وأما المعز لدين الله بن المهدى عبيد الله المغربى رأس هؤلاء الفاطميين بديار مصر فقد حسبناه فى عداد من ملك قبله من الملوك لفتحها على يد جوهر قائد جيوشه وكذلك من يقوم بعده من ولده إلى أن يورثها الله من يشاء من عباده ولذلك فإنى ذاكر هنا حوادث أيامهم واحداً فواحداً فى قلب مدة كل خليفة من الخلفاء العباسيين كمن سبقهم من النواب والملوك إلى أيام كافور الإخشيدى حتى لا يلتبس الأمر على القارئ بتعدد الخلفاء فيفوته الفرض والله الهادى إلى الصواب.

(الفصل الرابع والعشرون)

(فى خلافة أبى بكر بن عبد الكريم الطائع لله)

ثم قام بالأمر بعد المطيع ولده عبدالكريم أبو بكر الطائع لله بويع له بالخلافة يوم خلع أبوه نفسه من الخلافة سنة ثلاث وستين وثلثمائة هجرية أى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة ميلادية وعمره يومئذ سبع وأربعون سنة فلم يل الخلافة من بنى العباس من هو أكبر منه سنّا. قال صاحب رأس مال النديم: ولم يتقلد الخلافة من أبوه حى سوى الطائع لله والصديق رضى الله عنه وكلاهما اسمه أبو بكر اهـ.

تولى الخلافة وليس له منها سوى الاسم فقط كمن تقدم من العباسيين والأمر يومئذ لابن بويه وغيره من الأتراك وكان ابن بويه هذا واسع الهيبة عالى الكلمة لم يبق للخليفة الطائع من مراسم الخلافة وأبهتها شيئًا إلا وحازه لنفسه فكان الخليفة يخافه جدًا ويتحرّز من قربه إلى بغداد ويعمل فى السر على إعلاء كلمة بختيار وتحبب الجند إليه وتزوّج بابنة بختيار لتعظم بذلك شوكته وتكبر هيبته فأحس عضد الدولة بن بويه بما وراء ذلك وكتب إلى عز الدولة بختيار المذكور يدعوه إلى طاعته وأن يسير العراق إلى أى جهة أرادها وكان بختيار يومئذ على العراق فاستشار بختيار أصحابه فى ذلك فاختلفوا عليه فكتب إلى عضد الدولة بالإجابة إلى ما يطلب وإنما يريد المساعدة بما يحتاج إليه من مال وسلاح فأجابه عضد الدولة إلى ذلك وأنفذ إليه

خلعة وتجهز بختيار بما أنفذه إليه عضد الدولة وخرج من بغداد عازماً على قصد الشام وسار عضد الدولة فدخل بغداد وخطب له بها. قال أصحاب التاريخ: ولم يكن قبل ذلك يخطب لأحد بها وضرب على بابه ثلاث نوب ولم تجر بذلك عادة من تقدمه وأمر أن يلقى الوزير أبو طاهر بن بقية وزير عز الدولة بختيار بين قوائم الفيلة لتقتله وكان قد طلبه من عز الدولة قبل جلائه عن بغداد فسلمه إليه بعد أن قلع عينيه فداسته الفيلة حتى قتلته ثم صلب على رأس الجسر فرثاه أبوالحسين بن الأنبارى بمرثية لم يسمع فى مصلوب مثلها وهى :

علوّ فى الحياة وفى الممات ... لحق أنت إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبًا ... وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم اقتفاء ... كمدهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجوّ قبرك واستعاضوا ... عن الأكفان ثوب السافيات
لعظمك فى النفوس تبيت ترعى ... بحرّاس وحفاظ ثقات
وتوقد حولك النيران قوم ... كذلك كنت أيام الحياة
ركبت مطية من قبل زيد ... علاها فى السنين الماضيات
وتلك قضية فيها تأس ... تباعد عنك تعيير العداة
ولم أر قبل جذعك قط جذعا ... تمكن من عناق المكرمات
أسأت إلى النوائب فاستثارت ... فأنت قتيل ثأر النائبات
وكنت تجيرنا من صرف دهر ... فعاد مطالبًا لك بالتّرات
وصير دهرك الإحسان فيه ... إلينا من عظيم السيآت
وكنت لمعشر سعدا فلما ... مضيت تفرقوا بالمنحسات
غليل باطن لك فى فؤادي ... حقيق بالدموع الجاريات
ولو أنى قدرت على قيام ... بفرضك والحقوق الواجبات
ملأت الأرض من نظم القوافى ... ونحت بها خلاف النائحات
ولكنى أصبّر عنك نفسى ... مخافة أن أعدّ من الجناة
ومالك تربة فأقول تسقى ... لأنك نصب هطل الهاطلات
عليك تحية الرحمن تترى ... برحمات غواد دائمات

قوله: زيد علاها فى البيت التاسع يعنى زيد بن علىّ بن الحسين بن علىّ أبى طالب لما قتل وصلب بأمر هشام بن عبدالملك بن مروان، ويقى ابن بقية المذكور مصلوباً إلى أيام صمصام الدولة فأنزل ودفن وسار بختيار يريد الشام ليتخذها مقرّاً له وسار معه ابن ناصر الدولة بن حمدان أخو أبى تغلب بن حمدان صاحب الموصل فلما صار بمن معهما بعكبرا حسّن ابن حمدان إلى بختيار المسير إلى الموصل لكثرة أموالها وأطمعه فيها وقال: إنها خير من الشام وأسهل مأخذا فمال بختيار إلى ذلك وسار نحوها فلما وصل إلى تكريت أتته رسل أبى تغلب تسأله المصالحة وأن يقبض على أخيه حمدان ويسلمه إليه وإذا فعل سار بنفسه مع عساكره إليه وقاتل معه عضد الدولة وأعاد بغداد إلى ملكه فأجابهم بختيار إلى ذلك وقبض على ابن حمدان وسلمه إلى رسل أبى تغلب فحبسه فى قلعة وسار بختيار إلى الموصل والتقى بأبى تغلب وساروا جميعاً نحو العراق، وكانت جند أبى تغلب زهاء العشرين ألفاً فلما جاء الخبر بذلك إلى عضد الدولة قام من بغداد فى جيش عظيم وسار نحوهما فالتقوا بقصر الحصن على مقربة من تكريت واقتتلوا قتالاً عنيفاً فهزمهما شر هزيمة وأسر بختيار وأحضر عنده وقتل من أصحابه خلق كثير واستقرّ ملك عضد الدولة بعد ذلك ببغداد ثم سار إلى الموصل فملكها وملك ما يليها فهرب أبو تغلب ومعه نساؤه وأولاد بختيار فسير عضد الدولة الجند فى طلبه فلم يدركوه وصار يتنقل من بلد إلى بلد والجند فى أثره حتى أعياهم القبض عليه ثم سار إلى دمشق ومعه نساؤه يريد النزول عند العزيز صاحب مصر فلم يمكنه عامل دمشق من الدخول فوقعت بينه وبين أصحابه العزيز وقائع كثيرة انكشفت عن هزيمته وأسروه فقطعوا رأسه وبعثوا به إلى العزيز بمصر فشهره.

وصفت الأمور لعضد الدولة، فعمد إلى عمارة بغداد وكانت قد تخربت بتوالى الفتن فرمم مساجدها وأسواقها وأدرّ الأموال على الأئمة والعلماء والقراء والغرباء والضعفاء الذين يأوون إلى المساجد وألزم أصحاب الدور الخراب بعمارتها وجدد ما دثر من الأنهار وأعاد حفرها وأطلق مكوس الحجاج وأصلح الطريق من العراق إلى مكة وأطلق الصلات لأهل البيوتات والشرف والضعفاء والمجاورين بمكة والمدينة واطمأنت قلوب الناس بعد تراكم الفتن وتوالى المحن وأجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسابين والأطباء والحساب والمهندسين وأذن لوزيره نصر بن هارون وكان نصرانيا ببناء الديارات وعمارة البيع وإطلاق الأموال للفقراء من النصارى فأحبه الناس ومالوا إليه كثيراً واتسعت شهرته

وعظم ملكه فكان له العراق وكرمان وعمان وخوزستان والموصل وديار بكر وحوران وصبيح وهو أوّل من سمى ملكاً فى الإسلام ومال إليه الخليفة الطائع كرهاً وتزوّج ابنته وكان غرض عضد الدولة من تزويج ابنته للطائع أن تلد له ذكراً فيجعله ولى عهده فتكون الخلافة فى ولد لهم فيه نسب وكان الصداق مائة ألف دينار فزفت إليه ومعها من الجواهر والحلىّ شيء لا يحصى وما زال عضد الدولة يتصرف فى الأمور ويفتح الفتوحات العظيمة ويغزو ويقاتل كل من خالفه حتى وافته منيته فى شوال سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة وكان به الصرع. مات ببغداد وحمل إلى مشهد أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب فدفن به وكانت ولايته ببغداد خمس سنين ونصفاً قيل ولما احتضر جعل يقول: ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه. ولم ينطلق لسانه بغير هذه الآيات، ومما يحكى عنه أنه خرج يوماً إلى بستان له متنزهاً فقال: ما أطيب يومنا هذا لو ساعدنا فيه الغيث فجاء المطر فى الوقت فأنشد يقول:

ليس شرب الراح إلا في المطر	وغناء من جوار في السحر
ناعمات سالبات للنهى	ناغمات في تضاعيف الوتر
بارزات الكاس من مطلعها	ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها	ملك الأملاك غلاب القدر
سهل الله له بغيته	في ملوك الأرض ما دار القمر
وأراه الخير في أولاده	ليساس الملك منهم بالغرر

قيل فلم يفلح بعد هذه الأبيات وعوجل بقوله غلاب القدر، فلما مات قام بالأمر بعده ولده الأمير صمصام الدولة فخلع عليه الخليفة الطائع لله وقلده ما كان بيد أبيه ولم تستقر به الولاية حتى قام عليه أخوه شرف الدولة وقبض عليه واعتقله وأحاط بدوره وأمواله ببغداد وجعل هو يتصرف فى الأمور حتى اعتل وانقطع عن الناس فأشار عليه نحرير الخادم بقتل أخيه صمصام الدولة فكان يعرض عن كلامه فلما اشتدت علته ألح عليه نحرير وقال له: إن الدولة معه على خطر فإن لم تقتله فأسمله فأرسل فى ذلك محمدا الشيرازى الفراش فمات شرف الدولة قبل أن يصل الفراش إلى حيث صمصام الدولة فتأخر الفراش عن سمله واستشار أبا القاسم العلاء بن الحسن الناظر فى ذلك فأشار عليه بسمله فسمله فكان صمصام الدولة يقول: ما أعمانى إلا العلاء لأنه أمضى فىّ حكم سلطان قد مات.

وتوفى شرف الدولة مستهل جمادى الآخرة وحمل إلى مشهد أمير المؤمنين علىّ

ابن أبى طالب فدفن به فكانت إمارته سنتين وثمانية أشهر، وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة وخمسة أشهر وكان قد سير ولده أبا عليّ إلى بلاد فارس وأصحبه بالخزائن والعدد والعسكر الكثير من الأتراك فلما اشتدّت علته وأيس أصحابه منه دخل عليه كبارهم يسألونه أن يولى أحداً فقال: أنا فى شاغل عما تدعوننى إليه فقالوا له: مر أخاك بهاء الدولة أبا نصر أن ينوب عنك إلى أن تعافى لئلا تثور فتنة فقال: لكم ذلك فاستدعى أخاه وكلمه فى ذلك فتوقف بهاء الدولة وامتنع عن قبول الوكالة ثم أجاب فلما مات شرف الدولة جلس بهاء الدولة فى المملكة وقعد للعزاء وركب الطائع لله الخليفة إلى العزاء فتلقاه بهاء الدولة وقبل الأرض بين يديه فخلع عليه الطائع خلع السلطنة وجعل يتصرف فى الأمور فكان قليل الحظ سيىء الطالع كثير شغب الجند عليه وقتال بعضهم لبعض وطلبهم للجماكى والمرتبات وما زالت الأحوال فى اختلال والجند فى تمرد وخروج حتى كانت سنة إحدى وثمانين وثلثمائة هجرية فعظم شغب الجند عليه وظهرت الفتنة وطالبوه بالجماكى. وقد قلّت عنده الأموال فقبض على وزيره سابور واستصفى ماله فلم يغن عنه ذلك شيئاً وكان أبو الحسين المعلم قد غلب على بهاء الدولة وحكم فى مملكته فحسن له القبض على الخليفة الطائع لله وأطمعه فى ماله وهوّن عليه ذلك فمال بهاء الدولة إلى ذلك وأرسل إلى الطائع وسأله الإذن فى الحضور فى خدمته ليجدد العهد به فأذن له بذلك وجلس له على عادة الخلفاء فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير فلما دخل قبل الأرض وجلس على كرسى فدخل بعض الديلم كأنه يريد يقبل يد الخليفة فجذبه فأنزله عن سريره والخليفة يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون وهو يستغيث ولا يلتفت إليه وأخذوه وأخذوا ما فى داره من الذخائر وشاع خبر القبض عليه فافتتن الناس ونهب بعضهم بعضا وكان من جملتهم الشريف الرضيّ فبادر بالخروج فسلم وقال أبياتاً من جملتها:

من بعد ما كان رب الملك مبتسما	إليّ أدنوه فى النجوى ويدنيني
أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه	لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني	ياقرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات أغتر بالسلطان ثانية	قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ولما وصلوا بالطائع إلى دار بهاء الدولة عقد لحضوره مجلساً وأشهد عليه بالخلع فخلع كارهاً فكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وستة أيام وكان أبيض مربوعاً حسن الجسم وكان أنفه كبيراً جدّا وكان شديد القوّة كثير الإقدام.

وامتدت أيام المعز لدين الله العلوى إلى خلافة الطائع لله فلما دانت له الأمور وتمت عليه نعمة الله تحرك القرامطة وتاقت نفس مقدّمهم حسن بن أحمد إلى غزو ديار مصر واستخلاصها من المعز لدين الله فسار فى سنة ثلاث وستين وثلثمائة هجرية من الأحساء فى جموع كثيرة إلى ديار مصر فحصرها ووردت الأخبار بذلك إلى المعز فأكبر هذا الأمر وأعظمه جدّا وكتب إلى حسن بن أحمد القرمطى كتاباً يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته وأن الدعوة واحدة وأن القرامطة إنما كانت دعوتهم إليه وإلى آبائه من قبله ووعظه وبالغ فى تهديده فلما وصل كتاب المعز إلى حسن بن أحمد كتب جوابه: «وصل كتابك الذى قل تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون إليك على أثره والسلام» وسار حتى نزل على عين شمس بعسكره وأنشب القتال وبث السرايا فى البلاد ينهبونها فكثرت لذلك جموعه وجاءه من طوائف العربان خلق كثير. قال صاحب الكامل: وكان ممن أتاه حسن بن الجراح الطائى أمير العرب بالشام ومعه جمع عظيم فلما رأى المعز كثرة جموعه استعظم ذلك وأهمه وتحير فى أمره ولم يقدم على إخراج عسكره لقتاله فاستشار أهل الرأى من نصحائه فقالوا: ليس حيلة غير السعى فى تفريق كلمتهم وإلقاء الخلف بينهم ولا يتم ذلك إلا بابن الجراح فراسله المعز واستماله وبذل له مائة ألف دينار إن هو خالف على القرمطى فأجابه ابن الجراح إلى ما طلب منه فاستحلفوه فحلف أنه إذا وصل إليه المال المقرر انهزم بالناس فأحضروا المال. قال: فلما رأوه استكثروه فضربوا أكثرها دنانير من صفر وألبسوها الذهب وجعلوها فى أسافل الأكياس وجعلوا الذهب الخالص على رؤوسها وحمل إليه فأرسل إلى المعز أن يخرج فى عسكره يوم كذا ويقاتلونه وهو فى الجهة الفلانية فإنه ينهزم ففعل المعز ذلك فانهزم وتبعه العرب كافة فلما رآه الحسن القرمطى منهزما تحير فى أمره وثبت وقاتل بعسكره إلا أن عسكر المعز طمعوا فيه وتابعوه بالحملات عليه من كان جانب فأرهقوه فولى منهزما واتبعوا أثره وظفروا بعسكره فأخذوا من فيه أسرى وكانوا نحو ألف وخمسمائة أسير فضربت أعناقهم ونهب ما فى المعسكر وجرد المعز القائد أبا محمد إبراهيم بن جعفر فى عشرة آلاف رجل وأمره باتباع القرامطة والإيقاع بهم فأتبعهم وتثاقل فى سيره خوفاً أن ترجع القرامطة إليه قال: وأما هم فإنهم ساروا حتى نزلوا أذرعات وساروا منها إلى بلدهم الأحساء ويظهرون أنهم يعودون. اهـ.

وما زال القائد أبو محمد إبراهيم بن جعفر سائراً بمن معه من العسكر حتى دخل دمشق وكان المعز ولى القائد ظالم بن موهوب العقيلى عليها قبل وصول أبى

محمد إليها بقليل فخرج ظالم للقاء أبى محمد مسرورا بقدومه لأنه كان مستشعرا من عود القرامطة إليه وطلب منه أن ينزل بعسكره بظاهر دمشق فنزل ولم يستقرّ به المقام حتى تطاولت أيدى أصحابه بالعبث والفساد وقطع الطريق فاضطرب الناس وكادوا يفتتنون واتفق أن صاحب الشرطة أخذ إنساناً من أهل البلد فقتله فثار به الغوغاء والأحداث وخرجوا عليه وقتلوا أصحابه وكادت الفتنة تعم البلاد فجعل ظالم يدارى الناس ويهوّن عليهم واتصل عبث أصحاب أبى محمد بالقرى فنزح أهلها وفارقوها ودخلوا البلد وهم يضجون من جور المغاربة، فلما كان منتصف شوال من السنة قامت الفتنة بين أهل دمشق والمغاربة عسكر المعز وعظمت وجرى بين الفريقين قتال شديد ودام الحال على ذلك من القتل والنهب وحرق الدور وتخريب القرى إلى ربيع الآخر سنة أربع وستين وثلثمائة إلى أن جاء مرسوم المعز لدين الله إلى أبى محمد بالعزل والتخلى عن قيادة من كان معه من الجند فاعتزل المنصب وورد مرسوم المعز إلى القائد ريان الخادم والى طرابلس يأمره بالمسير إلى دمشق لمشاهدة حالها وكشف أمور أهلها بعد الذى ذاقوه من هذه الحروب والمحن وأن يصرف القائد أبا محمود عنها فسار ريان إلى دمشق وكشف الأمر فيها وكتب به إلى المعز وتقدم إلى القائد أبى محمود بالانصراف فسار فى جماعة قليلة من العسكر إلى الرملة وبقى الأمر كذلك إلى أن ظهر الفتكين أبو منصور التركى بظاهر دمشق يريد غزوها وأخذها من المعز لدين الله والفتكين هذا من موالى معز الدولة بن بويه قد كان خرج على مولاه بختيار بن معز الدولة وعصاه وقاتل مولاه بختيار فهزمه بختيار ومزق جموعه فهرب فى جماعة قليلة من أصحابه وكلهم أهل نجدة وقوة ودوّخ بعض مدن الشام وما زال وقد هابه العرب وتخوّفوا منه حتى نزل على دمشق يريد غزوها وكان نزوله عليها فى إبان ظهور الفتنة وتغلب الأحداث عليها حتى لم يبق للأعيان معهم حكم ولا للسلطان عليهم طاعة فلما وافاها خرج إليه أشرافها وشيوخها وأظهروا له الفرح بقدومه وسألوه أن ينزل عندهم ويملك بلدهم ويزيل عنهم سمة المصريين فأجابهم إلى ذلك واستحلفهم على الطاعة والمساعدة وحلف لهم على الحماية وكف الأذى عنهم منه ومن غيره ثم دخل البلد بمن معه من الجند وأزال عنه ريان عامل المعز لدين الله وقطع خطبة المعز وخطب للخليفة الطائع لله وقمع أهل العسف والفساد فهابه الناس وخافوه جداً وكانت العرب قد استولت على سواد البلد وما يتصل به فأوقع بهم وقتل كثيراً منهم فأذعنوا له وقد ظهرت لهم شجاعته وعزة نفسه وكتب إلى المعز لدين الله يهديه ويظهر له الطاعة فمدحه المعز

وأرسل يستقدمه عنده ليخلع عليه ويوليه من جانبه فتخوّف الفتكين من ذلك وامتنع من المسير فتجهز المعز وجمع العساكر لقصده فلم يتم له ذلك حيث وافته منيته وهو على قدم المسير فمات فى سابع عشر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة وله من العمر خمس وأربعون سنة وستة أشهر تقريباً. قال صاحب الكامل: وكان سبب موته أن ملك الروم بالقسطنطينية أرسل إليه رسولاً كان يتردد إليه بإفريقية فخلا به بعض الأيام فقال له المعز: أتذكر إذا أتيتنى رسولا وأنا بالمهدية فقلت لتدخلن عليّ وأنا بمصر مالكا لها؟ قال نعم قال: وأنا أقول لك لتدخلن عليّ بغداد وأنا خليفة فقال له الرسول إن أمنتنى على نفسى ولم تغضب قلت لك ما عندى فقال له المعز: قل وأنت آمن قال: بعثنى إليك الملك ذلك العام فرأيت من عظمتك فى عينى وكثرة أصحابك ما كدت أموت منه ووصلت إلى قصرك فرأيت عليه نوراً عظيماً غطى بصرى ثم دخلت عليك فرأيتك على سريرك فظننتك خالقاً فلو قلت لى أنك تعرج إلى السماء لتحققت ذلك ثم جئت إليك الآن فما رأيت من ذلك شيئاً أشرفت على مدينتك فكانت فى عينى سوداء مظلمة ثم دخلت عليك فما وجدت من المهابة ما وجدته ذلك العام فقلت: إن ذلك كان أمراً مقبلاً وأنه الآن بضد ما كان عليه قال: فأطرق المعز وخرج الرسول من عنده وأخذت المعز الحمى لشدة ما وجد واتصل مرضه حتى مات فكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام منها مقامه بمصر سنتان وتسعة أشهر والباقى بإفريقية وهو رأس العائلة الفاطمية بديار مصر وكان شهماً حازماً مغرى بالنجوم لا يعمل إلا بأقوال المنجمين قال له منجمه إن عليه قطعا فى وقت كذا وأشار عليه بعمل سرداب يختفى فيه إلى أن يجوز ذلك الوقت ففعل ما أمره وأحضر قواده وكبار دولته فقال لهم: إن بينى وبين الله عهدا أنا ماض إليه وقد استخلفت عليكم ولدى نزارا يعنى العزيز فأسمعوا له وأطيعوا ثم نزل السرداب فكان أحد المغاربة إذا رأى سحابا نزل عن دابته وأومأ بالسلام إليه ظنا منه أن المعز فيه فغاب سنة ثم ظهر وبقى مدّة ثم مرض وتوفى فستر ابنه العزيز خبر موته إلى عيد النحر من السنة فصلى بالناس وخطبهم ودعا لنفسه وعزى بأبيه.

وكان المعز عالماً فاضلاً جواداً شجاعاً حسن التدبير عهد فى أيامه إلى يعقوب بن يوسف بن كاس خراج مصر وجميع وجوه الأموال والحسبة والأعشار وجميع ما يضاف إلى ذلك من سائر الأعمال وقد كان يعقوب هذا يهوديًا من بغداد جاء إلى مصر فى أيام كافور الإخشيدى وأسلم بها فعرفه كافور وقرّبه من مجلسه وولاه بعض المناصب العالية فظهرت كلمته واتسعت شهرته وما زال إلى أن دخل جوهر

مصر فعرف يعقوب المذكور وأقرّه على ما بيده من الأعمال حتى قلده المعز الخراج وضم إليه عسلوج بن الحسن وكتب لهما المعز سجلاً بذلك فجلسا فى جامع ابن طولون واتخذاه دارا للإمارة والنداء على الضياع وسائر وجوه الأموال فحضر الناس للقبالات وطالبا بالبقايا من الأموال على المتقبلين أى الملتزمين والمالكين والعمال واستقصيا الطلب ونظر فى المظالم فكثرت موارد الأموال وزيد فى الضياع وكثر الناس وتكاثفوا وحسنت أحوال البلاد ودّرت الأرزاق وعم الأخذ والعطاء سائر البلاد وبقى يعقوب على هذا الحال من النقض والإبرام فى أمور السلطنة حتى مات المعز.

يحكى عن المعز إنه لما كان قادماً إلى ديار مصر وخرج الناس للقائه اجتمع به أناس من الأشراف وفيهم عبد الله بن طباطبا فتقدّم إليه وقال إلى من ينتسب مولانا؟ فقال: سنعقد مجلساً نجمعكم فيه ونسرد عليكم نسبنا إن شاء الله فلما استقرّ بالمعز المقام فى قصره بالقاهرة جمع الناس فى مجلس عام وجلس بهم وقال هل بقى من رؤسائكم أحد؟ قالوا: لم يبق معتبر فسل نصف سيفه وقال: هذا نسبى، وبدر عليهم شيئاً كثيراً من الذهب وقال وهذا حسبى، فقالوا جميعاً: سمعنا وأطعنا ويقال إنه كان شاعراً من شعره هذه الأبيات:

لله مـــا صنعت بنا	تلك المحاجر بالمعاجر
أمضى وأقضى في النفو	س من الخناجر في الحناجر
ولقد تعبت بينكم	تعب المهاجر في الهواجر

ولما استقر بالعزيز الملك بعد أبيه المعز أطاعه العسكر واجتمعوا عند كلمته وكان هو يدبر الأمور منذ مات أبوه إلى أن أظهر خبر موته وأقر ابن كاس على ما بيده وفوّض إليه النظر فى سائر الأمور وبالغ فى إطلاق يده فعلت كلمة ابن كاس فأحكم نظام المملكة ورتب الدواوين وجعل منها ما هو للأموال والخراج والمستغلات ومنها ما هو للجيش والإنشاء والسجلات وجعل فيها الكتاب ورؤساء الكتاب والأمناء وكان يجلس للنظر بنفسه فى الظلامات ويخاطب الخصوم ويوقع على الرقاع وما زال على هذا الحال من بسط الكلمة والتصرف فى سائر الأمور حتى مات فى سنة ثمانين وثلثمائة هجرية، وعاد الفتكين إلى الظهور فى أيام العزيز ووالى الهجمات على سائر الشامات التابعة لديار مصر فاهتم العزيز لذلك وسير جوهرا القائد فى جيش عظيم لقتال الفتكين ووردت الأخبار بذلك إلى التفكين فتحصن فى دمشق وملأها بالمؤن والذخيرة فزحف عليه جوهر بعسكره ونزل بظاهر دمشق وبنى على معسكره سورا وحفر خندقاً عظيماً فقاتله الفتكين بمن معه من الرجال وألح فى قتاله فكانت

بينهم سجالاً وما زال جوهر يوالى الهجمات على حصون البلد حتى قلَّت الأقوات فى البلد واختل أمر الفتكين وكان يسقط فى يده ثم عاد فتقوى وجاء الخبر إلى جوهر القائد بخروج القرمطى أحمد وزحفه إلى دمشق فخاف جوهر وقد كانت أمواله قلَّت وهلك أكثر جنوده ودوابه فراسل الفتكين فى طلب الصلح على شروط معلومة فأجابه الفتكين إليها فرحل جوهر عن دمشق يريد القاهرة فلحقه القرمطى بمن معه وجعل يتخطف مؤخرة عسكر جوهر حتى دخل جوهر الرملة فأرسل القرمطى بسرية فاقتتلت مع جوهر فى واقعة كبيرة قتل فيها جماعة من الفريقين وفرَّ جوهر إلى عسقلان فلحقه الفتكين أيضاً فى عسكر وحاصر عسقلان فسير جوهر إلى العزيز فى طلب النجدة وأرسل إلى الفتكين فى طلب الصلح وأن تقرر قاعدته على مال يحمله إليه وأن يخرج من تحت سيفه فأجابه الفتكين إلى ذلك وعلق سيفه على باب عسقلان، فخرج جوهر ومن معه من تحته وساروا إلى القاهرة فوجدوا العزيز قد برز فى عسكر عظيم يريد المسير لقتال الفتكين فساروا معه حتى التقى الجمعان واشتبك القتال فلم تكن غير ساعة حتى انهزم جيش الفتكين وانتصر العزيز نصرة عظيمة فطلب الفتكين فإذا هو قد فر على فرس فقبض عليه أحد العرب وجاء به إلى العزيز وعمامته فى عنقه فأمر به فطيف به على العساكر على جمل فجعل العسكر يلطمونه ويهزون لحيته، وسار بالفتكين وجميع الأسرى يريد القاهرة فدخلها فى أبهة وتجمل زائد والغنائم أمامه والأسرى خلفه ثم رق إلى الفتكين، فاستخدمه ومن معه وأحسن إليه غاية الإحسان وأنزله فى دار وواصله بالعطاء والخلع حتى قال الفتكين يوماً: لقد احتشمت من ركوبى مع مولانا العزيز بالله وتطرَّقى إليه بما غمرنى من فضله وإحسانه فلما بلغ ذلك العزيز قال لعمه حيدر: ياعم والله إنى أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندى وما زال الفتكين يتقلب فى نعم العزيز حتى مات فى سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة هجرية وعظمت دولة العزيز بالله وكبر سلطانه فقلَّت الفتن فى أيامه إلا ما كان منها ضد النصارى ودرت الأرزاق وهبطت الأسعار وعم الأخذ والعطاء سائر البلاد وما زال يتصرف مع هيبة ووقار حتى وافته منيته فى خلافة القادر بالله أبى العباس أحمد بن إسحق بن المقتدر كما سيذكر فى محله.

ومات فى أيام الخليفة الطائع لله مكاريوس بطرك الإسكندرية بعد أن قام عشرين سنة قام فى خلالها المسلمون فى بيت المقدس على كنيسة القيامة فأحرقوها ونهبوا ما

فيها وأخذوا منها ما قدروا عليه حتى لم يبق فيها شىء يذكر ثم اشتد مسلمو مصر على من بها من القبط أهل البلاد شدّة بالغة فنهبوا أكثر دورهم وخربوا عدّة كثيرة من منازلهم وضيقوا عليهم وطالت أيام هذه الشدّة حتى كادت تعم سائر البلاد ثم زالت فأقام المتأصلون بعد موت مكاريوس المذكور تاوفانيوس وهو ستوهم وأصله من مدينة الإسكندرية وكان عالماً تقيا محبا للخير ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

(الفصل الخامس والعشرون)

(فى خلافة أبى العباس أحمد القادر بالله بن إسحق)

ثم قام بالأمر بعد الطائع لله أبو العباس أحمد القادر بالله بن إسحق بن المعتضد بويع له بالخلافة ليلة خلع الطائع لله سنة إحدى وثمانين وثلثمائة هجرية أى سنة إحدى وتسعين وتسعمائة ميلادية وعمره يومئذ أربع وأربعون سنة. قال أصحاب التاريخ: لما قبض على الطائع لله واعتقل فى دار بهاء الدولة ذكر بهاء الدولة من يصلح للخلافة وتكلم مع أصحابه فى ذلك فاتفقوا على القادر بالله وهو أبو العباس أحمد بن إسحق بن المقتدر بن المعتضد هذا وكان بعيداً عن دار السلام خوفاً من الطائع فأرسل بهاء الدولة فى طلبه فشغب جماعة الديلم ببغداد ومنعوه من الخطبة فقيل على المنبر: اللهم أصلح عبدك وخليفتك القادر بالله ولم يذكروا اسمه تسكيناً للفتنة فلما وصل الرسل إلى حيث القادر بالله دخلوا عليه وهو يحكى مناماً رآه تلك الليلة وهو ما حكاه هبة الله بن عيسى كاتب مهذب الدولة، قال: كنت أحضر عند القادر بالله كل أسبوع مرتين فكان يكرمنى فدخلت عليه يوماً فوجدته قد تأهب تأهباً لم تجر به عادته ولم أر منه ما ألفته من إكرامه واختلفت بى الظنون فسألته عن سبب ذلك فإن كان لزلة منى اعتذرت عن نفسى فقال: بل رأيت البارحة فى منامى كأن نهركم هذا نهر الصليق قد اتسع فصار مثل دجلة أضعافاً فسرت على حافته متعجباً منه ورأيت قنطرة عظيمة فقلت: من حدّث نفسه بجعل هذه القنطرة على هذا البحر العظيم ثم صعدتها وهى محكمة فبينا أنا عليها أتعجب منها إذ رأيت شخصاً قد تأملنى من ذلك الجانب فقال: أتريد أن تعبر؟ فقلت: نعم، فمدّ يده حتى وصلت إلىّ فأخذنى وأعبرنى فهالنى فعله قلت: من أنت؟ قال: علىّ بن أبى طالب وهذا الأمر صائر إليك ويطول عمرك فيه فأحسن إلى ولدى وشيعتى. قال المحدّث: فما

انتهى القـادر إلى هذا القول حتى سمعنـا صياح الملاحين وغيـرهم وسألنا عن ذلك وإذا هم الواردون إليه لإصعـاده ليتولى الخلافة فـخاطبته بإمرة المؤمنين وبايعـته وقام مهذب الدولة بخدمتـه أحسن قيام وحمل إليه من المال وغيره مـا يحمله كبار الملوك للخلفاء وشيعه فسار القـادر بالله إلى بغداد، فلما وصل إلى جبل انحدر بهاء الدولة وأعيان الناس لاسـتقباله وسـاروا فى خدمته فـدخل دار الخلافة ثانى عشـر رمضان وبايعه بهاء الدولة والناس وخطب له ثالث عشر رمضـان فلم تستقرّ به الخلافة حتى أعاد لها بهـجتها وجـدّد ناموسها وعظَّم حـرمتها وألقى الله هيبـته فى قلوب الخلق فأطاعوه أحسن طاعة وأتمها.

ولما كانت سنة اثنتـين وثمانين فى رجب سلم بهـاء الدولة الطائع لله إلى القادر بالله فأجله وأكرمه وأنزله حجرة من خاص حجره ووكل به من ثقات خدمه من يقوم بخدمته وأحسن ضيافته، فـكان الطائع يطلب الزيادة فى الخدمة كما كان أيام الخلافة فكان القادر بالله يأمـر له بذلك ويلاطفه. حكى عنه أن القادر بالله أرسل إليـه يوماً طيباً فقال الطائع: من هذا يتطيب أبو العباس؟ يعنى القادر فقالوا: نعم فقال: قولوا له عنى فى الموضع الفلانى كندوج فيـه مما كنت أستعمله فليرسل إلىّ بعـضه ويأخذ الباقى لنفسه ففعل ذلك وأرسل إليه يوماً القادر بالله عدسية، فقال: ما هذا؟ فقالوا: عدس وسلق. فقال: أوقد أكل أبو العـباس من هذا؟ قالوا نعم، قال: قولوا له عنى لما أردت أن تأكل عدسيـة لم اختفيت؟ فـما كانت العدسيـة تعوزك ولم تقلدت هذا الأمر؟ فأمر حـينئذ القادر أن تفرد له جارية من طباخانه تطبخ له مـا يلتمسه كل يوم فـأقام على هذا إلـى أن توفى، وكاتب القـادر بالله الملوك فى إرجـاع الخطبـة لبنى العباس ففـعلوا إلا القليل جداً وبايع لولده أبى الفضل بولاية العهد وأحـضر حجاج خراسان وأعلمهم بذلك ولقبه الغالب بالله. قال أصحاب التاريخ: وكان سبب البيعة لولده المذكور أنه كان بنصيبين رجل من ولد الواثق بالله أمـير المؤمنين اسمه أبو عبد الله بن عثمان الواثقى فـجاء أبو عبد الله هذا إلى بغداد وأقام بهـا أياماً ثم سار عنها إلى خراسـان وعبر النهر إلى هارون بن أيلـك بقرا خاقان ومـعه الفقيـه أبو الفضل التميمى فأكـرم هارون وفادتهما فأخبره أبو الفضل أنه رسـول من عند الخليفة القادر بالله إلى هارون يأمره بالبـيعة إلى أبى عـبد الله بن عثـمان المذكور فإنه ولى عـهده فأجـابه خاقان إلى ذلك وبايعـه وخطب له فى بلاده وأنزله منزلاً رحبـا وجعل ينفق عليه فلما بلغ ذلك الـقادر بالله عظم عليه جداً وراسل خاقـان فى الأمر فلم يلتفت خاقان لقـوله ولا صغى لرسالتـه فلبث القادر يعلل النفس حتى مـات هارون خاقان

وولى بعده أحمد قراخاقان فكاتب أحمد المذكور فى أمر أبى عبد الله بن عثمان وبالغ فى الطلب فأجابه أحمد إلى ما طلب وأمر بإبعاد ابن عثمان فبادر القادر بالبيعة لولده أبى الفضل بولاية العهد وجاء ابن عثمان إلى بغداد متنكرا فعرف بها وطلبه القادر فهرب إلى البصرة ثم إلى فارس وكرمان ثم إلى بلاد الترك مستنجدا فلم يتم له ما أراد وراسل الخليفة الملوك بطلبه فضاقت عليه الأرض وسار إلى خوارزم وأقام بها ثم فارقها فأخذه يمين الدولة محمود بن سبكتكين فحبسه فى قلعة إلى أن مات بها.

ومرض القادر بالله وانقطع فأرجف الناس بموته فبلغه ما يتحدّث به الناس فجلس لهم جلوسًا عامًّا وأذن للخاصة والعامة فوصلوا إليه فلما اجتمعوا قام الصاحب أبو القاسم وقال: إن خدم مولانا أمير المؤمنين داعون له بإطالة البقاء وشاكرون لما شملهم من نظره لهم وللمسلمين باختيار الأمير ولده بولاية العهد فقال الخليفة للناس: قد أذنا بالعهد له فلما عهد إليه ألقيت الستارة وقعد أبو الفضل على السرير الذى أقاموه له وخدمه الحاضرون وهنّئوه ودعى له على المنابر يوم الجمعة لتسع بقين من جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة فلما كان شهر ذى الحجة من السنة المذكورة مات أمير المؤمنين القادر بالله وعمره ست وثمانون سنة وعشرة أشهر فكانت خلافته إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوماً. وكان حليماً كريماً خيرا يحب الخير وأهله ويأمر به وينهى عن الشر ويبغض أهله وكان حسن الاعتقاد صنف فيه كتاباً على مذهب السنة وكان يخرج من داره فى زى العامة ويزور قبور الصالحين وإذا وصل إليه حال أمر فيه بالحق. قال القاضى حسين بن هارون: كان بالكرخ ملك أى عقار ليتيم وكان له قيمة جيدة فأرسل إلىّ ابن حاجب النعمان وهو حاجب القادر يأمرنى أن أفك عنه الحجر ليشترى بعض أصحابه ذلك الملك فلم أفعل فأرسل يستدعينى فقلت لغلامه: تقدّمنى حتى ألحقك وخفته فقصدت قبرا معروفا ودعوت الله أن يكفينى شره وهناك شيخ فقال لى: على من تدعو؟ فذكرت له ذلك ووصلت إلى ابن حاجب النعمان فأغلظ لى فى القول ولم يقبل عذرى فأتاه خادم برقعة ففتحها وقرأها فتغير لونه ونزل من الشدة فاعتذر إلىّ ثم قال: كتبت إلى الخليفة قصتى فقلت لا وعلمت أن ذلك الشيخ كان الخليفة، قيل وكان يقسم طعامه فى كل ليلة لثلاثة أقسام فقسم كان يتركه بين يديه وقسم يرسله إلى جامع الرصافة وقسم يرسله إلى جامع المدينة يفرق على المقيمين فيهما فاتفق أن الفراش حمل ليلة الطعام إلى جامع المدينة ففرقه على الجماعة فأخذوا إلا شابا فإنه

رده فلما صلوا المغرب خرج الشاب وتبعه الفراش فوقف على باب فاستطعم فأطعموه كسرات فأخذها وعاد إلى الجامع فقال له الفراش: ويحك ألا تستحى؟ ينفذ إليك خليفة الله الطعام حلالا فترده وتخرج وتأخذ من الأبواب فقال: والله ما رددته إلا لأنك عرضته عليّ قبل المغرب وكنت غير محتاج إليه فلما احتجت طلبت فعاد الفراش فأخبر الخليفة بذلك فبكى وقال له: راع مثل هذا واغتنم أخذه وأقم إلى وقت الإفطار، وقال أبو الحسن الأبهرى: أرسلنى بهاء الدولة إلى القادر بالله فى رسالة فسمعته ينشد:

سبق القضاء بكل ما هو كائن ... والله ياهذا لرزقك ضامن
تعني بما يفني وتترك ما به ... تعني كأنك للحوادث آمن
أو ما ترى الدنيا ومصرع أهلها ... فاعمل ليوم فراقها ياخائن
واعلم بأنك لا أبا لك في الذي ... أصبحت تجمعه لغيرك خازن
ياعامر الدنيا أتعمر منزلا ... لم يبق فيه مع المنية ساكن
الموت شيء أنت تعلم أنه ... حق وأنت بذكره تتهاون
إن المنية لا تؤامر من أتت ... في نفسه يوماً ولا تستأذن

قال: فقلت الحمد لله الذى وفق أمير المؤمنين لإنشاء مثل هذه الأبيات فقال: بل لله المنة إذ ألزمنا بذكره ووفقنا لشكره ألم تسمع قول الحسن البصرى فى أهل المعاصى هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم . اهـ.

وكان القادر أبيض طويل اللحية كبيرها يخضبها لشيبه وكان دائم التهجد كثير الصدقات.

ومات فى خلافته أى سنة ست وثمانين وثلثمائة هجرية العزيز أبو منصور نزار صاحب مصر مات فى بلبيس بعد مرض طويل بالقولنج والحصاة وله من العمر اثنتان وأربعون سنة وبضعة أشهر وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وخمسة عشر يوماً فحمل إلى القاهرة ودفن فى تربة القصر وكان العزيز جميلاً كثير العفو محبًا للخير أسمر طويلا أصهب الشعر عريض المنكبين واستوزر عيسى بن نسطور القبطىّ فكان عيسى هذا حسن التدبير والسياسة علىّ الهمة عاقلاً رزيناً مهيباً واسع الكلمة فمن حلم العزيز وحبه للعفو أنه كان بمصر شاعر اسمه الحسن بن بشر الدمشقى وكان كثير الهجاء فهجا يعقوب بن كلس وزير العزيز وكاتب الإنشاء أبا نصر عبد الله الحسين القيروانى فقال:

قل لأبي نصر صاحب القصر والمتأتي لنقض ذا الأمر
انقض عرا الملك للوزير تفز منه بحسن الثناء والذكر
وأعط وامنع ولا تخف أحدا فصاحب القصر ليس في القصر
وليس يدري ما ذا يراد به وهو إذا ما درى فما يدري

فشكاه ابن كلس إلى العزيز وأنشده الشعر فقال له: هذا شيء اشتركنا فيه فى الهجاء فشاركنى فى العفو عنه ثم إن الدمشقى المذكور قال وعرّض بالفضل القائد بهذه الأبيات:

تنصر فالتنصر دين حق عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا الـ ـعزيز ابن وروح القدس فضل

فشكاه أيضًا الفضل إلى العزيز فامتعض منه إلا أنه قال اعف عنه فعفا عنه ثم أشار الوزير على العزيز فقال: لم يبق للعفو عن هذا معنى وفيه غض من السياسة ونقض لهيبة الملك فإنه قد ذكرك وذكرنى ابن زبارج نديمك وسبك بقوله:

زبارجى نديم * وكلسى وزير * نعم على قدر الكلب يصلح الساجور

فغضب العزيز وأمر بالقبض عليه فقبض عليه لوقته، ثم بدا للعزيز إطلاقه فأرسل إليه يستدعيه وكان للوزير عين فى القصر ينقل له الأخبار فأخبره بذلك فأمر بقتله فقتل فلما وصل رسول العزيز فى طلبه أراه رأسه مقطوعًا فعاد إليه فأخبره فاغتم له، وكان للعزيز محاسن أخرى وهو أول من اتخذ وزيراً أثبت اسمه على الطرز وقرن اسمه باسمه وأول من رمى من العلويين بالنشاب وأوّل من اتخذ منهم الأتراك واستخدمهم وجعل منهم القواد وأول من ركب من العلويين بالذؤابة الطويلة وضرب بالصولجان ولعب بالرمح وأوّل من اتخذ الحمير لركوبه إياها وأول من أقام الطعام فى جامع القاهرة لمن يحضر فى رجب وشعبان ورمضان.

ولما مات ولى بعده ابنه أبو علىّ منصور الحاكم بأمر الله بعهد من أبيه ولى وعمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر وأوصى العزيز أرجوان الخادم به فكان يتولى أمر داره ويدبر أمور مملكته وهو الذى أخذ له البيعة على الناس ولم يمض على ولايته إلا القليل حتى ظهر بمصر ابن عمار شيخ كتامة وسيدها وعلت كلمته فتمكن من أمور السلطنة وأمر ونهى وحكم البلاد ولقب بأمير الدولة. قال أصحاب التاريخ: وهو أوّل من لقب فى دولة العلويين المصريين بهذا اللقب ولما بسط يده

على جميع الأمور أشار عليه أصحابه بقتل الحاكم بأمر الله واستخلاص البلاد لنفسه والاستقلال بملكها فلم يقبل ذلك احتقارا للحاكم واستصغار لسنه وطغت كتامة وتجبرت وتطاولت أيديهم إلى أموال الناس والعبث فى البلاد وأخذ النساء وأرجوان الخادم لا يقدر على منعهم وهو مقيم مع الحاكم فى قصره يحرسه فلما ضاقت على أرجوان المذاهب كتب إلى منجوتكين وهو يومئذ بدمشق يشكو إليه من فعال ابن عمار وأصحابه ويستنهضه إلى نجدة الحاكم بأمر الله فجهز منجوتكين جيشاً وسار به من دمشق إلى مصر فعلم ابن عمار بخبره وخشى العاقبة فأظهر أن منجوتكين قد عصى على الحاكم وحضر إلى مصر ليخلعه من السلطنة ونادى فى جنده بالخروج لقتال منجوتكين فخرجوا وتقدمهم أبو تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامى والتقوا بعسقلان واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم منجوتكين وأصحابه وقتل منهم خلق كثير وأسر منجوتكين وحمل إلى مصر فأبقى عليه ابن عمار وأطلقه وولى على الشام أبا تميم الكتامى بدل منجوتكين المذكور فسار إلى طبرية واستعمل على دمشق أخاه عليًا فامتنع الناس عليه فأرسل إليهم أبو تميم يتهددهم إن هم أصروا على عدم الطاعة فخافوا وأذعنوا فدخل البلد فأحرق وقتل وعاد إلى معسكره وقدّم عليهم أبا تميم فأحسن إليهم وأطلق المسجونين واستعمل أخوه عليّ على طرابلس بدل دمشق وخلع عنها جيش بن الصمصامة الكتامى فساءه ذلك ومضى إلى مصر واجتمع بأرجوان وحبّب إليه العمل على خلع الحسن بن عمارة فمال إلى ذلك وانتهز فرصة غياب كتامة عن مصر مع أبى تميم إلا القليل منهم فدس أرجوان إلى المشارقة أن يفتكوا بمن بقى من كتامة بمصر وبابن عمار معهم فبلغ ذلك ابن عمار فعمل على الإيقاع بأرجوان وشكر العضدى فأخبرهما عيون لهما على ابن عمار بذلك فاحتاطا ودخلا قصر الحاكم باكيين واستدعوا كبار المشارقة وفرقوا فيهم الأموال فثاروا على ابن عمار ومن معه من كتامة وشدوا فى قتالهم فانهزم ابن عمار وأصحابه واختفى فتقوّت عزيمة أرجوان وفرح بهذا الظفر وأخرج الحاكم بأمر الله وأجلسه وجدد له البيعة وكتب إلى وجوه القوّاد وللناس بدمشق بالإيقاع بأبى تميم فلم يشعر إلا وقد هجموا عليه ونهبوا خزائنه فخرج هارباً وقتلوا من كان معه من كتامة فعادت الفتنة بدمشق واضطربت الأمور وعصى أهل صور والرملة وغيرهما فسيَّر أرجوان لقتالهم جيشاً عظيماً وظفر بهم وأرجعهم إلى الطاعة وظفر بأبى تميم فكان ذلك أول فتح حصل على يد أرجوان.

وما زال أرجوان يدبر الأمور ويمهد العقبات ويثبت سلطنة الحاكم بأمر الله

ويفتح الفتوحات الكبار مثل برقة وطرابلس الغرب وغيرهما ويبالغ فى خدمة الحاكم حتى كانت سنة تسع وثمانين فثقل مكانه على الحاكم وأبغضه وأراد التخلص منه فقتله وكان أرجوان هذا خصيا أبيض حسن التدبير صائب الرأى وكان له وزير قبطى اسمه فهد بن إبراهيم وكان فهد هذا عاقلاً حسن السياسة فاستوزره الحاكم ومال إليه وأحبه كثيراً وعلت كلمة الحاكم بأمر الله فسير الجيوش للغزو واشتد على القواد وكبار القبائل بمصر وأكثر فيهم القتل فخرج عليه الوليد المعروف بأبى ركوة وخرج معه كبار القبائل وأكثر القواد. قال بعض أصحاب التاريخ فى سبب خروجه على الحاكم ما نصه: كان أبو ركوة اسمه الوليد وإنما كنى أبا ركوة لركوة كان يحملها فى أسفاره سنة الصوفية وهو من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان ويقرب فى النسب من المؤيد هشام بن الحكم الأموى صاحب الأندلس ولم استولى المنصور بن أبى عامر على المؤيد وأخفاه عن الناس تتبع أهله ومن يصلح منهم للملك فقتل البعض وهرب البعض كان أبو ركوة ممن هرب وعمره يومئذ يناهز العشرين سنة وقصد مصر وأقام بها وكتب الحديث ثم رحل إلى مكة واليمن وعاد إلى مصر ودعا بها إلى القائم فأجابه بنو قرّة وغيرهم قالوا: وسبب استجابتهم له أن الحاكم بأمر الله كان قد أسرف فى مصر فى قتل القوّاد وحبسهم وأخذ أموالهم وصارت القبائل معه فى ضنك وضيق ويودون خروج الملك من يده وكان الحاكم فى الوقت الذى دعا فيه أبو ركوة بنى قرة قد آذاهم وحبس منهم جماعة من أعيانهم وقتل بعضهم فلما دعاهم أبو ركوة انقادوا له وكان بين بنى قرة وبين زناتة حروب ودماء فاتفقوا على الصلح ومنع أنفسهم من الحاكم فقصد بنى قرة وفتح مكتبا يعلم الصبيان الخط وتظاهر بالدين والنسك وأمّهم فى صلواتهم وشرع فى دعوتهم إلى ما يريد فأجابوه وبايعوه واتفقوا عليه وعرفهم حينئذ نفسه وذكر لهم أن عندهم فى الكتب أن يملك مصر وغيرها ووعدهم ومناهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا فاجتمع بنو قرّة وزناتة على بيعته وخاطبوه بالإمامة وكانوا بنواحى برقة فلما سمع الوالى ببرقة خبره كتب إلى الحاكم ينهيه إليه ويستأذنه فى قصدهم وإصلاحهم فأمره بالكف عنهم وإطراحهم ثم إن أبا ركوة جمعهم وسار إلى برقة واستقر بينهم أن يكون الثلث من الغنائم له والثلثان لبنى قرة وزناتة فلما قاربها خرج إليه واليها فالتقوا فانهزم عسكر الحاكم وملك أبو ركوة برقة وقوى هو ومن معه بما أخذوا من الأموال والسلاح وغيرهما ونادى بالكف عن الرعية والنهب وأظهر العدل وأمر بالمعروف فلما وصل المنهزمون إلى الحاكم عظم عليه الأمر وأهمته نفسه وملكه وعاود الإحسان إلى الناس والكف

عن أذاهم وندب عسكرا نحو خمسة آلاف فارس وسيَّرهم وقدّم عليهم قائدا يعرف بإينال الطويل فبلغ ذات الحمام وبينها وبين برقة مفازة فيها منزلان لا يلقى السالك الماء إلا فى آبار عميقة بصعوبة وشدة فسيَّر أبو ركوة قائداً فى ألف فارس وأمرهم بالمسير إلى إينال ومن معه ومطاردتهم قبل الوصول إلى المنزلين المذكورين وأمرهم إذا عادوا أن يغوّروا الآبار ففعلوا ذلك وعادوا وحينئذ سار أبو ركوة فى عساكره ولقيهم وقد خرجوا من المفازة على ضعف وعطش فقاتلهم واشتد القتال فحمل إينال على عسكر أبى ركوة فقتل منهم خلقاً كثيراً وأبو ركوة واقف لا يحمل هو ولا عسكره فاستأمن إليه جماعة كثيرة من كتامة لما نالهم من الأذى والقتل من الحاكم وأخذوا الأمان لمن بقى من أصحابهم ولحقهم الباقون فحمل حينئذ بهم على عساكر الحاكم فانهزمت وأسر إينال وقتل وأسر أكثر عسكره وقتل منهم خلق كثير وعاد إلى برقة وقد امتلأت أيديهم من الغنائم وانتشر ذكره وعظمت هيبته وأقام ببرقة وترددت سراياه إلى الصعيد وأرض مصر وقام الحاكم من ذلك وقعد وسقط فى يده وندم على ما فرط وفرح جند مصر وأعيانها وعلم الحاكم ذلك فاشتد قلقه وأظهر الاعتذار عن الذى فعله وكتب الناس إلى أبى ركوة يستدعونه وممن كتب إليه الحسين بن جوهر المعروف بقائد القواد فسار حينئذ من برقة إلى الصعيد وعلم الحاكم فاشتد خوفه وبلغ الأمر به كل مبلغ وجمع عساكره واستشارهم وكتب إلى الشام يستدعى العساكر فجاءته ففرق الأموال والدواب والسلاح وسيرهم وهم اثنا عشر ألف رجل بين فارس وراجل سوى العرب واستعمل عليهم الفضل بن عبد الله فلما قاربوا أبا ركوة لقيهم فى عساكره ورام مناجزة المصريين والفضل يناجز ويدافع ويراسل أصحاب أبى ركوة يستميلهم ويبذل لهم الرغائب فأجابه قائد كبير من بنى قرة يعرف بالماضى وكان يطالعه بأخبار القوم وما هم عازمون فيدبر الفضل أمره على حسب ما يعلمه منه وضاقت الميرة على العساكر فاضطر الفضل إلى اللقاء فالتقوا واقتتلوا بكوم شريكٍ فقتل بين الفريقين قتلى كثيرة ورأى الفضل من جمع أبى ركوة ما هاله وخاف المناجزة فعاد إلى عسكره وراسل بنو قرة العرب الذين فى عسكر الحاكم يستدعونهم إليهم ويذكرونهم أعمال الحاكم بهم فأجابوهم واستقر الأمر على أن يكون الشام للعرب ومصر لأبى ركوة ومن معه وتواعدوا ليلة يسير فيها أبو ركوة إلى الفضل فإذا وصل إليه انهزمت العرب ولا يبقى دون مصر مانع فكتب الماضى إلى الفضل بذلك فلما كانت ليلة الميعاد جمع الفضل رؤساء العرب ليفطروا عنده وأظهر أنه صائم وطاولهم الحديث وتركهم فى خيمة واعتزلهم ووصى أصحابه بالحذر ورام

العرب العود إلى خيامهم فعللهم وطاولهم ثم أحضر الطعام وأحضرهم فأكلوا وتحدثوا وسير الفضل سرية إلى طريق أبي ركوة فلقوا العسكر الوارد من عنده فاقتتلوا ووصل الخبر إلى العسكر فارتج وأراد العرب الركوب فمنعهم وأرسل إلى أصحابهم من العرب فأمرهم بالركوب والقتال ولم يكن عندهم علم بما فعل رؤساؤهم فركبوا واشتدّ القتال ورأى بنو قرة الأمر على خلاف ما قرروه ثم ركب الفضل ومعه رؤساء العرب وقد فاتهم ما عزموا عليه فباشروا الحرب وغاصوا فيها وورد لأبي ركوة مدد من أصحابه فلما رآه الفضل ردّ أصحابه وعاد إلى المدافعة وجهز الحاكم عسكراً آخر نحو أربعة آلاف فارس وعبروا إلى الجيزة فسمع أبو ركوة بهم فسار مجداً في عسكره ليواقعهم عند مصر وضبط الطرق لئلا يسمع الفضل ولم يمكن الماضي أن يكاتبه بذلك فساروا وأرسل إليه من الطريق يعرّفه الخبر وقطع أبو ركوة مسير خمس ليال في ليلتين وكبسوا عسكر الحاكم بالجيزة وقتلوا نحو ألف فارس وخاف أهل مصر ولم يبرز الحاكم من قصره وأمر الحاكم من عنده من العساكر بالعبور إلى الجيزة ورجع أبو ركوة فنزل عند الهرمين ثم انصرف من يومه وكتب الحاكم إلى الفضل كتاباً ظاهراً يقول فيه: إن أبا ركوة انهزم من عساكرنا ليقرأ على القواد وكتب إليه سراً يعلمه بالحال فأظهر الفضل البشارة بانهزام أبي ركوة تسكيناً للناس ثم سار أبو ركوة إلى موضع يعرف بالسبخة كثير الأشجار وتبعه الفضل وكمن أبو ركوة بين الأشجار وطارد عسكر الفضل ورجع عسكره القهقرى ليطمعوا عسكر الفضل ويخرج الكمين إليهم فلما رأى الكمناء رجوع أبي ركوة ظنوها الهزيمة لا شك فيها فولوا يتبعونهم فركبهم أصحاب الفضل وعلوهم بالسيوف فقتل منهم ألوف كثيرة وانهزم أبو ركوة ومعه بنو قرة وساروا إلى حللهم فلما بلغوها ثبطهم الماضي عن المقام معه فقالوا له: قد قاتلنا معك ولم يبق فينا قتال فخذ لنفسك وانج فسار إلى النوبة فلما بلغ إلى حصن يعرف بحصن الجبل للنوبة أظهر أنه رسول من الحاكم إلى ملكهم فقال له صاحب الحصن: الملك عليل ولابد من استخراج أمره في مسيرك إليه وبلغ الفضل الخبر فأرسل إلى صاحب القلعة بالخبر على حقيقته فوكل به من يحفظه وأرسل إلى الملك بالحال وكان ملك النوبة قد توفي وملك بعده ولده فأمر بأن يسلم إلى نائب الحاكم فتسلمه رسول الفضل وسار به فلقيه الفضل وأكرمه وأنزله في مضاربه وحمله إلى مصر فأشهر بها وطيف به وكتب أبو ركوة إلى الحاكم رقعة يقول فيها: يامولانا الذنوب عظيمة وأعظم منها عفوك والدماء حرام ما لم يحلله سخطك وقد أحسنت وأسأت وما ظلمت إلا نفسي وسوء عملي أوبقني وأقول:

فـررت فـلم يغن الفـرار ومن يكن	مع الله لم يعـجزه في الأرض هارب
ووالله مـا كـان الفـرار لحـاجـة	سـوى فـزع الموت الذي أنا شـارب
وقـد قـادني جـرمي إليك بـرمـتي	كما خـر ميتاً في رحـا الموت سارب
وأجـمع كل النـاس أنك قـاتـلي	فـيـارب ظن ربه فـيك كـاذب
ومـا هو إلا الانـتـقـام وينتـهي	وأخـذك منه واجب لـك واجب

ولما طيف به ألبس طرطورا وجعل خلفه قرد يصفعه وكان معلماً بذلك ثم حمل إلى ظاهر القاهرة ليقتل ويصلب فتوفى قبل وصوله فقطع رأسه وصلب وبالغ الحاكم فى إكرام الفضل إلى حد أنه عاده فى مرضة مرضها دفعتين فاستعظم الناس ذلك ثم إنه عمل على قتل الفضل لما عوفى فقتله.

وصفت الأمور للـحاكم فكثر شره وكبـر ظلمه وعظم إفساده وطغـيانه فكان لا يستقر على أمر من الأمور وكـان له فى كل ساعة شأن قيل إنه ابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ وبالغ فى إتقانها وتعـزيزها ثم عاد فقتلهم جميعاً وخربها وألزم الناس بإغلاق الأسواق نهاراً وفـتحها ليلاً فامتثلوا ذلك دهراً طويلاً حـتى اجتاز مرة بشيخ يعـمل النجارة فى أثناء النهار فـوقف عليه. وقال ألم ننهكم عن هذا؟ فـقال ياسيدى أمـا كان الناس يسهرون لما كـانوا يتعيشـون بالنهار؟ فهذا من جمـلة السهر فتبـسم وتركه وأعاد الناس إلى أمـرهم الأول وكان يعمل الحسـبة بنفسه فـيدور فى الأسواق على حمار له وكان لا يركب إلا حماراً فمن وجده قد غش فى معيشته أمر عبداً أسود معه اسمه مسعـود أن يفعل به الفاحشة العظمى. وكان قد منع النساء من الخروج من بيوتهن وأن لا يطلعن من الطاقات أو الأسطحـة ومنع الخفافين من عمل الأخفاف ومنعهن من دخول الحمامات وقتل خلقا من النساء على مخالفة ذلك وهدم بعض الحمامات عليـهن ومنع من طبخ الملوخية والقرع وله رعونات كـثيرة للغاية لا تدخل تحت الحصر فأبـغضه الناس وكتبوا له الأوراق بالشتـم له ولأسلافه فى صور قصص حـتى عملوا صورة امـرأة من ورق بخفها وإزارها وفى يـدها قصة فيـها من الشتم شيء كثير فلما رآها ظنها امرأة فذهب من ناحيتها وأخذ القصة من يدها فلما رأى ما فيهـا غضب وأمر بقتلها فلما تحـققها من ورق ازداد غضباً إلى غـضبه وأمر العبيد من السود أن يحـرقوا مصر وينهبوا ما فيها من الأموال ويسـبوا النساء ففعلوا وقاتلهم أهل مـصر قتـلاً عنيفـاً ثلاثة أيام والنار تعمل فى الدور والسـبى فى النساء واجتمع الناس فى الجامع ورفـعوا المصاحف ولجئوا إلى الله تعالى واسـتغاثوا به وما انجلى الحال حتى احترق من مـصر نحو ثلثها ونهب نحو نصفها وسبـيت نساء كثيرة

وفعل بهن الفاحشة العظمى واشترى الرجال من سبى لهم من النساء والحريم من أيدى العبيد. قال ابن الجوزى: وزاد ظلم الحاكم وعنّ له أن يدعى الربوبية فصار الناس إذا رأوه يقولون ياواحد ياأحد يامحيى يامميت . اهـ.

وأنزل بالنصارى شدائد لم يعهدوا مثلها من قبل وذلك أنه لما تمكن الكثير منهم من أعمال الدولة وصاروا الوزراء حسدهم المسلمون واتهموهم بالمكايدة ووشوا بهم عند الحاكم بأمر الله فغضب جداً وكان لا يملك نفسه إذا غضب فقبض على عيسى ابن نسطور القبطىّ وهو إذ ذاك فى رتبة الوزارة فضرب عنقه جهاراً وقبض على فهد ابن إبراهيم كاتب الأستاذ برجوان وضرب عنقه وشدّد على النصارى وألزمهم بلبس ثياب الغيار وشدّ الزنانير على أوساطهم ومنعهم من عمل الشعانين وعيد الصليب والتظاهر بما كانت عليه عادتهم فى الأعياد والمواسم من الاجتماع وقبض على جميع ما هو محبس للكنائس والديارات وأدخله فى الديوان وكتب إلى عماله كلهم بذلك وأحرق خلقاً كثيراً ومنعهم من شراء العبيد والإماء وهدم الكنائس التى بخط راشدة ظاهر مدينة مصر وأخرب كنائس المقس خارج القاهرة وأباح ما فيها للناس فانتهبوا منها ما يجل عن الوصف وهدم دير القصير وأنهب العامة ما فيه ومنعهم من عمل الغطاس على شاطئ النيل بمصر المحروسة وأبطل ما يعمل فيه من الاجتماع وألزم الرجال منهم بتعليق الصلبان من الخشب التى زنة كل صليب مها خمسة أرطال فى أعناقهم ومنعهم من ركوب الخيل ورسم لهم أن يركبوا البغال والحمير بسروج ولجم غير محلاة بل من جلود سود ومنع من ضرب الجرس فى القاهرة ونبّه أن لا يركب أحد من المكارية ذميا ولا يحمل نوتىّ مسلم أحدا من أهل الذمة وأن تكون ثيابهم وعمائمهم شديدة السواد وركب سروجهم من خشب الجميز وأن يعلق اليهود كذلك فى أعناقهم خشباً مدوّراً زنة الخشبة منها نحو الخمسة أرطال وهى ظاهرة فوق ثيابهم وزاد فى الجور والعسف فهدم ما بقى من الكنائس وأباح ما فيها وما هو محبس عليها للناس نهباً وإقطاعاً فهدمت بأسرها ونهب جميع أمتعتها وأقطع أحباسها وبنى فى مواضعها المساجد وأذن بالصلاة فى كنيسة مارى شنودة بمصر وأحيط بكنيسة المعلقة فى قصر الشمع وأكثر العامة من رفع القصص يطلبون بها هدم كنائس أعمال مصر ودياراتها فلم يردّ قصة منها إلا وقد وقع عليها بإجابة رافعها إلى ما سأل فأخذوا أمتعة الكنائس والديارات وباعوها بأسواق مصر من أوانى الذهب والفضة وغير ذلك وتصرفوا فى أحباسها ووجدوا بكنيسة مارى شنودة مالاً جليلاً وكذلك فى كنيسة المعلقة من المصاغ وثياب الديباج شيئاً كثيراً جداً ثم كتب إلى ولاة الأعمال

بتمكين المسلمين من هدم الكنائس والديارات فعم الهدم والتخريب فيها من سنة ثلاث وأربعمائة هجرية حتى ذكر بعض أصحاب التاريخ أن الذى هدم لغاية أخريات سنة خمس وأربعمائة بمصر والشام وأعمالهما من الهياكل التى بناها الروم نيف وثلاثون ألف بيعة ونهب ما فيها من آلات الذهب والفضة وقبض على أوقافها.

وألزم النصارى أن تكون الصلبان فى أعناقهم إذا دخلوا الحمام وألزم اليهود أن تكون فى أعناقهم الأجراس إذا دخلوا الحمام ثم ألزم الاثنين معاً بخروجهم كلهم من أرض مصر إلى بلاد الروم فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر من القاهرة واستغاثوا وصاحوا بطلب العفو حتى أعفوا من النفى وفى خلال هذه الإحن أسلم كثير من النصارى وضربتهم يد الشتات فتمزقوا أو كادوا وأسكن اليهود فى حارة زويلة وتهدّدهم بالقتل إن لم يسلموا فخافوا وأسلم منهم عدد غفير ثم أمرهم بالرجوع إلى دينهم فارتد منهم فى يوم واحد سبعة آلاف ثم عاد فأمر بهدم معابدهم فهدمت ثم أمر بإعادتها لهم فأعيدت وادعى الألوهية فكان يكتب له: بسم الحاكم الرحمن الرحيم. ثم إنه ادعى علم الغيب فكان يقول إن فلاناً قال فى بيته كذا وكذا ودخل له كذا وكذا وكان ذلك باتفاق اعتمده مع العجائز اللواتى كن يدخلن بيوت الأمراء وغيرهم ويخبرنه بما جرى ثم كان من أمره أن تعدّى شره إلى أخته الأميرة سيدة الملك فاتهمها بالفاحشة وتهدّدها بالقتل وقد كانت من أفضل وأزكى نساء عصرها فأخذت فى تدبير الحيلة على قتله فأرسلت إلى أحد كبار قوّاد الحاكم وهو الأمير سيف الدين بن الدوّاس تقول: إننى أريد أن ألقاك وسارت إليه ليلاً. وقالت له: قد جئت إليك فى أمر تحفظ فيه نفسك ونفسى وأنت تعلم ما يجرى من أخى من سفك الدماء وخراب البلاد وقد صمم على قتلك وقتلى وأخاف أن الناس يثورون به فيهلك هو ونحن وتنقلع هذه الدولة فقال وما الحيلة فى أمره؟ قالت: الرأى عندى أن ترسل إليه غلماناً يقتلونه عند خروجه إلى جبل المقطم فى غد وليس معه غلام إلا الركابى وصبى وينفرد بنفسه فإذا قتل نقيم ولده وتكون أنت وزيره ومدبر دولته وأزيد فى إقطاعك مائة ألف دينار، ومضت سيدة الملك إلى قصرها فلما كان الغد خرج الحاكم على عادته وانفرد بنفسه بالجبل المذكور فعمد ابن الدواس إلى عشرة من العبيد السود وأعطى كل واحد منهم خمسمائة دينار ومضوا إلى الجبل وقتلوه وأتوا به إلى أخته ليلاً فدفنته فى دارها وكان عمره ستّا وثلاثين سنة وتسعة أشهر وولايته خمساً وعشرين سنة وعشرين يوماً. وكان قتله ليلة الاثنين لثلاث بقين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة هجرية وبقى الناس على رسمهم يخرجون كل يوم

يلتمسون رجوعه إلى سلخ شوال، فلما كان ثالث ذى القعـدة خرج مظفر الصقلبى صاحب المظلة وغيـره من خواص الحاكم ومعهم القـاضى فبلغوا حلوان ودخلوا فى الجبل فبصروا بالحمار الذى كان عليه راكبـاً وقد ضربت يداه بسيف فأثر فيهما وعليه سرجه ولجـامه فاتبعوا أثره فـانتهوا به إلى البركة إلى شـرقى حلوان فرأوا ثيابه وهى سبع قطع صـوف مزررة بحالها لم تحل وفـيها أثر السكاكين فـعادوا ولم يشكوا فى قتلـه واجتمع الجنـد على سيدة المـلك أخت الحاكم يسـألون عن سبب عـدم رجوع الحاكم ففرّقت فى قوّادهم الأموال، وأصبحت وقـد ألبست أبا الحسن عليا بن أخيها الحاكم أفخـر الملابس، وكان الجند قد اجتمعـوا حول القصر ليعلمـوا ما جرى على الحاكم فلم يلبـثوا أن خرج أبو الحـسن وهو صبى والوزير بين يديه فـصاح ياعبـيد الدولة مولاتنا تقول لكم: هذا مولاكم أمير المؤمنين فسلموا عليه ثم قبَّل ابن الدوّاس الأرض بين يديه وكذلك القواد الذين أرسلت إليهم الأموال ودعوا له فتبعهم الباقون ومشوا مـعه ولم يزل راكباً فنزل ودعـا الناس من الغد فبايعـوه ولقب الظاهر لإعزاز دين الله وسير الكتب إلى البلاد بمصر والشام بأخذ البيعة وجمعت سيدة الملك الناس ووعدتهم وأحسنت إليـهم ورتبت الأمر ترتيباً حسنا وجـعلت الأمر بيد ابن الدواس وبالغت فى تعظيمـه، ثم إنها قالت له: إننا نريد أن ترد جمـيع أحوال المملكة إليك ونزيد فى إقطاعك ونشرفك بالخلع السنية فأختر يوماً يفعل فيه ذلك وشاع هذا الخبر بين الناس وتحدثوا به كثيـراً، ثم أحضرته وأحضرت جميع القـواد إلى قصرها فلما انتظم بهم المقـام أمرت الغلمـان فأغلقـوا الأبواب وأرسلت إلى ابن الدوّاس غـلاماً ومعه السيف. وقالت له: إذا وقفت على رأس ابن الدوّاس فقل للقوّاد أن هذا قاتل مولاكم الحـاكم ثم أضربه بالسـيف ففعل ذلك وقـتله فلم يختلف رجـلان وجعلت تتصرف فى الأمور بنفسها فأحسنت التدبير واتسعت كلمتها وقامت هيبتها عند الناس واستقامت الأمور على يديها وعاشت بعد الحاكم أربع سنين لا رادّ لكلمتها.

وكان للحاكم بأمر الله المذكور وزير اسـمه حمزة كان عظيم الدهاء واسع العلم غزير المادة قد وضع للحاكم مذهباً مخـصوصاً هو من مذاهب الباطنيين، وقيل: بل من اعـتقـادات القرامطة، وقـيل: هو دين مسـتـقل لا علاقـة له بشيء من الأديان الأخرى فظهر الدين المذكـور وأشتهر أوائل القرن الخـامس للهجرة المحمدية فتـبعه خلق كثـير جدًا وجـمع أصحابه فى إخـفاء أمره وكتـمان سره وغلق جـميع أبواب الوصول إليـه ومع ذلك فقـد اجتهـد أهل التاريخ وكـتاب الأخبـار من السلف فى الحصول على معرفة ما يمكن معرفته من تلك الأسرار، وفاز بعضهم بالاطلاع على

بعض المؤلفات والرسائل فى ذلك الحين وبحثوا وفتشوا فوجدوا من الكتب والرسائل الخاصة بهذا الدين عدّة منها كتاب المشاهد والأسرار التوحيدية وكتاب الرد على النصيرية وهو يتضمن ستا وعشرين رسالة والرسالة المعروفة بالشافية لنفوس الموحدين الممرّضة لقلوب المقصرين الجاحدين والرسالة المعروفة بالرسالة الموسومة بالأسرار ومجالس الرحمة للأولياء الأبرار وأخرى اسمها الرسالة الموسومة بمجالس الرحمة، قال بعض الكتاب: ويظن أن الكتب عندهم سبعة لأن عدد سبعة هو من الأعداد المقدّسة عندهم. قالوا لأن السموات سبع وكذلك الأرضون والسيارات وأيام الأسبوع والعناصر والأئمة عندهم والناطقون وغير ذلك فقد وجد فى أحد كتبهم المار ذكرها هذه العبارة، الجزء الأول من السبعة الأجزاء، وفى كتاب آخر ما نصه فوضعت هذا الكتاب وهو الجزء الأوّل من السبعة الأجزاء يشتمل على فرائض فرضها مولانا ذو المنّة والإحسان وأنطق بها عبدة قائم الزمان يتلو بعضها بعضاً ويوضح فى العقل أنها فرض وفى كل كتاب ذكر فرض ما يجب أن يفرض وإسقاط مايجب أن يسقط وينقض، قال العلامة البستانى فى كتابه دائرة المعارف: ولهم عدّة كتب أخرى محفوظة بدار الكتب فى بلاد الفرنسيس والإنجليز والمكتبة البابوية وغيرها وتشتمل هذه الكتب على عدّة رسائل أو فصول لكل رسالة أو فصل منها عنوان مخصوص وكلها تعاليم وردود على بعض المارقين من دينهم أو المخالفين لتعاليمهم وجلها بل كلها تنسب إلى حمزة المذكور الملقب عندهم بالعقل.

فمن قواعد دينهم هذا ما جاء فى كتبهم أن الله واحد وهو الكائن الوحيد الذى تجب عبادته وألوهيته لا تدركها العقول فهى غير قابلة للتحديد والتعريف وقد ظهر للبشرعدّة مرار فى ناسوته، ثم ظهر لهم أخيراً باسم الحاكم فعمل من الأعمال ما لا يدركه العقل البشرى، وأعماله كلها حكمة وأسرار غريبة للغاية ثم اختفى فلا يظهر إلا بعد مجيئه الأخير لتأييد دين التوحيد ومعاقبة الجاحدين. ويقول حمزة أيضاً: أن الله هو الأبدى السرمدى القديم المولى المملوء كرامة والسيد الرحيم وهو واحد لا يشابه الكائنات فى شيء وهو يفوق جداً التعيين بالأعداد والمشابهات عظيم فلا زوجة له ولا ولد تعجز الناس طرّاً عن استيفاء وصفه فالأعين التى تراه لا تدركه وجوهره لا يدرك بالتأمل فالألوهية له وحده دون غيره، ولا سبيل إلى وصفه بالأوصاف الموافقة للكائنات المخلوقة فيتجانس مع المتجانسين فالعقول والتصوّرات تعجز عن إدراكه تعالى عن الكيف والأين فلا تدركه الأعين ولا تنسب إليه الحركة والراحة فهو واحد ولكن وحدته ليست كالتى يدركها البشر فهو البداية والنهاية وتنزه

عما اعتقده به الناس خطأ وعما نسب إليه مما لا يليق إلا بمخلوقاته والإدراك البشرى يقصر عن فهم أعماله فتخرس الألسن إذ لم تجد لمستخدمها سبيلاً إلى توحيد باريها، وعندهم أن الله الرحمن الرحيم اسم يدل على بعض وزراء دين التوحيد. قال حمزة المذكور كيف توصف وحدة من لا حدود له ولا بداية ولا أصل ولا نهاية فإن أقدم الأشياء أى وزراء الدين والأنفس تقرّ أنه خالقها والكائنات الأخيرة كالأجساد تقرّ أن وجودها جديد فهو ملك الملوك الذى لا يعرف ولا يحدّد بلسان فلم فالحمد لك يامن امتزت بالعظمة والقدرة المتعالى عن جميع البشر بالجود والملكوت الذى كنت موجوداً فى كل دهر وزمان ومكان فلا تشبه البشر ولا يقدر مخلوقك أن يحددك أنت المنزه عن كل تشبيه ووصف مع الإيمان والاعتقاد الثابت الذى لا يتزحزح فى بداية وجودى ونهايته من صميم القلب وعلى رؤوس الأشهاد أنك الإله الخالق القادر الفريد الوحيد الغير القابل الزيادة بالأعداد ولا بالكميات ولا الأسباب والأحساب فأنت الخالق الفريد موجد الكائنات المنزه عن النظير القادر الذى لا كائن له قدرة عليك الغالب ولا ملجأ ولا مجير منك إلا بنفسك الحاكم المولى الذى لا يخضع لحكم أحد تفعل ما تشاء وتأمر بما تشاء بأمرك العالى الممجد عن مقارنة الأصوات واللغات، قال العلامة المشار إليه: فهذا هو توحيد الموحدين مترجما عن اللغات الأجنبية لتعذر الحصول على كتبهم الأصلية، ويقولون: إن للحاكم لاهوتا وناسوتا فلاهوته ثابت عندهم بأعماله التى تفوق إدراك جميع البشر وبحكمته العظيمة جداً وقد دوّنوا فيها سؤالات وجوابات ومنها ما يتعلق بظهور الحاكم وهى:

س ما هي كيفية ظهور مولانا الحاكم وفي أي زمان ظهر؟

ج في سنة أربعمائة للهجرة.

س كيف ظهر؟

ج بالتظاهر بأنه من الفاطميين بستر ألوهيته.

س لماذا ستر لاهوته؟

ج لنقصان الاعتبار وقلة الأصحاب.

س في أي سنة ظهر لاهوته؟

ج في السنة الثامنة بعد أربعمائة للهجرة.

س كم سنة أظهر لاهوته؟

ج ثمان سنوات وأخفاه في السنة التاسعة لأنها كانت زمان تجارب

وأسرار وأظهره ثانية في بداية السنة العاشرة وأثناء السنة الحادية عشرة، ثم أخفاه في بداية السنة الثانية عشرة فلا يظهر بعد ذلك إلا يوم الدين.

س كيف كان الوزراء يحيون الحاكم عند مثولهم لديه؟

ج كانوا يقولون بصوت منخفض السلام عليك يامولانا ومرجعه إليك لأن السلام لك ودينك مقر السلام فالبركات والعظمات لك يامولانا العالي صاحب المجد والشرف.

س ماذا ينبغي أن تفهم مما جاء في رسالة خمار بن جيش السليماني العكاوي الذي هو أخو مولانا المعظم؟

ج إن مولانا أظهر نفسه بحيث أوهم الناس أنه ابن أبيه فعلا فظن خمار أن مولانا أخوه مع أنه لم يكن كذلك إلا بحسب الظاهر فازداد ضلال خمار وكان ضلاله موجباً لصدور أمر مولانا بقتله.

س ما هو معنى ركوب مولانا الحمير دون سروج؟

ج الحمار رمز إلى الناطق فركبه مولانا دلالة على إبطال الناموس وغيره.

... وهنا وضع المترجم أسفاراً استقباحاً لترجمة ما جاء بعد كلمة وغيره عملاً بأدب التحرير.

س إلى ماذا يرمز الثوب الصوف الأسود الذي كان مولانا يلبسه؟

ج إنه ثوب حداد يرمز إلى التجارب التي يمتحن بها عباده بعده.

ولهم غير ذلك من الأسئلة والأجوبة التى لاعلاقة لها بمعتقدهم ويقولون فى ألوهية الحاكم أنها ثابتة بأعماله وقد ذكر حمزة وزيره المذكور تلك الأعمال فى الرسالة المسماة السيرة المستقيمة وقال فيها ما محصله: لو كانت أشجار الأرض كلها أقلاماً والبحر حبراً وأضيف إليه سبعة بحور لما كانت كافية لتدوين جميع كلمات الله، والله هنا اسم إنسانية الحاكم، قال: فأقتصر على ذكر أمور قليلة العدد غزيرة النفع للمتأمل المعترف بوحدة مولانا المستحق التعظيم الذى تفوق قدرته إدراك البشر فأول عمل قام به قتله لبرجوان وابن عمار مع أن برجوان كان متسلطا على الشرقية كلها وابن عمار على الغربية فقتلا كأنهما كلبان بلا تحاش ولا خوف من قيام الفتنة بين الجند والعسكر وهذا أمر لا يأتيه أكبر ملوك العالم بأسره وكذلك قتله لرؤساء قطاعته ولم يبال قط بأولادهم وأصحابهم وكان يسرى ليلاً بين أولادهم وعيالهم ولا سيف معه ولا خنجر ولما أثار أبو ركوة الوليد بن هشام الفتنة خرج مولانا المعظم فلاقى حسن بن علوان ليلاً فى خمسمائة فارس فوقف بينهم بغير سلاح وسأل كلاً

منهم عن مراده ثم دخل البستان وليس معه أحد غير غلام والمؤذنين . قال: ولما ظهرت فتنة المفرّج كان الناس ينتظرون دخوله مصر هو وأصحابه وتسلقه عرش السلطنة فكان مولانا يخرج على عادته ويسير نحو الطريق التى كان يؤمل دخول المفرّج منها حتى وقع الخلاف بين زعماء الفتنة، وعاد حسين بن جعفر الحسينى إلى مكة خوفاً من أن المفرّج يوقع به، وهذا أيضاً مما لا يقدر على فعله أىّ ملك من ملوك الأرض وكان مولانا يخرج فى حمارّة الحر فى الغبار دون مبالاة وأصحابه يكادون يهلكون مما يعانونه وهو لا يظهر العرق على وجهه مع أنه كان يبل أثواب أصحابه حتى ظاهرها وهذه من الأدلة المثبتة لألوهية الحاكم عندهم، وذكر حمزة فى هذه الرسالة أيضاً أموراً أخرى يضيق المقام دون إيرادها كلها، ويقولون أن لاهوته لا يفارق ناسوته أبداً بل هما متلازمان. أما ما يتعلق بناسوت الحاكم وما جاء فيه من قولهم فيعرف من الأسئلة والأجوبة الآتية وهى:

س كم مرة ظهر مولانا الحاكم بالناسوت؟

ج ظهر عشر مرات بأسماء بشرية وهي: عليّ والباري والموئل والقائم والمعز والعزيز وأبو زكريا والمنصور والحاكم.

س أين وقع الظهور أو الكشف الأول؟

ج في الهند في مدينة اسمها تشماتشن.

س أين ظهر البار أو الباري؟

ج في فارس في مدينة اسمها أصبهان، واسم الله عند الفرس بارخداي، وعليّ ظهر في اليمن، والموئل في المغرب وكان ظهوره كأنه رجل صاحب ألف جمل والقائم ظهر في مدينة المهدية بالمغرب أيضاً ثم جاء مصر وبني بابا اسمه رشيدية وأبو زكريا والمنصور ظهرا في المنصورية.

ومما كتبه حمزة بشأن ناسوت الحاكم وظهوره أن الظهور تم عدة مرات فى القدم ولكنه لم يكن الدور الناسوتى وورد فى كتاب لحمزة أيضاً ما محصله: إننا نظهر لكم فى كتاب آخر أسماء مولانا الناسوتية التى اتخذها لنفسه عند ظهوره فى الأرض منذ خلق العقل إلى زمن ظهور آدم الصفاء وعبادة الملائكة له، وهى مدة سبعين دورا وبين كل دور سبعون أسبوعاً وكل أسبوع سنة وكل سنة ألف سنة من سنى هذا الزمان وأبين لكم الأسماء أيضاً التى اتخذها العقل وجنده فى تلك الأدوار واسم كائناته، كما أن اسم هذا الجيل هو الإنسانى أو البشرى. وقال فى كتابة أخرى إننى

أبين لكم الاسم الذى اتخذته فى كل من تلك الأدوار، والاسم الذى كان للروح المضاد المدعو إبليس.

وحمزة عندهم هو ظهور العقل وعند ظهوره بين البشر سمى آدم الصفاء وكان له وزيران فعصيا فسمى أحدهما آدم العاصى والثانى آدم الناسى وأنه عندما ظهر العقل المرة الأولى ظهر أيضاً ناسوت الإله باسم البار أو البارىء، وكتب أيضاً فى بعض كتاباته يقول: وقالوا الحاكم جل ذكره بارخداى يعنون بذلك، الله، عبد مولانا جل ذكره. قال بعض الكتاب: ومراد حمزة من هذه العبارة هو أن أسماء الخالق سبحانه وتعالى الواردة فى الكتب الدينية هى كلها عندهم أسماء وزراء الحاكم فاسم الله تعالى اسم لأحد وزراء الحاكم. وقال أيضاً: قد كان مولانا فى زمن شنغيل فى ظاهر الأمر يسمى ناسوته من حيث العالم البشرى بالبار أو البارىء فيقول الناس عند ذكرهم الحاكم «الحاكم بارخداى» والعرب تقول «الحاكم الله» قال: وهذا لا يوافق فإن «الله» اسم الوزير الأول يعنى للحاكم ولكنى «بارخداى» معناه الإله الأعلى أو إله الآلهة فهذا الاسم يوافق لمولانا أكثر من الاسم الأول. قال: وأما محمد بن إسمعيل فاسمه فى تلك الكتب الناطق السابع وهو الثانى من الأئمة الذين هم سلف الخلفاء الفاطميين وفى أيام الثالث منهم ظهر الناسوت يعنى الحاكم باسم أبى زكريا وظهر فى أيام باسم الإمام الرابع باسم علىّ الأعلى، فأبو زكريا لم يكن ملكا فى هذا العالم ثم ظهر العقل معه باسم قارون وفى آخر أيامه عندما كبر وشاخ سمى بديار اليمن بالمهدى ثم ظهر أيضاً النفس باسم أبى سعيد الملطى. فلما كان الظهور الثالث يعنى للحاكم باسم الموئل كان فى بلاد تدمّر وفى الإيالات المشرقية. وكان ظهوره فى شخص تاجر، وجاء فى كتاب حمزة المسمى بالنقض الخفى أن الناطقين سبعة وهم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى المسيح ومحمد وسعيد وهو عبد الله الخليفة الأوّل الفاطمى الملقب بالمهدى وهو أبو القائم أعظم الوزراء، أما ما جاء عن وزراء الحاكم فى كتبهم وهم الذين لقبوهم بألقاب مختلفة كالسابق والناطق وغير ذلك قولهم، وقد نظرنا إلى السابق والتالى والناطق والأساس والإمام والحجة والقائم فرأيناهم كلهم عبيداً مزدوجين فعرفنا بأن المعبود سواهم وعرفنا بتوفيق مولانا عز ذكره أن الهاء المشار إليها هى الخاتمة أى خاتمة الله وتمامه واللامين والألف خلف تالية وهو آخرهم ورابعهم وتمام القدرة به، لأنه لا يقال لأحد من الحدود يعنى الوزراء ما قيل له وهو المهدى الذى وقع عليه هذا الاسم الأعظم بقوله أبو القاسم ولا يجوز أن يقع هذا الاسم الأعلى أعظم الحدود ونهايتهم كما أن الهاء نهاية لا إله إلا الله.

وقد عمل حمزة للدخول على الحاكم دستورا بعث به إلى أبى عبد الله محمد ابن وهّاب قال فيه ما محصله: لا تحضر لديه ما لم تدع إليه ولا تكلمه إلا مجيباً وتقول بصوت منخفض جداً السلام فليأت السلام منك يامولانا وليرجع إليك فإنه لك ودينك مقام السلام أنت المبجل الممجد ياسيدنا المتعالى لك المجد والكرامة، وإياك أن ترفع صوتك ولاتحرك يديك ولا تومىء بعينيك ولا ترفع رأسك، وكان الناس يسجدون بين يديه ويقبلون الأرض فإذا قابله أحد وهو راكب نزل عن مركوبه فإذا تقدم للسلام عليه سلم عليه من الجهة اليمنى، وإذا رفعوا له قصة كانت أسطرها فردية أى لا تكون زوجية، وأن يكون كلام الناس معه بالفرد وعندهم أن هذه الأمور كلها رموز فى الدين التوحيدى لابد من العمل بموجبها وعندهم أن الحاكم لم يمت بل غاب عن الناس إلى ساعة معلومة وهى القيامة التى يعبّرون عنها بفوز الدين التوحيدى ومن الأسئلة والأجوبة الآتية يعلم بعض الشيء من معتقدهم فى ذلك:

س ماذا نفهم يوم الدينونة؟

ج هو اليوم الذي يلبس فيه مولانا ناسوته ويدين الناس بالسيف الدينونة القوية.

س كيف يتم ذلك ومتى؟

ج لا يعلم أي متى يكون ذلك غير أنه لابد من ظهور علامات أولية تعرف بها الساعة.

س ما هي هذه العلامات الأولية؟

ج هي تصرف ملوك الوقت في الرعية على هوى أنفسهم وتسلط المسيحية.

س في أي شهر يتم ذلك؟

ج في شهر جمادي أو رجب حسابا هجريا.

س ماذا ترك مولانا عند غيبته؟

ج ترك سجلاً معلقا في باب الجامع سماه بالسجل المعلق.

وكان ملخص ما فى السجل المذكور هذه العبارة الآتية، بسم الله الرحمن الرحيم، إن الإحسان فى الاستقبال هو للذين حادوا عن السبل المعوجة وابتعدوا عن حماقة الجهال. وكان إيمانهم حقيقاً الذين يؤمنون بالله تعالى وولاته وشهدائه عند الناس ونوابه فى الأرض الذين سلم إليهم أمير المؤمنين أمور مخلوقاته وكذلك الإحسان للذين لا يخالطون إلا الأبرار الذين يخافون الله والذين يؤمنون باليوم

الآخر إيماناً صحيحاً قلبياً خالياً من الشك والريب، والله سبحانه لا يحرم أهل الخير وفاء على البر جزاء ما يستحقون وما العداوة والبغضاء إلا للأشرار والعصاة والأبالسة والخدّاعين والكذابين الذين يقاومون الحق وللمرائين الذين ينكرون اليوم الآخر وقد حمى غضب الله عليهم وعلى الذين يسلكون السبل المعوجة، ثم يلى هذا تعظيم الله سبحانه وتعالى والصلاة والسلام على النبى محمد وعلى آله وصحبه، ثم يأخذ كاتب ذلك السجل فى تعنيف الموحدين وتوبيخهم على الإهمال والتغافل والجهل الذى وقعوا فيه ويحذرهم من سوء العاقبة ويذكرهم بما حصلوا عليه من المنافع الزمنية والروحية من لدن الحاكم رحمة منه ومنة حيث أنعم عليهم بجميع الحقوق الشرعية التى تؤهلهم للتصرف فى أنفسهم وفى مقتنياتهم على أنهم لا يستحقون شيئاً من ذلك ويستلفتهم إلى ما نالوه من الهبات الوافرة والعطايا الجزيلة من الذهب والفضة وجياد الخيل والماشية والإقطاعات وغير ذلك وكيف أن الحاكم رفع أمرهم وأعلى مقامهم إلى درجات العز والرفاهية ووسع سلطانهم شرقاً وغرباً فى السهول والجبال وفى البحر والبر حتى صاروا ملوكاً وسلاطين تحمل إليهم الجزية من كل صوب ودرب، ويقول: إن ما منحهم إياه من المنح الروحية إنما هو تعزيز لشريعة الإسلام وتوحيد دعائم بنيانها وإقامة شعائرها بتزيين المساجد وتوسيع المعابد وضرب صنوف الرق والمذلة على جميع اليهود والنصارى لإكراههم على اعتناق الإسلام دينا وإنشاء مدرسة للفقه والتوحيد، إلى أن قال فى السجل المذكور: واعلموا معشر الموحدين أن ما نلتموه من الهبات الروحية وفزتم بالحصول عليه فهو نتيجة ولائه وصداقته مع الأمم الخارجية وهما علة مجدكم وشرفكم فى هذا الحين مع أعلى السعادة والسلامة الأبدية وهذه النعم إنما هى لأزدياد كنود الإنسان وازدياد ذنوبه فو أن كان أعداءالله وأمير المؤمنين لم يحاربوا الله وأميرالمؤمنين خوفاً منه ورهبة إلا أن بعضهم حارب البعض الآخر واقتتلوا عاصين على الله عابثين بحرمة الدين مستخفين بمقام الأمير مستصغرين الإيمان فأراقوا الدماء وتعدوا على أعراض الناس فتضاربوا وضرب دينهم وضرب بهم نائب الله أميرالمؤمنين فغضب الله سبحانه لذلك وغضب أمير المؤمنين من صنعهم وخروجهم عن الطاعة، فخرج لذلك أمير المؤمنين من بينكم لأن الله سبحانه وتعالى. قال: لست بمعاقبهم حتى تخرج من بينهم فغضب نائب الله يدل على غضب الله سبحانه وقد ظهرت لكل ذى عينين علامات غضب الإمام حيث أغلق أبواب أمته وأبطل مجالس الحكمة وأخرج من قصره مكاتب القواد والعبيد، ومنع جميع الناس من التسليم عليه ومنع الجلوس على

المقاعد حول قصره المقدس وامتنع عن إقامة الصلاة مع الجماعة فى الأعياد والمواسم وشهر رمضان، ومنع المؤذنين من الآذان، ومنع أن يقال له مولانا وأن لا تقبل الأرض بين يديه وأن لا ينزل الناس عن حميرهم وخيولهم إذا مروا به ولبس الصوف من ألوان مختلفة ومنع حاشيته وعبيده من السير فى ركابه وامتنع من إقامة الحدود وغير ذلك والناس عن كل هذه العلامات غافلون فلذلك خرج أمير المؤمنين الذى هو نائب الله من بينهم وترك جميع المخلوقات وشأنها جزاء ما فعلوه، فهلموا أيها الناس هلموا قائمين فى بداية السبيل الذى سلكه أمير المؤمنين عند غيبته وتشبهوا به أنتم وبنوكم مطهرين قلوبكم من الأهواء وأحسنوا النية أمام صاحب الكائنات وارجعوا إليه بقلوبكم واستغفروا ليمنّ عليكم بإرجاع نائبه ولا يخرج أحدكم مفتشاً عن أمير المؤمنين ولا سائلا عما جرى ولا تنقطعوا عن الصلاة فى مدخل تلك الطريق قائلين هنا نسكن وهنا نقيم فإذا حلت ساعة الرحمة ظهر نائب الله بينكم باختياره وإرادته فقوموا بذلك فى الليل والنهار قبل حلول اليوم الآخر وساعة الدينونة وقفل أبواب الرحمة والانتقام من العصاة . اهـ.

وجاء فى آخر السجل المذكور ما معناه قد كتبه عبد أمير المؤمنين فى ذى القعدة سنة إحدى عشرة وأربعمائة مع الأمر بأن لا يمنع أحد من قراءته ولا استنساخه وحرم كل من يقدر على نسخه ولم يفعل، **قلت:** ولا غرابة من تسمية صاحب هذا السجل للحاكم فى هذه المرة باسم أمير المؤمنين ونائب الله تعالى لأن سجله هذا كان مكتوباً للعالم بأسره فالتزم فى تحريره جانب التستر والمواربة ومع ذلك فانه لايبعد تفسيركل كلمة منه بحسب تعاليم دين الموحدين فاسم الله سبحانه وتعالى عندهم ليس هو إلا اسم لاهوت الحاكم ونائب الله وأمير المؤمنين هو اسم ناسوته، ولما غاب الحاكم وانقطع خبره عن أصحابه خاف زعماء دينه من الفتنة وردة أصحابهم فكتبوا لهم رسالة فى بداية السنة الثانية عشرة والأربعمائة للهجرة يطمنونهم ويمنونهم بالأمانى البعيدة ولكى يباعدوا بينهم وبين السقوط فى الخطأ من جرى توهم ظهور اللاهوت بعد الغيبة فى جسم آخر وفى تلك الرسالة ما محصله: إلى الموحدين المؤمنين بوحدة مولانا سعيد يوم الدين خضعوا وسلموا لكل ما يأمر به مولانا من نحوكم وأيقنوا أنه سيعيد أنفسكم وأنفس جميع البشر وقد اعترفتم بوحدته وتعهدتم بأن لا تكونوا عبيداً لسواه فأحذروا الشكوك وأخشوا الله ولاتخشوا الناس واتكلوا على حماية العالى ولا تخافوا إلا ممن لا قدرة لأحد خلافه فإذا جاءت الشدّة وظهر الاضطهاد ظهر ثابت الإيمان منكم، إخوانى إنكم على يقين أن مولاكم لا تخلو

منه الديار فإن لم تبصره أعينكم فما ذلك إلا لتفاقم خطوبكم وكثرة ذنوبكم فأفقهوا، قال بعض الكتاب: والمراد من كلمة الدار هنا تجرد الحاكم فى ثلاث من السنين وهى سنة ثمان وأربعمائة وعشر وأربعمائة وإحدى عشرة وأربعمائة للهجرة، وعندهم أن ظهور الحاكم بعد تلك الغيبة تسبقه علامات مختلفة منها كشف ستر معلم الأديان الكاذبة منذ الدهور القديمة ومنها تهافت الناس قاطبة على الآثام والفجور والفساد والآراء الكاذبة ومنها ظهور الخادع الذى هو المسيخ الدجال وله مخادع اسمه الحد غشاش فيحارب زمان القيامة بيت الإمامة ويقاتل حتى ينكسر وينهزم ويكون لخبر انهزامه ضجة فى أرض الأقباط ويعقبها زلزلة تهدم بنيان الفسطاط، وظهور مخادع أخر فى مدينة الفسطاط ومن علامات اليوم الأخير عندهم خراب مدينة حلب بجيوش المسيخ الدجال الذى يخرج منها. ويقال يومئذ: أن خداع زمان القيامة الحد غشاش قد خرج من حلب فى يوم نحس وقد اجتمع الروم حول رايته فلابد وأن يلقى تلك المدينة فى ويل وحرب ومن العلامات أيضاً خراب جميع مساجد الشام بالزلزال وضعف الإيمان ووقوع الموحدين فى شدّة عظيمة للغاية وبلوغ النصرانية أوج الأعالى وغير ذلك مما لا يسعنا إيراده هنا.

ومن الأمور السياسية فى الدين التوحيدى عندهم معرفة وزراء الحاكم واحداً فواحداً إلى قسمين ويجعلون لهم خمس رتب فالوزراء الأولون خمسة الوزير الأول حمزة ويقال له العقل. والثانى إسمعيل بن محمد التميمى ويقال له النفس. والثالث أبو عبد الله محمد بن الوهاب القريشى ويقال له الكلمة. والرابع أبو الخير سلامة ابن عبد الوهاب السمورى ويقال له السابق. والخامس أبو الحسن علىّ بن أحمد الملقب بهاء الدين ويقال له التابع، وأما الوزراء الثانويون فهم أيوب بن علىّ ويقال له المجد، ورفاع بن عبد الوارث ويقال له الفتح. ومحسن بن علىّ ويقال له الخيال. وأما غير هؤلاء فدعاة ونقباء وغير ذلك، وورد فى كتبهم عن الوزراء الخمسة الموحدين العظام مانصه قريدان خمسة أجرف دليل على خمسة حدود النفسانيين والنورانيين والروحانيين والجرمانيين والجسمانيين وهو ذومعة العقل الكلى النفسانى وذومعة النفس الروحانى والجناح الربانى، والأيمن الباب الأعظم وهو السابق والتالى معدن العلوم ومنه ابتناؤها . اهـ.

وكتب حمزة إلى أبى الحسن علىّ بن أحمد الملقب بالمقتنى وبهاء الدين ما صورته إلى رابع الحدود النفسانيين وتالى الروحانيين تالى السابق الفضل السيخ المقتنى بهاء الدين . اهـ.

أما أصل هؤلاء الوزراء فهم كما ذكره حمزة فى رسالته المسماة كشف الحقائق حيث قال ما معناه واعلم أن البارىء خلق من نوره الشعشانى شخصاً كاملاً وهو الإرادة التى هى سيد جميع الأشياء وسماه العقل فكان كامل النور والقوّة جمعت فيه الصفات الخمس الأصلية وضمن فيه كامل ما هو كائن وجعله إمام الأئمة فى جميع الأزمنة والأجيال، وهو السابق الحقيقى لأنه سبق الجميع بالاعتراف بوحدة الخالق والعقل كائن يدرك ويقع تحت الحواس فيأكل ويشرب وليس كما قال عنه السابقون لا يدرك وهو أوّل الكائنات التى خلقها تعالى، وسماه أيضاً علة العلل وهذا العقل تام العمل حكيم فى السكون قادر فى الحركة وهو نقطة البيكار يحكم على الأرضيات والسمويات وبه شرف الإنسان ومجده فى الزمنيات والروحيات وأوّل ما خلق الله العقل. وقال له أقبل: فأقبل، ثم قال له أدبر: فأدبر، فقال: وعزتى وجلالى ما خلقت أجل منك شيئاً بك آخذ وبك أعطى وبك أحاسب وبك أعاقب فلما سمع العقل كلام البارى نظر إلى نفسه فرأى أن ليس له مثيل ولا نظير فظن أنه لا يكون له منازع ولكن مولانا جل ذكره أخرج من طاعته العصيان ومن نوره الظلام ومن دعته الكبرياء ومن حكمته الجهل وهى صفات أربع رديئة مضادة للصفات الأربع الحسنة وهى العقل وصفاته، وهى توقد العقل وقوّة النور وراحة التواضع وبرودة الحكمة ورطوبة المادة فكل آلة روحية آلة مضاد تقاوم العقل وتعصيه فأدرك العقل أن ذلك إنما هو تجربة من الخالق له تأديباً على ظنه فى نفسه الكمال فاعترف بضعفه واستغفره وسأله بأن يجعل له معينا على الضد المخالف وخليفة ينوب عنه عند المؤالف ليستغنى به عن مخاطبة الضد ومشاكلة الند فأجاب وخلق نفس الوزير ذى مصة من العقل وهو التابع الخاضع له، وجعل له نصف ما للعقل فكان كالأنثى والعقل كالذكر ولذلك يكون للذكر حظ الانثيين وجميع الوزراء أولاد هذين الكائنين، فالذكر هو العقل، والأنثى النفس، والوزير المسمى الكلمة هو تحت السابق والنفس تحت الكلمة والعقل فوق الجميع وهو روح الوزراء وسابق جميع القدماء ونور الظلام يعنى بذلك (حمزة) الذى هو العقل قالوا: وأما الأرواح الضدية التى خرجت من نور العقل وجاءت النفس متوسطة بين نور العقل وكلام الضد لأن النفس حاصلة على نور العقل فتسمع كلامه وتنتفع بأوامره ولكنها تشترك فى ظلام الضد الحادث فتعرف حيله ومكره وخداعه، وهو ذو لين لأنه فى الأصل من نور العقل وما هو إلا ظلام وظلم بالنسبة إليه ولكنه لين بالنسبة إلى خشونة العالم، والكلمة أخرجت من العقل لمعاونته ومعاونة النفس على الضد وصدر السابق من

النفس وقامت الكلمة عن اليمين والسابق عن اليسار فأمسى الضد مخاطباً بالعقل والنفس والكلمة والسابق فحاول أن يفلت من تحتهم فسمى بالحائر حيث حار فى نفسه ثم سمى بإبليس لأنه خرج من العقل دون إرادته كمن ليس له أب لأنه جاء على غير إرادة أبيه فهو ضد الأولاد الناموسيين أى الموحدين الذين هم أولاد العقل وهو النور وأمهم الرحمة وهى النفس . اهـ.

ولحمزة أسماء كثيرة فى كتبهم وهى لحالته الروحية المجردة عن الشخص الذى ظهر به للناس ومنها، السابق الحقيقى، وذو مصة، والإرادة، والعقل الكلى، والعقل، وقائم الزمان، والباب، والإمام، والآمر، وعلة العلل، والوزير الثانى يسمي روحياً أيضاً بالنفس، والنفس الكلى، والمشيئة، وذو مصة، والتالى، وحجة الإمام، وداعى الإمام، والوزير الثالث يسمى كذلك الكلمة، والجناح، والجناح الربانى، وداعى القائم، وسفير القدرة، وصاحب السعادة، والكلام، والوزير الرابع يسمى السابق، والصغير، والباب السابق، وباب حجة القائم، والباب الأعظم، والجناح الأيمن، ويسمى الوزير الخامس أيضاً بالتابع، والتالى، والجناح الأيسر، ورابع الحدود، وآخر الحدود، ولهم أسماء غير ما ذكر أيضاً وينسبون التعاليم الآتية إلى حمزة للدلالة على نفسه وهى:

س كم مرة ظهر حمزة وماذا كانت أسماؤه؟

ج قد ظهر في جميع الأدوار من آدم إلى النبيّ حمد أي سبع مرات (كذا في الأصل الذي أخذنا عنه).

س ما هي الأسماء التي كانت له؟

ج كان اسمه في زمان آدم شطنيل وفي زمان نوح فيثوغوروس وفي أيام إبراهيم داود وفي أيام موسى شعيا. وكان المسيح الحقيقي في أيام يسوع وكان اسمه العازر أيضاً وفي الهجرة كان اسمه سلمان الفارسي وفي أيام سعيد كان اسمه صالحاً.

س من أين عرفنا شرف قائم الحق حمزة بن عليّ علينا سلامه؟

ج من شهادته بنفسه لنفسه حيث قال في رسالة التجذير والتنبيه: أنا أصل مبدعات المولى وأنا صراطه والعارف بأمره، وأنا الطور والكتاب المسطور والبيت المعمور وأنا صاحب البعث والنشور النافخ في الصور وأنا إمام المتقين وأنا صاحب النعم وأنا الناسخ للشرائع ومبطلها وأنا مهلك العالمين وأنا النار الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

س من هو نقطة البيكار؟

ج حمزة بن عليّ

س ماذا نفهم بالطريق المستقيم

ج حمزة بن عليّ الذي يسمى أيضاً قائم الحق وإمام الزمان والعقل والسابق والنبيّ الكريم وعلة العلل.

س من هو قائم الزمان؟

ج هو حمزة بن عليّ.

س ماذا نقول عن الإنجيل الذي هو في أيدي النصارى؟

ج هو حقيقي وفيه كلام المسيح الحقيقي الذي كان يسمى في أيام صاحب الهجرة سلمان الفارسي وهو حمزة بن عليّ.

س من هو الذي قام من القبر ودخل والأبواب مقفلة حيث كان التلاميذ مجتمعين؟

ج هو المسيح الحي الأبدي وهو حمزة عبد مولانا الحاكم.

وقد اختفى حمزة هذا بعد اختفاء الحاكم وغيبته عن الناس فلم يعلم له خبر صحيح، فقال بهاء الدين الذى هو المقتنى: فى غيبة حمزة المذكور ما معناه عندما غاب المعبود، يعنى الحاكم، امتنع قائم الزمان عن الوجود . اهـ.

وكان بعد وظائف الوزراء الخمسة عندهم على أيام الحاكم ثلاث رتب أخرى للذين تعلقوا بخدمة دين التوحيد عندهم ويعرفون بالدعاة والمأذونين والمكاسرين الذين يسمون عندهم أيضاً النقباء، قال حمزة ما معناه: يصح للداعى أن يسير للدعوة مأذوناً ومكاسراً، وقال عن الدعاة: أنهم دعاة الإجلال البانينون بالكشف لدعاة الأعور الدجال المتفاضلون بتصوير الحقائق وهم من أذن لهم بالكسر والجبر وبعدهم النقباء المتزهون عن الكذب الذين يعرفون حقوق وزراء الحق، قالوا ومن أفعال الدعاة أنهم يدعون الناس إلى الاعتراف بالوحدانية والمأذونون يخضعون للدعاء وعليهم القيام بتنفيذ أوامرهم ولا يعلم من كتبهم شيئاً عن المكسرين وربما كان المقصود من اسمهم أنهم يكسرون الاعتقادات القديمة الراسخة فى عقول الناس ويمهدونهم إلى التمسك بالدين التوحيدى، ومن اعتقاداتهم أن الله قال للدنيا كونى فكانت على الحالة التى عليها الآن ذكوراً وإناثاً وشيوخاً وشباباً كهولاً وأطفالاً آلاف الآلف وجعلهم يتوهمون أن لهم آباء وأجداد وأمهات وجدات، فكان كل منهم يتوهم أن أباه فلان بن فلان وزاروا القبور فرأوا العظام، وكان يقول هذا هو ذا قبر

والدى وذاك هذا قبر أمى وهلم جرا، وكان كل إنسان عارفاً بعمله وصنعته وحرفته فتوهموا أنه منقول عن زيد وعمرو على أن ذلك لم يكن غير وهم وتخيل لجهل قوّة البـــارى، قالوا: ثم أخذت الأنفس تنـتقل من جسد إلى جسـد بموت الجسد الأول ويبـقى هذا مـدى الدوران، وفيهـا أن الله سبحانه وتعالى معلم كل حـرفة وعمل وعندهم أن أهل التنزيل هم: المسلمون، وأهل التأويل هم: النصـارى، وقد وضعوا فى سؤالات وجوابات وهى:

س ما هو اسم المسلمين؟

ج اسمهم التنزيل.

س ما هو اسم المسيحيين؟

ج اسمهم التأويل الذين أوّلوا كلام الإنجـيل، والمسلمون سموا بالتنزيل لأنهم يعتقدون أن القرآن أنزل من السماء.

س كيف يدين الحاكم أصحاب الأديان الأجنبية عن التوحيد؟

ج ينقسمون إلى أربعة أقسام وهم المسيحيون واليهود والكفرة والموحدون.

س كيف تنقسم هذه الأقسام؟

ج أما النصارى فهم الـنصيرية والمتأولة، وأما اليهود والمسلـمون والكفرة فهم الذين تركوا دين مولانا الحاكم.

س ما هو قصدنا من مدح الإنجيل؟

ج إن قصـدنا إنما هو تمجيد اسم الحاكـم بأمر الله وهو حمزة نفـسه لأنه هو الذي علم الإنجيل والإنجيل، مـبني على حكمة الهيئـة ومعناه الرمزي يدل على الدين التوحيدي.

س ماذا تقول عن الشهداء الذين يعظم المسيحيون بسالتهم ويكثرون عددهم؟

ج نقول إن حمـزة لم ير من الموافق الاعتراف بهم ولذلك رفضـهم ولو شهد بهم جميع المؤرخين

س إذ قالوا لنا إن حـقيـقة دينهم مؤسـسة على أدلة وبراهين أقـوى من كلام حمـزة وأثبت منه فمـاذا يكون جوابنا وبأي شيء عـرفنا جودة حـمزة بن عليّ.

ج بشهادته لنفسه عندما قال أنا أوّل خلق ا لمولى؟

س ماذا تقول عن الإنجيل الذي في أيدى النصارى؟

ج هو حقيقي لأنه يتضمن كلام المسيح الحقيقي الذي كان اسمه في أيام محمد سلمان الفارسي وهو حمزة بن علي والمسيح غير الحقيقي هو المولود من مريم فإنه ابن يوسف.

س أين كان المسيح الحقيقي عندما كان المسيح غير الحقيقي مع التلاميذ؟

ج كان معهم وكان من تلاميذه وفاه بكلام الإنجيل وعلم المسيح بن يوسف وأراه ماذا ينبغي أن يفعل ليكون عمله منطبقًا على ناموس الدين المسيحي فكان يصغى إليه ويلتفت، ثم إنه خالف بعد ذلك المسيح الحقيقي فألقى بغضه في قلوب اليهود فقاموا عليه حينئذ وصلبوه.

س ماذا جرى بعد الصلب؟

ج دفن فأتى المسيح الحقيقي وأخذه من القبر وخبأه في البستان ثم أذاع بين الناس أن المسيح قام من بين الأموات.

س لماذا فعل ذلك؟

ج لإنشاء الدين المسيحي وليحافظ الناس على التعاليم التي علمهم إياها.

س لماذا فعل هذا كله وخدع غير المؤمنين؟

ج فعل ذلك ليتمكن الموحدون من الاستتار بالدين المسيحي بحيث لايعلم أحد بهم.

س من هو الذي نهض من القبر ودخل المكان الذي كان التلاميذ فيه والأبواب مقفلة ؟

ج هو المسيح الحي الذي لا يموت وهو حمزة عبد مولانا الحاكم.

س من الذي أذاع الإنجيل؟

ج متى ومرقس ولوقا ويحنا وهم النساء الأربع.

س كيف لم يعرف النصارى الدين التوحيدي؟

ج لم يشأ الله ذلك وهو الحاكم بأمر الله، والله هنا اسم لحمزة.

س كيف يمكن أن الله يستحسن الضرر ويرضى عن عدم الإيمان؟

ج قد جرت عادة مولانا أن يعرف البعض ويعرض عن البعض.

س إذا كان الوقوع في عدم الإيمان هو منه فلماذا يجازون عليه؟

ج يجازون لإظهاره نفسه لهم وهم لا يطيعونه.

س كيف يطيعون رجلاً قد خدع حيث كانت الأشياء مجهولة عنده كما ورد لبسنا عليهم ومكرنا بهم؟

ج لا يحب أن يحاسبوا على ذلك ولا يصح أن يطلب إلى الحاكم تبيين أسباب تصرفه بعبيده.

وكان يعتبـرون الديانة النصرانية ويجلونها فقد عنونوا إحـدى رسائلهم الموسومة بالمسيحية للمـقتنى بهذه العبارة: إلى جميع من تقرّب إلى اللاهوت بحـقيقة القربان وتمسك به من كل أهـل الحق من قـسيس وبطرك ومطران، ومن مـذهبـهم أيضـاً الاشتراكية أى أنهم جميعـاً إخوة بعضهم لبعض ومن المقرّر عندهم ذب القوى منهم عن الضعيف والذود عنه جـهد الاستطاعة وحمل كل فرد منهم لسـلاحه ليلاً ونهاراً للدفاع عند الحاجة، فقد قال حمزة ما معناه أطلب إليكم أن يذب بعضكم عن بعض فإنكم جمـيعاً إخوة فإذا فعلتم ذلك كـمل إيمانكم واقضوا حاجـات بعضكم الدينية والعالميـة وأقبلوا عذر بعضكم بعـضاً وكونوا أعداء من يخـدعونكم وزوروا المرضى منكم وأحسنوا إلى المساكين، وقال بهاء الدين: إياكم وأن يحاكم بعضكم بعضاً فإن ذلك مجلبـة للبلوار، ولهم مباد وأصول وشرائط كثـيرة لا يسعنا إيرادها هنا اكتفاء بهذا القدر نقلاً عن أصدق الكتاب وأدقهم تتميما للفائدة، وأقام الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بأمـر الله يتصرف فى الملك ويدبر أمـوره على ما يشاء حـتى كان من أمره ما سيذكر فى خلافة القائم بأمر الله.

ومات فى خلافة القادر بالله توفائيوس بطرك الإسكندرية بعد أن قام أربع سنين وفى رواية أربع سنين وستة أشهر فقدّم المتأصلون بعده مينا وهو حادى ستيهم وأصله من مدينة جـولا وكان راهباً بـدير أبو مقار فـأقام إحدى عـشرة سنة ومات فـخلا الكرسى بعـده سنة، وقيل: أقـام سبع عـشرة سنة فأقـيم بعده أفـرام أو هو إبراهام السريانى ابن زرعـة وهو ثانى ستيهم فـأقام ثلاث سنين، وقيل: ثلاث سنين وسـتة أشهر ومات مسموماً من بعض كبار كتـاب القبط على ما شاع يومئذ وسببه منعه من التسرى فخلا الكرسى بعده ستة أشهر وكان ورعاً تقـياً كثير البر محباً للفقراء غيوراً على الدين جـاهد جهاداً عظـيماً فى إبطال الـتسرى وقـد كان شـائعاً قبـله. قيل: وظهرت على يديه عجائب كثيرة وآيات عـديدة والله سبحانه وتعالى أعلم بالحقائق، وفى أيام إبراهام هذا بنيت عدة كنائس مما هدم بسبب الفتن المـتتابعة والأحن المترادفة وكانت أيامه كلها هدوّا وطـمأنينة فلما مات أقيم بعده فيلوثـاوس وهو ثالث ستيهم وكان راهباً بدير أبو مقار ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

(الفصل السادس والعشرون)

(فى خلافة أبى جعفر عبد الله
القائم بأمر الله بن القادر بالله)

ثم قام بالأمر بعد القادر بالله ولده أبوجعفر عبد الله القائم بأمر الله جددت له البيعة وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد سنة إحدى وعشرين كما تقدم القول واستقرت الخلافة له وذلك سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة هجرية أى سنة ثلاثين وألف ميلادية قال أصحاب التاريخ: وأول من بايع له الشريف أبو القاسم المرتضى وأنشده:

فأما مضى جبل وانقضى ... فمنك لنا جبل قد رسا
وأما فجعنا ببدر التمام ... فقد بقيت منه شمس الضحى
لنا حزن في محل السرور ... وكم ضحك في خلال البكا
فيا صارما أغمدته يد ... لنا بعدك الصارم المنتضى

وهى طويلة للغاية وأرسل القائم بأمر الله قاضى القضاة أبا الحسن الماوردى إلى الملك أبى كاليجار ليأخذ له البيعة ويخطب له فى بلاده فأجاب إلى ذلك وخطب له فى بلاده وأرسل إليه هدايا جليلة وأمولاً كثيرة فلم تستقر بالقائم الخلافة حتى قامت الفتنة ببغداد بين السنية والشيعة. قال أصحاب التاريخ: وكان سبب ذلك أن الملقب، بالمذكور، أظهر العزم على الغزاة واستأذن الخليفة فى ذلك فأذن له وكتب له دستورا من دار الخلافة وأعطى علما فاجتمع له لفيف من الناس فسار واجتاز بباب الشعيروطاف الجرانى وبين يديه الرجال بالسلاح فبينما هم على هذا الحال من التطواف إذ تحرك جماعة منهم وصاحوا بذكر أبى بكر وعمر وقالوا: هذا يوم معاوى فتبعهم الجميع وصاحوا كذلك فنافرهم أهل الكرخ ورموهم وثارت الفتنة ونهبت دور اليهود لأنهم قيل عنهم أنهم أعانوا أهل الكرخ فلما كان الغد اجتمع السنيةّ من الجانبين ومعهم جمع من الترك وقصدوا الكرخ فأحرقوا وهدموا الأسواق وأشرف أهل الكرخ على خطر عظيم للغاية وسئل الخليفة فى ذلك فأنكره إنكاراً شديداً ونسب إليهم تخزيق علامته التى مع الغزاة فركب الوزير عند ذلك يريد تلافى الأمر قبل استفحاله فوقعت فى صدره آجرة فسقطت عمامته وأشتد الحال واتسع الخرق

وقتل من أهل الكرخ جماعة وأحرق وخرب فى تلك الفتنة عدة أسواق كبيرة وعمائر واسعة وقتل العامة الكلالكى وهو صاحب العونة وأحرقوه ووقع القتال فى أصقاع البلد من الجانبين واقتتل أهل الكرخ ونهبوا الأسواق وقطع الجسر ليفرق بين الناس وأظهر الجند كراهة الملك جلال الدولة وأرادوا قطع خطبته ففرق فيهم المال وحلف لهم الإيمان الغلاظ فسكنوا ثم أعادوا الشكوى إلى الخليفة منه وطلبوا أن يأمر بقطع خطبته فلم يجبهم إلى ذلك فامتنع حينئذ جلال الدولة من الجلوس للناس وضرب النوبة أوقات الصلوات وانصرف الطبالون لانقطاع الجارى لهم ودامت هذه الحال إلى عيد الفطر فلم يضرب بوق ولا طبل ولا أظهرت الزينة وزاد الاختلاط وما دخلت سنة ست وعشرين وأربعمائة حتى انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد وزالت هيبتها أو كادت وعم الخلل وارتفع الأمن حتى أن بعض الجند خرجوا إلى قرية على مقربة من بغداد فلقيهم جماعة من الأكراد فأخذوا منهم دوابهم فذهبوا إلى مراح الخليفة فنهبوا أشياء من ثمرته وقالوا للعاملين فيه: أنتم عرفتم حال الأكراد ولم تعلمونا فبلغ الخليفة الحال فعظم عليه جداً ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الأكراد لعجزه وشدة وهنه واجتهد فى تسليم الجند إلى نائب الخليفة فلم يمكنه ذلك فتقدم الخليفة إلى القضاة بترك القضاء وإلى الشهود بترك الشهادة وإلى الفقهاء بترك الفتوى فلما رأى جلال الدولة ذلك سأل أولئك الأجناد ليجيبوه إلى أن يحملهم إلى ديوان الخليفة ففعلوا فلما وصلوا إلى دار الخلافة أطلقوا وعظم أمر طائفة العيارين من الجند فصاروا يأخذون أموال الناس ليلاً ونهاراً ولا مانع يمنعهم لأن الجند لا يحمون إلاعن السلطان ونوابه والسلطان عاجز عن قهرهم وانتشر كذلك العرب فى البلاد فعاثوا ونهبوا وقطعوا الطرق وبلغ النهب إلى أطراف بغداد وأخذوا ثياب النساء فكانت فتنة شديدة ومحنة كبرى.

وكان فى أيام القائم بأمر الله أى سنة ثلاثين وأربعمائة قيام دولة السلاطين السلجوقية وانقراض دولة بنى بويه فكانت مدة ملكهم مائة سنة وسبعاً وعشرين سنة ذكر ذلك ابن البطريق فى تاريخه فى حوادث سنة ست وأربعين وفى أيامه أيضاً أى فى سنة ست وستين وأربعمائة غرق الجانب الشرقى وبعض الغربى من بغداد، قال أصحاب التاريخ: وسببه أن دجلة طغى ماؤه وارتفع كثيراً وانفتح القورج عند المسناة المعزية وجاء فى الليل سيل عظيم وطفح الماء من البرية وهبت ريح شديدة جداً وجاء الماء إلى البيوت من فوق وفاض من البلاليع والآبار بالجانب الشرقى فهدم البيوت وسقطت على ما بها من الخلق فمات خلق كثير فكثر الصياح من كل صوب وحدب

وترك الناس بيوتهم وهم يضجون ويعجون إلى الله وقام الخليفة يتضرع ويدعو الله وعليه البردة وبيده القضيب واشتد الكرب بالناس وكبر خوفهم وتهدم أكثر المقابر بالجانب الشرقي ومعظم الأسوار ودخل الماء من شبابيك البيمارستان العضدي وكانت شدة يالها من شدة، قال بعض الكتاب: ومن عجيب ما يحكى فى هذا الغرق أن الناس كانوا قد أنكروا كثرة المغنيات والخمور فقطع بعضهم أوتار عود مغنية كانت عند أحد العسكر فثار به ذلك الجندى فضربه فأجمعت عند ذلك العامة وعلت الضوضاء وكان ممن اجتمع مع العامة كثير من الأئمة منهم أبو إسحق الشيرازى واستغاثوا إلى الخليفة وطلبوا هدم المواخير والحانات وألحوا فى ذلك فوعدهم الخليفة بأنه سيكاتب السلطان فى ذلك فسكتوا وتفرقوا وقد لازم الكثير من الصالحين الدعاء بكشفه فأنفق أن غرقت بغداد ونال الخليفة والجند من ذلك أمر عظيم وعمت مصيبته كافة الناس فرأى الشريف أبوجعفر بن موسى بعض الحجاب الذين كانوا يقولون للناس نحن نكاتب السلطان فى أمر الحانات والمغنيات ونسعى فى تفريق الخلق وينتهرهم ويقول لهم اسكتوا إلى أن يرد الجواب، فقال له أبو جعفر: قد كتبنا يارجل وكتبتم فجاء جوابنا قبل جوابكم يعنى أنهم شكوا ما حل بهم إلى الله تعالى فأجابهم بالغرق قبل ورود جواب السلطان . اهـ.

ومع ما كان عليه الخليفة القائم من رقة الجانب وحسن السيرة وطيب الأخلاق والميل إلى قضاء حوائج الخلق فإنه كان مغلوباً على أمره لا كلمة له البتة ولا رأى ولا صوت مع السلجوقيين بعد بنى بويه فكانوا إذا رأوا منه انحرافا عنفوه وهددوه وشددوا فى المراقبة عليه فكانت دار الخلافة كلها عيوناً وأرصادا للسلطان، وما زال الحال هكذا حتى مات الخليفة سنة سبع وستين وأربعمائة لعشر ليال مضت من شعبان فكانت خلافته أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر وقيل خمساً وأربعين سنة وفى رواية أنه خلع ثم أعيد إلى الخلافة ثانية ولكن أصحاب التاريخ لم تذكر شيئاً من ذلك، قال صاحب الكامل: وسبب موته أنه كان قد أصابه ماشرا فافتصد ونام منفرداً فانفجر فصاده وخرج منه دم كثير ولم يشعر واستيقظ وقد ضعف وسقطت قوته فأيقن بالموت فأحضر ولى العهد ووصاه بوصايا وأحضر المنقبين وقاضى القضاة وغيرهم مع الوزير أبى جهير وأشهدهم على نفسه أنه جعل ابن ابنه أبا القاسم عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله ولى عهده فلما مات غسله الشريف أبو جعفر بن أبى موسى الهاشمى وصلى عليه المقتدى بأمر الله وكان عمره ستاً وسبعين سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام، وكان القائم مليح الوجه أبيض مشربا حمرة حسن الجسم

ورعاً دينا زاهداً عالماً قوىَّ اليقين كثير الصبر ميالاً للعدل. قال محمد بن علىّ بن عامر الوكيل: دخلت يوماً إلى المخزن فلم يبق أحد إلا أعطانى فصة فامتلأت أكمامى منها، فقلت فى نفسى لو كان الخليفة أخى لأعرض عن هذه كلها فألقيتها فى بركة والقائم ينظر ولا أشعر فلما دخلت إليه أمر الخدم بإخراج الرقاع من البركة فأخرجت ووقف عليها ووقع فيها بأغراض أصحابها. ثم قال لى ياعامى ما حملك على هذا، فقلت: خوف الضجر منها، فقال: لا تعد إلى مثلها فإنا ما أعطيناهم من أموالنا شيئاً إنما نحن وكلاء.

ومات فى خلافته أبو الحسن علىّ الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله وكان موته فى سنة سبع وعشرين وأربعمائة وعمره ثلاث وثلاثون سنة وكانت مدّة ملكه خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوماً: كان جميل السيرة حسن السياسة منصفاً للرعية إلا أنه كان مشتغلاً بلذاته محباً للدعة والراحة ففوض الأمور إلى وزيره أبي القاسم علىّ بن أحمد الجرجرانى لمعرفته بإخلاصه وكفايته، ولما مات ولى ابنه أبو تميم معدّ ولقب المستنصر بالله ومولده بالقاهرة سنة عشر وأربعمائة فكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى خلافة المقتدى بأمر الله، ومات فى خلافة القائم أيضاً فيلوثاوس بطرك الإسكندرية بعد أن أقام أربعا وعشرين سنة وقامت فى أيام فيلوثاوس طائفة الملكية على المتأصلين أهل البلاد الذين هم قبط مصر فأخذوا منهم كنيسة السيدة المعروفة بكنيسة البطرك كرها وتسلمها ارسانيوس بطرك الملكية قهرا فقامت لذلك الفتنة بين الفريقين واشتدّ الخلاف وكثر الأخذ والرد وطال الحال على ذلك أياماً وكادت الفتنة تبلغ مبلغاً عظيماً لولا الخطوب المتابعة والكروب المتراكمة فترك المتأصلون الأمر إلى حين آخر، ولما مات فيلوثاوس المذكور أقيم بعده زخريس أو هو زخرياس رابع ستيهم وكان قسيسا بمدينة الإسكندرية فوقع له من البلايا والمحن ما سيذكر فى محله.

(الفصل السابع والعشرون)

(فى خلافة أبى القاسم المقتدى بأمر الله بن محمد بن القائم بأمر الله)

ثم قام بالأمر بعد القائم بأمر الله ولد ولده أبو القاسم عبد الله المقتدى بأمر الله بويع له بالخلافة يوم موت جده القائم بأمر الله سنة سبع وستين وأربعمائة هجرية أى

سنة أربع وسبعين وألف ميلادية وحضر مؤيد الدولة بن نظام الملك والوزير فخر الدولة بن جهير وابن عميد الدولة والشيخ أبو إسحق وأبو نصر بن الصباغ وبقية النقباء وغيرهم من رجال الدولة والأماثل فبايعوه، قال بعض الكتاب: وكان أول من بايعه الشريف أبو جعفر بن أبى موسى الهاشمى وذلك أنه كان قد تولى غسل القائم فلما فرغ منه قام وبايع المقتدى وأنشده:

إذا سيّدٌ منّا خَلاَ قام سيّدُ

ثم ارتج عليه فقال المقتدى: قؤولٌ بما قال الكرام فعول، ولم يكن للقائم من أعقابه ذكر سوى المقتدى فأنَّ الذخيرة أبا العباس محمد بن القائم توفى أيام أبيه ولم يكن له غيره فتحقق الناس انقراض نسله وانتقال الخلافة من البيت القاردى إلى غيره وتوقعوا اختلال الأحوال بعد القائم لأن من عدا البيت القادري من العباسيين كانوا يخالطون العامة فى البلد ويجرون مجرى السوقة فإذا ولى أحدهم بحكم الضرورة لم يكن له ذلك القبول ولا تلك الهيبة التى هى لآل البيت القادرى. وكان للذخيرة أبى العباس ولد القائم جارية اسمها أرجوان وكان يلم بها فلما مات ورأت ما نال القائم من المصيبة بانقراض عقبه ذكرت أنها حامل فتعلقت النفوس بذلك فولدت بعد موت سيدها أبى العباس لستة أشهر ذكرا فسموه المقتدى وأشتد فرح القائم وعظم به سروره وبالغ فى الإشفاق عليه والمحبة له، قال بعض الكتاب: فلما كانت حادثة الباسرى (وهى طويلة أضربنا عن إيرادها هنا) كان للمقتدى المذكور أربع سنين تقريباً فأخفاه أهله وحمله أبو الغنائم بن المحلبان إلى حرّان فلما عاد القائم إلى بغداد بعد قيام الفتنة واختلاف أمورها بسبب الباسرى المذكور أعيد المقتدى إليه، فلما بلغ الحلم جعله ولى عهده واستقرت بالمقتدى الخلافة فأقر فخر الدولة بن جهير على الوزارة بوصية من جده القائم وسير حميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير إلى السلطان ملكشاه ليأخذ له البيعة وأرسل معه من أنواع الهدايا ما يجل عن الوصف.

ووردت الأخبار إلى المستنصر بالله العلوى صاحب مصر بموت القائم وولاية المقتدى ففرح بذلك وظن بلوغ ما فى نفسه وكتب إلى صاحب مكة ابن أبى هاشم يسأله أن يعيد له الخطبة بمكة وكانت قد انقطعت وعادت إلى العباسيين وأرسل له هدية سنية للغاية ورسالة يقول فيها: إن أيمانك وعهودك كانت للقائم وللسلطان ألب أرسلان وقد ماتا فأخطب لى فخطب له بمكة وقطع خطبة المقتدى، فكانت مدة الخطبة العباسية بمكة أخيراً أربع سنين وخمسة أشهر ثم أعيدت فى ذى الحجة سنة ثمان وستين فلم يتم للمستنصر هذا الأمر حتى سار الإقسيس من دمشق إلى ديار مصر مع جيش عظيم يريد أخذها من المستنصر وكان قد أخذ دمشق بعد حروب

أضربنا عن إيرادها هنا فحاصر مصر بعد وصوله إليها وأطال الحصار وشدد وضيق ولم يبق إلا أن يملكها فاجتمع أهلها مع ابن الجوهرى الواعظ فى الجامع وبكوا وتضرعوا وابتهلوا إلى الله تعالى فأستجاب الله لهم، فلما خرجوا لقتال الإقسيس المذكور انهزم من غير قتال وعاد على أقبح صورة بغير سبب فوصل إلى دمشق وقد تفرق أصحابه فرأى أهلها قد صانوا مخلفيه وأمواله فشكرهم ورفع عنهم الخراج تلك السنة وأتى بيت المقدس فرأى أهله قبحوا على أصحابه ومخلفيه وحصروهم فى محراب داودع ليه السلام فلما قارب البلد تحصن أهله منه وسبوه فقاتلهم حتى فتح البلد عنوة ونهب وقتل من خلقها كثيراً جداً حتى أعمل السيف فيمن التجأ إلى المسجد الأقصى وكف عمن كان عند الصخرة وحدها. قال صاحب الكامل: هكذا يقول الشاميون هذا الأسم إقسيس والصحيح أن اسمه أتسز وهو اسم تركى قال: وقد ذكر بعض مؤرخى الشام: إن أتسز هذا لما وصل إلى ديار مصرجعل أمير الجيوش يدرب العسكر واستمدّ العرب وغيرهم من أهل البلاد فاجتمع معه خلق كثير واقتتلوا فانهزم أتسز وقتل أخ له وقطعت يد أخ آخر وعاد منهزماً إلى الشام فى نفر قليل من عسكره فوصل الرملة ثم سارمنها إلى دمشق، وقال آخرون: ولما وصل أتسز إلى بلاد مصر ونزل بظاهر القاهرة أساء أصحابه السيرة فى الناس وظلموا وعاثوا وأفسدوا وفعلوا الأفاعيل القبيحة فأرسل عظماء القرى جماعة فتقدموا إلى المستنصر بالله العلوى يشكون إليه ما نزل بهم فأعاد الجواب بأنه عاجز عن دفع هذا العدوّ فقالوا نحن نرسل إليك من عندنا الرجال المقاتلة يكونون معك ومن ليس له سلاح تعطيه من عندك سلاحاً وعسكر هذا العدوّ قد أمنوا وتفرقوا فى البلاد فنثور بهم فى ليلة واحدة ونقتلهم وتخرج أنت إليه فيمن اجتمع عندك من الرجال فلا يكون له بك قوة فأجابهم إلى ذلك وأرسلوا إليه الرجال وثاروا كلهم فى ليلة واحدة بمن عندهم فأوقعوا بهم وقتلوهم عن آخرهم ولم يسلم منهم إلا من كان عنده فى عسكره وخرج إليه العسكر الذى كان عند المستنصر العلوى بالقاهرة فلم يقدر على الثبات قبلهم فولى منهزماً وعاد إلى الشام مذعوراً فتبعه العساكر المصرية وتقدمهم نصر الدولة وما زالوا خلفه وهو يجدّ فى السير حتى دخل دمشق فلحقوه وحصروا دمشق وضيقوا عليها فأرسل إقسيس إلى تاج الدولة تنش يستنصر به فسار إلى نصرته فلما سمع المصريون بقربه أجفلوا من بين يديه شبه المنهزمين وخرج صاحب دمشق يلتقيه عند سور البلد وكأنه ندم على الاستنجاد به فاغتاظ تاج الدولة من ذلك حيث لم يبعد فى تلقيه وعاتبه فاعتذر الإقسيس بأمور لم يقبلها تاج الدولة وقبض عليه فى

الحال وقتله ودخل دمشق بمن معه من الجنود وملكها وأخذ يتصرف فى أمورها فأحسن السيرة فى أهلها وعدل فيهم، وذلك سنة إحدى وسبعين وأربعمائة كما رواه ابن الهمذانى وغيره من العراقيين، وأما الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقى صاحب تاريخ دمشق فقد قال: إن تاج الدولة تتش المذكور كان تملكه لدمشق فى سنة اثنتين وسبعين. ولما كان شهر ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وصل أمير الجيوش فى عساكر مصر إلى الشام فحصر دمشق وضيق عليها وبها صاحبها تاج الدولة تتش وما زال يقاتلها ليلاً ونهاراً حتى أعياه أمرها ولم يظفر منها بشىء فرحل عنها عائداً إلى مصر واتسعت كلمة تتش فملك حمصا وغيرها من سواحل الشام وأخذ منها ما كان بيد صاحب مصر، فسير أمير الجيوش بدرًا وزير المستنصر عسكراً عظيماً إلى تلك الأطراف فقاتلوها قتالاً عنيفاً حتى رجعت إلى الطاعة وقرر أمير الجيوش أمورها وجعل فيها الأمراء وولى مدينة صور أميرا اسمه منير الدولة الجيوشى فلم تستقر به الولاية حتى عصى وخرج عن طاعة المستنصر فركب عليه أمير الجيوش فى عسكره وكان أهل صور قد أنكروا على منير الدولة عصيانه على سلطانه فلما وصل أمير الجيوش بالعسكر المصرى إلى صور وأحاطوا بالبلد وقاتلوها ثار أهلها ونادوا بشعار المستنصر وأمير الجيوش وسلموا البلد فهجم العسكر المصرى بغير مانع ولا مدافع ونهبوا ما فى البلد من مال ومتاع وأسر منير الدولة ومن معه من أصحابه وحملوا إلى مصر فقتلوا عن آخرهم.

وكانت أمور البلاد فى قلق واضطراب بسبب المجاعة العظيمة التى لم يسمع بمثلها من قديم الزمان، قال أصحاب التاريخ: أشتدّت المجاعة بمصر فى هذه الأيام أعنى فى أيام المستنصر بالله العلوى حتى أكل الناس بعضهم بعضاً وكان الكلب يباع بخمسة دنانير والقط بثلاثة دنانير وأشتدّ الغلاء وعظم البلاء على الناس حتى شوهد فى كثير من الأحيان أن ما بقى من الكلاب كانت تدخل الدور وتأكل الأطفال وهم فى المهود وآباؤهم وأمهاتهم ينظرون إليهم ولا يقدرون على النهوض لخلاصهم من شدّة الجوع، وكان الرجل يسرق ابن جاره ويذبحه ويأكله ولا ينكر عليه ذلك قالوا: وكان فى مصر حارة بها عشرون داراً كل دار يساوى ثمنها نحو ألف دينار يقال إنها بيعت كلها بطبق خبز فسميت من ذلك الوقت بحارة الطبق، وخرجت أمرأة يوماً إلى السوق وبيدها عقد من الجوهر، فقالت: من يأخذ منى هذا العقد ويعطينى عوضه قمحاً فلم تجد من يأخذه منها فالتفتت إلى العقد. وقالت: إذا كنت لا تنفعنى وقت الحاجة فلا حاجة لى بك وألقته على الأرض وسارت مغضبة، ويقال

ان وزير المستنصر ركب بغلة يوماً إلى دار المستنصر فلما نزل عنها أخذها غلمانه وأكلوها ولم يتركوا منها إلا المشامش والجلد وكان الرجل يمشى من جامع ابن طولون إلى باب زويلة ولا يرى في وجهه إنساناً إلا نادراً، ولبث الحال على هذا الوصف أياماً كثيرة مات فيها من الناس والبهائم وبقية الحيوانات ما لا يكاد يدخل تحت الحصر وارتفع النيل على عادته وعم الأراضى وهبط ولم يوجد من يزرع الأرض سنة، وكثرت الفتن فى البلاد وعظمت نارها ما بين الأتراك جند السلطنة والسودان أتباع المستنصر وغلمانه الذين عليهم معتمده وقد كانوا كثيرى العدد والعدد ولهم الكلمة النافذة والقول المطاع وكانت والدة المستنصر تجنح إليهم لأنها كانت سوداء مثلهم وتحب ظهورهم على جماعة الأتراك واتفق أن المستنصر خرج يوماً إلى بركة عميرة التى هى بركة الحج على عادته ومعه جماعة من أصحابه وطائفة من السود وأخرى من الأتراك فنزلوا هناك يتعاطون الخمر فأفرط أحد الأتراك فى شربها حتى سكروقام وبيده سيفه فأهوى به على أحد السود من أولئك الغلمان فصاح الأسود فى وجه التركى وقام بقية الغلمان عليه فقتلوه بسيوفهم وانقضى ذلك اليوم وعاد المستنصر إلى القاهرة فدخل عليه جماعة من كبار الأتراك وقالوا: إن كان قتل صاحبنا بإغرائك فالسمع والطاعة وإلا فالسيف يحكم بيننا وبين السود فأنكر المستنصر ذلك وحلف أنه لم يأمر بقتل صاحبهم فخرجوا من فورهم لقتال السود فاجتمع الفريقان واقتتلوا فى الأزقة والحارات فى القاهرة ومصر قتالاً عنيفاً حتى جرى الدم فيها ثم افترقوا على أن القاتل يسلم إلى جماعة الأتراك وبقيت الأحقاد كامنة فى قلوب الفريقين حتى قدّم الأتراك عليهم ناصر الدولة أحد كبار القواد المخلوعين فجمع كلمتهم وأحسن تدبير شئونهم وجعل يتأهب لقتال السود فرأى جماعة السود أن لا قبل لهم على قتال الأتراك فنزلوا إلى الصعيد الأعلى فانضم إليهم كثير من العربان والمصريين فقويت قلوبهم وكثرت جموعهم وانحدروا إلى القاهرة والإسكندرية وقاتلوا الأتراك وأوقعوا بهم فى كوم شريك فكانت الدائرة على السود وقد مات منهم خلق كثير وغرق منهم جماعة فى النيل، قال بعض الكتاب: فكان من قتل وغرق منهم زهاء ثلاثين ألفاً ومات مقدّمهم المدعوّ أبا سعيد وكان من المقرّبين عند والدة المستنصر فكبر عليها هذا الأمر جداً وأحزنها وكثرعبث السود فى القاهرة ومصر وسائر القرى والبلاد وعم الخطب واستفحل أمر الفتنة وطالب الأتراك المستنصر بما لهم من الجوامك والمرتبات وألحوا فى الطلب وركبوا على المستنصر وهدّدوه فاعتذر لنفاد ما فى يده وخرج يوماً وطاولهم فلم يقنعوا وكانوا لا ينكفون

عن مطالبته كل قليل من الزمان فسقط فى يده وخرج يوما هائماً على وجهه حتى دخل جامع عمرو بن العاص بفسطاط مصر وأقام به يريد خلع نفسه وترك أشغال الملك لمن يتولاه فلم يفلح وأعاده رجال دولته وألحوا عليه بالبقاء وعاد الأتراك والسود إلى الفتنة وخروج بعضهم على بعض فاقتتلوا ثانية عند الجيزة أياماً كثيرة كانت الحرب بينهم سجالاً ثم دارت الدائرة على السود فأوقع بهم الأتراك ومزقوا شملهم كل ممزق فترفعوا إلى الصعيد الأعلى وعاد الأتراك إلى القاهرة ومعهم مقدمهم ناصر الدولة وقد صغرت مهابة المستنصر فى أعينهم فطالبوه بالزيادة فى رواتبهم وما زالوا به حتى بلغت أربعمائة ألف دينار نقرة فى كل شهر بعد أن كانت ثمانياً وعشرين ألفا فاشتدّ خوف المستنصر من ناصر الدولة وأصحابه وكبرت طيرته فكان لا يرتاح فى أكله ولا شربه ولا نومه حتى فى صلاته وكذلك كان وزراؤه فخلعوا أنفهسم من منصب الوزارة ومع ذلك كان الأتراك لا ينكفون عن مطالبته بالمال فأخرج كل ما كان فى قصره من الذخائر الثمينة والتحف الغالية التى كانت لأجداده وباعها لهم بأبخس الأثمان، وقد كانت شيئاً كثيراً جدّا من الحلى والأحجار الكريمة والأوانى من الذهب والفضة والقماش والرياش والسروج المحلاة بالياقوت والزمرد والمرجان والسيوف الهندية مما لا يكاد يدخل تحت الحصر، فلما استصفوا ما فى قصره أخذوا أيضاً ما كان فى قبر أجداده من التحف والنفائس ونهبوا ما كان فى خزانة الكتب من الكتب النفيسة، قال بعض أصحاب التاريخ: وعددها عشرون ألف مجلد فاقتسموها بينهم وسيروا إلى ابن المحترق حاكم الإسكندرية بشىء كثير منها وكان يزعم أنه يخصه، فلما بلغوا بالكتب بلدة أبيار خرج عليهم جماعة من عربان قبيلة لواتة فنهبوها واتخذوا لهم من جلود بعضها أحذية وأحرقوا بعضها وتركوا بعضها ملقى فى بعض الدروب فأنهالت عليه الرمال حتى صار تلا عظيماً فكان يعرف بتل الكتب، وكثر عبث جماعة الأتراك وازداد طغيان ناصر الدولة وعسفه فكتب إليه المستنصر يوما يقول لما تقرّبت منا وتطلبت حمايتنا حميناك وأوسعناك هبات وخيرات فكافأتنا بالعقوق وما زادك حلمنا إلا قحة فألقيت عصا الشقاق فى جيوشنا وتواطأت مع ذويك على دمارنا فالآن أخرج من عاصمتنا ونحن نضمن لك الأمان ونأذن لك بأن تحمل معك من ثروتك ما شئت إلى حيث شئت، وإن لم تذعن إلى ذلك فالعقاب إن شاء الله شديد، فلم يلتفت إليه ناصر الدولة فكبر الأمر على المستنصر وجمع إليه قواد المغاربة وأمراء كتامة ومن استمالهم من قواد الأتراك وبينهم الأمير دكوز صهر ناصر الدولة، وكان نافذ الكلمة واسع الهيبة وكلمهم فى

أمر ناصر الدولة وما يأتيه جماعة الأتراك فى كل يوم من الجور والعسف وهدم أركان السلطنة وجدد عليهم بيعته فبايعوه وحلفوا الأيمان فتسلل عند ذلك أصحاب ناصر الدولة وتفرّقوا عنه إلا القليل فخرج إلى الجيزة ليدبر الحيلة فى ذلك، فثار أصحاب المستنصر وانتهبوا بيت ناصر الدولة وسائر بيوت أصحابه وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وعم القتل والنهب، وخرج المستنصر بالله راكباً على فرس فى درعه وآلة حربه وأمامه الطبول الحربية وحوله القوّاد وكبار العسكر والأعلام تخفق على رأسه ونادى مناديه بالأمان والطاعة إلى السلطان فتوافد الأتراك زمرا ومرّوا من تحت العلم الكبير وصاحوا بطلب الأمان، وجاء جماعة من كبار قواد ناصر الدولة وفعلوا كذلك وكثرت الغوغاء وارتفعت أصواتهم بالدعاء للسلطان فلما رأى ناصر الدولة ما حل بأصحابه وأيقن أنه مأخوذ لا محالة فرّ هارباً فى نفر من خواصه إلى الإسكندرية وتحصن بها وجعل يدس الدسائس ويبعث البعوث إلى ما جاورها من المدن والبلدان لحمل أهلها على الخروج عن طاعة المستنصر وخلع بيعته والمبايعة إلى الخليفة القائم بأمر الله العباسى واستمال إليه جماعة من عربان أولاد على وأمدّهم بالمال فطافوا يحرضون الناس على الخروج فأفلحوا قليلاً، فانحدر عند ذلك ناصر الدولة إلى القاهرة مع من وافقه يريد حصارها وأخذها من المستنصر وأحرق كل ما مر به من المدن والقرى والمزارع وعاث وأفسد حتى أحاط بسور القاهرة ونصب عليه المنجنيقات وجعل يقاتل من بها أياماً ثم تقرّرت قاعدة الصلح بينه وبين المستنصر بالله على أن يكون بيد ناصر الدولة ما كان له من قبل بشرط الطاعة وحُسن الولاء للمستنصر فأقام ناصر الدولة حينا لا يحرّك ساكناً وقد علم بما آلت إليه حالة المستنصر بالله من الضنك والفاقة وذهاب نعمته حتى لم يبق عنده من حطام الدنيا غير سجادة قديمة وبعض أثواب بالية لا تستر عورته وثلاثة عبيد فأعظم ناصر الدولة هذا الحال جداً ورتب إلى المستنصر فى كل يوم مائة دينار ينفقها فى حاجات بيته وكف عن مشاغبته وما زال ناصر الدولة على حاله من بسطة اليد والتصرف فى سائر الأمور حتى دخل عليه يوماً دكوز صهره وهو جالس فى إيوانه مع أخيه فخر العرب فقتلهما واحتز رأسهما وحملهما إلى المستنصر بالله فقويت عند ذلك عزيمة المستنصر بالله وتجدّدت آماله ونشط إلى إرجاع سلطته وإعلاء كلمته فسير إلى بدر الجمالي صاحب الشام يستقدمه إلى مصر ليوليه سائر ما وراء بابه وألح عليه فى ذلك فأجاب طلبه وسار بدر فى جماعة كثيرة من أصحابه ذوى البأس والنجدة حتى جاؤا عكا وركبوا السفن فلم تكن إلا أيام حتى بلغوا مصر ونزلوا ما بين تنيس ودمياط، وسير بدر إلى الشيخ

سلمان عظيم البحـيرة يعلمه بحضورهم فـخرج إليه فى جمع عظيم وساروا جمـيعاً نحو القاهرة فلما وصلوا إلى قليوب سيـر بدر إلى المستنصر بالله يلزمه بالقبض على دكوز قبل دخولهم القاهرة فقبض عليه فى الحال وسجنه فى خزانة البنود فدخل بدر القاهرة يوم الأربعاء سادس عشرى جمـادى الأولى سنة سبع وستين وأربعمائة، ولم يكن عند مقدّم الأتراك علم بمقدمه فما منهم إلا من أضـافه، فلما انقضت ضيافتهم أعدّ لهم وليمة فى داره وبيّت مع أصحابه أن القوم إذا جنهم الليل فلابدّ أن يحتاجوا إلى الخلاء فـمن قام منهم إلى الخلاء فاقـتلوه ووكل بكل واحد واحداً من أصـحابه وأقطعه جـميع ماتركه المقـتول من دار ومتاع وإقـطاع فعاد القوم إليـه وظلوا نهارهم عنده وباتوا ليلتهم تلك فمـا طلع النهار حتى استولى أصحـابه على جميع دور من قتلوا وشاع الخـبر بذلك ففرح المستنصر بالله وخلع عـلى بدر بالطيلسان المقوّر وقلده وزارة السيف والقلم فصارت القضاة والدعاة وسائر أرباب الدولة رهن أمره وزيد فى ألقابه لقب أمـير الجيوش كافل قـضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين وارتفـعت كلمة بدر الجمالى واتسـعت شهرته فتتـبع المفسدين بالقتل والتشـريد فلم يبق منهم أحداً، وقتل من أماثل البلاد وقضاتهم ووزرائهم جـماعة وسار إلى الوجه البحرى فى جند وخدم وأتبـاع فأسرف فى قـتل أصحاب الفـتنة والخوارج من لواته على عهـد ناصر الدولة واستصفى أموالهم وأخرب دورهم، ثم سـار إلى مدينة الإسكندرية فقتل بها من قتل وشرد من شـرد حتى دامت الأمور إلى المستنصر بالله وعاد إلى مـصر ظافراً غانماً، ثم سار إلى الصعيد لقتال جهينة والثعالبة وكانوا قد أفسدوا فقتل منهم وسبى وغنم من الأموال ما لا يكاد يدخل تحت الحـصر فصلح بما غنمه حال ذلك الصـعيد بعد فـساده، فلما دانت للمستنصر الأمور وبعدت كلمـته قدم عليه الحسن بن صباح رئيس الطائفـة الإسماعـيلية فى زى تاجر واجـتمع به وخاطـبه فى إقامـة الدعوة له بأرض العجم بأسرها فـأجابه إلى ذلك، فعاد الحسن ودعا الناس إليـه سراً ثم أظهر الدعوة فـتبعه خلق عظيم وكـثرت لومه فـقاتل بهم وملك القلاع والحصـون. وقال للمستنصـر: من إمامى بعدك، فقال له: ابنى نزار، وكان نزار أكـبر أولاد المستنصر والإسمـاعيليـة يقولون بـإمامة نزار إلـى هذا الحين ثم كـان من أمر الإسـماعيلـية وظهورهم وقـتالهم ما سيـتلى عليك فى محله، وتزايدت محبة بدر للرعـية ورفقه بحالهم بعـد الذى ذاقوه على عهد نـاصر الدولة، فأباح الأرض لمن يزرع بغيـر مال ثلاث سنوات، فترفـهت حال الفلاحين واتسعت المزارع وأخصـبت الأرض وكثرت غلاتها، فدرت الأرزاق وهبطت الأسعار وشبع الجـائع وأكل الفقير وامتلأت مخازن الأغنياء وراجت التـجارة فهرع التجـار إلى مصر والقاهرة وجـاؤوها من كل صوب

وحدب وعم الأمن سائر الأنحاء، وبلغ خراج مصر على يديه ثلاثة آلاف ألف ومائة ألف دينار عينا، وأقام البنايات العظيمة وبنى دار الوزارة الكبرى وسماها الدار الأفضلية فكانت مقره ومقر كل من يلى امرة الجيوش وبقيت كذلك إلى أن انتقل الأمر للأيوبيين، وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مع حشمة ووقار. قال علقمة بن عبد الرزاق العليمي: قصدت بدرا الجمالى بمصر فرأيت أشراف الناس وكبراءهم وشعراءهم على بابه قد طال مقامهم ولم يصلوا إليه، فبينما أنا كذلك إذ خرج بدر يريد الصيد فخرجت فى أثره ثم أقمت إلى أن رجع من صيده فلما قاربته وقفت على نشز من الأرض وأومأت برقعة فى يدى وأنشأت أقول:

نحن التجار وهذه أعلاقنا	درٌّ وجود يمينك المبتاع
قلب وفتشها بسمعك إنما	هي جوهر تختاره الأسماع
كسدت علينا بالشام وكلما	قل النفاق تعطل الصناع
فأتاك يحملها إليك تجارها	ومطيها الآمال والأطماع
حتى أناخوها ببابك والرجا	من دونك السمسار والبياع
فوهبت ما لم يعطه في دهره	هرم ولا كعب ولا القعقاع
وسبقت هذا الناس في طلب العلا	فالناس بعدك كلهم أتباع
يابدر أقسم لو بك اعتصم الورى	ولجوا إليك جميعهم ما ضاعوا

وكان على يد بدر بازىّ فألقاه وانفرد عن الجيش وجعل يستعيد الأبيات وهو ينشدها إلى أن استقر فى مجلسه، ثم قال لجماعة غلمانه وخاصته: من أحبنى فليخلع على هذا الشاعر فخرجت من عنده ومعى سبعون بغلا تحمل الخلع والتحف وأمر لى بعشرة آلاف درهم فخرجت من عنده وفرقت كثيراً من ذلك على الشعراء . اهـ.

وطالت أيام بدر وعظمت نعمته وما زال يتصرف فى الأمور ولا كلمة فوق كلمته حتى وافته منيته فى سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية وله من العمر ثمانون سنة، فكانت أيام حكمه زهاء عشرين سنة، يقال: أنه قتل فى خلالها من الخلائق ما لا يكاد يدخل تحت الحصر ومع ذلك فقد كان محبوباً مطاع الكلمة وافر الحرمة فحزن عليه المستنصر حزناً عظيماً وحزن عليه أهل مصر والقاهرة كافة، وأقام المستنصر مكانه ابنه الأفضل وولاه سائر ما وراء بابه فانطلقت كلمته واتسعت هيبته وظل يتصرف فى الأمور حتى مات المستنصر بالله فى ثامن عشر ذى الحجة سنة سبع

وثمانين وأربعمائة هجرية وله من العمر سبع وستون سنة وخمسة أشهر، ولما مات المستنصر ولى بعده ابنه أبو القاسم أحمد المستعلى بالله وكان المستنصر قد عهد بالخلافة من بعده إلى أكبر أولاده نزار فخلعه الأفضل بن بدر الجمالي من ولاية العهد وبايع المستعلى بالله المذكور، قال أصحاب التاريخ: وكان سبب ذلك أن الأفضل ركب مرة أيام المستنصر ودخل دهليز القصر من باب الذهب راكباً ونزار خارج والمجاز مظلم فلم يره الأفضل فصاح به نزار أنزل ياأرمني كلب عن الفرس ما أقل أدبك فحقدها عليه فلما مات المستنصر خلعه خوفاً منه على نفسه وبايع المستعلى فهرب نزار إلى الإسكندرية وبها ناصر الدولة افتكين فبايعه أهل الإسكندرية وسموه المصطفى لدين الله فخطب الناس ولعن الأفضل بن الأمير بدر الجمالى وأعانه أيضاً القاضى جلال الدولة بن عمار قاضى الإسكندرية فسار إليه الأفضل فى جيش عظيم وحصره بالإسكندرية فعاد عنه مقهوراً، ثم زاد فى عسكره وسار إليه فحصره وأخذه وأخذ أفتكين فقتله، وتسلم المستعلى أخاه نزاراً فبنى عليه حائطاً فمات وقتل القاضى جلال الدولة بن عمار ومن أعانه على الخروج .

ولما كان الخامس عشر من المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة مات الخليفة الإمام المقتدى بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة بن القائم بأمر الله أمير المؤمنين فجأة وكان قد رفع إليه تقليد السلطان بركيارق ليعلم ما فيه وكان السلطان بركيارق المذكور قد جاء إلى بغداد وأرسل إلى الخليفة يطلب الخطبة لنفسه فأجيب إلى ذلك وخطب له ولقب ركن الدين وحمل الوزير عميد الدولة الخلع إلى بركيارق فلبسها وعرض التقليد على الخليفة ليعلم عليه فقرأه وتدبره وعلم ما فيه ثم قدّم إليه طعام فأكل وغسل يديه وهو على أكمل حال وأحسن هيئة فى نفسه وجسمه وبين يديه قهرمانته شمس النهار فقال لها: ما هؤلاء الأشخاص الذين دخلوا بغير إذن؟ فالتفتت فلم تر أحدا ثم نظرت إليه فرأته قد تغير وجهه وأسترخت يداه وانحلت قواه وسقط إلى الأرض فظنت أنه قد غشى عليه فإذا هو قد مات فأمسكت عن البكاء واستدعت الوزير أبا منصور فبكيا ثم أحضرا أبا العباس أحمد المستظهر بن المقتدى وكان قد عهد إليه أبوه فعزياه وهنآه بالخلافة ثم جهز المقتدى وصلى عليه ابنه المستظهر بالله ودفن وكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر غير يومين، وكانت أيامه كثيرة الخير واسعة الرزق وعظمت الخلافة على يديه وكان السلطان بركيارق مصمما على إخراجه قبل موته من بغداد إلى البصرة تخلصاً منه إذ كانت حرمته وافرة وهيبته عظيمة جداً والقلوب مجمعة على طاعته، وكان قوى النفس عظيم الهمة من رجال بنى العباس.

(الفصل الثامن والعشرون)

(في خلافة المستظهر بالله أبي العباس أحمد)

ثم قام بالأمر بعد المقتدى بأمر الله ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية أى سنة أربع وتسعين وألف ميلادية بايعه الوزير ثم ركب إلى السلطان بركيارق وأعلمه الحال وأخذ بيعته للمستظهر بالله فلما كان اليوم الثالث من موت المقتدى جلس المستظهر للعزاء فحضر عز الملك بن نظام الملك وزير بركيارق وأمراء السلطان وجميع أرباب المناصب العالية والقضاة والعلماء فجلسوا فى العزاء وبايعوا، وكان للمستظهر بالله لما بويع ست عشرة سنة وشهران ليس إلا.

ولما استقرت به الخلافة جعل يتصرف فى الأمور فلم يكن له من حظها ماكان لأبيه المقتدى بأمر الله لشدة السلطان بركيارق وبسطة يده على جميع الأمور وكراهته لاتساع نفوذ الخلافة، وكانت أحوال سلطنة بركيارق مع ذلك فى غاية الضعف والانحلال لتغلب الفرنجة على الكثير من بلاده وفتحها عنوة إذ كانوا إلى سنة أربع وثمانين وأربعمائة قد ملكوا من بلاد الإسلام عدة مدن وتطرفوا إلى أطراف أفريقية فملكوا منها جزيرة سيسيليا التى كانت فى يد الفاطميين بعد نزعها من أيدى الغاليين الذين هم قدماء الفرنسيس وذلك أنه لما كثر شغب أهل هانه الجزيرة وانقسم بعضهم على بعض واستعصى على المعز لدين الله العلوى إصلاح ما أفسده عماله أكثر من العزل والتولية فى عمالها وشدد فى مراقبتهم وتبعه فى ذلك من أتى بعده من ذريته فلم يفلحوا أيضاً وتفاقم الخطب وتطاولت أيدى الفرنجة إلى دس الدسائس وإغراء من بالجزيرة من المسيحيين إلى الخروج وشق عصا الطاعة، وكان المسلمون من أهل الجزيرة أيضاً قد انقسموا إلى حزبين مختلفين وشطرين متخاصمين، وكان مقدم أحد الحزبين رجلاً يقال له ابن تمامة وهو من عظماء القوم وكبارهم فخرج فى أصحابه لقتال الفريق الثانى فانتشبت الحرب بينهما ثم انجلت عن هزيمة ابن تمامة ومن معه ففر هارباً إلى كاتان، وكانت إلى هذا الحين فى يد الفرنجة فأكرم صاحبها وفادته وأمده بالعدة والرجال، وعلم الفريق الثانى بما آلت إليه حال ابن تمامة فطلبوا المدد من صاحب أفريقية فأمدهم فكانت بين الفريقين حرب هائلة، وكان ممن خرج مع ابن تمامة للقتال القمص دوجر فى طائفة عظيمة من الفرنسيس فأبلى هذا القمص فى

عسكر أفـريقيـة بلاء حسناً وانتـصر ابن تمامـة وانهزم من كان فى تلـك الجزيرة من المسلمين فـدخلها دوجر وجعل يتصـرف بدهاء وحكمة وما زال بأهلها حـتى بايعوه سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة هجـرية وخرجت من يد العلويين كخروج غيرها من بقية المدن والبلدان، ومـا زال دوجر يدبر أمرها ويتصرف فى ملكهـا حتى مات سنة خمس وتسعين وأربعـمائة هجرية فقام بالأمر بعده ابـنه ولقب دوجر الثانى فزاد فى عمارتهـا وبالغ فى تحسين أحوالها حـتى زهت وغنيت وكثرت خيـراتها وتنعم أهلها براحة العيش بعد العناء والشدّة، وفى سنة تسعـين وأربعمائة خرج الفرنجة أيضاً إلى بلاد الشام وساروا فى جيش عظيم للغاية وقصدوا أنطاكية وصاحبها يومئذ آياغبسيان وكان أهل أنطاكـية من المسلمين والنصـارى فخاف آياغـبسيان أن تغـدر به النصارى وتخذله فلما علم بقرب الفرنجة أخرج المسلمين من أهلها ليس معهم غيرهم وأمرهم بحفر خندق حول البلد، ثم أخرج من الغد الـنصارى لعمل الخندق أيضًا ليس فيهم أحد من المسلمين فعملوا فيه إلى العصر، فلما أرادوا دخول البلد منعهم وقال لهم: أنطاكية لكم فلابد وأن تهبوها لى حتى أنظر ما يكون منا ومن الفرنجة، فقالوا: ومن يحفظ أبناءنا ونساءنا قال: أنا أخلفكم فيهم فساروا إلى عسكر الفرنجة فقبلهم ريشارد ملك الفرنجة وأنزلهم منزلا رحبا وحاصر ريشارد بعسكره البلد تسعة أشهر وظهر من شجاعة آياغبسيان وجودة رأيه وحزمه ما لم يشاهد من غيره، فلما طال مقام ريشارد على أنطاكية راسل الذى كان على برج الوادى من أبراج البلد واسمه بروزبه وبذل له أموالاً وإقطاعاً فلمـا تقرر الأمر بينهما أفرج لعـساكر ريشارد عن البرج فتـقدموا من ناحيته وتسلق جمـاعة كثيرة منهم بالحبال وما زالوا يتـسلقون حتى زادت عدتهم عن الخمســمائة ثم ضربوا البـوق وكان ذلك عند السحر والجند والحـراس نيام فاستـيقظ آياغبســيان وسأل عن الحال فـقيل أن هذا البوق من القلعة ولا شك أنهـا قد ملكت فدخلـه الرعب وأمر بباب الـبلد ففتـح وخرج هارباً فى ثلاثين غـلاماً على وجـهه وخرج نائبه أيضاً من باب آخر، ودخل عسكر ريشارد البلد فنهبوا وقتلوا من فيه من المسلمين وملكوه، فلما سمع ملوك الإسلام بما جرى على أنطاكية اجتمع منهم قوام الدولة كـربوقا ودقـاق بن تتش، وطغتكـين أتابك، وجناح الدولة صاحب حـمص وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسليمان بن ارتق وغيرهـم من الأمراء وتحالفوا على استخلاص أنطاكية من ريشارد وساروا فى جموع كثيرة نحو أنطاكية فما اقتربوا منها حتى وقع الخـلاف بينهم وأساء كربوقـا السيرة مـع من معه من المسلمـين وأغضب الأمراء وتـكبر عليـهم وانفرد بالكلمـة ظناً منه أنهم يقـيمون مـعه على هـذا الحال

فأضمروا له السوء وعقدوا النية على خذلانه إذا التقوا بجيوش الفرنجة، فلما أحاطوا بأنطاكية خرجت جيوش الفرنجة لقتالهم وضربوا مصفا عظيماً فوقع الخوف فى قلوب المسلمين وانهزموا شر هزيمـة ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم وانهزم كربوقا وتبـعهم الفرنجة فقتلوا منهم خلقاً كثـيراً وغنموا ما فى العسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة، فكـان شيئاً لا يكاد يدخل تحت الحصر، ولمـا وردت الأخبار إلى مصـر بهزيمة الترك عن أنطاكـية وضعفـهم وتفرق كلمتهم طمع أبو القاسم المستعلى بالله صاحب مصر فى استخلاص بيت المقدس من تاج الدولة تتش، وكان قد أقطعه للأمير سقمان بن ارتق فسير إليه عسكراً ومقدمهم الأفضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش فحصروه وبه الأمير سقمان وايلغازى ابنا أرتق وابن عمهما سـونج وابن أخيهما ياقوتى ونصب عليه الأفضل نيـفا وأربعين منجنيقا فهدم مـواضع من سوره وقاتلهم أهل البلد فدام القـتال والحصار نيفـا وأربعين يوماً وملكوه بالأمان وأحـسن الأفضل أمير الجيـوش المصرية إلى سقمـان وايلغازى ومن معهما وأجزل لهم العطاء وسيرهم فسـاروا إلى دمشق ثم عبروا الفرات فأقام سقمان ببلد الرها، وسار ايلغازى إلى العراق واستناب الأفضل فى بيت المقدس رجلاً يعرف بافتخـار الدولة فبقى فيه، ولما فـرغ ريشارد من قتال المسلمين على أنطاكـية وأخذها سار بعسكره ومن معه من أمراء الفرنجة إلى عـكا وحاصروها أياماً كثيرة فلم يقدروا عليها فساروا عنها إلى بيت المقدس وحصروه نـيفا وأربعين يوماً ونصبوا عليه برجين أحدهمـا من ناحية صـهيون فـقوى عليه المسلمـون وأحرقوه وقـتلوا كل من به فلم يفرغـوا من إحراقـه حتى أتاهم المسـتغيث بأن المـدينة قد ملكت من الجـانب الآخر ودخل الفرنجة البلد وركب الناس السـيف ولبث الفرنجة أسبوعاً يقتلـون فيه المسلمين واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعـتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام فبذل لهم الفرنجـة الأمان فسلمـوا إليهم ووفى لهم الفـرنجة وخرجـوا ليلاً وقتل الفـرنجة بالمسجد الأقـصى ما يزيد عن سبعـين ألفاً، منهم جمـاعة كثيرة من أئمـة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامى وأخذوا من القناديل الصـغار مائة وخمسين قنديلاً نقـرة، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلاً وغنمـوا منه مالا يقع عليه الإحصـاء. رواه صاحب الكامل وكانت شدة عظيـمة للغاية على المسلمـين وتمكن الفرنجة من البـلاد واستتبت أقـدامهم ولم

يقدر المسلمون على ردهم لتفرق كلمة سلاطينهم واختلاف أهواء أمرائهم فقال أبو المظفر الأبيوردى فى هذا المعنى أبياتاً:

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فهيا بني الإسلام أن وراءكم ... وقائع يلحقن الذري بالمناسم
أتهويمة في ظل أمن وغبطة ... وعيش كنوّار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهم ... ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرّون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمي ... توارى حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرّة الظبا ... وسمر العوالي داميات اللهازم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ... تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم يقرع بعدها سن نادم
سللن بأيدي المشركين قواضبا ... ستغمد منهم في الطلي والجماجم
يكاد لهن المستجن بطيبة ... ينادي بأعلى صوت ياآل هاشم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا ... رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى ... ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ... ويغضى على ذل كماة الأعاجم

ومنها

فليتهم إذ لم يذودوا حمية ... عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وإن زهدوا في الأجر إذ حمس الوغا ... فهلا أتوه رغبة في الغنائم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبري ... فلا عطسوا إلا بأجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحة ... إلينا بالحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية ... تطيل عليها الروم عض الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه ... رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

فاستعظم المستعلى صاحب مصر ما تم على أهل القدس واغتم له ورسم إلى الأفضل أمير الجيوش بقتال الفرنجة واستخلاص بيت المقدس منهم فحشد الأفضل

جيشاً عظيماً وسار إلى عسقلان وأرسل إلى الفرنجة ينكر عليهم ما فعلوا ويتهددهم بالقتال فأعادوا الرسول بالجواب ورحلوا على أثره بخيلهم ورجلهم وطلعوا على المصريين عقب وصول الرسول ولم يكن عند المصريين خبر بوصولهم ولا من حركتهم ولم يكونوا على أهبة القتال فلما أحسوا بهم نادوا فى الجند بالخروج وكثر النداء بركوب الخيل فأعجلهم الفرنجة فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً وغنموا ما فى المعسكر من مال وسلاح وغير ذلك، وانهزم الأفضل ودخل عسقلان وهرب الكثير من جنده فأختفوا فى شجر جميز كان هناك كثيراً فأحرق الفرنجة بعض الشجر فمات من كانوا فيه وأعملوا السيف فيمن خرج منهم، ثم عاد الأفضل فى نفر قليل من خواصه وأتباعه إلى مصر ونازل الفرنجة عسقلان وضايقوها فبذل لهم أهلها قطيعة أثنى عشر ألف دينار، وقيل عشرين ألف دينار فعادوا إلى بيت المقدس ظافرين غانمين وعظم أمرهم فملكوا أكثر سواحل الشام وغيرها مما لا علاقة له بنا هنا، وأنكف المستعلى عن قتالهم بعد هزيمة الأفضل أمير جيوشه عند عسقلان وإهلاكهم لعسكره، وكذلك تشاغل عنهم السلطان بركيارق بقتال أخيه السلطان محمد وغيره من الأمراء الذين خرجوا عن طاعته ومزقوا سلطنته لا سيما طائفة الباطنية الذين هم الإسماعيلية أصحاب الحسن بن الصباح الذى تقدم ذكر خبر حضوره إلى المستنصر صاحب مصر ومخاطبته إياه فى إقامة الدعوة له بأرض العجم بأسرها وجعلهم نزار ولده إمامهم بعد المستنصر المذكور، فقد كان عظم شرهم وكبر أمرهم وخافهم الأمراء والعظماء والقواد والجنود وتبعوا طريقتهم صاغرين وانبثت تعاليمهم فى أكثر المدن فظفروا بها وأقاموا القلاع والحصون وجندوا الأجناد وكادت تعم دعوتهم المشرق بأسره، وحيث قد وعدنا بأن تأتى على ذكر حال هذه الشيعة مفصلاً فى محله، وهذا محله الآن، فها نحن نتلو عليك ما قاله أصحاب التاريخ وأجمعوا عليه من أحوال هؤلاء الشيعة التى كانت تسمى قبلاً بالقرامطة، قالوا: كانت ابتداء ظهور دعوتهم الأخيرة التى اشتهرت بالباطنية والإسماعيلية فى أيام السلطان ملك شاه وكان أول ما انكشف من أمرهم أنه اجتمع منهم ثمانية عشر رجلاً فصلوا صلاة العيد فى ساوة على طريقتهم الشيعية ففطن بهم أصحاب الشحنة وانكشف لهم بعض ما خفى من أمرهم فقبض عليهم واعتقلوا أياماً ثم أفرج عنهم بشفاعة بعض الوجوه والأعيان فكان ذلك أول اجتماع لهم ظاهر للناس ولما أطلقوا من الحبس وأقاموا بساوة يدعون الناس ويكاشفون بعضهم، ثم ساروا إلى أصبهان يدعون أيضاً فكان من دعوهم مؤذن من أهل ساوة كان مقيماً بأصبهان فلم يجبهم إلى دعوتهم

فخافوا أن ينم عليهم فقتلوه فكان أوّل قتيل لهم وأول دم أراقوه فبلغ خبر قتله نظام الملك فأمر بأخذ من يتهم بقتله فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر فقتل ومثل به وجزوا برجله في الأسواق فكان أول قتيل منهم، وكان والد طاهر هذا واعظاً أتى بغداد مع السلطان بركيارق سنة ست وثمانين وأربعمائة هجرية فحظى منه ثم قصد البصرة فولى القضاء بها ثم توجه في رسالة إلى كرمان فقتله العامة في الفتنة التي جرت وقالوا: إنه باطني وتقوى الباطنية وأشتد أزرهم بمن انضم إلى شيعتهم من العظماء والقوّاد وظهور دعوتهم فتمكنوا من قتل نظام الملك فكان لفعلهم هذا أثر مهم للغاية وكان أول فتكة مشهورة لهم ولذلك كانوا يقولون قتل نظام الملك منا نجاراً فقتلناه به ثم نزلوا ببلد عند قاين وبها مقدمهم فاجتمعوا عنده فتقووا به فأجتازت بهم قافلة عظيمة من كرمان إلى قاين فخرج عليهم المقدم المذكور ومعه أصحابه ومن اجتمع إليه من الباطنية فقتل أهل القفل جميعهم ولم ينج منهم إلا رجل تركماني فوصل إلى قاين فأخبر بالقصة فتسارع أهلها مع القاضي الكرماني يريدون قتالهم فلم يفلحوا ورجعوا عنهم وفشا مذهبهم بين جند السلطان بركيارق وتقوى به كثير منهم وزاد أمرهم فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل فصار يخالفهم من يخالفهم حتى أنه لم يتجاسر أحد لا أمير ولا مقدم على الخروج من منزله إلا حاسرا فيلبس تحت ثيابه درعا حتى إن الوزير الأغر أبا المحاسن كان يلبس زردية تحت ثيابه واستأذن السلطان بركيارق خواصه في الدخول عليه بسلاحهم وعرفوه خوفهم ممن يقاتلهم فأذن لهم في ذلك وأشاروا على السلطان أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافي أمرهم.

ولما مات السلطان ملكشاه وقد تمكنوا من قتل نظام الملك عظم أمرهم واشتدت شوكتهم وقويت أطماعهم واجتمعوا في أصبهان بعد أن كانوا متفرقين واتخذوا أصبهان مقرا وعظم شرهم فصاروا يسرقون من قدروا عليه من مخالفيهم ويقتلونهم وقد فعلوا ذلك بخلق كثير وزاد الأمر وكثر خوف الناس فكان الرجل إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد تيقن أهله قتله وقعدوا للعزاء فتحذر الناس وصار لا ينفرد أحد خوفاً من فتك الباطنية ودعا أحدهم جارا له إلى مذهبم فلم يقبل فأخذه وأخفاه فقام أهله للنياحة عليه فأصعده جماعة من الباطنية إلى سطح داره من غير أن يشعر به أحد وأروه أهله كيف يلطمون ويبكون عليه فنظر إليهم وهو لا يقدر أن يتكلم خوفاً منهم واشتد الحال بالناس في أصبهان وهاجر الكثير من أهلها فرارا من فعال هؤلاء الطغاة واتفق أن رجلاً بأصبهان دخل في دار صديق له فرأى فيها ثياباً ومداسات

وملابس لم يعهدها فداخلته الظنون وخرج من عنده وأخبر الناس بما رآه فكشف الناس عنها فعلموا أن صاحب الدار من الباطنية وأن الملابس هى ملابس الناس الذين قتلهم الباطنية فثاروا جميعاً يبحثون عمن قتل ويستكشفون فظهروا على الدروب التى تسكن فيها تلك الطائفة وعلموا أنهم كانوا إذا اجتاز بهم إنسان أخذوه إلى دار منها وقتلوه وألقوه فى بئر فى الدار قد صنعت لذلك وكان على باب درب من دروبهم رجل أعمى فإذا اجتاز به إنسان يسأله أن يقوده خطوات إلى باب الدرب فيفعل ذلك فإذا دخل الدرب قبض عليه وسلمه إلى جماعة منهم فيقتلونه فلما انكشف أمرهم وعلم الناس بما هم عليه قاموا قومة رجل واحد وتجرد للانتقام منهم أبو القاسم مسعود بن محمد الخجندى الفقيه الشافعى وانضم إليه لفيف الأهالى بالأسلحة وأمر بحفر أخاديد وأوقد فيها النيران وجعل العامة يقبضون على الباطنية جماعات وفرادى فيلقونهم فى النار وأوقفوا جماعة يشعلون النيران وسموا أحدهم مالكاً فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وتفرّق من بقى واختفى وكذلك ثار بهم جاولى سقاو وصاحب البلاد التى بين رامهرمز وأرجان وذلك لأنهم لما ملكوا القلاع والحصون بخوزستان وفارس وغيرهما وكثر شرهم وقطعوا الطريق بتلك البلاد وقتلوا وسبوا وفعلوا ما لا خير فيه اتفق جاولى المذكور مع جماعة من صناديد أصحابه على أن يظهروا الشغب عليه ويخرجوا عن طاعته ويفارقوه ويقصدوا الباطنية ففعلوا وأظهروا أنهم معهم وعلى مذهبهم فأقاموا عندهم حتى وثقوا بهم ثم أظهر جاولى أن الأمراء من بنى برسق يريدون قصده وأخذ بلاده وأنه عازم على مفارقتها لعجزه عن ردهم وأنه يريد همذان فلما شاع هذا الخبر وسار قال من عند الباطنية من أصحابه لهم الرأى إننا نخرج إلى طريقه ونأخذه وما معه من الأموال فساروا إليه فى ثلثمائة من أعيانهم وصناديدهم فلما التقوا ثار من معهم من أصحاب جاولى عليهم ووضعوا السيف فيهم فلم يفلت منهم سوى ثلاثة نفر صعدوا إلى الجبل وهربوا وغنم جاولى ما معهم من دواب وسلاح وغير ذلك وركب عليهم أيضاً السلطان بركيارق وقتل منهم خلقا كثيراً للغاية فكادت تضعف شوكتهم وتزول هيبتهم وانكفوا عن أفاعيلهم فقل أذاهم واطمأنت قلوب الناس واستراحت واختفى كبارهم وتتبعهم بركيارق فكان لا يظفر بأحد منهم إلا قتله وشهره.

وأقام المستعلى يدبر الأمور بمصر إلى أن مات سنة خمس وتسعين وأربعمائة لسبع عشرة خلت من شهر صفر فكانت سلطنته سبع سنين وقريباً من شهرين فولى بعده ابنه أبو على المنصور. بويع له فى اليوم الذى مات فيه أبوه وله خمس سنين

وشهـر وأربعة أيام ولقب الآمـر بأحكام الله ولم يكن ممن تولى قط أصغـر منه ومن المستنصر فقام بتدبير دولته الأفضل بن أمـير الجيوش أحسن قيام وأخلص فى خدمته غاية الإخلاص. قال ابن يسر فى تاريخه: لما توفى المستعلى أحضر الأفضل أبا على وبايعه بالخلافة ونصـبه مكان أبيه ولقبه بالآمر بأحكام الله وكـان له من العمر خمس سنين وشهر وأيام فكتب ابن الصيرفى الكاتب السـجل بانتقال المستعلى وولاية الآمر وقرئ على رؤوس كـافة الأجناد والأمراء وأوله مـن عبد الله ووليـه أبى علىّ الآمر بأحكام الله أميـر المؤمنين ابن الإمام المسـتعلى بالله إلى كافـة أولياء الدولة وأمـرائها وقوّادهـا وأجنادها ورعاياها شـريفهم ومـشروفـهم وأميـرهم ومأمورهـم مغربيـهم ومشرقيهم أحـمرهم وأسودهم كبيرهم وصغيرهم بـارك الله فيهم، سلام عليكم فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ويسـأل أن يصلى على جده محمد خـاتم النبيـين صلى الله عليـه وعلى آله الطيـبين الطاهرين الأئـمة المهـديين وسلم تسليـما، أما بعـد، فالحـمد لله المنفـرد بالثبات والدوام البـاقى على تصرم الـليالى والأيام، القاضى على أعمار خلقه بالتقضى والانصرام، الجاعل نقض الأمور معقودا بكمال الإتمام جاعل الموت حكما يستوى فـيه جميع الأنام ومنهلا لا يعصم من ورده كرامة نبى ولا إمام. والقائل معزيا لنبيه ولكافة أمته ﴿**كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾ الذى استدعى الأئمـة لهذه الأمّة ولم تخل الأرض من أنوارهم لطفا بعباده ونعمـه وجعلهم مصابيح الشبه إذا غدت داجيـة مدلهمة لتضىء للمؤمنين سبل الهداية ولا يكون أمرهم عليهم غمة يـحمده أمير المؤمنين حمد شاكر على ما نقله فيه من درج الإمامه، ونقله إليـه من ميراث الخلافة، صابراً على الرزية التى أطار هجوعها الألباب والفجيعة التى أطال طروقها الأسف والاكتئاب ويسأله أن يصلى على جـدّه محمـد خاتم أنبيـائه وسيد رسله وأمنائه ومـجلى غيـاهب الكفر ومكشف عمائه الذى قام بما اسـتودعه الله من أمانته وحمله على أعـباء رسالته ولم يزل هاديا إلى الإيمان داعيا إلى الرحمن حـتى أذعن المعاندون وأقر الجاحدون وجاء الحق وظهـر أمر الله وهم كـارهون فـحينئـذ أنزل الله عليـه إتماماً لحكمتـه التى لا يعترضها المعترضون ﴿**ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون**﴾ صلى الله عليه وعلى أخيـه وابن عمه وأبناء أمير المؤمنين عـلىّ بن أبى طالب الذى أكرمه الله بالمنزلة العلية وانتخبه للإمامة رأفة بالبرية وخصه بغوامض علم التنزيل وجعل له مبرة التعظيم مزية وقطع بسيفه دابر من زل عن القصد وضل عن سواء السبيل وعلى الأئمة من ذريتـهما العتـرة الهادية من سلالتهـما آبائنا الأبرار المصطفين الأخـيار ما

تصرفت الأقدار وتوالى الليل والنهار وأن الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين قدس الله روحه كان ممن أكرمه الله بالاصطفاء وخصه بشرف الاجتباء ومكن له فى بلاده فامتدت أفياء عدله واستخلفه فى أرضه كما استخلف أباه من قبله وأيده بما استرعاه أباه بهدايته وإرشاده وأمدّه بما استحفظه عليه من مواد توفيقه وإسعاده ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده فلم يزل لأعلام الدين رافعاً ولشبه المضلين دافعاً ولراية العدل ناشرا وللدين عامرا وللعدوّ قاهرا إلى أن استوفى المدة المحسوبة وبلغ الغاية الموهوبة فلو كانت الفضائل تزيد فى الأعمار أو تحمى من ضروب الأقدار أو تؤخر ما سبق تقديمه فى علم الواحد القهار لحمى نفسه النفيسة كريم مجدها وشريف محتدها وكفاها خطير منصبها وعظيم هيبتها ووقتها أفعالها التى تستقى من منبع الرسالة وصانتها خلالها التى ترتقى إلى مطلع الجلالة لكن الأعمار محررة مقسومة والآجال مقدرة معلومة والله تعالى يقول وبقوله يهتدى المهتدون ﴿ **ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ فأمير المؤمنين يحتسب عند الله هذه الرزية التى عظم أمرها وفدح وجرح خطبها وقرح وغدت له القلوب واجفة والآمال كاسفة ومضاجع السكون منفضة ومدامع العيون مرفضة فإنا لله وإنا إليه راجعون صبرا على بلائه وتسليما لأمره وقضائه واقتداء بمن أثنى عليه فى الكتاب ﴿ **إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب** ﴾ وقد كان الإمام المستعلى بالله قدّس الله روحه عند ثقلته جعل لى عهد الخلافة من بعده وأودعنى ما حازه من أبيه عن جده وعهد إلىّ أن أخلفه فى العالم وأجرى الكافة فى العدل والإحسان على منهجه القائم وأطلعنى من العلوم على السر المكنون وأفضى إلىّ من الحكمة بالغامض المصون وأوصانى بالعطف على البرية والعمل فيهم بسيرته المرضية على علمى بما جبلنى الله عليه من الفضل وخصنى به من آثار العدل، وإننى فيما استرعيته سالك على منهاجه عامل بموجب الشرف الذى عصب الله فى تاجه. وكان مما ألقاه إلىّ وأوجبه علىّ أن أعلى محل السيد الأجل الأفضل من قلبه الكريم وما يجب إليه من التبجيل والتكريم، وإن الإمام المستنصر بالله كان عندما عهد إليه ونص بالخلافة عليه أوصاه أن يتخذ هذا السيد الأجل خليفة وخليلاً ويجعله للإمامة زعيماً وكفيلاً ويحفظ به أمر النظر والتقرير ويفوّض إليه تدبير ما وراء السرير، وإنه عمل بهذه الوصية حذوا على تلك الأمانة النبوية وأسند إليه أحوال العساكر والرعية وناط أمر الكافة بعزمته الماضية وهمته العلية فكان قلمه بالسداد يرجف ولا يجف وسيفه من دماء ذوى العناد يكف ولا يكف ورأيه فى حسم مواد الفساد يرسخ ولا يخف فأوصانى أن أجعله لى

كما كان له صفيا وظهيرا وأن لا أستر عنه فى الأمور لا صغيراً ولا كبيراً وأن أقتدى به فى ردّ الأحوال إلى تكليفه وإسناد الأسباب إلى تدبيره، وإلينا حوط نازل الخطب ومنتقله إلى غير ذلك مما استودعنى إياه وألقاه إلىّ من النص الذى يتضوّع نشره ورياه نعمة من الله قضت لى بالسعد العميم ومنذ شهرت بالفضل المتين والحظ الجسيم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم، فتعزوا معاشر الأولياء والأمراء والقواد والأجناد والرعايا والخدام حاضركم وغائبكم ودانيكم وقاصيكم عن الإمام المنقول إلى جنات الخلود واستبشروا بإمامكم هذا الإمام الحاضر وابتهجوا بكريم نظره المطلع لكم كواكب السعود ولكم من أمير المؤمنين أن لا يغمض جفنا عن مصابكم وأن يتوخى ما عاد بيامنكم ومناجحكم وأن يحسن السيرة فيكم ويدفع أذى من يعاديكم ويتفقد مصلحة حاضركم وباديكم ولأمير المؤمنين عليكم أن تعتقدوا موالاته بخالص الطوية وتجمعوا له فى الطاعة بين العمل والنية وتدخلوا فى البيعة بصدور منشرحة وآمال منفسحة وضمائر نقية وبصائر فى الولاية قوية وأن تتقدموا بشروط بيعته وتنتهوا بفروض نعمته وتبذلوا الطارف والتالد فى حقوق خدمته وتتقرّبوا إلى الله سبحانه وتعالى بالمناصحة لدولته وأمير المؤمنين يسأل أن تكون خلافته كافلة بالإقبال ضامنة بلوغ الآمال وأن يجعل ديمتها دائمة بالخيرات وقسمتها نامية على الأوقات إن شاء الله تعالى. اهـ.

ولم تكد تستقر الولاية بالآمر بأحكام الله حتى كثر عبث الفرنجة بالأملاك المصرية وتطاولت أيديهم إلى إيذاء المسلمين فأنفذ الأفضل أمير الجيوش بمصر سعد الدولة الطواشى مملوك أبيه إلى الشام فى جيش عظيم لحرب الفرنجة وردعهم فلقيهم بين الرملة ويافا فتصافوا واقتتلوا قتالاً عنيفاً وطال القتال ثم حمل الفرنجة حملة صادقة على المسلمين فانهزموا شر هزيمة ومات سعد الدولة تحت سنابك الخيل. قال بعض الكتاب: وكان المنجمون يقولون لسعد الدولة: إنك تموت تحت سنابك الخيل فكان يتحرّز من ركوب الخيل حتى ولى بيروت وأرضها مفروشة بالبلاط فقلعه خوفاً أن تزلق فرسه فيسقط فلم ينفعه الحذر عند نزول القدر وملك الفرنجة خيمه وجميع ما للمسلمين وشردوا من بقى منهم فلما رجع المستنفرون إلى مصر غضب الأفضل وسير ابنه شرف المعالى فى جمع كثير فالتقوا هم والفرنجة بيازور بقرب الرملة فانهزم الفرنجة وتفرّقوا وسار شرف المعالى بن الأفضل من المعركة ونزل على قصر بالرملة وبه جماعة من كبار الفرنجة فقاتلهم خمسة عشر يوماً حتى أخذهم أسرى وحمل منهم جماعة إلى مصر ثم اختلف أصحاب شرف المعالى وتفرّقت أهواؤهم فمنهم

من أراد المسير إلى بيت المقـدس لاستخلاصه من الفرنجـة ومنهم من أراد المسير إلى يافا وأخذها وبقوا على هذا الخلاف أياماً فبينما هم كذلك إذ وصل إلى الفرنجة المدد فاجتمعـوا وساروا إلى عسقلان وبها شرف المعالى فقاتـلوه ومن معه فلم يصبر على قتالهم فـقفل منها راجعا إلى مـصر بمن بقى من أصحابه فـأحزن ذلك ابن الأفضل وسير رجـلا يقال له تاج العجم فى البر وهو من كـبار مماليك أبيه وجهز مـعه أربعة آلاف فارس وسير فى البحر رجلاً يقـال له القاضى ابن قادوس فى عمارة حربية إلى يافا ونزل تاج العجم على عسقلان فاستدعاه ابن قادوس إليه ليتفقا على كيفية القتال فلم يجبه إلى ذلـك ولا أرسل إليه أحدا فراجعـه فلم يقبل فأشهـد عليه ابن قادوس قاضى عسقلان وشهودها وأعيانها وسـير الخبر بما وقع إلى ابن الأفضل أمير الجيوش فأرسـل ابن الأفضل من قـبض على تاج العجم وأرسل رجـلاً يلقب بجمـال الملك فأسكنه عسقلان وجعله مقدم العسكر فلم يقدر على استخلاص ما بأيدى الفرنجة من السـواحل والمدن الشامـية فـقـد كانوا اسـتولوا إلى هذا الحـين على فلسطين ويافـا وارسوف وقيسارية وحيفا وطبرية ولاذقـية وأنطاكية ماعدا بيت المقدس ولهم بالجزيرة الرها وسروج والرقـة وقلعة جـعبر وجـبيل وعسـفان من الشـام وبيروت وطرابلس وبايناس وصيـدا وكان السلطان بركـيارق كلمـا سمع بفوز الفـرنجة وأخـذهم لبلاد المسلمين زادت همومه وعظم حزنه وجد فى حشد الجنود والإكثار من معدات القتال فإذا همّ بالخروج لحربهم عاقته العوائق وحالت دون عزمه الموانع وما زال حتى مرض وهو بأصبـهان وثقل به مـرضه فـسار منها فى مـحفـة طالباً بغداد فلـما وصل إلى بروجرد ضعف عن الحركة فأقام بها أربعين يوماً فاشتد مرضه وأيس من نفسه فخلع الأمر على ولده ملكشـاه وعمره يومـئذ أربع سنين وثمـانية أشهر وأحـضر جمـاعة الأمراء وكبـار قواده وأعلمهم بما فعله وأخذ عليـهم العهد بالطاعة لولده ومـساعدته على حفظ السلطنة فحلفوا وتعهدوا فأمرهم بالمسير إلى بغداد فساروا فلما كانوا على اثنى عشر فرسخا من بروجرد وصلهم خبـر موته وكان بركيارق قد تخلف على عزم العود إلى أصبـهان فعاجلتـه منيته فرجع جـماعة منهم وحملوا تابوته إلى أصـبهان ودفن بهـا ، ووصل السلطان ملكشاه بن بركـيارق إلى بـغداد فخـرج وزير الخليـفة وأصحاب الوظائف لـلقائه وكان وصوله فى خمـسة آلاف فارس فخطبـوا له ولقبوه بألقاب جده ملكشاه ولم تسـتقر به السلطنة حتى علم السلطان محمـد أخو بركيارق بخبر موت بركيارق فسار فى جيش عظيم يريد بغداد وحمل الناس بها على البيعة له فلما وردت الأخـبار بذلك إلى الأميـر أياز وزير ملكشاه الوصىّ عليه من قـبل أبيه

بركيارق خاف كثيراً وجمع إليه كبار الجند وقواد بركيارق وأعلمهم بخبر مجىء السلطان محمد ورغبته فى أخذ الملك من ابن أخيه ملكشاه واستحلفهم على الطاعة لملكشاه فحلفوا فلما وصل السطان محمد فى عسكره ونزل بالجانب الغربى من بغداد نقض بعض القواد العهد وأظهروا الميل إلى السلطان محمد فخاف الوزير أياز وأسرع إلى تقرير الصلح مع السلطان محمد وتسليم السلطنة إليه وترك منازعته فيها فعبر إلى عسكر السلطان محمد واجتمع به وسلم إليه مقاليد السلطنة فأمنه هو وجميع الأمراء والقواد وضم إليه ولد أخيه ملكشاه ودخل السلطان محمد إلى بغداد فى موكب حافل لبث بها أياماً حتى رتب أمورها وأحكم نظامها وسار عنها إلى أصبهان وجعل يتصرف فى الأمور ويقاتل الفرنجة على ما أخذوه من بلاد المسلمين حتى وافته منيته فى الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وكان لما اشتد به مرضه أحضر ولده محمودا وقبله وبكى كل واحد منهما وأمره بالخروج والجلوس على تخت السلطنة وأن ينظر فى أمور الناس وعمره إذ ذاك قد زاد على أربع عشرة سنة فقال: ياأبت إنه يوم غير مبارك يعنى من طريق النجوم فقال له: صدقت يابنى ولكن على أبيك وأما عليك فمبارك بالسلطنة فخرج وجلس على التخت بالتاج والسوارين فلم يمض على السلطان محمد اليوم الثانى من جلوس ابنه حتى مات فجمعوا الأمراء وقرئت عليهم وصيته إلى ولده محمود يأمره فيها بالعدل والإحسان وكان السلطان محمد عادلاً حسن السيرة شجاعاً أطلق المكوس والضرائب فى جميع البلاد فأحبه الناس كثيراً واجتمعوا على طاعته اثنتى عشرة سنة.

ولما تمت البيعة للسلطان محمود ودبر دولته الوزير الرئيس أبو منصور أرسل إلى الخليفة المستظهر بالله يطلب أن يخطب له ببغداد فخطب له فى يوم الجمعة ثالث عشر المحرم سنة اثنتى عشرة وخمسمائة فلم يتم على الخليفة المستظهر بالله بعد الخطبة للسلطان محمود ببغداد إلا ثلاثة أشهر وبضع أيام حتى مات بعلة التراقى وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما ومضى فى خلافته ثلاثة سلاطين خطب لهم بالحضرة وهم تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان والسلطان بركيارق ومحمد ابنا ملكشاه. قال بعض الكتاب: ومن غريب الاتفاق أنه لما توفى السلطان ألب أرسلان توفى بعده القائم بأمر الله ولما توفى السلطان ملكشاه توفى بعده المقتدى بأمر الله ولما توفى السلطان محمد توفى بعده المستظهر بالله وكان الخليفة المستظهر بالله لين الجانب كريم الأخلاق محباً للخير وأهله كثير البر والإحسان لا يرد مكرمة تطلب منه وكانت أيامه

أيام سرور للرعيــة فكأنها من حسنها أعـياد وكان حسن الخط جـيد التوقيعـات جيد الشعر فمن شعره:

أذاب حر الهوى في القلب مـا جمدا	لمـا مـــددت إلى رسـم الوداع يـدا
وكـيف أسلك نـهج الاصطبـار وقـد	أرى طرائق في مـهـوى الهوى قـددا
قـد أخلف الوعـد لمـا أن شـغـفت به	من بعـد ما قـد وفي دهري بما وعـدا
إن كنت أنقض عهد الحب في خلدي	من بعـــد هذا فـلا عـــاينتــه أبداً

وكانت أيامـه عند الرعيـة كأنهـا أعيـاد فكان إذا بلغه ذلك فـرح به وسره وإذا تعرض سلطان أو نائب إلى أذى أحد بالغ فى الإنكار والزجـر عنه. فلما مات تولى الخلافة بعده ولده أبو منصور الفضل ولقب المسترشد بالله.

ومات فى خـلافة المستظهـر بالله أيضاً زخزياس بطرك الإسكندرية بعـد أن أقام ثمانياً وعشرين سنة صـرفها فى الشدائد العظيمة والبلايا الكثيـرة واعتقل ثلاثة أشهر وضربت عليـه المغارم الفادحة وأخذت منه الأمـوال الكثيرة وأمر به يومـاً فالقى إلى السباع هو وسوسنه النوبى فلم تضرهما بإذن الله تعالى فأخذت السلطان يومئذ إخاذة من الخوف فصرفهما وانكف عنهما ورسم بالكف عن إيذاء النصارى فانكفوا عنهما حينا ولما مات خـلا الكرسى بعده أربعة وسبـعين يوماً ثم أقيم بعـده سانوتيو أو هو شنودة خامس ستيهم من بلدة تلبانة وكان راهباً بدير أبو مقار وكان عالماً كبيراً وإماماً خطيراً وله مناقب كثـيرة ومكارم لا تعد ووقع من الحوادث فى أيامه ما سـيذكر فى محله.

(الفصل التاسع والعشرون)

(فى خلافة أبى منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر بالله)

ثم قام بالأمر بعد المستظهر بالله ولده المسـترشد بالله أبو الفضل بن أبى العباس أحمد بن المستظهـر بالله بويع له بالخلافة يوم موت أبيه بعهـد منه سنة إحدى عشرة وخمسمائة هجرية أى سنة سبع عشرة ومائة وألف ميلادية وكان سن المسترشد يومئذ سبعا وعشـرين سنة وبايعه أخواه ابنا المستظهر وهما أبو عبـد الله محمد وأبو طالب العباس وعمومته بنو المقتدى بأمر الله وغيرهم من القضاة والأمراء والأئمة والأعيان.

وكان المتولى لأخذ البيعة القاضى أبو الحسن الدامغانى. وكان نائباً عن الوزارة فأقره المسترشد بالله عليها. قال أصحاب التاريخ: ولم يأخذ البيعة قاض غير هذا وأحمد ابن أبى داود فإنه أخذها للواثق بالله والقاضى أبو علىّ إسماعيل بن إسحق أخذها للمعتضد بالله ثم إن المسترشد عزل قاضى القضاة عن نيابة الوزارة واستوزر أبا شجاع محمد بن الربيب أبا منصور وزير السلطان محمود ولما اشتغل الناس بالبيعة للمسترشد بالله ركب أخوه الأمير أبو الحسن بن المستظهر بالله سفينة ومعه ثلاثة نفر وانحدر إلى المدائن وسار منها إلى دبيس بن صدقة بالحلة فأكرمه دبيس وأخبره بموت المستظهر بالله وأقام له الإقامات الكثيرة فلما علم المسترشد بالله خبره أهمه ذلك وأقلقه وخشى عاقبته فأرسل إلى دبيس يطلب منه إعادة أبى الحسن ويشدد فى ذلك فأجابه بأننى عبد الخليفة وواقف عند أمره ومع هذا فإن أبا الحسن استذم بى ودخل منزلى فكيف أكرهه على الرجوع وكان رسول المسترشد فى ذلك إلى دبيس نقيب النقباء شرف الدين علىّ بن طراد الزينى فقصد الأمير أبا الحسن وكلمه فى عوده وضمن له عن الخليفة كل ما يريد فأجاب إلى العود. وقال: إننى لم أفارق أخى لشر أراده وإنما الخوف منه حملنى على مفارقته فإذا أمننى قصدته وتكفل دبيس بإصلاح الحال بنفسه والمسير معه إلى بغداد فعاد النقيب وأعلم الخليفة بالحال فأجاب إلى ما طلب منه ثم حدث من الأسباب والرواجف ما أخر الحال وأقام الأمير أبو الحسن عند دبيس إلى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة. ثم سار عن الحلة إلى واسط فانضم إليه كثير من الناس وكبر جمعه وأتت الأخبار إلى الخليفة بذلك فتكدر جداً وركب الأمير أبو الحسن على مدينة واسط فملكها وخيف جانبه فتقدم الخليفة المسترشد بالله بالخطبة لولى عهده ولده أبى جعفر المنصور وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة فخطب له ببغداد وكتب إلى الآفاق بالخطبة له وأرسل إلى دبيس بن مزيد فى معنىّ الأمير أبى الحسن وأنه الآن قد فارق جواره ومديده إلى بلاد الخليفة وزاحمه على سلطانه وما يتعلق به ورسم إليه بقصده ومعاجلته قبل قوّته فأرسل دبيس العساكر إليه ففارق واسط وقد تحير هو وأصحابه فضلواعن الطريق ووصلت عساكر دبيس فصادفوهم عند الصلح فنهبوا أثقاله وهرب الأكراد من أصحابه والأتراك وعاد الباقون إلى دبيس وبقى الأمير أبو الحسن فى عشرة من أصحابه وهو عطشان وبينه وبين الماء خمسة فراسخ وكان الوقت قيظا فأيقن بالتلف وتبعه بدويان فأراد الهرب منهما فلم يقدر فأخذاه وقد اشتد به العطش فسقياه وحملاه إلى دبيس فسيره إلى

بغداد وحمله إلى الخليفة بعد أن بذل له عشرين ألف دينار فحمل إلى دار العزيزة وكان بين خروجه عنها وعوده إليها أحد عشر شهراً.

ولما أدخلوه على المسترشد بالله انكب على قدميه فقبلهما فقام المسترشد وقبله وبكيا وأنزله دارا حسنة كان يسكنها قبل أن يلى الخلافة وحمل إليه الخلع والتحف العظيمة وطيب نفسه فاطمأن وزالت عنه الوساوس وأخلص لأخيه المحبة وجعل المسترشد يتصرف فى الأمور فلم تكد تستقرّ به الخلافة حتى خرج عليه دبيس وخلع طاعته فكانت بينهما حروب كثيرة خرج فى إحداها الخليفة بنفسه ومعه العلماء والقضاة والمشايخ وهو متجمل بعمامة سوداء وجبة سوداء وشاش وعلى كتفه البردة وبيده القضيب وكان ينادى ياآل هاشم الغزاة الغزاة والعامة والعسكر ينادون يا منصور يامنصور فانكشفت الحروب المذكورة عن هزيمة دبيس وموت أصحابه وعظم أمر الخليفة وظهرت كلمته وهابه الأمراء وحسدوه وعظمت شوكة نوابه فاتفق أن وقعت بين نوابه وبين برتقش الزكوى نفرة وطالت أيامها فأرسل إليه الخليفة يتهدده إن هو أطال العناد معهم فخاف برتقش على نفسه وسار عن بغداد إلى السلطان محمود بهمذان وشكا إليه مما يفعله نوّاب الخليفة وحذره جانب الخليفة وأعلمه أنه قد قاد العسكر ولقى الحروب وقويت نفسه فإن لم تعاجله قصد العراق ودخلها فيزداد قوّة وجمعا ويمنعك عن نفسه وحينئذ يتعذر عليك ما هو الآن بيده فمال السلطان إلى مقالته وسار نحو العراق وأشاع الخبر بذلك فأرسل الخليفة يعلمه بما عليه البلاد من الضعف والوهن بسبب غارات دبيس وإفساد عسكره فيها وأن الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والأقوات لهرب الأكرة عن بلادهم ويطلب منه أن يتأخر هذه الدفعة إلى أن ينصلح حال البلاد ثم يعود إليها فلا مانع له عنها ويبذل له على ذلك مالاً كثيراً فلما سمع السلطان محمود هذه الرسالة قوى عنده ما قرره الزكوى برتقش وأبى أن يجيب إلى التأخير وصمم العزم وسار إليها مجدا فلما بلغ الخليفة الخبر عبر هو وأهله وحرمه ومن عنده من أولاد الخلفاء إلى الجانب الغربى مظهرا للغضب والانتزاح عن بغداد إن قصدها السلطان محمود فلما خرج من داره بكاه الناس بكاء عظيماً فلما علم السلطان بذلك اشتد عليه وبلغ منه كل مبلغ فأرسل يستعطف الخليفة ويسأله العود إلى داره فأعاد الجواب أنه لابد من عودك هذه الدفعة فإن الناس هلكوا بشدة الغلاء وخراب البلاد وأنه لا يرى فى دينه أنه يزداد ما بهم وهو يشاهدهم فإن عاد السلطان وإلا رحل هو إلى العراق كيلا يشاهد ما يلقى الناس بمجىء العسكر فغضب السلطان لقوله ورحل نحو بغداد وأقام الخليفة بالجانب الغربى

فلما حضر عيد الأضحى خطب فى الناس وصلى بهم فبكى الناس لخطبته وأرسل عفيفاً الخادم وهو من خواصه فى عسكر إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان فأرسل السلطان إليه عماد الدين زنكى بن آقسنقر وكان له حينئذ البصرة فلما وصل عفيف إلى واسط سار إليه عماد الدين يحذره القتال ويأمره بالانتزاح عنها فأبى ولم يفعل فعبر إليه عماد الدين واقتتلوا فانهزم عسكر عفيف وقتل وأسر منهم خلق كثير وتغافل عن عفيف حتى نجا لمودّة كانت بينهما، وجاء الخبر إلى الخليفة بما جرى فجمع السفن جميعها إليه وسد أبواب دارالخلافة سوى الباب الغربى وأمر حاجب الباب ابن الصاحب بالمقام عليه لحفظ الدار ولم يبق من حواشى الخليفة بالجانب الشرقى سواه ووصل السلطان فى عسكره إلى بغداد ونزل بباب الشماسية ودخل بعض عسكره إلى بغداد ونزلوا فى دور الناس فشكا الناس ذلك إلى السلطان فرسم بإخراجهم وبقى فيها من له دار وبقى السلطان يراسل الخليفة بالعود ويطلب الصلح وهو يمتنع فكان يجرى بين العسكرين مناوشة والعامة من الجانب الغربى يسبون السلطان أفحش سب ثم إن جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة ونهبوا التاج وحجر الخليفة فضج أهل بغداد من ذلك واجتمعوا ونادوا الغزاة فأقبلوا من كل ناحية فلما رآهم الخليفة خرج من السرادق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه وأمر بضرب الكؤسات والبوقات ونادى بأعلى صوته ياآل هاشم وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر الناس دفعة واحدة وكان له فى الدار ألف رجل مختفون فى السرادب فظهروا وعسكر السلطان مشتغلون بالنهب فأسر منهم جماعة من الأمراء ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة من الأمراء ودار عزيز الدين المستوفى ودار الحكيم أوحد الزمان الطبيب وقتل منهم خلق كثير فى الدروب وعبر الخليفة إلى الجانب الشرقى ومعه ثلاثون ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد وأمر بحفر الخنادق فحفرت بالليل وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ووقع الغلاء عند العسكر واشتد الأمر فكان القتال عليهم كل يوم عند أبواب البلد وعلى شاطىء دجلة وعزم عسكر الخليفة على أن يكبسوا عسكر السلطان فلم يتم لهم ذلك إذ غدر بهم أبو الهيجاء الكردى صاحب اربل وخرج كأنه يريد القتال فانضم إلى عسكر السلطان وترك الخليفة وكان السلطان قد أرسل إلى عماد الدين بواسط يأمره أن يحضر بنفسه ومعه المقاتلة فى السفن وعلى الدواب فى البر فجمع كل سفينة بالبصرة ليشحنها بالرجال المقاتلة وأكثر من السلاح وأصعد فلما قارب بغداد أمر كل من معه فى السفن وفى

البر بلبس السلاح وإظهار ما عندهم من الجلد والنهضة فسارت السفن فى الماء والعساكر فى البر على شاطىء دجلة وقد انتشروا وملئوا الأرض برا وبحرا فرأى الناس منظرا عجيباً كبر فى أنفسهم وملأ صدورهم فركب السلطان والعسكر إلى لقائهم فنظروا ما لم ينظروا مثله وعظم عماد الدين فى أعينهم وعزم السلطان على قتال بغداد حينئذ والجد فى ذلك براً وبحراً فلما رأى الخليفة المسترشد بالله الأمر على هذه الصورة وقد خرج الأمير أبو الهيجاء من عنده بمن معه من العسكر خاف شر العاقبة وأجاب إلى الصلح وترددت الرسل بينه وبين السلطان محمود فاصطلحا واعتذر السلطان مما جرى وكان السلطان حليماً جداً يسمع سبه بإذنه فلا يعاقب عليه فعفا عن أهل بغداد جميعهم، وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان بإحراق بغداد فلم يفعل وقال: والله لا تساوى الدنيا مثل هذا الفعل وأقام ببغداد إلى رابع شهر ربيع سنة إحدى وعشرين وحمل الخليفة من المال كل ما استقرت القاعدة عليه وأهدى للسلطان سلاحاً وخيلاً وغير ذلك واستمرت الأمور بين صفاء وكدر وخروج وعصيان لا تستقرّ على حال من الأحوال والخليفة المسترشد يعالجها بالصبر والكياسة ويلبس لكل أمر منها لبوسه لعل الله يأتيه بالفرج القريب.

وكما كانت الحال على ذلك بين الخليفة والسلطان محمود كانت بين الآمر بأحكام الله صاحب مصر وبين أمرائه وقواده وجنوده وأهل البلاد إذ قد ساءت سيرته وقبح تصرفه وكثر أخذه للناس بالشبهات فجار وظلم وأراق الدماء بغير موجب ولا سبب فاختل نظام البلاد وعاث فيها المفسدون فى البر والبحر وسلبوا وقتلوا وأحرقوا وارتفع الأمن وتعطلت الزراعات وكادت تقل الأقوات فاتفق جماعة على قتله وجعلوا يراقبون الفرص فلما كان اليوم الثانى من شهر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة علموا بعزمه على الخروج إلى منتزهه بالروضة فكمنوا له فى الطريق فخرج فى ثلاثة من قومه فوثبوا عليه بالسيوف فأثخنوه وقيل إن الذين قتلوه هم الباطنية بإغراء بعض قواده فكانت ولايته تسعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وعمره أربع وثلاثون سنة وهو العاشر من ولد المهدى عبيد الله. قال بعض الكتاب: وكبر حبه فى آخر أيامه للنساء واشتد شغفه بهن فكان له معهن كل يوم شأن وحكى له يوماً عن جارية من عرب البادية وأنها من الجمال والكمال والرقة ومعرفة ضروب الشعر والأدب على جانب عظيم فشغف بحبها وحمله عشقه إلى التزيى بزى العرب وخرج يتنسم أخبار أهلها حتى نزل على حيهم وما زال يتحيل حتى رآها فأخذت

بمجامع قلبه ووقعت منه موقعاً عظيماً فطلبها من أهلها فأجابوه إلى زواجها فلما صارت فى قصره استوحشت فقالت له يوماً : ما لى ولهذه القصور العالية فهلا أرجعتنى إلى مضربى فتزيل عنى وحشتى قيل فبنى لها الهودج بالجزيرة على النيل وهو من غرائب البناء وكانت تحب ابن عم لها يعرف بابن مياح فكتبت له يوماً هذه الأبيات :

يابن مياح إليك المشتكي ... ما لكم من بعدكم قد ملكا
كنت في حي حرا مطلقا ... نائلا ما شئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر مؤصد ... لا أرى إلا حبيسا ممسكا
كم تثنينا بأغصان اللوا ... حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى ... حيثما شاء طليق سلكا

فلما وصلت إليه هذه الأبيات كتب يقول:

بنت عمي والتي غذيتها ... بالجوى حتى علا واحتنكا
بحت بالشكوى وعندي ضعفها ... لوغد أينفع منها المشتكي
مالك الأمر إليه يشتكي ... هالك وهو الذي قد أهلكا
شأن داود غدا في عصرنا ... مبديا بالتيه ما قد ملكا

فبلغت هذه الأبيات الآمر فقال: والله لولا أنه أساء الأدب فى البيت الرابع لرددتها إلى حيه وزوّجته بها.

ولما قتل الآمر لم يكن له ولد بعده فظهر غلام أرمنى من غلمانه وتغلب على البلاد لاختلال الحال واستحوذ على الأمور ثلاثة أيام ورام أن يتأمر فحضر الوزير أبو عليّ أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش وأقام الحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم بن المستنصر بالله وبايعوه لينظر فى الأمر نيابة حتى يكشف عن حمل كان للآمر فتكون الولاية فيه ويكون هو نائباً عنه فلما تم له الأمر استحوذ الوزير أبو عليّ على جميع الأمور دونه وحصره فى مجلس لا يدخل إليه أحد إلا من يريده الوزير وخطب لنفسه على المنابر ونقل جميع الأموال من قصر الإمارة إلى داره وأسقط من الدعاء ذكر إسماعيل الذى هو جدّهم وإليه تنسب الإسماعيلية وهو ابن جعفر بن محمد الصادق وأسقط من الأذان حى على خير العمل وأمر الخطباء أن يخطبوا له بألقاب كتبها لهم وهى: السيد الأفضل الأجل سيد مماليك أرباب الدول والمحامى عن حوزة الدين وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره والقائم بنصرته بماضى

سيفه وصائب رأيه وتدبيزه أمين الله على عباده وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده ومرشد دعاء المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده مولى النعم ورافع الجور عن الأمم ومالك فضيلتى السيف والقلم أبو علىّ أحمد بن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش. قال أصحاب التاريخ: وكان الأفضل إمامىّ المذهب يكثر ذم الآمر والتناقص به فنفر منه شيعة العلويين ومماليكهم وكرهوه وعزموا على قتله فخرج فى العشرين من المحرّم سنة ست وعشرين يريد خزانة السلاح ليفرّق على الأجناد على جارى العادة فى الأعياد فسار معه عالم كثير من الرجالة والفرسان فتأذى من الغبار فأمر بالبعد عنه وسار منفرداً معه رجلان فصادف رجلين بسوق الصياقلة فضرباه بالسكاكين وجاء ثالث فضربه بسكين فى خاصرته فسقط عن دابته ورجع أصحابه فقتلوا الثلاثة وحملوه إلى داره فدخل عليه الحافظ وتوجع له وسأله عن الأموال فقال: أما الظاهر منها فأبو الحسن بن أسامة يعرفه وكان من أهل حلب وتولى أبوه قضاء القاهرة وأما الباطن فابن البطائحى يعرفه فقالا صدق فلما مات نقل من أمواله مالا يحصى عددا وبقى السلطان فى داره أربعين يوماً والكتاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلاً ونهاراً ووجد له من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة القليلة الوجود ما لا يوجد مثله لغيره واعتقل أولاده وكان عمره سبعاً وخمسين سنة وكانت ولايته بعد أبيه ثمانيا وعشرين سنة منها أيام المستنصر وجميع أيام المستعلى وأيام الآمر إلى هذه السنة من أيام الحافظ، وكان الأفضل المذكور حسن السيرة محبا للناس ميالا للخير عاملاً على إعلاء شأن البلاد مجداً فى عمارها ونماء ثروتها فبنى فيها المبانى العظيمة والعمائر المفيدة ووسع خلجانها وأكبر مساقى أرضها وهو الذى حفر البحر المعروف ببحر أبى المنجا فى سنة ست وخمسمائة هجرية وسماه باسم مهندسه أبو المنجا أبو شعيا اليهودى وأنشأ أيضاً المرصد الكبير على مقربة من المقطم فى المكان الذى كان يعرف قبل ذلك بالجرف وله غير ذلك من الآثار النافعة. حكى أنه لما قتل وظهر الظلم بعده اجتمع جماعة من الناس واستغاثوا بالسلطان وكان من جملة قولهم أنهم لعنوا الأفضل بحضرة السلطان فسألهم عن سبب لعنهم إياه فقالوا عدل وأحسن السيرة ففارقنا بلادنا وأوطاننا وقصدنا بلاده لعدله فقد أصابنا بعده هذا الظلم فهو كان سبب ظلمنا قيل فأحسن السلطان إليهم وأمر بالإحسان إلى الناس وكثرت الأقوال فى سبب قتل الأفضل وقاتليه فقال قوم: إن صاحبه الآمر بأحكام الله وضع عليه فقتله، قلت: وصوابه الحافظ لدين الله. قالوا: ولقد كان فى قصد

الآمر أن يضع عليه من يقتله إذا دخل عليه قصره للسلام أو فى أيام الأعياد فمنعه من ذلك ابن عمه أبو الميمون عبد المجيد. وقال له : إن فى هذا الفعل شناعة وسوء سمعة لأنه قد خدم دولتنا هو وأبوه خمسين سنة وليس منهم إلا النصح لنا والمحبة لدولتنا وقد سار ذلك فى أقطار البلاد فلا يجوز أن تظهر منا هذه المكافأة الشنيعة ومع هذا فلابدّ وأن نقيم غيره مكانه ونعتمد عليه فى منصبه فيتمكن مثله أو يقاربه فيخاف أن نفعل به مثل ما فعلناه بهذا فيحذر من الدخول إلينا خوفاً على نفسه وإن دخل علينا كان خائفاً مستعداً للامتناع وفى هذا الفعل ما يسقط المنزلة. قال: والرأى عندى أن تراسل أبا عبد الله البطائحى فإنه الغالب على أمر الأفضل والمطلع على سره وقصده أن يوليه منصبه ونطلب منه أن يدبر الأمر فى قتله إذا ركب فإذا ظفرنا بمن قتله قتلناه وأظهرنا الطلب بدمه والحزن عليه فنبلغ غرضنا ويزول عنا قبح الأحدوثة ففعلوا ذلك وقتلوه وقال آخرون غير ذلك. قلت: ونسبة قتله إلى الآمر بأحكام الله خطأ فإن الآمر مات فى ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة والأفضل قتل فى المحرم افتتاح سنة ست وعشرين وخمسمائة فيكون بين موت الاثنين سنة وشهران فيكون القاتل له إذا الحافظ لدين الله بن محمد، ولما قتل ولى بعده أبو عبد الله بن البطائحى ولقب المأمون وتحكم فى الدولة وتصرّف واتسعت كلمته وبقى على ذلك إلى سنة تسع عشرة وخمسمائة فقبض عليه وصلب هو وإخوته واتسعت كلمة الحافظ بعد موت الأفضل وتصرّف فى الأمور واستبدّ بالملك فكثر ظلمه وكبر عسفه واشتدّ على الأمراء والقوّاد شدّة عظيمة وأخذ الكثير منهم بالشبهات واشتدّ على النصارى وبالغ فى التضييق عليهم لأنهم كانوا يحبون الأفضل ابن بدر الجمالى وكان يثق بهم ويعمل بمشورة كبارهم لإخلاصهم فى خدمة الدولة وخلودهم إلى السكون والطاعة وما زال على هذا الحال إلى أن كان من أمره ما سيذكر فى محله.

ولما كانت سنة تسع وعشرين وخمسمائة فى سابع ذى القعدة مات الخليفة المسترشد بالله فكانت خلافته كلها خروج وعصيان وتمرّد وطغيان ولكنه كان شهماً مقداماً عالى الهمة واسع الدراية كبير الدربة قيل لم يل الخلافة بعد المعتضد بالله أعظم شهامة منه إذ كان شديد الهيبة وقد ضبط الأمور وأحيا مجد بنى العباس

وجاهد وغزا مرارا فكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمـانية أشهر وقيل سبعة أو ستة أشهر. روى أنه ورد إليه رسل فجلس لهم فى جمـاعة من أهل بيته فلما أحضروهم بين يديه هجم عليه الفداوية منهم بالسكاكين فقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه يقال إن مسعودا أخـا السلطان محمود جهز عليه الفـداوية المذكورين ففعلوا به ذلك وعمره يومئذ أربع وأربعون سنة وقيل خمـس وأربعون فبايعوا بالخلافة بعده ولده أبا منصور جعفرا الراشد بالله.

ومات فى أيامـه سانوتيو بطرك الإسكندرية بعـد أن قام أربع عشـرة سنة قاسى فيها من الشدائد أعظمها وفعل العمال بالنصارى من الجور والظلم ما لا يكاد يدخل تحت حصر فأقام المتأصلون بعده خرسطودولو ومعناه عبد المسيح وكان راهباً بصومعة سنجار وهو سـادس ستيهم وأصلهم من بلـدة بورا. فلما استقـر به المنصب قام من مدينة الإسكندرية إلى مصـر واتخذ كنيسة المعلقة بظاهر الفسطـاط مقرا له وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل الثلاثون)

(فى خلافة أبى منصور جعفر الراشد بالله)

ثم قام بالأمر بعد المسترشد بالله ابنه أبو منصـور جعفر الراشد بالله بن المسترشد ابن المستظهر بويع له بالخلافة ثانى يوم موت أبيه فى ثامن عشر ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائه هجريـة أى سنة أربع وثلاثين ومائة وألف ميلادية بعهد من أبيه فجعل يتصرف فى الأمور سنة فلما كانت سنة ثلاثين حضر برتقش الزكوى من عند السلطان مسعود إلى بغـداد يطالبه بما كان استقر عليه الخليفـة المسترشد من المال الى السلطان وهو أربعمائة ألف دينار كـما تقدم بيان ذلك فذكر الخليـفة الراشد بالله أنه لاشىء عنده وأن المال جـميعـه كان مع المسـترشـد بالله فنهب أيام الفتنة فلم يقـتنع برتقش بذلك وأعاد القول فراجعه الخليفة وترددت الرسل بينهما أياماً ثم علم الراشد أن برتقش يريد الهجوم على دار الخلافـة وتفتيشها وأخذ ما فيـها من الأموال فجمع الخليفـة العسـاكر لمنعهـا وأمر عليـهم كبج آبه وأعاد عـمارة السـور الذى تهدم من الحوادث المترادفـة فلما علم برتقش بذلك اتفق هو وبك آبه صاحب الشـحنة ببغداد وأعلمه أن السلطان إنما يريد أن يهجم على دار الخلافة فأحس الراشد بذلك واستعد

لمنعهم وركب برتقش ومعه العساكر والأمراء الكبجية ومحمد بن عسكر فى نحو خمسة آلاف فارس ولقيهم عسكر الخليفة فاقتتلوا قتالاً شديداً فأخرجوا عسكر السلطان إلى دار السلطان فساروا إلى طريق خراسان ثم انحدر بك آبه إلى واسط وسار برتقش إلى البندنجيين فنهب العامة دار السلطان ولم يبقوا فيها شيئاً فاشتدت العداوة بين الخليفة وبين السلطان وعظمت الفتنة وكبر الأمر على السلطان واستخدم الخليفة الراشد جنداً كثيراً وأكثر من جمع السلاح ومعدات الحرب وتهيأ للقاء السلطان مسعود فلما جاء الخبر إلى السلطان باستعداد الراشد كاتب أتابك زنكى واستماله وكذلك فعل بيرتقش فأشار أصحاب الراشد عليه بالتوقف فأقبل السلطان مسعود بجيوشه ودخل بغداد فى ذى القعدة وقيل فى ذى الحجة سنة ثلاثين فنهب دور الجند ومنع من نهب البلد. واستمال الرعية إليه وأحضر القضاة والشهود فقدموا فى الخليفة الراشد بأنه صدرت عنه سيرة قبيحة من سفك الدماء المحرمة وارتكاب المنكرات وفعل ما لا يجوز فعله وشهدوا عليه بذلك فحكم قاضى القضاة وهو يومئذ ابن الكرخى بخلعه فخلعوه لأربع عشرة من ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، وكان الراشد لما دخل السلطان إلى بغداد ونهب عسكره الدور هرب فى قليل من خواصه ومعه أتابك زنكى الى الموصل فطلبه السلطان مسعود فهرب إلى فارس ثم دخل إلى أصفهان فحاصرها وتمرض هناك فدخل عليه جماعة من الفداوية فقتلوه وله إحدى وعشرون سنة وقيل ثلاثون سنة ووردت الأخبار بموته الى بغداد فجلسوا للعزاء به فى دار النوبة يوماً واحداً فكانت خلافته أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً.

ولما خلع الخليفة الراشد على هذه الصورة وانقطعت خطبته فى بغداد وجميع أعمالها استشار السلطان مسعود جماعة من أعيان بغداد منهم الوزير على بن طراد وصاحب المخزن وغيرهما فيمن يصلح أن يلى الخلافة فقال الوزير: أحد عمومة الراشد وهو رجل صالح قال :من هو؟ قال: من لا أقدر أن أفصح باسمه لئلا يقتل ثم ذكر السلطان أبا عبد الله الحسين وقيل محمد بن المستظهر بالله ودينه وعقله وعفته ولين جانبه فحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الزينبى وصاحب المخزن ابن القشلانى وغيرهما وأمر بإحضار الأمير أبى عبد الله بن المستظهر من المكان الذى كان يسكنه فأحضر وأجلس فى الميمنة ودخل السلطان إليه والوزير وتحالفا وقرر الوزير القواعد بينهما وخرج السلطان من عنده وحضر الأمراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوه ثامن عشر ذى الحجة سنة ثلاثين وخمسمائة ولقب المقتفى لأمر الله كما سيذكر فى محله.

(الفصل الحادى والثلاثون)

(فى خلافة أبى عبد الله محمد المقتفى لأمر الله)

ثم قام بالأمر بعد الراشد عمه أبو عبد الله بن محمد ولقب المقتفى لأمر الله بن محمد المستظهر بن المقتدى بويع له يوم خلع ابن عمه وهو الرابع عشر من ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة هجرية أى سنة خمس وثلاثين ومائة وألف ميلادية. فلما استقرت به الخلافة أرسل إليه ابن عمه الراشد رسولاً من الموصل مع رسول أتابك زنكى وهو كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزورى فأحضروه فى الديوان وسمعت رسالته عن الراشد بالله فى أمر خلع بيعته وقرروا ذلك بحضرة القضاة والشهود ثم سيرت الكتب بخلافته الى الآفاق واستوزر شرف الدين على بن طراد البرنشنى ابن عم الوزير وأعاده إلى منصبه وقرر كمال الدين حمزة بن طلحة على منصبه صاحب المخزن. قال بعض الكتاب: فجرت الأمور على أحسن نظام وأرسل السلطان مسعود بعد قليل إلى الخليفة المقتفى لأمر الله فى تقرير إقطاع ليكون لخاصته فكان جوابه إن فى الدار - يعنى دار الخلافة - ثمانين بغلة تنقل الماء من دجلة فلينظر السلطان ما يحتاج إليه ممن يشرب هذا الماء ويقوم به فترددت الرسل فى ذلك بينهما وطال الكلام أياماً كثيرة كادت تتكدر الخواطر فى خلالها ومازالوا حتى تقررت القاعدة بينهما على أن يجعل له ما كان للمستظهر بالله من الإقطاع فأجاب الخليفة إلى ذلك وقال السلطان لما بلغه قوله: لقد جعلنا فى الخلافة رجلاً عظيماً، قلت: وهو قول يدل على زوال ما كان باقياً إلى هذا الحين من بأس الخلافة وأنها صارت تحت كلمة السلطنة خاضعة لأمرها.

وجاءت الأخبار إلى الحافظ العلوى بمصر بخلافة المقتفى بالله فلم تهمه لاشتغاله بالفتنة القائمة بالقاهرة بسبب خروج وزيره تاج الدولة بهرام النصرانى الأرمنى وذلك أنه لما استوزره فى سنة تسع وعشرين وخمسمائة تمكن فى البلاد واتسعت كلمته وغلب على الحافظ واستعمل الأرمن وعزل المسلمين وأساء السيرة فيهم وأهانهم هو والأرمن الذين ولاهم وطمعوا فيهم ولم يكن من أهل مصر من تحركه الغيرة ولا تأخذه النخوة سوى الأمير رضوان بن الريحينى فإنه لما ساءه فعل الوزير وأقلقه جمع جمعاً كثيراً وقصد القاهرة فسمع به بهرام الوزير فخاف وهرب إلى الصعيد بغير قتال ولا حرب وقصد مدينة أسوان. فمنعه واليها من الدخول إليها وقاتله وقتل السودان

من الأرمن أصحابه كثيراً فلما لم يقدر على الدخول إلى أسوان أرسل إلى الحافظ يطلب الأمان فأمنه فعاد إلى القاهرة فسجن بالقصر فبقى مدة ثم لبس زى الرهبنة وترهب ولحق بأحد الديارات واستوزر الحافظ الأمير رضوان المذكور ولقبه بالملك الأفضل فكان أول وزير للمصريين لقب بالملك فجعل يتصرف فى الأمور واتسعت كلمته وكاد يتغلب على الحافظ ثم فسد ما بينه وبين الحافظ فعمل الحافظ على إخراجه فثار الناس عليه منتصف شوّال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة فهرب من داره وتركها بما فيها فنهب الناس منها ما لايعد ولايحصى وركب الحافظ فسكن الناس واختفى النهابون ونقل ما بقى فى دار رضوان إلى قصره وسار رضوان إلى الشام يستنجد بالأتراك ويستنصرهم فأرسل إليه الحافظ الأمير ابن مصال ليرده بالأمان والعهد أن لا يؤذيه فرجع إلى القاهرة فحبسه الحافظ عنده فى القصر * وفى رواية أنه سار إلى الشام وقصد صرخد فوصل إليها فى ذى القعدة ونزل على صاحبها أمين الدولة كمشتكين فأكرمه وعظمه وأقام عنده ثم سار إلى مصر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ومعه جيش عظيم فقاتل المصريين عند باب النصر فهزمهم وقتل منهم جماعة كثيرة وأقام على الباب المذكور ثلاثة أيام فتفرق منه كثير ممن كان معه فخشى العاقبة وعزم على العود إلى الشام فأرسل إليه الحافظ الأمير بن مصال فرده وحبسه فى القصر وجمع بينه وبين عياله وأهله فأقام فى القصر إلى سنة ثلاث وأربعين فنقب الحبس وخرج منه وقد أعدت له خيل فهرب عليها وعبر النيل إلى الجيزة فاجتمع عليه كثير من المغاربة وغيرهم فحشد منهم جمعاً كبيراً وعاد إلى القاهرة فقاتل المصريين عند جامع ابن طولون وهزمهم ودخل القاهرة فنزل عند جامع الأفخر وأرسل إلى الحافظ يطلب منه مالاً ليفرقه على عادتهم فإنهم كانوا إذا وزروا وزيرا أرسلوا اليه عشرين ألف دينار ليفرقها فأرسل الحافظ إليه عشرين ألف دينار فقسمها وكثر عليه الناس فطلب زيادة فأرسل إليه الحافظ عشرين ألف دينار ففرّقها فتفرق الناس وخفوا عنه وبقى هو فى قلة من أصحابه وإذا الصوت قد وقع وعلت الضوضاء وخرج إليه جمع كثير من السودان وضعهم الحافظ عليه فحملوا على غلمانه فقتلوهم وأعملوا السيف فيمن معه من المغاربة فقدم إليه بعض أصحابه الفرس ليركبه فلما أراد ركوبه ضرب الرجل رأسه بالسيف فقتله وحمل رأسه إلى الحافظ فأرسله إلى زوجته فوضع فى حجرها فألقت به وقالت: هكذا يكون الرجال، ولم يستوزر الحافظ أحدًا بعد موت رضوان وباشر الأمور بنفسه ومازال يتصرف والأمور طوع يده تارة وخارجة عنه أخرى حتى وافته منيته فى جمادى

الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة هجرية فكانت سلطنته عشرين سنة إلا خمسة أشهر وعمره نحوا من سبع وسبعين سنة ولم يزل فى جميعها محكوماً عليه مغلوباً على أمره لا كلمة له وإنما الكلمة لوزرائه حتى أنه جعل ابنه حسناً وزيره وولى عهده ليتخلص بذلك من أسر الوزراء وتغلبهم عليه فلم يفلح إذ حكم عليه ابنه المذكور واستبد بالأمر دونه وتجبر وظلم وقتل كثيراً من أمراء دولته وصادر الكثير منهم فكبر ذلك على الحافظ واستعظمه جداً فسقاه سماً فمات * قال أصحاب التاريخ: ولم يل الأمر من العلويين من أبوه غير خليفة غير الحافظ والعاضد، ولم مات الحافظ ولى الأمر بعده ابنه الظافر بأمر الله أبو منصور إسماعيل بن عبد المجيد الحافظ فاستوزر ابن مصال فلبث أربعين يوماً يدبر الأمر واتفق بعد ذلك أن خرج جماعة من السودان عن الطاعة فعاثوا وأفسدوا وعظم شرهم فخرج ابن مصال لقتالهم وردعهم فلما علم العادل بن السلار وهو بالإسكندرية بخروج ابن مصار سار إلى القاهرة ونازعه فى الوزارة حتى تولاها وتمكن منها ثم سير ربيبه عباس بن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم ابن المعز بن باديس الصنهاجي فى عسكر لقتال ابن مصال فظفر به وقتله وعاد إلى القاهرة واستقر العادل وتمكن وعلت كلمته فلم يبق للسلطان معه حكم واشتد على الأمراء وأخذ بأسباب الحزم وبالغ فى التجلد فلم يغن هذا كله شيئاً إذ كثر الاختلال واشتد وهن الدولة وتطاولت أيدى الطامعين إلى أملاكها فأخذ الفرنجة فى أيامه عسقلان وجاءت مراكبهم إلى دمياط فقاتلوا تنيس وحاصروها وضيقوا عليها أياماً كثيرة ثم انصرفوا عنها وأخذ نور الدين محمود دمشق من مجير الدين أبق ومازال ابن العادل يتصرف إلى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فقام عليه عباس بن أبى الفتوح بن يحيى الصنهاجى فقتله بإغراء الأمير أسامة بن منقذ ووافقه على ذلك الظافر بالله وولى الوزارة بعده فكانت الوزارة فى مصر لمن غلب والعلويون وراء الحجاب والوزراء كالمتملكين لا كلمة فوق كلمتهم. قال أصحاب التاريخ: وقل أن ولى الوزارة أحد بعض الأفضل أمير الجيوش إلا بحرب وقتل وما شابه ذلك.

وتمكن عباس من الدولة وبسط يده على الأمور وعزل وولى وجمع الأموال وهادته الأمراء وخضعت إليه العمال فى جميع الجهات وكان الأمراء والأجناد يعلمون أنه إنما ارتقى منصب الوزارة بفعل الأمير أسامة بن منقذ حيث أغراه على قتل العادل كما تقدم فعزموا على قتل ابن منقذ وصاروا يراقبون الفرص فلما أحس ابن منقذ بما عزموا عليه خاف على نفسه وأخذ يدبر الحيلة فى فساد أمرهم فخلا بعباس وقال له: كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول؟ قال: وما ذلك قال:

الناس يزعمون أن الظافر يواصل ابنك نصراً وكان نصر خصيصا للظافر وكان ملازما له ليله ونهاره وكان من أجمل الناس صورة وكان الظافر يهتم به فانزعج لذلك عباس وعظم عليه وقال كيف الحيلة؟ قال: تقتله فيذهب عنا العار فذكر الحال لولده نصر فاتفقا على قتله. وفى رواية أخرى أن الظافر أقطع نصر بن عباس المذكور قرية قليوب وهى من أعظم قرى مصر يومئذ فدخل عليه مؤيد الدولة بن منقذ وهو عند أبيه عباس فقال له نصر: قد أقطعنى مولانا قرية قليوب فقال له مؤيد الدولة ما هى فى مهرك بكثير فعظم عليه وعلى أبيه وأنف من هذا الحال وشرع أبوه عباس فى قتل الظافر وأمر ابنه بذلك فحضر نصر عند الظافر يوماً وقال: أشتهى أن تجىء إلى دارى لدعوة صنعتها ولا تكثر من الجمع فمشى معه فى نفر يسير من الخدم ليلاً فلما دخل الدار قتله ومن معه وأفلت خويدم صغير اختباء فلم يره ودفن القتلى فى داره وأخبر أباه عباسا بالخبر فبكر إلى القصر وطلب من الخدم الخصيصين بخدمة الظافر أن يطلبوا له إذنا فى الدخول عليه لأمر يريد أن يأخذ رأيه فيه فقالوا له: إنه ليس فى القصر فقال: لابد منه وكان غرضه أن ينفى التهمة عنه بقتله وأن يقتل كل من بالقصر ممن يخاف أن ينازعه فيمن يقيمه فى السلطنة فلما ألح عليهم عجزوا عن إحضاره فبينما هم يطلبونه حائرين دهشين لايدرون ما الخبر إذ دخل عليهم الخويدم الصغير الذى شاهد قتله وقد هرب من دار العباس عند غفلتهم عنه وأخبرهم بقتل الظافر فخرجوا إلى عباس وقالوا له: سل ولدك عنه فإنه يعرف أين هو لانهما خرجا جميعاً فلما سمع ذلك منهم قال: أريد أن أستعرض القصر لئلا يكون قد اغتاله أحد من أهله فاستعرض القصر فقتل أخوين للظافر وهما: يوسف وجبريل وأجلس الفائز بنصر الله أبا القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله إسماعيل ثانى يوم قتل أبيه وله من العمر خمس سنين فحمله عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له الناس وأخذ عباس يومئذ من القصر من الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة ما أراد ولم يترك فيه إلا ما لا خير فيه، وظن عباس بعد قتله للظافر وإقامة ابنه الفائز أن الأمر يتم له على ما يريد فكان الحال خلاف ما اعتقده فإن الكلمة اختلفت عليه وثار به طوائف الجند من الأتراك والسودان فكان إذا أمر أمراً لايلتفت إليه ولا يسمع له قول فزالت هيبته وانحطت مرتبته فى أعين الرعية فأرسل من بالقصر من النساء والخدم إلى الصالح طلائع بن رزيك وهو يومئذ فى منية ابن خصيب بالصعيد واليا عليها وعلى أعمالها ولم تكن يومئذ من الأعمال الجليلة ولكنها كانت أقرب الأعمال إليهم يشكون ما حل بهم من عباس وكان فى ابن رزيك شهامة فجمع جيشاً عظيماً

وانحدر يريد قتال عباس فلما سمع عباس ذلك خرج من مصر إلى الشام بما معه من الأموال التى لاتحصى كثرة ومن التحف والأشياء التى لاتوجد إلا هناك مما كان قد أخذه من القصر فلما سار وقع به عسكر الفرنجة فى الطريق فقتلوه وأخذوا جميع ما كان معه وسار الصالح صاحب منية ابن خصيب فدخل القاهرة بأعلام سود وثياب سود حزناً على الظافر والشعور التى أرسلت إليه من نساء القصر على رؤوس الرماح فخلع عليه خلع الوزارة واستقر له منصبها وأحضر الخويدم الذى شاهد قتل الظافر فأراه موضع دفنه فأخرجه ونقله إلى مقابرهم بالقصر ولما قتل الفرنجة عباساً وأخذوا ما معه من الأموال وغيرها أسروا ابنه فأرسل الصالح إلى الفرنجة وبذل لهم مالاً وأخذه منهم فسار من الشام مع أصحاب الصالح ولم يكلم أحداً منهم كلمة واحدة إلى أن رأى القاهرة فأنشد:

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر

فأدخلوه القصر ثم أخرج بعد أيام ميتاً وصلب على باب زويلة واستقصى الصالح بيوت الكبار والأعيان بالديار المصرية فقبض على أهلها وأخذ أموالهم وأبعدهم عن ديارهم فمنهم من هلك ومنهم من تفرق فى البلاد ومنهم من نزح إلى الحجاز واليمن وغيرهما. قال بعض الكتاب: وكان دخول الملك الصالح إلى القاهرة بالأعلام السود والثياب السود من الفأل العجيب فإنه لم يمض سوى خمسة عشر عاماً حتى دخلت القاهرة الأعلام السود العباسية وأزالت الأعلام العلوية ولم يزل الفائز بنصر الله لا كلمة له والحكم للصالح بن رزيك الوزير حتى مات الفائز فى صفر سنة خمس وخمسين وخمسمائة وعمره إحدى عشرة سنة فكانت سلطنته ست سنين ونحو شهرين فلما مات دخل الصالح بن رزيك القصر واستدعى خادماً كبيراً وقال له: من ههنا يصلح للخلافة؟ فقال ههنا جماعة وذكر أسماءهم وذلك له منهم إنساناً كبير السن فأمر بإحضاره فقال له بعض أصحابه سراً: لا يكون عباس الوزير أحزم منك حيث اختار الصغير للخلافة وترك الكبار واستبد بالأمر فأعاد الصالح الرجل إلى موضعه وأمر حينئذ بإحضار العاضد لدين الله أبى محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولم يكن أبوه خليفة وكان العاضد يومئذ مراهقاً قارب البلوغ فبايع له وزوجه الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز ما لا يسمع بمثله.

وكما كانت أمور السلطنة فى مصر فى اختلال وأحوالها فى اعتلال بسبب الفتن

والخطوب المتراكمة المترتبة على فعال الطامعين فى منصب الوزارة فكذلك كانت أحوال الخلافة ببغداد الى هذا الحين إذ ظهرت الفتن وعمت الإحن وقامت الحروب فى كل الجهات على ساقها واشتدت وطالت أيامها فاختل نظام الأمور وتعذر تدبير الجمهور وعاث أصحاب الفساد فقتلوا ونهبوا وفعلوا ما لا خير فيه وكان من الحوادث أيضاً فى تلك الأيام أن زاد دجلة إلى حد لم يسبق له مثال فخرق الفوارج فوق بغداد وأقبل المد الى البلد فامتلأت الصحارى وخندق البلد وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة فوقع بعض السور عليها فسدها ثم فتح الماء فتحة أخرى وأهملوها ظناً أنها تنفس عن السور لئلا يقع فغلب الماء وتعذر سده فغرق كثير من الدروب والحارات ودب الماء تحت الأرض إلى الكثير من الأماكن فوقعت وأخذ الناس يعبرون إلى الجانب الغربى فبلغت أجرة المعبرة عدة دنانير ولم يكن يقدر عليها لما أصاب الناس ثم نقص الماء وتهدم السور وبقى الماء الذى بداخل السور يدب حتى كثر الخراب وبقيت المحال لا تعرف وإنما هى تلول وقد غرق أيضا بالجانب الغربى من دجلة جميع المقابر وانخسفت وخرج الموتى على سطح الماء فكان أمراً عظيماً جداً لم يسبق له مثيل فيما غبر.

ولما كانت سنة أربع وخمسين وخمسمائة مرض الخليفة المقتفى لامر الله واشتد مرضه وخاف الناس عليه ثم عوفى فضربت البشائر ببغداد وفرقت الصدقات من الخليفة ومن أرباب الدولة وغلقت الحوانيت أسبوعاً وعم الفرح جميع الأهالى ثم لم يلبث أن عاوده المرض فى سنة خمس وخمسين فمات فى ثانى ربيع الأول بعلة التراقى وهو ابن ست وستين سنة فكان خلافته ثلاثا وعشرين سنة وقيل أربعا وعشرين وثلاثة أشهر وستة عشر يوما وقيل خمسا وعشرين سنة وكان شهماً كريماً حليماً حسن السيرة ذا رأى وتدبير وهو أول من استبد بالحكم منفرداً عن السلطان بالعراق من أول يوم الديلم إلى موته وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر إلى الآن إلا الخليفة المعتضد وكان شجاعاً مقداماً مباشراً للحروب بنفسه وكان يبذل الأموال الجليلة لأصحاب الأخبار فى جميع البلاد حتى كان لايفوته منها شيء وقد عمل لنفسه من العقيق تابوتاً دفن فيه ، ولما مات ولى الخلافة بعده أبو المظفر يوسف المستنجد بالله.

(الفصل الثانى والثلاثون)

(فى خلافة أبى المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى لأمر الله)

ثم قام بالأمر بعد المقتفى لأمر الله ابنه أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى لأمر الله وقد كان أبوه ولاه العهد فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة فبويع له بالخلافة بعد موت أبيه بيوم وقيل بل يوم موت أبيه سنة خمس وخمسين وخمسمائة هجرية أى سنة ستين ومائة وألف ميلادية وكان للمقتفى حظية هى أم ولده أبى علىّ وكانت تكره أبا المظفر وتتمنى تسليم الأمر لولدها أبى على فلما اشتد مرض المقتفى وأيست منه أرسلت إلى جماعة من الأمراء وبذلت لهم الإقطاعات الكثيرة والأموال الجزيلة ليساعدوها على أن يكون ولدها خليفة فقالوا: وكيف الحيلة مع ولى العهد فقالت: إذا دخل على أبيه قبضت عليه وكان يدخل إلى أبيه كل يوم فقالوا: لابد لنا من أحد من أرباب الدولة فوقع اختيارهم على أبى المعالى ابن الكيا الهراسى فدعوه إلى ذلك فأجابهم على أن يكون وزيراً فقبلوا ما طلب فلما استقرت القاعدة بينهم وعلمت أم أبى على أحضرت عدة من الجوارى وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولى العهد المستنجد بالله وكان للمستنجد خصى صغير يرسله كل وقت يتعرف أخبار أبيه فرأى الجوارى بأيديهن السكاكين ورأى بيد أبى على وأمه سيفين فعاد الى المستنجد فأخبره وأرسلت هى إلى المستنجد تقول: إن والدك حضره الموت فاحضر لتشاهده فاستدعى أستاذ دار عضد الدولة وأخذه معه هو وجماعة من الفراشين ودخل الدار وقد لبس الدروع وأخذ بيده السيف فلما دخل ثار به الجوارى فضرب واحدة منهن فجرحها وكذلك أخرى وصاح فدخل أستاذ الدار ومعه الفراشون فهرب الجوارى فأخذ أخاه أبا على وأمه فسجنهما وأخذ الجوارى فقتل منهن وأغرق.

وجلس المستنجد للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولهم عمه أبو طالب ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفى وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير بن هبيرة وقاضى القضاة وأرباب الدولة والعلماء وخطب له يوم الجمعة ونثرت الدنانير والدراهم ولما استقرت به الخلافة أقر ابن هبيرة على وزارته وأصحاب الولايات على ولاياتهم وأزال المكوس والضرائب وقبض على القاضى ابن مزاحم وبئس الحاكم هو وأخذ منه مالاً كثيراً وأخذ كتبه فأحرق منها فى الرحبة ما كان من علوم الفلسفة فكان منها كتاب الشفاء

لابن سينا وكتاب إخـوان الصفا وما يشاكلهما وقـدم عضد الدين بن رئيس الرؤساء فكان. أستاذ الدار ومكنه وتقدم الى الوزير أن يقوم له تعظيماً وعزل قاضى القضاة أبا الحسن على بن أحمد الدامغانى وأقام مكانه أباجعـفر عبد الواحد الثقفى وخلع عليه وأدناه مـنه، ووردت الأخبار إلى مصر بخلافة المستنجد وموت المقتفى فلم يلتفت إليها الملك الصالح بن رزيك وزير العاضد لدين الله وأهملها كإهماله لغيرها من بقية الأمور واشتغـاله بالتحكم فى دولة العاضد واستبداده بالأمـر والنهى وجباية الأموال وعزله الولاة والعـمال وتبعـيده كل من كان يخـشى من وثوبه حتى أبغضـه الأمراء والعامة وحرم القصر وتمنوا موته والخلاص من شره فأرسلت عمة العاضد لدين الله الأموال إلى بعض الأمراء ودعـتهم إلى قتله وكان أشدهم عليـه فى ذلك إنسان يقال له ابن الداعى فاتفقـوا على قتله ووقفوا له يوما فى دهليز القـصر فلما دخل ضربوه بالسكاكـين على دهش منه فجـرحوه جـراحات مهلـكة وحمل إلى داره وفـيه رمق فأرسل إلى العاضد لدين الله يعاتبه على الرضا بقتله فأقسم العاضد أنه لايعلم بذلك ولم يرض به فقال: إن كنت لم ترض به وبريئا منه فسلم عمتك إلىّ حتى أنتقم منها فرسم بتسليمها إليه فأخذها قهراً وقتلها ووصى بالوزارة من بعده لولده رزيك ولقب العادل فانتقل الأمر إليه بعد أبيه. قال أصحاب التاريخ: وكان الصالح المذكور كريماً فيه أدب وله أشعار حسنة بليغة تدل على فضل غزير فمنها فى الافتخار :

أبى الله إلا أن يـدوم لنا الـدهــــر ... ويخـدمنا فى ملكـنا العز والنصـر
علـمنـا بأن المـال تفنـى ألوفــــه ... ويبقى لنا من بعـده الأجر والذكـر
خلطنا الندى بـالبأس حـتى كـأننا ... سحاب لديه البرق والرعد والقطر
قـرانا إذا رحنا إلى الحـرب مـرة ... قرانا ومن أضـيافنا الذئب والنسـر
كـمـا أننا فى السلم نبـذل جـودنا ... ويرتع فى إنعـامنا العبـد والحــر

وكان لأهل العلم عنده منزلة ويرسل إليهم العطايا الكثيـرة وكان إماميًا لم يكن على مذهب العلويين المصريين، وكان شديد المغالاة فى التشيع صنف كتاباً فيه الرد على أهل الفسـاد جمع له الفقهـاء وناظرهم عليه وهو ويتضمن إمـامة على بن أبى طالب والبحث فى الأحاديث الواردة فى ذلك ومن شعره فى التدين هذه الأبيات :

يا أمــــة سلكــت ضــلالاً بينا ... حتى استوى إقرارها وجحـودها
ملـتم إلـى أن المعـــاصى لم تـكن ... إلا بتـقـديــر الإلـه وجـودهــا
لو صـح ذا كـــان الإله بزعــمكم ... منع الشـريعة أن تـقام حـدودهـــا
حـــاشـــا وكـــلا أن يكـون إلهنا ... ينهى عن الفـحشاء ثـم يريدهـــا

قالوا: ولما ولى العاضد الخلافة وركب سمع الصالح ضجة عظيمة فقال ما الخبر؟ فقيل إنهم يفرحون بالخليفة فقال كأنى بهؤلاء الجهلاء وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا وما علموا أننى كنت فى ساعة أستعرضهم استعراض الغنم وقال عمارة دخلت إلى الصالح قبل قتله بثلاثة أيام فناولنى قرطاساً فى بيتين من شعر، وهما :

نحن فى غفلة ونوم وللمو	ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا إلى الحمام سنينا	ليت شعرى متى يكون الحمام

قال فكان آخر عهدى به، وقال عمارة أيضاً ومن عجيب الاتفاق أننى أنشدت ابنه قصيدة أقول فيها :

أبوك الذى تسطو الليالى بحده	وأنت يمين إن سطا وشمال
لرتبته العظمى وإن طال عمره	إليك مصير واجب ومنال
تخالصك اللحظ المصون ودونها	حجاب شريف لا انقضا وحجال

قال: فانتقل الأمر اليه بعد ثلاثة أيام، وكان من جملة وصية الصالح لولده العادل عندما أشرف على التلف أن لا يغير على شاور والى الصعيد قال فإننى أنا أقوى منك وقد ندمت على استعماله ولم يمكن خلعه فلا تغيروا ما به فيكون لكم منه ما تكرهون، وشاور هذا تركى الأصل جاء إلى مصر ودخل فى خدمة الصالح ابن رزيك ولزمه فأقبل عليه الصالح وولاه الصعيد وهو أكبر الأعمال يومئذ بعد الوزارة، فلما استقر به المنصب ظهرت منه كفاءة عظيمة وتقدم زائد واستمال لنفسه الرعية والمقدمين من العربان وغيرهم فعسر أمره على الصالح ولم يمكنه بعد ذلك خلعه فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته فلما ولى العادل الوزارة مكان أبيه الصالح، حسن له أهله عزل شاور المذكور واستعمال بعضهم مكانه وخوفوه منه إن أقره على عمله فأرسل إليه بالعزل وخالف وصية الصالح فجمع شاور عند ذلك جموعاً كثيرة وانحدر بهم الى القاهرة فهرب العادل بن الصالح بن رزيك فلحقه شاور وأخذه وقتله فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله سبع سنين وشهراً وأياماً وتولى شاور منصب الوزارة ولقب بأمير الجيوش واستولى على جميع أموال بنى رزيك وودائعهم وخزائنهم وأخذ منها أيضا طيا والكامل ابنا شاور شيئاً كثيراً وأنكر ما أخذاه. قال بعض الكتاب: ثم ظهر عليهم عند انتقال الدولة عن شاور والمصريين إلى الأتراك ولم يلبث شاور فى منصب الوزارة طويلاً حتى ظهر الضرغام

فى جموع كثيرة للغاية وأخـذ ينازع شاور فى الوزارة وظهر أمره وعلت كلمته وطال نزاعه فانهزم شاور منه إلى الشام فـتولى ضرغام منصب الوزارة وأمر ونهى فكان فى هذه الدولة ثلاثة وزراء العادل بن شريك وشاور صاحب الصـعيد وضرغام هذا كان أحد كـبار الأمراء البـرقية الذين أقامـهم الملك الصالح بن رزيك على عـهد وزارته ويقال له ضرغام أبي الأشـبال وهو يومئذ حاجب الباب فلمـا تمكن ضرغام هذا من الوزارة قتل الكثير من الأمراء المصريين لتخلو له البلاد من المنازعين وأكثر من الأخذ بالشبهات فـضعفت لذلك الدولة وانحطت شهرتها وزالت هيـبتها وطمع فى أخذها الطامعون فخرجت بعد ذلك من أيديهم كما سيتلى عليك فى محله. أما شاور فإنه لما وصل إلى الشام التجأ إلى صاحبهـا نور الدين محمد بن زنكى واستجار به وشكا ما حل به من ضرغام فـأكرم نور الدين مثواه وأحسن إليه وأنعـم عليه وكان وصوله فى ربيع الأول من السنة أى سنة تسع وخمسين وخمسمائة وطلب من نور الدين أن يرسل معه عـسكراً إلى مصر ليعود إلى منصبـه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العـسكر ويكون شيركوه بن شادى مقـدم العسكر التى تصحبه مـقيماً بعسكره فى مصر ويتصرف له بأمر نور الدين واختياره فبقى نور الدين يقدم الى هذا الغرض رجلاً ويؤخر أخرى فتارة تحـمله رغبات قصد شاور وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الفـرنجة وتارة يمنعه خطر الطريق وأن الفرنجة فيـه وكذلك تخوف من ابن شاور إن استقرت قاعدته ربما لا يفى له ثم قوى عزمه على إرسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وإزاحة عللها وكـان هوى أسد الدين فى ذلك وميله شديداً إلى المسير إلى مصر وعنده من الشـجاعة وقوة النفس مـا لا يبالى معه بمخافـة فجهز جيـشاً جراراً وجعل عليه الأميـر أسد الدين شيركوه المذكور وهو مقدم عسـكره وأكبر أمراء دولته وأشجعهم وساروا وشاور فى صحبتهم وذلك فى جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وتقدم نور الدين إلى شـيركوه بن شـادى بأن يعيد شـاور إلى منصبـه وينتقم له ممن نازعه فيه وسار نور الدين إلى طرف بلاد الفرنجة مما يلى دمشق بعسكره ليمنع الفرنجة من التعرض لأسـد الدين شيركوه ومن معـه فوصل أسد الدين والعساكـر الذى معه إلى مدينة بلبيس فخرج نـاصر الدين أخو ضرغام بعسكر من مصر ولقيـهم فاقتتلوا فانهـزم ناصر الدين وعاد إلى القـاهرة خاسراً ووصل أسد الـدين فنزل على القاهرة أواخر جمادى الآخرة فخرج ضرغام من القـاهرة سلخ الشهر لقتال أسد الدين فقتل عند مشـهد السيـدة نفيسـة وبقى يومين ثم حمل ودفن بالقـرافة وقتل أخـوه فارس المسلمـين فلما تم الظفـر لأسد الدين خلع علـى شاور مسـتهل رجب وأعـاده إلى

الوزارة وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ينتظر وفاء ما قرره شاور فغدر به شاور وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضاً. وأرسل إلى أسد الدين يأمره بالعود إلى الشام فأعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور إليه فأرسل في الحال أسد الدين إلى نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وحكم على أقليم الشرقية فأرسل شاور إلى الفرنجة يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إذا ملك مصر فسارعوا إلى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا في ديارمصر وكان شاور قد بذل لهم مالاً على المسير إليه فتجهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين خبر ذلك سار بعساكره إلى أطراف بلادهم ليمنعهم عن المسير فلم يتمكن من ذلك إذ سار ملك القدس في عسكره على عجل وكان قد وصل إلى الساحل جمع كثير من الفرنجة يريدون زيارة بيت المقدس فسار جماعة منهم مع صاحب القدس فلما قاربوا مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس فأقام بها هو وعسكره وجعلها له ظهراً يتحصن بها فاجتمعت العساكر المصرية وجموع الفرنجة ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضاً فبينما هم على هذا الحال إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنجة على حارم وملك نور الدين حارم ومسيره إلى بانياس فأرادوا العودة إلى بلادهم ليحفظوها فراسلوا أسد الدين في الصلح والعودة إلى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين فأجابهم إلى ذلك لأن الأقوات والذخائر قلت عليه وخرج من بلبيس في ذي الحجة وسار إلى الشام وأقام على حاله في خدمة نور الدين ولكنه كان دائماً يتحدث بمصر مولعاً بها ويحب أن يقصدها وكان عنده من الحصر على ذلك كثير.

فلما كانت سنة اثنتين وستين وخمسمائة تجهز للمسير إلى مصر وسار في ربيع الأول في جيش ضخم للغاية فسير معه نور الدين جماعة من الأمراء فكانت عدتهم يومئذ ألفي فارس وكان نور الدين كارها لذلك ولكن لما رأى من جد أسد الدين ورغبته في المسير لم يمكنه إلا أن يسير معه هذا الجمع خوفاً من الهزيمة أو حادث يتجدد عليهم وسار أسد الدين بعسكره براً وترك بلاد الفرنجة على يمينه فوصل مصر وقصد أطفيح وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي ونزل بالجيزة مقابل مصر ومدينة الفسطاط وأخذ يتصرف في البلاد الغربية وأنفذ حكمه فيها وأقام على ذلك نيفا وخمسين يوماً وكان شاور لما بلغه مجئ أسد الدين أرسل إلى الفرنجة يستنجد بهم فأتوه على الصعب والذلول طمعاً في ملكها فترفع أسد الدين بمن معه إلى الصعيد فبلغ مكاناً يعرف بالبابين فتبعتهم العساكر المصرية وعسكر الفرنجة فأدركوهم بها في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان أسد الدين قد أرسل إلى المصريين

والفرنجة جواسيس فعادوا إليه وأخبروه بكثرة عددهم وعُدَدِهم وجدّهم فى طلبه فعزم على قتـالهم إلا أنه خاف من أصحـابه أن تضعف قلوبهم عن القتـال فى هذا المقام الخطير الذى عطبهم فيه أقرب من سلامتهم لقلة عـددهم فاستشارهم فأشاروا بعبور النيل إلى الجانب الشرقى والرجوع إلى الشام وقالوا إن نحن انهزمنا وهو الذى يغلب على الظن فإلى أين نلتجئ وبمن نحـتمى وكل من فى هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عـدو لنا؟ فقـام أميـر من مماليك نور الدين يقال له شـرف الدين بن برغش صاحب شفيق وكان شجاعاً وقال: من يخاف القتل والأسر لايخدم الملوك بل يكون فى بيـته مع امرأته والله لـئن عدنا إلى نور الدين من غـير غلبـة ولا بلاء نعذر فـيه ليأخذن مالنـا من الإقطاع والجامكية ولا يعود علينا جميع مـا أخذناه منذ خدمنا إلى يومنا هذا، ويقول تأخذون أموال المسلمين وتفـرون من عدوهم وتسلمون مثل مصر إلى الكفار والحق بيـده فقال أسـد الدين: هذا الرأى وبه أعمل فـقال أخيـه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمـعت الكلمة على القتال فأقام أسد الدين بمكانه حتى أدركهم المصريون والفرنجة وهو على أهبـة وجعل الأثقال فى القلب يستكثر بها وجعل صـلاح الدين فى القلب وقال له ولمن معـه: إن المصريين والفرنجـة يجعلون حملتهم على القلب ظناً منـهم أنى فيه فإذا حملوا عليكم فلا تصـدوهم بالقتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا قدامهم بين أيديهم فـإذا عادوا عنكم فارجعوا فى أعقابهم واختار هو من شجـعان عسكره جمعاً يثق بهم ويعـرف صبرهم فى الحروب ووقف بهم فى الميمنة فلما تقاتل الطائفتان فعل الفرنجة ما ذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالاً يسيراً وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين وتبعهم الفرنجة فحمل حينئذ أسد الدين فيـمن معـه على من تخلف من الذين حملوا من المسلمـين والفرنجـة الفارس والراجل فهزمـهم ووضع السيف فيهم فأثخـن وأكثر القتل فلما عـاد الفرنجة من أثر المسلمين رأوا عسكرهم منهزماً فانهزمـوا أيضاً ولما تمت هزيمة المصريين والفرنجة سار أسد الدين بمن معـه إلى ثغر الاسكندرية وجبى باقى القرى عـلى طريقه من الأموال ووصل إلى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة من أهلهـا سلموها إليه فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد فملكها وجـبى أموالها وأقام بها حتى صام رمضان فكبر ذلك عـلى المصريين والفرنجـة واجتـمعوا بالقـاهرة وأصلحوا حـال عسكرهم وجمعوهم وسـاروا إلى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين بها واشتـد عليه الحصار وقل الطعام على من بالاسكندرية فصبروا على ذلك وانـحدر أسد الدين من الصعيد إلى الاسكندرية وكـان شاور قد أفـسد بعض من مـعه من التـركمـان فوصل رسل

الفرنجة والمصريين يطلبون الصلح. قال بعض الكتاب: وبذلوا إلى أسد الدين خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد فأجاب إلى ذلك واشترط على الفرنجة أن يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها قرية واحدة فأجابوه إلى ذلك واصطلحوا وعادوا إلى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية من نصف شوال من السنة ووصل أسد الدين شيركوه إلى دمشق ثامن عشرى ذى القعدة، أما الفرنجة فإنهم اتفقوا مع المصريين بأن يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد طائفة من فرسانهم ليمتنع نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم ويكون لهم من دخل مصر فى كل سنة مائة ألف دينار وهذا كله استقر مع شاور إذ لم يكن للعاضد حكم ولا كلمة وقد حجب عن الأمور كلها وعاد جماعة الفرنجة بعيد ذلك إلى الساحل الشامى وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان الكامل شجاع بن شاور أرسل إلى نور الدين سراً مع بعض الأمراء ينهى محبته وولاءه ويسأله الدخول فى طاعته وتعاهدوا أن يفعل هذا وبذل مالا يحمله فى كل سنة فأجابه نور الدين إلى ذلك فحمل إليه ابن شاور مالاً جزيلاً وبقى الأمر على هذا الحال وشاور لا يعلم بالخبر، فلما كانت سنة أربع وستين وخمسمائة قصد أسد الدين ديار مصر ثلاثة ومعه العسكر النورى فملكها وجعل يتصرف فيها، وتحرير الخبر أنه لما تمكن الفرنجة من البلاد المصرية وجعلوا لهم شحنة فى القاهرة حكموا وتصرفوا فى الأمور وشددوا على الرعية فضج المسلمون واستغاثوا فأرسل الفرنجة إلى ملكهم بالشام المسمى مرى وكان أشجع ملوكهم بالشام يستدعونه ليملكها وأعلموه خلوها من ممانع وهونوا عليه أمرها فلم يجبهم إلى ذلك، قال أصحاب التاريخ: فاجتمع إليه فرسان الفرنجة وذوو الرأى منهم فأشاروا عليه بتملكها فقال لهم: الرأى عندى أننا لا نقصدها ولا بغية لنا فيها وأموالها تساق إلينا فنقوى بها على نور الدين وإن نحن قصدناها لتملكها فإن صاحبها وعسكره وجميع بلاده وفلاحيها لايسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ويحملهم الخوف على تسليمها إلى نورالدين ولئن صار له فيها مثل أسد الدين كانت العاقبة شراً علينا وأجلانا ولا محالة عن الشام فلم يقبلوا قوله وألحوا عليه فى قصدها فقبل منهم على كره وشرعوا يجهزون ويشيعون أنهم إنما يريدون مدينة حمص فلما سمع نور الدين بالخبر شرع أيضاً فى جميع عساكره وأمرهم بالقدوم عليه وجد الفرنجة فى السير إلى مصر فقدموها ونزلوا مدينة بلبيس وملكوها قهراً مستهل صفر ونهبوا ما فيها وقتلوا وأسروا وكان جماعة من أعيان المصريين قد كاتبوا الفرنجة ووعدوهم أن يأخذوا بناصرهم نكاية فى شاور وتخلصا من جوره منهم ابن الخياط وابن فرجلة فاشتد

عـضد الفـرنجـة وساروا من بلبـيس إلى مـصر فنـزلوا على القاهرة عـاشـر صفـر وحاصروها فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مـا فعلوه بأهل بلبيس فحملهم الخوف على الامـتناع فحفـظوا البلد وقاومـوا دونه وبذلوا جهـدهم فى حفظه وأمـر شاور بإحراق مدينة مصر تاسع صفـر وأمر أهلها بالجلاء عنها إلى القاهرة وأن ينهب البلد فـانتقلوا وبقـوا على الطرق فى حـالة تبكى الناظر ونهـبت المدينة وأصبح أهلهـا لا يملكون شيئـاً وذهبت أموالهم ونعمتهم قـبل نزول الفرنجة عليهم بيوم فـبقيت النار تضطرم فيـها وتحرقها أربعـة وخمسين يومـاً فكانت شدة لم يسبق لها مـثال ومنظر تنفطر منه الأكبـاد واشتد الفرنجة فى الحـصار فعم البلاء وكبـر خوف الناس فأرسل العاضد العبيدى إلى نور الدين يستغـيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنجة وأرسل فى الكتب شعـور نسائه وقال: هذه شـعور نسائى من قـصرى يستـغثن بك لتنقذهن من الفرنجة فلما وصلت كتب العـاضد إلى نور الدين كبر عليه الأمر وشرع فى تسيـر الجيوش. أما الفرنجـة فإنهم لما علموا بعزم نور الدين اشتـدوا فى حصار القاهرة وضيقوا على أهلها وشاور هو ولى أمر العساكر فضاق به الخناق وضعف عن ردهم فأخلد إلى إعمـال الحيلة وأرسل إلى ملك الفرنجة يذكر له مودتـه وصداقته له قديماً وأن هواه مـعه لخوفه من نور الدين والعاضد صـاحب البلاد وإنما المسلمون لا يوافقـونه على التسليم إليه ويـشير بالصلح وأخـذ مال لئلا يتـسلم البلاد نور الدين فأجابه مرى إلى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مـصرية يعجل بالبعض ويمهل بالبعض فاستقرت القاعدة على ذلك فعجل له شاور بمائة ألف دينار وسألهم الرحيل عنها ليجـمع لهم المال فرحلوا قريباً وجعل شـاور يجمع لهم المال من أهالى القاهرة ومصـر فلم يتحصل إلا مـقدار خمسـة آلاف دينار وذلك لأن أهل مصر كـانت قد احترقـت بيوتهم وما فيـها وما سلم من الحريق نهب وهم لايقـدرون على الأقوات فضلاً عن الأقساط وأما أهل القاهرة فـلأن أغلب أهلها الجند وغلمانهم تعذر عليهم المال وهم فى خلال ذلك يراسلون نور الدين بما أصبح الناس فيه وبذلوا له ثلث بلاد مصر وأن يكـون أسد الدين مقيـماً عندهم فى عسكره وإقطاعهم من البـلاد المصرية أيضاً خارج عن الثلث الذى لهم وكان نور الدين لما وصلت كتب العاضد إليه بحلب أرسل إلى أسد الدين يسـتدعيه إليه فـخرج القاصد فى طلبه فلقـيه على باب حلب وقد قدمهـا من حمص وكانت إقطاعاً له وسبب وصـوله أن كتب المصريين وصلت إليـه أيضاً فى هذا المـعنى فسـار إلى نور الدين واجـتمع به فـعـجب نور الدين من حضوره فى الحال وسـر بذلك وتفاءل به وأمر بالتجهز إلى مـصر وأعطاه مائتى ألف

دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك وحكمه فى العسكر والخزائن فاختار من العسكر ألفى فارس وأخذ المال وجمع ستة آلاف فارس وسار هو ونور الدين إلى باب دمشق فوصلها سلخ صفر ورحل إلى رأس المال وأعطى نور الدين كل فارس ممن كان مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة غير محسوبة من جامكيته وأضاف إلى أسد الدين جماعة آخرين من الأمراء منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقى وقطب الدين ينال بن حسان المنبيجى وصلاح الدين يوسف بن أيوب أخى شيركوه على كره منه وسار أسد الدين شيركوه من رأس الماء مجداً منتصف ربيع الأول فلما قارب مصر رحل الفرنجة إلى بلادهم وسمع نور الدين بعودهم فسره ذلك جداً وأمر بضرب البشائر فى البلاد وبعث رسله إلى الآفاق مبشرين بذلك فلما وصل القاهرة ودخل إليها اجتمع بالعاضد لدين الله فخلع عليه العاضد وعاد إلى خيامه بالخلعة وفرح به أهل مصر وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع من ذلك لأنه رأى أن العساكر كثيرة مع أسد الدين وهوى العاضد العلوى معه فلم يتجاسر على إظهار ما فى نفسه وقد كان يكره بقاء أسد الدين فى مصر ويخشى منه على نفسه وشرع يماطل أسد الدين فى تقرير ما كان بذله لنور الدين من المال والأقطاع للجند وإفراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه.

وعزم شاور يوماً على أن يعمل دعوة يدعو إليها أسد الدين والأمراء الذين معه ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الفرنجة وكلم ابنه الكامل فى ذلك فنهاه وقال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعلمن به شيركوه فقال له أبوه: لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً فقال صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنجة فترك شاور ما كان قد عزم عليه ورأى العسكر النورى الذين مع أسد الدين مطل شاور فخافوا شره وتكلموا فى أمره كثيراً ثم اتفق صلاح الدين يوسف بن أيوب وعز الدين جرديك وغيرهم على قتل شاور فنهاهم أسد الدين على عادته فسكتوا وهم على هذا العزم من قتله فاتفق أن قصد شاور عسكر أسد الدين كما كان يفعل كل يوم فلم يجده فى الخيام وكان قد توجه لزيارة قبر الإمام الشافعى فلقيه صلاح الدين يوسف وجرديك فى جمع من العسكر فخدموه وأعلموه بأن شيركوه قد انصرف لزيارة قبر الإمام الشافعى فقال نمضى إليه فساروا جميعاً فسايره صلاح الدين وجرديك ومازالا حتى تمكنا منه وألقياه إلى الأرض عن فرسه فهرب أصحابه عنه فأخذ أسيرا ولم يمكنهما

قتله بغير أمر أسد الدين فتوكلا بحفظه وأعلما أسد الدين فحضر ولم يمكنه إلا إتمام ما عملاه فقتل شاور ووصل الخبر بما جرى إلى العاضد لدين الله العلوى فأرسل إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور وتابع الرسل بذلك فأرسلوا رأسه إلى العاضد فى السابع عشر من ربيع الآخر ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع الخلق ما أخافه على نفسه فقال له أمير المؤمنين يعنى العاضد يأمركم بنهب دار شاور فتفرق الناس إلى الدار فنهبوها وقصد هو قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش فسار بالخلع إلى دار الوزارة وهى التى كان بها شاور فلم ير فيها ما يقعد عليه واستقل بالأمر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الأعمال من يثق به من أصحابه وأقطع البلاد لعسكره، وأما الكامل بن شاور فإنه لما قتل أبوه دخل القصر هو وإخوته معتصمين فكان آخر العهد بهم، ذكر أن أسد الدين شيركوه حزن على شاور لأنه بلغه ما كان منه مع أبيه من منعه من قتل شيركوه وما استتب الأمر لشيركوه وثبتت قدماه فى منصب الوزارة حتى أتاه أجله على عجل فمات فى يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام فلما مات قام جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا معه وطلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعده منهم عين الدولة الياروقى وقطب الدين اينال وسيف الدين المشطوب الهكارى وشهاب الدين محمود الحارمى وهو خال صلاح الدين يوسف وكان كل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع أصحابه ليغالب عليها فأرسل العاضد إلى صلاح الدين وأحضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه وكان الذى حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له: ليس فى الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف والرأى أن يولى الوزارة فإنه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلها إلينا فيصير عندنا من الجند ما نمنع بهم عن البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجهم فوافقهم العاضد على ذلك وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر فلم يطعه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه وكان معه الفقيه عيسى الهكارى فسعى مع المشطوب حتى أماله إلى صلاح الدين وقال له: إن هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة والحارمى وغيرهما ثم قصد الحارمى وقال هذا صلاح الدين هو ابن أختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الأمر فلا تكن أول من يسعى فى إخراجه عنه ولا يصل إليك فمال إليه أيضاً، ثم فعل هكذا بالباقين فأطاعه كلهم غير عين الدولة الياروقى فإنه قال أنا لا أخدم يوسف وعاد إلى نور الدين بالشام فلما استقرت

بصلاح الدين الوزارة استمال إليه قلوب الناس وبذل الأموال فأحبوه وضعف أمر العاضد صاحب البلاد ولم يبق له إلا الاسم ثم أرسل يوسف إلى نور الدين يطلب أن يرسل إليه إخوته وأهله فأرسلهم إليه وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته وكلهم فعل ذلك وأخذ إقطاعات الأمراء المصريين فأعطاها أهله والأمراء الذين معهم وزادهم فازدادوا حباً له وطاعة لأمره وكان يوم ولاية صلاح الدين يوماً مشهوداً جداً. قال أبو شامة. كانت الخلعة التى لبسها صلاح الدين يوم ولايته عمامة بيضاء وثوباً دمبيقياً بطراز ذهب وجبة بطراز ذهب وطيلساناً مطرزاً بذهب وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار وسيفاً محلى بخمسة آلاف دينار وحجراً بثمانية آلاف دينار وعليه سرج ذهب وسرسار ذهب مجوهر وفى رأسه مائتا حبة جوهر وفى قوائمه أربعة عقود جوهر وفى رأسه قبعة بذهب شديدة البياض بأعلام بيض ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخر ومنشور الوزارة مكتوب فى ثوب أطلس أبيض وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين قال: وكان يوماً مشهوداً وارتفع قدر صلاح الدين بالديار المصرية واستلفت إليه القلوب وخضعت له النفوس واضطهد العاضد فى أيامه غاية الاضطهاد اهـ.

فلما كانت سنة خمس وستين حاصر الفرنج مدينة دمياط خمسين يوماً فقاتلهم صلاح الدين حتى أجلاهم وجعل صلاح الدين يأمر وينهى ويتصرف فى الأمور لا رادٌ لكلمته ولا أمر فوق أمره والعاضد فى قصره محجور عليه لا يعرف من أحوال البلاد شيئاً ولا يدرى ما هى عليه فكان نور الدين صاحب دمشق إذا خاطب صلاح الدين يوسف لا يخاطبه مع ذلك إلا بالأمير الاسفهلار ويكتب علامته على رأس الجواب تعظيماً عن أن يكتب اسمه وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الأمير الاسفهلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا وأرسل نور الدين إلى صلاح الدين بعد أن ضعف أمر العاضد وانحطت كلمته يأمره أن يخطب للخليفة المستنجد العباسى بمصر لأن الخليفة بعث يعاتبه فى ذلك ويطلب إعادة الخطبة إليه كما كانت قبل العلويين فأخذ صلاح الدين من هذا الحين فى تذليل العاضد والتضييق عليه فى جميع أموره واشتد عليه شدّة بالغة فشكى العاضد من ذلك وراسل صلاح الدين وعاتبه فلم يلتفت إليه فكبر الأمر على من بالقصر واتفق مؤتمن الخلافة وهو خصى كان بقصر العاضد إليه الحكم فيه والتقدم على جميع من يحويه مع جماعة من المصريين على مكاتبة الفرنجة واستدعائهم إلى البلاد والتقوى بهم على صلاح الدين ومن معه وسيروا الكتب مع رجل يثقون إليه وأقاموا ينتظرون

جوابه فسار ذلك القاصد إلى البئر البيضاء فلقيه إنسان تركمانى فرأى معه نعلين جديدين فأخذهما منه وقال فى نفسه لو كان مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين فإنه رث الهيئة وارتاب فيه وفيهما فأتى به إلى صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتب فيهما فقرأها وسكت عليه وكانت رغبة مؤتمن الخلافة أن يحرك الفرنجة إلى الديار المصرية فإذا وصلوا إليها وخرج صلاح الدين فى العسكر لقتالهم ثار مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون بأجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتون من وراء ظهره والفرنجة من بين يديه فلا تبقى لهم باقية فلما قرأ صلاح الدين الكتاب سأل عن كاتبه فقيل إنه رجل يهودى فأحضره فأمر بضربه وتقريره فابتدأ وأسلم وأخبره بالخبر وأخفى صلاح الدين الحال واستشعر مؤتمن الدولة بما جرى فلازم القصر ولم يخرج منه خوفاً من صلاح الدين، وصلاح الدين لايظهر له شيئاً من الطلب لئلاً ينكر ذلك، فلما طال الأمر خرج من القصر إلى قرية تعرف بالخرقانة للتنزه فلما علم به صلاح الدين أرسل إليه جماعة فأخذوه وقتلوه وأتوا برأسه، ثم عزل جميع الخدم الذين يتولون أمر القصر واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش وهو خصى أبيض فكان لا يجرى فى القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمره فغضب السودان لتقل مؤتمن الخلافة واجتمعوا فزادت عدتهم على خمسين ألفاً وقصدوا حرب الأجناد الصلاحية فاجتمع العسكر أيضاً وانتشبت الحرب بين القصرين وكثر القتل بين الفريقين وكاد يتم الظفر بالسودان وظهرت هزيمة الأجناد الصلاحية فأرسل صلاح الدين فى الحال إلى محلة السودان المعروفة بالمنصورة فأحرقها على أموالهم وعيالهم فلما جاءهم الخبر بذلك ولوا منهزمين فركبهم السيف وأخذت عليهم أفواه السكك فطلبوا الأمان بعد أن كثر فيهم القتل فأجيبوا إلى ذلك وأخرجوا من مصر إلى الجيزة فعبر إليهم شمس الدولة أخو صلاح الدين الأكبر فى طائفة من عسكره فأبادهم بالسيف ولم يبق منهم إلا الشديد ولم يراع لهم ذمة ولا عهداً وذلك سنة أربع وستين فكانت هذه الواقعة من الوقائع التى تمكنت بها سلطنة صلاح الدين وعلت كلمته.

واشتد خوف الفرنجة بالشام من تملك أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين لمصر فقاموا فى سنة خمس وستين وخمسمائة وكاتبوا إخوانهم بصقلية والأندلس وغيرهما يستنجدونهم، يعرفونهم ما يتجدد من ملك الترك لمصر وأرسلوا جماعة يستنهضونهم فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح واستعدوا للنزول على دمياط فلما عزموا على الرحيل كان أسد الدين قد مات كما تقدم وملك صلاح الدين فاجتمعوا عليها

وحصروها وضيقوا على من بها فأرسل إليها صلاح الدين العساكر فى النيل وحشد فيها كل من عنده وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخافة ويقول إنى إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنجة وإن سرت إليها خلفنى المصريون فى أهلها بالشر وخرجوا عن طاعتى وساروا فى أثرى والفرنجة أمامى فلا يبقى لنا باقية فسير نور الدين العسكر إليه أرسالاً يتلو بعضهم بعضاً ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنجة الشامية فنهبها وأغار عليها واستباحها فوصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه قبل خلو البلاد من ممانع فلما رأى الفرنجة تتابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وتخريبها رجعوا ولم يظفروا بشيء وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً وأخرج فيها صلاح الدين من الأموال ما لا يكاد يدخل تحت الحصر، حكى أنه قال: ما رأيت أكرم من العاضد أرسل إلىَّ مرة لمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها وأرسل صلاح الدين إلى نور الدين والخليفة المستنجد بالله العباسى يعلمهما بأنه على عزم إعادة الخطبة إلى المستنجد بديار مصر ففرح الخليفة المستنجد وأرسل إلى نورالدين يستحثه على ذلك وظل المستنجد يتصرف فى الخلافة ويدبر أمرها جهد الاستطاعة حتى وافته المنية فى الثامن من ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة هجرية يقال إن سبب موته أنه مرض واشتد عليه المرض وكان قد خافه أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز القتفوى وهو حينئذ أكبر أمير فى بغداد فلما اشتد مرض الخليفة اتفقا ووصيا الطبيب على أن يصف له ما يؤذيه فوصف له دخول الحمام فامتنع لضعفه فأدخلوه هم قهراً وأغلقوا عليه بابه فمات وقيل إن الخليفة كتب إلى وزيره مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين وصلبهما فاجتمع ابن صفية بأستاذ الدار وأعطاه خط الخليفة فقال له تعود وتقول إننى أوصلت الخط إلى الوزير ففعل ذلك وحضر أستاذ الدار وقطب الدين ويزدن وأخوه تنامش وعرض الخط عليهم فاتفقوا على قتل الخليفة فلم يكن بأسرع من أن دخل عليه يزدن ومعه قايماز الحميدى فحملاه إلى الحمام وهو يستغيث وألقياه وأغلقا الباب عليه وهو يصيح إلى أن مات ، وكان بين وزير الخليفة أبى جعفر ابن البلدى وبين أستاذ الدار وقطب الدين عداوة مستحكمة لأن المستنجد بالله كان يأمر الوزير بأشياء تتعلق بهما فيفعلها فكانا يظنان أنه هو الذى يسعى بهما فلما مرض الخليفة وأرجف بموته ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهم بالعدد فلم يتحقق عنده خبر موته فأرسل إليه عضد الدين يقول إن أمير المؤمنين قد خف ما به

من المرض وأقبلت إليه العافية فخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة بالجند فربما أنكر عليه ذلك فعاد إلى داره وتفرق عنه الناس وكان عضد الدين أستاذ الدار وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير خوفاً منه إن دخل الدار أن يأخذهما فلما عاد أغلق أستاذ الدار أبواب الدار وأظهروا وفاة المستنجد وأحضر هو وقطب الدين أبا محمد الحسن ابن الخليفة المستنجد وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضئ بنور بالله وشرطا عليه شروطاً أن يكون عضد الدين وزيراً وابنه كمال الدين أستاذ الدار وقطب الدين أمير العسكر فأجابهم إلى ذلك فبايعه بعد ذلك أهل بيته البيعة الخاصة يوم توفى أبوه وبايعه الناس من الغد فى التاج البيعة العامة وعلم الوزير ابن البلدى بما جرى فسقط فى يده وقرع سنه ندماً على ما فرط من عوده وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضيء فمضى إلى دار الخلافة فلما دخلها صرف إلى موضع ثم دخل عليه جماعة فقتلوه وقطعوه قطعاً وألقوه فى دجلة وأخذوا جميع ما فى داره فرأوا فيها خطوط المستنجد بالله يأمره فيها بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين وخط الوزير قد راجعه فى ذلك وصرفه عنه فلما وقفا عليها عرفا براءته مما كان يظنان فيه فندما على تفريطهما فى قتله.

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلاً شهماً كثير الرفق بهم شديدًا على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس، قال صاحب الكامل: بلغنى أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لى إنساناً آخر مثله لأكف شره عن الناس ولم يطلقه قال وردّ كثيراً من الأموال إلى أصحابها وقبض على القاضى ابن المرخم وقد أخذ منه مالاً كثيراً فأعاده إلى أصحابه وكان ابن المرخم ظالماً جائراً فى أحكامه ا هـ.

ومات فى خلافة المستنجد آخر ستودولو بطرك الاسكندرية فكانت مدته ثلاثين سنة كلها إحن وشدائد وكان موته بكنيسة المعلقة بقصر الشمع بفسطاط مصر فبقى الكرسى خالياً مدة اثنين وسبعين يوماً ثم أقيم بعده كيرولس الثانى وهو سابع ستيهم كان حبيساً بصومعة سنجار واسمه جرجس من أهل أقلامه فأقام أربع عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصفاً لم يقع فيها من الحوادث شيء يذكر ومات بكنيسة المختار من جزيرة مصر المعروفة بالروضة وهو أول من عمل الكسوة البطريكية من ديباج أزرق

مائة وأربعة وعشرين يوماً ثم أقيم خائل وهو ثامن ستيهم وأصله من بلدة سخا وكان حبيساً بصومعة سنجار وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل الثالث والثلاثون)

(فى خلافة المستضىء بنور الله بن المستنجد)

ثم قام بالأمر بعد المستنجد أبو الحسن على المستضئ بنور الله بويع له بالخلافة يوم موت أبيه فى ثامن ربيع الثانى سنة ست وستين وخمسمائة هجرية أى سنة سبعين ومائة وألف ميلادية وخطب له باليمن والديار المصرية وقد كانت الخطبة العباسية منقطعة منها من زمن المطيع كما تقدم الكلام وكان صلاح الدين يوسف قد شرع من أيام المستنجد فى تمهيد الخطبة لبنى العباس فقطع الأذان بحىّ على خير العمل من ديار مصر كلها وعزل قضاة مصر لأنهم كانوا شيعة وولى أقضى القضاة بها صدر الدين بن درباس الشافعى واستناب فى سائر الأعمال شافعية فلما كانت سنة سبع وستين أمر صلاح الدين بإقامة الخطبة لبنى العباس بمصر أو جمعة من المحرم وبالقاهرة فى الجمعة الثانية فكان ذلك يوماً مشهوداً قالوا: والعجب إن أول من خطب للمعز حين أخذت مصر عمر بن عبد السميع الخطيب بجامع عمرو وبجامع ابن طولون فكان أول من خطب لبني العباس هذه النوبة شريف علوى يقال له: محمد بن الحسن بن أبى الضياء البعلبكى وسير صلاح الدين الخبر بذلك إلى نور الدين فأرسل نور الدين إلى الخليفة المستضئ يعلمه بذلك فزينت بغداد وأغلقت الأسواق وعملت القباب وفرح المسلمون فرحاً عظيماً قال ابن الجوزى: وقد ألفت فى ذلك اليوم كتاباً سميته النصر على مصر، وكتب العماد الكاتب صلاح الدين إلى نور الدين صاحب دمشق يبشره بذلك :

قد خطبنا للمستضيء بمصر   نائب المصطفى إمام العصر

فى أبيات قد أضربنا عن إيرادها هنا صفحا ، وقال بعض شعراء بغداد فى ذلك أبياتاً كثيرة منها :

ليهنك يا مولاى فتح تتابعت   إليك به خوص الركائب توجف
أخذت به مصراً وقد حال دونها   من الشرك ناس فيهم الحق يقذف
فعادت بحمد الله باسم إمامنا   تتيه على كل البلاد وتشرف

ولا غـرو أن ذلـت ليـوسف مـصـره وكـانــــت إلى عليـائــه تـتـشـوّف
تملكهــا من قـبـضـة الكفــر يـوسف وخلصـها من عـصبـة الرفض يوسف
كـشـفت بهـا عــــن آل هاشم سـيـأ وعــارا أبى إلا بـسـيـفك يكــشف

وهي طويلة . قــال صاحب حـسن المحاضـرة: قال أبو شـامة: أنشـدت هذه القصيدة للخليفة قـبل موته عند تأويل منام رؤى فى هذا المعنى وأراد بيوسف الثانى الخليفة المسـتنجد فلم يخطب إلا لولده المستضىء فجـرى الفأل باسم المـلك الناصر صـلاح الدين يوسف بن أيوب قــال صاحب الكامل: عنـد ذكر حوادث سنـة سبع وستين وخمسمائة، وفى هذه السنة فى ثانى جـمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لديـن الله أبـى محـمـد الإمام عبـد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله أبى الميـمون عبد المجيـد بن أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله أبـى تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمـر الله أبي عليّ المنصور بن نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد بن المنصور بالله أبى القاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبى القاسم محمد بن المـهدى بالله أبى محمد عبيـد الله وهو أول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم بالخلافة وخـوطبوا بإمرة أمير المؤمنين ، وكان السـبب فى إعادة الخطبة العباسية بمصر أن صلاح الـدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه بمصر وأزال المخالفين له وضعف أمر الخليفة العاضد وصـار يحكم فى قصره صلاح الدين ونائبة قراقوش الخصى وهو من أعـيان الأمـر اء الأسدية كلهم يرجـعون إليه فكتب إلـيه نور الدين محمد بن زنكى يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبـة المستضيئية فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخـوف من قيام أهل الديار المصرية عليـهم لميلهم إلى العلويين وكان صـلاح الدين يكره قطع الخطبـة لهم ويريد بقاءهم خـوفـاً من نور الدين فإنه كـان يخاف أن يدخل إلى الديار المصـرية فيأخـذها منه فكان يريد أن يكون العاضد مـعه حتى إذا قـصده نور الدين امتنع بـه وبأهل مصر عليـه. قال: فلما اعـتذر إلى نور الدين بذلك لم يقـبل عذره وألح عليه بقطع خطـبته وألزمـه إلزاماً لا فـسـحة له فى مخالفته وكان على الحقـيقة نائب نور الدين واتفق أن العاضد مرض فى هذا الوقت مرضاً شديداً فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراءه فمنهم من أشار به ولم يفكر فى المصـريين ومنهم من خافه إلا أنه لم يـمكنه إلا الامتثـال لأمر نور الدين وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجـمى يعرف بالأمير العالم رأيته أنا بالموصل فلما رأى ما هم فـيه من الإحجام وأن أحـداً لا يتجاسر يخطب للعـباسى قال: أنا أبتدئ بالخطبـة له فلما كـان أول جمعـة من المحرم صعـد المنبر قـبل الخطيب ودعا

للمستضىء ففعلوا ذلك فلم ينتطح فيه عنزان وكتب بذلك إلى سائر بلاد مصر ففعلوا وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله ولا من أصحابه بقطع الخطبة وقالوا: إن عوفى فهو يعلم، وإن توفى فلا ينبغى أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته فتوفى يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة، فلما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش الذى كان رتبه قبل موت العاضد فحمل الجميع إلى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الإحصاء وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله ومن الجواهر التى لم توجد عند غيرهم فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالاً قال: أنا لا أشك فإننى رأيته ووزنته واللؤلؤ الذى لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذى طوله أربع أصابع فى عرض عقد كبير ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالتحفظ عليه فلما رأوه ظنوه عمل لأجل اللعب به فسخروا من العاضد فأخذه إنسان فضرب به فضرط فتضاحكوا منه ثم آخر كذلك، وكان كل من ضرب عليه يضرط فألقاه أحدهم فكسره فإذا الطبل عمل لأجل القولنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك. **قلت**: وهو موضع للنظر، قال: وكان فيه من الكتب النفيسة المعدومة المثال ما لايعد فباع بعض من فيه من أمة وعبد وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه كأن لم يغن بالأمس فسبحان الحى الدائم الذى لايزول ملكه ولا تغيره الدهور ولا يقرب النقص حماه ولما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يمض إليه فلما توفى علم صدقه فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيراً بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه وانقياده، وكان فى نسبه تسعة خطب لهم بالخلافة وهم الحافظ والمستنصر والظاهر والحاكم والعزيز والمعز والمنصور والقائم والمهدى، ومنهم من لم يخطب له بالخلافة وهو أبوه يوسف بن الحافظ وجد أبيه وهو الأمير أبو القائم محمد بن المستنصر وبقى من خطب له بالخلافة وليس من آبائه: وهم المستعلى والآمر والظافر والفائز وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة منهم بأفريقية المهدى والقائم والمنصور والمعز إلى أن سار إلى مصر، ومنهم بمصر المعز المذكور وهو أول من خرج إليها من أفريقية والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد ومدة حكمهم من حين ظهور المهدى بسلجماسة فى ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى أن مات العاضد مائتان واثنتان وسبعون سنة وشهر تقريباً وهذا دأب الدنيا لم تسكن إلا

اضطربت ولـم تعط إلا اسـتلبت مـا وهبت ولم تحل إلا وتمـررت ولم تصف إلا وتكدرت بل صفـوها لا يخلو من الكدر وكدرها قـد يخلو من الصفـو. نسأل الله تعالى أن يقبل بقـلوبنا إليه ويرينا الدنيا حقيـقة ويزهدنا فيهـا ويرغبنا فى الآخرة إنه سمـيع الدعاء قـريب من الإجابة قال ابن خلكان: سـمعت جماعـة من المصريين يقولون إن هؤلاء القوم يريدون العبيديين فى أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء اكتب لنا ألقاباً فى ورقة تصلح للخلفاء حتى إذا تولى واحد منا لقبوه ببعض تلك الألقاب فكتب لهم ألقـاباً وآخر مـا كتب فى الورقـة العاضـد فاتفق أن آخـر من ولى منهم العاضد أهـ.

قال ابن الأثير: ومن الغريب أن العاضد فى اللغة: القاطع، وفى الحديث: لا يعضد شجرها فبالعاضد قطعت دولة بنى عبيد ، قلت وزالت من ديار مصر وانمحت آثارها وقامت مكانها الدولة الأيوبية .

ولما وصلت البشائر إلى بغداد بإعادة الخطبة للخليفة العباسى كما سبقت الإشارة إلى ذلك سيّر الخليفة الخلع مع عمـاد الدين صندل وهو من خواص الخدم والمقدمين فى الدولة لنور الدين وصلاح الدين فسار صندل إلى نور الدين وألبسه الخلعة وسيّر الخلعة إلى صلاح الدين بالديار المصرية والأعـلام السود ثم أرسل الخليفة إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف كتاب التقليد ولم نحجم عن إيراده هنا مع طوله تتميماً للفائدة قال : أما بعد فإن أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذى يكون لكل خطبة قياداً ، ولكل أمر مهاداً ، ويستزيده على نعمتـه التى جعلت التقوى له زاداً ، وحمله أعباء الخلافـة فلم يضق عنه طوقا ولم يـأل فيه اجـتهاداً ، وصـغر لديه أمـر الدنيا فـما تسورّت له محراباً ولا عرضت له جيـاداً ، وحققت فيه قوله تعالى: ﴿ **تـلك الـدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا** ﴾، ثم يصلـى على من أنزلت الملائكة لنصره أمداداً، وأسرى به إلى السماء حتى ارتقى سبعاً شداداً ، وتجلى له ربه فلم يزغ منه بصـر ولا كـذب فؤاداً ، ثم من بعـده على أسـرته الطاهرة التى زكت أوراقاً وأعواداً ، وورثت النور المبين بلاداً ، ووصفت بأنها آخر الثقلين هداية وإرشاداً ، وخصوصاً عمه العباس المدعو له بأن يحفظ نفساً وأولاداً، وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خـالدة لا تخاف دركاً ولا تخشى نفاداً، وإذ استـوفى القلم مراده من هذه الحمدلة، وأنبأ القول فيها عن فصاحته المرسلة، فإنه يأخذ فى إنشاء هذا التقليد الذى جعله حليفـاً لقرطاسه ، واستدام سجوده على صـفحته حتى لم يكد يرفع من راسه، وليس ذلك إلا قناصة فى وصف المناقب التى كثرت فحسن لها مقام الإكثار،

واشتبه الطويل فيها بالاختصار وهى التى لا يعزى واصفها إلى القول المعاد، ولم يستوعر سلوك أطوادها ومن العجب وجود السهل فى سلوك الأطواد ، وتلك هى مناقبك أيها الملك الناصر السيد الأجل الكبير العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب والديوان العزيز يتلوها عليك تحدثاً بشكرك، ويباهى أولياءه تنويها بذكرك، ويقول أنت الذى تستكفى فتكون للدولة سهمها الصائب، وشهابها الثاقب، وكنزها الذى تذهب الكنوز وليس بذاهب ، وحاضرها وقد حضرت فى نصرتها إذا كان غيرك هو الغائب ، فاشكر إذا مساعيك التى أهلتك لما أهلتك، وفضلتك على الأولياء بما فضلتك، ولئن شوركت فى الولاء بعقيدة الإضمار، فلم تشارك فى عزمك الذى انتصر للدولة بسطة الانتصار، وفرق بين من أمدّ بقلبه وبين من أمدّ بيده فى درجات الإمداد، وما جعل الله القاعد كالذى قال لو أمرتنا لضربنا أكبادها إلى برك الغماد، وقد كفاك من المساعى أنك كفيت الخلافة أمر منازعيها، وطمست على الدعوة الكاذبة التى كانت تدعيها، ولقد مضى عليها زمن ومحراب حقها محفوف من الباطل بمحرابين ، ورأيت ما رآه رسول الله ﷺ من السوارين اللذين أولهما كذا بين ، فبمصر منهما واحد تجرى أنهارها من تحته ودعا الناس إلى عبادة طاغوته وجبته ، ولعب بالدين حتى لم يدر يوم جمعته من يوم أحده ولا يوم سبته، وأعانه على ذلك قوم رمى الله بصائرهم بالعمى والصمم، واتخذوه صنما ولم تكن الضلالة هناك إلا لعجل أو صنم، فقمت أنت فى وجه باطله حتى قعد ، وجعلت فى جيده حبلاً من مسد ، وقلت ليده تبت فأصبح ولا يسعى بقدم ولا يبطش بيد ، وكذلك فعلت بالآخر الذى نجمت باليمن ناجمته، وسامت فيه سائمته ، فوضع بيته موضع الكعبة اليمانية ، وقال هذا ذو الخلصة الثانية، فأى مقاميك يعترف الإسلام بسبقه، أم أيهما يقوم بأداء حقه، وههنا فليصبح القلم للسيف من الحساد ، ولتقصر مكانته من مكانته وقد كان له من الأنداد ، ولم يحط بهذه المزية إلا أنه أصبح لك صاحباً ، وفخر بك حتى طار فخراً كما عز جانباً، وقضى بولايتك فكان بها قاضياً لما كان حده ماضياً ، وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غوراً ونجداً ، وما اشتملت عليه رعية وجنداً ، وما انتهت إليها أطرافها براً وبحراً ، وما تستنفذه من مجاوريها مسالمة وقهراً ، وأضاف إليها بلاد الشام وما تحتوى عليه من المدن الممدنة ، والمراكز المحصنة ، مستثنياً منها ما هو بيد نور الدين إسماعيل بن نور الدين محمد رحمه الله وهو حلب وأعمالها فقد مضى أبوه عن آثار فى الإسلام ترفع ذكره فى الذاكرين، وتخلفه فى عقبه فى الفائزين،

وولده هذا قد هـذبته الفطرة فى القـول والعمل، وليـست هـذه الربوة إلا من ذاك الجبل، فليكن له منك جار تدنو منه وداداً كما دنا أرضاً، وتصبح وهو لك كالبنيان يشدّ بعـضه بعـضاً ، والذى قدمناه من الثناء علـيك ربما تجاوزتك درجة الاقتـصاد، وألقتك عن فضيلة الازدياد، فاياك أن تنظر إلى سعيك نظر الإعجاب، فتقول هذه بلادنا افتتحتها بعـد أن أضرب عنها كثير من الأضراب، ولكن اعـلم أن الأرض لله ورسوله ثم لخليفته من بعده ، فلا منة للعبد بإسلامه بل المنة لله بهداية عبده ، وكم سلف قبلك ممن لو رام ما رمتـه لدنا شاسعه ، وأجلب مـانعه، لكن ذخـره الله لك لتحظى فى الآخرة بمفازه، وفى الدنيـا برقم طرازه، فألق بيدك عن هذا القول إلقاء التسليم، وقل لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، وقد قـرن تقليدك هذا بخلعة تكون لك فى الإسلام شعاراً، وفى الرسم فخاراً، وتناسب محل قلبك وبصرك، وخير ملابس الأولياء ما ناسب قلوبنا وأبصارنا ، ومن جملتها طوق يوضع فى عنقك مـوضع العهـد والميثـاق، ويشـير إليك بأن الإنعـام قد أطاف بك إطافـة الأطـواق بـالأعـنـاق، ثم إنك خـوطبت بالملـك وذلك خطاب يفـضى لصـدرك بالانشراح، ولأملك بالانفـساح، وتؤمر معه بمدّ يدك العليـا لا تضعها إلى الجناح، وهذه الثلاثة المشار إليها هى التى تكمل بها أقسام السيادة، وهى التى لا مزيد عليها فى الإحسان فيـقال إنها الحسنى وزيادة، فإذا صارت إليك فـانصب لها يوماً يكون فى الأيام كريم الأنساب، واجعله لها عيداً وقل هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب، هذا ولك عند أمير المؤمنين مكانة تجعله لك حاضراً وأنت ناء عن الحضور، وتضن أن تكون مشتركة بينك وبين غيرك والضنة من شم الغيور ، وهذه المكانة قد عرّفتك نفسها ومـا كنت تعرفها ، وما تقول إلا أنها لك صاحـبة وأنت يوسفها ، فاحرسـها عليك حراسة تقضى بتـقديمها ، واعمل لها فإن الأعمـال بخواتيمها، واعلـم أنك تقلدت أمراً يفتتن به التقى الحلوم، ولاينفك صـاحبه عن عهدة الملوم ، وكثيرا ما ترى حسناته يوم القيامة وهى منقـسمة بأيدى الخصوم، ولا ينجـو من ذلك إلا من أخذ أهبـة الحذار، وأشفق من شهـادة الأسماع والأبصار، وعلم أن الولاية مـيزان إحدى كفتـيه فى الجنة والأخرى فى النار، قـال النبى ﷺ : «يا أبا بكر إنى أحب لك ما أحبـه لنفسى لا تؤمرن على اثنين ولا تولين مال يتـيم» فانظر إلى هذا القول النبوى نظر من لم يخدع بحـديث الحرص والآمال ، ومثل الدنيا وقـد سيقت إليك بحذافيرها أليس مصيرها إلى الزوال، والسعيد من إذا جاءته قضى بها أرب الأرواح لا أرب الجسوم ، واتخذ منها وهى السم دواء وقد تتخذ الأدوية من السموم، وما

الاغتباط بما يختلف على تلاشيه المساء والصباح ، وهو كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، والله يعصم أمير المؤمنين وولاة أمره من تبعاتها التى لابستهم ولابسوها ، وأحصاها الله ونسوها ، ولك أنت من هذا الدعاء حظ على قدر محلك من العناية التى جذبت بضبعك ، ومحلك من الولاية التى بسطت من ذرعك، فخذ هذا الأمر الذى تقلدته أخذ من لم يتعقبه بالنسيان، وكن فى رعاية من إذا نامت عيناه كان قلبه يقظان، وملاك ذلك كله فى إسباغ العدل الذى جعله الله ثالث الحديث والكتاب، وأغنى بثوابه وحده عن أعمال الثواب، وقدّر يومنا منه بعباده ستين عاماً فى الحساب، ولم يأتمر به أمير إلا زيد قوة فى أمره، وتحصن به من عدوه ومن دهره ، وثم يجاء به يوم القيامة وفى يده كتاب أمان، ويجلس على منبر من نور على يمين الرحمن، ومع هذا فإن مركبه صعب لا يستوى على ظهره إلا من أمسك عنان نفسه قبل عنانه، وغلبت لمة ملكه على لمة شيطانه، ومن أكبر فروضه أن تمحى السير السيئة التى طالت مدد أيامها، وأيس الرعايا من رفع ظلاماتها فلم يجعلوا أمداً لانحسار ظلامها، تلك السير هى المكوس التى أنشأتها الهمم الحقيرة، ولا غنى للايدى الغنية إذا كانت ذات نفوس فقيرة، وكلما زيدت الأموال الحاصلة منها قدراً زادها الله محقاً ، وقد استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الموجبة فسموها حقاً، ولولا أن صاحبها أعظم الناس جرماً لما أغلظ فى عقابه، وقبلت توبة المرأة الغامدية بمتابه، وهى أشقى من يكون السواد الأعظم له خصماً، ويصبح وهو مطالب بما يعلم وبما لم يحط به علماً ، وأنت مأمور بأن تأبى هذه الظلامات فتنهى عن إجرائها ، وتلحق أسماءها فى المحو وإهمالها ، حتى لايبقى لها فى العيان صورة منظوره، ولا فى الألسنة أحاديث مذكوره، وإذا فعلت ذلك أزلت عن الماضى سنة سوء سنتها يداه فبادر إلى ما أمرت به مبادرة من يضيق به ذراعاً ، ونظر إلى الحياة الدنيا بعينها فرآها فى الآخرة متاعاً، وأحمد الله على أن قيض لك إماما مهديا يقف بك على هداك، ويأخذ بحجزتك عن خطوات الشيطان الذى هو أعدى عداك، وهذه البلاد المنوطة بنظرك تشتمل على أطراف متباعدة، وتفتقر فى سياستها إلى أيد متساعده، ولهذا يكثر بها قضاة الأحكام ، وأولو تدبيرات السيوف والأقلام، وكل من هؤلاء ينبغى أن يفتن على الاختبار، ويسلط عليه شاهد عدل من أمانته الدرهم والدينار ، فما أضل الناس شىء كحب المال الذى فرقت من أجله الأديان ، وهجرت بسببه الأولاد والإخوان، وكثيراً ما يرى الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الأوثان ، فإذا استعنت بأحد

منهم على شيء من أمرك فاضرب عليه بالإرصاد، ولاترض بما عرفته من مبدأ حاله فإن الأحوال تنقل بتنقل الأجساد، وإياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد ، وكذلك تأمر هؤلاء على اختلاف طبقاتهم بأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر محاسبين، ويعلموا أن ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهم الغالبين، وليبدءوا أولا بأنفسهم فيعدلوها عن هواها، ويأمروها بما يأمرون به سواها، ولايكون ممن هدي إلى طريق البر وهو عنها حائد، وانتصب لطب المرضى وهو محتاج إلى طبيب وعائد ، فما تنزل بركات السماء إلا على من خاف مقام ربه، والزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه ، فإذا صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم ، وهم لهم بمنزلة المصابيح ولايستضيء كل قوم إلا بمصابيحهم ، ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم إخوانا فى الأصحاب وجيرانا فى الاقتراب، وأعواناً فى توزع الحمل الذى يثقل على الرقاب ، فالمسلم أخو المسلم وإن كان عليه أميراً، وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كبيراً ، وليست الولاية لمن يستنجد بها كثرة اللفيف ، ويتولاها بالوطء العنيف ، ولكنها لمن يمال عن جوانبه، ويؤكل من أطايبه، ولمن إذا غضب لم ير للغضب عنده أثر، وإذا ألحف فى سؤاله تخلق بخلق الضجر ، وإذا حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم فى قسمة القول والنظر ، فذلك الذى يكون صاحبه فى أصحاب اليمين ، والذى يدعى بالحفيظ العليم والقوى الأمين، ومن سعادة المرء أن تكون ولاته متأدبين بآداب، وجارين على نهج صوابه، وإذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسنات مثبتة فى كتابه ، وبعد الوصية فإن ههنا حسنة للحسنات كالأم للولد ولطالما أغنت عن صاحبها إغناء الجود ، وتيقظت لنصره والعيون رقود ، وهى التى تسعى لها اللالاء، ولايتخطاها البلاء، ولأمير المؤمنين عناية يتبعها الرحمة الموضوعة فى قلبه ، والرغبة فى المغفرة والرحمة لما تقدم وتأخر من ذنبه ، وتلك هى الصدقة التى فضل الله بعض عباده بمزية أفضالها، وجعلها سبباً إلى التعويض عنها بعشر أمثالها، وهو يأمرك أن تتفقد أحوال الفقراء الذين قدرت عليهم مادة الأرزاق، وألبسهم التعفف ثوب الغنى وهم فى ضيق من الإملاق ، فأولئك أولياء الله الذين مستهم الضراء فصبروا، وكثرت الدنيا فى يد غيرهم فما نظروا إليها إذا نظروا ، وينبغى لك أن تهيئ لهم من أمرهم مرفقاً ، وتضرب بينهم وبين الفقر موبقا، وما أطلنا لك القول فى هذه الوصية إلا إعلاماً بأنها من المهم الذى يستقبل ولا يستدبر، ويستكثر منه ولا يستكبر، وهذا يعد من جهاد النفس فى بذل المال، ويتلوه جهاد العدو الكافر فى

مواقف القتال ، وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه بما يجعل السيف في ملازمته أخاً ، وتسخو له بنفسك إن كان أحد بنفسه سخا ، ومن صفاته أنه العمل المصحوب بفضل الكرامة ، الذى ينمو أجره بعد صاحبه إلى يوم القيامة ، وبه يمتحن طاعة الخالق على المخلوق ، وكل الأعمال عاطلة لا خلوق لها وهو المختص دونها بزينة الخلوق ، ولولا فضله لما كان محسوباً بشطر الإيمان ، ولما جعل الله الجنة ثمناً وليست لغيره من الأثمان ، وقد علمت أن العدو هو جارك الأدنى ، والذى يبلغك وتبلغه عينا وأذنا ، ولتكن للإسلام نعم الجار ، حتى لايكون له بئس الجار ، ولاعذر لك فى جهاده بنفسك ومالك إذا قامت لغيرك الأعذار ، وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصافحاً ، أو تطرق أرضه مماسياً أو مصابحاً ، بل يريد أن تقصد البلاد التى فى يد عدوّه قصد المغير ، وأن تحكم فيها بحكم الله الذى قضاه على لسان سعد فى بنى قريظة والنضير ، وعلى الخصوص البيت المقدس فإنه بلد السلام القديم ، وأخو البيت الحرام فى الشرف والتعظيم ، والذى توجهت إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم وقد أصبح وهو يشكو طول الوحشة فى غربتها عنه وغربته فأنهض إليه نهضة تتوغل فى قرعه وتبدل صعب قياده بسمحه ، وإن كان له عام حديبية فأتبعه بعام فتحه ، وهذه الاستزادة بعد سداد ما فى اليد من ثغر كان مهملاً فحميت موارده ، أو مستهدماً فرفعت قواعده ، ومن أهمها ما كان حاضر البحر كأنه أعمى عورته مكشوفة، وخطته مخوفة، والعدو قريب منه على بعده ، وكثيراً ما يأتيه فجأة حتى يثق برقه برعده ، فينبغى أن ترتب بهذه الثغور رابطة يكثر شجعانها ، ويقل أقرانها ، ويكون قتالها لأن تكون كلمة الله العليا لا لأنه يرى مكانها ، وحينئذ يصبح كل منها وله من الرجال أسرار ، وتعلم أهله أن نبأ السيف أمنع من نبأ الأخبار ، ومع هذا فلابدّ له من أسطول يكثر عدده ، ويقوى مدده ، فإنه العمدة التى تعين على كشف العماء ، والاستكثار من سبايا العبيد والإماء ، وجيشه أخو الجيش السليمانى فذاك يسرى على متن الريح وهذا يجرى على متن الماء ، ومن صفات خيله أنها جمعت بين العوم والمطار ، وتساوت أقدار خلقتها على اختلاف مّدة الأعمار ، فإذا أسرعت قيل جبال متلفعة بقطع من الغيوم ، وإذا نظر إلى أشكالها قيل أهلة غير أنها تهدى فى مسيرها بالنجوم ، ومثل هذا الخيل ينبغى أن يغالى فى جيادها ، ويكثر من قيادها ، وتؤمر عليها أميراً يلقى البحر بمثله من سعة صدره ، ويسلك طرقه سلوك من لم تقتله بجهلها ولكن قتلها بخبره ، وكذلك فليكن ممن أفنت الأيام تجاربه وزاحمتها مناكبه ، وممن يذل الصعب إذا هو ساسه وإن سيس لين جانبه ، وهذا هو الرجل

الذى يرأس القوم فلا يجد هزة بالرياسه ، فإن كان فى الساقة ففى الساق أو كان فى الحراسة ففي الحراسة ولقد أفلحت عصابة اعتصبت من ورائه ، وأيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالنجح من روائه ، واعلم أنه قد أخل من الجهاد بركن يقدح فى علمه وهو تمامه الذى يأتى فى آخره كما أن صدق النية تأتى فى أوله ، وذلك هو قسم الغنائم فإن الأيدى قد تناولته بالإجحاف ، وخلطت جهادها فيه بغلولها فلم ترجع بالكفاف ، والله قد جعل الظلم فى تعدّى حدوده المحدوده، وجعل الاستئثار بالمغنم من أشراط الساعة الموعوده ، ونحن نعوذ به أن يكون زماننا هذا شر زمان والناس به شر ناس ، لا ممن يستخلفنا على حفظ أركان دينه ثم نهمل إهمال مضيع ولا إهمال ناس ، والذى نأمرك به أن تجرى هذا الأمر على المنصوص من حكمه ، وتبرئ من ذمتك مما يكون غيرك الفائز بفوائده وأنت المطالب بإثمه ، وفى أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ما يغنيهم عن هذه الأكلة التى تكون غداً نكالاً وجحيماً ، وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً ، فتصفح ما سطرناه لك من هذه الأساطير التى هى عزائم مبرمات ، بل آيات محكمات ، وتحبب إلى الله وإلى أمير المؤمنين باقتفاء كتابها ، وابن لك بها مجداً يبقى فى عقبك إذا أصبيت البيوت فى أعقابها ، وهذا الذى ينطق عليك بأنه لم يأل فى الوصايا التى أوصاها ، فإنه لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ثم إنه قد ختم بدعوات دعا بها أمير المؤمنين عند ختامه ، وسأل فيها خيرة الله التى تتنزل من أبر منزلة نظامه ، ثم قال إنى أشهدك على ما قلدته شهادة تكون عليه رقيبة وله حسيبة فإنى لم آمره إلا بأوامر الحق التى فيها موعظة وذكرى ، ولمن تبعها هدى ورحمة وبشرى ، وإذا أخذ بها فلج بحجته يوماً يسأل فيه عن الحجج ، ولم يختلج دون رسوله على الحوض فى جملة من يختلج ، وقيل له لا حرج عليك ولا إثم إذا نجوت من ورطات الإثم والحرج والسلام ا. هـ.

وفرح يوسف بهذا التقليد فرحاً لايوصف وأمر فضربوا البشائر وسيرها إلى الآفاق وعملت الولائم والأفراح أياماً وامتدحه الشعراء وتواردت عليه التهانى من أقطار البلاد شرقاً وغرباً فتقوّت عزيمته وثبت جأشه وتاقت نفسه إلى الغزو والجهاد ومنع إغارات الإفرنجة فسير جيشاً إلى بلاد الفرنجة الشامية وسار هو خلف الجيش حتى نزل على أعمال عسقلان فأغار عليها وعلى الرملة وهجم على ربض غزة فنهبه وأتاه ملك الفرنجة فى قلة مسرعين لرده عن البلاد فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنجة هارباً، ثم عاد صلاح الدين يوسف إلى مصر فعمل مراكب مفصلة وحملها قطعاً على الجمال فى البر وقصد أيلة فجمع قطع المراكب وأنزلها فى الماء وحصر أيلة

براً وبحراً وفتحها عـنوة واستباح أهلها وما فيها ثم عاد غانمـا إلى مصر فجاءت إليه الأخبار بخـروج العرب بالأقاليم القـبلية وأنهم عاثوا وأفسـدوا وقتلوا ونهبوا فـسير لقتالهم أخاه تورانشاه فى عسكر كبير فـقاتلهم وقهرهم وسامهم الخسف حتى دخلوا تحت الطاعة وانكـفوا عن الفسـاد وانكمش كبارهم خـوفاً من صـلاح الدين وبطشه واتسعت كلمة صلاح الدين وطار صيته وأجله ملوك الفرنجة وحسبوا ما وراء ظهوره واتساع كلمته وحسده نور الدين صاحب الشام وكبر عليه ظهوره ، واتفق أن صلاح الدين يوسف سار عن مصر فى صـفر سنة سبع وستين وخمسـمائة إلى بلاد الفرنجة غازيا ونازل حصون الشوبك وبينه وبين الكرك يوم ليس إلا وحـصرها وضيق عليها وشدّد على من بها من طوائف الفـرنجة ودام القتال فطلبوا الأمان واستـمهلوا عشرة أيام فـأجابهم صـلاح الدين إلى ذلك فلمـا سمع نور الـدين بما فعله صـلاح الدين داخله الريب وحرك فؤاده الحسد فسار على عجل من دمشق قاصداً بلاد الفرنجة أيضاً ليدخل إليهـا من جهة أخرى فكلم صلاح الدين يوسف أصـحابه فى أمر نور الدين ومسيـره إلى بلاد الفرنجة فقالوا له: إن دخل نور الدين بلاد الفـرنجة على هذا الحال أنت من جانب ونور الدين من جانب ملكها نور الدين ومتى زال الفرنجة عن الطريق وأخذ ملكهـم لم يبق لك بديار مصـر مقام مع نور الدين وإن جـاء نور الدين إليك وأنت ههنا فلابد لك من الاجتماع به وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما شاء إن شاء تركك أو لا فـقد لا تقدر علـى الامتناع عليـه والمصلحة الرجـوع إلى مصـر فأذعن صلاح الدين إلى قولهم وأخذ برأيهم وأمر بالرحيل عن الشـوبك مسرعين إلى مصر ولم يأخذ من الفرنجة شيئاً وكتب إلى نور الـدين يعتذر باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين فيها وأنهم عازمون على الوثوب بها وأنه يخاف عليها إذا بعد عنهـا أن يقوم أهلها على مـن تخلف بها فيـخرجوهم وتعـود ممتنعة وأطال الاعتذار فلمـا وصل كتابه إلى نور الدين تغيـر حاله وتحرك بغضه الذى كـان يكتمه على يوسف وعلم أن ذلك من يوسف حيلة ومكر وعزم على قصـد مصر وإخراجه عنها وجعل يتهيأ لذلك فسمع صلاح الدين بالخـبر فخاف العاقبة وجمع أهله وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمى ومـعهم سائر الأمراء وأعلمهم بما بلغه من عـزم نور الدين وحركته إليـه واستشارهم فلم يجـبه أحد بكلمة فـقام تقى الدين عمـر ابن أخى صلاح الدين فقال إذا جـاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد فـوافقه غـيره مـن أهلهم وبالغـوا فى القـول فتطاول عـليهم نجـم الدين أيوب وأنكر ذلك واستـعظمه وسفه على تقى الديـن وأقعده وقال لصـلاح الدين أنا أبوك وهذا خالك

شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى والله لو رأيته أنا وهذا خالك نورالدين لم نمكث إلا أن نقتل بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فإذا كنا نحن هكذا فما بالك بغيرنا وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات فى سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها فإن أراد سمعنا وأطعنا والرأى أن تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه: بلغنى أنك تريد الحركة إلى البلاد فأى حاجة إلى هذا يرسل المولى نجابا يضع فى رقبتى منديلاً ويأخذنى إليك وما ههنا ما يمتنع ، وقام الأمراء وغيرهم وتفرقوا على هذا الحال فلما خلا به أيوب قال له بأى عقل فعلت هذا أما تعلم أن نور الدين إذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه إليه وحينئذ لا تقوى عليه وأما الآن فإذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا والأقدار تعمل عملها ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل ففعل صلاح الدين يوسف ما أشار به أبوه فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره وأرسل صلاح الدين يعتذر إلى نور الدين من نفسه بالحركة على ما يقرّره نور الدين فاستقرت القاعدة بينهما على أن صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نور الدين من دمشق لغزو الفرنجة فأيهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه فسار صلاح الدين من مصر فى عسكر عظيم فى شوال من السنة لأن طريقه أبعد وأشق فوصل إلى الكرك وحصره وأما نور الدين فإنه لما وصل إليه كتاب صلاح الدين بخروجه من مصر فرق الأموال وحصل الأزواد وما يحتاج إليه وسار إلى الكرك فوصل إلى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان فلما سمع صلاح الدين بقربه خافه هو وجميع أهله واتفق رأيهم على العود إلى مصر وترك الاجتماع بنور الدين لأنهم علموا أنهم إن اجتمعوا به كان عزل صلاح الدين يوسف على نور الدين سهلاً فأمر صلاح الدين جنوده بالرحيل فرحلوا مسرعين وأرسل صلاح الدين الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر وإنه مريض شديد المرض ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد من أيديهم وأرسل معه من التحف والهدايا شيئاً كثيراً فجاء الرسول إلى نور الدين وأعلمه بذلك فعظم عليه وعلم المراد من عود صلاح الدين وداخله ما داخله من الغيظ والكدر وعزم على قصد يوسف ، ولما وصل صلاح الدين إلى مصر وجد أن أباه نجم الدين أيوب قد مات وكان سبب موته أنه ركب فرسه يوماً بمصر فبينما هو سائر إذ جفل الفرس فدقه بالأرض دقة شديدة فحملوه إلى داره فلم يلبث إلا

يومين ومات فحزن عليه يوسف وبكاه وأقــام بمصر يفكر فيما سيكون من نور الدين بعد تركه إياه فى الكرك وعدم لقــائه به فعلم أن نور الدين حانق من ذلك وأنه على عزم الحركة فزاد خوفه وسقط فى يده وجمع أهله، وكلمهم فى الأمر وقال لهم: إن نور الدين على عزم الدخــول إلى مصر فاستــقر الرأى بينهم على أنهم يملكون بلاد النوبة أو بلاد اليــمن حتى إذا وصل إليــهم نور الدين لقــوه وصدّوه عن البــلاد فإن قدروا على منعه أقــاموا بمصر وإن عجزوا عن منعــه ركبوا البحر ولحــقوا البلاد التى افتتــحوها فجهز صــلاح الدين أخاه شمس الدولة تورانشاه فى عــسكر عظيم وسيرّه إلى بلاد النوبة فوصل إلى جزيرة أسوان ثم سار منها إلى قلعة ابريم فحصرها وقاتله أهلها قتالاً شديداً فلم يتغلبوا عليه لأنهم لم تكن لهم جنة تقيهم السهام وغيرها من آلات الحرب فسلموه القلعة فملكها تورانشــاه وأقام بها ولم ير فى البلاد شيئاً يرغب فيه وتحتمل المشاق لأجله ثم شق عليه مــا لقيه من شظف العيش مع مباشرة الحروب ومعاناة الكروب والخطوب فترك البلاد وعاد إلى مصر بما غنم من الإماء والعبيد.

وظهر لصلاح الدين يوسف أن جماعة من كبار الدولة يريدون الإيقاع به وإعادة ذرية العلويين وذلك أنه كان قد اجتمع جماعة من الشيعة منهم عمارة بن أبى الحسن اليمنى الشاعر وعــبد الصمد الكاتب والقاضى العويرس وداعــى الدعاة وغيرهم من جند المصريــين ورجالهم السودان وحــاشية القــصر ووافقــهم على ذلك جمــاعة من الأمراء التابعين لصلاح الدين وجنده وتقرّرت القاعدة بينهم على استدعاء الفرنجة من صقلية ومن ساحل الشام إلى مصر على شيء يبذلوه لهم من المال والبلاد فإذا قصدوا مصــر فإن خرج صلاح الدين بنــفسه لقتــالهم ثاروا هم فى القاهرة ومصــر وأعادوا الدولة العلوية وعاد من معه من العسكر الذين وافقــوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الفرنجة وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العسكر للقتال ثاروا به وأخذوه باليد لعدم الناصــر له وقال لهم عمــارة وأنا قد أبعــدت أخاه إلى اليــمن خوفــاً أن يسد مــسده وتجتمع الكلمــة عليه بعده وأرسلوا إلى الفرنجة وصقليــة والساحل فى ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق إلا رحيل الفرنجة وكان جــماعة المصريين قد أدخلوا معهم فى هذه المؤامــرة زين الدين على بن نجــا الواعظ والقاضى المعــروف بابن بحــية ورتبــوا الخليــفة من ذريــة العلويين والوزير والحــاجب والداعى وقاضــى القضــاة إلا أن بنى رزيك قالوا يكون الوزير منا وبنو شاور والقاضى قالوا يكون الوزير منا وكلاهما من بيت الوزارة بمصر فلمــا علم ابن نجا الحال دخل على صــلاح الدين وأعلمه حقيــقة الخبر فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون فعله وتعريفه ما يتجدّد

أولاً فأولا ففعل وصار يطالعه بكل ما عـزموا عليه ثم وصل رسول من بلاد الفرنجة بالسـاحل بهدية ورسالـة وهى فى الظاهر إلى صلاح الدين وفى البـاطن إلى أولئك الجماعة وكان يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنجة بما كان من سر خصومه فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق به من النصارى وداخله فأخبره الرسول بالخبـر على الحقيقة فقبض صلاح الدين فى الحال على المقدمين فى هذه الحادثة منهم عمـارة وعبد الصمد الكاتب والعويرس وغيرهم وأمر بصلبهم فصلبوا وبقوا كذلك أياما ، وقيل فى كشف أمرهم أيضاً عبارة أخرى وهى أنه كان بين عـبد الصمد الكاتب وبين القاضى الفـاضل الصلاحى مودّة فكان إذا لقى القاضى يخدمه ويتقرب إليه بجهـده وطاقته فلقيه يوماً فلم يلتفت إليه فقال القاضى الفاضل ما هذا إلا لسبب وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين فأحـضر على بن نجا الواعظ وأخـبره بالأمر وقـال: أريد أن تكشف لى الأمر فسعى فى كـشفه فلم ير له من جانب صـلاح الدين شيئاً فعـدل إلى الجانب الآخر فكشف الحال وحضر عند القاضى الفاضل وأعلمه فـقال: تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهى الحال إليه فحضر عند صـلاح الدين وهو فى الجامع وذكر له الحال فقام وأخذ الجماعة وقررهم فأقروا فأمر بصلبـهم جميعاً وكان بين عمارة والفاضل عداوة من أيام العاضد وقـبلها فلما أراد صلاح الدين صلبه قام القـاضى الفاضل وخاطب صلاح الدين فى إطلاقـه فظن عمارة أنه يحـرض على هلاكه فقـال لصلاح الدين: يامولانا لاتسمع منه فى حقى فغضب الفـاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة إنه كان يشفع فيـك فندم فأخرج عمارة ليصلب فطلب أن يمـر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فأغلق بابه ولم يجتمع به فقال عمارة :

عبد الرحيم قد إحتجب　　　إن الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجـماعـة ونودى فى أجناد المصـريين بالرحـيل من ديار مصـر ومفارقتها إلى أقاصى الصعيـد وأحيط بمن بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله ولم يتعرض صـلاح الدين للذين نافقوا عليه من جنده ولا أعلمـهم أنه علم بحالهم فكانت هذه الحادثة من أعظم الحوادث التى فـاز بالخلاص منها صلاح الدين ووقف على خفـى أمرها ، ولم يمض بعد ذلك إلا الـقليل حتى جاءته الأخـبار بموت نور الدين محمود بن زنكى بن آق سنقر صاحب الشـام وديار الجزيرة ومصر ففرح بموته فـرحـاً لايوصف ، مات فى يوم الأربعـاء الحادى عشر من شوال سنة تـسع وستين وخمسـمائة بعلة الخوانيق ودفن بقلعـة دمشق ثم نقل منها إلى المدرسـة التى أنشأها بدمشق عنـد سوق الخواصـين قيل ومن عـجيب الاتفاق أنه ركب ثـانى شوال وإلى

جانبه بعض الأمراء الأخيار فقال له أحد الأمراء سبحان من يعلم هل نجتمع هنا فى العام المقبل أم لا فقال نور الدين: لا تقل هكذا بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر أم لا فمات نور الدين بعد أحد عشر يوماً ومات الأمير المذكور قبل الحول فأخذ كل منهما بما قال.

وكان قد شرع فى التجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف فإنه رأى منه فتورا فى غزو الفرنجة من ناحيته وكان يعلم أن ما منع صلاح الدين من الغزو سوى الخوف منه ومن الاجتماع به فإن صلاح الدين يؤثر كون الفرنجة فى الطريق ليمتنع بهم على نور الدين فأرسل إلى الجزيرة والموصل وديار بكر يطلب الجند للغزاة وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل والشام ويسير هو بعساكره إلى ديار مصر فيخلع يوسف عنها ويخرجه هو وجميع أهله منها ويستردها لنفسه فبينما هو يتهيأ لذلك أتاه أمر الله الذى لامرد له. قال صاحب الكامل: حكى لى طبيب كان يخدم نور الدين وهو من حذاق الأطباء قال استدعانى نور الدين فى مرضه الذى توفى فيه مع غيرى من الأطباء فدخلنا إليه وهو فى بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته وكان يخلو فيه للتعبد فابتدأ به المرض فلم يتنقل عنه فلما دخلنا ورأينا ما به قلت له: كان ينبغى أن لا تؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض الآن وينبغى أن تعجل الانتقال من هذا الموضع إلى مكان فسيح مضىء فله أثر فى هذا المرض قال: وشرعنا فى علاجه وأشرنا بالفصد فقال ابن ستين: لا يفصد وامتنع عنه فعالجناه بغيره فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ومات رحمه الله ورضى عنه اهـ.

وكان نور الدين أسمر اللون طويل القامة ليس له لحية إلا فى حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين وكان قد إتسع ملكه جداً وخطب له بالحرمين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب وملكها وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله، وبموته قام ابنه الملك الصالح إسماعيل بالملك بعده وكان عمره يومئذ إحدى عشرة سنة وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس بالشام وجاءت الأخبار إلى صلاح الدين بولايته فخطب له بديار مصر وضربت السكة باسمه وتولى تربيته الأمير شمس الدين ابن محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم وصار مدبر دولته فلم يرض به بعض الأمراء بالشام وقال له كمال الدين: إن صاحب مصر من أصحاب نور الدين والمصلحة أن نشاوره فى الذى نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل

ذلك حجة علينا وهو أقوى منا لأنه قد انفرد بملك مصر فلم يوافق هذا القول أغراض بعض أمراء الشام لاسيما شمس الدين محمد وخافوا أن يدخل صلاح الدين يوسف فيخرجهم فلم يمض إلا القليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزيه ويهنئه بالملك وأرسل إليه دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه فلما سار سيف الدين غازى صاحب الموصل إلى بلاد الجزيرة وملكها للأسباب التى لم نأت على ذكرها لبعدها عن غرضنا أرسل صلاح الدين يوسف إلى الملك الصالح يعاتبه حيث لم يعلمه بقصد سيف الدين بلاده وأخذها ليحضر فى خدمته ويكف سيف الدين عن أطماعه وكتب أيضاً إلى كمال الدين والأمراء يقول لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته بى لسلم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى وأراكم قد تفردتم بمولاى دونى فسوف أصل إلى خدمته وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده.

وتمسك ابن المقدم ومن معه من الأمراء بالملك الصالح وهم يراقبون الأمور وكأنهم كانوا يعلمون بقصد الفرنجة بلاد مصر بناء على طلب جماعة الأمراء الذين كانوا تآمروا على صلاح الدين يوسف فلم يهتموا لجوابه ولا أعاروه أذناً صاغية فلما كانت سنة سبعين وخمسمائة سير صاحب صقيلة إلى الإسكندرية عمارة عظيمة عدتها مائتا سفينة تحمل الرجال وستاً وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب تحمل آلات الحرب وأربعين تحمل الأزواد وفيها من الرجال خمسون ألفا ومن الفرسان ألف وخمسمائة وكان المقدم عليهم ابن عم صاحب صقلية وكان وصول هذه العمارة فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين وخمسمائة على حين غفلة من أهلها فلما شوهدت أمام المدينة خاف الناس خوفاً عظيماً وخرجوا بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول إلى البر فمنعهم والى الاسكندرية من ذلك وأمرهم بملازمة السور فنزل الفرنجة إلى البر مما يلى الماء والمنارة وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد وسيرت الكتب فى الحال إلى صلاح الدين يوسف يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال من أول النهار إلى آخره ثم أعاد الفرنجة القتال فى اليوم الثانى وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات إلى قريب السور ووصل فى ذلك اليوم بعض الجنود المصرية ممن كانوا فى أقطاعهم القريبة من الإسكندرية فتقوت بهم عزائم أهل البلد وفرحوا بوصولهم

وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح أهل الإسكندرية أبواب البلد وقاتلوا الفرنج قتالاً شديداً اليوم كله ثم عادوا إلى البلد فدخلوه وقد قتل منهم خلق كثير، وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر خرج بعسكره وسير مملوكاً له ومعه ثلاث جنائب ليجد السير عليها إلى الإسكندرية ويبشر بوصوله وسير طائفة من العسكر إلى دمياط خوفاً عليها واحتياطاً ووصل مملوك صلاح الدين والناس فى شدة ونادى فى البلاد بمجئ صلاح الدين والعسكر مسرعين ففرح الناس بذلك وتقوت نفوسهم وعاودوا القتال وجدوا فتأخر الفرنجة وتقهقروا وقد علموا بقرب وصول صلاح الدين وأنه على ما هو عليه من نفوذ الكلمة وبعد الصيت فأقلعوا بمراكبهم وعادوا إلى صقلية وكفى الله الناس شرهم ، ولم يكن ليطمئن صلاح الدين يوسف برجوع مراكب الفرنجة عن الإسكندرية وكفهم عن قتال أهلها حتى جاءه الخبر من الأقاليم القبلية بخروج (الكنز) أحد المقدمين بالصعيد وأنه اجتمع إليه من أهل البلاد والغوغاء والسودان والعربان وغيرهم خلق كثير جداً فجعل صلاح الدين يتأهب لقتاله وأمر بجمع الجند وآلات الحرب وكان بالأقاليم القبلية أمير من الأمراء الصلاحية فى أقطاعه وهو أخو الأمير أبى الهيجاء السمين فقام عليه الكنز المذكور وقتله ونهب أرزاقه فعظم قتله على أخيه أبى الهيجاء وكان من أكبر الأمراء وأوسعهم شهرة وأشجعهم فى الحروب فسار إلى قتال الكنز وسيّر معه صلاح الدين جماعة من الأمراء وجيشاً كبيراً فلما وصلوا إلى مدينة طود قاتلوا من بها وجدوا فى قتالهم حتى ظفروا بهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ثم ساروا بعد فراغهم من طود إلى الكنز وقد عظم أمره واتسعت كلمته وخضع له معظم البلاد فقاتلوه قتالاً شديداً ومازالوا يجدّون فى قتاله حتى قتل هو ومن معه من الأعراب وغيرهم من السود والغوغاء وأمنت بعده البلاد وجاء الخبر بذلك إلى صلاح الدين فأمر بضرب البشائر فإنه كان يخشى من استفحال أمر الكنز وقيام الأقاليم القبلية معه.

ولما صفت لصلاح الدين الأمور تاقت نفسه إلى الغزو والجهاد وفتح المدن والبلدان فجمع عسكراً عظيماً للغاية وتأهب للخروج وبينما هو على هذا الحال إذ وردت إليه الأخبار باختلال الأمور فى دمشق واضطراب الأحوال بها وتطاول أيدى الطامعين إليها وانحطاط كلمة الملك الصالح بن نور الدين صاحب الشام واستقلال الكثير من عماله بأعمالهم وخروج بعض الأمراء عليه واجتماع كلمة بعض أصحاب الكلمة الذين فى خدمة الملك الصالح على استدعاء صلاح الدين يوسف ليملكوه عليهم ويسلموه جميع البلاد وكان مقدمهم فى ذلك شمس الدين بن المقدم فسر

صلاح الدين بذلك وبالغ فى التأهب والاستعداد ثم حصل من الأسباب ما أوجب تأخيره فجاءته الرسل من الشام تستحثه على المسير فلم يلبث أن سار جريدة فى سبعمائة فارس ومعه القاضى الفاضل وبعض الأمراء فلما وطئ أرض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذ صاحبها وهو من جملة من كاتب صلاح الدين بالقدوم لأخذ البلاد فلما رأى قلة من كانوا مع صلاح الدين خاف على نفسه واجتمع بالقاضى الفاضل وقال: ما أرى معكم عسكراً وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد فإن كان معكم مال سهل الأمر فقالوا هنا مال كثير مقدار خمسين ألف دينار فضرب صاحب بصرى على رأسه وقال: هلكتم وأهلكتمونا وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار ثم سار صلاح الدين إلى دمشق فما وصل خبر وصوله إلى من بها من العسكر حتى خرجوا جميعاً للقائه وخدموه ودخل البلد ونزل فى دار والده المعروفة بدار العقيقى وكانت قلعة دمشق بيد خادم اسمه ريحان فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزورى وهو يومئذ قاضى البلد والحاكم فى جميع أموره من الديوان والوقف وغير ذلك وأرسله إلى ريحان المذكور ليسلم القلعة إليه وقال أنا مملوك الملك الصالح وما جئت إلا لأنصره وأخدمه وأعيد البلاد التى أخذت منه إليه فصعد كمال الدين إلى ريحان ولم يزل معه حتى سلم القلعة فصعد صلاح الدين إليها وأخذها وأخذ ما فيها من الأموال وأخرجها إلى دار أبيه واتسع بها وثبتت قدمه وقويت نفسه وهو مع ذلك يظهر طاعة الملك الصالح ويخاطبه بالملك والخطبة والسكة باسمه ومازال بدمشق حتى قرر أمرها واستخلف بها أخاه سيف الإسلام طغدكين بن أيوب ثم سار عنها إلى مدينة حمص وكانت حمص وحماة وقلعة بعرين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة فى أقطاع الأمير فخر الدين مسعود الزعفرانى ولكنه كان مغلوباً عليها لا كلمة له فيها لسوء سيرته فى أهلها وتغلب ولاة نور الدين عليها وكان بقلعة حمص وال يحفظها فراسل صلاح الدين من بحمص بالتسليم فامتنعوا فقاتلهم فملك البلد وأمن أهلها وامتنعت عليه القلعة فسار عن حمص إلى مدينة حماة بعد أن وكل بحصار من فى القلعة وقطع عنهم الزاد وهو فى جميع أحواله لايظهر إلا الطاعة للملك الصالح بن نور الدين وأنه إنما خرج لحفظ بلاده من الفرنجة واستعادة ما أخذه سيف الدين غازى صاحب الموصل من بلاد الجزيرة فلما وصل إلى حماة ملك المدينة وكان بقلعتها الامير عز الدين جورديك وهو من المماليك النورية فامتنع من التسليم إلى صلاح الدين فأرسل إليه صلاح الدين يعرّفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح

وإنه إنما يريد حفظ بلاده فاستخلفه جورديك على ذلك وسيره إلى حلب فى اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفى إطلاق شمس الدين علىّ وحسن وعثمان أولاد الداية وقد كانوا معتقلين بحلب فسار جورديك إلى حلب واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها فلما وصل جورديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وحبسه فلما علم أخوه بذلك خاف وسلم القلعة إلى صلاح الدين فملكها.

وسار صلاح الدين بعيد ذلك يريد أخذ حلب فحصرها وضيق على من بها فقاتله أهلها قتالاً شديداً وركب الملك الصالح وهو صبى وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب وقال لهم: قد عرفتم إحسان أبى إليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدى إليه يأخذ بلدى ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق فهل يرضيكم فعله وهل تطيقون الصبر على ما تكرهون ثم بكى وأعاد عليهم القول وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الأموال والأنفس واتفقوا على القتال دونه والمنع من بلده، وجدوا فى القتال وأظهروا من الشجاعة والإقدام ما أعجز صلاح الدين عن التقدم نحو البلد وأرسل سعد الدين إلى سنان مقدم الإسماعيلية وبذل له أموالا كثيرة ليقتلوا صلاح الدين فأرسلوا جماعة منهم إلى عسكره فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين صاحب قلعة برقيس فعرفهم لأنه جارهم كثير الاجتماع بهم والقتال لهم فلما رآهم قال لهم ما الذى أقدمكم وفى أى شىء جئتم؟ فقاموا عليه وضربوه بالسكاكين فجرحوه جراحات مثخنة وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه وقاتل الباقون من الإسماعيلية جماعة ثم قتلوا وتحرز صلاح الدين واشتد تحفظه وبقى محاصراً لحلب إلى سلخ جمادى الآخرة سنة سبعين وخمسمائة ثم رحل عنها مستهل رجب قاصداً حمص لرد الفرنجة عنها حيث كانوا قد حضروا لنجدة أهل حلب وخلاص ما بيد صلاح الدين من البلاد الشامية فلما علم الفرنجة بوصوله إليهم رحلوا عن حمص ووصل صلاح الدين إليها فحصر القلعة إلى أن ملكها وقد كانت ممتنعة عليه كما تقدم ثم سار منها إلى بعلبك وكان الوالى بها من أيام نور الدين خادم اسمه يمن فحصرها صلاح الدين وهم بقتالها فأرسل إليه يمن يطلب الامان له ولمن معه فأمنهم وتسلم القلعة رابع عشرى رمضان من السنة فصار أكثر بلاد الشام بيده وعظم الأمر جداً على الملك الصالح بن نور الدين فكتب إلى ابن عمه سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ويخبره بما جرى على بلاده ويطلب أن يعبر إليه ليقصدوا صلاح الدين معاً ويأخذوا البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عماد

الدين زنكى صاحب سنجار لينزل إليه بعساكره فيجتمعوا على المسير إلى الشام فامتنع عماد الدين من ذلك وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه فى الملك لأنه هو الكبير فحمله الطمع على الامتناع على أخيه. فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعوداً فى معظم عسكره وسيّره إلى الشام وجعل المقدم عليه أكبر أمرائه المدعو عز الدين محمود زلفندار وسار هو إلى سنجار فحصرها وقاتلها وجدّ فى قتالها فامتنع أخوه عماد الدين بها وجد فى حفظها والذب عنها فدام الحصار عليها فبينما هو يحاصرها ويضيق على من بها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذى مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده ورحل إلى الموصل وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة وخافه الناس واتسعت شهرته وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازى على الصلح فلم يستقر حال ، هذا والملك الصالح بن نور الدين يراسل سيف الدين ويطلب حضوره إليه بعسكره ويستحلفه فكبر الأمر على سيف الدين واستعظمه وسيرّ عسكره مع أخيه عزالدين زلفندار إلى حلب ففرح الملك الصالح بوصولهم واجتمع معهم عسكر حلب وساروا كلهم إلى صلاح الدين ليحاربوه فأرسل صلاح الدين إلى سيف الدين يبذل تسليم حمص وحماة وأن يقر بيده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم يقبل ذلك وأبى إلا تسليم جميع ما أخذه صلاح الدين من بلاد الشام والعود إلى مصر وكان صلاح الدين فى هذه الأثناء يحشد الجنود ويكثر من معدات الحرب ويتجهز للقتال فلما سمع بامتناع سيف الدين من إجابته إلى ما طلب نادى فى عسكره بالركوب فركبوا وركب وسار بهم إلى عز الدين مسعود وزلفندار فالتقوا بالقرب من مدينة حماة بموضع يقال له قرون حماة. قال بعض الكتاب: وكان زلفندار جاهلاً بالحروب غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه إلا أنه قد رزق سعادة وقبولاً من سيف الدين فلما التقى الجمعان لم يثبت عسكر سيف الدين وانهزموا شر هزيمة وثبت عز الدين أخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه فلما رأى صلاح الدين ثباته تعجب جداً وقال: إما أن هذا يكون أشجع الناس أو أنه لايدرى شيئاً فى الحرب وأمر أصحابه بالحملة عليه فحملوا فأزالوه عن موقفه وتمت الهزيمة على عسكر سيف الدين وتبعهم صلاح الدين بعسكره فقتل وغنم من السلاح والدواب شيئاً كثيراً للغاية ووصل المنهزمون إلى حلب فلحقهم صلاح الدين فى عسكره وقاتلهم عليها وحاصرها وجدّ فى حصارها وضيق وأمر بقطع خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه من السكة فى جميع بلاده ، ولما طال الحصار

واشتد عليهم الأمر راسلوا صلاح الدين فى الصلح فتقررت القاعدة بينهم على أن يكون ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها فتم الصلح على هذه القاعدة ورحل صلاح الدين بجيوشه عن حلب إلى حماة فسيّر إليه الخليفة العباسى بها خلعة نفيسة للغاية مع رسوله ثم سار إلى دمشق وأقام بها وقد عظم شأنه بما ملكه من بلاد الشام وبفوزه المتتابع على الملك الصالح وجميع عماله وولاته وقد ملت جنوده من طول الإقامة بأرض الشام وامتلأت أيديهم من السلب والغنائم فطلبوا العود إلى بلادهم والاستراحة فأذن لهم وسار هو كذلك فى عسكر مصر ومعه الغنائم الكثيرة فلما وصل إليها خرج إليه أهله وضربت البشائر وأولم وتصدق وأكثر من الخير للناس.

ولما كانت سنة خمس وسبعين وخمسمائة مات الإمام المستضئ بنور الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد وكان موته فى ثانى ذى القعدة فكانت خلافته نحو سبع سنين وسبعة أشهر وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكان عادلاً حسن السيرة فى الرعية كثير البذل للأموال غير مبالغ فى أخذ ما جرت العادة بأخذه وكان الناس معه فى أمن عام وإحسان شامل وسكون وطمأنينة لم يروا مثلها وكان حليماً محباً للعفو والصفح عن المذنبين، واستوزر فى أيامه عضد الدين أبا الفرج ابن رئيس الرؤساء فلبث يتصرف فى الأمور إلى أن قتل فى ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة فاستوزر بعده ظهير الدين أبا بكر منصور بن نصر المعروف بالعطار وكان خيراً حسن السيرة كثير العطاء فتمكن من الخلافة وظهرت كلمته فلما مات المستضىء قام ظهير الدين المذكور بأخذ البيعة لولده الناصر لدين الله فلما تمت له البيعة صار الحكم فى الدولة لأستاذ الدار مجد الدين بن أبى الفضل بن الصاحب. قال صاحب الكامل: ولم يلبث ابن العطار أن قبض عليه ووكل عليه فى داره ثم نقل إلى التاج وقيد ووكل به وطلبت ودائعه وأمواله وفى ليلة الأربعاء ثامن عشر ذى القعدة أخرج ميتاً على رأس حمال فغمز به بعض الناس فثار به العامة فألقوه عن رأس الحمال وكشفوا سوأته وشدوا فى ذكره حبلاً وسحبوه فى البلد ووضعوا بيده مغرفة كأنها قلم وغمسوها فى الغذرة وصاروا يقولون: وقع لنا يامولانا إلى غير ذلك من الأفعال الشنيعة ثم خلص من أيديهم ودفن قال هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم وأعراضهم.

ومات فى خلافه المستضئ خائيل بطرك الإسكندرية فكانت مدته تسع سنين وقيل تسع سنين وثمانية أشهر وكانت وفاته بالمعلقة بمصر واتفق فى أيامه أن نقص

النيل نقصاً فاحشاً فسيره الخليفة إلى بلاد الحبشة بهدية سنية إلى النجاشى فتلقاه النجاشى وأكرم وفادته وأجله كثيراً وسأله عن سبب قدومه فعرفه بنقص النيل وضرر أهل مصر بسبب ذلك قيل فأمر بفتح سد يجرى منه الماء إلى أرض مصر ففتح فزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع واستمرت الزيادة حتى روت البلاد وزرعت ثم عاد خائيل البطرك فخلع عليه الخليفة وأحسن إليه وأكرمه جداً فلما مات أقيم بعده مقارى أو هو مكاريوس الثانى تاسع ستيهم وهو راهب من دير بو مقار وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

الفصل الرابع والثلاثون
(فى خلافة أبى العباس أحمد الناصر لدين الله)

ثم قام بالأمر بعد المستضئ ابنه أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه فى أول ذى القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة هجرية أى سنة تسع وسبعين ومائة وألف ميلادية وعمره ثلاث وعشرون سنة وسيرت الرسل إلى الآفاق لأخذ البيعة له فسير صدر الدين شيخ الشيوخ إلى البهلوان صاحب همدان وأصفهان والرى وغيرها فامتنع من البيعة فراجعه صدر الدين وأغلظ عليه فى القول حتى أنه قال لعسكره فى حضرته: ما لهذا عليكم طاعة ما لم يبايع أمير المؤمنين بل يجب عليكم أن تخلعوه وتقاتلوه فخاف البهلوان وأذعن للبيعة والخطبة للناصر وسير رضى الدين القزوينى مدرس النظامية إلى الموصل لأخذ البيعة فبايع صاحبها وخطب للخليفة الناصر لدين الله فى هذه السنة وجاءت الأخبار إلى صلاح الدين يوسف بموت المستضىء وخلافة ابنه الناصر لدين الله فبايع له وخطب له أيضاً وسير إليه الهدايا النفيسة والأعلاق الثمينة وهو بمصر ينشئ العمائر العظيمة والأبنية الجسيمة فإنه منذ رجوعه من الشام رسم بترميم القناطر والجسور وتطهير الترع وكانت جسور النيل قد أهملت من عهد الدولة الفاطمية فكان إذا فاض طغت مياهه فأغرقت وخربت الطرق وأفسدت الزرع فرمم ما فسد منها وأقام السدود ونقل لبنائها كثيراً من حجارة الأهرام الصغيرة التى كانت حول الكبيرة بالجيزة وغيرها من أحجار المعابد والهياكل القديمة المصرية ومهد الطريق من مصر إلى الصعيد الأعلى وأنشأ القلعة بسفح المقطم المعروفة الآن بقلعة الجبل وبنى له فيها قصراً وقد كان إلى هذا الحين يسكن فى دار الخليفة العبيدى ودار الوزير فجعلهما مسكناً لقواد الجيوش وأمراء الدولة من بعده ووكل بالبناء وزيره الأمير بهاء الدين الأسدى الحمصى وكان

جليل القدر مقداماً حسن السياسة والتدبير، فبالغ فى العمل وأكثر من البنائين والعمال والمهندسين ونقر فى القلعة بئراً فى الصخير عميقاً فيه من الماء ما يكفى حاجة الجند والمرابطين بالقلعة وهى باقية إلى يومنا هذا والعامة يقولون إنها البئر التى ترك فيها يوسف إخوته . قال بعض الكتاب: وإنما هذا البئر من عمل المصريين القدماء فانطمس بالرمال ولم تخف معالمه فأعاد بهاء الدين حفره عند بناء القلعة واهتم بهاء الدين ببناء سور حول مصر والقاهرة وقلعة الجبل طوله تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع الهاشمى. وكان قد بدأ بعمارته صلاح الدين يوسف سنة ست وستين وخمسمائة على عهد العاضد العلوى ثم بطل العمل فيه بسبب الفتن والحروب فجد بهاء الدين فى عمارته وهدم فى تخطيطه كثيراً من المساجد والمعابد والقبور والبيوت والوكائل والعمائر الجسيمة فضج الناس من ذلك وكبر عليهم هذا الأمر وحسبوه جوراً وظلماً من بهاء الدين فأبغضوه وسموه قراقوش وكانوا يلقون الرقاع فى طريقه وكلها سب ولعن له ولأصحابه وكان إذا مر بالأسواق صاح العامة فى وجهه وقالوا: ما تحل لك هذه الفعال يا ظالم وهو لايلتفت إليهم ولا يؤاخذهم بشىء من ذلك وقد ألف الأسعد بن مماتى كتاباً سماه الفاشوش فى أحكام قراقوش ذكر فيه من أفاعيل الجور والعسف وأنواع المظالم شيئاً كثيراً وحفر بهاء الدين خندقاً يمتد من باب الفتوح إلى المقس وهو الخطة التي بها جامع أولاد عنان اليوم ومن الجهة الشرقية خارج باب النصر إلى باب البرقية وما بعده وجعل خارج هذا الخندق سوراً آخر بأبراج مبنيا بالحجارة العظيمة وابتنى الأشوان العظيمة بمصر لحفظ الغلال التى ترد فى كل سنة من الأعمال من الإقليمين القبلى والبحرى وهى إلى الآن تعرف بمخازن يوسف والناس يظنون أنها مخازن فرعون يوسف التى بناها بعد تعبير رؤياه. قال أصحاب التاريخ: وقد بنى سور القاهرة ثلاث مرات بناه في المرة الأولى جوهر القائد وفى الثانية أمير الجيوش بدر الجمالى وفى الثالثة بهاء الدين وزير صلاح الدين يوسف فزاد فيه بهاء الدين القدر الذى يبتدئ من باب القنطرة إلى باب الشعرية ومن باب الشعرية إلى باب البحر وابتنى مع ذلك قلعة المقس جعلها على النيل بجانب جامع المقس المعروف الآن بجامع أولاد عنان وزاد فيه أيضاً قطعة مما يلى باب النصر ممتدة إلى باب البرقية وإلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير حتى يتصل بسور قلعة الجبل.

وبينما كان صلاح الدين يشيد العمائر ويمهد الطرق ويقيم الجسور ويصلح الترع ويسهل العقبات بالديار المصرية جاء الخبر بوفاة الملك الصالح بن نور الدين صاحب

حلب والشام مات فى رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة هجرية وعمره نحو تسع عشرة سنة وكان على صغر سنة كثير التأمل واسع الفكر كبير المعرفة وكان يخشى من صلاح الدين يوسف ويعلم أنه سيأخذ عنه يوماً ما بقى له من بلاد الشام ولذلك كان كثير الاحتياط بعيد الحساب فلما مرض وأيس من نفسه أحضر الأمراء وسائر الأجناد وأوصاهم بتسليم البلد إلى ابن عمه عمر عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى واستحلفهم على ذلك فقال له بعضهم: إن عماد الدين ابن عمك أيضاً أحق بها وهو زوج أختك وكان والدك نور الدين يحبه ويؤثره وقد تولى تربيته بنفسه فهو أصلح للولاية وليس له غير سنجار فلو أعطيته البلد لكان أوفق وعز الدين له من البلاد من الفرات إلى همذان ولا حاجة به إلى بلدك فقال له: إن هذا لم يغب عنى ولكن قد علمتم أن صلاح الدين يوسف قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدى الآن ومتى سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام وإن سلمت إلى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا فعاله وعجبوا من جودة فطنته مع شدة مرضه. ولما قضى نحبه أرسل الأمراء إلى أتابك عز الدين يستدعونه إلى حلب فسار هو ومجاهد الدين قايماز إلى الفرات وأرسل إلى الأمراء فحضروا عنده وساروا جميعاً إلى حلب فدخلوها فى العشرين من شعبان وكان صلاح الدين حينئذ بمصر. قال أصحاب التاريخ: ولولا ذلك لزاحمهم عليها وقاتلهم وكان تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين يوسف بمدينة منبج فلما مر بها عز الدين ومن معه إلى حلب خاف تقى الدين وهرب من منبج إلى حماة فثار أهل حماة فأشار الأمراء والقواد بحلب على عز الدين بقصد دمشق وأطمعوه فيها وفى غيرها من البلاد وأعلموه بمحبة أهل الشام له ولأهل بيته فلم يفعل وقال: بيننا يمين فلا نغدر به وأقام بحلب ما شاء ثم سار عنها إلى الرقة فلم يستقر به المقام حتى جاءته رسل أخيه عماد الدين صاحب سنجار ليطلب أن يسلم إليه حلب ويأخذ عوضاً عنها مدينة سنجار فلم يجبه إلى ذلك وألح عماد الدين وترددت الرسل بينهما أياماً كثيرة وكلمه الأمراء فى ذلك أيضاً فسلمها إليه وأخذ بدلها سنجار وعاد إلى الموصل وكان صلاح الدين يوسف لما بلغه خبر دخول عز الدين إلى حلب وتصرفه فيها كبر عليه الأمر جداً وخاف أن يسير منها إلى دمشق وغيرها فيأخذ ما بيد صلاح الدين من البلاد الشامية فانكمش وجعل يراقب الفرص فلما بلغه ملك عماد الدين لها برز من مصر من يومه وسار إلى الشام وكان خروجه فى الخامس من المحرم افتتاح سنة ثمان وسبعين. قال صاحب

الكامل: ومن عجيب ما يحكى من التطير أنه لما برز من القاهرة أقام بخيمته ظاهر القاهرة حتى تجتمع العساكر والناس عنده وأعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب وكلهم مودّع له وسائر معه وكان كل واحد يقول شيئاً فى الوداع والفراق وما هم بصدده من السفر وكان ممن حضر هذا المجلس معلم لبعض أولاد صلاح الدين وكان جالساً خلف الجالسين فأخرج رأسه من بينهم وأنشد :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه وتطير وتنكد المجلس على الحاضرين فلم يعد صلاح الدين إلى مصر إلى أن مات مع طول الوقت ا.هـ.

وسار صلاح الدين عن مصر فتبعه التجار وأهل البلاد ممن كان قصد مصر من الشام فرارا من الغلاء وغيره فجعل طريقه على أيلة فلما سمع الفرنجة بمسيره جمعوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير فسير الضعفاء والأثقال مع أخيه تاج الملوك بورى إلى دمشق وبقى هو فى المقاتلة فشن الغارات على أطراف الكرك والشوبك فلم يخرج إليه منها أحد فسار إلى دمشق فوصلها بمن معه سالماً ولبث بها أياماً حتى أصلح حال جنده ونظم عسكره وسار بهم إلى بلاد الفرنجة فى ربيع الأول فقصد طبرية فنزل بالقرب منها وخيم فى أقحوان من الأردن فتهيأ الفرنجة وجاءوا إليه بجموعهم فنزلوا بطبرية وتأهبوا للقتال فسير صلاح الدين يوسف فرخشاه ابن أخيه إلى بيان فدخلها قهراً وغنم ما فيها وقتل وسبى وعم القتل والسبى وجاءت العرب فأغارت على جفين واللجون وما جاورهما من البلدان حتى قاربوا مرج عكا وسار الفرنجة من طبرية حتى نزلوا تحت جبل كوكب فتقدم صلاح الدين إليهم وأرسل عسكره يرمونهم بالنشاب فلم يتحركوا للقتال فعاد صلاح الدين إلى دمشق ولبث بها أياماً ثم سار منها فعبر الفرات وملك عدة بلاد من ديار الجزيرة وأقطعها للأمراء الذين كانوا فى خدمته ودخل الفرنجة دمشق فقتلوا ونهبوا وسبوا ورحلوا عنها وجاءت الأخبار بذلك إلى صلاح الدين فلم يقدر على الرجوع وقد اطمأن بترك الفرنجة لها ورحيلهم عنها ثم سار إلى الموصل وحاصرها فلم ينل منها وعاد عنها إلى سنجار فقاتلها فخامر معه بعض الأمراء الأكراد وسلم إليه الناحية التى هو بها فطرقه صلاح الدين فلما أحس شرف الدين صاحبها بذلك استكان وخضع وطلب الأمان فأمنه وملك البلد صلاح الدين وسار شرف الدين ومن معه إلى الموصل وقويت عزيمة صلاح الدين بملك سنجار واطمأن على ما بيده من البلاد الشامية إذ صارت سنجار على جميع تلك البلاد كالسور واستناب بها سعد الدين بن معين الدين أتز وهو من

كبار الأمراء وأحسنهم سيرة وبقى صلاح الدين يوسف مشغول البال بملك حلب ونزعها من عماد الدين زنكى بن مودود وهو يراقب الفرص ويتبين انتفاعها فلما كان المحرم افتتاح سنة تسع وسبعين نزل عليها بجيش عظيم وأقام بالميدان الأخضر عدة أيام ثم انتقل منه إلى جبل جوشن فنزل بأعلاه وأظهر أنه إنما يريد أن يبنى مساكن له ولأصحابه وعسكره وأقام عليه أياماً والقتال بين العسكرين كل يوم وعماد الدين زنكى ومن معه من العسكر النورى يجدّون فى القتال ويدفعون عن البلد فلما كان فى بعض الأيام جاء إلى عماد الدين بعض الجنود وطلبوا منه مالاً للنفقة فاعتذر بقلة المال عنده فقال بعضهم: إن من يريد أن يحفظ بلداً مثل حلب لابد له من صرف الأموال ولو باع حلى نسائه فخاف عماد الدين وحسب ما وراء ذلك فمال إلى تسليم حلب إلى صلاح الدين وأخذ العوض عنها وأرسل فى الحال مع الأمير طومان الياروقى وكان ممن يميل إلى صلاح الدين يوسف أن يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وجرت اليمين على ذلك. قال أصحاب التاريخ: وباعها عماد الدين بأبخس الأثمان أعطى حصناً مثل حلب وأخذ عوضها قرى ومزارع فنزل عنها ثامن عشر صفر وتسلمها صلاح الدين يوسف فعجب الناس كلهم من ذلك وقبحوا فعل عماد الدين حتى إن بعض عامة حلب أحضر أجانة وماء وناداه أنت لايصلح لك الملك وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب وأسمعوه المكروه. واستقر ملك صلاح الدين يوسف وسار عماد الدين إلى البلاد التى أخذها فتسلمها وتقررت القاعدة بينه وبين صلاح الدين على أن عماد الدين يحضر فى خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره إذا استدعاه لا يحتج بحجة وامتدح محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق صلاح الدين يوسف بقصيدة منها:

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر ... مبشر بفتوح القدس فى رجب

فكان فتح بيت المقدس فى رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كما سيذكر فى محله وهو من غريب الاتفاق. قال صاحب الكامل: وكان فى جملة من قتل على حلب تاج الملوك بورى أخو صلاح الدين الأصغر وكان فارساً شجاعاً كريماً حليماً جامعاً لخصال الخير ومحاسن الأخلاق طعن فى ركبته فانفكت فمات منها بعد أن استقر الصلح بين عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل أن يدخلها صلاح الدين فلما استقر الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده وقال له هذه حلب قد أخذناها وهى لك فقال ذلك لو كان وأنا حى ووالله لقد أخذتها غالية حيث تفقد مثلى فبكى صلاح الدين وأبكى ولما خرج عماد الدين إلى صلاح الدين

وقد عمل له دعوة احتفل فيها فبينما هم فى سرور إذ جاء إنسان فأسر إلى صلاح الدين بموت أخيه فلم يظهر هلعاً ولا جزعاً وأمر بتجهيزه سراً ولم يعلم عماد الدين ومن معه فى الدعوة واحتمل الحزن وحده لئلا يتنكد ما هم فيه وكان هذا من الصبر الجميل أ هـ.

ووصلت الأخبار إلى صلاح الدين يوسف بوفاة قطب الدين صاحب ماردين وتملك ابنه بعده وهو طفل وأن الحكم إلى شاه أرمن صاحب خلاط وعسكره فيها وشاه أرمن هذا خال قطب الدين فطمعت نفس صلاح الدين فى أخذها فسار إليها فى جيش عظيم من الرجال والفرسان ونازلها فرآها مشحونة بالرجال وبها زوجة قطب الدين المتوفى ومعها بنتان لها منه وهى أخت نور الدين محمد صاحب الحصن فحاصر صلاح الدين البلد وشدد فى حصارها وكان المقدم على عسكرها أمير اسمه برتقش ولقبه أسد الدين وهو من كبار قواد العسكر وأشجعهم وأعلمهم بفنون الحرب واشتد القتال بين الفريقين شدة بالغة فلم يصل صلاح الدين إلى ما يريد فعدل من القوة والحرب إلى إعمال الحيلة والدهاء فراسل زوجة قطب الدين وهى بالبلد يقول لها: إن أسد الدين برتقش قد مال إلينا فى تسليم البلد ونحن نرى حق أخيك نور الدين فيك بعد وفاته ونريد أن يكون لك فى هذا الأمر نصيب وأنا أزوج بناتك بأولادى ويكون ميافارقين وغيرها لك وبحكمك ووضع أيضاً من أرسل إلى برتقش أن الخاتون قد مالت للمقاربة والانقياد إلى السلطان وأن من بخلاط من الجند والعسكر كاتبوه ليسلموا إليه فخذ لنفسك واتفق أن رسولاً وصل من خلاط ليعلن صلاح الدين يوسف بالطاعة ففرح صلاح الدين بقدوم الرسول وأمره بالدخول إلى ميافارقين والاجتماع ببرتقش فدخل واجتمع به وقال له: أنت عمن تقاتل وأنا قد جئت فى تسليم خلاط إلى صلاح الدين فسقط برتقش فى يده وضعفت عزيمته وأرسل إلى صلاح الدين يطلب أن يقطعه بلداً ومالاً وهو يتخلى عن البلد إلى صلاح الدين فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وتسلم البلد فلما دخل إليها وفّى بوعده إلى زوجة قطب الدين وعقد نكاح بعض أولاده على بعض بناتها وأقرّ بيدها قلعة هتاخ لتكون فيها هى وبناتها ورتب الأمور فى ميافارقين وقرر إقطاعاتها وجميع ولاياتها وأحكم قواعدها ثم سار عنها يريد الموصل فإنه كان كثير الرغبة فى أخذها من صاحبها شديد الطمع فى ذلك فسار نحوها وجعل طريقه على نصيبين فوصل إلى كفر زمار والوقت شتاء فنزلها فى عساكره وعزم على المقام بها وقطع المدد من الغلة والأقوات عن الموصل لإضعافها فقد علم أنه لايقدر على محاربتها لمنعتها

وكثرة مـا بها من الجند وآلات الحرب وطال مكث صلاح الدين بعسكره فـخاف عز الدين صاحب الموصل فأرسل رسله إلى صلاح الدين فى الصلح فمال صلاح الدين إلى ذلك فبينما الرسل تتردد بينهما إذ مـرض صلاح الدين وسار من كفر زمار عائداً إلى حوران فلـحقه الرسل بالإجـابة إلى ما طلب فـتقـرر الصلح وحلف على ذلك وكانت القاعدة أن يسلم إليه عز الدين شهـرزور وأعمالها وولاية القرابلى وجميع ما وراء الزاب من الأعـمال ويخطب لـه على منابر بلاده ويضـرب اسمـه على السكة وأرسل رسله إلى عز الدين ليحلف بحضـرتهم على ذلك فحلف وتسلم البلاد التى استقـرت القاعدة على تسليـمها ووصل صلاح الدين إلى حـوران فأقام بها مـريضاً وطال مرضـه فأمنت الدنيا وسكنت الفـتنة. وكان عند صـلاح الدين من أهله أخوه الملك العادل وهو يومـئذ على حلب وولده الملك العزيز عثـمان واشتد مـرضه حتى أيسوا منه فحلف الناس لأولاده بالطاعة وجـمع إليه الأمراء وقواد الجند وجعل لكل من أولاده شيئاً من البـلاد معلوماً وجعل أخاه العادل وصيًـا على الجميع وجاءه ابن عمه ناصر الدين مـحمد بن شيركوه صاحب حمص والرحـبة ليزوره فرأى من شدة مرضـه ما أطمعـه فى أخذ دمـشق إذا هو مات فسـار من عنده إلى حمص واجـتاز بحلب وأحضر جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد إليه إذا مات صلاح الدين وأقام بحمص ينتظر مـوته ليسير إلى دمشق فيملكهـا وانتقل صلاح الدين من حوران إلى دمشق فـبلغه ما قاله ناصـر الدين فلم يمض غير قليل حـتى مات ناصر الدين ليلة عيد الأضحى قيل إنه شرب الخمر وأكـثر منه فأصبح ميتاً وقيل إن صلاح الدين وضع إنساناً يقال له الناصح بن العميـد من دمشق فحضر عند ناصر الدين فى تلك الليلة ونادمه وسقاه سماً فلما أصـبحوا من الغد لم يروا الناصح المذكور فسألوا عنه فقيل إنه سار من ليلتـه إلى صلاح الدين فكان هذا مما قوّى الظن. ولما مـات ناصر الدين شيركوه أخذ صلاح الدين جمـيع أقطاعه وأعطاها لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة قال بعض الكـتاب: وخلف ناصر الدين من الأموال والخيل والآلات شيئاً كثيرا فحضر صلاح الدين فى حـمص واستعرض تركته وأخذ أكثرها ولم يترك إلا ما لا خير فـيه. قال صاحب الكامل: وبلغنى أن شيركـوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين بعـد موت أبيه بسنة فـقال له إلى أين بلغت من القرآن فـقال إلى قـوله تـعـالى ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتـامى ظلمـا إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا**﴾ قال فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه.

ولما كـانت سنة اثنتين وثمـانين وخمـسمـائة أخرج صـلاح الدين يوسف ولده

الأفضل علياً من مصر إلى دمشق وأقطعها له وأخذ حلب من أخيه العادل وسيره مع ولده العزيز عثمان إلى مصر وجعله نائباً عنه واستدعى تقى الدين منها وسبب ذلك أنه كان استناب تقى الدين بمصر وجعل معه ولده الأكبر الأفضل عليا فأرسل تقى الدين يشكو من الأفضل ويقول إنه قد عجز عن جباية الأموال معه لأنه كان حليماً كريم الطبع إذا أراد تقى الدين مطالبة أحد أو معاقبته منعه فأحضر صلاح الدين ولده الأفضل وكتب إلى تقى الدين. يقول ليس لك بعد أخذ الأفضل حجة فى الخراج أو غيره وتغير عليه بسبب ذلك وظن أنه إنما يريد إخراج الأفضل عن مصر لينفرد بها حتى يملكها إذا مات صلاح الدين وقوى هذا الخاطر عنده فأحضر أخاه العادل من حلب وسيره إلى مصر ومعه ولده العزيز عثمان واستدعى تقى الدين إلى الشام فامتنع من الحضور وجمع العساكر والأجناد ليسير إلى المغرب إلى مملوكه قراقوش وكان قد استولى على جبال نفوسة وبرقة وغيرها وكتب إليه يرغبه فى تلك البلاد فتهيأ للسفر إليه واستصحب معه الجند والعساكر وآلات الحرب فلما سمع ذلك صلاح الدين يوسف ساءه وعلم أنه إن أرسل إليه يمنعه لم يجبه فأرسل إليه يقول أريد أن تحضر عندى لأودعك وأوصيك بما تفعله فلما حضر عنده منعه وزاد فى إقطاعه حماة ومنبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها. قال صاحب الكامل: بلغنى من خبير بأحوال صلاح الدين أنه إنما حمله على أخذ حلب من العادل وإعادة تقى الدين إلى الشام أن صلاح الدين لما مرض بحران أرجف بمصر أنه قد مات فجرى من تقى الدين حركات من يريد أن يستبد بالملك فلما عوفى صلاح الدين بلغه ذلك فأرسل الفقيه عيسى الهكارى وكان كبير القدر عنده مطاعاً فى الجند إلى مصر وأمره بإخراج تقى الدين والمقام بمصر فسار مجداً فلم يشعر تقى الدين إلا وقد دخل الفقيه عيسى إلى داره بالقاهرة وأرسل إليه يأمره بالخروج منها فطلب أن يمهله إلى أن يتجهز فلم يفعل وقال: تقيم خارج المدينة وتتجهز فخرج وأظهر أنه يريد الدخول إلى الغرب فقال له اذهب حيث شئت فلما سمع صلاح الدين الخبر أرسل إليه يطلبه فسار إلى الشام فأحسن إليه ولم يظهر له شيئاً مما كان لأنه كان حليماً كريماً صبوراً رحمه الله أهـ.

ولما دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربل وغيرها من بلاد الشرق وإلى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم إلى الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز ثم خرج من دمشق فى عسكرها فسار إلى رأس الماء وتلاصقت به العساكر الشامية فلما

اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الأفضل علياً ثم ساروا جميعاً إلى الكرك وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما فنهبوا وخربوا وأحرقوا ثم سار منها إلى طبرية فملكها وأمن صاحبتها فرحلت عنها فرتب أمورها وأحكم نظامها وسار عنها إلى عكا فاستسلمت إليه ونزح الكثير من أهلها بما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا ما بقي ودخل المسلمون إليها وسلم البلد بعد ذلك إلى ولده الأفضل وأعطى جميع ما فيه من أقطاع وجناح وغير ذلك إلى الفقيه عيسى وكان فيها من السلاح والأموال والمتاع وغير ذلك شيء لايكاد يدخل تحت الحصر وأقام صلاح الدين بعكا بعد ذلك عدة أيام حتى أتم تقرير جميع أمورها على قواعد مرتبة ثم ملك بيروت وجبيلي وغيرهما وأجرى فيها أحكامه وأقام العمال بها على نظامه وترتيبه المألوف عنده فلما دانت له الأمور فى جميع بلاد الشام إلا ما كان منها بيد الفرنجة كان أمر عسقلان وبيت المقدس عنده أهم فكان كثير التحدث بحوادثهما كبير التولع بمعرفة أخبارهما وكان يقول أما عسقلان فإنها على طريق مصر وأحب الأشياء عندى أن تتصل الولايات لى فلا يصعب عليّ خروج العسكر منها ودخولهم إليها وأما فتح بيت المقدس ففيه من الذكر الجميل والصيت العظيم ما يبقى على مر الأيام وفى أخذ البلدين فائدة للإسلام والمسلمين وعظمت رغبته وقويت نفسه بأخذ بيروت فسار منها نحو عسقلان واجتمع بأخيه العادل ومن معه من العسكر المصرى ونازلوها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة وجد فى قتالها ونصب المنجنيقات ورمى بالأحجار ليلاً ونهاراً وسدّ عليها جميع المسالك فانقطع المدد وقلت الأقوات وطال القتال أياماً كثيرة فلم ير من بالمدينة من الفرنجة بُدا من التسليم فراسلوا صلاح الدين فى ذلك واشترطوا شروطاً فأجابهم صلاح الدين إليها فسلموها ونزح منهم من أراد الخروج بماله وعياله ووفى لهم صلاح الدين بالأمان ثم مال صلاح الدين بعسكره على ما جاور عسقلان من البلدان فأخذها وأنفذ فى جميعها أحكامه فذاع صيته واتسعت كلمته وهابه الملوك لما رأوه من انتصاره فى غزواته وفتوحاته * ولما فرغ من أمر عسقلان وما جاورها من البلدان وقد استتب له الأمر فيها أرسل إلى مصر فأخرج الأسطول الذى بها فى جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب فأقاموا فى البحر يقطعون الطريق على الفرنجة كلما رأوا لهم مركباً عاكسوه أو أخذوه بما فيه من غلة أو متاع ومازال على هذا الحال حتى وصل فسار صلاح الدين عن عسقلان إلى بيت المقدس وكان به جمع كبير من المقاتلة والفرسان الأشداء وقد حصنوه تحصيناً ونصبوا عليه المنجنيقات وتأهبوا للذب والدفاع فلما قرب صلاح

الدين منه تقدم أمير من أمراء جند صلاح الدين فى جماعة من أصحابه فلقيه جمع من الفرنجة قد خرجوا من البلد ليناوشوهم القتال فقاتلوه ومن معه وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جميع من معه فأهم المسلمين قتله وساروا حتى نزلوا على بيت المقدس فرأوا على سوره من الرجال ما هالهم وسمعوا لأهله من الجلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع، وبقى صلاح الدين يوسف خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتلها لأنها كانت فى غاية المنعة فلم يجد عليها موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو باب عمور أو كنيسة صهيون فانتقل إلى هذه الناحية ونزلها ونصب فى ليلة وصوله المنجنيقات فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ورمى الفرنجة بمنجنيقاتهم وقاتلوا أشد قتال فلم يره أحد من الناس وكان فرسان الفرنجة يخرجون فى كل يوم إلى ظاهر البلد فيقاتلون ويبارزون فقتل من الفريقين خلق ومات من المسلمين الأمير عز الدين عيسى بن مالك وهو من أكبر الأمراء فى جيش صلاح الدين وكان أبوه صاحب قلعة جعبر وكان يصطلى القتال بنفسه حتى قتل ومازالوا على جد وشدة فى القتال حتى وصل المسلمون إلى الخندق وجاوزوه والتصقوا بالسور ينقبونه والرماة يحمونهم والمنجنيقات توالى الرمى لتكشف الفرنجة عن الأسوار حتى يتمكن المسلمون من النقب حتى نقبوه فلما رأى الفرنجة ذلك أرسلوا إلى صلاح الدين فى طلب الأمان وخرج صاحب الرملة واجتمع بصلاح الدين يوسف وكلمه فى الكف عن القتال وتقرير قاعدة لتسليم البلد وقال له: أيها السلطان اعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير جداً لا يعلمه إلا الله وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم إليه فإذا رأينا أن لا مناص من الموت فوالله لنقتلن أولادنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تأخذون منها ديناراً ولا درهماً ولا تسبون ولا تأسرون رجلاً ولا امرأة وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ثم خرجنا إليكم كلنا وقاتلناكم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كراماً فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى ما يطلبون وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لايدرون عاقبة الأمر فيه عن أى شىء ينجلى، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى ما طلبه صاحب الرملة واستقر أن يأخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيها الغنى والفقير ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك إلى أربعين يوما

فقد نجا ومن انقضت الأربعون يوما عنه ولم يؤدها فقد صار مملوكاً فبذل صاحب الرملة عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب إلى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ورتب صلاح الدين على كل باب من البلد أميراً من الأمراء ليأخذوا من أهلها ما استقر عليهم فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة واقتسم أولئك الأمراء الأموال وتفرقت أيدى سبأ • قال صاحب الكامل وغيره: وكان على رأس قبة الصخرة بالبيت المقدس صليب كبير مذهب فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة المذكور تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح الناس كلهم صيحة واحدة من البلد ومن ظاهرها من المسلمين والنصارى فسمع الناس ضجة عظيمة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدتها فكان هذا الحادث من العجائب وتحدث الناس به كثيراً ، ثم أمر صلاح الدين بإعادة ما تخرب من الأبنية إلى ما كان عليه ولما كانت الجمعة الأخيرة رابع شعبان صلى المسلمون فى المسجد الأقصى صلاة الجمعة ومعهم صلاح الدين يوسف وصلى أيضاً فى قبة الصخرة وكان الخطيب والإمام محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق ثم رتب صلاح الدين فيه خطيباً وإماماً برسم الصلوات الخمس وشرع من قام من الفرنجة فى بيت المقدس فى بيع ما لا يمكنه حمله من أمتعة وذخائر وأموال وأخذ ما يطيق حمله فكان ما بيع شيئاً كثيراً من الأسرة والصناديق والبتيات وغير ذلك فاشتراه تجار المسلمين وتركوا أيضاً من الرخام الذى لامثيل له من الأساطين والألواح والفصوص وغيره شيئاً كثيراً ثم ساروا ورحلوا متفرقين. قال أصحاب التاريخ: وهذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه غير صلاح الدين يوسف رحمه الله وكفاه ذلك فخراً وشرفاً.

ولما شاع خبر أخذ صلاح الدين يوسف بيت المقدس وشحنه بالعساكر والأجناد والمهاجرين من المسلمين وأنه قد ولى عليه الظهير أخا الفقيه عيسى وفوض إليه تدبيره هاج النصارى وماجوا ووصل بعض المستنفرين من أهل بيت المقدس إلى قسطنطينية وغيرها من البلاد الألمانية وأخبروا بما جرى ووردت كتب بابا رومية إلى إمبراطور الألمان وغيره من ملوك أوروبا فى هذا المعنى فهموا بإعداد المقاتلين وأكثروا من جمع الأسلحة ومعدات الحرب وبالغوا فى التجهيز للقتال. قال بعض الكتاب وسار بطرك بيت المقدس إلى رومية فى جمع من القسوس يستنفرون الناس إلى الجهاد واستخلاص بيت المقدس من يد صلاح الدين يوسف ورسموا صورة المسيح فى زى رجل عارى البدن حاسر الرأس وبجانبه آخر فى زى أعرابى وقد طعنه وأسال

دمه وطافوا بهذه الصورة فى الطرق والشوارع وهم يضجون ويبكون ويحثون الناس فهاج الناس وماجوا وكبر عليهم الأمر جداً وزادت حميتهم وتبعوهم وهم ينادون بالثأر بالثأر. وبينما كانت خواطر النصارى فى اضطراب وإمبراطور الألمان يجهز المقاتلة للخروج للقتال كان صلاح الدين يوسف أيضاً يجيش الجيوش ويكثر من الكراع ومعدات الحرب وهو على عزم أن يفتح ما بقى من بلاد الساحل وسار إلى جبلة ففتحها بإغراء قاضيها وفتح ما حولها مثل انطنطوس ومرقية وأخذ حصن بكسرائيل بين جبلة ومدينة حماة وبعد أن قرر أحوال جبلة وجعل فيها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر سار عنها إلى اللاذقية وكان الفرنجة قد ساروا عنها وأخلوها وصعدوا إلى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحصروا القلعتين وقاتلوهما وقد دخل إلى الفرنجة بالقلعتين قاضى جبلة ومازال بهم حتى استأمنوا لصلاح الدين وخرب عسكر صلاح الدين ما فى مدينة اللاذقية من الأبنية العظيمة والعمائر الجسيمة المزخرفة المملوءة بالرخام الملون ونقلوا رخامها وشعثوا كثيراً من كنائسها التى قد غرم عليها الأموال الجليلة المقدار وبعد أن قرر أحوالها سلمها إلى ابن أخيه تقى الدين عمر وسار صلاح الدين من اللاذقية إلى قلعة صهيون فقاتل من بها ومازال يقاتلهم حتى سلموا إليه على قطيعة، فتسلم الحصن وسلمه إلى الأمير ناصر الدين منكورس صاحب قلعة أبى قبيس، ثم بث صلاح الدين سراياه حول صهيون، فملكوا حصن بلاطنوس وحصن العيدو وحصن الجماهرتين وكان جماعة الفرنجة قد تركوها ورحلوا عنها. قال أصحاب التاريخ: فاتسعت المملكة الإسلامية بتلك الناحية إلا أنه كان دون الوصول إليها من البلاد الإسلامية على عقبة بكسرائيل أهوال لأن الطريق السهلة كانت غير مسلوكة فإن بعضها كان بيد الإسماعيلية وبعضها بيد الفرنجة. فلما استسلمت الحصون المذكورة استسلمت أيضاً قلعة الثغر ووجدوا قلعة بكاس خالية ليس فيها أحد من الفرنجة فأخذوها وسير صلاح الدين ولده الظاهر غازى صاحب حلب إلى سرمينية فحاصرها وضيق عليها ومازال بأهلها حتى استنزلهم على قطيعة قررها عليهم فلما أنزلهم وأخذ منهم المقاطعة هدم الحصن وكان فيه وفى بقية تلك الحصون من أسارى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا، وكانت جميع هذه الحصون إلى سرمينية من أعمال أنطاكية فلم يبق لها سوى القصير وبغراس ودرب ساك كما ذكره أصحاب التاريخ ثم سار صلاح الدين يوسف إلى حصن برزية ونزل عليه وفتحه بعد قتال شديد دام أياماً وأمن صاحب الحصن هو وعائلته ووفى له بالعهد وسيره إلى أنطاكية ولبث ببرزية

يومين ثم رحل عنها وأتى جسر الحديد على نهـر العاجي بالقرب من أنطاكية فأقام عليه حـتى وافاه من تخلف من الجند والقـواد وسار عنه إلى قلعـة درب ساك فنزل عليها ونصب المنجنيقات وتابع الرمى عليها بالحجارة ومازال يجدّ فى قتالها ويزحف على الأسوار بجنده المرة بعد المرة حتى ظهر ضعف من بها من الفرنجة وعجزهم عن القتال وطلبوا من صـلاح الدين الأمان فأجابهم إلى ما طلبوه فـخرجوا وساروا إلى أنطاكية ولم يأخذوا من أموالهم ومتاعهم شيئاً وكذلك فعل بقلعة بغراس. ولما تم له فتح بغراس عرض عـسكره ليسير بمن بقى منهم إلى فتح أنطاكية فـرأى من ضعفهم ومللهم وانقباض نفوسهم ما خافه وأشفق منه فلبث أياماً لا يأمرهم بالمسير واتفق أن صاحب أنطاكـية أرسل إلى صـلاح الدين يطلب الهدنة وأطلق كل أسـير عنده من المسلمين، ففرح صلاح الدين بذلك واستشار من عنده فأشاروا بإجابته إلى ما طلب ليعود الناس فيستريحوا ويجددوا مـا يحتاجون إليه فأرسل صلاح الدين إلى صاحب أنطاكيـة بالقبول واصطلحوا مـدة على ثمانية أشهـر واستحلفه على حـفظ الزمام، فحلف له وأطلق من عنده من الأسرى فرحل صلاح الدين بعسكره عن أنطاكية إلى حلب ثالث شعبان من السنة أى سنة أربع وثمانين وخمسمائة فدخلها وسار منها إلى دمشق وفرق العـساكر الذين مع زنكى بن مودود وعسكر الموصل وغيـرها وكانوا قد أشاروا عليـه بذلك ففعل وهو يخـشى العاقبـة وكان صلاح الدين قـبل المهادنة مع صاحب أنطاكية قد جعل على الكرك عسكراً يحصره وكان به الأمير رينودى شاتيلون أحد ملوك الصليبيين فلازموا حـصاره مدة طويلة حتى فنيت أزواد من به من الفرنجة وذخائرهـم والملك العـادل أخو صلاح الدين يشدد فى الحصـار ويضيق على من به، فأرسلوا إليه يطلبون الأمان ويبذلـون تسليم القلعة فأجابهم إلى ذلك، وتسلم القلعة منهم ونزلوا وتسلم أيضاً ما يقـاربها من الحصون كالشوبك وهرمـز والوعيرة والسلع فاطمأنت قلوب المسلمين بأخذ ذلك الصقع وفرح صـلاح الدين بفتحه فرحاً عظيماً وهو مع ذلك كان يقول: إن العمـر قصير والأجل غير مأمـون وكيف أطاول الفرنجة وبيدهم إلى الآن كوكب وصفـد وغيرهما، وأقام بدمشق إلى منتـصف رمضان حتى وافته الجنود والعساكر المشرقية وغيـرهم ثم سار عن دمشق إلى قلعة صفد فحصرها وضيق عليها ونصب المنجنيقات ووالى الرمى عليها بالحجارة وكان من بها من عسكر الفرنجـة قد مضى عليـهم أيام كثيـرة وهم يدافعون عنهـا ولم يأتهم شىء من المؤنة فقلت أزوادهـم وضاقت نفوسـهم فأرسلوا يطلـبون الأمان فـأمنهم وتسلمهـا منهم فخرجوا عنها وساروا إلى مـدينة صور، ووفى لهم صلاح الدين بالعهد ثم سار عن

صفد إلى كوكب فحاصرها وأرسل بها من الإفرنج يبذل لهم الأمان إن سلموا ويتهدّدهم بالقتل والسبى والنهب إن امتنعوا فأبوا إلا القتال فقاتلهم وجدّ فى قتالهم ونصب المنجنيقات وتابع الرمى بالحجارة فلم يتمكن منها وطال مقامه عليها. ثم حملوا على سورها حملة رجل حتى التصقوا به ونقبوه فلما رأى الفرنجة ذلك مالوا إلى التسليم وأرسلوا إلى صلاح الدين فى ذلك فأجابهم واستلم منهم الحصن فى ذى القعدة وسيرهم إلى صور فانضموا إلى من بها من المقاتلين وأصلحوا حالهم ورتبوا أمورهم فاشتدت شوكتهم وجاءهم المدد تباعاً من صقلية وغيرها فصاروا جيشاً عظيماً، فندم صلاح الدين على تفريطه حيث لم ينفعه ذلك واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حد أيلة إلى أقصى أعمال بيروت فكان لا يفصل بينها غير مدينة صور وقد صارت فى غاية القوة والامتناع بما وفد عليها من جموع الفرنجة والأمداد المتتابعة واجتمع لهم أيضاً جميع أعمال أنطاكية سوى القصير.

ولما تم لصلاح الدين أخذ صفد سار إلى بيت المقدس فعيد فيه عيد الأضحى، ثم سار منه إلى عكا فأقام بها حتى انسلخت السنة. فلما كان ربيع الأول من سنة خمس وثمانين سار إلى شقيف ارنوم وهو من أمنع الحصون ليحصره فنزل بمرج عيون وأقام بها يدبر أمر جيوشه، فجرت بينه وبين صاحب الحصن وهو صاحب مدينة صيدا أيضاً مخابرات فى معنى القتال وفى المطاولة وترددت الرسل بينهما وكل منهما راض عما يسأل الآخر فتقررت القاعدة بينهما على تسليم الحصن فى جمادى الآخرة من تلك السنة ولبث صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الأجل المضروب بينهما ولكنه كان قلقاً مضطرب البال مفكراً فى قرب انقضاء الهدنة بينه وبين صاحب أنطاكية، تقى الدين ابن أخيه فيمن معه من عسكره ومن يأتى من بلاد المشرق وأمره بالنزول مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء الهدنة وكانت الأخبار عن صور تأتى إليه فى كل يوم أشكالاً وكلها تدل على اجتماع الفرنجة بها وما يتصل بهم من الأمداد فى البحر وتزايد جموعهم يوماً عن يوم، فكان منزعج الخاطر كثير الهم شديد الخوف وكان يخشى من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم إلى صور وفيها الجموع المتكاثفة فتنقطع الميرة عنه وكان صاحب الشقيف فى هذه الهدنة يشترى الأقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يقوى به حصنه وصلاح الدين لا يسىء الظن به، وما دخلت سنة ست وثمانين حتى تم تجهيز جموع الفرنجة وكثر عددهم وعُدَدهم تحت راية امبراطور الألمان فسار بهم وهم لا يحصون كثرة يريد بيت المقدس وجعل طريقه على القسطنطينية فلم يمدّهم صاحبها بشىء من

الذخيرة ولا الأزواد وخشى منهم على بلاده وكادت تقع الحرب بينهما على ذلك ثم عبروا خليج القسطنطينية واتصلوا ببلاد الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قتلش بن سلجق فلم يطئوا حدودها حتى ثارت بهم قبائل التركمان فناوشتهم القتال فلم تنل منهم فجعلوا يسايرونهم ويسرقون ما قدروا عليه ومازالوا سائرين حتى قاربوا مدينة قونية فخرج إليهم الملك قطب الدين ملك شاه بن قلج أرسلان يريد منعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد مسرعاً مدحوراً إلى قونية ، فأسرعوا فى السير فى أثره ونازلوا قونية وجدوا فى قتالها وشددوا فأرسل إليهم قطب الدين يسألهم الجلاء عن المدينة ولهم ما يطلبون فأجابه الامبراطور إلى ذلك بشرط أن يسلم إليهم جميع ما يحتاجون إليه من قوت وغيره فأتاهم بما يريدون فتزودوا وطلب منه رهائن وتسيير الكتب إلى جميع بلاده بملازمة السكون والطاعة والقيام بكل ما يطلب منهم فسلم إلى الامبراطور نيفاً وعشرين أميراً كان يكرههم رهناً وسير الكتب إلى الآفاق بإمداد جيوشهم بالميرة والزاد وجميع ما يحتاجون إليه وسار امبراطور الألمان فى جموعه حتى أتى بلاد الأرمن فخرج إليه صاحبها لافونة بن اصطفان بن ليون فى جماعة من كبار قومه وأحسن وفادته وقدم له من الأقوات شيئاً كثيراً وكذلك العلوفات وحكم الامبراطور فى بلاده وأظهر له الطاعة، فلبث أياماً ثم نادى فى جموعه بالرحيل فساروا يريدون أنطاكية ونزلوا على نهر فى طريقهم ولبثوا أياماً واتفق أن الامبراطور نزل يوماً فى النهر ليغتسل فغرق فى مكانه ، فعظم ذلك على أصحابه وأحزنهم جداً وكان معه ولده فاجتمع على البيعة له جميع الأمراء وكبار الجند والأحزاب وسار بهم يريد أنطاكية فرأى من تحصينها وامتناعها ما لاتحتاج معه إلى المدد فساروا عنها يريدون عكا فمروا بجبلة ولاذقية وقد ملكهما المسلمون فقاتلوهما قتالاً عنيفاً حتى أخذوهما ثم ساروا إلى عكا فخرج عليهم أهل حلب وغيرهم فلم ينالوا منهم ما أرادوا فكانوا يتخطفون من خلفهم وبلغوا طرابلس وأقاموا بها أياماً فرتبوا أمورهم وأحكموا نظامهم وتزودوا وركبوا السفن وأقلعوا إلى عكا، فلما وصلوا إليها صعد إلى المترسين أمامها من جموع الفرنجة من صعد ممن يفضلون الجهاد على العود إلى الأوطان، وأقلع من أقلع عائداً إلى أهله وولده صحبة امبراطور الألمان وكان صلاح الدين وأصحابه فى قلق وخوف ما عليه مزيد وهم يتوقعون جلاءهم عن جميع أرض الشام فى كل يوم إن هم خسروا عكا وكانوا كلما علموا بقرب جموع الألمان منهم ترفعوا عنهم وأخلوا لهم المسالك وبالغوا فى التحرز والالتفات، فلما سافر ملك الألمان بمن سافر معه من جموعه وقد تقوت

نفوس من بالمتاريس أمام عكا من الفرنجة بمن جاءهم من المقاتلين والمتطوعة رتبوا
أمورهم وخرجوا فى عدتهم وسلاحهم لقتال المسلمين، وقصدوا معسكر مصر
ومقدمهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم المصريون
وتقهقروا، فتبعهم الفرنجة وأعملوا فيهم القتل ودخلوا خيامهم ونهبوا جميع أموالهم
وكانت عساكر الموصل قريبة من العساكر المصرية فلما رأوا ما حل بالمصريين حملوا
على الفرنجة ومقدمهم علاء الدين حزم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل
وجدوا فى قتالهم وبالغوا فنالوا منهم ثم افترقوا والقتلى لا تكاد تدخل تحت الحصر،
فلما كان بعد يومين رأى صلاح الدين وأصحابه من تكاثر ورود المدد فى السفن
والبطس الكبيرة إلى من بعكا ما أذهلهم وأخافهم وأوقعهم فى حيرة ثم وصل الأمير
هنرى ابن أخى ملك الفرنسيس لأمه وابن أخى ملك إنجلترا لأمه ووصل معه من
الأموال والذخيرة وآلات الحرب شىء كثير للغاية فلم يستقر به المقام حتى حشد
وجند وبذل الأموال ورتب الأمور وأحكم نظام المقاتلين من كل صنف ثم أظهر أنه
يريد الخروج إلى لقاء المسلمين وقتالهم فانتقل صلاح الدين بعسكره من مكانه إلى
الخروبة فعكف الأمير هنرى بمن معه على المتاريس ونصبوا خلفها المنجنيقات ورموا
بالحجارة على البلد وتابعوا الرمى ليلاً ونهاراً وقويت نفوسهم واشتدت عزائمهم
وجاءتهم رسائل بابا رومة بالحث والاستنهاض والمثابرة على الجهاد والجد فى القتال
وأنه سير إلى الآفاق يستنهض ملوك المسيحيين إلى استخلاص بيت المقدس من يد
صلاح الدين يوسف وأن المدد قائم عليهم برا وبحراً، فلما كان حادى عشر شوال
من السنة ـ أى سنة ست ـ وثمانين ـ خرجوا فى عدد عظيم فهال منظرهم صلاح
الدين وأصحابه وانقبضت له نفوسهم فنادى صلاح الدين بنقل الأثقال إلى بلدة
ميمون فنقلوها وأرسل يستسرع حضور العساكر إليه من الأطراف فحضروا فأحكم
نظامهم وجعل أولاده الأفضل عليا والظاهر غازى والظافر مما يلى القلب وأخاه
العادل أبا بكر فى الميمنة مع العساكر المصرية ومن انضم إليه وجعل فى الميسرة عماد
الدين صاحب سنجار وتقى الدين صاحب حماة ومعز الدين سنجر شاه صاحب
جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه ونصب صلاح الدين خيمة صغيرة على تل
مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر إليهم لمرض أصابه يومئذ فاقتتلوا قتالاً خفيفاً ثم
عادوا إلى مراكزهم، وقد عرف الأمير هنرى مواقف عسكر المسلمين وما لديهم من
الأسلحة والكراع وغير ذلك فجعل يطاولهم ولا ينكف عن الرمى على من بعكا
منهم بالحجارة تارة وبالسهام أخرى واشتد الغلاء فى عسكر صلاح الدين وقل الوارد

من المؤنة لتعذر نقلها بسبب الشتاء ووقوف جماعة الفرنجة فبلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صورى فصبروا على هذا ومع ذلك فكانت تأتيهم المؤنة من البلدان القريبة على الصعب والذلول وأرسل من بعكا إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسآمة وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدما على جندها فرسم صلاح الدين بإقامة البدل وإنفاذه إليها وإخراج من بها وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل إلى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشوانى وشحنها بما تيسر من الجنود والعساكر وكانت مراكب الفرنجة قد لجأت إلى صور والجزائر فرارا من عواصف الشتاء فانفتح الطريق إلى عكا وتمكنت مراكب صلاح الدين من دخول المينا وتنزيل المقاتلة فدخل عكا عشرون أميرا وخرج منها ستون أميرا لاستيلاء الضجر والملل على جميع العساكر وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الزجال وإنفاذهم وقلت النفقة على المقاتلين فتفرق بهذا السبب أيضاً خلق كثير. قال أصحاب التاريخ: وانضاف إلى ذلك توانى صلاح الدين ووثوقه بنوابه وإهمال النواب فانحسر الشتاء والأمر كذلك وعادت مراكب الفرنجة الى عكا وانقطع الطريق وعاد الرمى بالمنجنيقات على البلد ليلاً ونهاراً وكان ممن دخل من الأمراء إلى عكا سيف الدين على بن أحمد المشطوب وعز الدين أرسل مقدم الأسدية وكان دخولهم إلى عكا فى أوائل سنة سبع وثمانين فجد الفرنجة فى القتال وشددوا فى الحصار وسدوا الطرق برا وبحراً وعظم الأمر على صلاح الدين وأصحابه. قال صاحب الكامل: فكان حال المسلمين كما قال الله عز وجل ﴿**إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا**﴾ ، ووقع فى عسكر صلاح الدين بعض الموت فمات يوسف بن زين الدين على صاحب أربل وكان قد حضر فى عسكره نجدة لصلاح الدين فى جملة من حضر من الأطراف والقتال من الفرنجة قائم على ساق فى البر والبحر ووصل إلى عكا فى الثانى عشر من ربيع الأول الملك فليب ملك الفرنسيس فى سفن كثيرة ومعه كثير من المقاتلة والمتطوعة فنزلت طائفة منهم إلى البر ونزل الملك فليب فقابله الأمير هنرى وضربت لقدومه البشائر وعلم من فى جميع البلاد التى بيد الفرنجة بخبر قدومه ففرحوا به ولم يلبث أن قاتل من بعكا من المسلمين وألح فى قتالهم وشدد فى التضييق عليهم، وكان صلاح الدين نازلاً بمن معه على شفرعم ،فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنجة ليشغلهم بالقتال عن الزحف إلى البلد فلم يكن ليقدر على ذلك، واشتد الكرب على من بالبلد وتولاهم الضجر

والملل وكبر خوف صلاح الدين وكاد يتولاه القنوط عندما جاءته الأخبار أيضاً بقرب وصول الملك ريشارد الملقب بقلب الأسد ملك الإنجليز إلى عكا فى كثير من العساكر والمقاتلين على ظهور البطس العظيمة ومراكب الحرب، وكان ريشارد قد أنذر بالجهاد فسار فى عسكر عظيم من إنجلترا يريد عكا ومر بجزيرة قبرص فنزل عليها ليملكها لأمور بينه وبين صاحبها لا تتعلق بما نحن بصدده ووصلت بعض سفنه إلى عكا ونزل من بها من المقاتلين والمتطوعين وقاتلوا المسلمين مع من يقاتلون من المسيحيين، وألحوا فى القتال وأمر الملك فليب فنصبوا سبع منجنيقات وتابعوا الرمى بها على عكا ليلاً ونهاراً فعظم الأمر على صلاح الدين وقدم ريشارد ملك الإنجليز ثالث عشر جمادى الأولى فى جموعه وقد استولى فى طريقه على جزيرة قبرص وأخذها من الروم ووصل إلى مينا عكا فى خمس وعشرين قطعة كبارا مملوءة رجالاً وأموالاً فلما عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين أرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يفدهم شيئاً فخرج الأمير سيف الدين على بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب من البلد واجتمع بالملك فليب ملك الفرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق من به من المسلمين ويمكنهم من اللحوق بسلطانهم فلم يجبه إلى ذلك وأبى إلا التسليم بغير شرط، فرجع المشطوب وأخبر بقية الأمراء بما جرى فلما كان الليل اجتمع منهم عز الدين أرسل الأسدى وابن عز الدين جاولى وسنقر الوشاقى وغيرهم، واتفقوا على الهرب فخرجوا سرا من أصحابهم ولحقوا بصلاح الدين فلما أصبح الناس ورأوا ذلك انفشلوا وازدادوا وهنا على وهنهم وضعفاً على ضعفهم وأيقنوا بالعطب وأرسل صلاح الدين إلى فليب فى معنى التسليم بشرط أن يطلق من أسرى النصارى بعدد ما فى عكا من المسلمين ليطلقوا هم من بعكا وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت، فلم يقنع بما بذل وأمر بتشديد القتال فشدّدوا وزحفوا على البلد بحدهم وحديدهم، فلما صارت على وشك السقوط ظهر من بها من المسلمين على السور يحركون أعلامهم ليراها أصحاب صلاح الدين وكانت هى العلامة إذا اخترمهم أمر فضجوا بالبكاء والعويل ولكنهم لم يقدروا على نفع ولم يدفعوا عن البلد ضرا. قال بعض الكتاب: فخرج المشطوب إلى ملوك الفرنجة وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه وبذل لهم على ذلك مائتى ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين وإعادة صليب الصلبوت مع أربعة عشر ألف دينار إلى صاحب صور فأجابوه إلى ذلك فسلم البلد إليهم ودخلوه فلما ملكوه غدروا وأحاطوا بمن فيه من المسلمين وأموالهم وحبوسهم وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل إليهم ما بذل لهم

وقال آخرون: بل فتحوا البلد عنوة وأعملوا فيه السيف وأخذوا ما به من الأموال والمتاع وأرسلوا إلى صلاح الدين فى إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم من المسلمين فطاولهم صلاح الدين فأعملوا السيف فيمن بقى من المسلمين ولم يستبقوا إلا بعض الأمراء والمقدمين ثم أخذوا يصلحون حال البلد ويرممون ما تهدم منها حتى عادت إلى ما كانت عليه من الامتناع وأقاموا إلى شعبان من السنة لايحركون ساكناً ولا يشتغلون بغير تحصين البلد وترتيب أمورهم، ثم برزوا منها وساروا يريدون حيفا وكان الملك الأفضل بن صلاح الدين يوسف فى طائفة من العسكر والمتطوعين يراقبون حركات الفرنجة ومعهم جماعة من الأمراء وهم سيف الدين ايازكوش وعز الدين جورديك وعدّة من كبار الجند فلما أحسوا بخروج الفرنجة وعلموا أنهم يقصدون حيفا كتب الملك الأفضل إلى أبيه صلاح الدين يعلمه بالحال ويستمده فنادى صلاح الدين فيمن معه بالمسير إليه فامتنعوا فعاودهم فامتنعوا وقد تولاهم الفشل واختلط الحال على صلاح الدين، فلما أبطأ المدد على الملك الأفضل وعجز عن الوقوف فى طريق الفرنجة جعل يتخطف ساقتهم فعاد ريشارد ملك إنجلترا على ساقة الفرنجة فحماها وجمعهم وساروا وهم على أحسن نظام وأجمل هيئة حتى أتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون بقرية قيمون على مقربة من حيفا فأقام الفرنجة بحيفا أياماً ثم ساروا منها إلى قيسارية والمسلمون يسايرونهم، فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم فلم ينالوا منهم ونزل الفرنجة بها ثم قاموا من قيسارية وقد أصلحوا حالهم وساروا يريدون ارسوف وكان المسلمون قد سبقوهم إليها وتبعهم السوقة والباعة وغيرهم ممن يتبعون العساكر في الحروب ،فلما اقترب الفرنجة من البلد خرج عليهم المسلمون وحملوا عليهم حملة منكرة، فحملت فرسان الفرنجة على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون منهزمين لا يلوى أحد على أحد واختلطوا بالسوقة فعلا الضجيج والصياح ووقع السيف على الأعناق وكثر القتل والتجأ من بقى من المنهزمين إلى قلب الجيش وفيه صلاح الدين يوسف فاختل نظامه وولوا جميعاً منهزمين ودخلوا شعرة كثيرة الشجر قريبة من موقفهم فظنها الفرنجة أنها مكيدة فلم يتبعوهم . قال أصحاب التاريخ: فلو علم الفرنجة أنها هزيمة لتبعوهم، واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون عن آخرهم وعاد الفرنجة فدخلوا أرسوف وأقاموا بها أياماً ثم برزوا منها وقد رتبوا أمورهم وساروا إلى يافا، فنزلوها وملكوها وبثوا سراياهم فى الأطراف فعاثوا وقتلوا وتخطفوا من المسلمين خلقاً كثيراً فعم الخوف وضاقت نفوس المسلمين وتفرق عن ملوك الأطراف أصحابهم

والمجاهدون معهم وعظم الأمر جدا على صلاح الدين يوسف ولازمه الحزن والكدر وتولاه القنوط واليأس فسار مجدا فى نفر قليل إلى الرملة ولحق بأثقاله فيها، وجمع إليه الأمراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتدمير عسقلان وقالوا له: قد رأيت ما كان منا ومنهم بالأمس وإذا جاءوا إلى عسقلان ووقفنا فى وجوههم نصدهم عنها فلا شك أنهم يظفرون بنا وينزلون عليها فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الأمر علينا لأن العدو قوى ونحن قد ضعفنا وتولانا اليأس ولازمنا الملل فلم تسمح نفس يوسف بتدميرها ونادى فيمن عنده من العساكر والمتطوّعة بالدخول إليها والذب عنها فلم يجبه أحد إلى ذلك وقالوا: إن أردت الذب عنها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد ونحن إلى الآن ما ننسى ما أصاب أهل عكا، فلما أيس من حفظها سار نحوها وأمر بتخريبها فخربت وألقيت أحجارها بالبحر وهلك فيها من الأموال والذخائر شىء كثير للغاية وعفى أثرها ثم رحل صلاح الدين عن عسقلان بعد تخريبها إلى الرملة، فخرب حصنها وهدم الكنيسة الكبرى التى بها وأتلف جميع ما كان بها من الذخيرة، وأما الفرنجة فإنهم أطالوا المقام بيافا وشرعوا فى عمارتها وتحصينها وأكثروا فيها من الأسلحة والكراع والمدد يتواصل بينها وبين بقية القلاع والحصون التى بأيديهم ،فلما طال مكثهم بها عظم الأمر على صلاح الدين وأصحابه وقلت عندهم الأقوات واشتد بهم الضجر، فترددت الرسل بين الملك العادل أبى بكر بن أيوب أخى صلاح الدين وبين ريشارد ملك الإنكليز فى معنى الصلح أو المهادنة واجتمع الملك العادل بملك الإنكليز مراراً كثيرة وتكلموا فى المعنى وشاع يومئذ بين العسكرين أن ستقرر القاعدة على أن ملك الإنكليز يزوج ابنة عمه الأميرة جوليا من العادل ويكون القدس وما بأيدى المسلمين من بلاد الساحل للعادل وتكون عكا وما بيد الفرنجة من البلاد لابنة عم ريشارد الملك ثم لم تلبث أن بطلت هذه الإشاعة ولم يتم بينهما صلح ولهذه المصالحة والمصاهرة أسباب تكلم الكتاب من الإنكليز عنها كثيراً فأضربنا عن إيرادها هنا خوف الإطالة. قالوا: وكان ريشارد ملك الإنكليز يفعل ذلك مع الملك العادل خديعة ومكراً وأظهر ريشارد العزم على قصد بيت المقدس فاضطرب صلاح الدين من ذلك وسار إلى الرملة جريدة وترك الأثقال بالبترون ثم عاد إلى البترون وقد برز الفرنجة من يافا يريدون الرملة فى ثالث ذى القعدة على عزم قصد بيت المقدس فاقتربوا من المسلمين وتخطفوهم وأكثروا القتل واشتد البلاء على أصحاب صلاح الدين وعظم الخطب فكان كل ساعة يقع الصوت فى العسكر بلقاء الفرنجة، فلقوا

من ذلك شدة بالغة للغاية وأقبل الشتاء وتوالت الأمطار واشتد البرد والناس فى ضنك، وحرج من حمل السلام والسهر الدائم تحرزاً من الفرنجة، ورأى صلاح الدين من ملل الجند وعجزهم ما أخافه فسرحهم إلى أوطانهم فلم يبق معه إلا العسكر المصرى ومقدمهم يومئذ أبو الهيجاء السمين فسار بهم صلاح الدين إلى بيت المقدس، فنزلوا جميعاً داخل البلد ونزل صلاح الدين بدار الأقصى بجوار بيعة قمامة ورسم بعمارة سور البلد وتجديد ما رث منه فأحكموا بنيانه وعملوا خندقاً عظيماً خارج السور ورتبوا الأبراج وتسلم كل برج منها أمير وحصن البلد حتى صارت فى غاية الامتناع. أما الفرنجة فإنهم وصلوا إلى الرملة وملكوها وأقاموا بها أياماً، ثم ساروا منها إلى البترون ثالث ذى الحجة وقاتلوا من بها من أصحاب صلاح الدين ونالوا منهم وجدّوا فى قتالهم حتى ملكوها، ورحل عنها من بقى من أصحاب صلاح الدين فنزل بها الفرنجة وأقاموا أياماً وبث ريشارد ملك الإنجليز عيونه وأرصاده لتأتى له بخبر ما يفعله صلاح الدين بالبيت المقدس ورسم بعمارة عسقلان وأرجائها إلى أحسن ما كانت عليه وتأهب للمسير إلى البيت المقدس وقد رتب المقاتلين على أحسن ترتيب وكان صلاح الدين لما دخل إلى البيت المقدس سير رسلاً إلى سنان مقدم الإسماعيلية يطلب منه أن يرسل من يقتل ملك الإنجليز قبل أن يبرح من البترون ويأتى إلى البيت المقدس، وأن من قتل المركيز منسرات صاحب صور فله عشرة آلاف دينار فأجابه سنان إلى ذلك ثم عدل عن قتل ملك الإنجليز كى لا يخلو الجوّ لصلاح الدين فتطمع نفسه فى البلاد وتكثر غزواته وعمد إلى قتل المركيز منسرات ،وكان من كبار الملوك معرفة بالحروب وحسن السياسة وبينه وبين ريشارد عداوة ومنافسة بسبب تقدم ريشارد على جميع الملوك الصليبيين واستلامه قيادة الجيش وتصرفه فى جميع الأمور بدون مشورتهم خلافاً للعهد واليمين الذى كان بينهم فأرسل رجلين فى زى الرهبان فاتصلا بصاحبى صيدا والرملة وكانا مع المركيز بصور فأقاما معهما أياماً كثيرة يظهران العبادة فأنس بها المركيز وركن إليهما، فلما كان فى بعض الأيام سار المركيز إلى أسقف البلد ولبث معه برهة ثم خرج يريد مقره فوثب عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه جراحاً بليغة وهرب أحدهما فدخل كنيسة يختفى فيها واتفق أنهم حملوا المركيز إلى هذه الكنيسة ليشدوا جراحه فوثب عليه الباطنى المذكور وقتله فقبضوا عليه هو ورفيقه وقتلوهما فى الحال وعظم قتل المركيز على أصحابه جداً وظنوا أن قتله بوضع من ملك الإنجليز ليخلو وجهه وينفرد بملك السواحل الشامية فولوا بعده الأمير هنرى ابن أخت ملك الفرنسيس من أبيه وهو من

كبار الأمراء وأجودهم رأياً وأحسنهم سياسة وخبرة بالحروب وقد تولى ملك جميع بلاد الساحل الشامى بعد رجوع ريشارد إلى بلاده والفراغ من هذه الحرب الصليبية.

ووصل ريشارد ملك الإنجليز فى عسكره إلى حصن الداروم أوائل جمادى الأولى فخربه وعفى معالمه وسار إلى بيت المقدس وصلاح الدين فيه فوصل بالعسكر إلى بيت نوبة ثم ساروا من هناك إلى قلونية سلخ الشهر وهى على قيد فرسخين من بيت المقدس وبث سراياه فى الأطراف، وطاف هو حول البيت المقدس ليرى من أين يأتيه ويقاتل من به فكبر خوف المسلمين وعظم عليهم الأمر وثابروا على السهر والوقوف على السور ليلاً ونهاراً لا يلقون عنهم السلاح، وعلم الفرنجة بوصول عسكر من مصر ومعهم قفل كبير ومقدم ذلك العسكر أمير اسمه فلك الدين سليمان أخو العادل لأمه ومعه عدة أمراء من المصريين، فأسرى الفرنجة إليهم وأحاطوا بهم جميعاً وأعملوا فيهم السيف بنواحى الخليل فانهزم الجند شر هزيمة وكثر فيهم القتل وغنم الفرنجة خيامهم وآلاتهم وجميع مالهم وهرب من نجا من الأمراء والجند وصعدوا جبل الخليل فلم يتبعهم الفرنجة. قال بعض كتاب الأخبار: ولو اتبعوهم نصف فرسخ لأتوا عليهم جميعاً وعفوا أثرهم، وبقى ملك الإنكليز بعسكره حول البيت أياماً كثيرة وعسكر صلاح الدين لا يغفلون ولا يبارحون الأسوار ثم ترددت الرسل بين ريشارد وصلاح الدين فى أمر الصلح والكف عن القتال وحقن الدماء ورحل ريشارد عن بيت المقدس وسار إلى يافا ثم عنها إلى عكا، فخرج صلاح الدين فى عسكر من البيت المقدس وسار نحو يافا يريد أخذها فقاتل من بها من الفرنجة قتالاً عنيفاً وحاصر القلعة وشدد فى حصارها أياماً. وإذا بريشارد قد أحاط بالبلد وقاتل صلاح الدين وهزمه وانتصر عليه ومزق شمل جموعه. قال أصحاب التاريخ: وبرز ريشارد إلى ظاهر المدينة فى ذلك اليوم واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم فلم يتقدم اليه أحد وخافوا منه خوفاً عظيماً فوقف بين الصفين واستدعى طعاماً ونزل عن فرسه وأكل فشق ذلك على صلاح الدين ونادى فى عسكره بالهجوم على الفرنجة والجدّ فى قتالهم فتقدم إليه بعض أمرائه ويعرف بالجناح وهو أخو المشطوب بن علىّ بن أحمد الهكارى فقال له: يا صلاح الدين قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنائم وضربوا الناس بالجماقات أن يتقدموا ليقاتلوا عند انتشاب نار القتال وتكون الغنائم نصيباً لهم. وكان لما دخل عسكر صلاح الدين إلى يافا بعد فتحها وصار المقاتلون ينهبون ما فيها وقف جماعة من مماليك صلاح الدين على أبواب المدينة وكل من خرج من الجند ومعه شىء من الغنيمة أخذوه منه فإن

امتنع ضربوه وأخذوا ما معه قهـراً» فلما سمع صلاح الدين كلام الجناح غضب وقد أنس الغـدر من الأمراء إن هو أطال الحـرب مع الفـرنجة وراسل ملك الإنجليـز فى طلب الصلح وطلب التعجيل، وقد عرف صلاح الدين ما عند العسكر من الضجر، والملل وما قد هلك من سـلاحهم ودوابهم وما نفد من نفقـاتهم وقال: إن لم نعجل بالصلح تأخر ملك الإنجليز ومن معه من الملوك والأمراء الصليبين عن الرحيل إلى أوطانهم لدخول الشتاء، فنبقى هنا سنة أخـرى وحينئذ يعظم الضرر على المسلمين، ومازال بريشارد حتى تقررت القاعدة بينهم فى العشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمســمائة وعقدوا الصلح وتحـالفوا على هذه القاعدة ونادى كل فـريق فى عسكره بتقـرير قاعـدة الصلح فاختلط العـسكران وزار بعضـهم بعضـاً وأباح صلاح الدين لطوائف الفرنجة زيارة بيت المقدس. فزاروه وتفرقوا وبقى ما بيد الفرنجة من السواحل الشاميـة خاضعة للمـلك هنرى .قال صاحب الكامل: وكان هنرى هذا خـيراً قليل الشر رفيـقاً بالمسلمين محـبا لهم ، وعاد صلاح الدين بعـد ذلك إلى بيت المقدس، فرسم بإحكام سوره وعمل به المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك ووقف عليها الوقوف ثم سـار عن البيت المقـدس نحو دمشق واستتاب به الأمير جـورديك أحد المماليك الـنورية فدخل دمشق فى الخـامس والعشـرين من شوال من السنة، فـفرح الناس به لطول غـيبتـه عنهم وكان بها أولاده الصـغار والظاهر والأفـضل والظافر، فلبث بها فلمـا كـان اليوم الخامـس عـشر من صـفر من السنة أى سنة تسع وثمانين ركب فى طائفة من أصحابـه لملاقاة الحاج ثم عاد وقد أصابته حـمى شديدة ولازمته ثمانية أيام، ثم مـات بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعـشرين من صفر المذكور فحزن عليه الناس حزناً عظيمـاً وغشى الملك والقلعة فى ذلك اليوم وحشة، وكان كريمـاً جوداً حسن الأخلاق مـتواضعاً صبـوراً على ما يكره كثيـر التغافل عن ذنوب الناس مـات وله من العمـر سبع وخمـسون سنة فـعمل الشـعراء فيـه المراثى الكثيرة. من ذلك قصيدة للعماد الكاتب مائتان وثلاثون بيتا أولها :

شـمل الهـوى والملـك عم شتـاته ... والدهر سـاء وأقلعـت حسـناته

بالـله أيـن الـنـاصـر الملك الذى ... لله خـالـصة صـفـت نـيـاتـه

أين الذى مـازال سلـطانا لـنا ... يرجى نـداه وتـتـقى سطـواتـه

أين الذى شـرف الزمـان بفضله ... وسـمت على الفضـلاء تشريفـاته

أين الذى عنـت الفـرنـج لبـأسـه ... ذلاً ومنـهـا أدركـت ثـاراتــه

أغـلال أعناق الــورى أسيـافـه ... أطواق أجيـاد الـورى حسناتـه

إلى آخر ما قال .

قال ابن السبكى فى الطبقات الكبرى له يعنى صلاح الدين من الفتوحات التى خلصها من الفرنجة قلعة ايليا وطبرية وعكا والقدس والخليل والكرك والشوبك ونابلس وعسقلان وبيروت وصيدا وبيسان وغزة ولد وحصا وخورية والفولة ومغليسيسيا والطود والاسكندرية وهفوس وياماس وارسوف وقيسارية وجبيل ونبل ومملكية ومقربلا واللجون وآسمه ويافول ومجدل وبابايل والصافية وبيت نوبا والبيرون والحيب والكرسة وبيت لحم وريحاقرا وأحصر الدير وبئر فلفيلة وصرير الزيت والوعر والهرمس وتغليسا والغارزية وتفرع ومجدل والحار والشقيف وسيطلة التى يقال لها قبر زكريا وجبيل وكوكب وانطوطوس واللاذقية ومسكرائيل وصهيون وجبلة وقلعة العبد وقلعة الجماهيرية وبلاطنس والشغر وبكاس وسرمينية وبرزية ودرب ساك وبغراس وصفد وله مضافات يطول شرحها. قال: وكانت مملكته من المغرب إلى تخوم العراق ومعها اليمن والحجاز وملك ديار مصر بأسرها مع ما انضم إليها من بلاد المغرب والشام بأسرها مع حلب وما والاها وأكثر بلاد ربيعة وبكر والحجاز بأسره واليمن بأسره ونشر العدل فى الرعية وحكم بالقسط وبنى المدارس والخوانق وأجرى الأرزاق وهو الذى بنى قلعة الجبل المقطم التى هى دار سلاطين مصر وولاتها ولم يكن لهم قبلها إلا دار الوزارة بالقاهرة .وفتح من بلاد المسلمين حران وسروجه والرها والرقة والبيرة وسنجار ونصيبين وآمد وملك حلبا والمواريخ وشهرزور وحاصر الموصل إلى أن دخل صاحبها تحت الطاعة وفتح عسكره طرابلس الغرب وبرقة من بلاد المغرب وكسر عسكر توتس وخطب بها لبنى العباس ولو لم يقع الخلف بين عسكره الذين جهزهم إلى المغرب لملك المغرب بأسره ولم يختلف عليه مع طول مدته أحد من العسكر وكان رقيق القلب جدا. هذا كله من كلام ابن السبكى فى الطبقات. ومن صنائعه أنه أسقط المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة وقد كان يؤخذ منهم شيء كثير ومن عجز عن أدائه حبس فربما فاته الوقوف بعرفة وعوّض أميرها المدعو ثمال أقطاعاً بديار مصر يحمل إليه منه فى كل سنة ثمانية آلاف أردب غلة عوناً له ولمن بعده. قال العماد الكاتب وغيره: مات صلاح الدين ولم يترك فى خزائنه من الذهب سوى دينار واحد صورى وستة وثلاثين درهما ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك وترك سبعة عشر ولداً ذكراً وابنة واحدة وكان متديناً في مأكله ومشربه وملبسه فلا يلبس إلاّ القطن والكتان والصوف وكان به عرج فقال فيه ابن عينين الشاعر :

سلطاننا أعرج وكاتبه   ذو عمش والوزير منحدب

وكان الخليفة المستضئ أرسل إليه فى سنة أربع وستين وخمسمائة خلعاً سنية جداً وزاد فى ألقابه معز أمير المؤمنين، فلما ولى الخليفة الناصر فى سنة ست وسبعين على ماتقدم بيانه أرسل إليه خلعة الاستمرار، ثم أرسل إليه فى سنة اثنتين وثمانين يعاتبه على تلقيبه بالملك الناصر مع أنه لقب أمير المؤمنين فأرسل يعتذر له بأن ذلك كان من أيام الخليفة المستضئ وأنه إن لقبه أمير المؤمنين بلقب فهو لايعدل عنه وتأدب مع الخليفة غاية الأدب .

ولما مات صلاح الدين يوسف بدمشق كان معه بها ولده الأكبر الأفضل كما تقدم القول وكان قد حلف له العساكر جميعهم غير مرة فى حياة أبيه، فلما مات أبوه استقل بملك دمشق والساحل والبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهوين وتبنين وجميع الأعمال إلى الداروم وانحلت جميعها عن ملك مصر وكان بمصر أيضاً ولده العزيز عثمان فاستولى عليها واستقر ملكه بها وكان ولده الظاهر غازى بحلب، فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر واعزاز وبرزية ودرب ساك ومنبج وغير ذلك وكان بحماة محمود بن تقى الدين عمه فأطاعه وصار معه وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه فأطاع الملك الأفضل وكان الملك العادل أخو صلاح الدين قد صار إلى الكرك فى أيام أخيه، فامتنع به ولم يحضر عند أحد من أولاد أخيه وهكذا اقتسموا مملكة صلاح الدين فيما بينهم وتصرف كل واحد منهم بمصلحته وهواه. ولنضرب صفحاً عن جميع من ذكر ونتتبع حوادث صاحب مصر منهم وهو (الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح) فقد كان من أمره بعد أن استقل بحكم البلاد ودانت له الأمور أن سار فى الرعية سيرة حسنة مع العفة فى المال والغيرة حتى أنه ضاق ما بيده ولم يبق فى الخزانة درهم ولادينار فجاء إليه رجل يسعى فى قضاء الصعيد بمال فامتنع وقال: والله لا بعت دماء المسلمين وأموالهم بملك الأرض فأحبته الرعية ومالت إليه القلوب وأخلصت له الطاعة وجعل يتصرف فلما كانت سنة تسعين وخمسمائة تاقت نفسه إلى توسيع سلطانه وتمديد ملكه فعمد إلى الإغارة على سلطنة أخيه الملك الأفضل علىّ فسار إلى دمشق وحصرها وبها أخوه المذكور ونزل بميدان الحصن فكبر الأمر على الأفضل وأرسل إلى عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب وهو يومئذ صاحب الديار الجزرية يستنجده وكان للأفضل غاية الوثوق به والاعتماد عليه فساء الملك العادل ما فعله الملك العزيز وسار من فوره إلى دمشق وصحبته الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب

وناصر الدين محمد بن تقى الدين صاحب حماة وأسد الدين شيركوه صاحب حمص وعسكر الموصل وغيرهم واجتمعوا جميعاً بدمشق واتفقوا على حفظها علماً منهم أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم وأذهب سلطانهم فلما رأى العزيز اجتماعهم علم أنه لا قدرة له على البلد فترددت الرسل حينئذ بينهم فى الصلح فاستقرت القاعدة على أن يكون بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها للأفضل على ما كانت عليه وأن يعطى الأفضل أخاه الملك الظاهر جبلة ولاذقية وأن يكون للعادل بمصر أقطاعه الأول واتفقوا على ذلك وعاد العزيز إلى مصر ورجع كل واحد من إخوته إلى بلاده ولكن لم يمض على هذا الاتفاق إلا سنة واحدة غير كاملة حتى نقض العزيز العهد وخرج من مصر فى عسكر عظيم إلى دمشق يريد حصرها ثانية، وكان سبب ذلك أن من كان عنده من مماليك أبيه صلاح الدين المعروفين بالصلاحية مثل فخر الدين جركس وقرا سنقر وقراجا وغيرهم كانوا منحرفين عن الأفضل علىّ لأنه كان أخرج من عنده منهم مثل ميمون القصيرى وسنقر الكبير وأيبك وغيرهم فكانوا يكرهونه لذلك وكانوا يخوفون العزيز من أخيه الأفضل ويحرضونه على الإغارة على بلاده ويقولون إن لم تفعل ذلك مال الأكراد والمماليك الأسدية من عسكر مصر إلى أخيك وانضموا إلى عسكره فيخرجك من البلاد فصدق قولهم وعمل بمشورتهم وخرج فى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة فبلغ خبر تأهبه إلى الأفضل فسار من دمشق إلى عمه الملك العادل فاجتمع به فى قلعة جعبر ودعاه إلى نصرته وسار من عنده من حلب إلى أخيه الملك الظاهر غازى فاستنجده وسار الملك العادل من قلعة جعبر الى دمشق فسبق الملك الأفضل إليها ودخلها وكان الأفضل لثقته به أمر نوابه بإدخاله إلى القلعة ثم عاد الأفضل من حلب إلى دمشق فأرسل مقدم الأسدية وهو سيف الدين ايازكوش وغيره منهم ومن الأكراد أبو الهيجاء السمين وغيره إلى الأفضل والعادل بالانحياز إليهما والكون معهما ويحضهما على الاتفاق على العزيز والخروج من دمشق ليسلموها إليهما. قال أصحاب التاريخ: وكان سبب بغض هؤلاء للعزيز وميلهم إلى الأفضل أن العزيز لما ملك مصر مال إلى طائفة المماليك الناصرية وقدّمهم ووثق بهم ولم يلتفت إلى هؤلاء الأمراء فأنفوا من ذلك ومالوا إلى أخيه وأرسلوا إلى الأفضل والعادل فاتفقا على ذلك أيضاً واستقرت القاعدة بحضور رسل الأمراء أن الأفضل يملك الديار المصرية ويسلم دمشق إلى عمه الملك العادل وخرجا من دمشق على ذلك فانحاز إليهما من ذكرنا فلم يمكن العزيز المقام بل عاد منهزماً يطوى المراحل

خوف الطلب ولا يصدّق بالنجاة وتساقط أصحابه عنه إلى أن وصل إلى مصر وأما العادل والأفضل فإنهما أرسلا إلى البيت المقدس وفيه نائب العزيز فسلمه إليهما وسار بمن معه من الأسدية والأكراد إلى مصر فرأى العادل من انضمام العسكر إلى الملك الأفضل وميلهم إليه ما أخافه وعلم أنه أى الأفضل إن أخذ مصر ربما لايسلم إليه دمشق فأرسل حينئذ سرا إلى الملك العزيز يأمره بالثبات وأن يجعل بمدينة بلبيس من يحفظها وتكفل بأنه يمنع الأفضل وغيره من مقاتلة من بها فجعل العزيز جماعة الناصرية ومقدمهم فخر الدين جركس بها ومعهم جماعة أخرى، فلما وصل العادل والأفضل إلى بلبيس نازلوا من بها من أصحاب العزيز وعزم الأفضل على مناجزتهم أو تركهم بها والرحيل إلى مصر فمنعه العادل من الأمرين وقال: هذه عساكر الإسلام فإن قتلوا فى الحرب فمن يردّ العدوّ الكافر وما بها حاجة إلى ذلك فإن البلاد لك وبحكمك ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذتهما قهراً زالت هيبة البلاد وطمع فيها الأعداء وليس فيها من يمنعك عنها وسلك معه مثل هذا فطالت الأيام وأرسل إلى العزيز سراً وأمره بإرسال القاضى الفاضل وكان مطاعاً عند البيت الصلاحى لعلو منزلته عند صلاح الدين فحضر عندهما وأجرى ذكر الصلح وزاد القول ونقص وانحلت العزائم واستقر الأمر على أن للأفضل البيت المقدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والأردن وجميع ما بيده ويكون للعادل أقطاعه التى كانت قديماً ويكون مقيماً بمصر عند العزيز قالوا وإنما اختار ذلك لأن الأسدية والأكراد لايريدون العزيز فهم يجتمعون معه فلا يقدر العزيز على منعه عما يريده فلما استقر الأمر على ذلك وتعاهدوا عاد الأفضل إلى دمشق وبقى العادل بمصر عند العزيز.

ولم يستقر الصلح بينهم على ما وصفنا أكثر من حول واحد حتى عاد العادل أبو بكر فأخذ دمشق من الأفضل ابن أخيه صلاح الدين وذلك فى السابع والعشرين من رجب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وكان أبلغ الأسباب فى ذلك وثوق الأفضل بالعادل المذكور وقد بلغ من وثوقه به أنه أدخله بلده وهو غائب عنه كما تقدم القول وخالف فيه قول أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب. وقال بعض كتاب الأخبار غير ذلك، وهو أنه لما أن سار العادل والأفضل إلى مصر وحاصرا بلبيس ثم اصطلحا مع العزيز صاحب مصر أقام العادل مع العزيز بمصر، فلم يلبث حتى استمال العزيز إليه وقرر معه أن يخرجا معاً إلى دمشق ويأخذاها من الأفضل وأن يسلمها إليه فسار معه إلى دمشق وحصروها جميعاً واستمالوا أميراً من أمراء الأفضل يقال له العزيز بن أبى غالب الحمصى وكان الأفضل كثير الإحسان إليه والاعتماد

عليه والوثـوق به، فسلم إليه باباً من أبـواب دمشق يعرف بالبـاب الشرقي ليـحفظه فمال إلى الـعزيز والعادل ووعدهمـا أن يفتح لهما البـاب ويدخل العسكر منه إلى البلد غفلة فـفتحه فى اليـوم السابع والعشرين من رجب وقت العـصر وأدخل الملك العادل منه ومعه جـماعة من أصحابه ،فلم يشعر الأفضل إلا وعـمه معه فى دمشق وركب الملك العزيز ووقف بالميدان الأخضر غربى دمشق، فلما رأى الأفضل أن البلد قد ملك خـرج إلى أخيه وقت المغـرب واجتمـع به ودخلا كلاهمـا البلد واجتمـعا بالعادل وقد نزل فى دار أسد الدين شيركوه وتحادثوا واتفق العادل والعزيز على أنهما يبقـيان على الأفضل البـلد خوفاً من أنه ربما جـمع من عنده من العسكر وثار بهـما ومعـه العامة فأخـرجهمـا من البلد وعاد الأفضل إلى القلعـة، وبات العادل فى دار شيركـوه، وخرج العزيز إلى الخيـام فبات فيهـا وخرج العادل من الغد إلى جـوسقه فأقام به وعـسكره فى البلد وفى كل يوم يخرج الأفضل إليهمـا ويجتمع بهما فـبقوا على هذا الحال أياماً ثم أرسلا إليه وأمراه بمفـارقة القلعة وتسليم البلد على قاعدة أن يعطى قلعة صرخد له ويسلم جميع أعمال دمشق، فخرج الأفضل ونزل فى جوسق بظاهر البلد غربى دمشق وتسلم العزيز القلعة ودخلها وأقام بها أياماً فجلس يوماً فى مجلس شرابه فلمـا أخذت منه الخمر جرى على لسانه أنه على عـزم أن يعيد دمشق إلى أخيه الأفضل فنقل ذلك إلى العادل فى الحال فحضر المجلس من ساعته والعزيز سكران فلم يزل به حتى سلم إليه البلد وخرج منه وعاد إلى مصر وسار الأفضل إلى صرخد، واتفق أن خـرج العزيز من القاهرة يريد الصيد، فـجعل ينتقل من بلد إلى آخر حـتى وصل إلى مدينة الفيـوم فرأى ذئباً فـركض فرسه فى طلبـه فعثـر الفرس فسـقط عنه ولحقتـه حمى فعـاد إلى القاهرة مـريضاً واشتـد به مرضه، فـمات فى العشرين من المحرم افتـتاح سنة خمس وتسعين وخمسمـائة. قال أصحاب التاريخ: وكان الغالب على أمره مملوك ولده فخر الدين جهاركس، فلما مات العزيز سير فخر الدين المذكـور إلى الملك العادل أبى بكر بن أيـوب وهو يحاصـر ماردين يسـتدعـيه ليملكه البلاد فسار القاصد مـجداً فلما بلغ الشام رأى بعض أصحاب الملك الأفضل فقال له : قل لصاحـبك إن أخاه العزيز مات وليس فى مصر من يمنعها فلـيسر إليها على عجل وكان الأفـضل محبوباً إلى الناس فلم يلتفت إلى قـول ذلك القاصد ولم يتحرك من صرخـد حتى جاءته رسل الأمراء من مصر يدعونه إلـيهم ليملكوه البلاد وكان سـبب ذلك أن الأمـير سـيف الدين يازكج مقـدم الأسدية والفـرقة الأسـدية والأمراء الأكراد يحبونه كثيـراً وكانت المماليك الناصرية الذين هم ملك أبيه يكرهونه

فاجتمع سيف الدين مقدم الأسدية المذكور وفخر الدين جهاركس مقدم الناصرية ليتفقوا على من يولونه الملك. فقال فخر الدين: نولى ابن الملك العزيز فقال سيف الدين إنه طفل وهذه البلاد ثغر الإسلام ولابد من قيم بالملك يجمع العساكر ويقاتل بها فأرى أننا إذا جعلنا الملك فى هذا الطفل نجعل معه بعض أولاد صلاح الدين يدبره إلى أن يبلغ أشده فإن العساكر لا تطيع غيرهم ولا تنقاد لأحد غير أهل هذا البيت وجرى بين الفريقين كلام ثم اتفقا على هذا. فقال جهاركس: ومن يتولى القيام بذلك؟ فأشار سيف الدين بغير الأفضل فجرى بينه وبين جهاركس منازعة لئلا يتهم وينفر جهاركس عنه فامتنع من ولايته. قال بعض أصحاب الأخبار: فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين واحداً بعد آخر إلى أن ذكر آخرهم الأفضل فقال جهاركس: هو بعيد عنا وكان يومئذ بصرخد مقيماً بها من حين أخذت منه دمشق فقال سيف الدين نمضى إلى القاضى الفاضل ونأخذ برأيه فاتفقا على ذلك وأرسل سيف الدين فى الحال القاصد وراءه، فسار عن صرخد لليلتين بقيتا من صفر متنكراً فى تسعة عشر نفراً فلما قارب بيت المقدس، وقد عدل عن الطريق المؤدى إليها لقيه فارسان قد أرسلا إليه من بيت المقدس فأخبراه أن من بالقدس قد صار فى طاعته فجد فى السير فوصل إلى بلبيس خامس ربيع الأول ولقيه إخوته وجماعة الأمراء المصريين وجميع الأعيان، واتفق أن أخاه الملك المؤيد مسعوداً صنع له طعاماً وصنع له فخر الدين مملوك أبيه طعاماً أيضاً فابتدأ بطعام أخيه ليمين حلفها أخوه أن يبدأ به فظن فخر الدين جهاركس أنه فعل هذا انحرافاً عنه وسوء ظن به فاضطرب خاطره وتغيرت نيته وعزم على الهرب فحضر عند الأفضل وقال: إن طائفة من العربان قد اقتتلوا وإن لم نمض إليهم نصلح بينهم لأدى ذلك إلى فساد عظيم فأذن له الأفضل فى المضى إليهم ففارقه وسار مجداً حتى وصل بيت المقدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الناصرية منهم قراجه الزره كش وسرا سنقر واستقدموا أيضاً ميمونا القصرى صاحب نابلس وهو من المماليك الناصرية فقويت شوكتهم به، واجتمعت كلمتهم على خلاف الأفضل وأرسلوا إلى الملك العادل وهو على ماردين يطلبونه إليهم ليدخلوا معه إلى مصر ليملكوها فلم يسر إليهم لأن أطماعه كانت قد قويت فى أخذ ماردين وقد عجز من بها عن حفظها حتى إذا أخذها جاءهم على الأثر ليدخل معهم مصر.

أما الملك الأفضل فإنه بعد أن استراح من متاعب السفر سار عن بلبيس إلى القاهرة فوصلها سابع ربيع الأوّل وعلم بهرب فخر الدين جهار كس فأهمه ذلك

وترددت الرسل بينه وبين جهاركس ومن معه ليعودوا إليه فلم يزدادوا إلا بعدا ولحق بهم جماعة آخرون من الناصرية أيضا فاستوحش الملك الأفضل ممن بقى من الناصرية فقبض عليهم وهم شقيرة وأيبك فطيس والبكى الفارس وغيرهم وكل من هؤلاء بطل مشهور ومقدم مذكور وسجنهم وجعل الأفضل يتصرف فى الأمور ويقرر القواعد ويصلح الأحوال ويقضى حوائج الخلق والمرجع فى جميع الأمور إلى سيف الدين ياركج فكان معه ابن أخيه الملك العزيز ملكا بالاسم فقط، ولم يمض إلا القليل حتى اجتمعت له الكلمة ومالت إليه القلوب وأحبه الامراء والرعية ووصل إليه رسول من عند أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب وأرسل ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد شيركوه صاحب حمص يحثانه على الخروج إلى دمشق واغتنام الفرصة بغيبة العادل عنها وبذلا له المساعدة بالمال والنفس والرجال فمال إلى رأيهم وبرز من القاهرة فى منتصف جمادى الأولى من سنة خمس وتسعين وخمسمائة على العزم إلى دمشق وأقام بظاهر القاهرة إلى ثلث رجب ثم رحل فيه وتعوق فى مسيره. قال أصحاب التاريخ :ولو بادر وعجل المسير لملك دمشق بغير ممانع ولكنه تأخر فوصل إليها ثالث عشر شعبان فنزل على جسر الخشب على قيد فرسخ ونصف من دمشق، وكان الملك العادل قد أرسل إليه نوابه بدمشق يعرفونه قصد الأفضل لهم ففارق ماردين وخلف ولده الكامل محمدا فى جميع العساكر على حصارها وسار جريدة فجدّ السير فسبق الأفضل فدخل دمشق قبله بيومين وتقدّم الأفضل إلى دمشق فى الغد وهو رابع عشر شعبان ودخل فى ذلك اليوم بعينه طائفة يسيرة من عسقلان إلى دمشق من باب السلام وكان سب دخولهم أن قوما من أجناده ممن بيوتهم مجاورة لذلك الباب اجتمعوا بأمير اسمه مجد الدين أخى الفقيه عيسى الهكارى وتحدّثوا معه فى أن يقصد هو والعساكر باب السلامة ليفتحوه لهم فأراد مجد الدين المذكور أن يختص بفتح الباب وحده فلم يعلم الأفضل ولا أخذ أحدا من العسكر بل سار وحده ومعه نحو خمسين فارسا من أصحابه ففتح له الباب فدخله وهو ومن معه فلما رآهم عامة البلد نادوا بشعار الأفضل فاستسلم من به من العساكر والأجناد ونزلوا عن الأسوار وبلغ الخبر الملك العادل فكاد يستسلم ولكنه تماسك أما الذين دخلوا البلد فإنهم وصلوا إلى باب البريد فما رأى عسكر العادل الذين كانوا بدمشق قلة عددهم وانقطاع مددهم وثبوا عليهم وأخرجوهم منه وكان الأفضل قد نصب خيامه بالميدان الأخضر وقارب عسكره الباب الجديد وهو من أبواب القلعة فقدّر الله أنه أشير على الأفضل الانتقال إلى ميدان الحصن ففعل ذلك

فقويت نفوس من فيه وضعفت نفوس العسكر المصرى ثم إن الأمراء الأكراد منهم تخالفوا فصاروا يدا واحدة يغضبون لغضب أحدهم ويرضون لرضا الآخر فظن الأفضل وباقى الأسدية أنهم فعلوا ذلك لقاعدة بينهم وبين الدمشقيين فرحلوا من موضعهم وتأخروا ووصل أسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى الأفضل فى الخامس والعشرين من شعبان ووصل بعده الملك الظاهر صاحب حلب وعزموا على الزحف إلى دمشق فمنعهم الملك الظاهر مكرا بأخيه وحسدا له ولم يشعر أخوه الأفضل بذلك أما الملك العادل فإنه لما رأى كثرة العساكر وتتابع الإمداد إلى الأفضل عظم عليه الأمر فأرسل إلى المماليك الناصرية ببيت المقدس يستدعيهم إليه فساروا سلخ شعبان فوصل خبرهم إلى الأفضل فسير أسد الدين صاحب حمص ومعه جماعة من الأمراء إلى طريقهم فمنعوهم فسلكوا غير طريقهم فجاء هؤلاء ودخلوا ودمشق فقوى العادل بهم قوة عظيمة وزال عنه ماكان يخشاه وأيس الأفضل ومن معه من أخذ دمشق وخرج عسكر دمشق فكبسوا العسكر المصرى فوجدوهم قد حذروهم فعادوا عنهم خاسرين وأقام العسكر على دمشق ما بين قوة وضعف وانتصار وتخاذل حتى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمد وكان قد رحل عن ماردين ونزل بمن معه بحوران فاستدعاه إليه بعسكره فسار على طريق البر فدخل إلى دمشق ثانى عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة فعند ذلك رحل العسكر عن دمشق إلى ذيل جبل الكسرة واستقر أن يقيموا بحوران حتى يخرج الشتاء فرحلوا إلى رأس الماء وهو موضع شديد البرد فتغير العزم عن المقام واتفقوا على أن يعود كل إلى بلده فلما وصل الأفضل إلى مدينة بلبيس نزل بها أياما فوصلته الأخبار بأن عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصدا مصر ومعه المماليك الناصرية وقد حلفوا له على أن يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد وهو (أى العادل) المدبر للملك إلى أن يكبر فساروا على هذا وكان عسكر الأفضل بمصر قد تفرقوا فسار كل منهم إلى أقطاعه فرام الأفضل جمعهم من أطراف البلاد فأعجله الأمر عن ذلك ولم يجتمع منهم إلا طائفة يسيرة من قرب أقطاعه ووصل العادل فى عسكر عظيم فأشار بعض الناس على الأفضل أن يخرب سور بلبيس ويقيم بالقاهرة وأشار غيرهم بالتقدم إلى أطراف البلاد ففعل ذلك فسار عن بلبيس ونزل موضعا يقال له السايح والتقى هو والعادل سابع ربيع الآخر سنة ست وتسعين واقتتلوا فانهزم الأفضل ودخل القاهرة ليلا واتفق فى تلك الليلة موت القاضى الفاضل عبدالرحيم بن على البيسانى كاتب الإنشاء لصلاح الدين ووزيره فحضر الأفضل

للصلاة عليه وسار العادل حتى نزل على القاهرة بعسكره وحاصرها وضيق عليها فجمع الأفضل من عنده الأمراء واستشارهم فرأى منهم تخاذلا فأرسل إلى عمه فى طلب الصلح وتسليم البلاد إليه وأخذ العوض عنها وطلب دمشق فلم يجبه العادل فنزل عنها إلى حوران والرها فلم يجبه أيضا فنزل إلى ميافارقين وحانى وجبل جوز فأجابه إلى ذلك وتحالفوا عليه وخرج الأفضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر واجتمع بالعادل وسار إلى صرخد ودخل العادل إلى القاهرة فى اليوم المذكور.

ولما ثبتت قدم الملك العادل بمصر تاقت نفسه إلى الاستبداد بالملك فقطع خطبة الملك المنصور بن الملك العزيز وخطب لنفسه وصادر طوائف الجند فى أقطاعهم واعترضهم فى أصحابهم ومن عليهم من العسكر المقرر فتغيرت لذلك نياتهم وانحرفوا عليه واتفقت على ذلك كلمتهم وبينما هو على هذا الحال إذ وردت الأخبار بتأهب الفرنسيس لأخذ مدينة دمياط فلم يهتم العادل بذلك فلما كانت سنة خمس عشرة وستمائة وصلت مراكبهم إلى دمياط فى صفر فأرسوا على بر الجزيرة بينهم وبين دمياط النيل وبنوا عليهم سورا وجعلوا خندقا يحول بينهم وبين من يقصدهم وشرعوا فى قتال من بدمياط وعملوا آلات ومرساة وأبراجا يزحفون بها فى المراكب إلى برج عظيم كان بدمياط مشحون بالرجال ليقاتلوه ويملكوه وقد نزل الكامل ابن الملك العادل بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط والعسكر متصل من عنده إلى دمياط ليمنع الفرنسيس من العبور إلى أرضها وأدام الفرنسيس قتال البرج وتابعوه فلم يظفروا منه بشىء قيل وكسرت مرماتهم وآلاتهم ومع ذلك لازموا قتاله وبقوا على ذلك أربعة أشهر حتى ظفروا وملكوا البرج وكان منيعا مبنيا فى وسط النيل وفيه سلاسل من حديد غلاظ ممدودة من النيل إلى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر الملح أن تصعد فى النيل إلى ديار مصر، فلما ملكوا البرج قطعوا تلك السلاسل لتدخل مراكبهم إلى النيل ويتمكنوا من البر فأمر الكامل فنصبوا عوض السلاسل جسرا عظيما امتنعوا به من سلوك النيل فقاتلوا عليه أيضا قتالا شديدا حتى قطعوه، فأخذ الكامل عدّة مراكب كبار وملأها رملا وخرقها وغرّقها فى النيل فمنعت سفن الفرنسيس من السلوك فلما رأى الفرنسيس ذلك قصدوا خليجا هناك يعرف بالخليج الأزرق كان النيل يجرى فيه فحفروا ذلك الخليج وعمقوه وأجزوا الماء فيه إلى البحر الملح وأصعدوا مراكبهم فيه إلى موضع يقال له بوره على أرض الجزيرة مقابل المنزلة التى فيها الكامل ليقاتلوه من هناك. فلما صاروا فى بورة

حازوه وقاتلوه فى الماء وزحفوا عليه غير مرة فلم يظفروا فلما كان شهر جمادى الآخرة من السنة أى سنة خمس عشرة وستمائة وردت الأخبار من القاهرة بموت الملك العادل، فقام ولده الكامل من المنزلة إلى القاهرة جريدة إذ بلغه أيضا أن أمراء الأكراد اتفقوا مع الأمير عماد الدين أحمد بن على المشطوب على خلعه وتمليك أخيه الملك الفائز ابن الملك العادل ليصير الحكم لهم عليه وعلى البلاد وشاع الخبر بذلك بين الجند فركب كل إنسان منهم هواه ونادى فيهم منادى الفشل فتركوا خيامهم وذخائرهم وأموالهم وسلاحهم ولم يأخذوا منها إلا القليل جدا وتركوا من الميرة والكراع ودواب الحمل ما يجل عن الحصر ولحقوا بالكامل وأصبح الفرنسيس من الغد فلم يروا من المسلمين أحدا على شاطئ النيل وعلموا بالخبر فعبرو النيل إلى دمياط فغنموا ما فى عسكر المسلمين فكان شيئاً عظيما جدا واتفق أن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل وصل إلى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيومين والناس فى أمر مريج جدا وكان قد أرسل إليه يستنجده فقوى به قلبه واشتد أزره وثبت جنانه وعاد إلى أشمون طناح وسير إلى القاهرة من أخرج ابن المشطوب إلى الشام قهرا فاتصل بالملك الأشرف وصار من جنده أما الفرنسيس فإنهم عبروا إلى أرض دمياط شرعوا فى حصارها والتضييق عليها فاجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وطغوا فى الطريق وأفسدوا وبالغوا فى الإفساد، فكانوا أشد على المسلمين من الإفرنج وأحاط الفرنجة يومئذ بدمياط وقاتلوها برا وبحرا وعملوا عليه خندقا يمنعهم ممن يريدهم وأداموا القتال واشتد الحال على أهلها شدة بالغة وتعذرت عليهم الأقوات وكثر القتل والجرح فيهم ودام الحصار زهاء أربعة شهور فسلموا البلد إلى الفرنسيس فى عشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة قهرا وخرج منهم قوم وأقام آخرون فدخل الفرنسيس المدينة وأقاموا بها وبثوا سراياهم فى كل ما جاورها فجلا أهلها عنها وشرعوا فى عمارتها وتحصينها وبالغوا فى ذلك حتى أنها صارت لا ترام إلا بعد عناء شديد أما الكامل فإنه أقام بالقرب من الفرنسيس فى أطراف البلاد لا يأتى عملا وكثر توارد المدد للفرنسيس من كل صوب وحدب، فعظمت هيبتهم فى قلوب المسلمين، وعم الخوف منهم وعاد الملك المعظم صاحب دمشق إلى الشام فخرب بيت المقدس فى ذى القعدة خوفا من وصول الفرنسيس إليه وأخذه وقد خاف الناس كافة وأشرف الإسلام وأهله وبلاده على خطة خسف فى مشرق الأرض ومغربها وصاروا يتوقعون البلاء فى كل يوم وأراد أهل مصر الجلاء عن البلاد إلى الأقطار الحجازية والديار الشامية وغيرها فلم

يتمكنوا من ذلك لوقوف العربان فى الطرق وإفسادهم فى البلاد وفعلهم بالمسلمين ما لم تفعله الفرنسيس من النهب والسلب وهتك الأعراض وسبى النساء والفرنسيس قد أحاطوا بهم من كل جانب وتابع الكامل كتبه إلى أخويه المعظم صاحب دمشق والأشرف موسى بن العادل صاحب الجزيرة وديار أرمينية يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما فإن لم يمكن فليرسلا العسكر إليه وبقى الأمر كذلك مع الفرنسيس إلى سنة ثمان عشرة وستمائة ثم وصل الملك الأشرف إلى مصر وكان الفرنسيس قد ساروا من دمياط وقصدوا الكامل ونزلوا مقابله وبينهما خليج من النيل وهو بحر أشمون وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ إلى عسكر المسلمين وقد تيقن الناس جميعا بأنهم يملكون الديار المصرية لا محالة فلما علم الكامل بوصول أخيه الأشرف توجه إليه ولقيه واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما أما الملك المعظم صاحب دمشق فإنه قصد دمياط ظنا أن أخويه وعسكريهما قد نزلوا بها واجتمع الأشرف بالكامل فاستقر الأمر بينهما على التقدم إلى خليج من النيل يعرف ببحر المحلة فتقدموا إليه فقاتلوا الفرنسيس وازدادوا قربا وتقدمت شوانى المسلمين من النيل وقاتلوا شوانى الفرنسيس وترددت الرسل بين الفريقين فى تقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون للفرنسيس بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة مع اللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ماعدا الكرك ليسلموا دمياط فلم يقبلوا وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب بيت المقدس ليعمروه بها فلم يتم بينهم أمر. وبينما هم على هذا الحال من الخلاف عبر طائفة من المسلمين إلى الأرض التى عليها الفرنسيس فقطعوا النيل فركب الماء أكثر تلك الأرض ولم يبق للفرنسيس جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فنصب الكامل حينئذ سورا على النيل عند أشمون وعبرت العساكر عليها فملك الطريق التى يسلكه الفرنسيس إن أرادوا العود إلى دمياط فراسل الفرنسيس عند ذلك الكامل وخابروه فى أمر الصلح وتسليم دمياط بغير عوض وأنفق فى هذه الأثناء وصول الملك المعظم صاحب دمشق ومعه عسكر جرار فاشتدت بحضوره ظهور المسلمين وتمموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة سابع رجب سنة ثمان عشرة وستمائة وتسلمت فى تاسع رجب المذكور فدخلها المسلمون فلم يجدوا من أهلها إلا القليل فقد كانوا تفرقوا أيدى سبأ ورأوها حصينة لما بذله الفرنسيس فى تحصينها.

ولما رحلت جيوش الفرنسيس عن دمياط جلس الأفضل للعزاء على موت أبيه الملك العادل مع طول المدة فإنه مات فى سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة

وستمائة كما تقدم القول وحمل إلى دمشق ودفن بالتربة التى أعدها لنفسه بها. قال أصحاب التاريخ: وكان العادل عاقلا ذا رأى سديد ومكر شديد وخديعة صبورا حليما متواضعا وكان عمره خمسا وسبعين سنة وشهورا وملك دمشق من الأفضل ابن أخيه وملك مصر منه أيضا. ومن أعجب ما رؤى فى منافاة الطوالع أنه لم يملك الأفضل مملكه إلا وأخذها منه عمه العادل المذكور فأول ذلك أن صلاح الدين أعطى ابنه الأفضل حوران والرها وميافارقين سنة ست وثمانين بعد وفاة تقى الدين فسار إليها، فلما وصل إلى حلب أرسل أبوه الملك العادل بعده فرده من حلب وأخذ هذه البلاد منه ثم ملك الأفضل بعد وفاة أبيه دمشق فأخذها منه ثم ملك مصر بعد وفاة أخيه الملك العزيز فأخذها أيضا منه ثم تملك صرخد فأخذها منه وهذا من غريب الاتفاق وكان العادل قد قسم البلاد فى حياته بين أولاده فجعل بمصر الملك الكامل محمدا وبدمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى وجعل بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخلاط وأعمالها لابنه الملك الأشرف موسى وأعطى الرها لولده شهاب الدين غازى وأعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه فلما توفى ثبت كل فى المملكة التى أعطاها له أبوه واتفقوا اتفاقا حسنا ولم يجر بينهم من الاختلاف شيء بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره ولايخافه ولا يظن به السوء.

وحدث فى أيام الملك العادل المذكور فناء عظيم بديار مصر أهلك الكثير من الأغنياء والفقراء وحصل عقب ذلك غلاء شديد واشتد الجوع فى جميع البلاد فرحل الكثير من الناس إلى دمشق والمشرق والمغرب وكان الفقراء يأكلون لحوم الكلاب والقطط والحيوانات فلما نفدت أو كادت صاروا ينبشون القبور ويأكلون جيف الأموات وبلغت بهم الشدّة مبلغا عظيما حتى صاروا يخطفون الأطفال فى الأسواق من أمهاتهم فكانوا يذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم جهارا فى الشوارع . قال أصحاب الأخبار: دخلت امرأة يوما على الملك العادل وهى خائفة ترجف فسألها عن حالها فقالت: إنى يا مولاى قابلة وإن قوما استدعونى فى هذا الصباح لأولد امرأة فذهبت معهم ولما كان وقت الفطور قدموا لى طعاما كثير اللحم غير أنه لا يشبه اللحم المعهود فأنكرته ولم تقبله نفسى ثم وجدت بنتا صغيرة هناك فاختليت بها وسألتها عن ذلك اللحم فقالت البنت: إن فلانة السمينة دخلت لتزورنا فذبحها أبى وهاهى معلقة إربا فى هذه الخزانة فاقشعر جسمى من هذا الخبر وجئت فى الحال

إلى تلك الخزانة ففتحتها على حين غفلة فوجدتها مملوءة من لحم تلك المرأة فجئت إليك لأعلمك بذلك وهذه قصتى فتعجب الملك العادل من كلامها وأرسل معها من هجم على تلك الدار وأخذ من فيها وهرب صاحبها وبقى مختفيا حتى أصلح أمره مع حاكم البلد بدفع ثلثمائة دينار فدية عن نفسه، وكان الذين اعتادوا منهم على أكل لحم بنى آدم يصيدون الناس بأصناف الحيل والمخادعة فكانوا يستجلبونهم إلى بيوتهم بأنواع الملاعب فيذبحونهم ويأكلونهم فوقع مرة فى أشراكهم ثلاثة أطباء أحدهم خرج معهم ولم يرجع والثانى أعطته امرأة درهمين على أن يذهب معها إلى مريض فصدق كلامها وسار معها فلما توغلت به فى الأزقة ومضايق الطرق فكر فى نفسه وعلم الحيلة فخاف وامتنع عنها وصاح عليها وشتمها فتركته وهربت .وأما الثالث فإن رجلا استدعاه إلى زيارة مريض وأطمعه فى الأجرة فذهب معه ومازال يسير به من مكان إلى مكان حتى أدخله دارا خربة فارتاب الطبيب منه وتوقف فى وسط الدرج وكان الرجل قد سبق وطرق الباب فخرج إليه رفيقه وهو يقول له: ما هذه العاقة هل حصلت على صيد ينفع؟ فخاف الطبيب عند سماعه هذا الكلام وخفق قلبه وأيقن بالهلاك وكان فى حائط ذلك الدرج شباك صغير يشرف على إصطبل فألقى نفسه من ذلك الشباك فجاء فى وسط الإصطبل فقام إليه صاحب الإصطبل وقال له :من أنت ومن تكون؟ فخاف خوفا عظيما وكتم أمره عنه خوفا منه أيضا فقال له الرجل صاحب الإصطبل: لا بأس عليك قد علمت ما حالك ولا يخفاك أن أهل هذا البيت يذبحون الناس بالاحتيال والخداع والحمد لله على سلامتك ثم أخرجه من ذلك المكان .وسار معه حتى أوصله السوق. قال الراوى: ولولا هذا التصادف والاتفاق لهلك الطبيب وانقطع خبره وكان مدة سلطنة الملك العادل سيف الدين تسع عشرة سنة كلها إحن ومحن.

ولما كانت سنة اثنتين وعشرين وستمائة مات الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضىء بنور الله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله مات فى آخر ليلة من رمضان فكانت خلافته ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوما وكان عمره سبعين سنة تقريبا فلم يل الخلافة أطول مدة منه إلا ما قيل عن المستنصر بالله العلوى صاحب مصر فإنه ولى بستين سنة، وكان الخليفة الناصر قد بقى ثلاث سنين عاطلا عن الحركة وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصارا ضعيفا ثم أصابه فى آخر أيامه إسهال شديد استمر عشرين يوما مات بسببه.

قال أصحاب التاريخ: ولم يطلق فى طول مرضه شيئا مما كان أحدثه من الرسوم الجائرة وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالما فخرب بلاد العراق وتفرق أهله فى البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان يفعل الشيء وضده فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة فى بغداد ليفطر الناس عليها فى رمضان فبقيت مدة ثم قطع ذلك ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها وأطلق بعض المكوس التى جددها فى بغداد خاصة ثم أعادها وقصر همه على رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فأبطل الفتوة فى البلاد جميعها إلا من يلبس سراويل يدعى إليه ولبس كثير من الملوك منه سراويل الفتوة وكذلك منع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمى بالبندق إلا من ينتمى إليه فأجاب الناس بالعراق وغيره إلى ذلك ، قلت: فإذا كان هذا غرام الخليفة أيام خلافته كان من أعجب الأمور بل من أكبر المعايب وكان ما ينسبه العجم إليه من أنه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك صحيحا فهو إذا الطامة الكبرى على هامة الخلافة والداهية الدهياء التى يصغر عندها كل ذنب عظيم.

ومات فى أيامه مكاريوس بطرك الاسكندرية وكان يعرف بمكاريوس الثانى وكان تقديمه بدير أبو مقار وكمل بالاسكندرية ثم عاد إلى مصر وأقام بها أياما ثم عاد إلى دير أبو مقار ثانية فقدس به ثم جاء إلى مصر فقدس فى كنيسة المعلقة وأقام ستا وعشرين سنة وأحدا وأربعين يوما ومات فخافت مصر من بطرك للمتأصلين سنتين وشهرين وفى أيامه حصلت زلزلة عظيمة بالقاهرة هدمت فيها كنيسة المختار بالروضة. قال بعض أهل التاريخ: والصحيح أن الذى هدمها هو الأفضل فإنها كانت فى بستانة وكان كثير الضجر من وجودها فى بستانه فلما مات أقيم بعده غبريال المكنى بأبى العلاء صاعد بن شريك الشماس بكنيسة مرقوريوس بالمعلقة وهو السبعون من بطاركة الاسكندرية وأصله من كبار الكتاب بمصر وكمل بالاسكندرية وقدّس بالديارات بوادى هبيب وأقام أربع عشرة سنة ومات فخلا الكرسى بعده ثمانية أشهر ثم قدم بعده مخائيل بن التقادوسى الراهب بقلاية الدمشيرية وهو حادى سبعيهم وأصله راهب من دير أبى مقار فأقام سنة وسبعين يوما ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شيء يذكر فأقيم بعده يوحنا الخامس المكنى بأبى الفتح بالمعلقة وكمل بالاسكندرية وهو ثانى سبعيهم وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل الخامس والثلاثون)

(فى خلافة الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة الناصر ابنه محمد الظاهر بأمر الله بويع له بالخلافة يوم موت أبيه فى الأول من شوال سنة اثنتين وعشرين وستمائة هجرية أى نحو سنة خمس وعشرين ومائتين وألف ميلادية ولم يكن أبوه الملك الناصر يحبه فإنه بعد أن خطب له بولاية العهد على منابر العراق وغيرها من البلاد عاد فخلعه وأرسل إلى الآفاق بقطع الخطبة له. قال أصحاب التاريخ: وإنما فعل ذلك لأنه كان يميل إلى ولده الأصغر علىّ فاتفق أنه مات سنة اثنتى عشرة وستمائة ولم يكن للخليفة ولد خلاف ولى العهد المذكور فاضطر إلى إعادته إلا أنه كان تحت الاحتياط والحجر عليه لا يتصرف فى شىء مّا فلما مات أبوه ولى الخلافة وأحضر الناس لأخذ البيعة وتلقب بالظاهر بأمر الله يعنى بذلك أن أباه وجميع أصحابه أرادوا صرف الأمر عنه فظهر وولى الخلافة بأمر الله لا بسعى أحد. فلما وليها أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين وأعاد الأموال المغصوبة فى أيام أبيه وقبله وكانت شيئا كثيرا جدا وأطلق المكوس فى البلاد جميعها وأمر بإعادة الخراج القديم فى جميع العراق وأن يسقط جميع ما جدده أمير الخراج بأمر أبيه وكان شيئا كثيرا وتقدم إلى القاضى فى أن كل من عرض عليه كتابا صحيحا بملك يعيده إليه من غير إذنه وأقام رجلا صالحا فى ولاية الحشرى وبيت المال وكان هذا الذى أقامه حنبليا فقال إننى من مذهبى أورث ذوى الأرحام فإن أذن أمير المؤمنين أن أفعل ذلك وليت وإلا فلا فقال له: أعط كل ذى حق حقه واتق الله ولا تتق سواه. وكانت العادة ببغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة إلى الخليفة بما تجدد فى دربه من اجتماع بعض الأصدقاء ببعض على نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ما سوى ذلك من كل صغيرة وكبيرة فكان الناس من هذا فى حجر عظيم فلما ولى الظاهر أتته المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال: أىّ غرض لنا فى معرفة أحوال الناس فى بيوتهم فلا يكتب أحد إلينا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له: إن العامة تفسد بذلك ويعظم شرها فقال نحن ندعو الله أن يصلح أحوالهم. ومحاسن أعماله كثيرة جدا منها أنه أخرج توقيعا إلى الوزير بخطه ليقرأ على أرباب الدولة فلما وصل الرسول قال أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أنتم

إلى إمام فعّال أحوج منه إلى إمام قوّال فقرؤوه فإذا فى أوله بعد البسملة: اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالا ولا إغضاؤنا إغفالاً ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا وقد عفونا لكم ما سلف من تخريب البلاد وتشريد الرعية وتقبيح الشريعة وإظهار الباطل الجلى فى صورة الحق الخفى حيلة ومكيدة وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدرا كالأغراض انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل وأنياب أسد مهيب تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتستميلون رأيه إلى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيعطيكم وأنم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا وبفقركم غنى وبباطلكم حقا ورزقكم سلطانا يقيل العثرة ولا يؤاخذ إلا من أصر ولا ينتقم إلا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم من الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم فى طاعته فان سلكتم مسالك نواب خلفاء الله فى أرضه وأمنائه على خلقه وإلا هلكتم والسلام . وكانت أيامه قصيرة إذ مات فى الرابع عشر من رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوما.

قال صاحب الكامل: وكان نعم الخليفة جمع الخشوع من الخضوع لربه والعدل والإحسان إلى رعيته ولما مات وجدوا فى بيت فى داره ألوف رقاع كلها مختومة لم يفتحها فقيل له ليفتحها فقال لا حاجة لنا فيها كلها سعايات. ولقصر مدة خلافته لم يقع فيها من الحوادث شىء يذكر وعمل له العزاء فى البلاد كلها لإحسانه وفضله على الرعية وولى الخلافة بعده ابنه أبو جعفر المنصور.

(الفصل السادس والثلاثون)

(فى خلافة المستنصر بالله
أبى جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله)

ثم قام بالأمر بعد الظاهر بأمر الله ابنه الأكبر أبو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه فى الرابع عشر من رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة هجرية أى سنة ست وعشرين ومائتين وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة سلك فى الخير والإحسان إلى الناس سيرة أبيه وأمر فنودى ببغداد بإفاضة العدل وأن من كان له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته فلما كان أول جمعة أتت على خلافته أراد أن يصلى الجمعة فى المقصورة التى كان

يصلى فيها الخلفاء قيل له أن المطبق الذى يسلك فيه إليها خراب لا يمكن سلوكه فركب فرسا وسار إلى الجامع وهو جامع القصر ظاهرا يراه الناس بقميص أبيض وعمامة بيضاء بسكاكين من حرير ولم يترك أحدا يمشى معه من أصحابه للصلاة بالموضع الذى كان يصلى فيه وسار هو ومعه خادمان وركا بدار لا غير فصلى وعاد وكذلك الجمعة الثانية حتى أصلح له المطبق، واهتم بمصالح الرعية وحاجات الخلق فدبر الأمور وأحسن السياسة وكان محبا للرعية ميالا للعدل كثير الحلم كثير العفو ولكنه كان قليل الحظ إذ تحرك الفرنجة فى أيامه ولم ينكفوا عن شن الغارات على بلاد الإسلام فى البر والبحر وكانوا يبالغون جدا فى قتال المسلمين فهاله أمرهم وأزعجه وخشى العاقبة وسيّر إلى الملك الكامل صاحب مصر يستنجده فتجهز الملك الكامل وجمع عسكرا جرارا وسار به إلى الشام فى شوال سنة خمس وعشرين وستمائة وفى نيته التغلب عليها وأخذها فوصل إلى بيت المقدس ثم سار عنه إلى مدينة نابلس وأغار على تلك البلاد وكانت من أعمال دمشق وهى تابعة للملك المعظم فلما علم الملك المعظم بذلك خاف أن يقصده أيضا ويأخذ دمشق منه فأرسل إلى عمه الملك الأشرف يخبره بحاله ويستنجده ويطلبه ليحضر عنده بدمشق فسار إليه جريدة فدخل دمشق، فلما سمع الملك الكامل بذلك لم يتقدم إليه لأن البلد كان منيعا وقد صار به من يمنعه ويحميه وأرسل إليه الملك الأشرف يستعطفه ويعرفه أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة له وموافقة لأغراضه والاتفاق معه على منع الفرنجة عن بلاد المسلمين فأعاد الكامل الجواب يقول: وأنا ما جئت لهذه البلاد إلا بسبب الفرنجة فإنه لم يكن فى البلاد من يمنعهم عما يريدونه وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا وأنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين فتح بيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الحسن على مدى الأعصار وممر الأيام فإن أخذه الفرنجة حصل لنا من سوء الذكر وقبح الأحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذى ذخره عمنا وأىّ وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى ثم إنهم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه ويتعدونه إلى غيره وحيث قد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصر واحفظ أنت البلاد ولست بالذى يقال عنى أنى قاتلت أخى وحاصرته حاشا لله تعالى. وتأخر عن نابلس يريد الديار المصرية ونزل تل العجول فخاف الأشرف ومن بالشام قاطبة وعلموا أنه إن عاد استولى الفرنجة على البيت المقدس وغيره مما يجاوره ولا ممانع دونه فترددت الرسل وسار الأشرف بنفسه إلى الكامل أخيه فحضر عنده فى ليلة عيد الأضحى ومنعه من العود إلى مصر فلبثا بمكانهما وقد تم ما كان يتوقعه الملك الكامل من عودة الفرنجة

فإنهم وصلوا فى عـدد كثيـر ونزلوا على السواحل الشـامية وأخذوا يفـسدون فيـما يجاورهم من البلاد الداخلة تحت حكم الإسلام . قال بعض كتاب الأخبار: ومضى إليـهم وهم بمدينة صور طائفـة من المسلمـين يسكنون الجبـال المجاورة لمدينة صـور وأطاعوهم وصاروا مـعهم على المسلمين واتفق موت الملك المعظـم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب صاحـب دمشق فقوى طمع الفرنجـة بموته فساروا إلى عكا ونزلوا بها ورتبوا أمورهم وأصلحوا حالهم وتأهبوا للقتال فلما رأى الملك الكامل هو وأخوه الملك الأشرف ما فعله الفرنجة خافـا وبعثا بالرسل إلى ملك الفرنجة دفعات كثيرة وتخابرا معه فى الصلح وطال الأمر بيـن الفريقين ثم استقرت القاعدة على أن يسلموا للفرنجة بيت المقدس ومعـه عدة بلاد أخرى من ملحقاته ويكون باقى البلاد مثل الخليل ونابلس والغـور وطبرية وغير ذلك بيـد المسلمين فتسلمـه الفرنجة ورمموا سوره وحصنوه تحصينا عظيما وذلك سنة سـتة وعشرين وستمائة هجرية، ولما كـان سنة خمس وثلاثين وسـتمائة جاءت الأخبار إلى الملك الكامل صـاحب مصر بموت أخيه الملك الأشرف فسار من مصر إلى الشام يزيد دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك وهو لا يشك فى أن الملك الكامل يسلم إليـه دمشق لما كـان قد تقرر بينهـما وكان بدمشق الملك الصالح إسـماعيل فاستعدّ للحصـار وأرسل إليه صاحب حمص نجدة فنازل الملك الكامل دمشق ومازال يقاتلهـا حتى ظفر وأخرج منها الملك الصالح إسماعيل وعوّضـه عنها بعلبك وما حولها مضافا إلى بـصرى وكان قد ورد من قبل الخليفـة المستنصر مـحيى الدين يوسف ابن الشـيخ جمال الدين بن الجـوزى رسولا للتوفـيق بين الكامل ومن معه فتـسلم الملك الكامل دمشق لإحدى عشـرة بقيت من جمـادى الأولى واشتـد حنق الملك الكامل على شيـركوه صـاحب حمص لمعـاونته للصالح إسماعيل فأمر العسكر فبرزوا بقصد حمص وأرسل أيضا إلى صاحب حماة وأمره بالمسير إلى حـمص فاشتد خوف شيركـوه وتخضع للملك الكامل وأرسل إليه نساءه فدخلن عـلى الملك الكامل فلم يلتفت إليهن وصمم على الانتـقام ولكنه لم يتم له قصده إذ اخترمته المنية حـتف أنفه بدمشق وكان سبب موته أنه لما دخل قلعة دمشق أصابه زكام فدخل الحمام وسكب عليـه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة إلى صدره وتورمت معـدته واشتدت به الحمى فنهاه الأطبـاء عن القيء وخوّفوه منه فلم يقبل وتقايأ فـمات لوقته وعمره نحـو ستين سنة. قال أصحـاب التاريخ: وكان بين موته وموت أخيـه الأشرف نحو ستة أشهر وكانت وفـاته لتسع بقين من رجب سنة خمس وثلاثين وسـتمائة فكانت مدة ملكه على مـصر من حين مات أبـوه عشرين

سنة وكان بها نائبا قبل ذلك قريبا من عشرين سنة فحكم في مصر نائبا وملكا زهاء أربعين سنة. وكان ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير أمنت الطرق فى أيامه وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه واستوزر فى أول ملكه وزير أبيه صفى الدين بن شكر، فلما مات ابن شكر لم يستوزر أحدا بعده وكان يخرج بنفسه فينظر فى أمور الجسور عند زيادة النيل وإصلاحها فعمرت فى أيامه البلاد وزاد خصبها وكثرت غلاتها ودرت أرزاقها فأحبه الرعية ومالت إليه القلوب المتباعدة عن محبة أهل هذا البيت الصالحى واتفق الأمراء الذين كانوا معه بدمشق على تحليف العساكر والأجناد لولده الملك العادل أبى بكر وهو حينئذ نائب أبيه بمصر فحلف له جميع العساكر وأقاموا فى دمشق الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب نائبا عن أبى بكر بن الكامل وتقدمت الأمراء إلى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق وتهددوه إن هو تأخر فرحل إلى الكرك وتفرقت العساكر فسار أكثرهم إلى مصر وتأخر مع الجواد يونس بعضهم ومقدّمهم عماد الدين ابن الشيخ. ولما بلغ شيركوه صاحب حمص خبر موت الملك الكامل صاحب مصر فرح فرحا عظيما وحصل على ما كان يطمع نفسه فيه وأظهر سرورا ما عليه من مزيد ولعب بالكرة على خلاف العادة وهو فى عشر السبعين وأرسل عسكرا فاسترجع سلمية من نواب الملك المظفر وتغلب عليها وقطع القناة الموصلة منها إلى حماة فيبست بساتينها وعزم على قطع النهر العاصى عن حماة أيضا فسدّ مخرجه من بحيرة قدس التى بظاهر حمص وتجهز وركب متن هواه غير حاسب لما وراء ذلك حسابا. وكانت أعمال الكامل كلها خيرا وإصلاحا. قال الحافظ عبد العظيم المنذرى: أنشأ الملك الكامل دار الحديث بالقاهرة، وعمر القبة على ضريح الشافعى وأجرى الماء من بركة الحبش إلى حوض السبيل والساقية التى على باب القبة المذكورة وأوقف غير ذلك من الوقوف على أنواع البر وله المواقف المشهورة بدمياط مع الفرنجة أهـ.

وقال ابن خلكان: واتسعت المملكة للملك الكامل حتى قال خطيب مكة مرة عند الدعاء له: سلطان مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك الكامل أبو المعالى ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين أهـ.

ووردت الأخبار إلى الملك الأكبر الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل وهو صاحب حصن كيفا بولاية أخيه العادل أبى بكر واتفاق كلمة الأمراء والقواد على البيعة له فأهمه ذلك وأقلقه وجعل يراقب الفرص إلى أن علم بعجز أخيه عن القيام

بأعباء الملك واختـلال أمور المملكة فتجرّد للقتال وسـار فى عسكر عظيم يريد مصر ليأخذها من العـادل ويتغلب عليها فبرز العادل إلى بلبيس يريد قـتال الملك الصالح فلم يكد يصل إليـها حـتى اختلفت عليـه الأمور وخـرج عليه الجند وشـقوا عـصا الطاعة فـقبـضوا عليه واعـتقلوه وأرسلوا إلى الـصالح أيوب فوصل إليـهم فى قلة فملكوه وبايعـوا له وذلك فى صفر سنة سبع وثلاثين وسـتمائة وسيـروا الخبر بذلك إلى الآفاق وأقام الصالح فى الملك وقد دانت له الأمور وثبتت قدماه فأحسن السياسة والتدبير فكانت مدّة مـلك العادل سنتين غير كاملتين واتسـعت كلمة الملك الصالح وتصرف فى الأمـور وقبض على سائر الأمـراء والمماليك الذين سـاعدوه على خلع أخيـه ثم أمر بهم فقتلوا جـميعا وخلـع الملك الجواد يونس ومنعه من دخول مـصر وتوعده بالقتل إن هو عاد إليها فسار الجواد إلى جماعة الفرنجة فى عكا وحبب إليهم قتال الصالح واستخلاص البلاد منه فـفرحوا به وأحسنوا وفادته وسيروه إلى صاحب دمشق فى طلب التعاقد على ما فيه المصلحة لهم جميعا فتم لهم الاتفاق مع صاحب دمشق والملك المنصور إبراهيم صاحب حمص وتحالفوا علـى أن تسير جماعة الفرنجة إلى مصـر لقتـال الصالح ونزع البـلاد منه وأن يكون لهم فى مقـابل ذلك أورشليم وطبرية وعسقـلان والشقيف والصعيد وبادر الفرنجة من حـينئذ فملكوا تلك الأماكن وأخذوا فى ترميم حصون عسقلان وطبرية وجعلوا يعدّون المعدات ويتأهبون للزحف على ديار مصـر ووردت الأخبـار بذلك إلى الملك الصالح فـأقلقتـه، وكان لما تمكن جنكيز خان من شرقى آسـية ودانت له الأمور فيها ولم يطعه الخوارزمـيون كبر عليه هذا الأمر وأعظمه وطردهم من آسية فـجاءوا شرقى الشامات ونزلوا هناك فى طلب الرزق وقد علم الملك الـصالح صاحب مـصر بمقدمـهم ذلك فأنفذ إليـهم رسلا فى التحالف على قتال الفرنجة ومن تعاهد مـعهم على قتاله فأجابوه إلى ذلك وأسرعوا فى الزحف إلى أن بلغوا غزة فحاربوا الفـرنجة عند أسوارها ووصلت إليهم النجدة من الملك الصالح فانهـزمت الفرنجة فتبعـهم الخوارزميون وعسكر مصـر حتى أخذوا منهم غـزة وبيت المقدس واشـتدت عـزيمة الملك الصـالح بما ناله من الغلبـة على الفرنجة فسار فى جيش عظيم إلى دمشق يريد أخذها فحاصرها وألح فى قتالها حتى أخضعها لسلطانه وخرج إلى حمص وحاصرها فلم ينل منها مأربا وعمد إلى التقرب من الخليفة المستنصر بالله العباسى ليعظم بذلك أمره وتعلو كلمته وتنضم إليه القلوب المتباعـدة عنه فأرسل إليه هدية نفيسـة فلم يكد يصل رسوله بالهدية حتى جـاء الخبر بموت الخليفة مات بكرة يوم الجمعة العاشـر من جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة

هجرية فكانت مدّة خلافته سبع عشرة سنة إلا شهرا. قال أصحاب التاريخ: وكان حسن السيرة عادلا فى الرعية وهو الذى بنى المدرسة فى بغداد المسماة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقى مما يلى دار الخلافة فلما مات اتفق أرباب الدولة على تقليد الخلافة لولده عبدالله ولقبوه المستعصم وهو سابع ثلاثى الخلفاء العباسيين وآخرهم وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور.

ومات فى أيام الخليفة المستنصر بالله يوحنا بطرك الاسكندرية بعد أن أقام تسع عشرة سنة وكان اسمه أولا يونس أبو الفتح من دير أبى حنس وكانت أيامه كلها شدائد وإحنا وبلايا ومحنا تكاد أن لا تدخل تحت الحصر وقد أضربنا عن إيرادها هنا وخلا الكرسى بعد موته ثلاثة وأربعين يوما ثم أقاموا بعده مرقس بن زرعة المكنى بأبى الفرج ثالث سبعيهم وهو سريانى المحتد ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى حينه.

(الفصل السابع والثلاثون)

(فى خلافة المعتصم بالله بن المستنصر بالله)

ثم قام بعد المستنصر بالله ولده المعتصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبى جعفر بن الظاهر محمد بن الناصر العباسى وهو آخر الخلفاء العراقيين بويع له بالخلافة فى جمادى الأولى سنة أربعين وستمائة هجرية أى سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف ميلادية فلم تستقر به الخلافة حتى أساء التدبير وانهمك على اللعب بالحمام وغير ذلك مما لا يليق بالخلافة. قال أصحاب الأخبار: وكان قليل الرأى ضعيف العزيمة لا حزم له ولا حرمة ولا هيبة فلما جاءت البشائر إلى الملك الصالح بخلافته أرسل إليه يطلب منه تقليدا بمصر والشام فجاءه التشريف الطوق الذهب والمركوب فلبس التشريف الأسود والعمامة والجبة وركب الفرس فى موكب حافل للغاية وأولم لأمراء الدولة وكبار الجند وليمة فاخرة ولم تتم أفراحه هذه حتى ورد عليه كتاب الملك لويز ملك الفرنسيس يقول: أما بعد فإنه لم يخف عليك أنى أمين الأمة العيسوية كما أنه لا يخفى علىّ أنك أمين الامة المحمدية وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال والنساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلى منهم الديار وأنا أرسلت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح إلى النهاية فلو حلفت لى بكل

الأيمان وأدخلت عليّ القسس والرهبان وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان لكنت راحلا إليك وقاتلك فى أعز البقاع عليك فإما أن تكون البلاد لى هدية حصلت فى يدى وإما أن تكون البلاد لك والغلبة عليّ فيدك العليا ممتدة إليّ وقد عرفتك وحذرتك من عساكر فى ساحتى تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون إليك بأسياف القضا، فلما وقف الصالح على ما فى الكتاب بكى واسترجع وقال للقاضى بهاء الدين زهير: اكتب الجواب فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين، أما بعد فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن أرباب السيوف وما قتل منا فرد إلا جدّدناه ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ولو رأت عينك أيها المغرور حدّ سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولابد أن تزل بك القدم فى يوم أوله لنا وآخره عليك فهناك تسيء الظنون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فإذا قرأت كتابى هذا تكون فيه على أول سورة النحل ﴿**أتى أمر الله فلا تستعجلوه**﴾ وتكون فيه على آخر سورة ص ﴿**ولتعلمن نبأه بعد حين**﴾ ونعود إلى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾ وقول الحكماء إن الباغى له مصرع وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك والسلام وجاءته الأخبار بوصول المراكب الفرنساوية مشحونة بالعساكر والأجناد وهذ غزوتهم السابعة الصليبية فأهمه أمرهم وخرج من القاهرة إلى المنصورة ونزل بها وشحن مدينة دمياط بالآلات العظيمة والذخائر الوافرة وجعل فيها بنى كنانة وهم موصوفون بالبسالة والإقدام وأرسل فخر الدين ابن الشيخ فى طائفة عظيمة من الجند ليكونوا قبالة الفرنسيس إذا نزلوا من مراكبهم فتقدم الفرنسيس نحو البر ونزلوا من المراكب وهجموا على المدينة يريدون أخذها وذلك فى أوائل سنة سبع وأربعين وكان مقدم الفرنسيس فى هذه الحملة الملك لويز التاسع ملك الفرنسيس فخاف فخر الدين ابن الشيخ وهاله كثرة جيوش الفرنسيس فعبر من البر الغربى إلى البر الشرقى فى جماعة من المسلمين ووصل الملك لويز بعسكره إلى البر الغربى لتسع بقين من صفر من السنة فلما جرى ذلك هرب أيضا بنو كنانة وأهل دمياط كافة وأخلوها وتركوها مفتحة الأبواب فملكها الفرنسيس بغير قتال واستولوا على ما بها من الذخائر والساح فعظم الأمر جدا على الملك الصالح وأمر بالقبض على من يوجد من بنى كنانة وصلبه فقبضوا عليهم وصلبوا عن آخرهم وكان الملك الصالح

وهو مقيم بالمنصورة يقاسى ألم المرض وهو السل و القرحة والتى كانت به فلم يقدر على الخروج للقاء عساكر الفرنسيس واشتدت به علته شدة بالغة وكان كلما سمع بظفر الفرنسيس قلق واضطرب، فلما كانت ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان من السنة أى سنة سبع وأربعين وستمائة مات فكانت مدة تملكه للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما وكان عمره نحو أربع وأربعين سنة وقيل أربعين وكان مهيبا عالى الهمة عفيفا طاهر اللسان وقد جمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره من مماليكه ورتب جماعة مهم حول دهليزه وسماهم(البحرية) فكان من أمرهم ما سيتلى عليك فى محله، وكان شديد البأس لايجسر أن يخاطبه أحد إلا مجيبا ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء وكانت القصص تضعها بين يديه الخدام فيكتب بيده عليها وتخرج للموقعين وكان لا يستقل أحد من أهل دولته بأمر من الأمور إلا بعد مشاورته وكان يحب العمارة والبناء فبنى قلعة الجزيرة التى هى الروضة واشترى ألف مملوك وأسكنهم بها وسماهم البحرية وبنى بالقاهرة المدارس الأربع بين القصرين وبنى الصالحية وهى بلدة بالشام وبنى له فيه قصورا للصيد وبنى قصرا عظيما بين مصر والقاهرة يسمى بالكبش وكان له ثلاثة أولاد أحدهم فتح الدين عمر مات فى حبس الصالح إسماعيل وكان قد مات ولده الآخر قبله ولم يبق له غير المعظم تورانشاه بحصن كيفا ومات الملك الصالح المذكور ولم يوص بالملك لأحد وكانت له جارية اسمها شجرة الدر فلما مات أخفت خبر موته، وبقيت تعلم بعلامته ثم أحضرت فخر الدين ابن الشيخ والطواشى جمال الدين محسنا وهما من كبار الأمراء وعرفتهما بموت السلطان فكتموا ذلك خوفا من الفرنسيس واتفقوا على أن شجرة الدر تجمع الأمراء كافة وتقول لهم إن السلطان يأمركم أن تحلفوا له أولا ثم لولده الملك المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا من بعده وللأمير فخر الدين ابن الشيخ بأتابكية العسكر فاجتمع الأمراء وحلفوا وكتب إلى حسام الدين بن أبى علىّ وهو يومئذ النائب بمصر بمثل ذلك فحلف وحلفت العساكر والأجناد وجميع الكبراء بمصر والقاهرة على ذلك أيضا فى العشر الأواسط من شعبان من السنة فكانت تخرج الكتب وغيرها وعليها علامة الملك الصالح وكان الذى يكتبها خادم صغير يقال له السهيلى فلا يشك أحد فى أنها بخط السلطان، وأرسل فخر الدين ابن الشيخ قاصدا لإحضار الملك المعظم من حصن كيفا فلما جرى ذلك شاع بين الناس موت السلطان ولكن كان أرباب الدولة لا يجسرون أن يتفوّهوا بذلك وبلغ الخبر الملك لويز ملك الفرنسيس وهو

بدمياط فسار فى طائفة عظيمة من جنوده فى مستهل رمضان يريد المنصورة فلما صار على مقربة منها لاقته عساكر المسلمين فاقتتلوا قتالا عظيما جدا مات فيه جماعة من كبار المسلمين ونزل الفرنسيس بحر مساح ثم اقتربوا من معسكر المسلمين وكبسوهم على المنصورة بكرة الثلاثاء لخمس خلون من ذى القعدة وكان فخر الدين يوسف ابن الشيخ صدر الدين بن حمويه مقدم العساكر الإسلامية فى الحمام بالمنصورة فركب مسرعا فصادفه جماعة من عسكر الفرنسيس فقتلوه فحمل المسلمون والأتراك البحرية على الفرنسيس حتى ردوهم بعد قتال عنيف للغاية أما الملك المعظم تورانشاه فإنه لما وصل إليه القاصد قام من يومه من حصن كيفا ووصل إلى دمشق وعيد بها عيد الفطر ووصل إلى المنصورة يوم الخميس لتسع بقين من ذى القعدة سنة سبع وأربعين وستمائة فلم يستقر به المقام حتى شدد الفرنسيس فى القتال وقامت الحرب بين الفريقين برا وبحرا وحملت مراكب المسلمين على مراكب الفرنسيس فأخذت منهم عدة كثيرة واشتد الأمر على الفرنسيس وقلت عندهم الأقوات وصعب لذلك عليهم المقام قبالة المسلمين فرحلوا ليلة الأربعاء لثلاث بقين من المحرم افتتاح سنة ثمان وأربعين يريدون مدينة دمياط فاقتفى المسلمون أثرهم فانحاز الملك لويز بمن معه من الملوك والأمراء إلى بلد هناك وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشى محسن الصالحى ثم غدر بهم وأحضرهم أسرى إلى المنصورة فقيد الملك الويز وجعله فى دار كان ينزلها كاتب الإنشاء فخر الدين بن لقمان. قلت: وآثارها باقية إلى هذا اليوم وقد تهدم أكثرها، ووكل به الطواشى صبيح المعظمى ففرح المسلمون بذلك فرحا لا يوصف وسار الملك المعظم من المنصورة إلى فارسكور ونزل بها ونصب بها برجا من خشب وقرب إليه أصحابه الذين جاءوا معه من حصن كيفا واعتمد عليهم وسلم إليهم مقاليد الأمور. قال كتاب الأخبار: وكان أولئك الناس من الأراذل واطرح جانب أمراء أبيه ومماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد مانفر قلبه منه فاتفقوا جميعا على قتله وتحالفوا على ذلك فلم يشعر إلا وقد هجموا عليه بالسيوف ومقدمهم ركن الدين بيبرس وضربه بالسيف فهرب الملك المعظم إلى البرج الخشب الذى نصب له بفارسكور فأطلقوا فى البرج النار فخرج المعظم منه هاربا طالبا البحر ليركب فى حراقته فحالوا بينه وبين الحراقة بالنشاب فطرح نفسه فى البحر فأدركوه وأجهزوا عليه فى نهار الاثنين المذكور فكانت مدة إقامته فى الملك من حين وصوله شهرين وأياما، ولما جرى ذلك اجتمع الأمراء واتفقوا على أن يقيموا شجرة الدر زوجة الملك الصالح فى المملكة وأن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحى

المعروف بالتركمانى أتابك العسكر وحلفوا على ذلك وخطبوا لشجرة الدر على المنابر وضربت السكة باسمها. قال أصحاب الأخبار: فكان نقش السكة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل وكانت شجرة الدر قد ولدت من الملك الصالح ولدا ومات صغيرا وكان اسمه خليلا فسميت والدة خليل وكانت علامتها على التوقيع والدة خليل .

ولما استقر لها الملك وقع الحديث مع لويز ملك الفرنسيس فى تسليم مدينة دمياط بالإفراج عنه فتقدم لويز إلى من بها من نوابه فى تسليمها فسلموها وأصعد عليها السلطان يوم الجمعة لثلاث مضين من صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة وأطلق ملك الفرنسيس فركب فى البحر مع جنوده نهار السبت وأقلعوا إلى عكا ثم عادت العساكر ودخلت القاهرة يوم الخميس تاسع صفر وأرسل المصريون رسولا إلى الأمراء الذين بدمشق فى موافقتهم على ما فعلوه من تولية شجرة الدر فلم يجيبوا إليه وطال الأمر بينهم أياما ثم عادوا فاتفقوا على جعل عز الدين أيبك الجاشنكير فى السلطنة لأنهم رأوا أنه إذا استقر أمر المملكة لامرأة على ما هو عليه الحال تفسد الأمور فولوا أيبك وأركبوه بالصناجق السلطانية وحملت الغاشية بين يديه يوم السبت آخر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ولقبوه بالملك المعز، وكان لصلاح الدين يوسف ابن الملك الكامل ولد اسمه الأشرف موسى وله من العمر ثمان سنين فملكوه مع عز الدين أيبك فخطب لهما معا وضربت السكة باسهما وسموا الأشرف المذكور السلطان وأبطلوا السكة والخطبة التى كانت باسم شجرة الدر فكان مدة ملكها ثلاثة أشهر. قال بعض كتاب الأخبار: إن شجرة الدر هى التى خلعت نفسها من تخت المملكة وتزوجت بالأمير أيبك المذكور وهو أوّل ملوك الدولة الجركسية بالديار المصرية، فلما استقرت به السلطنة وتصرف فى الأمور شمخت أنوف الأتراك أبناء جنسه وعظم من يومئذ شأنهم ومدوا أيديهم إلى العامة واستوزر الأسعد الفائزى فكان بئس الرجل أكثر من إحداث المغارم والمكوس فأبغضه الناس وكبر بغضهم لأيبك فكان أهل مصر والقاهرة يحقرونه ويسمعونه ما يكره إذا ركب ويقولون: لا نريد إلا سلطانا رئيسا ولد على الفطرة لا عبدا رقا وانحرفت خواطر الجند عليه فجعل يسايرهم ويسترضيهم بالعطايا الجزيلة ومازال حتى دانت له بعد ذلك الأمور واستتبت كلمته وبسط يده على جميع المملكة فرسم بهدم سور مدينة دمياط تخلصا من غارات الفرنسيس فهدموه فى الشعر الأخير من شعبان وبنوا مدينة بالقرب من دمياط فى البر وسموها المنشية، وكانت الأسوار التى هدموها من عمارة المتوكل

الخليفة العباسى، وكبر أمر ولاية الأمير أيبك على الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق وأعظمه جدا لخروج الملك من بيت أبيه إلى الموالى والعبيد فتحرك يريد أخذ ملك مصر من يد أيبك المذكور استصغارا له واستخفافا بقدره فسار من دمشق وصحبته من ملوك أهل بيته الصالح إسماعيل بن العادل بن أيوب والأشرف موسى صاحب حمص والمعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين وأخو المعظم نصرة الدين والأمجد حسن والظاهر شادى ابنا الناصر داود بن الملك المعظم عيسى ابن العادل بن أيوب وتقى الدين بن عباس بن الملك العادل بن أيوب فى جيش عظيم للغاية ومقدم الجيش شمس الدين لؤلؤ الأرمينى وإليه تدبير المملكة وكان خروجهم من دمشق فى يوم الأحد منتصف رمضان من السنة فلما بلغ المصريين خبر قدومهم هالهم أمرهم واهتموا لقتالهم ودفعهم وبرزوا إلى السائح وتركوا الأشرف المسمى بالسلطان بقلعة المقطم وخرج أيبك حينئذ على ولدى الصالح إسماعيل وهما المنصور إبراهيم والملك السعيد عبد الملك وكانا معتقلين من حين استيلاء الملك الصالح أيوب على بعلبك وقطع عليهما ليتوهم الناصر يوسف صاحب دمشق من أبيهما الصالح إسماعيل ويتخوف منه ثم التقى العسكران بالقرب من العباسة بإقليم الشرقية فى الخامس عشر من ذى القعدة فكانت الغلبة أولا على جنود مصر فخامر جماعة من المماليك الترك العزيزية على الملك الناصر صاحب دمشق وثبت المعز أيبك فى جماعة قليلة من البحرية فانضاف جماعة من العزيزية مماليك والد الملك الناصر إلى المعز أيبك فلما انكسر المصريون وتبعهم العسكر الشامى ولم يشكوا فى النصر والغلبة بقى الملك الناصر تحت الصناجق السلطانية مع جماعة يسيرة من المتعممين لا يتحركون من موضعهم فحمل المعز أيبك بمن معه عليه فولى الملك الناصر منهزما طالبا جهة الشام ثم حمل أيبك لطلب شمس الدين لؤلؤ فهزمهم وأخذ شمس الدين أسيرا فضرب عنقه بين يديه وكذلك أسر الأمير ضياء الدين بن أيوب القمبرى فحز رأسه وأسر يومئذ الملك الصالح إسماعيل والأشرف صاحب حمص والمعظم تورانشاه بن صلاح الدين بن أيوب وأخوه نصرة الدين ووصل عسكر الملك الناصر فى أثر المنهزمين إلى العباسة وضربوا بها دهليز الملك الناصر وهم لا يشكون أن الهزيمة تمت على المصريين فلما جاءهم الخبر بفرار الملك الناصر اختلفت آراؤهم وتفرقت كلمتهم فمنهم من أشار بالدخول إلى القاهرة وتملكها. قال بعض كتاب الأخبار: ولو فعلوه لما بقى مع المعز أيبك من يقاتلهم به وكان هرب منهم لترفع المنهزمين إلى الصعيد الأعلى، ومنهم من أشار بالرجوع إلى الشام وكان

معهم تاج الملوك بن المعظم وهو مجروح بجراح ليست خفيفة، ودخل المنهزمون من المصريين إلى القاهرة من غد الواقعة نهار الجمعة فلم يشك أهل مصر والقاهرة فى غلبة الملك الناصر ومكله ديار مصر فخطب له الخطيب فى الجمعة المذكورة بقلعة الجبل وبمصر وأما القاهرة فلم يقم فيها فى ذلك النهار خطبة لأحد ثم وردت إليهم البشرى بانتصار المماليك البحرية ودخل المعز أيبك والبحرية إلى القاهرة يوم السبت ثانى عشرى ذى القعدة ومعه الصالح إسماعيل تحت الاحتياط وغيره من المعتقلين فحبسوا بقلعة الجبل وفى ثالث يوم دخوله أمر بإخراج أمين الدولة وزير الصالح إسماعيل وأستاذ داره المسمى يغمور وكانا معتقلين من حين استيلاء الصالح أيوب على بعلبك فشنقهما على باب قلعة الجبل وأعز إلى جماعة من أصحابه بقتل الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل بن أيوب فلما كانت ليلة الأحد السابع والعشرين من ذى القعدة هجموا عليه وهو يمص قصب السكر وقبضوا عليه وأخرجوه إلى ظاهر قلعة الجبل من جهة القرافة فقتلوه ودفنوه هناك وعمره يقرب من خمسين سنة فعلت كلمة المعز أيبك من حينئذ واتسعت شهرته ومالت إليه القلوب وجعل يتصرف فى أمور المملكة بالاشتراك مع الملك الأشرف لا يقدر على الاستقلال بها ولا الاستبداد بالأحكام لممانعة خوشداشه أقطاى الجمدار له فى ذلك فكان أيبك في حزن دائم من ذلك ، فلما كانت سنة اثنتين وخمسين وستمائة دبر المعز أيبك أمر قتل أقطاى فأوقف له فى بعض دهاليز الدور التى بقلعة الجبل ثلاثة مماليك أحدهم يسمى قطز والثانى بهادر والثالث سنجر الغتمى فلما مر بهم فارس الدين أقطاى المذكور ضربوه بالسيوف فقتلوه ووصل خبر قتله إلى المماليك البحرية فانزعجوا وفروا من مصر إلى الشام خوفا من المعز أيبك فخلا الجو للمعز واستقل بالسلطنة وخلع الأشرف موسى منها وسيره إلى عمانه فكان الأشرف موسى المذكور آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة فى ديار مصر وكان انقضاء دولتهم فى هذه السنة أى سنة اثنتين وخمسين وستمائة هجرية وسنة خمسين ومائتين وألف ميلادية فكان عدد ملوكهم تسعة أولهم الملك صلاح الدين بن أيوب وآخرهم الأشرف موسى أو الملكة شجرة الدر زوجة الملك الصالح الأيوبى فسبحان من له الملك وحده والسلطان الدائم بلا زوال .

فبادوا جميعا ولا مخبر　　　وماتوا جميعا وصح الخبر

فلما تمت نعمة المعز أيبك بتملكه على ديار مصر وما يتبعها من الشامات واستقل بحكمها ظهرت على يديه الدولة الشركسية التى هى إحدى فروع الدولة التركية وتمكن سلطانها فتولى حكم البلاد منها سبعة وأربعون ملكا أولهم المعز أيبك

المذكور وآخرهم طومـان باي وهم الملقبون بمماليك الدولة الأيوبية الكردية ليـمتازوا عن المماليـك البحرية وكـان الملك الصالح الأيوبى قـد اصطفاهم لنفـسه وخـصهم بخدمـته فكان لهم التـقدم فى أيامه كـما سبـقت الإشارة إلى ذلك. قال أصـحاب التاريخ: وكـان فيهم فظاظة وخشـونة واستهـتار بالأمور كلها، وأحـسن المعز أيبك التدبير وأقام الـعدل بين الرعية وشدّد على المماليك العـزيزية لتمردهم وتطاول أيدى بعضهم إلى العامة فكرهوه وجعلوا يترقبون الفرص للقبض عليه فعلم نيتهم واستعدّ لهم وبالغ فى الاستعـداد، فلما كانت سنة ثلاث وخمسين همـوا بالقبض عليه فلم يفلحوا فهربوا من مخيـمهم إلى العباسة على حمية فأحاط على وطاقـاتهم جميعها وأخذ ما فيها فهابه الأمراء كافة وحسده الملك الناصر صاحب الشام وخاف أن يأخذ ملكه فسير كمال الدين المعروف بابن العديـم رسولا من قبله إلى الخليفة المستعصم وصحبته تقدمة جليلة وطلب خلعه من الخليفة فعلم المعز أيبك بقصده فأرسل شمس الدين سنجر الأقرع وهو من مماليك المظفر غازى صاحب ميافارقين إلى بغداد بتقدمة جليلة جدا وسعى فى تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب الشام فبقى الخليفة متحيرا أياما ثم إنه أحضـر سكينا من البلسم كبيرة وقال الخليـفة لوزيره: أعط هذه السكين رسول صاحب الشام علامـة منى فى أنه له خلعة عندى فى وقت آخر وأما فى هذا الوقت فلا يمكننى إعطاؤه شيئا فأخـذ رسول صاحب الشام السكين وعاد إلى الملك الناصر يوسف بغير خلعة فكبر عليه هذا الأمر وجعل يراقب الفرص وهو قلق وجل ودس إلى شجرة الدر مـن يعلمها بحاله، وكـانت شجرة الدر كثيـرة التداخل فى أمور المملكة ولها بعض الغلبـة على أمر المعز أيبك فأحسن المعـز بذلك فكان يضمر لها السـوء ويعمل على التـخلص منها واتفق أنـه سير إلى بدر الدين لـؤلؤ صاحب الموصل من يخطب له ابنتـه ليتزوج بهـا فلما علمت شجـرة الدر بعزمه وكـانت قد آنست منه البغض وأحـست بالشر صارت تتـربص الفرصة للإيقاع به فلمـا كان يوم الثلاثاء الثـالث والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وخـمسين وستـمائة خرج إلى لعب الكرة ثم عـاد ودخل الحمـام فأوعـزت فى الحـال إلى سنجر الجـوهرى مملوك الطواشى محسن وبعض الخدم بأن يقتلوه فـدخلوا عليه وقتـلوه وأرسلت شجرة الدر فى تلك الليلة إصبع المعز أيبك وخاتمه إلى الأمير عز الدين الحلبى الكبير وطلبت منه أن يقوم بالأمر فلم يـجسر على ذلك وظهر الخبـر فثارت مماليك المعز لقـتل شجرة الدر فمـانع عنها طوائف المماليك الصالحـية واجتمع كـافة الأمراء وكبـار الجند ليولوا ملك البلاد لمن يصلح فـاتفقت كلمتهم جـميعا على إقامـة نور الدين على بن المعز

أيبك ولقبوه بالملك المنصور وعمره يومئذ خمس عشرة سنة ونقلت شجرة الدر من دار السلطنة إلى البرج الأحمر ثم قبضوا على الخدام الذين وافقوها على قتل الملك فصلبوهم وهرب سنجر الجوهرى ولكنهم ظفروا به بعد ذلك وصلبوه واحتيط بالصاحب بهاء الدين عليّ بن حنا الذى كان وزير شجرة الدر وأخذ خطة بستين ألف دينار، ولما تولى الملك نور الدين على المنصور واستقرت به السلطنة قبض على شجرة الدر ودخل بها على أمه فأمرت بإعدامها فقتلها الجوارى بالقباقيب ورماها بالخندق وهى عريانة على باب القلعة وبقيت أياما ثم دفنت بالتربة التى كانت قد أعدتها لنفسها. قال كتاب الأخبار: وقد جوزيت من جنس عملها لأنها كانت سعت فى قتل الملك المعظم فمات غريقا كما تقدم بيانه فى محله وترك ثلاثة أيام على شاطئ النيل فكذلك فعل بها.

ودخلت سنة ست وخمسين وستمائة هجرية بكثير من الحوادث المهمة فقصد فى أولها هولاكو ملك التتار دار السلام وحاصرها وضيق عليها وشدّد حتى ملكها فى العشرين من المحرم وقبض على الخليفة المستعصم بالله* قال أهل التاريخ: وكان سبب ذلك أن مؤيد الدين بن العلقمى وزير الخليفة كان رافضيا وكان أهل الكرخ أيضا روافض فجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جارى عادتهم فأمر أبو بكر بن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر فنهبوا الكرخ وقتلوا النساء وركبوا بهن الفواحش فعظم فعلهم على الوزير ابن العلقمى وعزم على الانتقام فكاتب التتار وأطمعهم فى ملك دار السلام وكان عسكر بغداد قد بلغ يومئذ مائة ألف فارس فقطعهم المستعصم ليحمل إلى التتار متحصل إقطاعاتهم فأصبح عسكر بغداد بعد ذلك أقل من عشرين ألف فارس ثم أرسل ابن العلقمى إلى التتار أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين بغداد فى جمع عظيم للغاية فلما علم الخليفة بخبر قدومهم أخرج عسكره لقتالهم ومقدّمهم ركن الدين بن الدوادار فالتقوا على مرحلتين من دار السلام واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم عسكر الخليفة ودخل بعضهم بغداد وسار بعضهم إلى جهة الشام ونزل هولاكو على بغداد من الجانب الشرقى ونزل باجو من أكبر مقدّميه إلى الجانب الغربى على قرية قبالة دار الخلافة وخرج مؤيد الدين بن العلقمى الوزير إلى هولاكو فاستوثق لنفسه وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال: إن هولاكو يبقيك فى الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبى بكر وحسن له الخروج إلى هولاكو فخرج إليه المستعصم فى جمع من أكابر أصحابه فأنزله فى خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك جميع سادات

بغداد والمدرسون وكان منهم محيي الدين بن الجوزى وأولاده وكذلك صار يخرج إلي التتار طائفة بعد طائفة حتى تكاملوا فأمر هولاكو فقتلهم التتار عن آخرهم ثم مدوا الجسر وعدى باجو ومن معه وبذلوا السيف فى بغداد وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف ولم يسلم إلا من كان صغيرا فأخذ أسيرا ودام القتل والنهب فى بغداد نحو أربعين يوما ثم نودى بالأمان قال الراوى: وأما الخليفة فإنهم قتلوه ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله فقيل خنق وقيل وضع فى عدل ورفسوه حتى مات وقيل غرق فى دجلة وقيل غير ذلك وكان هذا المستعصم وهو عبد الله أبو أحمد بن المستنصر أبى جعفر منصور بن محمد الظاهر ابن الإمام الناصر أحمد ضعيف الرأى كما تقدّم وقد غلب عليه أمراء دولته لسوء تدبيره وانهماكه فى اللذات وعدم اهتمامه بمقام الخلافة ومسند الإمامة فكانت خلافته نحو ست عشرة سنة وبموته زالت الخلافة من العباسيين وانقرضت دولتهم وانمحت اثارها فلم تكن شيئا مذكورا. قال أصحاب التاريخ: كان ابتداء دولة الخلفاء العباسيين فى سنة اثنتين ومائة هجرية وهى السنة التى بويع فيها السفاح بالخلافة وقتل فيها مروان الحمار آخر خلفاء بنى أمية وكانت مدة ملكهم خمسمائة سنة وأربعا وعشرين سنة على التقريب وعدّة خلفائهم سبع وثلاثون خليفة. حكى القاضى جمال الدين بن واصل قال: لقد أخبرنى من أثق به أنه وقف على كتاب عتيق فيه ما صورته، أن علىّ بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بلغ بعض الخلفاء من بنى أمية عنه أنه قال: إن الخلافة تصير إلى ولده فأمر الأموى بعلىّ بن عبد الله فحمل على جمل وطيف وبه وضرب وكان يقال عند ضربه هذا جزاء من يفترى ويقول إن الخلافة تكون فى ولده فكان علىّ بن عبد الله المذكور رحمه الله يقول :إي والله لتكونن الخلافة فى ولدى ولا تزال فيهم حتى يأتهيم العلج من خراسان فينزعها منهم.فوقع مصداق ذلك بورود هولاكو وإزالة ملك بنى العباس على يديه فأقامت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة وذلك من يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة ست وخمسين وستمائة وهو يوم قتل الخليفة المستعصم إلى سنة تسع وخمسين وستمائة فسبحان من له الدوام والبقاء .

وكما كانت دار السلام فى قلق واضطراب بسبب دخول هولاكو إليها بعسكره ظافرا منصورا وقتله للخليفة المستعصم وجميع رجال الدولة وكبار البلد كانت مصر كذلك بسبب الإرهاصات الداخلية والفتن المتوالية وتحزب بعض الأمراء ضد البعض الآخر وتغلب بعضهم على أمر الملك المنصور لا سيما سيف الدين قطز أحد مماليك المعز أيبك فقد كان شديد البأس واسع الكلمة كبير الهيبة وكان يراقب الفرص لخلع

الملك المنصور ليتولى الملك مكانه ومازال على هذا الحال إلى أن أنفق فى أوائل ذى الحجة سنة تسع وخمسين وستمائة خروج علم الدين المغنمى وسيف الدين بهادر وجمع من كبار المعزية إلى الرمى بالبندق وكان لهما كلمة نافذة وشهرة كبيرة فانتهز سيف الدين قطز المذكور فرصة غيابهما وقبض على ولده أستاذه الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك وخلعه من السلطنة فلما قدم المغنمى وبهادر المذكوران لم يمهلهما حتى قبض عليهما واعتقلهما فخافه بقية الأمراء ودانوا له وبالغوا فى الخضوع إليه فتولى الملك وقبض على زمام السلطنة وتلقب بالملك المظفر ووردت عليه رسائل التهانى من كل صوب وحدب، وكان الملك الناصر يوسف صاحب الشام قد أرسل إلى الملك المنصور علىّ قبل خلعه كمال الدين بن العديم مستنجدا على التتار واتفق خلع الملك المنصور وولاية قطز بحضرة كمال الدين بن العديم المذكور فلما استقر قطز بمنصب السلطنة كلمه كمال الدين فيما جاء بصدده فأعاد جواب الملك الناصر يوسف بأن ينجده ولا يقعد عن نصرته فعاد ابن العديم بهذا الجواب ثم أخذ الملك المظفر حينئذ فى جمع الجيوش وإعداد معدّاتٍ الحرب وفرق فى جيوشه الأموال فكانت زهاء ستمائة ألف دينار جمعها مما فرضه على أهل البلاد مما سماه تصقيع الأملاك وزكاتها وما ناله من ثلث التركات مما قيمته ستة آلاف دينار فى سنة وخرج يريد قتال التتار ومعه الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك الأفضل علىّ فى أوائل رمضان من السنة فلما علم كتبغا وهو نائب هولاكو على الشام ومقدم التتار بسير العساكر الإسلامية إليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من بالشام من التتار وسار إلى لقاء المسلمين وكان الملك السعيد صاحب الصبيبة ابن الملك العزيز ابن الملك العادل بن أيوب صحبة كتبغا فتقارب الجمعان واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم التتار شرٌ هزيمة وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب وكثر فيهم القتل وقتل كتبغا وأسر ابنه وترفع من سلم من التتار إلى رؤوس الجبال وتبعهم المسلمون فأخذوهم وهرب من سلم منهم إلى المشرق فجرد الملك المظفر قطز ركن الدين بيبرس البندقدارى فى أثرهم وهو من مقدمى الأمراء المصرية وكبار العسكر وكان ممن صحب التتار أيضا فى هذه الوقعة الملك الأشرف موسى صاحب حمص فلما رأى ما حل بهم من الفشل والقتل فارقهم وتقدم إلى الملك المظفر قطز فى طلب الأمان فأمنه وأقره على ما بيده من البلاد وأما الملك السعيد صاحب الصبيبة فإنه أمسك أسيرا وأحضر بين يدى الملك المظفر قطز فأمر به فضرب عنقه بين يديه ثم دخل الملك المظفر دمشق ظافرا منصورا ففرح به أهل دمشق فرحا لا يوصف

فجعل ينظر فى الأمور ويأمر وينهى ويصلح ما أفسده التتار ولبث على هذا الحال أياما معظم شأنه واتسعت شهرته وطار صيته فحسده أصحابه وكرهوه وخافوا أن تطول مدته فاتفق منهم بيبرس البندقدارى الصالحى مع آخر اسمه آنصور مملوك نجم الدين الرومى الصالحى والهارونى وعلم الدين صوغان أوغلى على قتله وتحالفوا على ذلك فلما قام من دمشق وسار يريد الديار المصرية ساروا معه يرتقبون الفرص فلما وصلوا إلى القصر بطريق الرملة وبينه وبين الصالحية مرحلة وقد سبق الدهليز والعسكر إلى الصالحية قامت بين يدى قطز أرنب ففرح بها وساق عليها يريد قنصها فساق هؤلاء المذكورون معه فلما بعدوا تقدم إليه آنصو وأظهر أنه يريد أن يشفع عند الملك المظفر قطز فى إنسان فأجابه إلى ذلك فأهوى ليقبل يده وقبض عليها فحمل عليه بيبرس البندقدارى حينئذ وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب وكان ذلك فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة فكانت مدة ملكه أحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما وساق بيبرس وأولئك المذكورون معه بعد قتله حتى لحقوا بالدهليز بالصالحية فسألهم أقطاى فارس الدين نائب السلطنة عن الملك المظفر قطز. فقالوا له قتلناه فقال من قتله منكم؟ فقال له بيبرس: أنا فقال له أقطاى ياخوند اجلس فى مرتبة السلطنة فجلس فاستدعيت العساكر والأجناد للتحليف له فحلفوا فى اليوم الذى قتل فيه قطز وهو سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة.

واستقرت السلطنة لبيبرس وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ثم غير لقبه عن الملك القاهر وتلقب بالملك الظاهر لأنه بلغه أن القاهر لقب غير مبارك ما تلقب به أحد فطالت مدته فلما حلف له الجند ورجال الدولة يمين الطاعة سار بهم الملك الظاهر بيبرس المذكور من الصالحية يريد القاهرة ثم تركهم فى الطريق وسار فى جماعة من أصحابه فصعد إلى قلعة الجبل ففتحت له فدخلها واستقرت قدمه فى المملكة وفرح الناس به وزينوا له مصر والقاهرة أياما فجعل يتصرف فى الأمور ويقرر قاعدتها على ما يحب ثم لم يلبث أن سير علاء الدين البندقدارى أستاداره فى عسكر عظيم لقتال عليم الدين سنجر الحلبى المستولى على دمشق من قبل الملك قطز فقاتله بظاهر دمشق فهرب الحلبى إلى بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل إلى مصر فاعتقل ثم أطلق واستقرت دمشق فى ملك الظاهر بيبرس وأقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشامات مثل حماة وحلب وحمص وغيرها وأقام أيدكين البندقدارى الصالحى فى دمشق لتدبير الأمور فعظمت شوكة الملك الظاهر وظهرت كلمته ودانت له الأمور كما يشاء وهابه الملوك وتزلفوا إليه وسيروا إليه الهدايا الجليلة والتحف النفيسة حتى كان من أمره بعيد ذلك ما سيذكر فى محله.

(المقالة السادسة)

(فى كيفية ظهور الخلافة العباسية بالقاهرة بعد موت الخليفة المستعصم بالله)

(وفيها فصول)

لما كان الملك الظاهر بيبرس المذكور شديد الرغبة فى الغزو والفتوحات ومنازعة هولاكو ومن حذا حذوه من ملوك الخوارج وكان يخشى إنه إذا تقدم إلى ذلك فشل أمره وتفرق الناس عنه وزالت سلطنته إذا لم تفرض له الأمور بالفرض الشرعى وقد كانت الدنيا إلى هذا الحين بغير خليفة بعد موت الخليفة المستعصم على ما مر بك بيانه عمد إلى البحث عمن بقى من سلالة الخلفاء العباسيين وأظهر الاهتمام بأمرهم وأجزل العطاء لجماعة من العربان ليأتوه بالخبر فلما كانت سنة تسع وخمسين وستمائة قدم إلى القاهرة فى مستهل رجب جماعة من العربان ومعهم رجل أسود اسمه أحمد أبو القاسم زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله محمد ابن الإمام الناصر العباسى قالوا: وكان معتقلا ببغداد ثم أطلق وكان عدة أولئك العربان عشرة منهم الأمير ناصر الدين مهنا فلما علم الملك الظاهر بقدومهم أظهر الفرح وخرج للقائهم ومعه القاضى تاج الدين والوزير والعلماء والأمراء والشهود والمؤذنون فتلقوه فدخل من باب النصر فى أبهة عظيمة وكبكبة زائدة وأنزلهم الملك الظاهر بيبرس مكانا رحبا وبالغ فى الحفاوة بهم فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة تسع وخمسين جلس الملك الظاهر بيبرس وأبو القاسم الأسود المذكور فى الديوان بقلعة الجبل وجلس القاضى والوزير والأمراء على طبقاتهم وأثبت أبو القاسم المذكور نسبه لدى القاضى تاج الدين بالوجه الشرعى فلما ثبت ذلك وقف قاضى القضاة قائما وأشهد على نفسه ثبوت النسب ثم قام عز الدين بن عبد السلام شيخ الإسلام يومئذ فبايعه بالخلافة أولا ثم السلطان الملك الظاهر ثم القاضى تاج الدين ثم الأمراء ورجال الدولة واحدا فواحدا وركب من يومه فى دست الخلافة بمصر والأمراء بين

يديه والناس حوله وشق القاهرة ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه وطيروا الأخبار بذلك إلى الآفاق فكان الناس فى خلافته على طرفى نقيض ولكل فريق حجة والله سبحانه أعلم بالحقائق .

أقول: ولما لم يكن من رأينا الانتقال إلى البحث فى كنه هذه الخلافة ولا فى كيفية صيرورتها إلى أبى القاسم الأسود المذكور كى لا يتطرف بنا القلم إلى الخوض فى مجال قد تسابق فيه فحول الكتاب وكبار أهل النقد على غير جدوى لاختلاف الأقوال فيه وتعدد المذاهب وتباين الأهواء وقد جاء فى حديث صاحب الشريعة الإسلامية ﷺ فى الأمر بطاعة الخليفة ما لفظه: «اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة» وكان الغرض من هذا المؤلف إنما وذكر الحوادث على ترتيب سنى خلافة كل خليفة ممن سبق إلى هذه الفترة التى بات فيها الإسلام بغير خليفة قد التزمنا هذه الخطة بعينها فى تقييد حوادث وأنباء المدة من ظهور أبى القاسم هذا على ترتيب سنى خلافته وخلافة من يأتى بعده ممن يكون لله فى الأرض خليفة كما جاء به حديث صاحب الشريعة عسى أن لا يشكل الأمر على القارئ ولا تفوته الفائدة من سرد الحوادث والأخبار متتابعة كتتابع سنى الخلافة واتصال أدوارها بعضها ببعض، كما كانت دار السلام وغيرها مقر للخلافة العباسية والإمامة الإسلامية إلى هذا الحين فقد أصبحت مدينة القاهرة مقرا لها أيضا بظهور أبى القاسم هذا والبيعة له ولكن على آخر رمق من حياة الخلافة بعد ذلك الحول والطول والقوة والسودد فسبحان من قسم الحظوظ.

(الفصل الأول)

(فى خلافة المستنصر بالله أحمد بن الخليفة الظاهر بالله)

وقام بالأمر بعد قتل الخليفة المستعصم على ما مر بك بيانه فى حينه عمه أحمد ابن الخليفة الظاهر بالله بن محمد بن الناصر العباسى. قال أصحاب التاريخ: وهو أخو المستنصر بويع له بالخلافة بمدينة القاهرة فى يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة تسع وخمسين وستمائة أى سنة ستين ومائتين وألف ميلادية وذلك بعد قتل المستعصم بثلاث سنين ونصف سنة وأيام ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وكتبت الكتب ببيعته إلى الآفاق وأنزل بقلعة الجبل

هو وخدمه وحشمه فلما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب ركب فى أبهة السواد وجاءَ إلى الجامع بالقلعة فصعد المنبر وخطب خطبة ذكر فيها شرف بنى العباس ودعا للسلطان ثم نزل فصلى بالناس وفى يوم الاثنين رابع شعبان ركب أيضاً وركب معه السلطان والقاضى والوزراء والأمراء وأهل الحل والعقد إلى خيمة عظيمة قد ضربت له بظاهر القاهرة فألبس السلطان بيده خلعة سوداء وعمامة سوداء وطوقاً من ذهب فى عنقه وقيداً من ذهب فى رجله وفوض إليه الأمور فى البلاد الإسلامية كافة وما سيفتحه من البلاد الأخرى ولقبه بقسيم أمير المؤمنين ثم صعد بعد ذلك فخر الدين ابن لقمان رئيس الكتاب منبراً فقرأ عليه تقليد السلطان وركب السلطان بهذه الأبهة والقيد فى رجليه والطوق فى عنقه والوزير بين يديه ورجال الدولة مشاة سوى القاضى والوزير فشق من القاهرة وقد زينت له فكان يوماً مشهوداً ثم بعد قليل طلب الخليفة من السلطان أن يجهزه إلى بغداد لقتال هولاكو واستخلاص دار السلام منه فأجابه إلى ذلك ورتب له جنداً وجيش له عسكراً وأقام له كل ما يحتاج إليه ودفع إليه ألف ألف دينار وسار السلطان بصحبته إلى دمشق فدخلوها فى يوم الاثنين سابع ذى القعدة وصليا فيها الجمعة ثم سار الخليفة من دمشق بعسكره وركب الملك الظاهر وودّعه وأوصاه بالتأنى فى الأمور ثم عاد إلى الديار المصرية فدخلها سابع عشر ذى الحجة فلم يلبث إلا قليلاً حتى وصلت إليه كتب الخليفة بمصر أنه قد استولى على عانة والحديثة وولى عليهما وأن كتب أهل العراق وصلت إليه يستحثونه على الوصول إليهم ففرح الملك الظاهر بذلك وترامت آماله إلى المرمى البعيد . وبينما كان الخليفة يجدُّ السير بعسكره إلى بغداد وصل إليه التتار فى جمع كثير وأحاطوا بعسكره واقتتلوا قتالاً يسيراً فظفر التتار بعسكر الخليفة وقتلوا الخليفة وجماعة كثيرة من أصحابه ونهبوا ما كان معه من الأسلحة والكراع وشدّدوا على من بقى من العسكر فتفرقوا أيدى سبأ ووصلت الأخبار إلى السلطان الملك الظاهر بما وقع فشق عليه الأمر واستعظمه. قال أصحاب التاريخ: وقد كان يودُّ نصرته وفتحه للبلاد رجاء أن تكبر دولة الملك الظاهر على يديه فلم يوفق إلى ذلك وقتل الخليفة فى ثالث المحرم سنة ستين وستمائة فكانت خلافته دون الستة أشهر.

وكان ممن شهد الوقعة مع الخليفة وهرب مع من نجا أبو العباس أحمد ابن الأمير أبى علىّ الحسن القتبي ابن الأمير على ابن الأمير أبى بكر أمير المؤمنين المسترشد بالله فقصد الرحبة وجاء إلى عيسى بن مهنا فكاتب فيه الملك الظاهر فطلبه فقدم إلى

القاهرة ومعه ولده وجماعة فدخلها فى سابع عشر ربيع الآخر فتلقاه السلطان وأظهر السرور به وأنزله بقلعة الجبل وأغدق عليه واستمر بقية العام بلا مبايعة والسكة تضرب باسم المستنصر المقتول فلما كان المحرم افتتاح سنة إحدى وستين تمت له البيعة وتقلد الخلافة بعد ثبوت نسبه على ما سيذكر.

(الفصل الثانى)

(فى خلافة الحاكم بأمر الله بن المستظهر بالله العباسى)

ثم تولى الخلافة أبو العباس أحمد ابن الأمير أبى بكر علىّ بن أبى بكر بن المسترشد بالله بن المستظهر بالله العباسى بويع له بالخلافة فى يوم الخميس ثامن المحرم افتتاح سنة إحدى وستين وستمائة هجرية أى سنة اثنتين وستين ومائتين وألف ميلادية وذلك أنه لما كان يوم الخميس المذكور جلس السلطان الملك الظاهر بيبرس مجلساً عاماً وجاء أبو العباس المذكور راكباً إلى الإيوان الكبير وجلس مع السلطان بعد ثبوت نسبه فقرئ نسبه على الناس ثم أقبل عليه السلطان وبايعه بإمرة المؤمنين ثم أقبل هو على السلطان فقلده الأمور ثم بايعه الناس على طبقاتهم ولقب الحاكم بأمر الله فلما كان من الغد يوم الجمعة خطب الخليفة بالناس فقال فى خطبته: الحمد لله الذى أقام لآل العباس ركناً وظهيراً ، وجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيراً، أحمده على السراء والضراء، وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء، وأستنصره على الأعداء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء، وأئمة الاقتداء، الأربعة الخلفاء، وعلى العباس عمه، وكاشف غمه، وعلى السادة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعلى بقية الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أيها الناس اعلموا أن الأمانة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولايقوم علم الجهاد، إلا باجتماع كلمة العباد، ولا سبيت الحرم إلا بانتهاك المحارم، ولاسفكت الدماء إلا بارتكاب المآثم، فلو شاهدتم أهل الإسلام، حين دخلوا دار السلام، واستباحوا الدماء والأموال، وقتلوا الرجال والأطفال، وهتكوا حرم الخلافة والحريم، وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل، وعلت الضجات من هول ذلك اليوم الطويل، فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه، فشمروا عن ساق الاجتهاد، فى إحياء فرض

الجهـاد، فاتقوا الله ما استطعتم واسمعـوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفـسه فـأولئك هم المفلحـون، فلم تبق معـذرة فى القعـود عن أعداء الدين، والمحـاماة عن المسلمـين، وهذا السلطان الملك الظاهر السـيد الأجل العـالم العادل المجاهد المؤيد ركن الدنيـا والدين قد قام بنصر الإمامـة عند قلة الأنصار، وشـــرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار، فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود، والدولة العبـاسية مـتكاثرة الجنود فبادروا عـباد الله إلى شكر هذه النعمـة وأخلصوا نياتكـم تنصروا، وقاتلوا أولياء الشـيطان تظفروا، ولا يرد عنكم ماجـرى فالحرب سجال والعاقبة للمتقين، والدهر يومان والآخرة للمؤمنين، جمع الله على التقوى أمـركم، وأعز بالإيمـان نصركم، وأستغفـر الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمين فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، ثم خطب الثانية ونزل فصلى بالناس وكتب ببيعته إلى الآفاق ليخطب له وتكتب السكة باسمه .

قال أبو شامة فـخطب له بجامع دمشق وسائر الجوامع يوم الجمعـة سادس عشر المحـرم من هذه السنة، وقال ابن فضل الله: ونقش اسمـه على السكة وضرب بها الدينار والدرهم قال: ثم خاف الظـاهر عاقبة أمره فأسكنه عـنده بقلعة الجبل وعنده حريمـه وخدمه وغلمـانه موسعـاً عليه فى النفقـات والكساوى يتردد عليـه العلماء والقراء على أكمل ما يكون من أنواع الإكرام وملازمته جانب الإجلال والمهابة ممنوعاً من اجتـماع أحد من أهل الدولة ثم أسـقط اسمه من سكة النقـود وأبقاه على المنابر فقط .

وجعل الظاهر بيبرس منذ مبايعة هذا الخليفة الحاكم بأمر الله يتأهب لغزو التتار والأخذ بالثأر فبنى دار العدل القديمة تحت سور قلعة الجبل وصار يجلس بها لعرض العساكـر فى كل اثنين وخميس ومازال حتى جـيش جيشاً ضخـماً وسار به فى سنة ست وستين إلى الشام وقـاتل من بيافا حتى ملكها واستولى على الشـقيف وأنطاكية وبغراس وطبرية والقرين وارصـوف وصافيتا وايباس ومرقـية وعرج على دار السلام فحاصرها وضيق فى حصارها وما زال بها حتى دخلها وأباحها أياماً ثم رتب أمورها وأحكم نظامها ثم سار منها وصحبته ولده الأمير بركة خان إلى مصر يريد الحج فمر بمدينة حلب وكانت فى أيدي التتار فقاتلهم وأجلاهم عنها ثم عرج إلى بيت المقدس وعاد قافلاً إلى مصر ولبث بها إلى ميـعاد خروج ركب الحاج فخرج من القاهرة فى كبكبة عظيمة وسـار برا إلى السويس يريد مكة وخرج معه جماعة كـثيرة وقد كانت الطريق من مصر إلى مكة إلى ذلك الحين من صحراء عـيذاب فكان الحجاج يركبون

السفن بالنيل من ساحل الفسطاط إلى مدينة قوص بالصعيد الأعلى ثم يركبون الإبل منها فيقطعون صحراء عيذاب إلى ساحل البحر الأحمر ويركبون السفن بالبحر الأحمر إلى جدة التى هى ميناء مكة وكذلك كانت تأتى على هذه الطريق جميع قوافل التجار من الحبشة والهند واليمن وجميع جزيرة العرب فكانت لذلك الصحراء المذكورة آهلة عامرة آمنة فلما سار الظاهر بيبرس إلى مكة براً تبعه الناس فى ذلك واقتدوا به وتحولوا عن طريق صحراء عيذاب وكذلك تحولت قوافل التجار بعد سنة ستين وسبعمائة هجرية فزالت بهجة مدينة قوص وقلت أهميتها وتقهقرت تقهقراً سريعاً حتى أصبحت بالحالة التى هى عليها الآن أو أهم بقليل. ولما رجع من الحج اهتم بأمور الرعية وبالغ فى ترتيب أحوال المملكة وعمل على تأمين السبل وقطع شأفة أهل الفساد، وبينما هو على هذا الحال إذ جاءته الأخبار تترى بزحف طوائف التتار إلى أرض الشام ومحاصرتهم بيرة فجيش عسكراً عظيماً وسار بهم إلى قتال التتار وصحبته الأمير قلاوون الألفى فالتقى الجمعان عند بيرة واقتتلوا قتالاً عنيفاً فانتصر المسلمون على التتار نصرة مؤزرة واستولوا على بيرة وساروا منها إلى أرمينية ففتحوها عنوة وأباحها بيبرس أياماً فغنموا وسبوا وقتلوا وأراقوا فيها الدماء الكثيرة ولبث بها حتى رتب أمورها وقرر أحوالها وسار عنها يريد القاهرة فلما صار على قيد فرسخ منها خرج الأمراء والكبراء والعلماء والفقهاء وعامة الناس للقائه وضربت البشائر لقدومه فدخل من باب النصر وقد فرشوا له الطريق بالبسط والطنافس الفاخرة إجلالاً وتعظيماً فشق من وسط المدينة وصعد إلى قلعة الجبل ثم أولم وأعطى الناس وكان قد ترك الأمير قلاوون بالشام فلم يمض إلا القليل على وصوله حتى جاءه الخبر بزحف بغا خان بن هولاكو ملك التتار على أرض الشام وحصره بيرة ثانية فأنفذ إلى الأمير قلاوون بقتالهم وإجلائهم عن البلاد فسار إليهم الأمير قلاوون فى قلة من العساكر المصرية وضربهم ضربة أرجعتهم على أعقابهم فسر الملك الظاهر بذلك سروراً عظيماً ومال إلى الأمير قلاوون وأحبه واعتمد فى كثير من الأمور عليه.

وتاقت نفس الملك الظاهر بيبرس إلى فتح بلاد النوبة والصعيد الأعلى فأنفذ فى سنة أربع وسبعين الأمير آق سنقر فى جيش عظيم فسار من ساحل الفسطاط إلى أسوان فقاتلها وما زال بها حتى استولى عليها وترفع إلى الصعيد الأعلى يغزو ويفتح ويحرق ويخرب ويسفك الدماء حتى ملك جميع مصر العليا وأخضعها لحكم الملك الظاهر وقرر أمورها على ماشاء وقفل راجعاً مثقلاً بالغنائم من الذهب والفضة وسن

الفيل والريش والعبيد والإماء والخصيان والخيل والدواب ووحوش البر ففرح الملك الظاهر بقدومه وسر باتساع ملكه وطمع فى فتح برقة وإخضاعها لحكمه فسار لقتال من بها وعاد ظافراً منصوراً فلما كانت سنة خمس وسبعين عاد بغا خان بن هولاكو إلى الزحف على أرض الشام ليأخذها من عامل الظاهر فأهم الظاهر ذلك واستعظمه وجيش جيشاً عظيماً وخرج به من القاهرة فى يوم الخميس لعشرين مضت من رمضان من السنة وسار يريد قطع شأفة التتار ومحو أثرهم فوصل إلى حلب ومنها إلى النهر الأزرق ثم إلى ابلستين فوصل إليها فى ذى القعدة فسير بغا للقائه عسكراً عظيماً مقدمهم وكبير اسمه تناون وهو من كبار المقدمين فالتقى الفريقان فى أرض إبلستين يوم الجمعة عاشر ذى القعدة واقتتلوا فانهزم التتار وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم تناون وغلب كبراءهم وأسر منهم جماعة كثيرة وكان ممن أسر فى هذه الموقعة سيف الدين قبجق وسيف الدين أرسلان فلما تم الظفر للملك الظاهر بيبرس سار إلى قيسارية واستولى عليها وكان الحاكم بالروم يومئذ معين الدولة سليمان البرواناه فكان يكاتب الملك الظاهر فى الباطن والملك الظاهر يظن أنه إن وصل قيسارية يصل إلى البرواناه على ما كان قد اتفق معه فى الباطن فلم يحضر إليه وأقام الملك الظاهر على قيسارية سبعة أيام فى انتظاره وخطب له على منابرها ثم رحل عن قيسارية وقد نفدت منه الأقوات فحصل للعسكر شدة بالغة جداً وفنى العلف فماتت دواب الجمل والخيل ووصلوا إلى عمق حارم وهم فى أسوء حال فلبثوا بها شهراً فلما بلغ بغا بن هولاكو ما حل بقومه التتار ساق فى جمع المغل حتى جاء الانبستين وشاهد عسكره صرعى جيفاً وأشلالاً ولم يشاهد أحداً من عسكر الروم مقتولاً فالتهب قلبه بنار الغيظ وأمر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين ونهب وخرب وفعل ما لا خير فيه ثم سار إلى الأردن وصحبته معين الدين البرواناه فلما استقر بالأردن أمر بالبرواناه فقتل وقتل معه نيفاً وثلاثين نفساً من مماليكه وخواصه.

أما الملك الظاهر بيبرس فإنه بعد أن أقام بعمق حارم شهراً يصلح حال عسكره رحل عنها فى أواخر سنة خمس وسبعين ونزل بالقصر الأبلق ثم سار منها لغزو الروم وعاد فلما كان المحرم افتتاح سنة ست وسبعين وستمائة مرض مرضاً شديداً ومات فى يوم الخميس السابع والعشرين منه وكانت وفاته وقت الزوال وقد اختلف فى سبب موته. قال بعض كتاب الأخبار: انكسف القمر كسوفاً كلياً وشاع بين الناس أن ذلك سبب موت رجل جليل القدر فأراد الملك الظاهر أن يصرف التأويل إلى غيره فاستدعى بشخص من أولاد الملوك الأيوبية يقال له الملك القاهر من ولد

الملك الناصر داود ابن المعظم عيسى وأحضر خمراً مسموماً وأمر الساقى فسقى الملك الظاهر ثم شرب الملك الظاهر ناسياً بذلك الكأس التى شرب منها القاهر على أثر شربه فمات القاهر عقب ذلك وحصلت للملك الظاهر حمى محرقة ومات بها فى التاريخ المذكور وقال آخرون غير ذلك فكتم نائبه ومملوكه بدر الدين بيلبك المعروف بالخزندار خبر موته وحنطه وكفنه وتركه فى قلعة دمشق إلى أن تمت تربته بدمشق بقرب الجامع فدفن بها وهى مشهورة معروفة وارتحل بعد ذلك بيلبك بالعساكر ومعهم المحفة مظهراً أن الملك الظاهر فيها وأنه مريض وسار إلى مصر وكان الملك الظاهر قد حلف العساكر لولده بركةخان ولقبه الملك السعيد وجعله ولى عهده فوصل بيلبك الخزندار بالخزائن والعسكر إلى الملك السعيد بركة وهو بقلعة الجبل وأصبحوا وقد أظهروا موت الملك الظاهر وجلس ابنه الملك السعيد للعزاء ثم جدّدوا له البيعة واستقرت له السلطنة فكانت مدة ملك الملك الظاهر بيبرس سبع عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام على التحقيق لأنه ملك فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة ومات فى السابع والعشرين من المحرم افتتاح سنة ست وسبعين وستمائة وكان ملكاً شجاعاً عاقلاً مهيباً ملك مصر والشام واستولى على النوبة وفتح الفتوحات الجليلة فكان ما فتحه مما بأيدى الصليبيين يافا وطبرية وصفد والشقيف وارسوف وقيسارية وأنطاكية وحصن الأكراد والقصير وبغراس وحصن عكا والقرين ومرقية وصافيتا وحلب. قال أصحاب التاريخ: وناصفهم فى طرسوس وأدنة والمرقب والمصيصة وبانياس وغيرها وتملك مما كان بيد المسلمين على عجلون وبعلبك ودمشق وحمص وصرخد والصلت وتل ناشر والرحبة وتدمر والرصافة والخوانى والقدموس والعليقة وقلعة الكهف وصهيون وبلاطيس والرصافة ومصياف والقليعة والشوبك والكرك.

وعمر الحرم النبوى وقبة الصخرة ببيت المقدس وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الاسكندرية وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه وبنى منارة رشيد وأنشأ الشوانى وعمر عدّة قلاع بالديار الشامية والأناضول وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير خارج باب الحسينية وحفر خليج الاسكندرية القديم وبنى فى طريقه قرية سماها الظاهرية وحفر بحر أشمون طناح وجدّد الجامع الأزهر بالقاهرة وأعاد إليه الخطبة بعد انقطاعها حيناً من الدهر وأنشأ قناطر السباع. وأصله مملوك قبجانى الجنس وكان أسمر أزرق العينين جهورى الصوت حضر هو ومملوك آخر مع تاجر إلى حماة فاستحضرهما الملك المنصور محمد ليشتريهما فلم يعجبه واحد منهما وكان

ايدكين البندقدار الصالحى مملوك الملك الصالح أيوب صاحب مصر قد غضب عليه الملك الصالح وكان قد توجه ايدكين إلى ناحية حماة فأرسل الملك الصالح المذكور وقبض على ايدكين واعتقله بقلعة جماة فتركه الملك المنصور صاحب حماه فى جامع قلعة حماة واتفق ذلك عند حضور الملك الظاهر بيبرس مع التاجر فلما قلبه الملك المنصور ولم يشتره أرسل ايدكين البندقدار وهو معتقل فاشتراه وبقى عنده ثم أفرج الملك الصالح عن البندقدار فسار من حماة وصحبته الملك الظاهر وبقى مع أستاذه البندقدار مدة ثم أخذه الملك الصالح من البندقدار فانتسب إلى الملك الصالح دون البندقدار وكان يخطب له وينقش على الدراهم والدنانير بيبرس الصالحى فسبحان المعطى بغير حساب.

واستقر الملك للسلطان الملك السعيد بركة بن الملك الظاهر بيبرس فى مصر والشام فى أوائل ربيع الأول من السنة أى سنة ست وسبعين واستقر بدر الدين بيلبك الخزندار فى نيابة السلطنة على ما كان عليه مع أبيه الملك الظاهر واستمرت الأمور على أحسن حال وأتم نظام فلم تطل أيام بيلبك الخزندار بعد ذلك ومات على ما يقال حتف أنفه وقيل إنه مات مسموماً والله سبحانه وتعالى أعلم بالحقائق فتولى نيابة السلطنة بعده شمس الدين العزبانى. قال أصحاب التاريخ: ولكنه لم يتمكن من التغلب على الملك السعيد فحبط لذلك الملك السعيد وخلط وقدم الأصاغر على الأكابر وأبعد عنه أكثر الأمراء وقبض على سنقر الأشقر والبيسرى وبقى الأمر كذلك حتى خرجت هذه السنة ودخلت سنة سبع وسبعين وستمائة فتجهز السلطان الملك السعيد يريد الديار الشامية ثم خرج فى عسكر عظيم ووصل إلى دمشق ثم جرد منها عسكرا مع الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى وجرد أيضاً صاحب حماة فساروا جميعاً ودخلوا إلى بلاطيس وشنوا الغارة عليها وغنموا ثم عادوا إلى جهة دمشق واتفقوا على أن يشقوا عصى الطاعة على الملك السعيد بركة ويخلعوه من السلطنة لسوء تدبيره وبغضهم لأفعاله ومروا بدمشق ولم يدخلوها فأرسل إليهم الملك السعيد واستعطفهم وأدخل عليهم والدته فلم يلتفتوا إلى ذلك وداوموا السير فركب الملك السعيد وساق وسبقهم إلى مصر وصعد إلى قلعة الجبل وسار العسكر فى أثره فلما كانت سنة ثمان وسبعين وصل العساكر إلى مصر فى أثر الملك السعيد وذلك فى ربيع الأول وحصروه بقلعة الجبل فخامر عليه أكثر من كان معه من الأمراء فصاروا يهربون واحداً بعد واحد من القلعة وينضمون إلى العسكر المحارب فلما رأى الملك السعيد منهم ذلك أجاب إلى الانخلاع من السلطنة وأن يعطى الكرك فأجابوه إلى

ذلك وأنزلوه من القلعة وخلعوه فى ربيع الأول من السنة أى سنة ثمان وسبعين وسيروه فى الحال إلى الكرك صحبة بيدغان الركنى وجماعة معه فوصل إليها وتسلمها بما فيها من الأموال والخزائن وكان شيئاً كثيراً. قال كتاب الأخبار: وبعد أن جرى ذلك وتم على ما أراده الأمراء اجتمعوا وهم بدر الدين البيسرى الشمسى وايتمش السعدى وبكتاش الفخرى أمير سلاح وغيرهم على إقامة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس فى السلطنة ولقبوه بالملك العادل وذلك فى شهر ربيع الأول المذكور وعمره يومئذ سبع سنين وشهور ثم خطب له وضربت السكة باسمه وصار الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى أتابك العسكر فلما استقر الحال على ما ذكر أرسل الأمير سيف الدين قلاوون الأمير شمس الدين سنقر إلى دمشق وجعله نائب السلطنة بالشام وكان العسكر لما خالفوا الملك السعيد بركة على ما تقدم بيانه قبضوا على عز الدين أيدمر نائب السلطنة بدمشق وسجنوه وتولى تدبير دمشق بعده أقوش الشمسى نائب السلطنة بحلب فسار الأمير شمس الدين وتولاها واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة.

ولم تكن مدة الملك العادل سلامش المذكور لتطول سوى بضع أشهر وقام الأمير سيف الدين قلاوون أتابك العسكر وخلعه من السلطنة وجلس هو على تخت الملك يوم الأحد الثانى والعشرين من رجب سنة ثمان وسبعين ولقب نفسه بالملك المنصور فلما استقرت به السلطنة وثبتت قدماه فيها قام سنقر الأشقر متولى دمشق وخرج عن طاعته وادعى السلطنة واستحلف العساكر والأجناد فحلفوا له وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر وكان ذلك لأربع وعشرين خلت من ذى القعدة وجاءت الأخبار بذلك إلى الملك المنصور قلاوون فأهمه الأمر جداً وجهز عسكراً عظيماً للغاية مع علم الدين سنجر الحلبى وهو من مقدمى العساكر المصرية وكذلك بدر الدين بكتاش وبدر الدين الأيدمرى وعزالدين الأخرم فساروا جميعاً إلى الشام وبرز سنقر بجيوش الشام إلى ظاهر دمشق والتقى الفريقان فى تاسع عشر صفر واشتبك القتال، فلم يكن بأسرع من أن ولى الشاميون وسنقر منهزمين فلعبت فيهم سيوف المصريين ونهبت أثقالهم وكان السلطان الملك المنصور قلاوون قد جعل مملوكه حسام الدين لاجين السلحدار نائباً بقلعة دمشق فاعتقله سنقر بها فلما انهزم سنقر أفرج عن حسام الدين وعن آخرين لم يخالفوا مع سنقر ولم يحلفوا له وكتب الحلبى إلى السلطان الملك المنصور بالنصر، فرسم بتعيين الأمير لاجين المنصورى نائباً للسلطان بالشام أما سنقر الأشقر فإنه هرب إلى الرحبة وكاتب أبغا بن هولاكو ملك التتار وأطمعه فى

البلاد وكان عيسى بن مهنا أمير العربان مع من حلف لسنقر وقاتل معه وكتب بذلك إلى أيبغا أيضاً موافقة له، ثم سار سنقر من الرحبة إلى صهيون فى جمادى الأولى واستولى عليها وعلى برزية وبلاطس والثغر وغيرها بعد حروب كثيرة، وطمع أيبغا ابن هولاكو ملك التتار فى ملك الشام فسير جيشين عين أحدهما مقدمه أباكه خان والثانى مقدمه منجو تيمور بن هولاكو عدته ثمانون ألف فارس فالتقوا بالمصريين واقتتلوا قتالاً عنيفاً فصبر المصريون وقاتلوا قتال الأسود حتى فازوا بالتتار وانتصروا عليهم نصرة مؤزرة وقتل منجو تيمور تحت سنابك الخيل وفر أباكه خان إلى حمدان فقبض عليه أخوه نبكودارا وغلان وسقاه السم فمات لحينه وتولى نبكودارا المذكور الملك بعده وراسل الملك المنصور قلاوون فى أمر الصلح أو الهدنة وأظهر الإسلام وسمى نفسه أحمد خان فتقررت قاعدة الصلح بين الفريقين وتعهد أحمد خان بالطاعة والولاء فعاد الملك المنصور ظافراً مؤيداً ولبث الحال فى سكون والأمور على مايرام حتى قامت الفتنة فى جوف البلاد وخرج على الملك المنصور كبار الأمراء والمماليك ونبذوا طاعته وعملوا على خلعه فتأهب لإذلالهم وتجرد لقطع شأفتهم وأعمل فيهم السيف ثلاثة أيام كاملة ولم يرحم صغيراً لصغره ولا شيخاً لشيخوخته، واشتد القتال حتى امتلأت الأسواق بجثثهم بين رجال ونساء وأولاد فاشتد الهول على الناس وعظم الخطب وارتفعت أصوات النساء بالبكاء واستغاثوا فاجتمع العلماء ودخلوا على السلطان وشكوا إليه ما يلاقيه الناس من هول هذا الأمر وتلطفوا فى القول وبالغوا فى الاستشفاع فأجابهم إلى ما يسألون، وأمر فنادوا بالكف عن القتل وحقن الدماء إلا أنه ضيق على من بقى منهم وأبطل كثيراً من عاداتهم بعد أن كانوا يلبسون الألبسة المطرزة بطراز الذهب والفضة ويضعون العمائم من الحرير والوشى ويرخون ضفائر الشعر على ظهورهم مغطاة بالحرير وغير ذلك من أنواع الزينة والترفه فزالت بعد ذلك هيبتهم وانكسرت شوكتهم وأمن الناس من شرهم وزال عنهم بأسهم.

ولما كانت سنة أربع وثمانين وستمائة هجرية تحرك الأمير سلامش متولى الكرك يريد الاستقلال والخروج عن تابعية السلطان الملك المنصور قلاوون فاستعظم الملك المنصور هذا الأمر وسار من مصر فى جيش عظيم إلى الكرك فلاقاه سلامش فى جمع عظيم واقتتلوا فدارت عليه وعلى جيشه الدائرة وسقط سلامش فى قبضة الملك المنصور فأحضره إلى القاهرة مكبلاً بالحديد وسجنه فلبث مسجوناً إلى ما بعد وفاة الملك المنصور، ورسم بعد ذلك الملك المنصور لولده الملك الصالح علاء الدين بولاية

العهـد بعده وسلطنتـه وأركبه بـشعار السلطنة وشـق فى وسط المدينة بأبهة وكـبكبة عظيمة ولـكنه لم يلبث أن أدركته المنية وهو فى شـرخ الشباب وزهوة العمـر أصابته حمى خبيثة فمات فى سنة سبع وثمانين وستمائة فحزن عليه السلطان الملك المنصور حزناً عظيماً وبكاه بكاءً مرا وجلس للعزاء أياماً كثيرة وفرق الصدقات الكثيرة وخرج من مصـر فى جيش فـراراً مما يلاقيه من ألـم الحزن على فقـد ولده فسـار يريد فتح طرابلس وقد كانت إلى ذلك الحين فى أيدى الصليـبيين لا ينازعهم عليها منازع من نحو المائة وثمانين سنة، فلما وصل إليها حاصرها وضيق عليها وشدد ووالى الرمى عليها ليلاً ونهـاراً حتى ظفر بها وفتحـها فأباحها أياماً كـثيرة وهدم أسوارها وخرب بناءها حتى أوشكت أن تصبح أثراً بعد عين ثم أمر فـرمموا ما بقى منها وأعادوا إليها بعض رونقها وولى عليهـا أميراً من المصريين ورتب له جماعة من العـساكر يقومون بحراسة أبراجها ويدفعون عنها عند الحاجة، قال أهل التاريخ: ولم يجسر أحد إلى هذا الحين ممن سبقـه من الملوك مثل صلاح الدين أيوب وغـيره على التـعرض إلى طرابلس لحصانتها وكـثرة عساكرها ثم سار لغزو عكا ففتحهـا أيضاً وبرز إلى مسجد التبرز ومعه العساكر والأجناد المتوافرة فلـما أقام به أياماً ابتدأ مرضه وكان فى العشر الأواخر من شوال وهو بالدهليـز بالمكان المذكور وأخذ مرضه يتـزايد حتى مات يوم السبت سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانيـن وستمائة وكان جلوسه على تخت الملك فى اليوم الثانى والعـشرين من رجب سنة ثمان وسبعين وستـمائة فكانت مدة ملكه نحـوا من إحدى عـشرة سنة وثلاثة أشـهر وأيامـا وترك ولدين هما الملـك الأشرف صلاح الدين خليل والسلطان الأعظم الملك الناصر محمد، وكان ملكاً مهيباً حليماً جليل القدر كثيـر العفو شجاعاً غير سفـاك للدماء محباً للرعية ميـالاً إلى فعل الخير كثير الإحســان وافر الحرمة فلما مات اجتمع الأمراء من الخـاصكية وغيرهم وتكلموا فيـمن يتولى السلطنة بعده فـاتفقت كلمـتهم على تولية ولده الملك الأشـرف صلاح الدين خليل.

فلما كـان اليوم الثانى من مـوت الملك المنصور أجلسوا الأشـرف صلاح الدين خليل المذكور على تخت السلطنة وبايعوه الـبيعة العامة بعد أن بايعـه الخليفة الحاكم بأمر الله ابن المستظهر بالله فى السابع من ذى القـعدة سنة تسع وثمانين وستمائة ولم تستقر بـه السلطنة حتى قبض على حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة يـومئذ قبض عليه فى يوم الجمعة ثانى عشـر ذى القعدة وقتله وفوض نيابة السلطنة إلى بدر الدين بيدر وقلد الوزارة إلى شمس الدين محمد بن السلعوس، ولما رتب أمور الدولة على

ما شاء سار إلى أرمينيا وحاصر اروودوم وضيق عليها وشدد فى الحصار حتى فتحها وأقام بها أياماً فذاع صيته وكبرت هيبته وهابه الملوك المجاورون لملكه وتزلفوا إليه وعاد إلى القاهرة وأقام بها أياماً ثم خرج منها على الهجن يريد الكرك وسارت عساكره على الطريق إلى دمشق وسار السلطان ودخل دمشق ثم سار منها إلى البرية متصيداً ووصل إلى العزقلس وهو جفار فى طرف بلاد حمص من الشرق ونزل عليه وأرسل إلى مهنا بن عيسى أمير العرب وأخويه محمد وفضل وولده موسى بن مهنا وكان قد أضمر لهم السوء لأمر نقمه على عيسى المذكور فحضروا إليه فى قلة من قومهم وهم لا يعلمون بسوء نيته فقبض عليهم فى الحال وسيرهم إلى مصر فحبسوا فى قلعة الجبل وعاد السلطان خلفهم فوصلها فى رجب من السنة وجعل يتصرف فى الأمور فظهرت عليه علامات الخيلاء وتبدلت أحواله وتغيرت طباعه وأساء معاملة رجال الدولة وكافة الناس وتخوف لأقل سبب فانحرفت الخواطر عنه وأبغضه الأمراء وتمنوا هلاكه، وكانت طائفة الكتاب من القبط إلى سلطته فى صدر الدولة ولهم الكلمة النافذة والرأى المسموع وقد أحبهم الأمراء الخاصكية كثيراً ومالوا إليهم جداً وكان منهم كاتب عند خاصكى يعرف بعين الغزال فوجد يوماً فى طريقه بمصر سمساراً بشونة مخدومه فلما رأه السمسار نزل عن دابته وسلم عليه فسأله الكاتب عن مال تأخر عليه من ثمن غلة الأمير وأمر غلامه فنزل وأمسك السمسار وسار به نحو دار الأمير فصاح السمسار فتجمع الناس وكثرت العامة وعلت بينهم الضوضاء حتى صار إلى صليبة جامع ابن طولون والناس يكثرون وكان قد قرب الكاتب من بيت أستاذه فأحاط العامة بالكاتب وألقوه عن دابته وخلصوا السمسار من غلامه فسبق الغلام إلى بيت الأمير ليستنجده فجاءت طائفة من غلمان الأمير فخلصوا الكاتب من العامة وشرعوا فى القبض عليهم فصاحوا هذا ما يحل ومروا مسرعين إلى أن وقفوا تحت قلعة الجبل وصاحوا نصر الله السلطان وأكثروا من الضجيج والصياح، فأرسل من يكشف الخبر فعرفوه ما كان من أمر الكاتب والسمسار وما وقع منهما فغضب السلطان وطلب الكاتب ورسم للعامة بإحضار النصارى إليه وطلب الأمير بدر الدين بيدر النائب والأمير سنجر الشجاعى ورسم لهما بإحضار جميع النصارى بين يديه ليقتلهم فما زالا به حتى استقر الحال على أن ينادى فى القاهرة ومصر بأن لايخدم أحد من النصارى أو اليهود عند أمير، وأمر الأمراء كافة بأن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الإسلام فمن امتنع ضربت عنقه ومن أسلم استخدموه عندهم، ورسم للنائب بأن يعرض على جميع مباشرى الديوان

السلطانى ويفعل بهم كذلك فنزل الطلب لهم، فصارت العامة والحرافيش تسبق إلى بيوتهم وتنهبها حتى عم النهب بيوت جميع النصارى واليهود وأخرجوا نساءهم سبايا وقتلوا جماعة منهم بأيديهم فقام الأمير بيدر مع السلطان لرد العامة وركب والى القاهرة ونادى من نهب بيت نصرانى حل دمه وقبض على طائفة من العامة وشهرهم بعد ما ضربهم فانكفوا عن النهب بعد ما نهبوا كنيسة المعلقة بمصر وقتلوا جماعة بها ثم جمع النائب جماعة من كتاب السلطان والأمراء وأوقفهم بين يدى السلطان، فرسم للشجاعى والأمير جاندار أن يأخذا عدة معهما وينزلوا إلى سوق الخيل تحت قلعة الجبل ويحفروا حفراً كبيرة ويلقوا فيها الكتاب الحاضرين ويضرموا عليهم الحطب ناراً فتقدم الأمير بيدر وشفع فأبى أن يقبل شفاعته وقال: ما أريد فى دولتى ديواناً نصرانيا فلم يزل به حتى سمح بأن من أسلم منهم يستقر فى خدمته ومن امتنع ضربت عنقه فأخرجهم إلى دار النيابة وقال لهم: يا جماعة هذا ما وصلت قدرتى إليه مع السلطان فى أمركم وقد قبل شفاعتى على شرط وهو أن من اختار منكم دينه قتل ومن اختار الإسلام خلع عليه وباشر أمر خدمته فابتدره المكين بن السقاعى أحد المستوفين وقال: ياخوند وأى شىء تختارونه منا الآن قولوا لنا ما تختارونه ونحن نتبع قولكم، فغلب الأمير بيدر الضحك وقال: ويحك يا مكين أتختار غير دين الإسلام؟ ثم أمر فأحضروا العدول واستسلمهم جميعاً وكتب بذلك شهادات عليهم ودخل بها على السلطان ثم خرجوا إلى مجلس الوزير الصاحب شمس الدين محمد ابن السلعوس فبدأ بعض الحاضرين بالمكين الصقاعى وناوله ورقة ليكتب عليها وقال: يامولانا القاضى اكتب على هذه الورقة فأجابه على الفور: يابنى والله ما كان لنا هذا القضاء فى خلد فأعجب القوم بفصاحته وسرعة خاطره فى هذا الوقت الضيق وتوجعوا لحالهم جدا وراجع الأمراء السلطان فى أمرهم وألحوا عليه فأجابهم إلى ما يطلبون فكانت حالة من أشد الأحوال وأنكاها مات فيها من الأطفال والشيوخ والرجال عدد كثير، وبلغت فعال العامة بأصحاب البيوتات من النساء مبلغاً عظيماً للغاية، فكن يخرجن حاسرات مكشوفات الوجوه هائمات فى الطرق والحارات لايعرفن للسلامة سبيلاً وكان الأمير بيدرا يرق لحالهن ويتوجع لمصابهن فأخجل ذلك السلطان وندم على ما بدا منه وتوجع كثيراً وقد كثر خلطه وخبطه وأخذه للناس بالشبهات وتخوفه من مماليكه وأمراء دولته حتى من أقرب الناس إليه وأخصهم به فشدد وهدد وبالغ فى التحرز فكرهه مماليكه وتفرقوا عنه وجعل الأمير بيدرا يراقب الفرص للإيقاع به والتخلص من شره، فلما كان أول المحرم افتتاح سنة

ثلاث وتسعين وستمائة خرج من قلعة الجبل يريد الصيد وسار فى طائفة من الجند إلى أن وصل تروجة بالجيزة ونصب دهليزه وركب فى نفر قليل من خواصه، وخرج للصيد فقصده مماليك والده وهم بيدرا نائب السلطنة ولاجين الذى كان متولياً نيابة السلطنة بالشام وكان قد اعتقله السلطان مرة بعد أخرى وقرا سنقر الذى كان خلعه عن نيابة السلطنة بحلب وبهادر رأس النوبة وجماعة من الأمراء فلما قاربوا السلطان خاف منهم وأرسل إليهم أميرا يقال له كرت أميراخور ليكشف خبرهم وسبب مجيئهم فى هذا الحين، فلما وصل إليه أمسكوه على الفور وقاربوا السلطان وكان بينهم وبينه خور فخاضوه ووصلوا إليه وتقدم بيدرا نحوه وعاجله بضربة بسيفه، ثم فعل به كذلك لاجين حتى مات وتركوه ملقى على الأرض فحمله أيدمر الفخرى والى تروجة إلى القاهرة فدفن فى تربته التى أنشأها بجوار مشهد السيدة نفيسة وذلك فى الثالث عشر من المحرم المذكور فكانت مملكته ثلاث سنين وشهرين ليس إلا، وفرح الناس بموته فرحاً عظيماً فكانوا لايذكرونه إلا باللعنات.

واتفق الجماعة الذين قتلوه على سلطنة بيدرا الذى هو مملوكه وأن يلقبوه بالملك القاهر، فساروا على هذا العزم نحو قلعة الجبل فاجتمعت عند ذلك مماليك السلطان الملك الأشرف وانضموا إلى زين الدين كتبغا المنصورى وساروا فى أثر بيدرا ومن معه فلحقوهم عند الطرانة فى خامس عشر المحرم فاقتتلوا فانهزم بيدرا وأصحابه وتفرقوا فى الأقطار فتبعوا بيدرا حتى لحقوه واحتزوا رأسه ورفعوه على رمح واختفى لاجين وقراسنقر ولم يطلع لهما على خبر ووصل زين الدين كتبغا وجماعة المماليك السلطانية بعد قتل بيدرا إلى قلعة الجبل، وبها علم الدين سنجر الشجاعى نائباً واتفقوا على تولية السلطان الملك الناصر ابن السلطان الملك المنصور فأجلسوه على تخت السلطنة فى العشر الأواسط من المحرم وعمره يومئذ تسع سنين وتقرر أن يكون الأمير زين الدين كتبغا المنصورى نائب السلطنة وعلم الدين سنجر الشجاعى وزيراً وركن الدين بيبرس البرجى الجاشنكير أستاذ الدار، وتتبعوا الأمراء الذين اتفقوا مع بيدرا على قتل الملك الأشرف فظفروا أولاً ببهادر رأس النوبة وأقوش الموصلى الحاجب فضربت أعناقهما وأحرقت جثتيهما ثم ظفروا بطرنطاى الساقى وايتاق ونفيه وأروس السلحدارية ومحمد خواجا والطنبغا الجمدار وآق سنقر الحسامى فاعتقلوا بخزانة البنود أياماً ثم قطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا على الجمال وطيف بهم وأيديهم معلقة فى أعناقهم وقبض بعد أيام أيضاً على مختار الساقى فشنق، وتوافق زين الدين كتبغا والشجاعى على القبض على شمس الدين محمد بن السلعوس وزير السلطان الملك الأشرف فقبضا عليه وتولى الشجاعى معاقبته والتصرف فى ماله

وقتله وكان ابن السلعوس قد بلغ عند السلطان منزلة عظيمة وتمكن فى الدولة وصارت الأمور كلها له وكان لابن السلعوس المذكور أقارب وأهل بدمشق فلما صار إلى هذه الحالة أرسل فأحضرهم بمصر فحضروا جميعاً إلا شخصاً منهم فإنه استمر مقيماً وكتب إلى ابن السلعوس يقول :

تنبه يا وزير الأرض واعلم   بأنك قد وطئت على الأفاعى
وكن بالله معتصماً فإنى   أخاف عليك من نهش الشجاعى

ولم تمض مدة طويلة حتى وقعت الوحشة بين الأمير زين الدين كتبغا وعلم الدين سنجر الشجاعى المذكور فصار مع كل منهما جماعة من الأمراء واشتد الأمر بينهما واستفحل الخلاف فنزل كتبغا ومن معه من قلعة الجبل وبقى سنجر وأصحابه بها لا يبرحون فحصره كتبغا ومازال حتى غلب عليه وقتله واحتز رأسه وطيف به فى البلد وذلك فى صفر من السنة أى سنة ثلاث وتسعين وستمائة، فلما شاع خبر موته ظهر حسام الدين لاجين وشمس الدين قرا سنقر من الاستتار بعد الغيبة فأخذ لهما زين الدين كتبغا الأمان من السلطان وقرر لهما الأقطاعات الجليلة وأعز جانبهما وأخذ زين الدين المذكور من هذا الحين يعمل على اختلاس الملك من أستاذه الملك المنصور، فلما كان يوم الأربعاء تاسع المحرم افتتاح سنة أربع وتسعين وستمائة أزال من طريق مقاصده ما كان يحول دون الوصل إليها وخلع السلطان الملك المنصور من تخت السلطنة وجلس هو على سرير الملك ولقب نفسه الملك العادل زين الدين كتبغا واستحلف الناس على ذلك فحلفوا وخطب له على منابر مصر والشام ونقشت السكة باسمه، ثم قبض على السلطان الملك الناصر ووضعه فى قاعة بقلعة الجبل وحجبه عن الناس فصار لا يراه أحد ولا يسمع بخبره فكانت مدة ملك السلطان الملك الناصر المذكور سنة إلا أياماً.

ولما استتب الأمر لزين الدين كتبغا جعل نائبه فى السلطنة حسام الدين لاجين الذى كان مستترا بسبب قتل السلطان الملك الأشرف وأفرج عن الأمير مهنا أمير العربان وإخوته وابنه عيسى وزودهم وسيرهم إلى بلادهم وخرج فى شوال من السنة يريد الشام فوصل دمشق وأقام بها أياما وقد نقم على عز الدين أيبك الحموى نائب السلطنة بالشام أمورا فخلعه وولى مكانه سيف الدين أحد مماليكه وقام من دمشق فى أوائل المحرم افتتاح سنة سبع وتسعين وستمائة بالعسكر متوجها إلى مصر فلما وصل إلى نهر العرجا واستقر بدهليزه وتفرقت مماليكه وغيرهم إلى خيامهم ركب حسام الدين لاجين المنصورى نائب السلطنة بسنجقه ونقاره وانضم إليه بدر

الدين البيسرى وقرا سنقر المنصورى وسيف الدين قلجاق المنصورى وبهادر الظاهرى وغيرهم من كبار الأمراء وكانوا قد اتفقوا مع لاجين نائب السلطنة على الغدر بالسلطان كتبغا المذكور لبغضه لهم وإعراضه عنهم إلى بعض خواصه وباغتوه عند الظهر فى دهليزه بالمنزلة المذكورة فلم يتمكن من جمع أصحابه وركب فى نفر قليل فحمل عليه نائبة لاجين فقتل يكنوت الأزرق ونجاص وكانا أكبر مماليك العادل فولى العادل هاربا راجعا إلى دمشق حيث كان بها مملوكه عزلو ووصل إليها فركب مملوكه عزلو المذكور والتقى به ودخل إلى قلعة دمشق واهتم بجمع العساكر والتأهب للقتال مع لاجين فلم يوافقه عسكر دمشق على ذلك ورأى مهم التخاذل فخلع نفسه عن السلطنة ولبث بقلعة دمشق وأرسل إلى حسام الدين لاجين يطلب منه الأمان وموضعا يأوى إليه فأعطاه صرخد فسار كتبغا إلى صرخد واستقر بها إلى أن كان من أمره ما سيذكر فى حينه، وأما حسام الدين لاجين فإنه لما هزم العادل كتبغا على ما ذكر نزل بدهليزه عند نهر العرجاء واجتمع مع الأمراء الذين وافقوه على مابدا وشرطوا عليه شروطا فالتزمها فكان من تلك الشروط أن لا ينفرد عنهم برأى ولا يغرى مماليكه بهم كما فعل كتبغا فأجابهم إلى ذلك وحلف لهم واستحلفهم على الطاعة فحلفوا وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى وذلك فى المحرم افتتاح سنة ست وتسعين وستمائة فكانت مدة ملك السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى سنتين تقريبا إلى أن خلع.

ولما بايع الأمراء الملك المنصور حسام الدين لاجين رحل من فوره بالعسكر إلى مصر ووصل إليها فدخلها فى أبهة زائدة وصعد إلى قلعة الجبل واستقر بها وجعل يتصرف فى الأمور ويرتب الأحوال على ما يريد ثم سير الأمير سيف الدين منجق إلى دمشق وجعله نائب السلطنة بالديار الشامية وأخرج السلطان الملك الناصر من معقله بقلعة دمشق وسيره إلى الكرك صحبة سلار فأوصله إليها وتركه بها وعاد سلار إلى مصر وأفرج كذلك عن بيبرس الجاشنكير وعن عدة أمراء كان العادل كتبغا قد قبض عليهم واعتقلهم فى أيامه، وتاقت نفسه إلى التشبه بكبار المملوك ممن سلفه فى الغزو والفتوحات فجيش جيشا عظيما وسار إلى بلاد الروم فلم يفتح الله عليه بشىء منها إلا القليل جدا فى جانب ما فقده من المال والرجال وذلك لانحراف قلوب الأمراء عنه وتسليم أموره الخصوصية إلى الأحداث من المماليك الذين اصطفاهم لنفسه وعينهم لخدمته وكان القائم عليهم شخص اسمه سيف الدين طغجى. قال أصحاب التاريخ: وكان سبب بغض الأمراء له ما فعله بهم من أخذ

جانب من إقطاعاتهم وإخـراجه من دواوينهم وجعله لهم ولجميع العـساكر والأجناد أحد عشر قـيراطا بدل عشرين وقد كانت القاعـدة إلى سلطنة الملك المنصور لاجين أنهم اعتبروا أرض مصر أربعة وعشرين قيراطا فخصوا السلطان منها بأربعة والعساكر والأجناد بعشرة وسائر الأمراء بعشرة ولما كـان الأمراء هم المتولين إدارة شئون جميع العسـاكر فى السلم والحرب كانوا لا يعطون لـلعسكر من أقطاعهم إلا بقدر الحـاجة وربما أقل بكثير أو لا يعطونهم ويضـمون ما يستغل منها إلى دواوينهم الخـصوصية فكثرت لذلك أقطاعات الأمراء وأوى إليـها أهل الشقاوة الفساد فعاثوا فـيما جاورها من البلاد والقـرى والمزارع وقطعوا الطرق على المارة وأبناء السبيل وعـجز الولاة عن ردعهم خوفـا من إغضاب الأمراء وكانت الحقـوق الديوانية تمنع من هذه الأقطاعات فكانت طعمة لأعـوان الأمراء فلما تولى السلطنة الملك المنصور لاجـين راك جميع البلاد ورد تلك الأقطاعات على أربابها وأخرجهـا جميعها من دواوين الأمراء ورتب للأمراء وجمـيع الأجناد أحد عشر قيراطا وأفـرد تسعة لحاجة العسكر عنـد الاقتضاء وحرر أوراقا بما يكفى الأمراء والأجناد، فلما أيس الأمراء من رجوع الأحوال إلى ما كانت عليه قبل سلطنة لاجين وقد أحسوا بعزم السلطان على الإيقاع بهم عمدوا إلى قتله واخـتاروا لذلك جماعـة من مماليكه فلما كانت ليلة الجـمعة حادى عـشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين فى أوائل الليل دخل عليـه جماعة من أولئك المماليك وهو يلعب بالشطرنج وتقدم أحدهم نحوه واسمه سـيف الدين كرجى وضربه بسيفه وتلاه الباقون بسـيوفهم حتى قـتلوه وطلبوا مملوكه ونائبـه منكوتمر فهرب واستـجار بسيف الدين طغجى الأشـرفى مقدم المماليك فـأجاره وبعث به إلى الجب فحبـسه هناك ثم بعد استقراره فى الجب توجه إليه كرجى الذى قـتل السلطان ومعه جماعة وأخرجوه وذبحـوه على رأس الجب وباتوا ليلتهم تلـك وأصبحـوا وقد جلس طـغجى مـقدم المماليك فى موضع النيابة وأمر ونهى. قال كتاب الأخبار: وكان هنالك جماعة من كبـار الأمراء المتقدمـين مثل حسـام الدين أستاذ الدار وبيـبرس الجاشنكير وغـيرهم فأخـذهم آخذ الغـيظ مما فعله طغـجى فاتفـقوا على الوقـيعة به وإعـادة الملك إلى السلطان الملك المقيم بالكرك الذى تقـدم الكلام عنه واتفق فى هذه الأثناء أن حضر بعض العسكر الذين كـانوا فى حلب ومعهم أميـر السلاح وغيره من الأمـراء فأشار الأمراء المتـأمرون على طغجى المذكور بالـركوب للقاء أميـر السلاح فامتنع فـعاودوه فأجـاب وركب من قلعة الجبل وجعل نائبـه بها كرجى قـاتل السلطان الملك المنصور لاجين فلما اجـتمع الأمراء بأمير السلاح تحـدثوا فيما فعله أولئك الصبـيان من قتل السلطان وبالغوا فى الأمر واتهـموا طغجى المذكور بفعله وكان طغـجى جالسا بينهم

فأنكرَ ذلك وبالغ فى الإنكار فقام عليه الأمراء بالسيوف فهرب منهم فأدركوه وقتلوه وقصدوا كرجى بقلعة الجبل فهرب فاتبعوه وقتلوه أيضا وذلك فى ربيع الآخر من السنة فكان مدة ملك حسام الدين لاجين الملقب بالملك المنصور سنتين وثلاثة أشهر وقيل سبعة وأربعين يوما لم يأت فيها بعمل يذكر ولا بمعروف يشكر .

ولما قتل الملك المنصور وطغجى على الوجه المذكور اتفق الأمراء كافة على إعادة الملك الناصر محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين بن قلاوون إلى مملكته فبعثوا إليه سيف الدين آل ملك وعلم الدين الجاولى إلى الكرك فأحضراه إلى مصر وصعد إلى قلعة الجبل فى أبهة وكبكبة عظيمة فلما كان يوم السبت رابع عشر جمادى الأولى من السنة أى سنة ثمان وتسعين وستمائة أجلسوه على سرير الملك وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق وضربت السكة باسمه فكانت هذه ولايته الثانية واتفق معه الأمراء على أن يكون سيف الدين سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنيكر أستاذ الدار وبكتمر الجوكندر أمير جاندار ففعل وفوض نيابة السلطنة بالشام إلى جمال الدين أقوش الأفرم وأفرج عن شمس الدين قراسنقر من الاعتقال وكانت له فيه نحو سنة وشهرين ثم سيره إلى الصبيبة وقد كانت البلاد بغير ملك مدّة أحد وأربعين يوما إلى أن حضر السلطان الناصر محمد بن قلاوون المذكور .

وعاود التتار الكرة فى أيام الملك الناصر على بلاد الشام فعبروا الفرات فى شهر ربيع الآخر سنة سبعمائة فجفلت منهم المسلمون ودخلت بلاد حلب وسارقرا سنقر بعسكر حلب إلى حماة وبرز زين الدين كتبغا وعسكر حماة إلى ظاهر البلد ووصل العساكر من دمشق أيضا واجتمعوا بحماة ونزل التتار على سرين والمعرة وتيزين والعمق وغيرها ينهبون ويقتلون فكبر الأمر على السلطان واستعظمه جدا وسار فى عسكره ووصل إلى العرجاء وكان الوقت شتاء فاتفق أن هطلت الأمطار بشدة زائدة فاشتدت الأوحال حتى انقطعت الطرقات وانقطعت الأقوات وعجز السلطان والعسكر عن القيام على تلك الحال فرحلوا وعادوا إلى مصر وبقيت التتار تعيث وتفسد وتفعل بالبلاد ما لا خير فيه نحو ثلاثة أشهر ثم رحلوا إلى بلادهم فرجع عسكر حلب ولم يستقر بالسلطان المقام بعد رجوعه حتى تغيرت عليه قلوب الأمراء وقامت الفتنة بسبب تولى بعضهم المناصب دون البعض الآخر وتحزبوا وتفرقت كلمتهم وكاد يتعذر على السلطان تلافى الأمر وبينما هم على هذا الحال من الاضطراب والاختباط إذ مات الخليفة أبو العباس الحاكم بأمر الله فى ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة فأرسل نائب السلطنة خلف جميع من فى البلاد من الأمراء والقضاة والعلماء والصوفية ومشايخ الزوايا والرباطات

وغيرهم ليحضروا للصلاة على الخليفة فكان المجتمعون خلقا كثيرا جدا وبعد الصلاة عليه دفنوه بجوار السيدة نفيسة فى قبة بنيت له فكان الخليفة المذكور أوّل خليفة مات بمصر من بنى العباس وكانت خلافته أربعين سنة وأشهرا ولم يكن له من الأمر شىء سوى الإمامة والخطبة فى صلاة الجمعة .

قال أبو شامة: ولاحظه الملك الأشرف خليل بن قلاوون أتم ملاحظة ممن سبقه ورعى لوده نعمة الخلافة فيه حقها من جميل المحافظة. وقال غيره: خطب الخليفة الحاكم بأمر الله بالقلعة مرة ثانية يوم الجمعة رابع شوال سنة تسعين وستمائة بسؤال الملك الأشرف له ذلك وذكر فى خطبته تولية السلطنة للأشرف ثم خطب مرة ثالثة بالمنصورة بحضرة السلطان والقضاة وحض على غزو التتار واستنقاذ بلاد العراق من أيديهم وذلك سنة تسعين وستمائة فى ذى القعدة ثم خطب مرة رابعة فى التاسع والعشرين من ربيع الأوّل سنة إحدى تسعين وحث على الجهاد والنفير وصلى بالناس الجمعة وجهر بالبسلمة، وقال الذهبى فى العبر: آخر خليفة خطب يوم الجمعة الراضى بالله ولم يخطب بعده خليفة إلا الحاكم العباسى هذا فإنه خطب فى خلافته، وقال ابن فضل الله: لما ملك المنصور لاجين زاد فى إكرامه أى فى إكرام الخليفة الحاكم بأمر الله وصرّفه فى الركوب والنزول فبرز إلى قصر الكبش وسكن به ثم إنه حج فى سنة سبع وتسعين وستمائة فأعطاه المنصور لاجين ستمائة ألف درهم ورجع من الحج فأقام بمنزله إلى أن مات ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة ودفن بجوار السيدة نفيسة أهـ.

ومات فى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله مرقس بطرك الاسكندرية فكانت مدّته اثنتين وعشرين سنة وستة أشهر وخمسة وعشرين يوما وفى أيام مرقس هذا انتقل مرقس بن قنبر وجماعة من القنابرة إلى رأى الملكية وبالغوا فى نصرة الملكيين أياما كثيرة فاستعظم المتأصلون هذا الأمر وكثر بين الفريقين الأخذ والرد إلى أن عاد القنابرة إلى المتأصلين فقبلوا فلم يلبثوا إلا القليل حتى ارتدوا إلى الملكية ثم رجعوا فلم يقبلوا وكان مرقس البطرك المذكور ذا همة ومروءة عاقلا رزينا حازما يحسن السياسة والتدبير وكان جليلا مهيبا مقبول الكلمة واحترقت فى أيامه كنيسة أبو مرقوره وخلا بعد موته الكرسى سبعة وعشرين يوما ثم أقيم يوحنا بن أبى غالب وهو رابع سبعيهم من أهالى مصر وكمل بالاسكندرية وكان من طائفة التجار يتردد إلى اليمن فى البحر حتى كثر ماله وكان معه مال لأولاد الخباب فاتفق أنه غرق فى البحر الأحمر وذهب جميع ماله ونجا بنفسه إلى القاهرة وقد أيس أولاد الخباب من مالهم فلما بلغهم خبر حضوره قابلوه فأعلمهم أن مالهم قد سلم لأنه كان قد حمله

فى نقائر خشب مسمرة فى المركب فصار لهم به من هذ الحين عناية كبرى فلما مات مرقس البطرك سعى يوحنا المذكور للقس أبى باسر ليوليه بطركا قيل فقال له أولاد الخباب خذ أنت البطركية ونحن نزكيك فوافقهم يوحنا على ذلك فسعوا له وأقاموه بطركا فشق الأمر على أبى باسر وهجره بعد صحبة طويلة وكان معه لما استقر فى البطركية سبعة عشر ألف دينار مصرية أنفقها على الفقراء وأبطل الديارية ومنع الشرظونية ولم يأكل لأحد خبزا ولم يقبل من أحد هدية حتى مات رحمه الله تعالى.

ولما مات الخليفة الحاكم بأمر الله قام بالخلافة بعده ولده أبو الربيع سليمان ولقب بالمستكفى بالله وكان أبوه قد عهد إليه بالأمر قبل وفاته فبويع بغير خلاف ولا جدال.

(الفصل الثالث)

(فى خلافة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله)

ثم قام بالأمر بعد الحاكم بأمر الله ولده المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله بويع له فى العشرة الأواخر من جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة هجرية أى سنة إحدى وثلثمائة وألف ميلادية وخطب له على المنابر بالديار المصرية والشامية وسارت البشائر بذلك إلى جميع الأقطار والممالك الإسلامية. قال ابن كثير: قدم البريد من القاهرة سادس عشر جمادى الآخرة فأخبر بوفاة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ومبايعة المستكفى وأنه حضر جنازته الناس كلهم مشاة فخطب يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة للخليفة المستكفى بجامع دمشق وكتب له تقليد بالخلافة وقرئ بحضرة السلطان والدولة يوم الأحد العشرين من ذى الحجة ولم يكن السلطان أمضى له عهد والده حتى سأل الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد وهو قاضى القضاة يومئذ هل يصلح للخلافة أم لا فقال الشيخ تقى الدين نعم يصلح قال وإنما احتيج إلى ذلك لأنه كان صغير السن لم يبلغ عشرين سنة فإن مولده كان فى أربع وثلاثين وستمائة وكان له ابن أخ أسن نه فكان ينازعه الأمر فلما أشار الشيخ باستخلافه أمضى عهد والده فكان العهد هكذا:

الحمد لله الذى رفع المستكفى به لما انتصب بشريف همته للمعل الأسمى، ومنح الأمة به بربيع خفض العيش وحزم أمرهم على الصلاح والتوفيق حزما، وآدام الأئمة من قريش ونظم لآلئ حكم أحكامهم فى جيد الزمان نظما، وجعل الناس تبعا لهم فى هذا الأمر فغيرهم بالخلافة العظمى لايدعى ولا يسمى، فالحاكم الحسين المسترشد المستظهر بذخيرة الدين القائم بأمره الله القادر المقتدر الموفق المتوكل المعتصم الرشيد المهدى الكامل من اقتفى لسنن سنتهم رسما، استودع الخلافة فى بنى العباس الذى كان لنبيه الكريم عما وفرج عنه ليلة العقبة بمبايعة الأنصار كربا وغما، فبشره بأن الخلافة فى عقبة فعمه بالسرور عما، فلما انتهى ذلك السر فى العوالم إلى الحاكم قيل وقد نكبت هيئة الخلافة عن معرفته حقوقها العظيم من كل عظيم ففهمناها سليمان وكلا أتينا حكما وعلما أحمده حمد من لم يثن عن طاعته وطاعة رسوله وأولى الأمر عزما، والله يؤتيها من يشاء من خلقه اختيارا ورغما، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى دعا إلى مودة أولى القربى وهم أفضل قرابة زكاة وأقرب رحما صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وخلفائه وعترته الذين هم أعدل البرية حكما وبعد فإن الملك السلام منذ أسجد لآدم وملائكته الكرام فى سالف الأزمان قدما جعل طاعة خلفائه فى بلاده على سائر عبادة حقا كيف لا وبهم يعمر الوجود وتقام الحدود وتهدم أركان الجور هدما، فبحياتهم تأمن البلاد وربما تصادف قرب وفاتهم أن لبس القمر ليلة التم حلة السواد وأخفى جرما، ولما كان سنة من تقدم من الأئمة الخلفاء إذا خاف أن يهجم عليه الحمام هجما ولا تهدى إليه الأيام ألما وسقما تفويض الأمر بولاية العهد إلى الخلق لخير ذريته وبنيه نجدة وحزما أشهد على نفسه الشريفة مولانا الإمام الحاكم الحاكم عليه تقواه، المراقب لله فى سره ونجواه، الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ابن عم سيد المرسلين وارث الخلفاء الراشدين أبو العباس أحمد ابن الأمير الحسن ابن أمير المؤمنين المسترشد بالله أبى منصور الفضل ابن أمير المؤمين المستظهر بالله أبى العباس أحمد ابن أمير المؤمنين أبى القاسم عبدالله ابن المرحوم الذخيرة للدين ولى عهد المسلمين محمد ابن الإمام القائم بأمر الله أبى عبدالله محمد ابن القادر بالله أبى العباس أحمد ابن أمير المؤمنين أبى الفضل جعفر المقتدر بالله ابن أمير المؤمنين المعتضد بالله أبى العباس ابن الأمير محمد الموفق بالله أبى طلحة ولى عهد المسلمين ابن أمير المؤمنين جعفر المتوكل ابن أمير المؤمنين أبى إسحق محمد المعتصم ابن هارون الرشيد ابن أمير المؤمنين محمد ابن أمير المؤمنين عبدالله حبر الأمة ابن عباس بن عبدالمطلب عم النبى ﷺ أعز الله به الدين، وأمتع

ببقاء نسله الشريف الإسلام المسلمين وهو فى حالة يسوغ معها الإشهاد عليه، ويرجع فى الأمور المنوطة للخلافة الشريفة إليه أنه عهد إلى ولده لصلبه الإمام المستكفى بالله أبى الربيع سليمان شيد الله به أركان الإيمان، ونصر ببركة سلفه العصابة المحمدية على أهل الكفر والطغيان وجعله ولى عهد واستخلفه من بعده لما يعلمه من أهليته، وعدالته وكفالته وصلاحه لذلك وكفايته، وأشخصه لشهود هذا المكتوب الشريف، ونبه على استحقاقه لذلك ومحله العالى المنيف، عهدا صحيحا شرعيا، معتبرا تاما مرعيا، وفوض إليه أمر الخلافة العظيمة تفويضا شرعيا صريحا وعقد له عقد ولاية العهد على الأمة عقدا صحيحا، وقبل ذلك منه القبول الشرعى المعتبر المرضى فالله تعالى يجمع به كلمة الإسلام ويصحبه فى خلافته الشريفة رأيا موفقا ويقمع ببركة سلفه الكرام أهل الطغيان، ويهيئ له من أمره مرفقا بمنه وكرمه آمين والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيد المرسلين، نبيه وآله وصحبه أجمعين، وبه شهد فى اليوم المبارك التاسع عشر من جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة أحسن الله العقبى فى ختامها، وأجرى الخيرات فيما بقى من شهورها وأيامها أهـ.

ولما بايعه السلطان والقضاة والأعيان ألبس جبة سوداء وطرحة سوداء وخلع السلطان على أولاد أخيه خلع الأمراء وأشهد عليه أنه ولى الملك الناصر جميع ماولاه والده وفوض إليه جميع الأمور ثم نزل فى داره بالكبش ونقش اسمه على سكة الدينار والدرهم ثم رسم السلطان بعد ذلك أن ينتقل هو وأولاده وجميع من يلوذ به إلى قلعة الجبل إكراما لهم وتعظيما فانتقلوا فى جمادى الآخرة ونزلوا فى دارين منها وأجرى عليهم الرواتب الكثيرة واستمر هو والسلطان دهرا كالأخوين يلعبان بالأكرة ويخرجان إلى المتنزهات ويسافران معا إلى غزو التتار حتى وشى الواشى بينهما وكان من أمرهما ما سيذكر فى محله إن شاء الله .

ولما دخلت سنة اثنتين وسبعمائة نزل بديار مصر نازلة لم يسبق لها مثيل فقد زلزلت الأرض زلزالا عظيما فانشقت الصخور وهدم كثير من المبانى والدور بمصر والقاهرة والأسكندرية وغيرها ومات خلق كثير تحت الردم ودمرت من أسوار مدينة الاسكندرية ستا وأربعين بدنة وكانت القتلى تئن وتستغيث تحت الردم والناس فى دهشة لا يلتفتون إليهم بل كل مشغول بنفسه. قال كتاب الأخبار: فكانت ساعة يالها من ساعة تشيب من هولها الولدان وبقيت الخرائب دهرا فكانوا إذا أرادوا حمل ما انهال من ترابها ظهرت جثث النساء والرجال والأطفال على هيئات مختلفة تنفطر

من رؤيتها القلوب واستمروا على هذا أياما كثيرة وعم الخوف الناس وأخذ من قلوبهم وتطيروا من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون فانحرفت قلوبهم عنه وتطاولت أيدى بعض الأمراء إلى العبث بأمور المملكة وظهر سلار نائب المملكة وبيبرس الجاشنكير أستاذ الدار واستبدا بالأمر وتجاوزا الحد فى الانفراد بالأموال والأمر والنهى ولم يتركا للسلطان غير الاسم وحصراه فى قلعة الجبل أياما كثيرة حتى قبل جميع ما طلباه صاغرا وكان كلما هم بالخلاص صادفه من الشدة ما يقعده وطال عليه الحال فلما كان شهر رمضان سنة ثمان وسبعمائة أظهر الرغبة فى الخروج إلى الحج وأخذ فى التأهب والاستعداد وخرج فى الخامس والعشرين منه فسار فى خدمته جماعة من الأمراء هم عز الدين أيدمر الخطيرى والأمير حسام الدين قرا لاجين والأمير سيف الدين آل ملك وغيرهم فسار إلى الكرك ووصل إليها فى عاشر شوال وكان النائب بها جمال الدين أقوش الأشرفى فعمل الولائم واحتفل بالسلطان احتفالا عظيما فعبر السلطان إلى المدينة ثم إلى القلعة. قال بعض الكتاب: ولما عبر على الجسر إلى القلعة والأمراء تمشى بين يديه والمماليك حوله وخلفه سقط جسر القلعة وقد أصيبت يد فرس السلطان وهو راكب داخل عتبة الباب فلما أحس الفرس بسقوط الجسر أسرع حتى كاد أن يدوس الأمراء الماشين بين يديه وسقط فى الخندق من المماليك وأهل الكرك عدد كثير ونزل فى الوقت السلطان عند الباب وأمر فأحضروا الجنبات والحبال ورفعوا الذين سقطوا فى الخندق جمعيا، ولما استقر به المقام أمر من كان معه من الأمراء بالرجوع إلى مصر وكاشفهم على أنه إنما أظهر السفر إلى الأقطار الحجازية وسيلة إلى المقام بالكرك وعدم العود إلى مصر تخلصا من فعل سلار وبيبرس الجاشنكير فراجعه الأمراء فى ذلك فلم يقبل وأصر على البقاء بالكرك فعاد الأمراء إلى مصر وأعلموا من بها بالخبر وتشاوروا فيما بينهم واتفقوا على أن يولوا السلطنة بيبرس الجاشنكير وأن يكون سلار مستمرا على نيابة المملكة كما كان عليها وحلفوا جميعا على ذلك .

فلما كان يوم السبت الثالث والعشرين من شوال سنة ثمان وسبعمائة خرج بيبرس من داره راكبا فى شعار السلطنة وحوله الأمراء والمماليك على اختلاف طبقاتهم وأمامه الجنائب السلطانية وسار إلى الديوان الكبير بقلعة الجبل وجلس على سرير الملك ولقب بالملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصورى وطير الخبر إلى نواب السلطنة بالشام فحلفوا له وكتب تقليدا إلى السلطان بالكرك ودستورا بما عينه له من الأقطاع وأرسلهما إليه. قال كتاب الأخبار: واستقر الحال على ذلك بلا منازع حتى خرجت

هذه السنة فكانت مملكة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية نحو العشرين سنة، ولما استقر بيبرس المنصب استبدّ بالأمر وأساء التدبير وأظهر الشدة والجفاء للكثير من الأمراء فانحرفت خواطرهم وابتعدوا عنه وظهرت بينهم دلائل الوحشة والنفور ونزح عن مصر منهم جمال الدين أقوش الموصلى المعروف بقتال السبعة وهو من مماليك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وكذلك لاجين الجاشنكير المعروف بالزبرتاج ومعهما زهاء ألفى فارس من عسكر مصر وبعض من عسكر حماة قاصدين حلب فدخلوها وكان نائب السلطنة فيها يومئذ قرا سنقر المنصورى واتفق أن حضر أيضا جماعة من عسكر دمشق مع الحاج بهادر الظاهرى فسر قرا سنقر بقدومهم وعمدا إلى تمهيد السبل لإرجاع السلطان الملك الناصرمحمد بن قلاوون إلى كرسى السلطنة فجعل يستميل الناس إلى طاعة السلطان ويستنجدهم لنصرته وخرج أيضا جماعة من المماليك على حمية وغيظ مفارقين طاعة بيبرس المذكور وساروا إلى السلطان بالكرك وأعلموه بما عليه الناس من طاعته ومحبته وبغضهم لبيبرس فتقوّت عند ذلك آمال السلطان وأعاد خطبته بالكرك ووردت إليه مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه وأنهم باقون على طاعته وكذلك وردت إليه المكاتبات من حلب فسار بمن معه من الكرك فى جمادى الآخرة إلى قرية عمان وهى قريب من رأس الماء ونزل بها فجاءه أحد مماليك قرا سنقر نائب السلطنة بحماة برسالة مكذوبة على قرا سنقر إلى السلطان بعدم تعويله على ما وردت به كتب أولئك الطائعين وسرعة رجوعه إلى الكرك فصدق السلطان هذا الخبر وظنه حقا وعاد مسرعا إلى الكرك فيمن معه من العساكر واستمرت العساكر مع ذلك على طاعته واستدعائه وانحلت فى هذه الفترة حكومة بيبرس أو كادت وجاهره الناس بالعداوة وأظهروا الخلاف وانعكست الأمور عليه وخرج أغلب الجند عن الطاعة فرحل من كان بحماة من الجند والعساكر بغير دستور ولا مرسوم ولم يبق بحماة إلا بعض العسكر المصرى، ولما تحقق الملك الناصر صدق طاعة العسكر له وخروجهم عن طاعة بيبرس وبقاء العسكر الشامى جميعه على الإخلاص والولاء عاود المسير إلى دمشق وخرج من الكرك وخرجت عساكر دمشق إلى لقائه وكان نائب السلطنة بدمشق أقوش الأفرم وهو من الطائعين فلما لم يقدر على منع العسكر من الخروج هرب من دمشق فدخلها السلطان فى يوم الثلاثاء عشر شعبان من السنة وهيئت له قلعة دمشق فلم ينزل بها ونزل بالقصر الأبلق فأرسل الأفرم إليه يطلب الأمان فأمنه فقدم إلى طاعته وتتابع وصول العسكر لنجدة السلطان من حماة والساحل ووردت عساكر الشام جميعا فلما تكاملوا رسم لهم السلطان بالتأهب للمسير إلى ديار مصر وأرسل إلى الكرك فأحضر ما كان بها من

الحواصل وأنفق فى العسكر ثم سار بهم من دمشق فى يوم الثلاثاء تاسع رمضان سنة ثمان وسبعمائة، فلما بلغ بيبرس الجاشنكير ونائبه بمصر ما فعله السلطان خافا جدا وجرد بيبرس عسكرا عظيما مع الأمير برلغى وغيره من المقدمين فساروا إلى الصالحية وأقاموا بها وكان برلغى المذكور من أكبر أصحاب الجاشنكير وأعزهم إليه وسار السلطان بجيشه حتى وصل غزة فى يوم الجمعة تاسع عشرى رمضان فلم يشعر عسكر مصر بوصول السلطان إلى غزة حتى أخذوا يتقدمون له بالطاعة فريقا بعد فريق وكان ممن قدم له الطاعة أيضا برلغى قائد الجيوش وغيره من المقدمين وكثير من العساكر ثم تتابعت الطلاب وكان السلطان يلقى فى كل يوم وهو سائر طلبا بعد طلب من الأمراء والمماليك والأجناد يقبلون الأرض ويسيرون بين يديه قاصدين الديار المصرية ووردت الأخبار بذلك إلى بيبرس فأسرع فى خلع نفسه وسير ركن الدين بيبرس الدوادار ومعه بها درآص إلى السلطان فى طلب الأمان وأن يتصدق عليه ويعطيه إما الكرك وإما حماة أو صهيون وأن يكون معه ثلثمائة مملوك من مماليكه فأجابه السلطان إلى مائة منهم وأن يعطيه صهيون وأسرع مع ذلك فى المسير إلى مصر فهرب الجاشنكير من قلعة الجبل إلى الصعيد وخرج سلار إلى طاعة السلطان والتقاه يوم الاثنين الثامن والعشرين من رمضان قاطع بركة الحاج وتقدم نحوه ثم ضرب للسلطان الدهليز بالبركة فلم ينزل به ورحل فى نهاره ومعه العسكران الشامى والمصرى فوصل إلى قلعة الجبل من يومه وصعد إليها وجلس على سرير الملك بعد العصر فى نهار الأربعاء مستهل شوال سنة تسع وسبعمائة فكانت هذه أيضا سلطنته الثالثة.

وفى يوم الجمعة ثالث شوال وهو اليوم الثالث من دخول السلطان القاهرة سار سلار من قلعة الجبل إلى الشوبك بحكم من السلطان حيث أنعم بها عليه وأعطى سيف الدين قبجق حلبا واسترجع منه حماة فقام إليها وقام معه عسكر حماة ورسم للأمير أقوش الأفرم بصرخد فسار إليها وقرّر نيابة السلطنة بالشام لشمس الدين قرا سنقر وقرر حماة للحاج بهادر الظاهرى ثم استرجعها منه وقرره على نيابة السلطنة بالحصون والفتوحات بعد عزل استدمر عنها وقرر الأمير سيف الدين بكتمر الجوكاندار فى نيابة السلطنة بمصر ورتب جميع الأمور على ما أراد ودانت له الأحوال فجعل يتصرف فيها، أما بيبرس الجاشنكير فإنه لما هرب إلى الصعيد وكان قد أخذ معه شيئا كثيرا من الأحمال والأموال أرسل السلطان فاسترجع منه ما أخذ وضيق عليه فقصد المسير إلى صهيون حسبما كان طلب فسار من أطفيح إلى

السويس ومنها إلى الصالحية ثم سار منها إلى أن وصل إلى موضع بأطراف غزة يسمى العنصر قرب الداروم وكان قرا سنقر متوجها إلى دمشق نائبا بها على ما استقر عليه الحال فوصل إليه مرسوم السلطان بالقبض على بيبرس المذكور فركب قرا سنقر فى الحال وكبس عليه بالمكان المذكور وقبض عليه وسار به إلى مصر حتى وصل إلى الخطارة فبعث إليه السلطان باستدمر الكرجى وتسلم منه بيبرس وأخذه إلى قلعة الجبل واعتقله فيها وذلك فى يوم الخميس رابع عشر ذى القعدة سنة تسع وسبعمائة فكان آخر العهد به وكانت مدة سلطنته أحد عشر شهرا لا غير. قال كتاب الأخبار: وبيبرس هذا هو الذى بنى البيبرسية بالدرب الأصفر ودفن بها وجدّد جامع الحاكم بعد الزلزلة التى سبق الكلام عنها فى حينها، وانتظمت للملك الناصر الأمور واستقرت له الأحوال فتصرف واستبد بالأمر وأنشأ العمارات العظيمة فى سنة عشرين وسبعمائة منها الميدان المعروف بميدان الهاوى المجاور لقناطر السباع وعمد إلى بناء زريبة فى التل الأعظم بجوار الجامع الطيبرسى فرسم بنقل كوم تراب كان هناك وحفر ما تحته من الطين لأجل بناء الزريبة وأجرى الماء إلى مكان الحفر فصار يعرف بالبركة الناصرية وكان الشروع فى حفر البركة المذكورة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة قال أصحاب التاريخ: فلما انتهى الحفر إلى جانب كنيسة الزهرى (كانت هناك كنيسة تسمى كنيسة الزهرى بقرب من قناطر السباع فى بر الخليج الغربى بباب اللوق وكان بها كثير من النصارى لا يزالون فيها وبجانبها عدّة كنائس فى الموضع الذى يعرف بحكر ابتغا ما بين السبع سقايات وبين قنطرة السد خارج مدينة الفسطاط) أخذ الفعلة فى الحفر حول كنيسة الزهرى حيث بقيت قائمة فى وسط الموضع الذى عينه السلطان للحفر وزاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة ومع ذلك لم تسقط وصار العامة من غلمان الأمراء العاملين فى الحفر وغيرهم فى كل وقت يصرخون فى طلب هدمها إلى أن كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر وقت اشتغال الناس بصلاة الجمعة وترك أعمال الحفر فتجمع عدّة من غوغاء العامة بغير مرسوم من السلطان وصاحوا بصوت مرتفع الله أكبر ووضعوا أيديهم بالمساحى ونحوها فى الكنيسة المذكورة وهدموها حيث بقيت كوما وقتلوا من كان فيها من النصارى وأخذوا جميع ما كان بها من أوانى الذهب والفضة والحلى وغيره من الأشياء الثمينة، ثم تطاولت أيديهم إلى الكنائس الأخرى فهدموا كنيسة بومينا التى كانت بالحمراء وكانت معظمة جدا من قديم الزمان وبها كثير من المسيحيين قد انقطعوا فيها وكان يحمل إليهم بها من مصر سائر ما يحتاج إليه ويبعث إليها بالنذور الجليلة والصدقات الكثيرة

فوجد فيها مال كثير من نقود ومصوغات وتسلق العامة إلى أعلاها وفتحوا أبوابها وأخذوا منها مالا وقماشا وغيره فكان أمرا مهولا للغاية ثم مضوا من كنيسة الحمراء بعد ما هدموها إلى كنيستين أخريين بجوار السبع سقايات تعرف إحداهما بكنيسة البنات وكان بها كثير من الراهبات المتعبدات وعدة من الرهبان فكسروا أبواب الكنيستين وسبوا البنات سبيا وكن زيادة عن ستين بنتا وأخذوا ما عليهن من الثياب ونهبوا سائر ماظفروا به وأحرقوا وهدموا تلك الكنائس كلها. قال: المقريزى هذا والناس فى صلاة الجمعة فعندما خرج الناس من الجوامع شاهدوا هولا كبيرا من كثرة الغبار ودخان الحريق وهرج الناس وشدّة حركتهم ومعهم ما نهبوه من الأمتعة فكان ذلك اليوم أشبه بيوم القيامة وانتشر الخبر وطار إلى الرميلة تحت قلعة الجبل فسمع السلطان ضجة عظيمة أفزعته فبعث ليكشف الخبر فلما بلغه ما وقع انزعج انزعاجا عظيما وغضب من تجرى العامة وإقدامهم على ذلك بغير أمره وأمر الأمير أيدغمش أميراخور أن يركب بجماعة الأوشاقية ويتدارك هذا الخلل ويقبض على من فعله فأخذ أيدغمش يتهيأ للركوب وإذا بخبر وقد ورد من القاهرة أن العامة ثارت فى القاهرة وخربت كنيسة بحارة الروم وكنيسة بحارة زويلة وجاء الخبر من مدينة مصر أيضا بأن العامة قامت بمصر فى جمع كثير جدا و زحفت إلى كنيسة المعلقة بقصر الشمع فقفلها الموكلون بها وهم محصورون بها وهى على وشك أن تؤخذ فتزايد غضب السلطان وهم أن يركب بنفسه ويبطش بالعامة فراجعه الأمير أيدغمش فتأخر ونزل من القلعة فى أربعة من الأمراء إلى مصر وركب الأمير بيبرس الحاجب والأمير ألماس الحاجب إلى موضع الحفر وركب الأمير طينال إلى القاهرة وكل منهم فى عدّة وافرة، وقد أمر السلطان بقتل كل من قدروا عليه من العامة بحيث لا يبقوا على أحد فقامت القاهرة ومصر على ساق وفرّت النهابة فلم يظفر الأمراء منهم إلا بمن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر بالخمر الذى نهبوه من الكنائس ولحق الأمير أيدغمش بمصر وقد ركب الوالى إلى المعلقة قبل وصول أيدغمش ليخرج من زقاق المعلقة من حضر للنهب فأخذه الرجم حتى فر منهم ولم يبق إلا أن يحرق باب الكنيسة فجرد أيدغمش ومن معه السيوف يريدون الفتك بالعامة فوجدوا عالما لا يحصر وخاف سوء العاقبة فأمسك عن القتل وأمر أصحابه بإرجاف الناس من غير إهراق دم ونادى مناديه: من وقف حل دمه ففر سائر من اجتمع من العامة وتفرقوا وصار أيدغمش واقفا إلى أن أذن العصر خوفا من عود العامة ثم مضى وألزم والى مصر أن يبيت بأعوانه هنالك وترك معه خمسين من الأوشاقية. أما الأمير ألماس فإنه

وصل إلى كنائس الحمراء وكنائس الزهرى ليتداركها فإذا بها صارت كيمانا ليس بها جدار قائم فعاد وعاد الأمراء فردوا الخبر على السلطان وهو لا يزداد الاحنقا فما زالوا به حتى سكن غضبه قال الرواى: وكان الأمر فى هدم هذه الكنائس من أعجب العجب وهو أن الناس لما كانوا فى صلاة الجمعة من هذا اليوم بجامع قلعة الجبل فعندما فرغوا من الصلاة قام رجل موله وهو يصيح فى وسط الجامع اهدموا الكنيسة التى فى القلعة اهدموها وأكثر من الصياح المزعج حتى خرج عن الحد ثم اضطرب فتعجب السلطان والأمراء من قوله ورسم لنقيب الجيوش والحاجب بالفحص عن ذلك فمضيا من الجامع إلى خرائب التتار من القلعة فإذا فيها كنيسة بنيت فهدموها قال: ولم يفرغوا من هدمها حتى وصل الخبر بوقعة كنائس الحمراء والقاهرة فكثر تعجب السلطان من شأن ذلك الفقير وطلبه فلم يوقف له على خبر. أهـ

و لما شاع خبر الكنيسة التى كانت بخرائب التتار بقلعة الجبل وماجرى عليها بأمر السلطان ثار العامة وهدموا كنائس الزهرى وكنائس الحمراء وغيرها من كنائس القاهرة وحرقوا وقتلوا وسبوا ونهبوا وفعلوا من الفظائع ما لا يقع تحت حصر وكان الذى هدم فى ذلك اليوم من الكنائس بالقاهرة كنيسة بحارة الروم وكنيسة بالبندقانيين وكنيستين بحارة زويلة ثم جاءت الأخبار أيضا من مدينة الأسكندرية بأن العامة هدمت بها أربع كنائس وكنيستين بمدينة دمنهور وست كنائس بمدينة قوص وما حولها من العمائر وتواترت الأخبار من الأقاليم القبلية والبحرية بكثرة ما هدم من الكنائس والديارات فى جميع أعمال مصر ما بين قوص والاسكندرية ودمياط وغيرها فكانت شدة عظيمة للغاية.

ولم تكن لتسكن خواطر الناس حتى ظهر الحريق فى القاهرة ومصر فى عدة مواضع فوقع الحريق فى ربع بخط الشوّائين من القاهرة فى يوم السبت عاشر جمادى الأولى وسرت النار إلى ما حوله واستمرت إلى آخر يوم الأحد فتلف فى هذا الحريق شىء كثير وعند ما أطفئ وقع الحريق بحارة الديلم فى زقاق العريسة بالقرب من دار كريم الدين ناظر الخاص فى خامس عشر جمادى الأولى وكان يوماً شديد الريح فسرت النار من كل ناحية حتى وصلت إلى بيت كريم الدين وبلغ ذلك السلطان فانزعج لما كان هنالك من الحواصل السلطانية وسير طائفة من الأمراء لإطفائها فجمعوا الناس لذلك وتكاثروا عليها وقد عظم الخطب من ليلة الاثنين إلى ليلة الثلاثاء فتزايد اشتعال النار وعجز الأمراء والناس عن إطفائها لكثرة انتشارها فى

الأماكن وقوة الريح التى قلعت باسقات النخل وغرقت المراكب فلم يشك الناس فى حريق القاهرة كلها وصعدوا المآذن وبرز الفقراء وأهل الخير وضجوا وعجوا وجأروا وكثر صراخ الناس وبكاؤهم وصعد السلطان إلى أعلى القصر فلم يتمالك الوقوف من شدّة الريح واستمر الحريق والحث يرد على المكلفين بالإطفاء من السلطان إلى يوم الثلاثاء فنزل نائب السلطان ومعه جميع الأمراء وسائر السقائين ونزل الأمير بكتمرَ الساقى فكان يوما عظيما لم ير الناس أعظم ولا أشد هولا منه ووكلوا بأبواب القاهرة من يردّ السقائين إذا خرجوا من القاهرة لأجل إطفاء النار فلم يبق أحد من سقائى الأمراء وسقائى البلد إلا وعمل وصاروا ينقلون الماء من المدارس والحمامات وأخذ جميع النجارين وسائر البنائين لهدم الدور فهدم فى هذه النوبة ما شاء الله من الدور العظيمة والرباع الكبيرة وعمل فى هذا الحريق أربعة وعشرون مأمورا من الأمراء المقدمين سوى أمراء الطبلخانات والعشروات والمماليك وعمل الأمراء بأنفسهم فيه وصار الماء من باب زويلة إلى حارة الديلم فى الشارع بحرا من كثرة الرجال و الجمال التى تحمل الماء ووقف بكتمر الساقى والأمير أرغون النائب على نقل الحواصل السلطانية من بيت كريم الدين إلى بيت ولده بدرب الرصاصى وخربوا ستة عشر دارا من جوار الدار وما قابلها حتى تمكنوا من نقل الحواصل فما كمل أطفاء الحريق ونقل الحواصل حتى وقع الحريق فى ربع الظاهر خارج باب زويلة وكان يشتمل على مائة وعشرين بيتا وتحته قيسارية تعرف بقيسارية الفقراء وهبت مع الحريق ريح قوية فركب الحاجب والوالى لإطفائها وهدموا عدة دور من حول الربع حتى انطفأت ووقع فى ثانى يوم حريق بدار الأمير سلار فى خط بين القصرين ابتدأ من الباذهنج وكان ارتفاعه عن الأرض مائة ذراع فوقع الاجتهاد فيه حتى أطفئ فأمر السلطان الأمير علم الدين سنجر الخازن والى القاهرة والأمير ركن الدن بيبرس الحاجب بالاحتراز واليقظة ونودى بأن يعمل عند كل حانوت دن فيه ماء أو زير مملوء بالماء وأن يقام مثل ذلك فى جميع الحارات والأزقة والدروب فبلغ ثمن كل دن خمسة دراهم بعد ردرهم وثمن الزير ثمانية دراهم ووقع حريق أيضا بحارة الروم وعدة مواضع حتى وجدوا هذا الحريق من نفط قد لف عليه خرق مبتلة بزيت وقطران . قال راوى هذا الخبر: فلما كانت ليلة الجمعة النصف من جمادى قبض على راهبين خرجا من المدرسة الهكارية بعد العشاء الأخيرة وقد اشتعلت النار فى المدرسة ورائحة الكبريت فى أيديهما فحملا إلى الأمير علم الدين الخازن والى القاهرة فأعلم السلطان بذلك فأمر بعقوبتهما قال وبينما هو نازل من القلعة وإذا

بالعامة قد أمسكوا نصرانيا وجد فى جامع الظاهر ومعه خرق فى هيئة الكعك فى داخلها قطران ونفط وقد ألقى منها واحدة بجانب المنبر وما زال واقفا إلى أن خرج الدخان فمشى يريد الخروج من الجامع وكان قد فطن به شخص وتأمله من حيث لا يشعر وقبض عليه فتكاثر الناس فجروه إلى بيت الوالى وهو بهيئة المسلمين فعوقب عند الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب فاعترف بأن جماعة من النصارى قد اجتمعوا على عمل نفط وتفريقه مع جماعة من أتباعهم وأنه ممن أعطى ذلك وأمر بوضعه عند منبر جامع الظاهر ثم أمر بالراهبين فعوقبا فاعترفا أنهما من سكان دير البغل وأنهما اللذان أحرقا المواضع التى تقدّم ذكرها بالقاهرة غيرة وحنقا من المسلمين لما كان من هدمهم الكنائس وأن طائفة النصارى تجمعوا وأخرجوا من بينهم مالا جزيلا لعمل هذا النفط واتفق وصول كريم الدين ناظر الخاص من الأسكندرية فعرفه السلطان ما وقع من القبض على النصارى فقال النصارى لهم بطرك يرجعون إليه ويعرف أحوالهم فرسم السلطان بطلب البطرك عند كريم الدين ليتحدث معه فى أمر الحريق وما ذكره النصارى من قيامهم فى ذلك فجاء مع والى القاهرة فلما أن دخل بيت كريم الدين بحارة الديلم وأحضروا إليه الثلاثة النصارى من عند الوالى قالوا لكريم الدين بحضرة البطرك والوالى جميع ما اعترفوا به قبل ذلك فبكى البطرك كثيرا عند سماعه هذا الكلام وقال هؤلاء سفهاء النصارى قصدوا مقابلة سفهاء المسلمين على تخريب الكنائس وانصرف من عند كريم الدين مبجلا مكرما فوجد كريم الدين قد أقام له بغلة على بابه ليركبها فركبها وسار وأصبح كريم الدين يريد الركوب إلى القلعة على العادة فلما خرج إلى الشارع صاح به العامة ما يحل لك يا قاضى تحامى للنصارى وقد أحرقوا بيوت المسلمين وتركبهم بعد هذا البغال فشق عليه ما سمع وعظمت نكايته واجتمع بالسلطان فأخذ يهوّن عليه أمر النصارى المسوكين ويذكر أنهم سفهاء وجهال فرسم السلطان للوالى بتشديد عقوبتهم فنزل وعاقبهم عقوبة شديدة للغاية قال الراوى: فاعترفوا بأن أربعة عشر راهبا بدير البغل قد تحالفوا على إحراق ديار المسلمين كلها وفيهم راهب يصنع النفط وأنهم اقتسموا القاهرة ومصر فجعلوا للقاهرة ثمانمائة ولمصر ستمائة فكبس دير البغل وقبض على مرتكبيه وأحرق منهم جماعة منهم أربعة بشارع صليبة ابن طولون فى يوم الجمعة فاجتمع لمشاهدتهم عالم كثير فاجترأ من ذلك اليوم جمهور الناس على النصارى وفتكوا بهم وصاروا يسلبون ما عليهم من الثياب حتى فحش الأمر وتجاوزا فيهم المقدار فغضب السلطان من ذلك وهم أن يوقع بالعامة واتفق أنه ركب من القلعة

يريد الميدان الكبير في يوم السبت فرأى من الناس أمما عظيمة قد ملأت الطرقات وهم يضجون نصر الله الإسلام انصر دين محمد بن عبدالله فجزع من ذلك وعند ما نزل الميدان أحضر إليه الخازن نصرانيين قد قبض عليهما وهما يحرقان الدور فأمر بإحراقهما فأخرجا وأحرقا بمرأى من الناس وبينما هم في إحراق النصرانيين إذا بديواني الأمير بكتمر الساقي قد مر يريد بيت الأمير وكان نصرانيا فعندما عاينه العامة ألقوه عن دابته إلى الأرض وجردوه من جميع ما عليه من الثياب وحملوه ليلقوه في النار ثم تركوه واتفق مع هذا مرور كريم الدين وقد لبس التشريف من الميدان فرجمه من هناك رجما متتابعا وصاحوا كم تحامي للنصارى وتشدّ معهم ولعنوه وسبوه فلم يجد بدا من العودة إلى السلطان وهو بالميدان وقد اشتد ضجيج العامة وصياحهم حتى سمعهم السلطان فلما دخل عليه وأعلمه الخبر امتلأ غضبا واستشار الأمراء وكان بحضرته منهم الأمير جمال الدين نائب الكرك والأمير سيف الدين الأبوبكرى والخطيرى وبكتمر الحاجب في عدة أخرى فقال الأبوبكرى العامة عمي والمصلحة أن يخرج إليهم الحاجب ويسألهم عن اختيارهم حتى يعلم فكره السلطان منه ذلك وأعرض عنه فقال نائب الكرك كل هذا من أجل الكتاب النصارى فإن الناس أبغضوهم والرأى أن السلطان لا يعمل في العامة شيئا وإنما يعزل النصارى من الديوان فلم يعجبه هذا الرأى أيضا والتفت إلى الأمير ألماس الحاجب وقال له: امض ومعك أربعة من الأمراء وضع السيف من باب زويلة إلى باب النصر بحيث لا ترفع السيف عن أحد ألبتة وقال لوالي القاهرة اركب إلى باب اللوق وإلى باب البحر ولا تدع أحدا حتى تقبض عليه وتطلع به إلى القلعة ومتى لم تحضر الذين رجموا وكيلي يعني كريم الدين وإلا وحياة رأسي شنقتك عوضا عنهم وعين معهم عدة من المماليك السلطانية فخرج الأمراء بعد ما تلكئوا في المسير حتى اشتهر الخبر فلم يجدوا أحدا من الناس حتى ولا غلمان الأمراء ولا حواشيهم ووقع القول بذلك في القاهرة فقفلت الأسواق وتفرق الناس واختفوا وسار الأمراء فلم يجدوا في طول طريقهم أحدا إلى أن بلغوا باب النصر وقبض الوالي من باب اللوق وناحية بولاق على كثير من الكلابزية والنوتية وأسقاط الناس فاشتد الخوف وعدّى كثير من الناس إلى البر الغربي بالجيزة وخرج السلطان من الميدان فلم يجد في طريقه إلى أن صعد قلعة الجبل أحدا من العامة فلما استقر بالقلعة سير إلى الوالي يستعجل حضوره فما غربت الشمس حتى أحضر من أمسك من العامة نحو مائتي رجل فعزل منهم طائفة أمر بشنقهم وجماعة رسم بتوسيطهم وجماعة رسم بقطع أيديهم. فصاحوا جميعاً:

ياخوند ما يحل لك ما نحن الذين رجمنا قبل فبكى الأمير بكتمر الساقى ومن حضر
من الأمراء رحمة لهم ومازالوا بالسلطان إلى أن قالو للوالى اعزل منهم جماعة
وانصب الخشب من باب زويلة إلى تحت القلعة بسوق الخيل وعلق هؤلاء بأيديهم
فلما أصبح يوم الأحد علق الجميع من باب زويلة إلى سوق الخيل وكان فيهم من له
بزة وهيئة ولم يفتح أحد من أرباب الحوانيت بالقاهرة ومصر فى هذا اليوم حانوتا،
وجلس السلطان فى الشباك وقد أحضر بين يديه جماعة ممن قبض عليهم الوالى
فقطع أيدى وأرجل ثلاثة منهم والأمراء لا يقدرون على الكلام معه فى أمرهم لشدة
حنقه فتقدم كريم الدين وكشف رأسه وقبل الأرض وهو يسأل العفو فقبل سؤاله
وأمر بهم أن يعملوا فى حفير الجيزة فأخرجوا وقد مات من قطع أيديهم اثنان وأنزل
المعلقون من على الخشب وعندما قام السلطان من الشباك وقع الصوت بالحريق فى
جهة جامع ابن طولون وفى قلعة الجبل وفى بيت الأمير ركن الدين الأحمدى بحارة
بهاء الدين وبالفندق خارج باب البحر من المقس وما فوقه من الأربع واستمر الحريق
فى الأماكن إلى يوم السبت فلما ركب السلطان إلى الميدان على عادته وجد خلقا
كثيرا جدا من العامة قد صبغوا خرقا من القماش بلون أزرق وعملوا فيها صلبانا
بيضا وعندما رأوا السلطان صاحوا بصوت عال واحد لادين إلا دين محمد بن عبد
الله يا ملك الناصر يا سلطان الإسلام انصرنا على أهل الكفر ولا تنصر النصارى
فتعجب السلطان من فعالهم وسار حتى نزل بالميدان وصراخ العامة لا يبطل ولم
يستقر به المقام حتى أمر الحاجب أن يخرج وينادى بين يديه من وجد نصرانيا فله
ماله ودمه فخرج ونادى بذلك صاحت العامة وصرخت نصرك الله وضجوا بالدعاء
وكان النصارى يلبسون العمائم البيض فنودى فى القاهرة من وجد نصرانيا بعمامة
بيضاء حل له دمه وماله ومن وجد نصرانيا راكبا حل له دمه وماله وخرج مرسوم
بلبس النصارى العمامة الزرقاء وأن لا يركب أحد منهم فرسا ولا بغلا ومن ركب
حمارا فليركبه بلا إكفاف عرضا ولايدخل نصرانى إلى الحمام إلا وفى عنقه جرس
ولا يتزيا أحد منهم بزي المسلمين ومنع الأمراء من استخدام المسيحيين وأخرجوا من
ديوان السلطان وكتب لسائر الأعمال بصرف جميع المباشرين من المسيحيين وكثر
إيقاع المسلمين بهم حتى تركوا السعى فى الطرقات ولبث الحال هكذا أياما ثم نودى
فى الناس بعد ذلك بالأمان وأنهم يتفرجون على عادتهم عند ركوب السلطان إلى
الميدان وذلك أنهم كانوا قد تخوفوا على أنفسهم لكثرة ما أوقعو بالمسيحيين وزادوا
فى الخروج عن الحد فاطمأنوا وخرجوا على العادة إلى جهة الميدان ودعوا للسلطان

وصاروا يقولون نصرك الله يا سلطان الأرض اصطلحنا اصطلحنا فأعجب السلطان منهم ذلك وتبسم من قولهم وقد سكنت الخواطر وعادت الأمور إلى سابق مجراها وكانت هذه الحوادث من أشنع ما حل بمصر خرب فيها من الكنائس كنيسة بخرائب التتر بقلعة الجبل وكنيسة الزهرى فى الموضع الذى فيه البركة الناصرية وكنيسة الحمراء بجوار السبع سقايات تعرف بكنيسة البنات وكنيسة أبى مينا وكنيسة الفهادين بالقاهرة وكنيسة بحارة الروم وكنيسة بالبندقانيين وكنيستان بحارة زويلة وكنيسة بخزانة البنود وكنيسة بالخندق وأربع كنائس بثغر الإسكندرية وكنيستان بمدينة دمنهور الوحش وأربع كنائس بالغربية وثلاثة بالشرقية وست بالبهنساوية وبأسيوط ومنفلوط ومينة ابن خصيب ثمان كنائس وبقوص وأسوان إحدى عشرة كنيسة وبالأطفيحية كنيسة وبسوق وردان من مدينة الفسطاط وبالمصاصة وقصر الشمع من مصر ثمان كنائس و خرب من الديارات شيء كثير، قال بعض أهل التاريخ: وأقام دير البغل ودير شهران مدة لا يأوى بهما أحد واحترق بالقاهرة ربع فى سوق الشوائين وزقاق العريسة بحارة الديلم وستة عشر بيتا بجوار بيت كريم الدين وعدة أماكن بحارة الروم ودار بهادر بجوار المشهد الحسينى وأماكن بإسطبل الطارمة وبدرب العسل وقصر أمير سلاح وقصر سلار بخط بين القصرين وقصر بيسرى وخان الحجر والجملون وقيسارية الأدم ودار بيبرس بحارة الصالحية ودار ابن المغربى بحارة زويلة، وعدة أماكن بخط بئر الوطاويط وبالحكر وفى قلعة الجبل وغير ذلك الأماكن بمصر والقاهرة قال وكانت هذه الخطوب العظيمة فى مدة يسيرة للغاية فلما وقع مثلها فى الأزمان المتطاولة هلك فيها من الخلق وتلف من الأموال وخرب من الأماكن ما لا يمكن وصفه لكثرته ولله عاقبة الأمور.

وبينما كانت هذه الخطوب تتعاقب والناس في خوف ما عليه من مزيد كان الواشون وأصحاب السعاية يوقعون بين الخليفة المستكفى بالله وبين السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ومازالوا يوغرون الصدور حتى أبغض الناصر الخليفة ومال عليه وأخذ يراقب أموره ينتقد أعماله فاشتدت الوحشة بينهما وخرجت سنة ثلاثين وسبعمائة على هذا الحال فأمره السلطان أن ينتقل من القلعة إلى مناظر الكبش حيث كان أبوه ساكنا ثم أمره أن يخرج إلى بلدة قوص بصعيد مصر فيقيم بها إلى ما شاء الله فخرج فى ثامن عشر ذى الحجة من سنة سبع وثلاثين هو وأولاده وأهله فكانوا زهاء المائة نفس ورتب لهم ما كان مرتبا لهم بمصر من الكساوى والمأكول فتوجع الناس لخروجه كثيرا، قال الحافظ ابن حجر وكان طول مدته يخطب له على

المنابر حتى فى مدة إقامته بقوص واستمر بها إلى أن مات فى شعبان سنة أربعين وسبعمائة ودفن بها، وكان قد عهد بالخلافة قبل موته إلى ابنه أحمد وأشهد عليه أربعين عدلا وأثبت ذلك على يد قاضى مدينة قوص فلما بلغ ذلك الملك الناصر لم يلتفت إلى العهد المذكور وطلب ابن أخى المستكفى إبراهيم ابن ولى العهد المستمسك بالله أبى عبدالله محمد ابن الحاكم بأمر الله أبى العباس وكان جده الحاكم قد عهد إلى ابنه محمد ولقب المستمسك بالله فمات فى حياته فعهد إلى ابنه إبراهيم هذا ظنا منه أنه يصلح للخلافة فرآه غير صالح لما هو فيه من الانهماك فى اللعب ومعاشرة الأرذال فنزل عنه وعهد إلى ولده المستكفى وهو عم إبراهيم وكان إبراهيم المذكور قد نازعه لما مات الحاكم فلم يلتفت إلى منازعته اعمادا على قول الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد كما تقدم بيان ذلك فى محله فأقام على ضغينة حتى كان هو السبب فى الوقيعة بين عمه وبين الملك الناصر وجرى ماجرى من تبعيده إلى مدينة قوص فلم يمض الملك الناصر عهد المستكفى لولده وبايع إبراهيم هذا يوم الاثنين ثالث رمضان كما سيذكر فى محله ولقب الواثق بالله وراجع الناس السلطان فى أمره ووسموه بسوء السيرة خصوصا قاضى القضاة عزالدين بن جماعة فإنه جهد كل الجهد فى صرف السلطان عنه فلم يفعل ومازال بهم حتى بايعوه كرها قال صاحب حسن المحاضرة: ثم إن الله فجع الملك الناصر بموت أعز أولاده الأمير أنوك فكان ذلك أول عقوباته ولم يمتع بالملك بعد وفاة المستكفى فأقام بعده سنة وأياما وأهلكه الله وقد قيل إن وفاة المستكفى كانت سنة إحدى وأربعين فعلى هذا لم يتم الحول على الناصر حتى مات بعد ثلاثة أشهر سُنة الله فيمن مس من الخلفاء أحدا بسوء فإن الله يقصمه عاجلا وما يدخره له فى الآخرة من العذاب أشد قال: ثم إن الله انتقم من الناصر فى أولاده فسلط عليهم الخلع والحبس والتشريد فى البلاد والقتل فجميع من تولى الملك من ذريته إما أن يخلع عاجلا وإما أن يقتل فأول ولد تولى بعده عوجل بخلعه ونفيه إلى قوص حيث كان قد سير الخليفة ثم قتل بها وغالب من تولى من ذريته لم تطل مدته أهـ.

ومات الخليفة المستكفى وهو ابن بضع وخمسين سنة بمدينة قوص فكانت خلافته تسعا وثلاثين سنة وكان موته فى شعبان سنة أربعين وسبعمائة كما ذكر .

ومات فى أيامه بطرك الاسكندرية وكان من الحوادث فى أيامه ما وصفنا من تخريب الكنائس والديارات وقتل الرجال والأطفال وسبى النساء وغير ذلك من الخطوب التى لم يسبق لها مثال فى الأيام الغابرة وقد أقام بطركا ستا وعشرين سنة

فلما مات قام أبو الفتوح بن العياط مع السلطان الملك الناصر فى ولاية القس داود بن يوحنا بن لقلق الفيومى فإنه كان خصيصا به فأجابه السلطان إلى ذلك وكتب توقيعه فشق ذلك على المسيحيين وقام منهم الأسعد بن صدقة كاتب دار التفاح بمصر ومعه جماعة وتوجعوا سحرا ومعهم الشموع إلى تحت قلعة الجبل حيث كان يسكن السلطان واستغاثوا وأوقعوا فى القس داود وقالوا: إنه لا يصلح وفى شريعتنا أنه لا يقوم البطرك إلى هذا المسند إلا باتفاق الجمهور عليه فبعث السلطان يطيب خواطرهم وكان القس المحكى عنه قد ركب بكرة ومعه لفيف الأساقفة وخلق كثير من المسيحيين ليقدموه بكنيسة المعلقة بمصر وذلك يوم الأحد فركب السلطان من قلعة الجبل وأوقف ولاية القس المذكور وبعث فى طلب الأساقفة لتحقيق الأمر فوافتهم الرسل مع القس فى الطريق فأخذوهم فدخل القس عندئذ فى كنيسة فى الطريق وبطلت رسامته يومئذ فأقام المتأصلون بغير بطرك تسع عشرة سنة ومائة وستين يوما وكان بعد ذلك من أمرهم ما سيذكر فى محله .

(الفصل الرابع)

(فى خلافة إبراهيم الواثق بالله ابن ولى العهد المستمسك بالله)

لما مات الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله طلب السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ابن أخى المستكفى إبراهيم ابن ولى العهد المستمسك بالله أبى عبدالله محمد بن الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد وبايعه بالخلافة فى يوم الاثنين ثالث رمضان سنة ست وأربعين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وثلثمائة ميلادية رغما عما بدا من قاضى القضاه عز الدين بن جماعة من صرف السلطان عنه ومازال السلطان بالناس حتى بايعوه فى السنة المذكورة واستقرت له الخلافة فبالغ السلطان فى تعظيمه وقربه إليه واختص به ورتب له الرواتب الكثيرة نكاية فى ولد المستكفى والمتحزبين له ومازال على هذا الحال والناس فى خلافته على قسمين حتى مرض السلطان الملك الناصر ومات فى يوم الأربعاء سابع عشرى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ولاختلاف الأمراء وتباين أغراضهم لم يتفقوا على الذى يولونه السلطنة من بعده فاشتغلوا بذلك وتركوا السلطان المتوفى ليلة فى قلعة الجبل بغير دفن حتى تم الأمر لابنه أبى بكر المنصور

في يوم الخميس ثم أخـذوا في تجهيز السلطان المتـوفى فوضع فى محفة بعـد العشاء الأخيرة وحـمل على بغلين وأنزل من قعلة الجبـل إلى الإسطبل السلطانى وسار به الأميـر ركن الدين بيبـرس الأحمـدى أمير جنـدار والأمير نجم الدين والـى القاهرة وقطلوبغا الذهبى وعلمدار خوطا بهار الدوادار وعبروا به إلى القاهرة من باب النصر وقد أقفلت الحـوانيت كلها ومنع الناس من الوقوف للنظر إليـه وقدام المحفة شـمعة واحدة في يد علمدار وعبروا به المدرسة المنصورية بين القصرين ليدفن عند أبيه الملك المنصور قلاوون وكان الأمير علم الدين سنجر الجاولى ناظر المارستان قد جلس ومعه القضاة الأربعة وشيخ الشيوخ ركن الدين شـيخ خانقاه سرياقوس والشيخ ركن الدين عمر بن الشـيخ إبراهيم الجعبرى فحطت المحـفة وأخرج منها ووضع تجاه الفسـقية التى بالقبـة وأمر ابن أبى المظاهر مغسل الأمـوات بتغسيله فـغسله وكفن فى نصـيفة وعملت له أخرى طـراحة ومخدة ووضع فى تابوت من خشب وصلـى عليه قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد بـن جماعة الشافعى بمن حضر وأنزل إلى قبر أبيه فى سحلية من خشب وقد ربطت بحبل ونزل معه إلى القبر الغاسل الأمير سنجر الجاولى. قال: فسبحان من لا يحـول ولايزول انظر كيف ملك كثيرا من المعمور من الأرض ومات غريبا وغسل طريحا ودفن وحيـدا إن فى ذلك لعبرة لقوم يتبصرون.

قال بعض كتاب الأخبار: ومات الملك الناصر وليس له نائب بديار مصير ولاحاجب متـصرف وكان أبيض اللون قـد وخطه الشيب وفى عـينيه حول وبرجلـه اليمنى أثر شوكة تنغص عليه أحيانا وتؤلمه وكـان لايكاد يمس بها الأرض ولا يمشى إلا متكئا على أحد أو متوكئا على شيء ولا يصل إلى الأرض إلا أطراف أصابعه وكان شديد البأس يتولى الأمور بنفسه مهيبا عند أهل دولته إذا وقف الأمراء فى خدمته لا يجسر أحد أن يـتكلم مع آخر كلمـة ولا يلتفت بـعضـهم إلى بعض خوفـا منه ولا يمكن أحدهم أن يذهب إلى بيت أحد ألبتة لا فى وليمة ولاغيرها فإن فعل أحد منهم شيئا من ذلك قبض عليه وأخرجه من يومه منفيا وكـان عارفا بأمور رعيته وأحوال مملكته وأبطل نيابة السلطنة من ديار مـصر فى سنة سبع وعشرين وسبـعمائة وأبطل الوزارة وصار يتحدّث بنفـسه فى الجليل من الأمور والحقير فعظمت حاشـية المملكة وكثرت أتباع السلطنة وتخولوا فى النعم الجزيلة حتى الخولة منه والكلابزية وكان كثير الأخذ بالشبهات فقتل فى أيامه خلقا كثـيرا من الأمراء وكان إذا كبر أحد من أمرائه وظهر قبض عـليه وسلب نعـمته وأقـام بدله من صغـار مماليكه إلى أن يكبر ويعـظم أمره فيقبض عليـه ويقيم بدله ليأمن بذلك شرهم وكان كثير التـخيل والحذر حتى أنه إذا تخيل من ولده قتله، وفى آخر أيامه عظم شرهه فى جمع الأموال فصادر الكثير من

الدواوين القبط والولاة وغـيرهم ورمى البضـائع على التجار حـتى خاف كل من له مال وانكمش وكان مخادعا كثير التحيل لا يقف عنـد قول ولا يفى بعهد ولا يبر فى يمين وكان محبا للعمارة فعمر عـدة أماكن منها جامع القلعة وقد هدمه مرتين وعمر القصر الأبلق بالقلعة ومعظم الأماكن التى بالقلعة وعمر المجرى الذى ينقل الماء عليه من النيل إلى قلعـة الجبل على السور وعـمل الميدان تحت القلعة ومناظر سـرياقوس والخانقاه بسرياقوس و حفر الخليج الناصرى بظاهر القاهرة وعمر الجامع الجديد على شاطئ النيل بظاهر مـصر وجدد جـامع الفيلة الذى بالمرصد والمدرسـة الناصرية بين القصـرين من القاهرة وغـير ذلك ومازال يعـمر منذ عـاد فى ولايته الثـالثة إلى أن مات.

قال بعض كتاب الأخبار: وبلغ مصروف العمارة فى كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة عنها ثلثـمائة وخمسون دينارا سوى من يسخر من المقـيدين وغيرهم فى عمل مـا يعمره وحفـر عدة من الخلجان والترع وأقـام الجسور بالبلاد حـتى أنه كان يصرف من الأخـباز على ذلك ربع مـتحصـل الأقطاعات وحفـر خليج الاسكندرية وبحر المحلة مرتين وبحر اللبينى بالجيزة وعمل جسـر شيبين وجسر أجاش بالشرقية والقليوبية مدة ثلاث سنين مـتوالية فلم ينجح فأنشأه بنيانا بالطوب والجـير وأنفق فيه أموالا عظيمـة وراك فى أيامه ديار مصر والشام وغـزا عدة غزوات فتح فيـها جزيرة أرواد فى سنة اثنتين وسـبعمائة وفـتح مطلبية فى سنة خمس عـشرة وأناش فى ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وخربّها ثم عمرها الأرمن فسيـر لها جيشا عظيما فأخذها وأخذ مـعهـا عدة بلاد من بلاد الأرمن وذلك سنة سـبع وثلاثين وأقام بهـا نائبا من أمراء حلب وعـمـر قلعة جعبـر بعد خرابها واندثارها وضرب السكـة باسمه فى سنة إحـدى وأربعين فى شـوال وخطب له فى ارتنـا إحدى بلاد الروم وضـربت السكة باسمه أيضا وكذلك ببلاد القرمان وبلاد الكرد وكثير من بلاد الشرق وكان من الذكاء المفرط على جانب عظيم يعرف مماليك أبيه ومماليك الأمـراء باسمهم ووقائعهم وكان على الهمة كبير السياسـة واسع المعرفة بمهادنة الملوك يبذل فى ذلك من الأموال ما لا يوصف كثـرة فكان كتابه ينفـذ أمره فى سائر أقطـار الأرض وهو مع ذلك مؤيد فى جميع أموره مظفر فى كل أحواله مسعود فى سائر حركاته، وكانت مدة سلطنته فى المرة الثالثة أربعا وأربعين سنة وخمسة عـشر ويوما خارجا عما بين ذلك. قال بعض الكتاب: ولما احتضر ندم على مافـعل من مبايعة إبراهيم الواثق بالله ابن ولى العهد المستمسك فأوصى الأمراء برد العهـد إلى ولى عهد المستكفى بالله وخلع بيعة الواثق

فلما استقرت السلطنة بولده أبى بكر المنصور عقد مجلسا يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وطلب الواثق إبراهيم وولى العهد أحمد بن المستكفى المتوفى بمدينة قوص وسأل القضاة قائلا: من يستحق الخلافة شرعا؟ فقال ابن جماعة أن الخليفة المستكفى المتوفى أوصى بالخلافة من بعده لولده أحمد وأشهد عليه أربعين عدلا بمدينة قوص وثبت ذلك عندى بعد ثبوته على يد نائبى بمدينة قوص فعند ذلك قام السلطان وخلع الواثق إبراهيم وبايع أحمد وبايعه القضاة كلهم قال الحافظ بن حجر: ولقب أولا المستنصر ثم لقب الحاكم بأمر الله لقب جده وكتب له ابن فضل الله صورة المبايعة وقد أضربنا هنا عن إيرادها فكانت مدة خلافة الواثق إبراهيم المذكور ثلاثة أشهر وتسعة أيام.

قلت: ولم يعتبر جماعة المؤرخين خلافة الواثق المذكور مدة صحيحة ولذلك لم يذكرها أحد منهم فى مددهم سوى الذهبى فى آخر ذيله على العبر وقد قال الحسينى فى ذيله على العبر أيضا أن الذى قام بالخلافة بعد المستكفى ابنه أحمد الملقب بالحاكم بأمر الله وكان ولى عهد أبيه أهـ.

(الفصل الخامس)

(فى خلافة الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفى بالله)

ثم قام بالأمر بعد المستكفى بالله ابنه الحاكم بأمر الله أحمد وكان ولى عهد أبيه كما سبقت الإشارة إلى ذلك بويع له بالخلافة يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة سنة ست وأربعين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وثلثمائة وألف للميلاد بمشورة ابن جماعة بايعه السلطان المنصور أبوبكر بن الملك الناصر قلاوون وبايعه القضاة والأمراء بعد خلع الواثق إبراهيم فى اليوم المذكور ولقب بالحاكم بأمر الله لقب جده واستقرت له الخلافة وأمده السلطان بالرواتب الكثيرة والعطاء الوافر، فلما كان ثانى يوم المحرم افتتاح سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة حضر الخليفة الحاكم بأمر الله المذكور والسلطان الملك المنصور أبو بكر والقضاة بدار العدل فجلس الخليفة على الدرجة العليا وعليه خلعة خضراء وفوق عمامته طرحة سوداء مرقومة بالذهب وجلس السلطان دون مقام الخليفة وخطب خطبة فتحها بقوله إن الله يأمر بالعدل الآية وبقوله وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم الآية ثم أوصى الأمراء بالرفق بالرعية وإقامة الحق وتعظيم شعائر الإسلام ونصرة الدين ثم قال فمن نكث فإنما ينكث على

نفسه وقرأ الآية، وجلس ثم جيء بخلعة سوداء ألبسها الخليفة السلطان بيده ثم قلده سيفا عربيا ثم أخذ علاء الدين بن فضل الله كاتب السر فى قراءة عهد الخليفة للسلطان حتى فرغ منه ثم قدمه إلى الخليفة فكتب عليه ثم كتب بعده القضاة الأربعة بالشهادة عليه ولكن لم تطل مدة السلطان الملك المنصور بعد ذلك فإنه سلم الأمير قوصون زمام الملك وصرّفه فى جميع الأمور بلا استثناء فخانه وعمل لنفسه وكان من أمره ما سيتلى عليك، قال بعض كتاب الأخبار: وقوصون هذا هو سيف الدين حضر من بلاد بركة إلى ديار مصر صحبة خوند ابنة أزبك امرأة الملك الناصر محمد ابن قلاوون فى ثالث عشرى ربيع الآخر سنة عشرين وسبعمائة ومعه قليل من العصى وطسما ونحو ذلك مما قيمته خمسمائة درهم ليتجر فيها فطاف بذلك فى الأسواق بالقاهرة وتحت قلعة الجبل وفى داخل القلعة فاتفق أنه فى بعض الأيام دخل الإسطبل السلطانى ليبيع ما معه فأحبه بعض الأوشاقية وكان صبيا جميلا طويل القامة له من العمر ما يقارب الثمان عشرة سنة فصار يتردد إلى الأوشاقى إلى أن رآه السلطان فوقعا منه موقعا فسأل عنه فعرف بأنه يحضر ليبيع ما معه وأن بعض الأوشاقية تولع به فأمر بإحضاره إليه وابتاع منه نفسه ليصير من جملة مماليكه السلطانية فنزله من جملة السقاة وشغف به وأحبه حبا كثيرا فأسلمه للأمير بكتمر الساقى وجعله أمير عشرة ثم أعطاه إمرة طبلخاناه ثم جعله أمير مائة مقدم ألف ورقاه حتى بلغ أعلى المراتب فلما كبر وظهر أمره أرسل إلى بلاده وأحضر إخوته سوسون وغيره من أقاربه وأمر الجميع واختص به السلطان بحيث لم ينل أحد عنده ما ناله وزوجه بابنته وتزوج السلطان أخته فلما احتضر السلطان جعله وصيا على أولاده وعهد لابنه أبى بكر فأقيم فى الملك من بعده وأخذ قوصون المذكور فى تدبير المملكة وتصرف فى جميع الأمور وحجر على أبى بكر وضيق عليه ثم تاقت نفسه إلى الملك فأخذ فى أسباب السلطنة وأخرج أبا بكر المنصور بعد شهرين من ولايته إلى مدينة قوص بصعيد مصر فى يوم الأحد لعشرين من صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة هو وإخوته فتهتكت يومئذ نساء أبيه الناصر وكثر البكاء والعويل بالقاهرة يوم خروجه ولم يستقر به المقام بقوص حتى سير إليه من قتله وخاف قوصون أن يعجل بارتقاء كرسى السلطنة فأقام بعد الملك المنصور أخاه أبا بكر وعلاء الدين كجك ابن الناصر محمد بن قلاوون ولقب بالأشرف ولم يكمل له من العمر ثمان سنين وقيل ست وقيل خمس وتقلد قوصون نيابة السلطنة بديار مصر فأمر حاشيته وأقاربه ستين أميرا وأكثر من العطاء وبذل الأموال والأنعام فصار أمر الدولة كله بيده

هذا وأحمد ابن السلطان الملك الناصر بمدينة الكرك مقيم يراقب الفرص ويستطلع الأخبار فخاف قوصون منه وأخذ فى التدبير عليه فلم يتم له ما أراد من ذلك وحرك ساكنا فى نفس أحمد فتجرد أحمد بعد ذلك لطلب الملك وخاطب الأمراء وكاتب بعض النوّاب بالديار الشامية والسرية فأذعنوا إليه وكان بمصر من الأمراء الأمير أيدغمش والأمير آل ملك وقمارى والماردانى وغيرهم فارتاب قوصون منهم وأخذ فى التدبير عليهم فأحسوا بذلك وخافوا فوات الوقت فركبوا لقتاله وحصروه بقلعة الجبل ومازالوا حتى قبضوا عليه فى ليلة الأربعاء آخر رجب سنة اثنتين وأربعين ونهبت داره وسائر دور حواشيه وأسبابه وسير إلى الإسكندرية صحبة الأمير قلاى فقتل بها واعتقلوا السلطان الملك الأشرف بقلعة الجبل فى أوائل شعبان وبقى معتقلا إلى أن مات فى سنة ست وأربعين قال صاحب السكردان: والله أعلم كيف كان موته فكانت سلطنته خمسة أشهر وعشرة أيام .

وقام الأمير أيدغمش بأمر الدولة وتدبير المملكة وسير إلى شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون يستدعيه من الكرك ليوليه سلطنة مصر فقام على البريد فى عشرة من أهل الكرك ليلة الخميس ثامن عشرى رمضان وعبر الدور من قلعة الجبل بمن كان معه واحتجب عن الأمراء ولم يخرج لصلاة العيد ولا حضر السماط على العادة إلى أن لبس شعار السلطنة وعقد له المبايعة بينه وبين الخليفة الشيخ تقى الدين ابن السبكى وكان قد حضر يومئذ من الشام ولقب بالملك الناصر شهاب الدين وجلس على سرير الملك فى يوم الاثنين عاشر شوال من السنة فلما استقرت به السلطنة وتصرّف فى الأمور أعرض عن الأمراء وتباعد عنهم ولم يراع لهم حرمة ولا اعتبارا ومازال حتى ساءت سيرته وخبثت سريرته واشتدت الوحشة بينهم وبينه فخشى شر العاقبة وأظهر السفر إلى الكرك لترويح النفس والتخلى عن أشغال السلطنة حينا وخرج فى يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة واستخلف الأمير آق سنقر نائب الغيبة فلما وصل قبة النصر بظاهر القاهرة نزل عن فرسه ولبس ثياب العرب ومضى مع خواصه من أهل الكرك على البريد وترك الاطلاب فسارت حتى وافته بالكرك فرد العسكر إلى بلاد الخليل وأقام بقلعة الكرك ففرح الأمراء بخروجه وخلعوه فى يوم الأربعاء حادى عشر المحرم افتتاح سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فكانت سلطنته ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوما أو أربعين يوما ثم قتل فى أوائل سنة أربع وأربعين كما سيذكر فى محله .

ولما خلع الملك الناصر شهاب الدين المذكور أقاموا بعده أخاه عماد الدين إسماعيل ولقب بالملك الصالح وبايعوه فى يوم الخميس ثانى عشرى المحرم المذكور وقام الأمير أرغون زوج أمه بتدبير المملكة ومعه عدة من الأمراء فلما استقرت به السلطنة سير إلى الكرك جماعة من الأمراء وكثيرا من العساكر والأجناد لقتال الناصر محمد وكانت قد وردت إليه الأخبار بتأهب الناصر محمد لرد الملك لنفسه والاستعداد للبطش بجميع الأمراء المصريين فالتقى الجمعان واقتتل الجنود قتالا شديدا فكانت الحرب بينهم سجالا وطالت أياما كثيرة فلما كان فى أحد الأيام اشتبك القتال بين الفريقين واشتد فثبتت العساكر المصرية وقاتلت قتال الأبطال ومازالت حتى أخذت الناصر محمدا من وسط قومه فانقض عليه سيف الدين منجق اليوسفى وكان من أجناد السلحدارية واحتز رأسه فانفشل أصحابه وتمزق جمعهم وولوا مدبرين وتمت عليهم الهزيمة وعاد اليوسفى إلى مصر ومعه رأس الناصر محمد فى غلق وعاد الأمراء ومن بقى من العساكر ووصل الخبر بما جرى إلى السلطان الملك الصالح عماد الدين ففرح بالنصر وأجاز اليوسفى بالإمرة على ديار مصر فظهر نبله وصار من هذا الحين يتنقل فى مراتب الدولة حتى عظم شأنه واتسعت كلمته وكان من أمره بعيد ذلك ما سيذكر فى حينه، ولما أحضرت رأس الناصر محمد أمام السلطان الملك الصالح ووقع بصره عليها فزع وأخذه الخوف فمرض واشتد به المرض ومازال ينتابه حتى مات فى ليلة الخميس رابع عشر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة وقيل رابع ربيع الآخر وعمره نحو عشرين سنة فكانت سلطنته ثلاث سنين وشهرين وأحد عشر يوما وكان حسن السيرة لين العريكة بعيد الغضب محجورا عليه فى جميع أموره ليس له من الملك سوى الاسم فقط والأمر بيد الأمير أرغون ومن كان معه من الأمراء المصريين فقام بالأمر بعده أخوه زين الدين شعبان بعهد من أخيه ولقب الملك الكامل وجلس على تخت السلطنة من غده فلما استقرت به السلطنة تاقت نفسه إلى الاستبداد بالملك وعمل على تبعيد الأمير أرغون ومن معه من الأمراء واستمال إليه جماعة من المماليك فأحس الأمراء بفعاله ووقعت الوحشة بينه وبينهم وطال الأمر وكرهوا ما هو عليه وكبر خوفهم فركبوا عليه وتجردوا لقتاله وركب هو كذلك فى طائفة من المماليك الذين اصطفاهم لنفسه والتقى الجمعان واقتتلا فلم يثبت أصحابه عند احتدام الوطيس وخذلوه فعاد إلى قلعة الجبل منهزما فأتبعه الأمراء وساقوا خلفه وحصروه بالقلعة فى يوم الأثنين مستهل جمادى الآخرة سنة سبع

وأربعين ثم خلعوه فى اليوم المذكور فكانت سلطنته سنة واحدة وثمانية وخمسين يوما واجتمع جميع الأمراء وتشاوروا فيمن يصلح للولاية بعده فاتفقوا على تولية أخيه زين الدين حاجى فبايعوه بالملك من يومه ولقبوه بالملك المظفر، فلما تمت له البيعة واستقرت به السلطنة عبث بالأمور وأساء السيرة وخبثت منه السريرة وانهمك فى الملاذ والملاهى واللعب واستبد بالأمر وعمل على تذليل الأمراء وإبعادهم عن خدمة الدولة واختص بطائفة من الأحداث وسير الأمير سيف الدين منجك اليوسفى إلى دمشق وولاه الحجابة بها مكان ابن طوفل الحاجب فاتسعت كلمته بالشام وكبرت حرمته وعظم أمره فاستعظم الأمراء بمصر ذلك جدا وخافوا من الملك المظفر وهو يخادعهم ويظهر لهم خلاف ما يبطن ويعمل على الإيقاع بهم فلما أيسوا من الصلح تحالفوا على قتاله وركبوا جميعا عليه فركب هو كذلك فى طائفة من أصحابه واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا ومازالوا يقاتلونه حتى خذله من كان معه من المماليك وتركوه فهرب فتبعه الأمراء حتى قبضوا عليه واعتقلوه أياما ثم ذبحوه فى يوم الأحد ثانى عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة فكانت مدة سلطنته سنة وثلاثة أشهر واثنى عشر يوما لم يعمل فيها عملا يذكر، وعاد الأمراء وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فاتحدت كلمتهم على توليه أخيه بدر الدين أبى المعالى حسن بن محمد فبايعوه بالملك من يومه ولقبوه بالملك الناصر وذلك يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وله من العمر يومئذ إحدى عشرة سنة وأركب من يومه من باب الستارة بقلعة الجبل وعليه شعار السلطنة وفى ركابه جميع الأمراء إلى أن نزل بالإيوان السلطانى ومديرو الدولة يومئذ الأمير يلبغاروس والأمير الجيغا المظفرى والأمير شيخو والأمير طاز وأحمد شاد الشرابخناه وأرغون الإسماعيلى فخلع على يلبغاروس واستقر فى نيابة السلطنة بديار مصر مكان ارقطاى وقرر ارقطاى فى نيابة السلطنة بحلب وخلع على الأمير سيف الدين منجك اليوسفى واستقر فى الوزارة مع الإستدارية وقرر الأمير أرغون شاه فى نيابة السلطنة بدمشق الشام وجعل يتصرف فى الأمور على ما يشاء ولما كانت سنة تسع وأربعين وسبعمائة هجرية كثر انكشاف الأراضى من ماء النيل بالبر الشرقى فيما يلى بولاق إلى الفسطاط فاهتم رجال الدولة بسد البحر مما يلى الجيزة وفوض ذلك إلى الأمير منجك فجمع لذلك من الأهالى والأمراء من الأموال شيئا كثيرا جدا وبالغ فى العمل وطال الأمر أياما كثيرة فلم يجد نفعا وساء الحال وانقطعت الآمال من رى تلك الأراضى وتطير الناس وخافوا شر

تلك السنة فقبض السلطان على منجك المذكور فى ربيع الأول من السنة واعتقله واشتد بأسباب ذلك الغلاء وقل الوارد من الغلال وغيرها، قال بعض كتاب الأخبار: وظهر بعد ذلك الوباء واشتد وكثر الموت فى الناس كثرة بالغة فكان الفقراء يموتون فى الأزقة والحارات وعلى أبواب المساجد ولا يجدون من يحملهم وامتلأت كذلك البيوت بالموتى وبقوا أياما بغير دفن فكانت الكلاب تدخل البيوت وتأكل الأحياء من الأطفال وتشبع من جثث الأموات فكان أمرا مهولا للغاية وبقى أياما كثيرة حتى ارتفع وزال وقد تشاءم الناس من أيام السلطان الملك الناصر بدر الدين وتطيروا من حكمه فانحرفت عنه القلوب وتغيرت عليه الخواطر وقد زادهم بغضا له وحقدا عليه سوء تصرفه وعدم اكتراثه بالأمور وكراهته للأمراء فإنه لما رشد وأثبت رشده فى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة هجرية استبد بالأمر وجعل يتصرف بما فى نفسه وقبض على الأمير منجك الوزير وسجنه ورسم بالقبض على الأمير يلبغاروس نائب السلطنة بديار مصر وهو مسافر إلى الحجاز فقبضوا عليه وألقوه فى السجن وعمل على الوقيعة بالأمير شيخو العمرى ولكنه كان يخشى العاقبة لما لشيخو المذكور من الصولة والكلمة المسموعة فاتفق أن شيخو خرج متصيدا إلى ناحية طنان بالغربية فلما كان يوم السبت أربع عشرى شوال سنة إحدى وخمسين استدعى إليه السلطان جميع الأمراء واستحلفهم لنفسه فحلفوا بالطاعة والوفاء فكتب عند ذلك تقليدا للأمير شيخو بنيابة طرابلس وجهزه إليها مع الأمير سيف الدين طينال الجاشنكير فسار إليه وأخذه من طينال ولم يمكنه من العود إلى القاهرة فوصل إلى دمشق ليلة الثلاثاء رابع ذى القعدة ولم يستقر به المقام حتى ظهر مرسوم السلطان ببقاء شيخو بدمشق على أقطاع الأمير بيلبك السالمى وتجهيزه إلى القاهرة فخرج بيلبك من دمشق وأقام شيخو على إقطاعه فما وصل بيلبك إلى القاهرة إلا وقد وصل دمشق مرسوم السلطان بإمساك شيخو وتجهيزه إلى السلطان مقيدا وتقييد مماليكه واعتقالهم بقلعة دمشق فقبض عليه وسير إلى القاهرة مكبلا بالقيود، ولما وصل إلى قطيا ساروا به منها إلى الإسكندرية فلم يزل معتقلا بها إلى أن خلع السلطان الملك الناصر حسن وتولى أخوه الملك الصالح فأفرج عنه وعن منجك الوزير وعدة من الأمراء فوصلوا إلى القاهرة فى رابع رجب سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة وكان من أمره بعد ذلك ما سيذكر فى محله إن شاء الله قال أصحاب التاريخ: وشيخو هذا هو الأمير الكبير سيف الدين أحمد أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون حظى عند الملك المظفر

حاجى بن محمد بن قلاوون وزادت وجاهته حتى شفع فى الأمراء وأخرجهم من سجن الإسكندرية ثم إنه استقر فى أول دولة الملك للناصر حسن أحد أمراء المشورة ثم ترفع إلى أن صارت القصص تقرأ عليه بحضرة السلطان فى أيام الخدمة وصار زمام الدولة بيده فساسها أحسن سياسة بسكون وعدم شره وكان نافذ الكلمة مسموع الرأى صائب الفكر ميالا إلى الدعة والسكون والتأليف بين الأحزاب فأحبه الأمراء ومالوا إليه وأخذوا بقوله فلم يخالفوا له كلمة، واشتدّ السلطان الملك الناصر على بقية الأمراء والعمال بالجهات وضيق عليهم وقبض على الأمير المجاهد صاحب اليمن وأتى به إلى القاهرة مقيدا بالحديد وألقاه فى السجن أياما ثم أطلقه ثم عاد فقبض عليه وسيره إلى قلعة الكرك وسجنه بها فامتلأت قلوب الأمراء كافة حقدا عليه واجتمعوا وتحالفوا على قتاله فلما كان يوم الأحد سابع عشرى جمادى الآخرة ركبوا لقتاله وهم طاز وإخوته ويلبغا الشمسى وبيبغوا ووقفوا تحت القلعة وصعد الأمير طاز وهو متقلد سلاحه إلى قلعة الجبل فى عدة وافرة من الجند وقبضوا على السلطان فى الحال وسجنوه بالدور الأسفل من القلعة فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر.

ثم أقاموا بعده أخاه صلاح الدين صالح وبايعوه فى يوم الأثنين ثامن عشر جمادى الآخرة وطيروا الأخبار بذلك إلى الآفاق وبقى السلطان الملك الناصر أبو المعالى حسن معتقلا مؤثرا الاشتغال بالعلم، قال بعض الكتاب: وكتب بخطه نسخة من كتاب دلائل النبوة للبيهقى فكانت حسنة وكان لا يتحرش فى الظاهر لشىء من أمور الدولة ولا لشىء من أحوالها وكان يظهر غاية الرضا عن الحالة التى هو عليها. أما السلطان الملك الصالح صلاح الدين فإنه لم يستقر به الملك حتى كثر لهوه وخرج عن الحد فى التبذل والعبث بمصلحة الدولة وأمور المملكة وكان هو الثامن ممن تولى الملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم جعل يبطل ما أمضاه أخوه فرسم بالإفراج عن الأمير شيخو والأمير منجك من معتقلهما بمدينة الإسكندرية فحضرا إلى القاهرة فى رجب سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة ونزل الأمير منجك بالإشرفية من قلعة الجبل وكان السلطان الملك الناصر قد صادره وأخذ جميع أمواله وفرق أملاكه على بعض المماليك السلطانية فلما استقر بالأشرفية بعث إليه الأمير شيخو خمس رؤوس خيل وألفى دينار وبعث إليه أيضا جميع الأمراء بالتقدمات والهدايا وأقام لا يعمل عملا ولا رجع إلى خدمة الدولة فكان يجلس

على حصير فوق ثوب سرج عتيق وكلما أتاه أحد من الأمراء يبكى ويتوجع ويقول انظروا كيف أخذوا جميع مالى حتى صرت على ما ترونى ثم كتب فتوى تتضمن أن رجلا مسجونا فى قيد هدد بالقتل إن لم يبع أملاكه، وأنه خشى على نفسه القتل فتوكل فى بيعها فأفتاه الفقهاء بأنه لا يصح بيع المكره فتقدم الأمراء إلى السلطان فى أمزه وفى رد أملاكه عليه فعارضهم فى ذلك الأمير صرغتمش ثم قبل السلطان أن يرد عليه من أملاكه ما أنعم به السلطان على مماليكه فاسترد عدة أملاك وأقام إلى أن قام يلبغاروس بحلب وخرج عن طاعة السلطان فاختفى منجك بعد ذلك وحسب السلطان ماوراء اختفائه فطلبه فلم يجده فأمر بإطلاق النداء عليه بالقاهرة ومصر وفتش عليه وهدّد من أخفاه وألزم عربان العايد باقتفاء أثره فلم يوقف له على خبر وكبسوا عليه عدة أماكن بالقاهرة ومصر وفتش عليه حتى فى داخل الصهاريج التى بالجامع الذى بناه فأعياهم أمره وأدرك السلطان السفر لحرب يلبغاروس بحلب لخروجه فأخذ يتأهب لذلك إلى يوم الخميس رابع شعبان فخرج الأمير طاز وعرض الأمير شيخو والأمير صرغتمش أطلابهما وقد وصل الأمير طاز إلى مدينة بلبيس فحضر إليه من أخبره أنه رأى بعض أصحاب منجك فسير إليه وأحضره وفتشه فوجد معه كتاب منجك إلى أخيه يلبغاروس بحلب وفيه أنه مختف عند الحسام الصفدى استاداره فبعث الكتاب إلى الأمير شيخو فوافاه والأطلاب خارجة فاستدعى بالحسام وسأله فأنكر فعاقبه الأميرصرغتمش فلم يعترف فركب إلى بيت الحسام بجوار الجامع الأزهر وهجمه وإذا منجك ومعه مملوك فشدّ وثاقه وسار به مشهرا بين الناس وقد هرعوا من كل مكان إلى قلعة الجبل فسجن بالإسكندرية ثانية إلى أن شفع فيه الأمير شيخو فأفرج عنه فى ربيع الأول سنة خمس وخمسين ورسم له أن يسيرا إلى صفد فسار إليها من غير أن يعبر إلى القاهرة ولم يتم خروج السلطان لقتال يلبغاروس حتى دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وظهر الطاعون بمصر واشتد شدة بالغة فكثر الموت فى الناس وعم فتأخر السلطان الملك الصالح عن المسير لقتال يلبغاروس بحلب وتعطلت أعمال الدولة بسبب اشتداد الطاعون وكثرة الموت وأصاب الطاعون الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله فمات ولم يعهد لأحد بالخلافة بعده فجمع الأمير شيخو جميع الأمراء والقضاة وأهل الحل والعقد وكان قد رجع إلى خدمة الدولة بعد الاعتقال وتولى مسند الحل والعقد وطلب جماعة من بنى العباس ليرى من هو أصلح للإمامة وتولى منصب الخلافة فوقع الاختيار على أخيه أبى بكر بن

المستكفى فكانت خلافة الحاكم بأمر الله نحو اثنتى عشرة سنة وكانت أحواله كلها شدة وعيشته فى ضيق لعدم كفاية المرتبات المعينة لمنصب الخلافة.

(الفصل السادس)

(فى خلافة المعتضد بالله أبى الفتح بن أبى بكر المستكفى بالله)

ثم قام بالخلافة بعد الحاكم بأمر الله أخوه المعتضد بالله أبو الفتح بويع بغير عهد وقيل بعهد من أخيه الحاكم بأمر الله وهو أبو الفتح بن أبى بكر المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ابن الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد بن أبى علىّ بن المسترشد بالله العباسى ولقب بالمعتضد وكنى أبا الفتح وذلك سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة هجرية أى نحو سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة ضم إليه نظر المشهد النفيسى ليستعين بما يرد إلى ضريح السيدة نفيسة من نذر العامة على تقويم أوده. قال كتاب الأخبار: لأن مرتب الخلفاء كان إلى هذا الحين على مكس الصاغة لا غير وحسبه أن يقوم بما لابد منه من قوتهم فكانوا أبداً فى عيش ضيق فحسنت نوعاً حالة الخليفة المعتضد بما كان يبيعه من الشمع المحمول إلى المشهد ونحوه وصار فى رغد من العيش وكان إلى ما بعد تولية المعتضد الخلافة بأيام قد ارتفع الطاعون وزال من جميع البلاد فجعل السلطان الملك الصالح يتأهب لقتال يلبغاروس بحلب وأمر فنادوا فى الجند بالخروج إلى ظاهر القاهرة فصاروا يخرجون أطلابا والسلطان يستحث الأمراء ويشدد عليهم وهم يتلكئون ويظهرون غير ما يبطنون وطالت أيام النداء فى العسكر بالخروج وعظم بغضهم لنصرة السلطان الملك الصالح على يلبغاروس وكره الأمراء السلطان وظهر بغضهم له فأهمل لذلك التجريدة وبطلت أو كادت وتشاغل السلطان عنها باستمالة العامة واسترضائهم ليكونوا له عوناً على الأمراء إذا ركبوا عليه وخرجوا عن طاعته فعرف العامة منه ذلك وأخذت منهم الخيلاء فجعلوا يطلبون من السلطان المطاليب الكثيرة وتقدم إليه جماعة منهم فى طلب أخذ جميع الأملاك الموقوفة على الديارات والكنائس بمصر وأعمالها وألحوا فى الطلب فمال السلطان إلى قولهم وأحال الأمر على ديوان الأحباس فوجد أن للنصارى أوقافاً تبلغ زهاء الخمسة وعشرين ألف فدان كلها موقوفة على الكنائس والديارات فلما عرضوا ذلك على الأمير شيخو والأمير طاز

والأمير صرغتمش وهم القائمون بالأمـر يومئذ قرروا بأن تضاف جميع هذه الأطيان إلى أقطاعات الأمراء وتنزع من أيدى النصارى فانتزعوها واشتد الحال على النصارى بعد ذلك شدة عظيـمة وعاد العامة إلى تخريب الكنائس وهدم الديارات كـما فعلوا فى أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فـهدموا عدة كنائس بمصر والقاهرة وخـربوا عدة أخـرى وخرج الحـاجب والأميـر عـلاء الدين على بن الكورانى والى القاهرة إلى ناحيـة شبرى الخيام من ضواحى مـصر فهدموا كنيسة بهـا وأخذوا منها أصبع الشهـيد وأحضروه إلى الملك الصـالح فرسم بإحراقه فـأحرق بين يديه وذرى رمـاده فى البحـر. قال بعض كتاب الأخـبار: فبطل عيد الشهيد من يومـئذ واشتد العامـة على النصـارى شدة بالغـة وتطاولت أيديهم إلى السلب والنهب وغـير ذلك والسلطان لا يرد للعامة كلمة ولا يوقفهم عند حدّ إرضاء لهم والأمراء فى شاغل بما يدبرونه للسلطان وظل الحـال هكذا أيامـاً ثم سكنت الفتنة وعـادت الأمور إلى مـا كانت عليه وعاد السلطان إلى الاهتمام بتجـريد العسكر لقتال يلبغاروس بحلب وهم بتوليـة موفق الدين مسند الوزارة وهو قبطى مـرتد فعارضه الأمـراء فى ذلك وطلبوا تولية علم الدين وهو قـبطى مرتد كذلك فامـتنع السلطان من قبوله وعـارض فشدد الأمراء فى الطلب وانضم بعضهم إلى بعـض واتحدوا على إكراه السلطان على تولية علم الدين المذكور وإلا خلعوا السلطان وترددت الرسل بين الفـريقين وأشتد الخلاف وطال الحال أياماً فبطل الاهتمام بأمر التجريدة ثانية وتحرز السلطان من الأمراء وجمع إليـه مماليكه الذين اصطفاهم لـنفســه فلما كـان يوم الاثنين ثانى شوال سنة خـمس وخمسـين ثار عليه الأميران شـيخو وطاز وقبـضا عليه وسجناه بقلعـة الجبل فكانت سلطنته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام وهذا عجيب فى الاتفاق ثم اتحدت كلمة الأمراء على إرجاع السلطان الملك الناصر حسن فأخـرجوه من معتقله وأجلسوه على تخت السلطنة فى يوم الاثنين المـذكور فكانت مدة سـجنه بقلعة الجـبل ثلاث سنين وثلاثة أشهـر وأربعة عـشر يوماً فلمـا استـقر به المنصب وتصـرف فى الأمور رسم بالقبض على الأمـير طاز فأمـسك وأخرج إلى الديار الشـامية ثم جـعل يأمر وينهى ويتصـرف فى الملك مستبـداً فهابه الأمـراء واتسعت كلمتـه وكبرت شهـرته وضرب الفلوس الجدد فعمل كل فلس زنة مثقال وكان كـثير البغض للأمراء شديد الرغبة فى الإيقاع بهم والتخلص من شرهم فكان لا ينكف عن تذليلهم والنكاية بهم وتفريقهم عن بعض فاشتد بغضـهم له وجعلوا يدبرون على قتله والتخلص منه، ومـا دخلت سنة اثنتين وستـين وسبعمائة حتى ظهـر الطاعون بمصر والقاهرة واشتد وفـشا فكثر

الموت فى الناس والدواب أيضاً وعظم أمره ومات خلق كثير للغاية فخرج السلطان فى طائفة من مماليكه وعدى إلى بر الجيزة وأقام بناحية كوم برا فراراً من الطاعون وخرج معه الأمير يلبغا فى طائفة من عسكره وخيم على مقربة من خيام السلطان لحراسته فراسله الأمراء فى قتله فأجابهم إلى ذلك وجعل يخالف أمر السلطان ويقبح فعاله فاستعظم السلطان منه ذلك وكبر عليه الأمر ومازالا يتنازعان والأمير يلبغا يراقب الفرص ليغتاله إلى ليلة الأربعاء تاسع جمادى الأولى ركب السلطان فى جماعة من أصحابه ليكبس على الأمير يلبغا فى خيمته ويقتله فأحس يلبغا بذلك فخرج عن الخيام وكمن بمكان وهو لابس آلة حربه فى جماعة من قومه فلم يظفر السلطان به ورجع فثار به يلبغا وهجم عليه بمن معه فانكسر السلطان وفر يريد قلعة الجبل فتبعه يلبغا وقد انضم إليه جماعة من الأمراء وغيرهم ممن لا يحبون السلطان فدخل السلطان إلى القلعة وصار يقاتل مع طائفة من مماليكه أياماً وراء السور ثم أحس بالكسرة وأنه على وشك أن يؤخذ فنزل متخفياً ومع أيدمر الدوادار يريد الخروج إلى الشام وسارا إلى بيت الأمير شرف الدين موسى بن الأزكشى أمير حاجب يريدان الاختفاء به حتى يتيسر لهما الخروج فبعث شرف الدين المذكور إلى الأمير يلبغا يعلمه بمجيء السلطان إليه فبعث يلبغا فى الحال من قبض عليه هو والأمير أيدمر ومن ذلك الوقت لم يوقف له على أثر ألبتة مع كثرة تفتيش أتباعه وحواشيه على قبره وما آل إليه أمره فكانت مدة ولايته الثانية ست سنين وسبعة أشهر وأياماً، قال أصحاب الأخبار: واشتد فى أيامه على القبط بمصر ورشيد بغير سبب فضيق عليهم وأبعدهم عن خدمة الدولة فلاطفه كبارهم لعله يرتدع فلم يقلع عما هو عليه فعاكسوه وأتعبوه وبالغوا فى تسفيهه والازدراء به فهمّ بالإيقاع بهم فلم يظفر لبغض الأمراء له وكراهة طوائف المماليك له فعاد إلى ملاطفتهم واستمالتهم فلم يفلح لتفاقم الخطب واشتداد النفرة منه وما زال كذلك حتى قبض عليه وقتل.

وبنى فى أيامه جامعه المشهور وهو تحت قلعة الجبل فيما بين القلعة وبركة الفيل وكان موضعه بيت الأمير يلبغا. قال صاحب الخطط: وابتدأ السلطان عمارته فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة وأوسع دوره وعمله فى أكبر قالب وأحسن هيئة وأضخم شكل ولا يعرف فى بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع أقامت العمارة فيه مدة ثلاث سنين لاتبطل يوماً واحداً وأرصد مصروفها فى كل يوم عشرين ألف درهم عنها نحو ألف مثقال ذهبا. قال: ولقد أخبرنى الطواشى مقبل الشامى أنه سمع السلطان حسناً يقول أنفق على القالب الذى بنى عليه عقد الإيوان

الكبيـر مائة ألف درهم نقـرة وهذا القالب مما رمى على الـكيمان بعـد فراغ العـقد المذكور. قال: وسمعت السلطان المذكور يقول لولا أن يقال ملك عجز عن إتمام بناء بناه لتركت بـناء هذا الجامع من كثـرة ما صرف عليـه وفى هذا الجامع عـجائب من البنيان منها أن ذرع إيوانه الـكبير خمسة وسـتون ذراعاً فى مثلها ويقـال إنه أكبر من إيوان كسرى الذى بالمدائن من العراق بخمســة أذرع ومنها القبة العظيمة التى لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها ومنها المنبر الرخام الذى لا نظير له ومنها البوابة العظيمة ومنها المدارس الأربع التى بدور قاعة الجامع إلى غير ذلك وكان السلطان قد عزم على أن يبنى أربع منائر يؤذن عليهـا فتمت ثلاث منائر إلى أن كان يوم السبت سادس شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وسـتين وسبعمائة فسقطت المنارة التى على الباب فـهلك تحتهـا نحو ثلثمـائة نفس من الأيتام الذين كانوا قـد رتبوا بمكتب السبيل الذى هناك ومن غير الأيتام وسلم من الأيـتام ستة أطفال فأبطل السلطان بناء هذه المنارة وبناء نظيرتها وبقى هناك منارتان قـائمتان إلى اليوم. ولما سـقطت المنارة المذكورة لهجت العـامة بمصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة فقـال الشيخ بهاء الدين أبو حامد أحمد بن على بن محمد السبكى فى سقوطها هذه الأبيات :

أبشر فـسعـدك يا سلـطان مـصر أتى	بشـيـره بمـقـال سـار كـالمـثل
إن الـمـنـارة لم تسـقط لمنــقـصـة	لكن لسر خـفـىّ قـد تبـين لى
من تحتـها قـرئ القرآن فاستمــعت	فـالوجـد فى الحـال أداها إلى الميل
لـو أنـزل الله قـرآنـا على جـبل	تصدعّت رأسه من شدة الوجــل
تلك الحجـارة لم تنقض بل هبـطت	من خشيـة الله لا للضعف والخـلل
وغاب سلطانها فاستوحشت ورمت	بنفسها لجوى فى القلب مشتـعل
فـالحــمـد لله حـظ العـــين زال بما	قد كان قــدّره الرحمن فى الأزل
لا يعترى البؤس بـعـد اليوم مدرسة	شـيدت بنيانـها بالعـلم والعــمل
ودمت حتى ترى الـدنيا بها امتلأت	علما فليس بمصر غيـر مشتــغل

قال فاتفق قتل السلطان بعد سـقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوما، ومـات السلطان قبل أن يـتم رخام هذا الجـامع فأتمه بعـده الطواشى بشيـر الجمـدار وكان قد جـعل السلطان لهذا الجامع أوقافـاً عظيمة فلم يترك منها إلا شىء يسيـر وأقطع أكثر البلاد التى وقفت عليه بديار مصر والشام لجماعة من الأمراء وغيرهم وصار هذا الجامع فى

مقابلة قلعــة الجبل لأنه قلما تكون فتنة بين أهل الدولة إلا ويصعــد عدة من الأمراء وغيرهم إلى أعلاه ويصير الرمى منه على القلعة، فلما كان فى سلطنة الملك الظاهر برقـوق لم يحتـمل ذلك وأمر فـهدمت الدرج التـى كان يصـعد منهـا إلى المنارتين والبيـوت التى كان يسكنها الفـقهاء ويتوصل مـن هذه الدرج إلى السطح الذى كان يرمى منه على القلـعة وهدمت البـسطة العظيـمة والدرج التـى كانت بجـانبى هذه البسطة التى كانت أمـام باب الجامع حتى لايمكن التسـور إلى الجامع وسدّ من وراء الباب النحاس الذى لم يعـمل فيما عهـد باب مثله وفتح شباك من شـبابيك إحدى مدارس هذا الجـامع ليتوصل منه إلى داخل الجامع عـوضاً عن الباب المسـدود فصار هذا الجامع تجاه باب القلعة المعروف بباب السلسلة وامتنع صعود المؤذنين إلى المنارتين وبقى الأذان على درج هذا الباب، قـال المقريزى: وكان ابتداء هدم مـا ذكر فى يوم الاحد ثامن صفر سنة ثلاث وتسعين وسـبعمائة ولما شرع السلطان الملك المؤيد شيخ فى عمارة الجامع بجوار باب زويلة اشـترى هذا الباب النحاس والتنور النحاس الذى كان معلقـاً فى الجامع المذكور بخمسـمائة دينار ونقلا فى يوم الخميس سـابع عشرى شوال سنة تسع عشرة وثمانمائة فـركب الباب على البوابة وعلق التنور تجاه المحراب. فلما كان يوم الخميس تاسع شهر رمضـان سنة خمس وعشرين وثمانمائة أعيد الأذان فى المئذنتين كـما كان وأعيد بناء الدرج والبـسطة وركب باب بدل الباب الذى أخذه المؤيد واستمر الأمر على ذلك.

ولما مات السلطـان الملك الناصر حسن المذكـور اجتمـع الأمراء وتشاوروا فـيمن يولونه السلطنة بعـده فوقع اختيـارهم على ابن أخيه السلطان الملك المنصـور صلاح الدين محمد بن المظفـر حاجى بن محمد بن قلاوون وعمره يومـئذ أربع عشرة سنة فبـايعوه فى يوم الأربعاء تاسع جـمادى الأولى سنة اثنتين وسـتين وسبعـمائة ولقب بالملك المنصور وركب من يومه فى دست السلطنة وصعـد إلى قلعة الجبل فى كيكبة عظيمة للغاية، ولما استقر به المنصب قام بالأمر يلبغا وأخذ فى تدبير الملك والتصرف فى الأمور فأمر ونهى واسـتبد فاتسعت كلمته وعظمت سطوته وهابه الأمـراء جميعاً وتمكن من الملك كل تمكن ودانت له الأمور فلما بلغ السلطان الملك المنصور أشده لم يطق الصبر على فعال يلبغا وتاقت نفسه إلى الاسـتبداد بالملك فجعل يستعمل الحيلة فى نزعه من يد يلبـغا ويستـميل إليه الأمـراء وطوائف المماليك ويعـمل على تقرب العامة منه فلم يفلح وكان من أمره ما سيذكر فى محله.

ولما دخلت سنة ثلاث وستين وسـبعمائة مرض الخليفة المعـتضد بالله أبو بكر بن

المستكفى بالله وطال مرضه واشتدت علته إلى ليلة الأربعاء ثامن عشر جمادى الأولى مات فى داره بالكبش فكانت خلافته نحو عشر سنين. قال بدر الدين فى ترجمة الخليفة المذكور هو أمير المؤمنين، وقائد المذعنين وإمام الأئمة وقدوة المتكلمين فى براءة الذمة علت أركانه، وبسطت أغصانه وتجملت به ديار مصره، وصغت إلى رأيه ملوك عصره رأس وساد ومنح وأفاد، ورفل فى حلل النعيم، وهدى إلى سلوك الطريق المستقيم، واعتضد بالله فى أموره ولم يخف عن الناس بحجبه ولا ستوره واستمر سائراً فى منهاج عزه وبقائه إلى أن لحق بعد عشرة أعوام بالخلفاء الكرام من آبائه، وكان الخليفة المعتضد المذكور يقنع بالكفاف حسن السيرة حج مرتين إحداهما سنة أربع وخمسين والثانية سنة ستين وكانت أمور عيشه متيسرة وفى خلافته سعى المتأصلون فى إقامة بطرك لهم بعد تلك العطلة التى وقعت بسبب القس داود بن لقلق التى تقدم بيان حوادثها واتحدت كلمتهم فى هذه المرة على إقامة القس داود المذكور فعمل كبارهم على تقليده المنصب وألحوا وأكثروا الطلب حتى تم له الأمر فكان خامس سبعى بطاركة الاسكندرية وهو من مدينة الفيوم، فلما استقر به المنصب أحسن السياسة وقام بواجب الرياسة وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل السابع)

(فى خلافة المتوكل على الله أبى عبد الله محمد)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة المعتضد ابنه أبو عبد الله محمد بعهد من أبيه فى يوم الخميس ثانى عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة هجرية أى نحو سنة إحدى وستين وثلثمائة وألف ميلادية ولقب بالمتوكل على الله وخلع عليه من يومه بين يدى السلطان الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر حاجى وفوض إليه نظر المشهد النفيسى على ما كان عليه أبوه من قبل وفوض هو إلى السلطان الملك المنصور التصرف فى أمور المملكة ومهام الدولة وأشهد على نفسه بذلك فزادت رغبة السلطان من حينئذ فى الاستبداد بالأمر والتخلص من يلبغا وعظم عليه ما هو فيه من الحجر والتقييد وتجرد لمعاداة يلبغا وإيقافه عند حده وجعل يستميل بعض الأمراء وأصحاب الكلمة وأجزل العطاء إلى طوائف المماليك ليكونوا له عوناً على يلبغا كل هذا ويلبغا لا يلتفت إليه ولا يهتم به حتى ظن السلطان أنه بلغ المنشود وتم له المقصود، فلما

كان يوم الاثنين رابع عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة ركب الأمير يلبغا فى نفر من أصحابه وصعد إلى قلعة الجبل وقبض على السلطان الملك المنصور ففر من كان حوله من الأجناد والمماليك وتركوه فخلعه يلبغا فى الحال وسجنه بالقلعة من يومه فكانت سلطنته سنتين وأشهراً وبقى مسجوناً إلى أن مات لسنة إحدى وثمانين وسبعمائة هجرية، وفى اليوم الثانى من خلع السلطان الملك المنصور اجتمع يلبغا مع الأمراء وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فاتفقت كلمتهم على تولية ابن عمه زين الدين أبى المعالى شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون ولقب بالملك الأشرف وعمره يومئذ عشر سنين قال أصحاب التاريخ: ولم يل من بنى قلاوون من أبوه لم يتسلطن سواه وقام الأمير يلبغا بتدبير الملك والتصرف فى جميع الأمور على ما كان عليه أيام الملك المنصور وزيادة ولبث على هذا الحال زهاء الأربع سنين وقد عظم شأنه وكبر عدم اكتراثه بالأمور وزاد احتقاره لكبار الدولة واستخفافه برجال السلطنة وكثرت مماليكه المعروفة بالخاصكية وساروا بسيرته فعاثوا وجاروا وظلموا الرعية وتطاولت أيديهم إلى أموال الناس واستحلوا ما لا يحل، وظهر القحط فى هذه الأيام بمصر وعم جميع المدن والقرى فأكل الناس الكلاب والقطط والميتة وجذور الأشجار واشتد الحال شدة بالغة واتصل بالديار الشامية وتفشى فيها فضج الناس وعجوا وأكثر أهل مصر من الاستغاثة والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى وذهب جماعة إلى دار الأمير يلبغا ورجموه بالطوب وصاحوا ما يحل لك أن تطلق المماليك يعيثون فى الأرض وقد ابتلانا الله بسبب فعالهم بالقحط فعظم الأمر على يلبغا وتطير من ذلك ولبث الحال على هذه الشدة أياماً كثيرة حتى أكل بعض الناس أولادهم وفشا هذا الأمر بينهم فلم يبق منكورا ثم ارتفع القحط فعمد الأمير يلبغا إلى إيقاف مماليكه عند حدهم وكف أذاهم عن الرعية وشدد فى ذلك وبالغ فى العقوبة فانحرفت خواطرهم عنه وتوغرت صدورهم منه وزالت عنهم هيبته فاتفقوا على قتله وجعلوا يراقبون الفرص فلما كان فى بعض الأيام كبسوه بداره التى فى الكبش وهم فى عدة عظيمة وقتلوه ونهبوا ما فى داره من حلى وملبوس ففرح السلطان الملك الأشرف بموته وظن كمال استقلاله بالملك فقام الأمير استدمر الناصرى أحد مماليك يلبغا المذكور وضم هؤلاء المماليك إليه تولى الإمارة عليهم ونادى السلطان الملك الأشرف بالشر وكاشف أولئك المماليك بما فى سره فقويت قلوبهم واشتدت عزيمتهم وتجردوا إلى نزع الملك من آل قلاوون ثم لم يلبثوا أن ركبوا جميعاً لقتال الأشرف وركب الأشرف لقتالهم ومعه المماليك السلطانية واقتتل الفريقان وطالت الحرب بينهم أياماً ومازالوا حتى انهزم استدمر وجميع الخاصكية وانتصر

الأشرف عليهم نصرة مؤزرة وقبض على كثير منهم فقتل طائفة وأغرق طائفة وأبعد طائفة وبقى منهم بمصر جماعة التجئوا إلى بعض الأمراء. قال بعض كتلب الأخبار: وكان هؤلاء المماليك مختلفى الأجناس غلاظ الطباع أشقياء لا دين لهم ومنهم الأمير صرغتمش واستدمر والجاولى اليوسفى ولم يزل من بقى منهم فى اختلاف ومقت وهياج وحقد للدولة إلى أن تحيلوا وعادوا إلى خدمة الدولة واتفقوا على أن طائفة منهم تسكن بالطباق وأن يدخلوا فى سلك مماليك الأسياد يعنى أولاد السلطان ففعلوا ومنهم من بقى أمير عشرة ومنهم من انضم إلى المماليك السلطانية ومماليك الأمراء وظهروا بعد الانكماش فكانوا أرذل مذكور فى الديار المصرية وعادوا إلى العمل على الإيقاع بالسلطان ونزع الملك من ذلك البيت.

فلما كانت سنة ثلاث وستين وسبعمائة عزم السلطان الملك الأشرف على الحج وأخذ فى الأسباب فانتهز عند ذلك أولئك المماليك الفرصة وكتموا أمرهم وتواعدوا مع أصحابهم الذين تأهبوا للخروج وفى خدمة السلطان على أنهم يثيرون الفتنة مع السلطان فى العقبة وكذلك المقيمون بمصر يخرجون فينقضون نظام الدولة ويحدثون الفوضى ويزيلون السلطان وجميع الأمراء ويستبدون هم بالملك فيفعلون ما يستحسنون وخرج السلطان من مصر يريد الحجاز وهو فى أبهة عظيمة للغاية وتجمل زائد فى عدة وافرة من الأطناب وقد رتب قبل خروجه الأمور واستخلف بمصر والثغور من يثق بهم فى خدمته وأخذ معه من أولئك المماليك من لا يظن فيه الخيانة وكان بينهم جملة من المماليك الأخر فلم يبعد عن مصر إلا قليلاً حتى قام من كان بها منهم وأثاروا الفتنة واستمالوا إليهم جماعة من المماليك السلطانية ونادوا بموت السلطان الملك الأشرف وأقاموا ابنه بدلاً منه ولبثوا منتظرين فعل أصحابهم الذين هم فى خدمة السلطان أما هؤلاء فإنهم لما وصلوا إلى العقبة ثاروا على السلطان فقاتلهم واشتد القتال بين الفريقين أياماً فكانت الحرب بينهم سجالاً ثم انهزم السلطان بعد أمور طويلة وطلب العود إلى مصر وصحبته كبار الأمراء وبعض مماليكه الذين اصطفاهم فنهب الخاصكية الخزينة السلطانية وما فيها ونهبوا جميع ركاب الحج وأخذ بعضهم ما سلبه وسار إلى الشام والبعض إلى الحجاز والبعض إلى مصر وعاد نساء السلطان إلى مصر فى أسوء حال وأشد ضيق وقد ذبح الكثير من الأمراء فى هذه الوقعة وتتبعوا السلطان فلحقوه عند قلعة الجبل فانتشب القتال بينه وبينهم واشتد وقاتل السلطان قتال الأبطال وطال الحال أياماً اختل فيها نظام الدولة وعاث أهل الفساد وكثرت العربدة بمصر والقاهرة والقرى القريبة وارتفع الأمن وعم الخطف فانكف الناس عن الخروج إلى الأسواق وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وقاتل

أهل الأطراف العامة من فوق أسطحة البيوت ومازال الحال هكذا حتى قبض الخاصكية على السلطان وقد تفرق عنه من بقى من أصحابه وسجنوه أياماً قلائل ثم خنقوه ونهبوا جميع بيوت الأموال وذخائر السلطان واقتسموا محاظيه وكذلك فعلوا بأموال وذخائر ومحاظى جميع الأمراء وأزالوا عن الدولة القلاوونية عزها ورونقها وأذهبوا بهجتها وكان قتل السلطان الملك الأشرف فى يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة فكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة وشهرين وخمسة عشر يوماً وأنشأ فى أيامه قصره المعروف بالأشرفية تحت قلعة الجبل سنة اثنتين وتسعين وستمائة ولما فرغ منه صنع فيه أفراحاً عظيمة للغاية لم يعمل مثلها فى الدولة التركية وختن أخاه الملك الناصر محمد بن قلاوون وابن أخيه الأمير موسى بن الصالح علىّ ابن قلاوون وجمع سائر أرباب الملاهى وجميع الأمراء ونثر عليهم الذهب وخلع عليهم الخلع السنية.

ولما مات السلطان الملك الأشرف اجتمع أصحاب الكلمة من الأمراء وهم قرطاى وأيتبك وغيرهما وكتبوا إلى الخليفة المتوكل بالله العباسى يطلبون منه أن يبايع من يشاء بالملك فكتب يقول اختاروا من بينكم من تشاؤون وأنا أبايعه فوقع اختيارهم على ابن الملك الأشرف علاء الدين وعمره يومئذ سبع سنين فبايعوه ولقب بالملك المنصور وكان الأمير طشتمر رأس الفتنة وزعيم الخاصكية الذين ثاروا على السلطان الملك الأشرف بالعقبة قد تأخر بسبب ركب الحاج فلما وصل إلى القاهرة أرسل إليه قرطاى إنك قد استقريّت فى نيابة دمشق فسر إلى الشام فرأى العجز فتوجه إلى دمشق كارها وجعل قرطاى يتصرف فى الدولة ويستبد بالملك حتى علت كلمته ودانت له الأمور وعظمت شوكته فأبغضه الأمراء وحقدوا عليه وأخذوا يراقبون الفرص ليفتكوا به، فلما كان فى أحد الأيام قام أيتبك فى نفر من أصحابه وأمسك قرطاى المذكور وغدر به واستقل بالحكم وتصرف فى الأمور وطير الخبر بذلك إلى الآفاق فلما علم بالخبر الأمير طشتمر نائب دمشق شق عليه وكاتب نائب حلب وبقية نواب الشام واستنجدهم على قتال أيتبك فأجابوه إلى ذلك وركب إليه اشغتمر نائب حلب ومعه العساكر الحلبية واجتمع الكل بدمشق قاصدين الديار المصرية وجاءت الأخبار بذلك إلى أيتبك فسير عسكراً لقتالهم وخرج هو كذلك ومعه السلطان وبعض الأمراء وكان بين أيتبك وبين الأمير برقوق والأمير بركة شقاق وهما يراقبان الفرص للغدر به فلما وصل ايتبك إلى أول منزلة ركب عليه المذكوران فى نفر من خواصهما يريدان البط به فهرب نحو القاهرة وانفشل العسكر ورجع السلطان والأمراء وكتب برقوق وبركة إلى طشتمر إنك تحضر أميراً كبيراً للقاهرة فأجاب إلى

ذلك وتفرقت العسكر من دمشق وسار طشتمر إلى مصر فلاقاه برقوق وبركة ودخل القاهرة في موكب حافل واستقر أميراً كبيراً بمصر وأخذ يتصرف فى أمور الدولة فلما رأى برقوق من اتساع كلمة طشتمر وإقبال الدنيا عليه بحذافيرها حسده وندم على تسليمه مقاليد المملكة وتاقت نفسه إلى الملك وكان غاية فى المكر والدهاء صبوراً حازماً مدبراً مولعاً بالاستقلال فجعل يدبر لنفسه ويستميل كبار القوم حتى جاء عيد الأضحى من سنة تسع وسبعين وسبعمائة فركب فى طائفة من أصحابه على طشتمر وأمسكوه واستقر برقوق يحكم البلاد وتصرف فى أمور الدولة فعلت كلمته وكبرت شهرته وطار صيته وهابه الأمراء ومازال على هذا الحال من الشهرة والمجد حتى مات السلطان الملك المنصور فى سلخ ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة هجرية بعد أن حكم أربع سنين وأربعة أشهر فجمع برقوق الأمراء كافة وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فاتفقت كلمتهم على تولية زين الدين حاجى أخى الملك المنصور وله من العمر يومئذ ست سنين فبايعوه من يومه ولقبوه بالملك الصالح وأركبوه فى دست السلطنة فلم يكن له منها سوى الاسم والكلمة للأمير برقوق ولبث الأمير برقوق بعد ولاية السلطان الملك الصالح زين الدين سنة ونصف سنة يعمل على إعلاء كلمته وتوسيع شهرته وأخذ الملك لنفسه فلما تم له الأمر قام فى التاسع عشر من رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة على الملك الصالح وخلعه ونفاه واستلم مقاليد الملك فكانت مدة سلطنة الملك الصالح سنة ونصف سنة وبضع أيام وكان هو آخر من حكم ديار مصر من دولة المماليك سلالة قلاوون المعروفين عند أهل التاريخ بالمماليك البحرية وبموته انقرضت دولتهم وعفت آثارهم بعد أن حكموا نحوا من مائة وثلاثين سنة وقد مر بك بيان أخبار هذه المدة وما وقع فيها من الحوادث فقامت بعدها دولة المماليك الثانية وظهرت بظهور برقوق المذكور وهو رأسها ومؤسسها فسبحان من له الملك والملكوت وهو على كل شىء قدير.

(وصل)

(فى أصل الجراكسة وفى طباعهم وأديانهم)

وفى

(منشأ دولتهم الثانية بديار مصر)

قال أصحاب التاريخ: قد سمى الكتاب هذه الدولة بدولة المماليك الشراكسة نسبة إلى منشأ سلاطينها فإنهم كانوا من الشعب الشركسى وقد اختلفوا فى محل

ظهورهم فمنهم من قال إنهم ظـهروا بآسية العليا ومنهم من قال إنهم نشئـوا بسيبريا ناحية بحيرة بيكال فى نحو القرن السادس للميلاد المسيحى. والثانى أشهر، ثم نزحوا إلى بحر قزبين فاستـوطنوا غربية وأنشئوا لهم مساكن على شبه الخـيام فسميت تلك الأصقاع من ذلك الوقت باسم شركاسـيا وتناسلوا ونموا نمواً عظيماً فكانوا بعد ذلك يحملون إلي أقطار العالم للاتجـار بهم كالسلع سواء بسواء وكانوا كغـيرهم من بقية الأمم فى الأزمان الغابرة عاكفين على عبادة الأوثان والتقرب إليها بالقرابين والذبائح وتقديم التقـادم من الأسلحة والحلى .قال بعضهم: وكان فى أحـد الجبال الواقعة ما بين صخوم وصـوغوجق التى يقال لها غوية شـجرة عظيمة عجيـبة المنظر تعادل فى كبرها الـسنيديان وهى مكونة من عدة أشجـار مختلفة الأجناس قـد نبتت فى مكان واحد وتسمى عندهم يعنى عند طوائف الشـراكسة باسم «قودوش» فكان يأتى إليـها فى يوم معلوم من كل سنة طيـر كبير اسمـه بيوغه زعمـوا أنه يسند رأسه على تلك الشجرة ليـسلم نفسه للذبح قرباناً لهـا ولايمانع من يأتى ليذبحه فـإذا فعل ذلك قام أحد الجماعة الحاضرين هناك فى ذلك اليوم فـيذبحه فى الحال ثم يصبون على رأسه وعينيـه شيئاً من الخـمر أو البوزة ثم يكشفـون رؤوسهم ويأخذون طقـياتهم بأيديهم ويضجون ويقولون: يا إلهنا العظيم إن عنايتك بعبـيدك ليس لها حساب ولا حد ثم يسجدون ويتـضرعون لهذه الشجرة وهم مكشـوفو الرؤس وبعد ذلك يقسمـون فيما بينهم لحم ذلك الطير وجلده ويحمدون معبـودهم وينصرفون وإذا سار جماعة منهم إلى السرقـة والنهب بحراً فى القارب المعـروف عندهم باسم خجابا أو خـرجوا إلى السلب فى الطرق والجبال ينذرون لتـلك الشجرة شيئاً من سـلاحهم وآلة حربهم إن هم فازوا وظفروا بفريستهم فـيقول الواحد منهم إن غلبت فى نوبتى هذه فإننى أنذر لشجـرة قودوش أحـسن بارودة أو أحسن درع أو أحسن شىء لا تفـنيه الأمطار ولا تعمل فيه العواصف فإذا تم له ما أراد أتى بما نذره فـيعلقه على أغصان تلك الشجرة ولذلك كان يرى على أغصان قودوش المذكورة شىء كثير من تلك النذور باقية معلقة محتـرمة لايستطيع أحد أن يـمسها بيده لأنهم يـزعمون أن من سرق شيـئا من تلك الأشياء مات لساعته وكان لمعبودتهم قودوش هذه نواب يعرفون باسم طغالك وهؤلاء النواب يخـتـارهم الناس يعنـى إذا رأى أحـد من الناس شـجـرة فى جـوار داره واستحسنها واستـعظم حجمها اتخذها نائبة عن قودوش فيستـر ساقها بسياج لطيف ويربط أطرافها من أعلى بالحبال والحشيش اليابس على هيـئة عمامة ثم يسميها باسم طغالك وينسبون إليها نماء زرعهم وحـفظه من الصيال فإذا هاف الزرع مثلاً ونقصت

غلة الأرض فى سنته تقدموا إلى تلك الشجرة وجعلوا يتضرعون إليها ويقولون وهم حاسرو الرؤوس نرجو كرما منك أيها المعبود العظيم أن تبارك فى غلات أرضنا وتكثرها فى عامنا هذا فقد كانت فى العام الماضى غير كافية لنا ولضيوفنا ثم يسجدون تحتها لجهة الشرق ويذبحون رأسًا من الضأن أو المعز قربانا ويصبون على رأسة شيئاً من الخمر أو البوزة ويكررون هذه الضراعة والابتهال كل قليل إلى زمن الحصاد فإذا أخصبت أرضهم وكثرت غلاتها فى عامهم ذلك فرحوا وخروا سجداً لمعبودتهم وبالغوا فى تعظيمها وإلاّ حنقوا وصاحوا عليها لماذا لا تسمعين نداءنا ثم يغضبون فينزعون عنها أوراقها ويقطعون أغصانها ثم ينزعونها من أصلها ويحرقونها ويتخذون لهم معبودة أخرى مكانها ثم يتقدمون إليها بالتبجيل والتعظيم ويقولون لها يا معبودنا الجديد إن الطغالك الذى كان لنا فعبدناه من قبلك حيناً قد أساء إلينا فألقيناه فى النار والنور وجعلناك لنا طغالك جديدة وسنقوم بعبادتك خير قيام فإن أنت لم تصغى إلى ندائنا قلعناك وألقيناك فى النار. قال الراوى: وكان هذا التنبيه من عاداتهم القديمة. وكانت عادة السلاطين الجانكيزيين أنهم يعطون أولادهم إلى أمراء الجراكسة لإرضاعهم وتربيتهم على حالة البداوة فإذا أتموا مدة الرضاع والتربية ردوهم إلى آبائهم فكانوا لذلك يغدون ويروحون إلى بلاد القرم ولاختلاطهم بمن اعتنق الدين الإسلامى من التتار مال بعضهم إلى التدين به فخلطوه ببعض عاداتهم فكانوا يصومون شهراً فى السنة وبعد أربعة أشهر من هذا الشهر يطبخون حبوب عاشوراء ثم بعد ذلك بشهر أيضاً يدعون لقراءة المولد النبوى شيخاً عارفاً برطانهم فيقرأ عليهم شيئاً تقليداً للإسلام وكانوا يعملون فى كل سنة ضيافة على اسم سلطان الأبطال الإمام علىّ بن أبى طالب ويتظاهرون مثل العلويين وظلوا على هذا الحال حيناً من الدهر وهم لا يعرفون من الإسلام غير الاسم فقط لأن العبادة التى نقلوها عن التتار لم يقصدوا بها عرض العبودية لجانب الحق سبحانه وتعالى وتعظيم نبيه ورسوله بل كانت لحصول الفيض والبركة. قال بعض الكتاب: وكانوا أيضاً يعملون عيد فصح لروح أبى جهل ويسمون هذا الفصح باسم صاوصورروق ا.هـ.

وقد دخلت النصرانية فى عدة جهات من بلاد الجراكسة بسبب الجنويزيين الذين استوطنوا ساحل البحر الأسود فى القرون المتوسطة فمال إلى التدين بها الكثير منهم وكادت تعم جميع القبائل فلما تغلبت الدولة العثمانية على بلادهم واستقر أمرها ظهر الدين الإسلامى وزال الدين المسيحى أو كاد.

وكانت لهم حكايات وروايات غريبة للغاية يروونها بالسند إلى معبوداتهم ودينهم

قبل الإسلام، منها أنهم كانوا يروون أن رجلاً محبوساً فى مغارة فى جهة قلعة الحجاج الكائنة فى جبل البرز يقال له (ضحاك مارى) فاتفق أن رجلاً من أهل قرية كانت تقرب من ذلك الجبل كان يتجول فى الجبل للصيد فرأى المغارة المذكورة ففكر فى نفسه وقال ليتها تصلح مأوى للغنم ثم دخلها فلم ينته إلى جوفها حتى سمع صوتاً مريعاً أوقفه عن المسير فجعل يفرك عينيه بيديه لعله يرى ما فى داخل المغارة وإذا به يرى شيئاً هائلاً على شكل الإنسان مربوطة رجلاه إلى عنقه ويداه مقيدتان بقيد محكم وفى وسطه سلسلة من حديد فوقف الرجل قليلاً حتى سكن روعه واطمأن جأشه وعلم أنه محبوس وبينما هو يفكر فى أمر ذلك المحبوس إذ خاطبه المحبوس قائلاً: مر يا أخى لا تخف واقترب منى فإنى مرهون هنا ومنتظر للوقت المعهود فإن أنت أحسنت لى العمل فأتنى بعصى طويلة تشبه القصبة الطويلة التى يعلق بها حبل الغسيل فإن فعلت وقدرت على أن أنزل هذا السيف المعلق أمامى فإننى أتخلص من هذا القيد وهذه السلسلة التى أنا مربوط بها فأجازيك على إحسانك بخير الإحسان وأحفظ لك هذا الجميل على الأزمان قالوا: فحن إليه الرجل وأتاه بعصا فتناولها ويداه مربوطتان ومدها نحو السيف واجتهد جهده فى تنزيله فلم يقدر فالتفت إلى الرجل وقال له: بورك فيك لم يأت وقت نجاتى ولا ساعة خلاصى من هذا الأسر وكسر العصا قطعاً فجعلها جذاذاً كقطع السواك فتركه الرجل وانصرف وعاد إلى القرية فأخبر زوجته وأولاده بما رآه وحدثهم بما سمعه من ذلك المحبوس ولبث أربعة أيام ومات وشاع خبر موته وبما أخبر به أولاده من خبر ذلك المحبوس فاجتمع أهل القرية وقالوا: كيف يموت وقد عاش جده وأبوه أكثر من مائة عام وهما لم يشاهدا ذلك المحبوس ولا المغارة ولو لم يره هو ما مات وهو فى هذا العمر واستولى الخوف من الموت على جميع أهل القرية فتعاهدوا على أن لا يذهب أحد منهم إلى تلك المغارة وشاع خبر ما وقع بين القرى المجاورة فاجتمعوا وتعاهدوا على أن لا يقتربوا من تلك المغارة ولا يراها أحد منهم وعملوا لذلك حدوداً لا يتخطوها فأوت إلى تلك الحدود الوحوش من الثعالب والسمور والفهد وكلب الماء وكثير من الطيور كالرهو والليل والرخم والغرنوق ودجاج الأرض والدراج وصيدها جميعها ممنوع فيما بينهم ولم تزل هذه الحيوانات مع كثرتها تشاهد للمارين وهى آمنة مطمئنة لا خوف عليها، ومن عادة الأمهات عندهم أنه إذا بكى الطفل وأسكتته أمه ولم يسكت خوفته بصاحب تلك المغارة فتقول له مه وإلا أتيتك بصاحب المغارة فيفعل بك كذا وكذا ويروون عن هذا المحبوس غير ذلك أيضاً ولهم عادات فى عباداتهم كثيرة غير ما ذكرناه قد أضربنا عن إيرادها هنا.

(لاحقة)

(فى أخلاق الجراكسة وعاداتهم)

جاء فى تاريخ العلامة جودت باشا ما تعريبه: جبت أرض قبائل الجراكسة والأباظة طولاً وعرضاً فوجدتها نظيفة طاهرة من جميع الأدران ووجدتهم قوماً عقلاء قابلين للحضارة والمدنية ذوى شجاعة وجسارة صادقين فى أقوالهم ثابتين فيها لا يتكلمون بالكذب أصلاً ولا يحلفون أيماناً كاذبة فإذا اتخذت لك منهم خادماً فمهما كان عنيداً فظاً عاصياً فاستحلفه على الأمانة والولاء فإذا حلف لا يخونك أبداً ولا يحنث فى يمينه ولا يعمل على خلاف ما أقسم به ولكن يجب استحلافه على كل أمر بحرفه فتقول له: احلف أنك لا تخوننى فى كذا وفى كذا وفى كذا فإذا ارتكب الخيانة فى أمر وعاتبته عليه وكان غير داخل فى عداد من استحلف عليه قال قد حنثت فى هذا الأمر لأننى لم أحلف على عدم الخيانة فيه. قال: وهم قوم فى غاية السخاء والكرم يقرون الضيف حتى لو كان صاحب البيت من أشرافهم والمضيف من صعاليكهم أو من أحد العامة فإنه لا يقعد فى حضوره بل يخدمه واقفا على قدميه ولا ينام بل يقضى ليله مسلحاً بسلاحه لحفظه وحراسته، ومن عادتهم أن صاحب البيت لا يأكل مع الضيف ولا من الطعام الذى صنع للضيف ولا ينزعون عن الدجاج الذى يطبخونه للضيف رؤوسها عن أبدانها بل يضعونها أمام الضيف كذلك إشارة إلى أن رؤوسهم وأجسامهم فداء له وألبستهم تكاد تكون جميعها من لون واحد فلا فرق بين الغنى والفقير فى الملبس وفقراؤهم لا يصيرون أغنياء وأغنياؤهم لا يصيرون فقراء وجميعهم يعتقدون أنهم أخوة بعضهم لبعض فإذا لزم لأحدهم شيء وطلبه من الآخر أعطاه إياها بلا معاوضة ولا يجيبه بكلمة، لا ومن عاداتهم أن لا يقتل أحدهم الآخر ولا يشتمه ولا يسبه ولا يضربه ويستخدمون أسراهم بالرفق واللين من غير أن يضربوهم أو يؤذوهم ولا يقتّرون عليهم فى المأكل والمشرب وليس من الأمور المعيبة عندهم النهب والسلب أو التخريب بل يعتبرون ذلك من البسالة والإقدام، ومن عاداتهم احترام الشباب للشيوخ فلا يقصر الشاب فى خدمة الشيخ بل يقوم بخدمته قيام العبد لخدمة مولاه ويصح لصاحب الحسب والنسب والقدر الرفيع من قبائل الجراكسة أن يتزوج ببنت آحاد الناس ليكسبها قدراً وشرفاً ولكن لايصح أن الأصاغر من الناس يتزوجون ببنات ذوى الحسب الرفيع مطلقاً ولا يسكنون بجوار بعضهم بل بيوتهم متفرقة على رؤوس الجبال فإذا حدث

لأحدهم حادث نادى بما يعبر عنه بلسان التتار أيش حريق فيصل خبر هذا الحادث إلى جميع البيوت فى وقت قريب للغاية فيجتمعون ويتكلمون فى أمر ذلك الحادث وإذا قاموا لحرب قدّموا عليهم أحدهم فلا يبقى لأحد منهم كلمة فوق كلمته فعليه تدبير أمرهم فى تلك الحرب وعليهم طاعته فى جميع ما يأمر به فإذا انقضت الحرب عاد كل إلى ما هو عليه من الحرية والاستقلال، ولغتهم متعددة ولا تنطبق على مخارج الحروف المعتادة قال ومع هذا كله فإنهم متوحشون جبليون لا يميزون بين الكفر والإيمان ولا بين الخير والشر ولايقدر غريب أن يطوف بينهم وإذا أراد أحد الناس أن يمر بين مساكن إحدى قبائلهم أخذ معه دليلاً من قوم تلك القبيلة وإلا وقع فى مخالب العطب وهذا الدليل يقال له (شاغرى) وهذا الشاغرى يكون مرعىّ الجانب مسموع الكلمة فإذا شاء أحد من الناس الاختلاط بقبائل أولئك القوم ومعاشرتهم والتطواف بين منازلهم كواحد منهم لزمه أن يتبنى لأحد أصحاب الحسب وطريقة ذلك عندهم أنه يأخذ أولاً ثوبين من القماش الأبيض وجلداً من السختيان وإبرة وخيطاً ومشطاً وكستباناً ثم يطلب له دليلاً فإذا وجده يعطيه أحد الثوبين المذكورين أجرة ليوصله إلى أمير القبيلة التى يختارها فيسير به إلى دار الأمير فيقدم هديته إلى امرأة صاحب الدار وإذا كان صاحب الدار غائباً فى ذلك الوقت لزمه الدخول إلى فناء الدار وطلب زوجة صاحب الدار فإذا جاءته هجم عليها وأخذ بفمه أحد ثدييها وجعل يرضعه وهو يقول قد صرت فى بيت الوالدين وصرت لك ابناً فى الرضاع يفعل هذا ولو كانت امرأة ذلك الرجل بنتاً وكان زفافها إليه تلك الليلة وإذا كان لايعرف رطانهم يبلغهم ما يقول بواسطة ترجمان منهم وقاعدتهم فى هذا الأمر أن المرأة تمسح بيدها على ظهره إشارة لقبول بنوته ثم تأذن له بالإقامة عندهم وعندما يأتى زوجها تخرج إليه وتقول له: انظر إلى هذا فقد اتخذته لى ولداً ثم تشير إلى زوجها بأن يقبل يده فيفعل ويقبله أيضاً ويأخذ من يومه فى تدارك أمر ضيافته فيعدّ لذلك ما طاب من المأكل والمشرب ويدعو قبيلته ومن جاورها من بقية القبائل ويجعل ذلك الوقت عيداً فيأكلون ويشربون ويفرحون يومهم ذلك وفى ختامه يقول صاحب الدار لجميع من حضر: انظروا قد اتخذت هذا لى ولدا فيبشون فى وجهه ويهنئونه ثم ينصرفون ويبقى صاحب الدار وذلك الرجل فى الاتصال كالأب والابن ويظهر منهما للآخر محبته فيغدو الرجل ويروح بلا ممانع فإن كان تاجراً فلا يبقى فى حاجة إلى من يحفظ عليه ماله بل يكون آمنا من جميع المخاوف والمحاذير فإذا صادفه فى طريقه أحد وقصده بسوء من أخذ ماله أو إذهاب روحه فقال أنا متبنى لفلان فإن ينكف عنه

فإذا لم يلتفت إلى قوله وأخـذه ماله أو أخذّ أسيراً واتصل خبر مـا جرى له بأبيه قام لاسترجـاع ما أخذ منه أو استخلاصـه وأخذ أيضاً من الفاعل لذلك تسعة أمـثال ما اغتالـه ويسمون ذلك عندهم (عيـبلق) أى جزاء ما ارتكبه من العـيب وهى عادة من رسمهم القديم وإذا كان الصائل أو المغتال لا قدرة له على دفع هذا الجزاء أخذ أسيراً وبيع. ومن عاداتهم أن من يحكم عليه بالجزاء لا يهرب بل يسلم نفسه وإذا كان له بنات ورضى أب من أخذ مـاله بأخذهن جـاز له بحسب قانونهم أخـذ البنتين منهن بدلاً عن أبيهما فيباعان عوضاً عن أبيهما.

والقتل عندهم من أكبر الجرائم وأشدها عقـاباً ولذلك يتباعدون عنه ما استطاعوا فإذا ضرب أحـدهم آخر ضرباً أفـضى به إلى الموت كان الجزاء بحسب مـرتبة الأهل وهم على ثلاث مراتب وهى مرتبة البكوات، ومرتبة الأوزنيين والطوقاد، فالبكوات هم كبار القـبائل وأصحاب الحسب والنسب والأوزنيـون هم أواسط الناس والمساتير منهم والطوقاد هم العامة فإذا كان المقـتول من أواسط الناس كانت ديته عشرين عدداً حسـب اصطلاحهم خـمسـة منها أسـرى تقاس قـدودهم على قدر مـعلوم بالشـبر والخمسة الثـانية منها عبارة عن خمـسة رؤوس من جياد الخيل كل رأس بقيـمة أسير والخمسة الثالثة منها عبارة عن خمسة دروع كل درع قـيمة أسير والخمسة الباقية يقال لها (شوشقـة) يعطى فيها سيف وبارودة وقوس ولابد من قـيام المحكوم عليه بالدية بجميع ذلك على أى حـال كان ولما لم يكن عندهم نقود ولا سكة كان تقدير قـيمة الأسير عندهم بالشبر ولا يعتبر عندهم ثمن الأسير بحسب جماله أو بشاعته بل ينظر حسابه على حسب الشبر والأسير التـام عندهم ستة أشبار فإذا كان أقل من ذلك عدّ ناقصاً فإذا لزم أحدهم أن يعطى آخر أسيراً تامـاً وأعطاه إياه بقياس أربعة أشبار مثلاً لزمه أن يتمم الـباقى بشيء آخر، ومن عاداتهم أيضـاً أنه إذا زنت امرأة وثبت زناها بيعت هى وجميع أولادها بأبخس الأثمان، وقاعدة ذلك عندهم أن زوج تلك الزانية يذهب إلى أبيها وأمهـا ويخبرهما بما وقع ويقول إن بنتكما بـنت حرام فخذوها عنى وأعطونى ما أخذتموه منى مقدما فى عقد نكاحها فعند ذلك يتبرأ منها والداها ويأذناه بأخذها وبيعها هى وأولادها فيحملها مع أولادها إلى النخاس ويبيعهم ويأخذ ثمنهم فلا يصل إلى داره إلا ويكـون قد فرق جـميع الثمن المقـبوض على إخـوانه وخلانه ويبيت ليلته تلك ويصبح فيسير إلى بيت الزانى ومعه بعض كبار القبيلة ويقول له قد بعت المرأة بكذا من الثمن وأطلب مـنك حقى ثم يتركه وينصـرف، ويرسل إليه فى ثانى يوم من يطالبه بهذا الثمن فلا يسع الزانى إلا أن يقوم بدفع الثمن الذى بيعت به

المرأة وتسعة أمثاله أيضاً جزاء ما ارتكبه من فعل الزنا فإن كان الزانى لا مال عنده ولم يوجد من يعينه على ذلك فيقوم عليه والداه ويقيدانه ويسلمانه إلى زوج المرأة ويقولان له هذا حقك فيأخذه بحيث لا يضربه ولا يشتمه ولا يهينه ولا يوبخه ولا يقول له إنك فعلت كذا وكذا لأن الشتم وفحش القول عندهم مكروه ويسير به إلى السوق ويبيعه بأى قيمة أعطيت فيه ثم يلتفت إلى الشخص ويقول له: هذه قيمتك ويفرق ما قبضه من الثمن على الحاضرين ثم إن قبيلة الجاني توفى بقيمة حقه.

وبلاد الجراكسة لطيفة الهواء والماء وفصولها الأربعة جميلة وأراضيها خصبة ذات محاصيل كثيرة وينبت فيها جميع أصناف الخضر ولكن جميع قبائل الجراكسة لا يأكلون الخضر ويعيشون على أكل اللحم فقط وليس لهم غاية فى الفلاحة فهم ذوو كسل وبطالة وطباعهم أشبه شيء بطباع العرب البادية ولكنهم لا يعادون بعضهم ولا توجد بينهم آداب ولا رسوم مدنية ولا ما يوجب الترقى والحشمة والاحتراز من بعضهم وفى بلادهم جميع أنواع النباتات كالسنا والراوند الصينى ونوع من السحلب القوى وجميع أنواع الفاكهة والخضر والزيتون والكستنة والشاى البرى ومن أشهر الأشجار عندهم شجر البقس وهو يصلح للسفن جداً فلذلك إذا أتى أصحاب السفن لأخذ شيء منه لا يتقدمون إلى ذلك إلا إذا وضعوا رهائن منهم عند كبار الجراكسة وأخذوا معهم رهائن منهم أيضاً ليكونوا آمنين من شر أصحاب القرصان المعروفين باسم خجايا ولا يوجد عندهم ملح مطلقاً وهو عزيز للغاية عندهم فلذلك جرت العادة عند أصحاب السفن التى تسير إلى بلاد الجراكسة أن يأخذوا معهم كثيراً من الملح ويتعاملون به معاملة العروض وذلك بأن يضعوا مقداراً من الملح فى إحدى كفتى الميزان ويجعلون فى الكفة الثانية مقداراً من العسل مثلاً أو من شمع العسل أو من جلود الثعالب والسمور، وفى بلادهم أيضاً سائر أنواع الصيد من الطير والوحش ولهم فى القنص أمر غريب ومنه صيد الفهد وهو مخصوص بالنساء وذلك أنهن يعلقن قطعة من اللحم فى شعبتى شجرة ذات شعوب فيأتى الفهد ويثب لأخذ اللحم فتعلق رجله فى شعبة الشجرة فيمسك وفى الحال يسلمنه إلى رجل طويل القامة يسلخ جلده، ومن عاداتهم الغريبة أن الذى يسلخ الفهد يلزم أن يكون مساوياً للفهد فى الطول ولهم عوائد أخر غير ما ذكر قد أضربنا عن إيرادها خوف الإطالة.

وقد جاء بهؤلاء الجراكسة ملوك مصر وأكثروا من شرائهم وتغالوا فى ملبسهم ومركبهم لاسيما السلطان الملك الصالح ابن السلطان الملك الكامل فكانوا مع من بقى من المماليك البحرية الذين اصطفاهم السلطان الملك الصالح لخدمته وسلم إليهم دولته يداً واحدة فكانت لهم حراسة الحصون والقلاع وفى أيديهم سائر الابراج وقد

سكنوها وتسموا بها فكان يقال لهم البرجية كما كان المماليك البحرية يسمون أيضاً فى أيام الملك الصالح بالحلقة إشارة إلى أنهم كانوا لا يفارقونه فى حله وترحاله، ومازالوا على هذا الحال حتى عظم أمرهم واشتد بأسهم وظهرت كلمتهم وهابهم الأمراء لتمكنهم من مناصب الدولة وأمور المملكة وتزلف السلاطين إلى كبارهم وأدنوهم خوفاً من بطشهم وأخذوا برأيهم وعملوا بمشورتهم فسادوا وأمروا وفازوا واشتهروا وظهر من بينهم برقوق اليلبغاوى العمرى الذى تقدم الكلام عنه واشتهر أمره واتسعت كلمته وخضع له كبار الدولة وأمراء المملكة فتصرف فى جميع الأمور تصرف المستبد وركب فى دست السلطنة فى أيام الملك المنصور وفى سلطنة أخيه الملك زين الدين حاجى ومازال على هذا الحال من الرفعة والسودد وعلو الكلمة حتى تمكن ورسخت قدمه وخلع السلطان الملك الصالح زين الدين واستبد بالملك وطلب من الخليفة المتوكل البيعة فبايعه وبايعه القضاة والعلماء والأمراء وكبار الدولة ولقبوه بالملك الظاهر تفاؤلاً بالملك ركن الدين بيبرس البندقدارى، ثم كان من أمره وأمر من جاء بعده من هذه الطائفة ما سيذكر بعد.

(فصل)

(فى الكلام على ما وقع فى أيام هذه الدولة أعنى دولة الجراكسة الثانية إلى انقراضها وزوال ملكها)

لما تمت البيعة للسلطان الملك الظاهر برقوق أحسن السيرة وبالغ فى الاهتمام بشئون البلاد وراحة الرعية ورتب أمور الدولة وأتقن نظام المملكة وحصن الثغور وعمر الأبراج ورمم القلاع وأكثر من العساكر والأجناد وتأهب لقتال تيمورلنك وقد كان تيمورلنك على عزم الزحف على الشام وأخذها والركوب على ديار مصر واستخلاصها من يد السلطان الملك الظاهر فخرج السلطان الملك الظاهر فى أبهة عظيمة وسار من القاهرة فى جيش جرار لقتال تيمورلنك، فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالاً عنيفاً فانهزمت جيوش تيمورلنك شر هزيمة وعادت خاسرة وعاد السلطان الملك الظاهر برقوق بجيوشه إلى القاهرة ظافراً غانماً ودخل من باب النصر فى أبهة وأمامه الأمراء ورؤساء الدولة ففرح الناس برجوعه ودقت البشائر ولم يستقر به المقام بالقاهرة حتى سعى أصحاب السعاية بينه وبين الخليفة المتوكل فأعلموه أن الخليفة واطأ جماعة من أهل الفساد على قتله إذا لعب الأكرة وأنه تعاهد مع آخرين على

نصرته واستبداده بالأمر وأن الخليفة يقول: إنه ما فوض إلى السلطان الملك الظاهر برقوق السلطنة إلا كرهاً وإنه لم يسر فى ملكه بالعدل فاستعظم الملك الظاهر هذا الأمر وبث العيون والأرصاد حول الخليفة المتوكل فكبرت الوحشة بينهما وخاف كل من صاحبه وتحفظ فاستدعى السلطان الملك الظاهر بالقضاة والأئمة والعلماء وخاطبهم فى أمر الخليفة وما بدا منه وأعلمهم بخبر الدعاة الذين انضموا إليه ووافقوه على خلع السلطان فأجمعوا على خلع الخليفة وطال الأخذ والرد بينهم أياماً ثم خلعوه وقبض عليه وسجن بقلعة الجبل فى سنة سبع وثمانين وسبعمائة هجرية وقيل بل امتنعوا من إجابة طلب السلطان وقاموا عنه فخلع هو الخليفة بقوته واعتقله بالقلعة ثم طلب عمر بن إبراهيم بن المستمسك بن الحاكم وبايعه ولقبه الواثق بالله وذلك فى رجب سنة خمس وثمانين وسبعمائة،فلما كان ذو القعدة من السنة المذكورة أخرج المتوكل من سجنه فأقام بداره مكرماً لا خوف عليه، وقد كان الخليفة المتوكل المذكور خلع قبل هذا الحين بقليل وذلك أنه لما مات الأشرف وأقيم ولده المنصور عليّ كان الأمير أيتبك البدرى مدبر دولته فوقع بينه وبين الخليفة المتوكل كلام فحقد إيتبك على المتوكل أموراً فطلب نجم الدين زكريا بن إبراهيم ابن ولى العهد المستمسك ابن الخليفة يوم الاثنين رابع ربيع الأول سنة تسع وسبعين وخلع عليه وأقامه خليفة فاستقر بغير مبايعة ولا إجماع ولقب المعتصم بالله، فلما كان العشرون من الشهر المذكور كلم الأمراء أيتبك فيما فعله مع المتوكل ورغبوه فى إعادته إلى الخلاقة فأعاده وخلع زكريا فكانت مدة خلافة زكريا خمسة عشر يوماً ولم يتم الشهر على أيتبك حتى اتفق العسكر على خلافه وقاموا عليه فهرب فتبعوه وظفروا به فى تاسع ربيع الآخر من السنة فقيدوه وسجنوه بالإسكندرية ثم كان آخر العهد به فقال فيه شهاب الدين بن العطار :

من بعد عز أذل أيتبكا — وانحط بعد السموّ منفتكا
وراح يبكى الدماء منفردا — والناس لا يعرفون أين بكى

واستقر الواثق فى الخلافة إلى أن مات حتف أنفه يوم الأربعاء تاسع عشرى شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة أو سنة سبع وثمانين وسبعمائة فكلم الناس برقوقاً فى إعادة المتوكل إلى الخلافة فأبى وأحضر أخا عمر زكريا الذى كان أيتبك قد ولاه تلك الأيام اليسيرة فبايعه ولقب بالمستعصم بالله فاستقر إلى يوم الخميس ثانى جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. قال بعض أهل التاريخ: وندم برقوق على ما صنع بالمتوكل فخلع زكريا وأعاد المتوكل إلى الخلافة فركب من يومه فى الدست

وحلف القضاة كلا من الخليفة والسلطان على موالاة الآخر ومناصحته وأقام زكريا بداره إلى أن مات مخلوعاً فى سنة إحدى وثمانمائة هجرية وقرئ تقليد المتوكل فى المشهد النفيسى فى ثامن عشر الشهر بحضرة القضاة والأمراء وقرر له السلطان داراً بقلعة الجبل يسكنها ويركب إلى داره بالمدينة متى شاء، واستمر فى خلافته مهيباً محترماً محبوباً عند الأمراء والوجهاء، وكثرت أولاده كثرة فائقة وأثرى وكثر ماله وهابه الملك الظاهر برقوق لما رأى من طاعة الأمراء له واجتماع رجال الدولة على كلمته والأخذ بمشورته فلم يلبث على مصافاة السلطان الملك الظاهر إلا قليلاً حتى عادت الوحشة بينهما واستحكم النفور واشتد الخلاف فاتحد الخليفة المتوكل مع جماعة من كبار الأمراء وبينهم الأمير يلبغا الناصرى والأمير منطاش على خلع السلطان الملك الظاهر فقاموا عليه وخلعوه من السلطنة وسيروه منفياً إلى قلعة الكرك واستقدموا السلطان الملك الصالح حاجى آخر ملوك دولة المماليك البحرية الذى قد كان خلعه برقوق على ما تقدم بيانه فحضر وبايعوه فى السادس من جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ولقب بالملك المنصور واتسعت كلمة منطاش وكبرت صولته وتاقت نفسه إلى الملك فركب فى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة على بعض الأمراء وقتلهم وأمسك الناصرى مع جماعة من الأمراء وسيرهم إلى الاسكندرية وألقاهم فى السجن وأرسل إلى بزلار نائب دمشق من أمسكه وقتله وأقام بدله فى نيابة دمشق الأمير جنتمر أخا الأمير طاز وسير إلى قلعة الكرك من يقتل السلطان الملك الظاهر برقوق وكان المرسل ممقوتاً عن أهل الكرك فلما علموا بخبر مجيئه قاموا عليه وقتلوه وأطلقوا السلطان الملك الظاهر برقوق فسار برقوق إلى دمشق فى نفر من أصحابه فخرج إليه صاحب دمشق بالعساكر الشامية فانتصر عليهم برقوق نصرة عظيمة ونزل بقبة يلبغا وحاصر دمشق وضيق عليها وشدد وتوجه إليه نائب حلب المدعو كمشبغا بعساكر حلب ناصراً له واجتمع إليه أيضاً كل من كان قد تفرق عنه فكبرت جموعه وجاءت الأخبار بذلك إلى منطاش بالقاهرة فخرج إليه منطاش بالسلطان والعساكر المصرية والخليفة والقضاة وقرب من الشام والتقى الجمعان بناحية شقحب فانتصر البعض من الفريقين وانكسر البعض ولم يعلم أحدهما حال الآخر فولى كمشبغا هارباً نحو حلب وولى منطاش نحو دمشق ولم يشعر السلطان الملك الظاهر برقوق بنفسه إلا وهو على مخيم السلطان الملك المنصور حاجى فنزل فى الحال عن فرسه وأمسك الملك المنصور وقيده وجلس هو على كرسى السلطنة وصار كل من يحضر من الفريقين يجده جالساً فى دست السلطنة فلا يسعه إلا النزول

وتقبيل الأرض بين يديه فلما كان اليوم الثانى خرج منطاش فيمن بقى من عسكر مصر والتقى الجمعان وتناوشا قليلاً، ثم رجع كل إلى مقره وسار السلطان الملك الظاهر برقوق من ليلته قاصداً مصر ومعه جماعة من عسكر حلب والعسكر الشامى والمصرى ووصل إليها فوجد مماليكه قد خرجوا جميعاً من الحبوس وأمسكوا أعوان منطاش والعاملين معه ومنطاش بدمشق فدخل السلطان الملك الظاهر برقوق مصر فرحاً مطمئناً وأطلق جميع الأمراء الذين حبسهم منطاش.

وأما منطاش فإنه لما بلغه خبر وصول السلطان الملك الظاهر برقوق إلى مصر وماجرى فيها أرسل أميرا اسمه تمنتمر الموساى إلى حلب نائبا وحاصروا كمشبغا فى قلعتها وجاء الخبر بذلك إلى السلطان برقوق فجهز عسكرا عظيما من مصر ومقدمهم الأمير يلبغا الناصرى وسير معه الأمير الجوبانى نائبا بدمشق وقرادمرداش نائبا بطرابلس فلما أحس منطاش بقدومه هرب من دمشق وبلغ ذلك تمنتمر وهو يقاتل من بحلب فهرب أيضا وخرج الناصرى والجوبانى ومن معهما من العساكر من دمشق فى أثر منطاش وهو منضم إلى نعير بن جبار وعنقا فحصلت بين الفريقين وقعة عظيمة للغاية على مدينة حمص قتل فيها الجوبانى وجماعة من الأمراء وعاد الناصرى إلى دمشق فجاءه تقليد نيابتها وبلغ ذلك كمشبغا نائب حلب فأخذ فى عمارة سورها ولم تكن عمرت من عهد طاذان ووصل منطاش ونعير وعنقا فى جيش جراورنازلوا حلب وحاصروها فى شهر رمضان فلم يتمكنوا منها ورجعوا عنها خاسئين، وأرسل السلطان الملك الظاهر برقوق فى طلب الأمير كمشبغا فحضر إلى مصر فولاه بها أميرا كبيرا واستقر عوضه قراد مرداش بولاية حلب، ولم ينكف منطاش عن شن الغارة كل قليل من الزمن على البلاد الشامية وكثر عبثه وفساده فكبر أمره على السلطان برقوق وخرج فى جيش عظيم يريد الشام وبلغ ذلك منطاش فهرب نحو الشرق وقدم السلطان دمشق واستصحب معه الناصرى وسارا إلى حلب وأقاما بها أياما ثم عاد إلى دمشق وفى ليلة عوده قتل يلبغا الناصرى وجماعة من الأمراء بقلعة الجبل وأخذ معه قرادمرداش وقرر عوضه فى حلب الأمير سيف الدين بطا الدوادار وسار فى عسكره يريد مصر فدخلها فى سنة أربع وتسعين وسبعمائة وفى قلبه غصة لعدم ظفره بمنطاش وإراحة البلاد منه فلم يمض على وصوله إلا القليل حتى جاءه الخبر بمسير منطاش إلى نعير بن جبار ونزوله عليه طنيبا فأرسل السلطان برقوق ووعد نعيرا بإعادة الأميرية إليه ومناه حتى سلم منطاش فسيره السلطان مع جماعة إلى قلعة حلب فقتل به وأحضر رأسه إلى القاهرة وعلق بباب

زويلة وعاد السلطان فنكث وعده لـنعير وأرسل يوبخه ويعيره بأنه خـان ذمة العرب ولم يوله الأميرية فندم نعيـر على ما صنعه بمنطاش وتمكن السلطان الملك الظاهر من السلطنة وثبتت قـدماه فى منصبـها فهابه الناس وكـبرت شهرته وتقـرب منه الأمراء والملوك وأهدى له الأمير يوسـف بن قرا محمد أميـر التركمان بالشـرق مدينة تبريز وبعث إليه بمفاتيحها مع بعض كبار قومـه فأرسل إليه برقوق خلعة سنية وفوض إليه الغزو وفتح مـا تمكن من فتحه من المـدن والأمصار ففرح قـرا يوسف بذلك وجيش جيشا عظيما وخرج للغزو وقتال التتار فركب عليه تيمورلنك فى عسكر جرار وقاتله فانتصر عليه تيمورلنك نصرة عظيمـة ومزق عساكره كل ممزق فسار قرا يوسف ومعه أحمد بن عـويس وهو ممن كان حالفه على قـتال التتار إلى قـسطنطينية مستـجيرين بالإمـبراطور منول فـلم ينجدهمـا ولم يسـمح لهـما بالبـقـاء فى بلاده خوفـا من تيمورلنك لاسيما وقد كانت الإمبراطورية كلها فى ضعف واختلال بأسباب الحوادث المتراكـمة وهجـمات السلطان بايزيـد رابع سلاطين آل عـثمان على مـعظم إيالات المملكة الرومانية الشـرقية وضم الكثير منهـا إلى أملاكه وقربه من مقـر الإمبراطورية لولا قيام تيمورلنك من خلفه فى عسكر كبير ومنعه من التقدم إلى القسطنطينية، ولما لم يتمكن قرا يوسف وأحـمد بن عويس من البقاء فى جوار منويـل الإمبراطور جاء إلى مصـر فى نحو سنة خمس وتسـعين مسـتجيرين بالسلـطان الملك الظاهر برقوق فأحـسن برقوق وفادتهـما وأنزلهـما منزلا رحبـا ولبثا عنده أيـاما وكان تيـمورلنك والسلطان بايزيد التركى يتمنى كل منهما فتح ديار مصر ونزعها من يد دولة المماليك الثانية فعـمد كل منهما إلى إرسال وفد إلى برقوق فتـقدم وفد بايزيد إلى برقرق فى معاهدتهم على السلم وإلى الخليفة المتـوكل على أن يقرهم على ما بيدهم من سلطنة الأناضول فأجـابهم إلى ذلك أما سفـراء تيمورلنك فإنهم أغلظوا فى القـول وسألوه تسليم قرا يوسف وأحمد بن عويس فطيب برقوق خاطرهم ولاطفهم فلم يزدادوا إلا عتوّا فأمر بهم فـقتلوا جميعا فشق ذلك على تيمورلنك واسـتعظمه وسار فى جيش عظيم إلى مصـر آخذًا بالثأر فـمر بالرها ففتـحها وأعمل الـسيف فى أهلها تشفـيا وانتقاما فأهلك منها خلقا كثيرا ثم جاء إلى حلب فأنكى فيها فخشى السلطان برقوق العاقبة وخرج من القاهرة فى عسكر عظيم وصـحبته السلطان أحمد بن عويس يريد دفع تيمـورلنك عن البلاد فلما وصل إلى دمـشق خلع على السلطان أحمـد المذكور وجهزه بشعـاره ذلك وسيره إلى بغداد فأخـذها وضرب السكة باسم السلطان برقوق وجعل السلطان برقوق يتأهب لصد تيـمورلنك ويكثر من جمع الأسلحة والكراع إلا

أن المنية أدركته قبل أن يتم له الأرب فمات بداء الصرع فى يوم الجمعة خامس عشر شوال سنة إحدى وثمانمائة هجرية وعمره ستون سنة فحزن عليه الناس حزناً عظيماً لعدله ورفقه بالرعية وقد أبطل فى أيامه المكوس عن الفاكهة والأثمار التى كانت ترد من طريق بولاق وكان كثير الصدقات محبا للعلم والعلماء بنى مدرسة عظيمة وسماها المدرسة الظاهرية وابتنى جامعا لايزال إلى يومنا ظاهرا معروفا بجامع برقوق وكان له ولع باقتناء الأسلحة وجياد الخيل والاستكثار من المماليك الجراكسة وكان كثير العناية بأمور الدولة وتنظيم المملكة .

ولما مات السلطان الملك الظاهر برقوق المذكور بايعوا بالملك ابنه فرج زين الدين الملقب بأبى السعادات وله من العمر يومئذ ست وعشرون سنة ولقبوه بالملك الناصر فلما كانت سنة ثلاث وثمانمائة وردت الأخبار إلى الملك الناصر بتأهب تيمورلنك للزحف على ديار مصر والشام فإنه لما عاد من أخذ بلاد الهند بلغه وفاة السلطان الملك الظاهر برقوق فاستبشر لذلك وأنعم على مخبره بجملة تحف وكان فى نفسه منه لقتله رسله ومن أخذ السلطان بايزيد خان مدينة سيواس عقب موت صاحبها القاضى برهان الدين سنة ثمان وتسعين وسبعمائة مع ملطية وأخذ السلطان أحمد بن عويس بغداد فقصد بلاد الشام ومعه من العساكر ما لا يكاد يحصى. قال أبو الوليد محمد بن الشحنة الحنفى: أخبرنى الحافظ الخوارزمى أن بديوان عساكر تيمورلنك المختصة به ثمانمائة ألف وأنه اجتاز على سيواس وحاصرها وأخذها بعد أن حلف لأهلها أن لا يضع فيهم السيف فلما تمكن منهم حفر لهم حفائر ودفنهم فيها أحياء ثم أحرق البلد وأخربها وتوجه نحو البساتين فوجد أهلها قد أخلوها فأحرقها وخربها ثم توجه إلى ملطية فهرب من كان بها فأخذها وخربها ثم اجتاز بهنى فحصرها ونصب عليها المنجنيق وهدم بعض قلعتها ثم أخذها صلحا. ولما كان يوم الخميس تاسع ربيع الأول وصل إلى حلب ونازلها وكان العامل عليها يومئذ المقر السيفى دمرداش الخاصكى فأرسل يستنجد فجاءته عساكر دمشق مع نائبها سعيد بن سودون خال الملك الناصر وعسكر طرابلس مع نائبها المقر السيفى شيخ الخاصكى وعسكر حماة مع نائبها دقاق وعسكر صفد وغزة فلما اجتمعوا اختلفت كلمتهم فن قائل ادخلوا المدينة وقاتلوا من الأسوار، ومن قائل اخرجوا إلى ظاهر البلد بالخيام وظلوا على هذا الحال أياما فلما رأى الأمير دمرداش نائب حلب اختلافهم خاف شر العاقبة فأذن للناس فى إخلاء المدينة والتوجه حيث شاءوا فلم يوافقوه على ذلك وضربوا خيامهم ظاهر البلد تلقاء العدو وحضر قاصد تيمورلنك وطلب الاجتماع

بنائب دمشق فأذن له فلما دخل عليه أمر بعض غلمانه فقتلوه قبل أن يسمع كلامه فلما لم يرجع القاصد علم تيمورلنك أنه قتل فنادى فى العسكر بالخروج فخرجوا من خيامهم وزحف بهم على المسلمين فى يوم السبت حادى عشر ربيع الأول وأمامهم الفيلة فزعر المسلمون وخافوا وولوا نحو المدينة وازدحموا على الأبواب فمات منهم خلق عظيم والعدو وراءهم يأسر ويقتل بحد السيف وأخذ تيمورلنك البلد عنوة فصعد نواب المملكة وخواص الناس إلى القلعة، وكان أهل حلب قد أودعوا غالب أموالهم بها فحاصر القلعة وشدد عليها وضيق فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الأول، أخذها بالأمان والأيمان مجردة عن الذمة والأيمان فدخلها العسكر ولبثوا بها يومين اثنين ثم غدروا بكل من فيها وأمر فنقلوا جميع ما كان بها من الأموال والأقمشة والأمتعة مما لا يحصى وعاقب أغلب المسلمين بأنواع العقوبات وحبسهم بالقلعة ما بين مقيد ومزنجر ومسجون ومرسم عليه ثم نزل تيمورلنك من القلعة إلى دار النيابة وصنع وليمة على زى المغل فوقف سائر الملوك والنواب فى خدمته وأدار عليهم كؤوس الخمر فشربوا وطربوا فى ذلك اليوم والمسلمون فى عقاب وعذاب وقتل وسبى وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم فى هدم وحرق وتخريب ونبش إلى آخر شهر ربيع الأول فركب تيمورلنك فى عسكره وسار نحو دمشق وقد أقام على حلب نائبا اسمه الأمير موسى فلما جاءت الأخبار إلى الملك الناصر بمسير تيمورلنك إلى دمشق خرج من القاهرة فى عسكر كثير وسار نحو دمشق لقتال تيمورلنك فالتقى الجمعان وانتشبت الحرب بينهما فكانت سجالا ثم وقعت الهزيمة على الملك الناصر ومزقت عساكره كل ممزق فعاد إلى القاهرة ليجمع ما تفرق منهم ويعود لقتال تيمورلنك فبلغه أن تيمورلنك قد اشتغل عنه بقتال السلطان بايزيد ابن السلطان عثمان التركى ففرح بذلك واستبشر، وكان تيمورلنك لما وصل إلى قراباغ بلغه أن بايزيد سار إلى أرزنكان وأخذها فعظم ذلك على تيمورلنك واستكبره وسار فى عسكره إلى بلاد السلطان بايزيد يريد أخذها فخرج عليه السلطان بايزيد والتقى الجمعان بانكورية وحصل بينهما قتال شديد فدارت الدائرة على السلطان بايزيد وسقط أسيرا فى يد تيمورلنك وبقى عنده مأسورا إلى أن مات واستولى تيمورلنك على غالب بلاده وجهز قصاده إلى السلطان الملك الناصر صاحب مصر يطلب منه أميرا من أمرائه اسمه الطنبدى كان قد أمسكه من عدة سنين قرا يوسف وجهزه إلى الملك الظاهر برقوق وبقى فى مصر إلى ذلك الحين فخاف السلطان الملك الناصر من ذلك وخشى شر العاقبة وترددت الرسل بين تيمورلنك وبينه فى تقرير قاعدة

للصلح ومازالوا حتى انعقدت بينهما مودة ومهادنة فأرسل السلطان الملك الناصر إلى تيمورلنك زرافة حبشية فأهداه تيمورلنك فيلا وتتابعت رسائل المودة بين الفريقين فظن الناس خضوع السلطان الملك الناصر إلى تيمورلنك واعترافه بالمبايعة إلى دولة التتار فتخوفوا من ذلك وانقبضت نفوسهم وانحرفت خواطرهم على الناصر وأحس هو منهم بذلك فانكمش وتحرز وأبعد عنه كثيرا من الأمراء ومقدمى الأجناد وكبرت الوحشة بينهم وبينه، واتفق أن قصر النيل فى سنة ست وثمانمائة هجرية ثم شرقت البلاد فدهى أهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف واشتد القحط وكثر الموت فى الناس والدواب فمات فى مدينة قوص وحدها جوعا زهاء سبعة عشر ألفا ومات فى أسيوط أحد عشر ألفا ومات نحو ذلك وأكثر فى مدن أخرى واشتد الكرب وعم الخطب وطالت الشدة أياما فزاد بغض الناس للملك الناصر واعتقدوا أنه ما وقع لهم ذلك إلا لتقرب الناصر من تيمورلنك وخضوعه لدولة التتار ثم ارتفع الموت عن الناس وكثر الوارد من الحبوب والأقوات ففرحوا بذلك وجاءت الأخبار بموت تيمورلنك فى السابع عشر من شعبان سنة سبع وثمانمائة فزاد فرحهم واطمأن جاش السلطان الملك الناصر وهم باسترجاع ما أخذه تيمورلنك من البلاد الشامية وطمع فى ذلك لما تحقق من وقوع الفتنة بين أولاد تيمورلنك واختلال نظام مملكة أبيهم فأخذ يجيش الجيوش ويكثر من جمع الأسلحة والكراع بدون مشورة الأمراء ومقدمى العساكر فأغضبهم ذلك منه وانضموا إلى أعدائه من بقية الأمراء المبعدين فلما خانت لهم الفرص ركبوا وضيقوا عليه فى قصره وقام معهم العامة والغوغاء وكثر صياحهم حول القصر وبالغوا فى سبه ورميه بالخيانة وعدم الصلاحية للملك وعقد جماعة من الأمراء لواء وساروا به إلى حيث الأمير عز الدين عبد العزيز أخى الناصر وأركبوه وساروا فى زكابه إلى قصر الملك الناصر فحاصروه وضيقوا عليه وذلك فى السادس عشر من ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة فلما رأى الناصر أنه مأخوذ لا محالة تنازل عن السلطنة وخلع نفسه منها فرضوا بذلك وانصرفوا عنه فخرج من قصره واختفى عند بعض خواصه فظن الناس يومئذ أنه قتل بين الغوغاء وأتموا البيعة لأخيه عز الدين عبد العزيز المذكور ولقبوه بالملك المنصور فكانت سلطنة الملك الناصر ست سنين وخمسة أشهر وأحد عشر يوما، ولما استقر المنصب بالسلطان الملك المنصور عبد العزيز جعل يتصرف فى الأمور ويدنى قوما ويقصى آخرين ثم أساء السيرة فأبغضه الناس وندم الأمراء على مافعلوه بأخيه الناصر فاتصل ذلك بالناصر فخرج من مخبئه وشاع خبر ظهوره وتقدم إليه الأمراء فى أن يعود إلى السلطنة فأجابهم إلى ذلك فولوه المنصب فى جمادى الآخرة من السنة فلما قبض على زمام الأمور أمسك أخاه عز

الدين ونفاه إلى الإسكندرية فقتل بها فى السابع من ربيع الآخر سنة تسع وثمانمائة وقيل سنة ثمان وثمانمائة فكانت سلطنته شهرين غير كاملين.

ولم يكن الخليفة المتوكل على الله ليتعرض إلى شىء من أمور السلطنة فى كل هذه المدّة بعد الذى جرى له مع السلطان الملك الظاهر برقوق بل كان منعكفا على أشغاله الخصوصية مع هيبة ووقار وشهرة، مطاع الأمر، مسموع الكلمة حتى مات ليلة الثلاثاء عشرى رجب سنة ثمان وثمانمائة هجرية. قال أصحاب التاريخ: وهو أول من أثرى من خلفاء مصر وكثر ماله ورزق أولادا كثيرة يقال إنه جاء له مائة ولد ما بين مولود وسقط ومات عن عدة أولاد ذكور وإناث ولى الخلافة منهم خمسة ولا نظير لذلك وتولى الخلافة من إخوته أربعة واتفق للمتوكل هذا أن عاد إلى الخلافة بعد خلعه مرتين ولم يقع ذلك لأحد فيما تقدم إلا للمقتدر فقط، وذكر الحافظ بن حجر فى أنباء الغمر أن مولد المتوكل كان فى سنة نيف وأربعين وسبعمائة وأنه لما تسلطن برقوق المرة الأولى حسن له جماعة من أهل الدولة وغيرهم طلب الملك فكاتب الأمراء والعربان مصرا وشاما وعراقا وبث الدعاة فى الآفاق فبلغ ذلك برقوق فخلعه وسجنه فخرج يلبغا الناصرى على برقوق بسبب ذلك فأفرج عنه برقوق وأعاده إلى الخلافة وفرح الناس به فرحا عظيما. قال فلما انتصر الناصرى وزالت دولة برقوق قال الناصرى للخليفة بمحضر من الأمراء: يامولانا أمير المؤمنين ماضربت بسيفى هذا إلا فى نصرتك وبالغ فى تعظيمه وتبجيله فتبرم المتوكل من الدخول فى الملك وأشار بإعادة حاجى بن شعبان، وكان المتوكل قد عهد بالخلافة لولده أحمد ولقبه المعتمد على الله ثم خلعه وعهد إلى ابنه أبى الفضل العباسى فاستقر فى الخلافة بعده كما سيذكر فى محله ولقب المستعين بالله فكانت خلافة المتوكل المذكور نحوا من خمس وأربعين سنة ومات فى أيامه كيرلس بطرك المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وقد وقعت فى أيامه شدّة عظيمة قاسى فيها النصارى من البلايا والمحن ما لا يكاد يدخل تحت الحصر وكبر الأمر على كيرلس البطرك وعظم الخطب فكان صبورا وقورا عظيم العناية بالأمة. فلما مات خلا الكرسى بعده ثمان سنوات، ثم أقيم بعده ابن القس أبو المكارم بن كليل الشماس المصرى وسمى اثناسيوس وهو سادس سبعيهم فأقام إحدى عشرة سنة ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شىء فاختاروا بعده شماسا اسمه غبريال أصابته القرعة فنقم عليه جماعة واختاروا آخر اسمه يوحنا فوقعت لذلك بينهم الشحناء فاشتد اللدد وطال الخصام وعمل كل فريق على نصرة صاحبه وتقوى أصحاب يوحنا وثبتت قدمهم فتمكنوا من

إقامته بطركا فكان سابع سبعيهم وأقام ست سنين وتسعة أشهر كلها منافسة ومعاكسة وخصام ثم قامـوا عليه وخلعوه وسجنوه بإحدى الديارات وولوا غبـريال مكانه فأقام ستين وشـهرين كانت الفـتنة فى خلالهمـا لا تخمد نارهـا ولا ينطفئ أوارها وكان المتأصلون لذلـك على طرفى نقيض وقد نادى بـينهما منادى القلق الـدائم والكمد الملازم ثم عاد أصحاب يوحنا فـتغلبوا وظفروا وقاموا على غبـريال فخلعوه وسجنوه وأخرجوا يوحنا من معـقله وأعادوه إلى منصب البطريكية ثانية فعد ثامن سـبعيهم. قال بعض كـتاب الأخـبار: وكان يوحنا هـذا رجلا جليل القدر وقـورا واسع العلم والمعرفة فلما اسـتقر به المنصب دبر الأمور فأحسن التدبيـر وعمل على إزالة الوحشة من بين الأحزاب وبالغ فى التلطف مع الحزم ففاز ونجح ومالت إليه القلوب واتحدت على محبته الخواطر فعظمت شهرته واتسعت كلمته وطالت أيامه وكان من الحوادث فيها ما سيذكر فى محله.

(الفصل الثامن)

(فى خلافة أبى الفضل المستعين بالله ابن المتوكل)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة المـتوكل على الله ابنه أبو الفضل العباسى بويع له به فى ثانى يوم وفاة أبيـه سنة ثمان وثمانمـائة هجرية أى سنة خمس وأربعـمائة وألف ميلادية ولقب بالمستعين بالله فلما استـقرت به الخلافة أدنى منه جميع الأمراء وتحبب إلى رجال الدولة واستمـال إليه العامة فمالوا إلى محبتـه ودانت له الأمور واجتمع الناس على طاعـته وبقيت الأحـوال ساكنة والخـواطر مطمئنة إلى سنة ثلاث عـشرة وثمانمائة فـوقعت فتنة عظيمـة بين السلطان الملك الناصر فرج وبين شـيخ المحمودى أحد كبار الأمراء فخرج عليه شيخ وشق عصا طاعته وكان شيخ المذكور أحد مماليك الملك الظاهر برقوق المقربين إليه وكان جليل القدر عـالما داهية واسع المعرفة والتدبير شدد فى مـعاداة الملك الناصـر ورماه بالكفـر والزندقة والانحـلال وتقرب من كـبار الأمراء واسـتمالهم إلى مـذهبه فوافقـوه عى خلع الناصر وتوليـته من يأهل لمنصب السلطنة فكاشف الخليـفة المسـتعيـن بالله بما فى نفســه وحبب إليه الملـك وأعلمه أن الأمراء والناس كافة ميـالون إلى مبايعته فمال الخليفة إلى السلـطنة وتاقت نفسه إليها وجعل شيخ المحمودى يراقب الفرص للإيقاع بالناصر فاتفق خروج الناصر من مصر إلى الشام ترويحا للنفس فلم يسـتقر به المقام بدمشق حتى سير إليـه الأمير شيخ من

يستقدمه إلى مصر ويسأله التنازل عن الملك طوعا قبل أن يحل به العطب فأكبر الناصر هذا الأمر وأعظمه وقبض على رسول الأمير شيخ وسجنه ونادى فى عسكر الشام بالخروج إلى مصر وجاءت الأخبار بذلك إلى الأمير شيخ فاستعدّ للقائه واشتد على الخليفة فى خلعه وقد أثبتوا عليه الزندقة والكفر وحكم ناصر الدين بن العديم بسفك دمه، واتفق رأى الأمراء كافة على سلطنة الخليفة المستعين بالله واستقلاله بالأمر فوافقهم الخليفة بعد شدة وتوثق منهم بالإيمان فبايعوه وحلفوا له على الوفاء فلم يغير لقبه وجلس على سرير الملك وقام الكل بين يديه ووردت بعد ذلك الأخبار بقرب السلطان الملك الناصر إلى حدود الديار المصرية فخرج الأمير شيخ فى عسكر عظيم ومعه الخليفة المستعين وجماعة من أكابر الأمراء فدخلوا الشام بغير قتال وجعل الخليفة يتصرف فى الأمور فقرر الأمير بكتمر جلق على نيابة الشام وقرقماس فى نيابة حلب وسودون الجلب فى نيابة طرابلس وجعل الأمير شيخ والأمير نوروز فى ركابه يدبران الأمر ونادى منادى الخليفة: ألا إن فرج بن برقوق قد خلع من السلطنة ومن حضر إلى أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين فهو آمن فتسلل الناس من الناصر ففر الناصر إلى مدينة حلب فلما علم به أهلها قام أناس منهم على أسواق البلد فنادوا نصر الله أمير المؤمنين فلما سمع الرماة ذلك تخوفوا على أنفسهم ولم يغيبوه وقبضوا على الناصر وقتلوه بحكم ابن العديم فى الخامس والعشرين من المحرم افتتاح سنة خمس عشرة وثمانمائة هجرية وكتب المستعين إلى القاهرة باجتماع الكلمة إليه وعزل الجلال البلقينى فأغضبه وفعل معه بعد ذلك ما فعل ثم أرسل المستعين كتابا ثانيا إلى من القاهرة من الأعيان فأرسل إلى الجامع الطولونى فقرأه خطيبه ابن النقاش على المنبر، ثم أرسل إلى الجامع الأزهر فقرأه خطيبه الحافظ بن حجر على المنبر وصدرت الكتب منه أيضا إلى أمراء التركمان والعربان والعشير فكان مفتتحها، من عبد الله ووليه الإمام المستعين بالله أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين، وابن عم سيد المرسلين، المفترضة طاعته على الخلق أجمعين، أعز الله ببقائه الدين إلى فلان ثم سار بالعسكر المصرى ومن انضم إليه أيضا من العساكر الشامية إلى القاهرة فدخلوا فى يوم الثلاثاء ثانى ربيع الآخر من السنة بعد أن تلقاهم الناس إلى قطيا والصالحية وبلبيس وحصل للناس من الفرح بذلك ما لا مزيد عليه وشق الخليفة القاهرة والأمراء بين يديه إلى قلعة الجبل فنزل بها ونزل الأمير شيخ الإسطبل بباب السلسلة فلما كان الثامن عشر من ربيع الآخر صعد الأمير شيخ والأمراء كافة إلى القصر وجبس الخليفة على تخت الملك فخلع على الأمير شيخ خلعة عظيمة بطراز لم يعهد مثلها وفوّض إليه أمر المملكة بالديار المصرية فى جميع الأمور وكتب له أن

يولى ويعزل من غير مراجعة وأشهد عليه بذلك ولقب نظام الملك فكان الأمراء إذا فرغوا من الخدمة بالقصر نزلوا فى خدمة الأمير شيخ إلى الإسطبل فأعيدت الخدمة إليه ليكون عنده الإبرام والنقض ثم يتوجه دواداره إلى الخليفة المستعين فيعلم على المنشورات والتواقيع وظل الحال على ذلك حينا وقد نودى فى الناس برفع المظالم والمكوس وغير ذلك مما أثقل الرعية فأحب الناس الخليفة المستعين جدا ومالوا إليه بقلوبهم وعمل الحافظ أبو الفضل ابن حجر فى المستعين قصيدته المشهورة التى مطلعها :

الملك أصبح ثابت الأساس   بالمستعين العادل العباسى

فلما كان فى شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة أمر الأمير شيخ دواداره أن لا يمكن الخليفة المستعين من كتابة العلامة إلا بعد عرضها عليه ففعل الدوادار ذلك فاستوحش الخليفة وضاق صدره وراجع الأمير شيخ فى ذلك فلم يلتفت إليه وسأله أن يفوّض إليه السلطنة على العادة فأجابه الخليفة بشرط أن ينزل من القلعة إلى بيته فلم يوافقه شيخ على النزول بل استنظره أياما فلم يفوّض إليه السلطنة فقام عليه ونقله من القصر إلى دار من دور القلعة ومعه أهله ووكل به من يمنعه الاجتماع بالناس فكتب المستعين إلى الأمير فيروز سرا يستنجده وكان يومئذ واليا على دمشق من قبل المستعين فأسرع لنجدته فى جيش عظيم للغاية فلما بلغ القاهرة جمع فى سابع ذى القعدة العلماء والقضاة واستفتاهم عما صنعه الأمير شيخ بالخليفة المستعين فأفتوه بعدم جواز ذلك فأجمع على قتال الأمير شيخ فاستمر الخليفة المستعين بالقلعة إلى ذى الحجة سنة ست عشرة وهو باق على الخلافة وتقررت قاعدة الصلح بينه وبين الأمير شيخ فعاد فيروز بعسكر الشام إلى دمشق وسكنت الفتنة بعد ذلك أياما قلائل، وعزم الأمير شيخ على الشخوص إلى الشام بعد رجوع الأمير فيروز فخاف من المستعين وخشى غائلته فراجع البلقينى فى أمره وكاشفه بما فى نفسه وكان فى نفس البلقينى من الخليفة المستعين شىء لكونه عزله من منصبه كما سبقت الإشارة إليه فأقام له دعوى شرعية وحكم بخلعه من الخلافة فخلع قهرا وسير إلى الإسكندرية فأقام بها مخلوعا إلى أن مات بالطاعون فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة هجرية فكانت خلافته نحوا من أربع سنين وكانت مدة جلوسه على تخت السلطنة سبعة أشهر وخمسة أيام وأقاموا بعده أخاه أبا الفتح داود .

(الفصل التاسع)

(فى خلافة أبى الفتح داود المعتضد)

ثم قام بالأمر بعد المستعين أخوه أبو الفتح داود بويع بالخلافة يوم خلع أخيه سنة ست عشرة وثمانمائة هجرية أى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة وألف ميلادية فلم يكن له فى أمور المملكة كلمة ولا رأى والأمر للأمير شيخ المحمودي فإنه بعد أن عاد من الديار الشامية وقد قرر أمورها على ما شاء قبض على زمام الملك واستبدّ بالمنصب فأحسن السياسة واستمال إليه الرعية وحذوا حذو الخليفة المستعين فى إبطال المكوس والمغارم والرفق بالرعية فأحبه الناس واجتمعت إليه القلوب وأمنت الرعية وسعدت البلاد ودرّت الأرزاق ورخصت الأقوات وكثر الوارد منها وأمنت الطرق واختفى أهل الفساد وأرباب الشقاوة. قال المقريزى: وأنشأ جامعه المشهور بجوار باب زويلة من داخله حيث كانت خزانة شمائل وأول ما ابتدئ به فى أمر هذا الجامع أن رسم فى رابع شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة وثمانمائة بانتقال سكان قيسارية سنقر الأشقر التى كانت تجاه قيسارية الفاضل ثم نزل جماعة من أرباب الدولة فى خامسه من قلعة الجبل وابتدئ فى الهدم فى القيسارية المذكورة وما يجاورها فهدمت الدور التى كانت هناك فى درب الصفيرة وهدمت خزانة شمائل فوجد بها من رمم القتلى ورؤوسهم شىء كثير إلى أن قال: وكان السبب فى اختيار هذا المكان دون غيره أن السلطان يريد المؤيد شيخ المحمودى حبس فى خزانة شمائل هذه أيام تغلب الأمير منطاش وقبضه على المماليك الظاهرية فقاسى فى ليلة من البق والبراغيث شدائد فنذر لله تعالى إن تيسر له ملك مصر أن يجعل هذه البقعة مسجدا لله عزوجل ومدرسة لأهل العلم فاختار لذلك هذه البقعة وفاء بنذره إلى أن قال وفى يوم الخميس سابع عشر شوال نقل باب مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاوون والتنور النحاس المكفت إلى هذه العمارة وقد اشتراهما السلطان بخمسمائة دينار وهذا الباب هو الذى عمل لهذا الجامع وهذا التنور هو التنور المعلق تجاه المحراب إلى أن قال: وبلغت النفقة على الجامع إلى أخريات شهر رمضان هذا سوى عمارة الأمير فخر الدين زيادة عن سبعين ألف دينار وتردد السلطان إلى النظر فى هذا الجامع غير مرة فلما كان فى أثناء شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين ظهر بالمئذنة التى أنشئت على بدنة باب زويلة التى تلى الجامع اعوجاج إلى جهة دار التفاح فكتب محضر بجماعة المهندسين أنها مستحقة للهدم وعرض على السلطان فرسم بهدمها فوقع

الشروع فى الهدم يوم الثلاثاء رابع عشريه واستمر فى كل يوم فسقط يوم الخميس سادس عشريه منها حجر هدم ملكا تجاه باب زويلة هلك تحته رجل فغلق باب زويلة خوفا على المارة من يوم السبت إلى آخر يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الأولى مدة ثلاثين يوما، قال: ولم يعهد وقوع مثل هذا قط منذ بنيت القاهر أهـ.

ومات السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى المذكور فى يوم الاثنين ثامن المحرم افتتاح سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر وستة أيام كلها راحة واطمئنان وإسعاد على الرعية فقام بعده ابنه السلطان الملك المظفر شهاب الدين أبو السعادات أحمد وعمره يومئذ سنة ونصف سنة فقام بأمره الأمير ططر فلم يحسن السيرة وأساء التدبير واستبد بالملك وأكثر من السرف والتبذير حتى بذر ما جمعه الملك المؤيد من الأموال وخرج بالمظفر مع حداثته يريد قتال الأمراء بالشام وذلك أنهم لما علموا بموت الملك المؤيد وولاية ابنه المظفر استخفوا به لحداثته وقصدوا الاستبداد بالملك والاستقلال بحكم الديار الشامية فخشى ططر من ذلك وخرج لقتالهم وإرجاعهم إلى الطاعة فسار فى جيش عظيم ومعه السلطان الملك المظفر فلما إلتقى الجمعان اقتتلوا قتالا عنيفا للغاية فظفر بهم الأمير ططر وشردهم وأخضع من بقى منهم وأخذ أموالهم وسبى نساءهم ومازال حتى دانت له الأمور فسار إلى دمشق وفى نفسه ما فيها من حب الاستبداد بالملك فلما استقر به المقام بدمشق قام على الملك المظفر فى شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة فخلعه وارتقى عرش السلطنة فى يوم الجمعة تاسع عشرى شعبان المذكور فكانت سلطنة الملك المظفر شهاب الدين ثمانية أشهر تنقص سبعة أيام، ولبث ططر بالشام أياما كان يدبر فيها الأمر لنفسه وتلقب بالظاهر وكنى بأبى الفتح وهو من مماليك السلطان الملك الظاهر برقوق وسير الأخبار بسلطنته إلى مصر فتعجب الناس من ذلك حيث لم يكونوا ليتوقعوا ولايته على هذه الصورة ثم سار من دمشق وهو متوعك البدن حتى دخل مصر وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل للغاية وأمامه الأمراء وكبار العسكر والجنائب السلطانية فلم يستقر بها حتى ثقل به المرض واشتدّ فمات يوم الأحد رابع عشرى ذى الحجة من السنة فكانت سلطنته ثلاثة أشهر ويومين، فأقيم بعده ولده السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد وعمره نحو عشر سنين فقام بأمره الأمير برسباى الدقماقى وجعل يتصرف فى الأمور فطمعت نفسه فى الملك فقام على الملك ناصر الدين بعد أربعة أشهر وأربعة أيام من ولايته وخلعه وتسلق عرش السلطنة ولقب نفسه بالأشرف سيف الدين وكنى بأبى النصر

وقد كان من مماليك الظاهر برقوق فكان جلوسه على تخت الملك فى يوم الأربعاء ثانى ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة هجرية. قال أصحاب التاريخ: وكان فاضلا عالما نحا نحو الملك المؤيد شيخ فى التزام الحزامة والعدل وعدم التهاون فى قضاء مصالح الخلق فأحبه الناس جميعا ومالوا إلى طاعته واجتمعت له القلوب فسعدت أيامه وأمنت الرعية وزالت الفتن وانقطعت أسبابها واختفى أهل الفساد وزاد النيل فى أيامه فعم الأراضى فأخصبت وكثرت غلتها كثرة عظيمة فرخصت الأسعار وشبع الفقراء وكانت له حروب كثيرة مع الفرنجة ووقائع مشهورة فى عدة أماكن وأخضع جزيرة قبرص وألزم الملك لوسبنيان الثالث بالطاعة والخضوع وضرب عليه الجزية فكان أجدر جميع الملوك الشراكسة بالمدح والشكران فقد كان أرفعهم همة وأكبرهم عزيمة وأشدهم حزامة وأقدرهم على سياسة الجمهور وتدبيرالأمور فطالت لذلك أيامه وعاهد ملوك الفرنجة والسلطان مراد سلطان آل عثمان فكبرت لذلك هيبته واتسعت شهرته وارتفعت كلمته وخافه الملوك والأمراء وتزلفوا إليه وهادوه بالهدايا النفيسة، فلما كانت سنة سبع وعشرين وثمانمائة هجرية خرج عليه بنيق النجاشى عامله على دمشق وشق عصا طاعته فسار إليه فى عسكر عظيم وقاتله حتى هزمه وقبض عليه وعلى دعاته فقتل بعضهم وشرد بعضهم وولى الأمير عبد الرحمن مكانه وكان عبد الرحمن هذا زنجيا أسود. قال أصحاب التاريخ: فلم يقع فى أيام السلطان الملك الأشرف المذكور من الحروب والفتن غير هذه الفتنة ولم تلبث أن تلاشت وعادت إليه الأمور بالديار الشامية كما كانت عليه من قبل واستمر يدبر الملك ويعدل فى الرعية إلى أن مات ثالث عشر ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته عشر سنين وتسعة أشهر.

فقام بالأمر بعده ولده يوسف ولقب بالملك العزيز وعمره يومئذ نحو خمس عشرة سنة فقام بأمره الأمير جقمق وسمى نظام الدولة وتسلم مقاليد الأمور فاستبد بها وتصرف حسب هواه وضيق على الملك العزيز فلم يبق له من الملك سوى الاسم فاستعظم الملك العزيز هذا الأمر جدا وجمع مماليكه وشاور كبارهم وأصحاب الرأى منهم فى أمر خلع جقمق من منصبه فوافقوه على ذلك وتجردوا لخلعه فأحس جقمق بما عزموا عليه وتحرز منهم وجمع كبار الأمراء وطوائف العسكر وخرج بهم على الملك العزيز فاقتتلوا أياما اختل فيها نظام الدولة وكثر عبث أهل الفساد وتطاولت أيديهم إلى أموال الناس وكادت الفتنة تعم حتى ظفر جقمق بالملك العزيز فقبض عليه وخلعه وارتقى منصب السلطنة فى التاسع عشر من ربيع الأول سنة اثنتين

وأربعين وثمانمائة فكانت سلطنة العزيز يوسف المذكور ثلاثة أشهر لاغير ولقب جقمق نفسه بالملك الظاهر وقبض على زمام الملك وصار يتصرف فى الأمور فعبث وأكثر من تقرير المغارم وضرب المكوس ولم يهتم بمصالح الرعية فأبغضه الناس وتشاءموا من ولايته ونفرت منه القلوب وظهر الطاعون بالقاهرة ومصر عقب ولايته واشتد الموت فى الناس شدة بالغة ثم عم البلاد ففتك بأهلها فتكا ذريعا فكان الناس يموتون بالأزقة والطرقات ولا يوجد من يدفنهم وطالت أيامه ثم ارتفع ولم ترتفع عن الناس المغارم ولا انكفت عنهم جباة المكوس وأعوان السلطان فكان الخليفة المعتضد بالله فى نكد وكمد بأسباب هذه المحن وما نال الرعية من فعال الملك الظاهر المذكور وكان يئن ويتوجع ويراجع الظاهرى ذلك والظاهر لا يلتفت إليه ولا يزداد إلا تشديدا فى الطلب فمرض الخليفة وثقل به مرضه فكان إذا جاءه أحد الأمراء ليعوده شكى إليه من فعال الظاهر بالرعية وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى فلما حضرته الوفاة عهد بالخلافة إلى شقيقه أبى الربيع سليمان ولقب المستكفى بالله وكتب له عهدا بذلك يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أشهد على نفسه الشريفة حرسها الله وحماها، وصانها من الأكدار ورعاها، الشريفة الطاهرة الزكية الإمامية الأعظمية العباسية النبوية المتعضدية، أمير المؤمنين، وابن عم سيد المرسلين، ووارث الخلفاء الراشدين، المعتضد بالله تعالى أبو الفتح داود أعز الله به الدين، وأمتع ببقائه الإسلام والمسلمين، أنه عهد إلى شقيقه المقر العالى المولى الأصيلى، العريقى الحسبى النسبى السليلى، سيدى أبى الربيع سليمان المستكفى بالله عظم الله شأنه بالخلافة المعظمة وجعله خليفته بعده ونصبه إماما على المسلمين عهدا شرعيا معتبرا مرضيا نصيحة للمسلمين، ووفاء بما يجب عليه من مراعاة مصالح الموحدين، واقتداء بسنة الخلفاء الراشدين، والأئمةالمحمديين، وذلك لما علم من دينه وخيره وعدالته وكفالته وأهليته واستحقاقه بحكم أنه اختبر حاله وعلم طويته،وأن الذى يدين الله به أنه إتقى لله ممن رآه وأنه لا يعلم أنه صدر منه ما ينافى استحقاقه لذلك وأنه إن ترك الأمر هملا من غير تفويض المشار إليه أدخل إذ ذاك المشقة على أهل الحل والعقد فى اختيار من ينصبونه للإمامة ويرتضونه لهذا الشأن فبادر إلى هذا العدل شفقة عليهم وقصدا لبراءة ذمته ووصول الأمر إلى من هو أهله لعلمه أن العهد كان غير محوج إلى رضا سائر أهله ووجب على من سمعه وتحمل ذلك منه أن يعلم به ويأمر بطاعته عند الحاجة إليه ويدعو الناس إلى الانقياد له فسجل ذلك على من حضره حسب إذنه الشريف وسطر عن أمره قبل ذلك سيدى المستكفى أبى الربيع سليمان المسمى فيه

عظم الله شأنه قبولا شرعيا، ومات الخليفة المعتضد بعد ذلك فى يوم الأحد رابع ربيع الأول سنة خمس وأربعين وثمانمائة هجرية واستقر المستكفى فكانت خلافة المعتضد نحو ثلاثين سنة هلالية .

ومات فى أيام الخليفة المعتضد المذكور يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام بطركا تسعا وعشرين سنة فخلا الكرسى بعده سنة ولم يقع فى أيامه من الحوادث شيء يذكر فأقاموا بعده ثاوروسيوس وهو تاسع سبعيهم وأصله من منية ابن خصيب من صعيد مصر واسمه عبدالمسيح وكان راهبا فى دير أبو قانة ولم يقع فى أيامه من الحوادث شيء يذكر.

(الفصل العاشر)

(فى خلافة أبى الربيع سليمان المستكفى بالله)

ثم قام بالأمر بعد المعتضد شقيقه أبو الربيع سليمان ولقب المستكفى بالله بعهد منه واستقر بالخلافة فى يوم الأحد رابع ربيع الأول سنة خمس وأربعين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وأربعين وأربعمائة وألف ميلادية. قال بعض كتاب الأخبار: وكان من صلحاء الخلفاء وعبادهم صالحا دينا عابدا كثير التهجد والتلاوة كثير الصمت حسن السيرة فلما رآه السلطان الملك الظاهر جقمق على هذا الحال اعتقده وعرف له حقه وأجله وعظم قدره وأحبه ولبثا على الصفاء والمودة حينا من الدهر فلم تقع فى أيامه فتن ولم تقم تلك الإحن التى كانت لا تقعد لها قائمة بأسباب بغض الأمراء بعضهم لبعض وتداخلهم فى أمور السلطنة وأحوال الدولة وميل كل منهم إلى الاستبداد بالأمر والاستقلال بأبهة السلطنة وانكف جقمق عن ضرب المكوس والمغارم على الرعية وأبطل بعضها خوفا من الخليفة فاطمأنت القلوب وسكنت خواطر الفقراء وأمنت الطرق واختفى أهل الفساد ودرّت الأرزاق وكثرت غلات البلاد وشبع الفقراء بعد الجوع وأمنوا بعد الخوف ولم تطل مدة خلافة المستكفى بالله إذ مات ليلة الجمعة سلخ ذى الحجة سنة أربع وخمسين وثمانمائة فكانت مدة خلافته نحو ثمان سنين كلها خير وبركة ولم يعهد بالخلافة لأحد فمشى السلطان فى جنازته إلى تربته وحمل نعشه بنفسه وتسابق الأمراء إلى ذلك وخرج الألوف من الناس أمام جنازته وبكوه بكاءمرا وبايع السلطان الملك الظاهرجقمق بعده أخاه أبا البقاء حمزة ولقب بالقائم بأمر الله.

ومات فى أيام الخليفة المستكفى ثاوروسيوس بطرك المتأصلين فكانت مدته ست سنوات أو نحوا منها وكان ورعا تقيا كثير الصدقات مجتهدا متهجداً ولم يقع فى أيامه من الحوادث شىء يذكر فأقيم بعده يوحنا رئيس دير شهران وأصله من منية ابن خصيب فهو الثمانون عددا لبطاركة الإسكندرية ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله .

(الفصل الحادى عشر)

(فى خلافة أبى البقاء حمزة القائم بأمر اللّه)

ثم قام بعد بالأمر الخليفة المستكفى أخوه أبو البقاء حمزة فى سلخ ذى الحجة سنة أربع وخمسين وثمانمائة هجرية أى سنة خمسين وأربعمائة وألف ميلادية ولقب القائم بأمر الله وكان شهما صارما أقام أبهة الخلافة وتعرض لأمور السلطنة واستمال إليه جماعة من كبار الأمراء وطوائف القواد فعظمت صولته وكبرت هيبته وتطاولت يده إلى فعل الدسائس وإفساد الأمور على السلطان الملك الظاهر جقمق فأحس السلطان بذلك فأبغضه ومقته وخشى عاقبة فعله وآثر العزلة والتخلى عن الملك على مناواة الخليفة وكان قد ناهز الثمانين فتنازل عن السلطنة لابنه فخر الدين عثمان وصرفه فى سائر الأمور وحذره من فعال الخليفة وكان كثير الحزن والاشفاق على ولده فل تطل بعد ذلك حياته ومات بعد قليل فكانت وفاته فى التاسع والعشرين من صفر سنة سبع وخمسين وثمانمائة فبايع الناس ولده فخر الدين المذكور البيعة العامة فى الحادى عشر من المحرم افتتاح سنة ثمان وخمسين ولقب بالملك المنصور وكانت سلطنة الملك الظاهر جقمق أربع عشرة سنة ونحو عشرة أشهر، ولم يستقر بالملك المنصور المنصب حتى عاد الخليفة القائم بأمر الله إلى دس الدسائس وإيقاظ الفتنة طمعا فى الملك فالتم حوله الدعاة واستفحل أمره وظهرت كلمته واشتد الخصام بينه وبين الملك المنصور وعمل كل على تذليل الآخر فتحزبت الأحزاب وانقسم الناس واختلفت الكلمة وعظمت الفتنة ومازال الرؤساء فى نزاع وخصام والأمر فى شدة واحتدام حتى تمكن الخليفة من خلع السلطان الملك المنصور فى سابع ربيع الأول من السنة فلم تكن مدة سلطنته سوى أحد وأربعين يوما أو أحد وثلاثين ولم يتمكن الخليفة من الاستواء على عرش السلطنة بعد خلع الملك المنصور إذ غادره الدعاة

وانصرف عنه الأحزاب واختاروا مملوكا اسـمه أبو النصر اينال وهو شيخ مسنّ فولوه الملك وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك الأشرف وذلك ثانى يوم خلع الملك المنصور.

ولما استقرت السلطنة بالملك الأشرف المذكور دبر فـأحسن التدبير وساس فأحسن السياسة ونظر فى مـصالح الخلق نظرة الصادق الأمين واتخذ الأميـر بلجيونى وزيرا ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحـاط بها فخاف الخليفة منه وخشى أمره وانكف عن المشاغـبة ولازم السكون ست سنوات وهو يتوقع فى كل سنة منهـا موت اينال نظرا لشيخوخـته فلم يمت ولما طال عليه الحال وعيل صـبره والنفس الأمارة تدفع به إلى ركوب ذلك المركب الخـشن قام وأثار الفـتنة فأحس بها بلجـيونى الوزير فـما أعلم السلطان حتى خرج الجند على الأشرف وخرج الخليفة معهم فقام عليهم الأشرف فى مماليكه وخواصه وقاتلهم قتالا عنيفا وظفر بهم وشرد الكثير منهم ومزقهم كل ممزق وأرجع من بقى منهم إلى الطاعة وأرسل فى طلب الخليفة فى قلعة الجبل فصعد بعد إقدام وإحـجام فلمـا دخل عليه عاتبـه وأغلظ معـه القول وزاد فى الغلظة فـغضب الخليفة وقـال للأشرف، ما بالك قد خلعت نفسى وعـزلتك؟ وكان ذلك غلطا منه، فقال قـاضى القضاة علم الدين البلقـينى: وكان حريصا على جـر الخلافة إلى أخى الخليفة يوسف لكونه زوج ابنته قـد بدأ بخلع نفسه فانخلع وثنى بخلع السلطان وهو غير خليفة فلم ينفذ ذلك وحكم بصـحة خلعه، وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمـسين وثمانمائة فـرسم السلطان عند ذلك بإخراج الخليـفة إلى الإسكندرية فأخرجوه مقـهورا مبعدا فأقام بالإسكندرية إلى أن مـات سنة ثلاث وستين وثمانمائة هجرية ودفن عند شـقيقه المسـتعين بالله العبـاسى. قال بعض كتاب الأخـبار: ومن غريب الاتفـاق أنهما شقـيقان كل منهمـا رام السلطنة وكل منهما خلع وكل منهـما سكن الإسكندرية ودفنا مـعا وحكم بخلعهـما قاضـيان أخوان ذلك خلعـه الجلال البلقينى وهذا أخوه العلم البلقينى وهوعجيب أهـ.

وخلا الجو للأشـرف اينال بعد ذلك فاستبـد بالملك وعاقب زعماء دعـاة الخليفة وخلع من كان يتـوسم فيه الشر من الأمـراء وكبار العسـكر ونظر فى أمور السلطنة بعين ساهرة ووافق علم الدين البلقينى فبـايع أبا المحاسن يوسف أخا القائم بالخلافة ولقب المستنجد بالله فكانت خلافة القائم بأمر الله نحوا من أربع سنوات وستة أشهر كلها معاندة ومحاسدة فسبحان من أودع فى كل قلب ما شغله .

(الفصل الثانى عشر)

(فى خلافة أبى المحاسن يوسف المستنجد بالله)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة القائم أخوه أبو المحاسن يوسف ولقب بالمستنجد بالله بويع له يوم خلع القائم بأمر الله فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وثمانمائة هجرية أى سنة أربع وخمسين وأربعمائة وألف ميلادية فكان حسن السيرة عاقلا رزينا فأحبه الأشرف اينال وأجله ووفاه حقه وأسكنه بدار إخوته الخلفاء بالمدينة وواصله بالعطايا والتحف وكان السلطان الملك الأشرف قد أنهكته متاعب السلطنة وثقل عليه حمل أعباء الدولة فأشرك معه ولده شهاب الدين أبا الفتح أحمد وسلمه مقاليد الأمور فسار فى الرعية سيرة تحمد وسلك مسالك الرفق وأحسن التدبير والسياسة وضرب بعض الدراهم باسمه ووفى السلطنة حق تدبيرها، فلما كان شهر جمادى الأولى سنة خمس وستين وثمانمائة وقد ثقل بالملك الأشرف اينال مرضه خلع نفسه وولى ابنه أبا الفتح المذكور ولقبه بالملك المؤيد فكانت مدة سلطنة اينال ثمان سنين وشهرين فاستقر ولده فى السلطنة واستقل بتدبير الملك وتصرف فى الأمور على أحسن ما يرام فحسده الأمراء واستولت عليهم الغيرة فقاموا عليه وخلعوه فقامت بسبب ذلك فتنة عظيمة وطالت أيامها وبقى الحال على ذلك حتى ولوا بعده فى الثامن عشر من رمضان سنة خمس وستين الأمير سيف الدين خوش قدم ولقبوه بالملك الظاهر فكانت مدة سلطنة المؤيد أربعة أشهر لا غير.

وكان خوش قدم هذا يعرف بالرومى وبالناصرى لأنه كان من مماليك الملك الناصر وكان عاقلا عالما واسع الدراية عظيم التدبير محبا للرعية ساهرا على ما فيه راحتها ميالا إلى الآداب اليونانية القديمة لأنه يونانى الأصل ولم يستوزر إلا كل عالى الهمة كبير الدراية خبيرا بالأمور فعم فى عهده الأمن البلاد وسعد أهلها وجرى أمراؤه على شاكلته فاجتمعت قلوب الأمراء والرعية على طاعته وانصرفوا عن الخليفة فلم يبق للخليفة من الأمور إلا الدين فقط فكان لا يتعرض لأحوال السلطنة ولايزاحم الظاهر عليها ومازال الظاهر مسموع الكلمة ينظر فى مصالح الرعية نظر الأب الشفيق والفتنة راقدة والعدل قائم حتى اخترمته المنية عاشر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته نحو ست سنين وستة أشهر فبكاه الناس بكاءً مرا وحزنوا عليه حزنا شديدا.

ولما كان اليوم الثانى من موته اجتمع الأمراء وكبار الجند وتشاوروا فيمن يصلح

للسلطنة فوقع اختيارهم على الأمير أبى سعيد بالباى أحد الأمراء المقدمين فبايعوه فى الحال ولقبوه بالملك الظاهر تفاؤلا فلم يستقر به المنصب حتى أظهر الغلظة فكان فظا مستبدا ظلفا عنيدا وكاد يفسد ما أصلحه السلف فأبغضته الرعية وانحرفت عنه خواطر الأمراء كافة فخاف من الفتنة وأوجس من الخليفة المستنجد فأنزله من داره من قلعة الجبل ووكل به من يراقب أموره فزاد بغض الأمراء له وكرهوا بقاءه فى دست السلطنة وتجردوا لخلعه ثم قاموا عليه قومة رجل واحد وخلعوه فى السابع عشر من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين وقيل فى سابع جمادى الأولى فكانت مدة سلطنته نحو ست وخمسين يوما وقيل ست وستين، ثم ولوا بعده الأمير تمربغا بايعوا له بالسلطنة فى ثانى يوم خلع الظاهر بالباى ولقبوه بالملك الظاهر أيضا فلم يكد يستقر به المنصب حتى ظهر إفساده وكثر عبثه وأطاع النفس الأمارة فقاموا عليه وخلعوه أيضا ففرحت بخلعه الرعية وكان خلعه فى العشر الأول من رجب من السنة فكانت سلطنته نحو تسعة وخمسين يوما .

وثم ولوا بعده الأمير قايتباى أحد مماليك جقمق وبايعوه فى ثامن عشر رجب المذكور ولقبوه بالملك الأشرف قايتباى فلما استقر به المنصب أخذ فى تدبير الأمور على ما فيه المصلحة وإصلاح ما أفسده السلف، وكان شهما جليل القدر مسموع الكلمة مهيبا واسع المعرفة بأحوال الرعية فأمنت البلاد على يديه واطمأنت خواطر أهلها، وكان بين ملك فارس ومصر معاهدة وعلاقة ودية قد مضى عليها حين وكان بين ملوك آل عثمان وملك فارس عداوة وخلاف كانت الحرب بسببهما لا تنطفى لها نار ولا يسكن لها إوار وظل الفريقان على قدم الحرب والجلاد حينا حتى ظفر السلطان محمد الغازى العثمانى بملك فارس وهزمه شر هزيمة ومزق شمل جنوده فلما جاءت الأخبار بذلك إلى الأشرف قايتباى خاف من السلطان محمد وأوجس شرا وخشى أن يهاجم الديار الشامية يوما فيسلخها عن ملك مصر ويضمها إلى أملاكه التى كانت بلغت يومئذ مبلغا عظيما فجيش الأشرف جيشا ضخما وسيره إلى الحدود ليدفع عنها غارات الجيوش العثمانية فعلم السلطان محمد بقصده ولم يلتفت إليه وخرج فى جيش عظيم يريد قتال الروم وأخذ بعض مدنهم فزاد قلق الأشرف قايتباى وهم بخلع نفسه من السلطنة وترك الأمور لمن يتولاها فخاف الأمراء وقواد الجند عاقبة تنازله ومنعوه من ذلك وجددوا له البيعة وبالغوا فى استرضائه فتولاها كارها وأخذ يتأهب لقتال السلطان محمد، وبينما هو على قدم التأهب والاستعداد إذ جاءت الأنباء بنصرة السلطان محمد على الروم وعزمه على الزحف على مصر

والشام وأخذهما وعمت الإشاعة بذلك وتحققت بتأهب السلطان محمد وإكثاره من جمع الأسلحة وآلات الحرب فكبر خوف الأشرف قايتباى وبالغ هو كذلك فى التأهب والاستعداد وصار يراقب الحوادث مع التحذر فلما تم للسلطان محمد ما أراد من ترتيب الجيوش ولم يبق عليه إلا تسييرهم إلى الشام فاجأته المنية فى مدينة طبقور جابر وجاءت الأخبار بذلك إلى الملك الأشرف قايتباى ففرح وظن بلوغ الغاية، ومات السلطان محمد عن ولدين هما بايزيد وجم المعروف عند أهل التاريخ باسم زيزم وكان بايزيد حاكما بأماسيا وجم حاكما فى بلاد القرمان فوقع بينهما الخلاف واشتد خصامهما على الملك واشتغلا عن الفتح بالمنازعة والمخاصمة فثار الانكشارية بسبب ذلك على قرمانى محمد باشا الصدر الأعظم يومئذ وقتلوه وعاثوا فى البلاد حتى كاد يختل نظام العسكر السلطانى فازداد اطمئنان الأشرف قايتباى وعاد إلى القاهرة بجيوشه ولبث يراقب الحوادث ويتنسم الأخبار واشتد الخصام بين ولدى السلطان محمد إلى حد القتال فقامت الحرب بينهما وطالت أيامها ودخل الأمير جم مدينة بورصة عنوة وقتل فيها من الانكشارية خلقا كثيرا فركب عليه أخوه بايزيد وقهره عند مدينة يكى شهر ففر بمن بقى من عسكره يريد الالتجاء إلى حمى الأشرف قايتباى فتبعه بايزيد بخيله ورجله إلى حدود الديار المصرية ثم رجع ظافراً منصورا ووصل جم إلى القاهرة فى نفر من خواصه فأكرمه الأشرف وأحسن لقاءه وأنزله مكانا رحبا فأقام عنده زهاء السنة ثم سار من مصر إلى حلب وأخذ يراسل الأمير قاسما آخر سلالة أمراء القرمان ويمنيه بأنه إذا أنجده ومكنه من تولى الملك مكان أخيه السلطان بايزيد رد إليه بلاد أجداده وعاهده على المودة والصفاء فمال إليه الأمير قاسم وجمع أحزابه وسار فى نفر كثير مع جم المذكور لمحاصرة قونية عاصمة القرمان فركب عليهم كذلك أحمد باشا أحد قواد العساكر العثمانية وهزمهم ومزق جمعهم ففر الأمير جم هاربا، وجاءت الأخبار بذلك إلى الأشرف قايتباى فتطير وزاد خوفه من السلطان بايزيد وعزم على مفاجأته والزحف عليه بالعسكر المصرى قبل أن يدهمه بايزيد بخيله ورجله وجعل من يومئذ يناوى الترك ويقطع على قوافلهم السبل ويشرد ركبهم الراحل إلى بيت الله الحرام وكان ملك الهند قد أرسل إلى السلطان بايزيد سفيرا فى أمر لا محل لذكره هنا فلما وصل السفير إلى مدينة السويس أمر الأشرف قايتباى فقبضوا عليه وجاءوا به إلى القاهرة وعوّقه عنده وزحف على أذنة فملكها عنوة وكذلك فعل بطرسوس وقد كانتا فى حوزة العثمانيين فاستعظم السلطان بايزيد ذلك وأكبر وسير سفراء إلى قايتباى فى طلب رد ما أخذه

المصريون من البلاد العثمانية فأرجع قايتباى السفراء بغير جواب وسير عسكرا كثيرا لقتال عساكر بايزيد فكبر كيد السلطان بايزيد وسير هو كذلك جيشا عظيما لقتال عسكر قايتباى فالتقى الجمعان واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا ثم انحازت العساكر المصرية إلى ملاطية فأخذها الأشرف قايتباى بخمسة آلاف مقاتل ثم كروا على جند بايزيد وهم فى مضايق الجبال وأعملوا فيهم السيف وقتلوا منهم خلقا كثيرا ومر من بقى وتحصن فى طرسوس وأذنة فأرسل قايتباى الأمير أزبك فى نجدة لإخراج العثمانيين منهما فقاتلهم أزبك قتالا شديدا وأبلى فيهم بلاء حسنا فشق هذا الأمر جدا على السلطان بايزيد وأكبره وآلى على نفسه أن يسترجع أذنة وطرسوس فأنفذ عسكرا عظيما مع صهره الأمير أحمد. وأحمد هذا ابن أمير البشناق ومولده فى بلاد الأرنؤد وتربى فى مهد النصرانية ثم أسلم ودخل فى خدمة آل عثمان حتى بلغ رتبة الإمارة فلما التقى الفريقان اقتتلا قتالا شديدا فانهزم الأمير أحمد وظفرت به الجنود المصرية وانتصروا عليه نصرة عظيمة ووقع أحمد المذكور فى قبضة الأمير أزبك فسار به إلى القاهرة مدحورا ووصل الخبر إلى السلطان بايزيد بما حل بأصحابه فكاد يتميز من الغيظ وجند جندا عظيما وعقد لواءه لأمير من كبار القواد اسمه على باشا فسار فى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة هجرية ونزل بجيوشه فى بلاد القرمان فعلم الأشرف بخبره وكثرة عساكره فتخوف وعمد إلى طلب الصلح وأنفذ إلى السلطان بايزيد صهره الأمير أحمد واسطة فى ذلك فأبى بايزيد إلا القتال وأحث جيوشه حتى التقت بجيوش الأشرف قايتباى فى أذنة وطوسوس فانتشبت الحرب بينهم فانهزمت جيوش قايتباى شر هزيمة وأخذ منهم العثمانيون أذنه وطرسوس وعاد من بقى من المصريين إلى مصر وفرح السلطان بايزيد بنصرة جيوشه فسار إلى أرمينية فى عسكر عظيم وحاصر تختها وافتتحها بعد قتال شديد وقبض على واليها وسيره إلى القاهرة بدلا من الأمير محمد استخفافا بالأشرف قايتباى فاستعظم الأشرف ذلك وسير الأمير أزبك ثانية فى جيش كبير للقتال فالتقى الفريقان عند طرسوس فواقعهم أزبك فكادوا يهزمونه فعاد إليهم وقارنهم ونال منهم فرجعوا القهقرى ولم يقدروا على القتال فعاد أزبك إلى القاهرة ظافرا غانما فأجله الأشرف وأدناه منه، وحسب الأشرف قايتباى عاقبة تلك الحروب وأوجس منها خيفة فأرسل إلى السلطان بايزيد فى طلب الصلح حقنا للدماء فلم يلتفت بايزيد إلى ذلك وأغلظ فى القول وطلب منه أن يتخلى عن أذنة وطرسوس فإن لم يفعل جاء لقتاله مع جميع دعاة آل عثمان فيفتح مصر عنوة ويعمل السيف فى أهلها فلا يرحم كبيرا ولا صغيرا فأذعن الأشرف

إلى ذلك وتخلى عنهما صاغرا وذلك سنة ست وتسعين وثمانمائة هجرية فانكف بايزيد عن قتاله وعاقده الصلح .

وكان الأشرف قايتباى مع كل هذه الحروب والخطوب كثير التحرز من الخليفة أبى المحاسن يوسف لا يركن إليه ولا يمكنه من شيء من أمور السلطنة ولا يبيح له النزول من قلعة الجبل إلى دار أجداده بالمدينة خوفا من تقرب الأمراء منه وقيام العامة لنصرته فلبث محجورا عليه بقلعة الجبل مقهورا مغلوبا لا يعلم من أحوال المملكة شيئا حتى مات فى يوم السبت رابع عشرى المحرم افتتاح سنة أربع وثمانين وثمانمائة هجرية، كان قد عهد بالخلافة إلى ابن اخيه عبدالعزيز أبى المعز يعقوب ابن المتوكل على الله فكانت خلافة المستنجد نحو ثلاث وعشرين سنة وبضع أشهر .

ومات فى خلافته يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام عشرين سنة وكان كامل الرأى صائب الفكر حسن التدبير محبوبا معظما قامت فى أيامه فتنة عظيمة بسبب ضعف الحكام وسقوط هيبة أصحاب الأمر والنهى فقام العامة على النصارى بالقاهرة وأغلقت جميع كنائسهم ومنعتهم من إقامة شعائر دينهم ثم عم هذا الأمر جميع الأقاليم القبلية والبحرية واشتدت نار الفتنة فوقع القتل والسبى والنهب والتخريب وأريقت الدماء هدرا فى الأزقة والحارات وعجز ولاة الأمر عن ردع العامة وزاد الخطب اشتدادا باشتغال السلطان الملك الأشرف قايتباى بقتال السلطان بايزيد وخلوا القاهرة وغيرها من المرابطين من العساكر والأجناد ومازال الحال على ذلك أياما كثيرة حتى سكنت الفتنة من نفسها وانكف العامة والناس جميعا فى تحرز فكان الخطب شديدا، ولما مات يوحنا البطرك المذكور أقام المتأصلون بعده يوحنا التاسع فكان حادى ثمانيهم ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله .

(الفصل الثالث عشر)

(فى خلافة عبدالعزيز أبى المعز يعقوب ابن المتوكل)

ثم قام بالأمر بعد المستنجد ابن أخيه عبدالعزيز أبو المعز يعقوب ابن المتوكل على الله بويع بالخلافة بعهد من عمه يوم الأثنين سادس عشر المحرم سنة أربع وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة تسع وسبعين وأربعمائة وألف ميلادية، فلما كان عصر يوم الاثنين المذكور صعد إلى قلعة الجبل وحضر القضاة والأعيان فأمضوا عهد عمه ولبس تشريف الخلافة ونزل إلى داره والقضاة بين يديه وكان قد أراد أن يلقب نفسه

بالمستعز بالله ثم وقع التردد بينه وبين المستعين أو المتوكل واستقر الحال على أن يلقب بالمتوكل على الله، فلما استقرت به الخلافة أحسن السيرة والتدبير وأدنى منه العلماء وتعفف عن أخذ ما يتجصل من مشهد السيدة نفيسة من النذور من زيت وغيره وصرفه في مصالح المكان من عمارة وغيرها وكان الخلفاء قبله يأخذون لأنفسهم أكثره ويفرقون ما يتبقى على من شاءوا من الزامهم فرفع ذلك كله فلما خبر السلطان الملك الأشرف حاله مال إليه وأحبه ولم يضيق عليه كما كان يفعل بعمه المستنجد ولكنه مع ذلك كان فى شاغل عنه بالأنباء المتراكمة عن السلطان بايزيد وخوفه من نقض الصلح واضطرام نار الحرب فكان قلق البال مضطرب البلبال وما زال على هذا الحال حتى مرض ومات فى الثانى والعشرين من ذى القعدة سنة إحدى وتسعمائة هجرية فكانت سلطنته تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وعشرين يوما فبكاه الناس وحزنوا عليه حزنا عظيما واجتمعت كلمة الأمراء كافة على تولية ولده أبى السعادات محمد فولوه يوم وفاة أبيه ولقبوه بالملك الناصر .

فلما استقر به المنصب أساء السيرة وعبث بالأمور وجار وظلم الرعية فكان جبارا غشوما عتلا زنيما لا رحمة عنده وكان شديد البغض للملة النصرانية على غير سبب وكان النصارى من أهل البلاد إلى هذا الحين لم يتمكنوا من لم شعث ما أفسدته الفتنة السابقة ولا إصلاح ماتهدم من كنائسهم ودورهم وغير ذلك فضيق عليهم وبالغ فى تذليلهم وأباح للعامة تتبعهم بالإيذاء ورفع القصص ضدّهم فكان الرجل منهم لا يشعر إلا وقد طرقوا بابه أو أدخلوه عنوة وأخذوا جميع ما وصلت إليه أيديهم من ملبوس وأثاث ثم يأخذون صاحب الدار حتى إذا نزلوا به عند باب داره ذبحوه أو أوقدوا حطبا وألقوه فيه على مرأى من أهله وولده واشتدت نار الفتنة وارتفع لهيبها فقتل وحرق خلق كثير وأغلقت الكنائس وسائر بيوت العبادة وتعطلت الشعائر الدينية، قال بعض أهل التاريخ: فتوجه الناس بقلوبهم إلى الله تعالى وضجوا وعجوا وللناصر بظلمه كل يوم فى شأن، فلما كان فى بعض الأيام اتفق أن مملوكا من مماليكه أذنب ذنبا صغيرا فأمر به الناصر فسلخ جلده حيا بين يديه فقام عليه عند ذلك طوائف المماليك ونادوا بخلعه فخلعوه كرها وحجروا عليه وضيقوا وتشاوروا فيمن يصلح للولاية فاتفقت كلمتهم على مبايعة الأمير قانصوه الملقب بخمسمائة وهو من مقدمى الأمراء ولقبوه بالملك الأشرف فكانت سلطنة الناصر ستة أشهر إلا أياما قلائل كلها عسف وجور لايطاق، فلما استقرت بقانصوه السلطنة رأى من

اختلال الأحوال وتفشى الفساد فى جميع أمـور المملكة ما أقعده عن التدبير وأعجزه عن القيام بمهام السلطنة فعالج الأمر فلم يفلح فأكثر من الأخذ والرد مع الأمراء فلم يتم له أمر فخلع نفسه فكانت سلطته خمسة أشهر لاغير وكان من أمره بعد ذلك ما سيـذكر فى محله إن شاء الله، وأمـا الخليفة المتـوكل فإنه أقام يدبر أمور الإمـامة لا يتعرض لشىء من أحوال المملكة عاكفا على ما بيده من حقوق الخلافة حتى مات فى يوم الجمعة الثـانى من صفر سنة ثلاث وتسعمائة ولم يعهد بالخـلافة لأحد من بعده فكانت خلافته نحوا من عشر سنين فاجتـمعت الكلمة على البيعة للخليفة أبى صابر ولقب بالمستمسك ومات فى خـلافة المتوكل الذكور يوحنا بطرك الإسكندرية بعد أن أقام ست سنين قضاها فى أنكد عيش وأضيق حال بين أسر واسترقاق وقد ذاقت فى أيامه النصارى من الرزايا والمحن أنواعا وأصنافـا وبموته أقيم بعده بنيامين وهو راهب من جبل سينا فكان ثانى ثمانيهم ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

(الفصل الرابع عشر)

(فى خلافة أبى صابر يعقوب المستمسك بالله)

ثم قام بعد الخليـفة المتوكل على الله أبوصابر يعقوب بويع بالخـلافة يوم السبت الثالث من صفر سنة ثلاث وتسعمائة هجرية أى سنة سبع وتسعين وأربعمائة وألف ميلادية ولقب بالمستـمسك بالله وكان حسن السيرة سليم السريرة محـبا للخير وأهله عاقـلا فأقام فى داره بالمدينة لا يـتطرف لشىء من أمور السلطنة ولا يتـعلق بأمر من أمور الدولة إلا ما كان بيده من النظر على المشهد النفيسى فمالت إلى محبته القلوب وهابه الأمراء واجتمعوا على طاعته ومال جماعة منهم إلى تسليم مقاليد السلطنة إليه فتـحزب آخرون للناصـر محمد وطلـبوا إرجاعه إلى تخت المـلك بعد تنازل الملك الأشرف وخلعه نفـسه وانضم إلى هؤلاء جماعة من الكبراء والعلمـاء ومازالوا حتى فازوا بإرجاعه وتسليم مقاليد الأمور إليه وظنوا إصلاح ما فسد من أخلاقه فلم يستقر به المنصب حتى عـاد إلى ما كان عليـه من الجور والعسف بالرعيـة وارتكاب المحرم والفحش مما لا خير فيه وتمادى فى جوره وظلمه فمقته الرعية وأبغضه الأمراء وندموا على توليته الملك وحقدوا عليه وكرهوا مماليكه والمقربين إليه وصاروا يراقبون الفرص للإيقاع به وطال الحال على ذلك أياما، فلمـا كان سادس عشر ربيع الأول سنة أربع

وتسعين خرج الناصر يريد الجيزة على عادته فكمن له كمين فى الطريق من المماليك وخرجوا عليه وضربوه بالسيوف وتركوه ملقى بالطريق وعادوا إلى القاهرة وأشاعوا خبر موته فاجتمع الأمراء وكبار الجند وتشاوروا فيمن يصلح للولاية بعده فاجتمعت كلمتهم على مبايعة خاله قانصوه الغورى فبايعوه فى يوم الجمعة سابع عشر من الشهر ولقبوه بالملك الظاهر وولوه السلطنة على كره منه إذا كان يعرف ماوراءها من المتاعب وما سيلاقيه من المصاعب، فلما استقر به المنصب رأى من فساد الأحوال ما أقعده وأضعف عزيمته وأبغضه فى الملك فتقاعس وترك الأمور تجرى فى أعنتها وتحجب عن الناس ومنع الأمراء من الحضور إلى خدمته وأغلق دون أهل الظلامات بابه بغضا منه فى السلطنة وكرها فلما أيس الأمراء منه وتحققوا من عزمه على اعتزال المنصب قاموا عليه وخلعوه فى أوائل ذى الحجة سنة خمس وتسعمائة فكانت سلطنته سنة وبضع أشهر وولوا بدله خاله جانبلاط الأشرف قايتباى ولقبوه بالملك الأشرف فتولاها والأمور مختلة والأحوال معتلة وسعد السلطنة فى إدبار فعالجها علها تستقيم فلم يفلح فصمم على خلع نفسه وهم بذلك فأجابوه إليه وخلع فى تاسع عشرى جمادى الآخرة سنة ست وتسعمائة فكانت مدته سنة وأشهرا وأياما.

واختل نظام السلطنة وزالت هيبة الدولة وتطاولت إليها أعناق الطامعين لكثرة العزل والتولية فلما رأى أمراء الشام ذلك وتحققوا أن ذلك إنما هو ناجم عن تفرق الأحزاب وانقسام الآراء وتباين الأهواء اختاروا من بينهم الأمير طومان باى وسيروا الرسل إلى أمراء مصر فى أمر توليته السلطنة فوافقوا على توليته وبايعوه جميعا وطيروا الأخبار بذلك إلى الآفاق ولقبوه بالملك العادل فقدم إلى مصر فى طائفة من الجند الشامى وصعد إلى قلعة الجبل وأمامه الأمراء المصريون ومقدّمو الجند والجنائب السلطانية ودقت لقدومه البشائر وتوسم الناس فيه سمة الخير واستبشروا به فلما قبض على زمام الأمور ورأى من تمرد الجند وإقدامهم على الكبائر بغير خوف ولا حساب لتفشى الخلل فى جميع الأمور وفساد الأحوال شدد عليهم وضيق وآخذهم على كل هفوة فأبغضوه وأضمروا له السوء وصاروا يراقبون الفرص للإيقاع به فأحس بذلك وأخذ يتحرز منهم ويعمل على تفريق كلمتهم وتذليل كبارهم فلم يفلح وقد أكثر المبغضون له وكبر خوفه منهم ففر واختفى أربعين يوما فجعلوا يفتشون عليه حتى عثروا به فى ذى القعدة من السنة فجاءوا به وقتلوه ومثلوا بجثته فكان يوما عبوسا كثر فيه بعد ذلك النهب والسلب والتخريب وإراقة الدماء وتمكن العدو من

عدوه فخاف حينئذ جميع الأمراء وانكمشوا ولم يقدم أحد منهم بعد ذلك على طلب الملك لاستفحال أمر الجند وتصرفهم فى جميع أمور الدولة ثم اجتمع جميع الأمراء وكبار الجند والأعيان والعلماء وأصحاب الوظائف العالية وتشاوروا فى الأمر طويلا ثم اتحدت كلمتهم على إرجاع الأمير قانصوه الغورى إلى دست السلطنة ثانيا لأنهم رأوا أنه لين الجانب سهل الإزالة أى وقت أرادوا خلعه خلعوه لأنه كان أقلهم مالا وأضعفهم حالا وأوهنهم قوة فلما كلموه فى ذلك قال لا أقبل إلا بشرط أن لا تقتلونى فإن رأيتم منى اعوجاجا وأردتم خلعى فأعلمونى فأنزل لكم عن السلطنة وأخلى بيعتكم فعاهدوه على ذلك فقبل منهم فبايعوه فى ذى الحجة من السنةوفرح العساكر ببيعته واستبشروا بولايته وظنوا بلوغ الغاية، قال بعض أهل التاريخ: وكان قانصوه هذا كثير الدهاء كبير المعرفة ذا فطنة وتجربة بالأمور إلا أنه شديد الطمع كثير الظلم جبارا طاغية فجعل يعالج الأمور حتى سكنت الفتنة بما عاهد عليه الجند واشتغلوا عنه وأهملوا أمره فأخذ يعمل التدبير على إهلاكهم وتمزيق شملهم وصار يلقى الفتنة بينهم ويأخذ هذا بهذا ويحرض طائفة على الأخرى ويدس لكبارهم السم فى الطعام ويباعد بين بعضهم والبعض بالأسفار والبعثات الطويلة ،وغير ذلك من الحيل حتى أفنى أكثرهم وأهلك جميع كبارهم وشرد أصحاب الكلمة فيهم وأضعف شوكتهم وأزال صولتهم وفرق كلمتهم وأذهب هيبتهم ثم اتخذ لنفسه مماليك جلبا وأعدهم جندا وبالغ فى ترتيب نظامهم فكانوا بعد قليل ضربة على الرعية يظلمون ويجورون ويعبثون بالخلق ويسلبون المارة وأبناء السبيل وظهر منهم غاية الفساد والجور وهو يتغافل عنهم والناس فى ضجر وابتهال إلى الله بقلوب مفعمة حزنا، فلما قويت بهم شوكته عمد إلى مصادرة الناس فى أموالهم بالقهر والبأس وكثرة أخذه للناس بالشبهات فكثر أصحاب السعاية على بابه فكانوا إذا علموا بأحد من مساتير الناس وشوابه عند السلطان فيرسل إليه أعوانه من أولئك المماليك ويأخذ أمواله بغير رحمة ويسلمه إلى من يعاقبه بأنواع العقوبات حتى يأخذ ما أخفاه من دنياه إلى أن يصبح فقيرا بعد غناه وعمت المصادرة فأخفى الناس أموالهم وتظاهروا بالفقر والمسكنة وعظم ملك قانصوه وكبرت هيبته وعلت كلمته حتى هابه ملوك الروم والمشرق والفرنجة وفك الأسرى منهم وكان له المواكب الهائلة والكلمة المسموعة ومهد طريق الحاج وأمنه فكان يسافر إليه من مصر النفر القليل و نزلت فى أيامه طائفة من الفرنجة على سواحل البحر الأحمر وصاروا يشنون الغارة

على قوافل التجارة التى كانت تأتى إلى مصر من الأقطار الهندية وبلاد العرب وغيرها فاستعظم قانصوه ذلك وسير جيشا عظيما لقتالهم فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا عنيفا فظفر الفرنجة وانتصروا على عساكر قانصوه نصرة عظيمة وأهلكوهم فلم ينج منهم أحد وكانت هذه الوقعة من أشد الوقائع وأشأمها على السلطان قانصوه إذ بدأ بعدها نجم سعده فى الأفول وسلطنة فى الانحلال، ولما كانت سنة ثمان عشرة وتسعمائة جاء إلى مصر الأمير كركور أخى السلطان سليم ابن السلطان بايزيد فارا من أخيه بعد قتال على الملك لا محل لإيراده هنا واستنجد قانصوه على قتال أخيه ففرح قانصوه بمقدمه وجهزه بعشرين سفينة حربية وأمده ببعض العساكر البرية وسيره لفتح القسطنطينية فسار بها كركور فخرجت عليه عمارة عظيمة من السواحل الشامية وقاتلته وشددت فى قتاله حتى أغرقت جميع المراكب المصرية ودمرتها فلما جاء الخبر بذلك إلى قانصوه ندم على ما فعل وخاف شر السلطان سليم وتحرز وبعث إليه سفراء فى طلب الصلح وعقد معاهدة على الولاء والمودة فلما تمثل السفراء بين يدى السلطان أغلظ عليهم فى القول وهددهم وقال لهم قولوا لصاحبكم ليست السلامة فى كل مرة وإن أنا إلا زاحف على القاهرة فسيلقى صاحبكم نارا حامية إن شاء الله تعالى فرجع السفراء وأخبروه بما كان فكبر خوف قانصوه وأزعجه الأمر وأخذ يراقب الفرص ويعلل النفس بالأمانى البعيدة، ومرض فى هذه الأثناء الخليفة المستمسك بالله وثقل مرضه فزاد خوف الأشرف قانصوه من قيام الفتنة أيضا فى داخل البلاد وخروج الأحزاب لاسيما وقد كان بعض كبار الجند والأمراء ناقمين عليه متحفزين للبطش به ومازال المرض يشتد بالخليفة حتى مات فى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هجرية فكانت خلافته نحوا من عشرين سنة ولم يعهد بالخلافة لأحد من بعده فعجل الأشرف قانصوه فى مبايعة ولده محمد المتوكل على الله وبايعه كذلك الأمراء والقضاة والعلماء خوفا من قيام الفتنة.

ومات فى خلافة المستمسك المذكور بنيامين بطرك المتأصلين بعد أن أقام إحدى عشرة سنة واشتد فى أيامه السلطان الملك الأشرف قانصوه على النصارى شدّة بالغة فصادر الكثير منهم فى أموالهم وضيق عليهم وزاد فى نكايتهم حتى عاقب بعض النساء بالجلد ونحوه وكان بنيامين هذا ورعا تقيا ساكن اللب عمر فى أيامه ديرابنابشوى فى برية شهات وبموته خلا الكرسى سنة ثم أقيم بعده بطرس ثالث ثمانيهم واسمه داود وكان راهبا بدير أبى مقار فأقام ثمان سنين ومات ووقع فى أيامه

من الشدائد والإحن ما وقع للنصارى فى أيام بنيامين فكان صبورا جلودا متواضعا فأقيم بعده مرقس وهو رابع ثمانيهم واسمه فرج الله وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل الخامس عشر)

(فى خلافة محمد المتوكل على الله ابن المستمسك)

ثم قام بالأمر بعد المستمسك ابنه الخليفة محمد المتوكل على الله بويع بالخلافة ثانى يوم موت الخليفة المستمسك سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هجرية أى سنة ست عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وفى اليوم المذكور صعد الخليفة المشار إليه إلى قلعة الجبل وألبس تشريف الخلافة بحضرة السلطان الملك قانصوه والقضاة والعلماء ونزل إلى داره بالمدينة فى دست الخلافة والقضاة بين يديه والتزم النظر بالمشهد النفيسى على ما كان عليه الخلفاء من قبل واحتجب عن الناس إلا القليل بأسباب الحوادث والفتنة القائمة وتشاغل عنه السلطان قانصوه بما هو فيه من تجنيد الجند وجمع الأسلحة والكراع لقتال السلطان سليم، فقد كانت الأخبار تأتى إليه فى كل يوم أشكالا لاسيما بعد أن سار السلطان سليم فى عسكر جرار لقتال إسماعيل شاه ملك فارس لما بينهما من العداوة القديمة. قال أصحاب التاريخ: وكان سبب هذه العداوة أنه لما عصى السلطان سليم وإخوته والدهم السلطان بايزيد استنجد الأمير أحمد شاه إسماعيل على قتال والده ثم على أخيه من بعده فساعده وقبل من التجأ إليه من أولاده وسير سفراء إلى سلطان مصر قانصوه فى طلب عقد تحالف سرى على الإيقاع بالدولة العثمانية وإيقاف سلاطينها عند حدّهم فعظم هذا الأمر على السلطان سليم وجيش جيشا عظيما لغزو بلاد فارس وأخذها جميعا من إسماعيل شاه ولما كان إسماعيل شاه لا يبدى حراكا ولم يفتح للحرب بابا وكان السلطان سليم على قدم الاستعداد للقتال دس لعماله فى الولايات المتاخمة لبلاد العجم أن يحصوا الشيعيين من العجم النازلين فى بلادهم فأحصوهم سرا فكانوا زهاء أربعين ألفا فأمر بقتلهم صبرا فقتلوا عن آخرهم ثم سار السلطان سليم بجيوشه إلى أدرنه فى الثانى والعشرين من المحرم افتتاح سنة عشرين وتسعمائة فكان كلما مر ببلد أو مدينة فتحها حتى وصل تبريز فلاقاه ملك فارس فى عسكر عظيم واحتدت نار القتال بين

الفريقين فانهزم ملك فارس ومن معه وساقت عساكر السلطان سليم خزائن ملك فارس وآلات حربه وذخيرة جنوده ومازال السلطان سليم يسير خلفه بخيله ورجله حتى وطأ أرض تبريز فقتل وأسر وأراق الدماء وأراد أخذ جميع بلاد فارس ومحو آثار هذه الدولة فلم يفلح لاشتداد القحط والغلاء وانتشار الوباء بين عسكره وبيعت العلو بمائة درهم وبيع الرغيف بمائة درهم وكان ذلك لانقطاع القوافل التى كان أعدها السلطان سليم لتأتى له بالمؤن والعلوفة فتخلفت عنه ولم يوجد بتبريز شيء من المأكول أو الحبوب حيث أحرق ملك فارس جميع الأجران وخرب المبانى وأفسد المزروعات لكى لا يتمكن السلطان سليم من شيء منها فاضطرب السلطان لذلك وخاف شر العاقبة وسأل عن سبب انقطاع القوافل فقالوا له إن سبب ذلك قانصوه الغورى سلطان مصر فإن بينه وبين ملك فارس عهدا على ذلك فقفل السلطان سليم راجعا بمن بقى من عسكره إلى مقر سلطنته وفى نفسه ما فيها وأخذ يتأهب لقتال قانصوه وسلخ مصر منه وأقسم أنه لا ينكف عن الحرب حتى يزيل عنها دولة المماليك الشراكسة ويبيدهم.

وكان من مقدمى الأمراء المصريين أميران أحدهما اسمه خيربك متولى حلب وثانيهما اسمه سيباى الغزالى متولى الشام وكان بينهما وبين السلطان قانصوه الغورى عداوة فى الباطن وقد علم السلطان سليم بذلك فراسلهما فى أمر قتاله بمصر فأوسعا له الأمل وسهلا عليه سبل العمل وحرضاه على ذلك وكشف له عن فساد الأحوال وعجز السلطان قانصوه عن القتال فأحس السلطان قانصوه بذلك وأخذ يراقب الأمور ويبعث بالعيون لتأتى له بصادق الأخبار حتى علم بتأهب السلطان سليم للحركة والقيام من دار سلطنته فأخذ هو كذلك فى التأهب وعرض العساكر والأجناد وجمع الأموال لنفقة الحرب وفتح خزائن البيسارية وحواصل الأمتعة فأخرجوا منها ما أرادوا من كراع وسلاح وأرسل إلى الخليفة المتوكل على الله أن يتأهب للخروج معه إلى حلب ونادى فى جميع العسكر بالتأهب والاستعداد فلما كان يوم الاثنين ثامن عشرى ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة أنفق على العسكر نفقة السفر فكان ما خص كل مملوك مائة دينار وجامكية أربعة أشهر ثمانية آلاف فضة وثمن جمل سبع أشرفيات ثم نادوا فى العسكر بالخروج فخرجوا فى يوم الجمعة سابع ربيع الآخر وساروا تباعا إلى الريدانية وعسكروا بها أياما ثم خرجت أطلاب السلطان وأمير المؤمنين الخليفة وبقية الأمراء والمباشرين وفى صبح يوم السبت خامس عشر

ربيع الآخرة اجتمع سائر الأمراء المقدمين عند السلطان بالميدان وهم بملابس التشريف فخلع عليهم الخلع السنية فكانت عدتهم خمسة عشر أميرا ثم رسم السلطان بتعيين الأمير طقطاى نائب القلعة أحد المقدمين والأمير بلرزمك المعروف بالناشف والأمير تابى بك العجمى أحد المقدمين وغيرهم من الأمراء نواب غيبة كل منهم فى مسنده حتى يرجع السلطان من هذه الحملة ثم خرج السلطان من باب الإسطبل الذى عند السلم المدرج وأمامه النفير السلطانى المسمى بالبرغيشى وهو فى موكب عظيم وأبهة زائدة وكان يتقدم هذا الموكب ثلاثة أفيال مغشاة بالصناجق وخلفهم العساكر بملابس التشريف تباعا ثم الأمراء رؤوس النوب بالعصى ثم أرباب الوظائف من المباشرين ثم ولد السلطان وبجانبه الأتابكى سودون العجمى ثم القضاة الأربعة ثم أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله محمد ابن المستمسك يعقوب العباسى وهو لابس العمامة البغدادية التى بالعذبتين وعليه قباء بعلبكى بطراز أسود حرير ثم سارت الجنائب السلطانية فكانوا طوالتين من الخيل من أحسن الجياد بعراقى وسروج بفواشى من الحرير الأصفر وطبول وزمور وطوالتين آخريين بكياس وسروج ذهب ومياثر زركش وخلفهم جماعة من رؤس النوب مشاة والجاويشية والطيردارية مشاة بالأطيار ثم البقج والمجامع مغطاة بالحرير الأصفر ثم البخورى بالمنجرة. قال بعض كتاب الأخبار: ثم أقبل السلطان الملك الظاهر قانصوه وكان الخليفة أمامه بنحو العشرين خطوة والسلطان راكب على فرس من جياد الخيل وعلى رأسه كلوتا وهو لابس قباء بعلبكيا أبيض بطراز مزركش والصنجق السلطانى على رأسه وشبل العثمانى مقدم المماليك خلفه ومعه السلحدارية والجم الغفير من الخاصكية والجمدارية ودخل من باب زويلة وشق القاهرة بموكبه هذا فضج الناس له بالدعاء ومازال حتى خرج من باب النصر وسار إلى المعسكر بالريدانية ونزلت فى غروب ذلك اليوم من قلعة الجبل جميع الخزائن السلطانية وكان فيها من الذهب زهاء ألفى ألف دينار نقرة وكثير من الفضة والنحاس ثم نزلت الزردخانة وهى محملة على مائة جمل ونادى المنادى سادس عشر الشهر المذكور بخروج من تعوق من العساكر والأجناد بالقاهرة ومصر القديمة وأن السلطان على عزم السفر يوم الجمعة عشرى الشهر فخرج من بقى ورسم السلطان لجماعة من نواب الشافعية ونواب الحنفية ونواب المالكية ونواب الحنابلة أن يرافقوه فى هذه الغزوة ورسم بذلك لجماعة من مشايخ الحقيقة والأئمة ومشايخ القراء والمؤذنين والكتاب وجماعة من الأطباء والكحالين والحلاقين والمغنين

وجماعة كثيرة من البنائين والنجارين والحدادين ثم قام الركب وسار إلى الديار الشامية ولبث السلطان بالريدانية فى نفر من خواصه وكبار أمرائه أياما فجاءته الأخبار من عامله على حلب بأن السلطان سليم لايريد إلا المصالحة وحقن الدماء وعدم الاندفاع إلى حرب ربما كانت عاقبتها عليه وخيمة فسر السلطان الظاهر بهذا الخبر واعتقد صدق مقال السلطان سليم والأمر على عكس ذلك فقد كان هذا القول خدعة من السلطان سليم ومداهنة لغاية فى نفسه، فلما كان يوم السبت ثانى عشرى ربيع الآخر سار السلطان الملك الظاهر قانصوه من الريدانية وصحبته أمير المؤمنين الخليفة والقضاة الأربعة وولده المعز الناصرى وأقباى الطويل وذلك بعد صلاة الضحى يريد الخانقاه السرياقوسية فكانت مدّة لبثه بالريدانية سبعة أقليم وأقام بالخانقاه يوما وليلة ورحل عنها فى يوم الأحد ثالث عشريه، وكان بمصر من أولاد أحمد بك أخى السلطان سليم غلام اسمه قاسم وكان سبب حضوره إلى مصر أنه لما قام السلطان سليم على أخيه أحمد أبى قاسم المذكور وقتله خافت أم أحمد عليه فسلمته إلى مربيه من الخصيان وأشارت عليه بالهرب إلى الديار الشامية فهربا معا إلى حلب وهما فى هيئة مبتذلة فدخلاها فلبثا بها حينا فلما علم السلطان الملك الظاهر بأمر الصبى المذكور كاتب عامله على حلب فى أمره ورسم بتسييره إلى مصر فجاءها مع مربيه وأقاما بها متنكرين فلما عزم السلطان الظاهر على الشخوص إلى الشام جهز الأمير قاسما المذكور فى عدة من المماليك والفرسان والخدم والحشم ودواب الحمل وقيد بخدمته الأمير ماماى الصغير المحتسب ورسم بخروجه خلفه إلى الشام فى هذه الأبهة والكبكبة كى يشيع خبره ويعلم الناس فى دار السلطنة العثمانية أن بمصر غلاما من سلالة ملوكهم فيخرجون على السلطان سليم بسببه وينحازون إليه فتضعف شوكة السلطان سليم وتسقط هيبته فيظفر به ويعود منصورا وكان الصبى المذكور لم يبلغ من العمر سوى الثالثة عشرة فخرج فى غرة جمادى الأولى من السنة فى موكب حافل وشق من صليبة ابن طولون وعلى رأسه عمامة تركمانية وفى وسطه خنجر وفى أذنه قرط مثمن للغاية وخلفه جماعة من العثمانيين والأمير ماماى المحتسب والأمير اينال باى دوادار سكين ولحق بالركب السلطانى كما رسم الظاهر قانصوه.

ودخل السلطان الملك الظاهر قانصوه بجيوشه إلى الصالحية فى يوم الثلاثاء خامس عشرى ربيع الآخر ثم سار منها إلى قطيا فلاقاه نائبها ومدّ له الموائد وجهزه

بمالاق وسار منها فدخل مدينة غزة فى يوم الخميس رابع جمادى الأولى فلاقاه الأمير دولت باى نائب غزة فأقام بها خمسة أيام ثم رحل عنها إلى دمشق فدخلها يوم الاثنين ثامن عشرى جمادى الأولى فلاقاه الأمير سيباى الغزالى نائب الشام وأظهر الفرح بقدومه ومشى فى ركابه فدخل وأمامه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء وأرباب الوظائف من المباشرين والجم الغفير من العساكر والناس فلاقاه بها جميع أمراء الشام وعسكرها وحملوا القبة والجلالة على رأسه كما جرت عادة الملوك من القدم وزينت له المدينة ودقت البشائر بقلعة دمشق ونثر على رأسه بعض تجار الفرنجة الذهب والفضة وفرش له سيباى الغزالى تحت أقدام فرسه الشقق الحرير خديعة وغشا فشق وسط المدينة ودخل من الباب المسمى باب النصر وخرج إلى القضاء وسار نحو المصطبة السلطانية بناحية فانول فنزل بها ورسم بعمارتها فرموها. قال أصحاب التاريخ: ولم يتفق هذا الموكب لغيره من ملوك مصر إلا للملك الأشرف برسباى لما سار إلى دمشق سنة ست وثلاثين وثمانمائة، وأقام السلطان بالمصطبة تسعة أيام ثم رحل عنها إلى حمص ثم إلى حماة فلاقاه عالمها قباى بردى الغزالى وبالغ فى تعظيمه وعمل له موكبا حافلا جدا فأقام بها أياما حتى جاءه الأمير قاسم أخو السلطان سليم فأنزله بها وسار هو بعسكره ومتاعه قاصدا حلبا فدخلها فى يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة فى موكب حافل ومشى أمامه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة وسائر الأمراء وحملت له القبة والجلالة وكان الحامل لها الأمير خيربك عامله على جلب فلم يستقر بالسلطان المقام حتى وفدت عليه رسل السلطان سليم وهم ركن الدين قاضى عسكره وأمير اسمه قراجاه باشا وفى ركابهما سبعمائة راكب فأنزلهم قانصوه فى أحسن مكان وأكرم وفادتهما ودعاهما إلى مقامه وجعل يعاتبهما ويشكو من فعال السلطان سليم وإقدامه على سفك الدماء التى حرم الله سفكها فلاطفاه وهونا عليه الأمر وقالا قد جئنا إلى مقامك وكلانا مفوض فى إجراء كل ما تحب وتختار بشرط أن لا تتعرض لنجدة ملك فارس وقالا إن السلطان يريد أن ترسل إليه سكرا وحلوى من محصول بلادك فسر الظاهر قانصوه بذلك وظن السلامة والإخلاص وأرسل إليه ما طلب ولم تكن نية السلطان سليم من إرسال هذا الوفد إلا ليسير غور الأمور ويعرف أحوال جيوش الظاهر قانصوه وماعندهم من سلاح وكراع وكان السلطان سليم قد وصل فى هذه الأثناء إلى قيسارية ثم خلع الظاهر على رسل السلطان سليم خلعا سنية ورسم

للأمير مغلباى دوادار سكين بأن يتوجه إلى السلطان سليم رسولا ومعه بعض التحف وكثير من الهـدايا الثمينة وكتاب يعرب عن المودة والولاء والإشـارة إلى تقرير قاعدة للصلح بين الفريقين لحسم المشاكل وقطع أسبـاب الخصومة ولبث ينتظر الجواب فلما أبطأ رسوله جمع جميع الأمراء المقـدمين والألوف والنواب وأمراء الطبلخاناه وأمراء العشراوات واسـتحلفهم على القرآن بأن يكونوا له عـونا على العدو ولا يخونوه ولا يخالفـوا له أمرا ولا يغدروا به فحلفـوا جميعـا وحلف معهم خيـر بك والغزالى ثم نادى في العسكر بالعرض فى الميدان فعرضوا وهم باللباس الكامل ثم مروا من تحت سيفين قد نصبا على شكل قنطرة كعادة الأتراك، وعندهم أن هذا هو القسم الأعظم وأرسل السلطان قانصـوه إلى الأمير قاسم بن أحـمد بحماة فجـاء إلى حلب فخلع عليه وأذاع خبره وطيره إلى الآفاق وجـعل يتأهب وبينما هو على هذا الحال إذ جاءه الخبر بأن الـسلطان سليم قبض على الأمير مـغلباى الذى سار إليه بالهـدية والكتاب وكبله بالحديد وأبى إلا القتال وقطع دابر الظاهر وأصـحابه واستخلاص البلاد منهم، وساق السلطان سليم بعد ذلك بعسكره إلى عنتاب وفـتح قلعة ملطية وبهنسا وكركر وغيـرهما مـن القلاع فاضـطرب الملك الظاهر وتحيـر فى أمره ونادى فى طائفـة من العسكر بالخروج إلى لقائه فخرج أمير اسمـه عبدالرزاق بعسكره وخرج معه خير بك فى نفر من جنده أيضـا فكانت عدتهم خمـسة آلاف ونزلوا على قيـد يوم من مدينة حلب ثم خرج بعدهم سيباى الغزالى نائب الشام والأمير تمراز نائب طرابلس والأمير طراباى نائب صفد ونائب حـمص ونائب غزة وتتابع خروجهـم بالعسكر والأسلحة فى اليوم السابع عـشر من رجب وخرج بعد ذلك من بقى وساروا قاصـدين جبلات ووردت الأخـبار بذلك إلى نائب الغـيـبة بمصـر فأطلق بـعض المحابيس من النسـاء والرجال وفـرق الصدقـات ودعا الناس إلى الدعـاء للسلطان الملك الظاهر قـانصوه بالنصر والتأييد .

وعـاد فى هذه الأثناء إلى حلب الأمـير مـغلبـاى دوادار الذى سـار إلى مقـام السلطان سليم رسولا بالكتاب والهدية وهو فى أسوء حال من العرى والتعب وأخبر الظاهر بما ناله من السلطان سليم وتصميمه على القتال ومحو أثر دولة الغورى فهال الملك الظاهر هذا الأمر وأزعجه وخرج من حلب فى يوم الثلاثاء العشرين من رجب ومعـه أمير المؤمنين الخليـفة المتوكل على الله العـباسى والقضاة الأربعـة وساروا إلى جبـلان فبات بها ليلـة وأصبح فرحل عنها إلى مـرج دابق فأقام بهـا إلى يوم الأحد

سابع عشرى رجب فجاءته الرسل من قبل السلطان سليم تدعوه إلى القتال فنادى فى العسكر بالخروج وركب هو وعليه تخفيفة صغيرة وملوطة وعلى كتفه طير وأخذ يرتب صفوف العسكر ويختار لها مواقع القتال ثم وقف بخواصه الذين يعتمد عليهم فى قلب الجيش وعلى يمينه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة وعلى كتفه طير مثل السلطان وعلى رأسه الصنجق الخليفى وكان حول السلطان أربعون مصحفا فى أكياس من الحرير الأصفر على رؤوس جماعة من الأشراف وبينهم مصحف بخط الإمام عثمان بن عفان وحوله أيضا جماعة من الفقراء وهم خليفة أحمد البدوى ومعهم العلم الأحمدى والقادرية ومعهم علم أخضر وخليفة السيد أحمد بن الرفاعى ومعه العلم الخليفى والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة ومعه علم أسود والأمير قاسم ابن أخى السلطان سليم واقف بإزاء الخليفة وعلى رأسه صنجق من الحرير الأحمر وكان خلف السلطان الظاهر الصنجق السلطانى وتحته سنبل العثمانى مقدم المماليك والقضاة الأربعة والأمير تمراز الزردكاش أحد المقدمين واصطفت جيوش السلطان سليم وارتفعت أعلامهم فبرز من جيوش السلطان الملك الظاهر الأتابكى سودون العجمى بعسكره والأمير سيباى الغزالى نائب الشام والمماليك القرانصة للقتال فالتقى الجمعان واقتتلا قتالا عنيفا للغاية فانهزم عسكر السلطان سليم وتقهقروا إلى الوراء فساق خلفهم سودون العجمى وأصحابه وغنموا منهم سبعة صناجق ومكاحل وأسروا منهم عددا كثيرا من رماة البنادق وكادت تتم هزيمتهم وكان خير بك عامل حلب والغزالى والى الشام قد راسلا السلطان سليم واستوثقا منه لأنفسهما بأن يعطى خير بك مصر والغزالى الشام فلما التحم الجمعان واضطرمت النيران وكادت تتم هزيمة عسكر السلطان سليم فر خيربك بمن معه وكانوا فى الميمنة وانضموا إلى صفوف العدو وفر الغزالى بمن معه من العسكر الشامى وكانوا فى الميسرة وبقى السلطان الملك الظاهر بمن معه من خواصه فى القلب فاندفع عليه من بقى من عساكر السلطان سليم فأراد الهرب وحول وجه جواده يريد حلبا فقط ومات تحت سنابك الخيل وقيل أصابه فى الحال فالج فلم يملك نفسه فمات لساعته فانقض عسكر السلطان سليم على من كانوا حوله فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين وكثيرا من الخاصكية والغلمان وشردوا من بقى ووطئوا المصاحف والأعلام بسنابك الخليل ونهبوا ما وجدوه فى المعسكر المصرى وزال من تلك الساعة ملك السلطان الملك الظاهر قانصوه فكانت مدة تصرفه فى

ملك مصر والشام وأعمالها خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما فقد كان ولى الملك فى مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ومات فى الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة، وقتل فى هذه الوقعة من الأمراء المقدمين عدة كثيرة وقتل سيباى نائب الشام عند فراره للانضمام إلى عسكر السلطان سليم وعدة أخرى من العمال والنواب وقد ستر وجه الأرض بالجثث من الإنسان والحيوان فكان المشهد مريعا للغاية والخطب شديدا ودخل السلطان سليم وطاق الملك الظاهر فأخذ جميع ما فيه من مال وسلاح وكان شيئا كثيرا وانحاز من بقى من عساكر الظاهر إلى مدينة حلب ليتترسوا فيها فقام عليهم أهلها جميعا ومنعوهم من الدخول وقاتلوا دونها فقتلوا من العسكر خلقا ونهبوا ما كان معهم من سلاح ومتاع وخيول وغنموا ودائعهم التى كانت بالمدينة فارتد من بقى وساروا إلى دمشق فدخلوها وهم فى أسوء حال ما بين ضعيف وجريح بلا لباس ولا سلاح ولحق بهم بعض المتشردين من المباشرين ومن بقى من الأمراء الكبار ولبثوا بها أياما بلا ماء ولازاد إلا القليل جدا وأقام السلطان سليم خارجا عن حلب بالمكان المعروف بميدان حلب حتى تكامل ورود عسكره وجمعوا الأسلاب والغنائم فسار إليه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله يعقوب والقضاة الثلاثة وهم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة محيى الدين الدميرى المالكى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى أما قاضى الحنفية محمد بن الشحنة فكان قد هرب مع العسكر إلى دمشق فناله ما نالهم فلما دخل الخليفة قام له السلطان سليم وأجله وأجلسه وجلس بين يديه ولم يلتفت إلى القضاة ولم يجلهم ثم رسم للخليفة بالمقام فى مدينة حلب وخلع عليه خلعة سنية من مال وملبوس ووكل به من يحرسه ثم صرف القضاة على غير صورة، وخرج إليه بالميدان أمراء حلب فتسلم المدينة وارتفعت راياته على حصونها بلا حرب ولا جلاد وغنم جميع ما كان بها من مال وسلاح وتحف وغير ذلك وهرب قانصوه الأشرف نائب قلعتها وسار إلى الشام مع من هرب من العسكر. قال بعض كتاب الأخبار: وكان بالقلعة من المال ما قيمته مائة ألف ألف دينار خلاف أوانى الذهب والفضة والتحف النفيسة وصلى السلطان سليم صلاة الجمعة فى جامع الأطروش بحلب فخطب الخطيب باسمه ودعا له ولأسلافه وبالغ فى المدح والتعريف وعند ما سمع السلطان سليم الخطيب يقول فى تعريفه: خادم الحرمين الشريفين، أظهر الفرح والسرور بلقب خادم الحرمين الشريفين وخلع على الخطيب خلعا متعددة

وهو على المنبر وأحسن إليه إحسانا كثيرا فلما خرج من الصلاة زينت له المدينة وأوقدوا له الشموع على أبواب الدكاكين وارتفعت له الأصوات بالدعاء فأقام بالميدان أياما وهو يرتب الأمور ويجرى الأحكام ويمهد العقبات ثم ارتحل إلى الشام فخرج من كان بها من العساكر المصرية هاربين وخرج إليه أهل دمشق وطلبوا الأمان فأمنهم ودخل المدينة فى موكب حافل للغاية وأقام بها أياما وخطب له بها الخطباء ووصل من بقى من العسكر المصرى والأمراء إلى القاهرة وهم فى أسوء حال من العرى والجوع والضعف وبينهم كثير من المرضى والجرحى فقام العزاء بالقاهرة على السلطان ومن مات من الأمراء والعسكر والمباشرين وأرباب الوظائف وكثر البكاء والنواح فى جميع البيوت فكان الخطب عظيما والحزن عاما، وجاءت الأخبار إلى الأمير طومان باى الدوادار متولى الغيبة بعزم السلطان سليم على الزحف بجيوشه على القاهرة فهاله الأمر وأزعجه وجمع من بقى من الأمراء المقدمين وأمراء الطبلخاناه وأمراء العشراوات وتكلموا فى الأمر طويلا فاتفقت كلمتهم على تولية الأمير طومان باى المذكور منصب السلطنة فامتنع فألحوا عليه فلم يقبل وأظهر غاية الامتناع ثم ركب وركب معه من الأمراء المقدمين الأمير علان والأمير أنسيباى حاجب الحجاب والأمير تمر والأمير بقطاى نائب القلعة وآخرون غيرهم وساروا إلى كوم الجارح عند الشيخ أبى السعود وكان للأمير طومان باى معرفة ثابتة به وصحبة فذكروا للشيخ ما وقع للعساكر المصرية بمرج دابق وما حل بالسلطان قانصوه الغورى وعزم السلطان سليم على الزحف بجيوشه على القاهرة ورغبتهم فى مبايعة الأمير طومان باى بالسلطنة وامتناعه وطال بهم الكلام فى ذلك فقام الشيخ وأحضر المصحف واستحلفهم جميعا على أنه إذا قبل الأمير طومان باى المنصب لايخونونه ولا يغدرونه ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله فحلفوا جميعا على ذلك ثم أعاد عليهم اليمين ثانيا أن لا يظلموا الرعية ولا يجددوا الأحداثات من المشاهرة والمجامعة التى أحدثها الغورى وأن يبطلوا ما على الحوانيت من ذلك وأن يجروا الأمور على ما كانت عليه أيام الملك الأشرف قايتباى ويسيروا الحسبة على طريقة يشبك الجمالى عند ما كان متوليا عليها فحلفوا له على ذلك وقاموا من عنده وقد قبل الأمير طومان باى المنصب وأطاع، فلما كان يوم الجمعة رابع عشر رمضان من السنة صلى الأمير طومان باى صلاة الفجر وركب فركب معه الأمراء المقدمون وأمامهم الفوانيس بالشموع والمشاعل وشق من صليبة ابن طولون وهو بتخفيفة

صغيرة وملوطة بيضاء وكذلك الأمـراء الذين معه فارتفعت له أصوات الناس بالدعاء وصعد إلى باب السلسلة وجلس به وأرسل يستدعى أمـير المؤمنين يعقوب والد أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله فحضر ومعه هارون ولد الخليفة محمد المتوكل على الله وأولاد ابن عم خليل وحـضر قـاضى القضـاة الحنفى حـسام الدين مـحمـد بن الشحنة والقاضى شرف الديـن يحيى بن البردينى أحد نواب الشافعيـة وجماعة من نواب القـضاة الذين بالقـاهرة فلما تـكامل المجلس اجتـمع سائر الأمـراء المقدمـين وغيرهم من الأجناد والعـسكر فأبرز أمير المؤمنين يعقوب ورقـة بالوكالة المطلقة عن ولده المتوكل على الله فتليت بحضرة من حضر وبعد ذلك تقدم الخليفة يعقوب فبايع الأمير طومان باى بالسلـطنة وبايعه هو أيضا وشهد عليهمـا بذلك الشرف يحيى بن البردينى وجماعـة من نواب القضاة فلما تمت له البيعة أحـضروا له الخلعة السلطانية وهى جبة سـوداء وعمامة سـوداء وسيف بدوى ولقبوه بالملك الأشـرف ثم قدموا له فرس النوبة فركب على سلم الحراقة التى بباب السلسلة والخليفة أمامه فطلع من باب سر القصـر الكبير وجلس على تخت المملكة وقـبل الأمراء الأرض بين يديه ودقت البشائر بالقلعة ونودى باسمه فى القاهرة ومصر فارتفعت له الأصوات بالدعاء وفرح الناس به فأنه كان بارا شفيقاً على الرعيـة ميالا إلى خير البلاد فلما كان وقت صلاة الجمعة من ذلك اليوم خرج السلطان الملك الأشرف طومان باى المذكور وصلى صلاة الجمعة وخطب به الشرف يحيى بن البردينى وخطب جميع الخطباء باسمه على المنابر فى ذلك اليوم بعد انقطاع الخطبة خمسين يوما من مصر والقاهرة وغيرهما.

وجـاء فى هذه الأثناء إلى القـاهرة بعض كبـار الأمراء الذيـن تخلفوا بدمـشق ومعهـم جماعة كثـيرة من كبار دمـشق وأعيانها فـرارا من إيذاء جند السلطان سليم فإنهم لما دخلوا دمشق عثوا وأفسدوا ونهبوا الدور وأخذوا كل ما وصلت إليه أيديهم فهاجـر الكثير من أهل دمشق وتفرقـوا وجاء منهم جماعـة إلى القاهرة. قال بعض أصحاب التاريخ: وكثر فـساد عسكر السلطان سليم فتطاولت أيديهم أيضا إلى نهب ما فى القرى المجاورة لدمشق فخرج لقتالهم الأمير ناصر الدين بن الخشن أحد كبار قبائل العرب فلاقاهم عند قابون واقتتل الفريقان قتالا عنيفا فانتصر عليهم ابن الخشن وقهقرهم وأعمل فيهم القتل بالسيف ثم تترس فى دمشق وجاءت الأخبار بذلك إلى السلطان طومان باى فـفرح وتقوّت عزائمه ونادى فى العـسكر المصرى الذى تخلف بالقاهرة لحـراستها بعـد خروج قانصوه بأن يتـأهبوا للخروج ثم عرضـهم وعين من الأمراء المقدمـين الذين تخلفو أيضا ستة أمـراء ثم رتب أمور الجند وولى عليهم من

شاء من الأمراء وعين أرباب الوظائف العالية والمباشرين وأمراء الطبلخاناه والعشراوات وغيرهم من أصحاب الوظائف الأخرى وكتب إلى ابن الخشن يستنهض همته إلى قتال السلطان سليم ووعده بولاية حمص وأتابكية الشام إن هو نال من العثمانيين وفرق شملهم وكثر الإرجاف فى هذا الحين واشتد خوف الناس ولم يخرج الحج فى هذه السنة وتعطلت مراسمه وجاءت الأخبار بعزم السلطان سليم على الزحف على غزة بجيوشه بعد أن ملك جميع الديار الشامية من الشام إلى الفرات وأقام الولاة والعمال ورتب الأمور على ما يشاء فلما علم السلطان الأشرف طومان باى بذلك نادى فى العسكر بالخروج إلى الريدانية وخلع على الأمير جان بردى وجعله مقدم هذه الحملة فخرج من يومه إلى الريدانية ونصب وطاقه وأكثر النداء فى العسكر فصاروا يخرجون تباعا والنداء متواصل والأخبارمترادفة بوصول طلائع جيوش السلطان سليم إلى سواد غزة وخرج أصحاب البنادق من الجند وأصحاب المكاحل وغيرهم وتقدم الأمير جان بردى بعسكره يريد غزة وتبعه بعض الأمراء بمماليكهم فالتقت بهم طلائع السلطان سليم على مقربة من غزة فقاتلوهم قتالا عنيفا ولازم كل فريق منهم مواقعه، فلما كان يوم الاثنين حادى عشر ذى القعدة قبض جواسيس السلطان الملك الأشرف طومان باى على جماعة من أصحاب السلطان سليم بطريق بركة الحاج وكانوا نحو خمسة عشر ومعهم شيخ كبير هومقدمهم وكان حضورهم من طريق الدرب السلطانى ولم يأتوا من طريق غزة لوقوف الأمير جان بردى بعسكره عند سواد غزة فلما جاءوا بهم إلى دار الأمير علان الدوادار الكبير أشاروا إلى الشيخ بأن يترجل عن فرسه ليدخل على الأمير فلم يقبل فبطحوه على وجهه وأوسعوه ضربا ومن معه وأمر بهم الدوادار فقيدوهم جميعا بالجديد وألقوهم فى السجن وفتشوهم فوجدوا مع ذلك الشيخ عدة رسائل لبعض الأمراء والمباشرين وأرباب الوظائف العالية بمصر ورسالة إلى السلطان الملك الأشرف طومان باى وهى غاية فى التشديد والغلظة وكلها سباب ووعيد وتهديد إلى أن قال له فيها : ولقد أوحى الله إلىّ بأن أملك جميع البلاد شرقا وغربا كما ملكها ذو القرنين وأن لا تكون كلمة فوق كلمتى ولا يد فوق يدى، وأما أنت فمملوك تباع وتشرى فلا تصح لك ولاية ولايجوز لك التسلط على الأحرار وقد أتت إلىَّ السلطنة على ديار مصر بعهد من أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة فان سالمتنا سلمت وأزلنا عنك البأس واضرب السكة باسمنا الشريف ثم اخطب لنا على المنابر قياما

بواجب السلطنة وقد وليناك بعد الطاعة عمالة مصر وملحقاتها إلى مدينة غزة فقط فإن أبيت الطاعة وأظنك فاعلا أتيت إلى مصر وقتلت جميع من بها من الشراكسة حتى الأجنة الذين فى بطون الأمهات وأمحو شأفتهم عن وجه الأرض، إلى أن قال: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ .

فلما قرئ هذا الكتاب على السلطان الملك الأشرف طومان باى بكى بكاء مرا وجمع إليه الأمراء وكلمهم فى الأمر ثم شدد فى خروج من بقى من العساكر وشاع خبر ما فى هذا الكتاب بين الناس فانزعجوا ونزح بعضهم إلى أطراف القاهرة وبعضهم إلى الصعيد الأعلى بأموالهم وعيالهم وعم الخوف جميع الرعية وامتنع من بقى من العساكر والأجناد من مماليك الطباق لا سيما المماليك القرانصة من الخروج إلى القتال إلا بعد النفقة وأن ينفذ لكل واحد منهم مائة وثلاثين دينارا فأخذ السلطان يلاطفهم ويسايرهم حتى قبلوا خمسين دينارا فجمع السلطان هذا المال من أولاد السلطان الملك الغورى وأولاد السلطان الملك المؤيد وأولاد السلطان الملك المنصور وجميع أولاد الأمراء الذين بالقاهرة ومصر ولم يحدث بسببه إحداثا على أهل البلاد كما كان يفعل غيره من الملوك والسلاطين إذا قامت الحرب من عدو خارجى، وفى هذه الأثناء جاء الخبر بوقوع القتال فى يوم الأحد سابع عشرى ذى القعدة بين العساكر المصرية وعساكر السلطان سليم تحت أسوار مدينة غزة واشتد شدّة بالغة ثم انكشف عن هزيمة المصريين وفى رواية أن هذه الوقعة كانت بناحية بيسان فساق عسكر السلطان سليم خلف العسكر المصرى وأكثروا فيهم القتل والطعن فمات منهم خلق كثير وخرج الأمير جان بردى مقدم الجيوش المصرية والأمير أزرمك الناشف أحد الأمراء المقدمين وغيرهما من كبار الأمراء والمباشرين وغنموا ما كان معهم من سلاح وكراع وخيول وجمال ومات الأمير علىّ باى السيفى الدوادار أحد أمراء الطبلخاناه وتشتت من بقى من المصريين وتمزق شملهم فلما كان يوم الاثنين خامس المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة دخل من بقى من العسكر إلى القاهرة وهم فى أتعس حال فكان أول من دخل الأمير جان بردى مقدم الحملة والأمير أزرمك الناشف وبعض أمراء العشراوات والعساكر والغلمان والأتباع فأخبروا بما نالهم من عساكر السلطان سليم وبالغوا وهولوا وملئوا القلوب خوفا ورهبة من سطوة السلطان سليم وشدة بأس عساكره وأنهم دخلوا غزة وملكوها وأتى مع من حضر أيضا والى غزة المسيحى دولت باى فاشتد غم السلطان الملك الأشرف وحار

فى أمره ووصلت طلائع الجيوش العثمانية إلى قطيا وقد أباح لهم السلطان سليم مدينة غـزة أياما فقتلوا فيها وأراقوا الدماء وأفحشوا فى القتل حتى فى الأطفال والصبيان تشفيا وانتقاما وكان فتح غزة على يدى سنان باشا أحد كبار عسكر السلطان سليم .

واهتم السلطان الملك الأشرف بإعداد المعدات وجمع الذخيرة فجمع منها شيئا كثيرا وسيرها مع بعض طوائف الجند من المماليك وأخلاط الناس من سود ومغاربة وغيرهم وأخرج عدة عجلات تجرها الأبقار وعليها المكاحل النحاس وساروا إلى الريدانية ونزلوا على مقربة من تربة العادل ورسم السلطان بتسليم قيادة هذا الجيش إلى الأمير سودون الدوادار فتقيد عندئذ بخروج الجند وإخراج المعدات وبرز بهم إلى الريدانية وبث العيون والأرصاد لتأتى إليه بالأخبار فأعلموه بأن السلطان سليم خرج من دمشق يريد الديار المصرية وقد قسم عساكره إلى فرقتين فسير أحداهما من طريق الدرب السلطانى وثانيتها من طريق التيه وهو طريق البرية التى سلكها بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام عند خروجهم من أرض مصر فسير سودون الخبر بذلك إلى الأشرف بالقاهرة فجمع الأشرف الأمراء وحثهم على الخروج إلى الريدانية فخرجوا وعسكروا بها وتابع الأمير سودون استطلاع الأخبار فعلم أن العدو وصل إلى مدينة غزة وأن السلطان سليم عرَّج فى نفر قليل إلى زيارة بيت المقدس ومقام الخليل إبراهيم وأحسن إلى من بالبيت وعاد ولما كان يوم الاثنين تاسع عشر ذى الحجة نزل السلطان الملك الأشرف ومعه الأمير قاسم ابن أخى السلطان سليم من قلعة الجبل فى عدَّة وافرة من الجند والغلمان وساروا إلى الريدانية وأقام السلطان بالمصطبة التى بها المعروفة بالمطعم ورسم بترتيب العساكر ووضع المكاحل واستعد للقاء السلطان سليم بالصالحية فمنعه الأمراء وقالوا لا نقاتله إلا بالريدانية فراجعهم فلم يقبلوا فألح عليهم فامتنعوا فأجابهم كارها ورسم بعمل خندق من سبيل علان إلى الجبل الأحمر وإلى منتهى مزارع المطرية فعملوه ووضعوا عليه الطوارق والمكاحل وأتى إلى الريدانية الكثير من القصابين والخبازين والبياعين على اختلافهم وخيموا هناك وأرسل الأشرف الأمير قانصوه العادلى الذى كان كاشف الشرقية ليستكشف خبر مجىء السلطان سليم بجيوشه إلى قطيا فعاد فى يوم الأحد خامس عشرى الشهر ومعه رأسا شخصين من عساكر السلطان سليم ورجل من أبناء حلب كان فى خدمة الأمير خير بك واليها الذى انضم إلى عسكر السلطان سليم وكان هو سبب هزيمة المصريين

وموت السلطان كما تقدم بيان ذلك فى محله وكان قانصوه المذكور لما وصل إلى الصالحية وجد أن طائفة من عسكر السلطان سليم قد دخلتها وأخذت منها بعض المؤنة وعلائف الدواب الحمل فقبض على اثنين منهم واحتز رأسهما وقبض على ثالث وهو من أتباع خيربك وأتى بالرأسين والرجل إلى الأشرف بالمصطبة فسأل السلطان ذلك الرجل عن أحوال عسكر السلطان سليم ووجدوا معه عدة رسائل من خيربك إلى بعض الأمراء المقدمين بمصر فألقوه فى السجن مقيدا بالحديد وأخفوا عن الناس خبره وخبر تلك الرسائل .

وكان السلطان سليم كلما مر ببلد أو قرية أوقصبة فى طريقه أحسن إلى أهلها فيهرب من بها من الشراكسة أو يختفى ويتنكر وما زال على هذا الحال حتى وصلوا بلبيس ومنها جاءوا إلى العكرشة فلما علم الأشرف بوصولهم إلى الكرشة هم بأن يلقاهم بها ويقاتلهم على ما هم فيه من التعب والجوع فلم تمكنه الأمراء من ذلك وقالوا لا نقاتلهم الآن وكأنهم كانوا على عهد مع السلطان سليم فى ذلك فلما لم يقاتلوه وأفسحوا له فى الأجل سار بعسكره من غير ممانع حتى دخل الخانكاه فخرج أهلها على وجوههم إلى القاهرة مولولين فرسم والى القاهرة بغلق الأبواب الكبرى فغلقوا باب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب البحر وباب القنطرة وغيرها من الأبواب وأغلقت أسواق المدينة وتعطلت الطواحين فقل الدقيق والخبز من الأسواق واشتد الجوع بالفقراء، ولما كان يوم الخميس تاسع عشرى ذى الحجة قام السلطان سليم بعسكره من بركة الحاج إلى الجبل الأحمر فقام للقائه الأشرف وصمم على القتال بغير مهل والتقى الفريقان فاقتتلا قتالا عنيفا فقتل من عسكر السلطان سليم عدة وافرة وقتل سنان باشا أحد مقدمى جند السلطان سليم فحزن عليه السلطان حزنا عظيما . قال بعض الكتاب: حتى أنه قال وأى فائدة لى فى مصر بعد يوسف يريد (سنان باشا المذكور) واشتد السلطان سليم على عساكره وقسمهم إلى قسمين وسير أحدهما من خلف الجبل الأحمر وزحف بالثانى نحو الريدانية حيث معسكر السلطان طومان باى ثم انضم القسمان وأعملا القتل برمى البنادق والمكاحل واشتد الرمى وتراسل على العساكر المصرية فلم تكن إلا ساعة أو بعض ساعة حتى قتل أكثر الأمراء المصريين وعدد عديد من العساكر والأجناد فتمت هزيمة المصريين وفر من بقى منهم يريد النجاة ووقف الأشرف طومان باى يقاتل الأعداء مقاتلة الأسود الطوارى وحوله نفر من العبيد الرماة والمماليك السلحدارية ثم عمد بعد ذلك إلى

الفرار ففر إلى طرا ودخلت العساكر العثمانية إلى القاهرة فعاثوا وقتلوا ونهبوا وحرقوا وخربوا جميع بيوت الأمراء وأخذوا ما فى الحواصل والأشوان ولبثوا على هذا الحال اليوم كله فكان يوما عبوسا قمطريرا فقال فى ذلك الشيخ بدر الدين الزيتونى :

يبكى على مصر وسكانها قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهورة من بعد ما كانت هى القاهرة

وأصبح يوم الاثنين سلخ ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة فدخل القاهرة أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله ومعه بعض كبار الأمراء من أصحاب السلطان سليم وطائفة كثيرة من عسكره ودخل معه الأمير خيربك والى حلب وقاضى القضاة الشافعية كمال الدين الطويل والقاضى المالكى محيى الدين الدميرى والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى وكان دخول الخليفة المتوكل على الله من باب النصر فشق القاهرة وأمامه المناداة على الناس بالأمن والأمان والبيع والشراء والتحذير من إخفاء أحد من المماليك الشراكسة والدعاء للسلطان المظفر سليم خان فلم يسمع الناس النداء ضجوا بالدعاء، قال بعض كتاب الأخبار: ومع ذلك لم تكن العساكر لتكف عن النهب وقتل النساء والأطفال والقبض على كل من وجدوه من المماليك فكانوا إذا قبضوا على أحد منهم ساروا به إلى الريدانية حيث السلطان فيذبحونه بين يديه ويحتزون رأسه ويعلقونه حتى كثرت الرمم وانتشرت من الريدانية إلى سفح الجبل الأحمر إلى مزارع المطرية ولبث الحال على ذلك ثلاثة أيام كاملة والناس فى هول ولا هول القيامة، وخطب فى ذلك اليوم للسلطان سليم على منابر مصر والقاهرة وقد بالغ بعض الخطباء فى خطبته فقال: وانصر اللهم السلطان ابن السلطان ملك البرين والبحرين وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه اللهم انصره نصرا عزيزا وافتح له فتحا مبينا يامالك الدنيا والآخرة يارب العالمين فسر السلطان سليم بذلك سرورا عظيما.

وأرسل السلطان جماعة من الانكشارية فقيدهم بحراسة الأبواب ومنع العسكر من العبث ونهب البيوت فمنعوهم وسكنت خواطر الناس قليلا وأرسل السلطان خلف المعز الناصرى محمد ابن السلطان الغورى فلما حضر بين يديه خلع عليه

وألبسه قفطانا مخـملا مذهبا وألبسه عمامة عثـمانية ورسم له بأن يسكن فى مدرسة أبيه التى أنشأها فى الشرابشيين وعين بعض الكشاف للأقاليم القبلية والبحرية وخلع على الزينى بركات بن موسى وجعله يتحـدث على الحسبة ونزل السلطان سليم فى يوم الأحد ثانى المحرم افتتاح سنة ثلاث وعـشرين وتسعمائة من الريدانية إلى بولاق ونصب خـيامه بهـا من تحت الرصيـف إلى آخر الجزيرة الـوسطى وقد أحـضروا له مفاتيـح قلعة الجبل فلم يلتفت إليـها ولا أحلها محـلا ثم دخل فى ثانى يوم القاهرة من باب النصـر وشق المدينة فى مـوكب حافل للغـاية وأمـامه الجنائب والعـساكـر والأجناد وطوائف الغلمان وهو فى هيـبة و جلالة عظيمـة ثم رجع إلى بولاق وأقام بوطاقة يرتب الأمور ويفرق المناصب بين قومه وقد ظن موت السلطان الملك الأشرف طومـان باى مع من قتلوا فى الـوقعـة وتمزيق شمل من بقـى من العسـاكر المصـرية واطمأن لذلك قلبه فلم يلتفت إلا إلى تنظيم الأحوال وترتيب الأمور على ما تقتضيه مصلحة الرعيـة وكان من الأمور بعد ذلك ما سيتلى عليك مفـصلا فى الجزء الثالث إن شاء الله تعالى.

تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث مبتدئا بمختصر تاريخ ملوك آل عثمان

قبل فتح مصر بالجيوش العثمانية ثم ماجرى بعد دخول

السلطان سليم بجيوشه إلى القاهرة إلى ظهور

الحاج محمد علي باشا الكبير

وولايته